

ركائز القدوة فى تفسير الدعوة

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

(۲)

(٣)

(١١)
ركائز القدوة
في تفسير الدعوة

(٤)

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م

﴿حقوق الطبع محفوظة للمؤلف﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

(٦)

المجلد الحادى عشر
يشمل هذا المجلد تفسير

- سورة "الروم".
- سورة "لقمان".
- سورة "السجدة".
- سورة "الأحزاب".
- سورة "سبأ".
- سورة "فاطر".
- سورة "يس".
- سورة "ص".

(^)

(٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،

فإنى أتوجه بالشكر الخالص لله تعالى على ما أنعم به علي وتفضل في كافة شئون حياتي ... وبخاصة إعنته لى في الانتهاء من المجلد العاشر من مؤلفي .

"ركائز القدوة في تفسير الدعوة"

إنى أشعر بالرضا ، وتغمرنى السعادة ، وأجد نفسى أمام فيض إلهي ، يحيطنى نوره ، ويشملنى هداه ، ويحببنى في مواصلة السير في رحاب كلام الله تعالى ، والاستفادة بنوره العظيم .

لقد أعطانى الله مالا أنفقه ، وجهدا أبذله ، وعمرأ أقضيه مع تفسير القرآن الكريم ، وأملا في وضع تفسير للدعاة يأخذون منه ركائز الريادة ليقودوا الناس بها إلى الله تعالى ، وغايتى نشر الخير ، ووضع الدعاة في موطن الريادة والقدرة ، واعتمادى على الله كبير ﴿ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾^(١) .

(١) سورة هود ، الآية ٨٨ .

(١٠)

إن من أمانى العذاب أن أتم هذا التفسير وأن تتحقق الغاية منه ، وأن يكون بداية اهتمام من العلماء والدعاة لتصير الدعوة إلى الإسلام هي الهدف الاسمى ، وينتشر دين الله فى العالمين ، وأملى فى الله العون والتوفيق .

إن ما أمدنى الله به من فضل وعون طوال عمرى يؤملنى فى مستقبل حسن يقدره الله لى ... ويجعلنى أحلم ، وأتمنى ، وأمل فى الله تعالى الخير كله وأسأله العون والسداد فى إتمام هذا التفسير الذى أرجوا له أن ينفع الله به ، ويجعله ذخرا لى عنده ، وأن يوسع به قبرى ، وينور مستقبلى ، ويسعدنى بصحبة المصطفى ﷺ ، وبرؤيته فى الآخرة سبحانه وتعالى .

إنى ربى رحيم ودود ، وأنا عبده الخاشع المستسلم ، الذليل ، وقد أطمعنى فيه كرمه ، وكلما أعطانى أطمع فى المزيد وألح فى رجاء القرب والتوفيق ، واجتهد على أن تكون حياتى شكرا لله لثقتى فى قوله تعالى : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١) .

رب :

إنى فقير محتاج إلى خيرك ، فيسره لى ، وقدره لى .

رب :

إن الناس قد ألهم مغريات الدنيا ، وأبعدتهم عن الصواب ، فأعد إليهم رشدهم ، وبصرهم بالحق ، وحببهم فى الإيمان بك واتباعك .

رب :

إن عبادك المؤمنين يعملون لك فكن لهم نصيرا ، وأعنهم على عدوك وعدوهم ، واحفظهم بحفظك ، واعل شأنهم .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٧ .

(١١)

رب :

إن الشيطان قد كثر أنصاره ، وتعدد مكره ، وتتوعد أساليبه فأنزل وطأتك عليه وعلى من اتبعه .

رب :

ألهمني الرشd والسداد ، وخذ بيدي إلى الصدق والاصلاح ، ولا تجعلني في القوم الظالمين .

رب :

إنى ضعيف فقونى ، جاهل فعلمنى ، مثقل بالذنوب والآثام ، فاغفر ذنوبى ، واستر عيوبى ، وأجبر عثراتى ، وأخرجنى من الظلمات إلى النور .

رب :

لا تكنى إلى نفسى طرفة عين ، ولا أقل من ذلك ، ونقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس .

رب :

إن أبنائى هم أهلى وذريتى فاكرمنى بصالحهم ، وأهدهم إلى صراطك المستقيم ، واجعلهم من عبادك الصالحين .

رب :

اغفر لمن لقيك من أبنائى ، واصلح من عاش منهم ، واجمعنى بهم فى جنات النعيم ، متمتعين برضاك ورضوانك .

رب :

أنت الأول فلا شئ قبلك ، وأنت الآخر فلا شئ بعدك ، وأنت صاحب الفضل والكرم .

(١٢)

ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

غرة المحرم ١٤٣٤هـ
م.نصر في }
١٥ نوفمبر ٢٠١٢م

التعريف
بِسُورَةِ "الرَّومِ"

(١٤)

التعريف بسورة "الروم"

يحتاج التعريف بسورة "الروم" إلى معرفة المباحث التالية :

- أولا -

الإحاطة بجو نزول سورة "الروم"

سورة "الروم" هي السورة الوحيدة التي سميت باسم أمة أخرى غير أمة العرب ، في وقت لم يخرج المسلمون فيه من مكة ، ولم ينتشر الإسلام في العالم ، ولم يحدث صدام مع الفرس أو الروم .
لقد نزلت السورة والدعوة منحصرة في مكة ، والجدل دائر بين المسلمين والمشركون فيها .

لقد اتخذ مشركو مكة من الفرس روادا لهم لأنهم يشبهونهم في الشرك وعبادة غير الله تعالى ، فتباهوا بانتصارهم على الروم الذين يؤمنون بالنصرانية وبما جاءهم من كتاب ورسول ، وعدوا ذلك فألا حسنا ، ودليلا على انتصار الشرك على التوحيد ، وإشارة إلى انهزام محمد والمسلمين معه أمامهم .
وتحركات العواطف الإيمانية لدى المسلمين فتألموا لهزيمة الروم ، وحزنوا من شماته المشركون بهم .

فطمأنهم الله تعالى ، وعرفهم بأن انتصار الفرس لن يدوم ، وسوف يهزمون في بضع سنين ... وأكد لهم أن النصر بيد الله يؤتيه من يستحقه من عباده ، وبين أن أمر الإسلام ، وانتصاره على الشرك هو أمر وقت فقط وسينتصر الإسلام في مكة ، وستكون مكة عاصمة الإسلام ، ودرته إلى يوم القيامة .

وقد سر المسلمون بهذه البشرى حتى أن أبا بكر رضي الله عنه ذهب إلى المشركون وتحداهم ، وراهنهم ، ثقة في وعد الله تعالى ، واضعافا للمشركون حتى لا يغتروا بانكسار أهل التوحيد من الرومان .

(١٦)

وقد نزلت الآيات لبعث الثقة في المسلمين ، ولتأكيد أن الأمر كله بيد الله وحده ، وأن وعده بنصر المؤمنين حق لا يتخلف ، وتوضيح ضرورة الأخذ بالأسباب العادية ليتمكن الله لهم بما في قلوبهم ، وعزيمتهم من خير .

ولما نزلت الآيات زاد إيمان المؤمنين بوعده الله ، وتيقنوا من معية الله تعالى لهم ... وبذلك زاد إيمانهم وعملهم ، وتحملوا المشاق ، والمكاره ، والآلام من أجل الوصول إلى المستقر الآمن في الدنيا وفي الآخرة .

ولم تقف الآيات عند حد البشرى بل عرفت المسلمين بفضل الله عليهم ، واحاطته الشاملة بهم ، وفصلت لهم الآيات الكونية والإنسانية التي جعلها الله للناس ليؤمنوا ، ويستعدوا ليوم اللقاء عند الله تعالى .

- ثانيا -

تنزيلات السورة

سورة "الروم" سورة مكية بالإجماع ، وشذ من ذكر أن الآية رقم (١٧) وهى قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ مدنية لأنها تشير إلى الصلاة المفروضة فى الصباح والمساء ، لأن الصلاة فرضت فى مكة ركعتين فى أى وقت ، والآية لا تتكلم عن فرضية صريحة للصلاة .

وعدد آيات السورة عن أهل مكة والمدينة تسع وخمسون آية وعند أهل الشام والبصرة والكوفة ستون آية .

وقد نزلت سورة "الروم" بعد سورة "الانشقاق" .

- ثالثا -

اسم السورة

للسورة اسم واحد هو سورة "الروم" لذكر اسم الروم فيها ، ولم يذكر هذا الاسم فى غيرها .

- رابعا -**موضوعات السورة**

نزلت سورة "الروم" بمكة مبتدئة بذكر الصراع بين الروم وبين الفرس وبيان أثره في مكة بين المشركين وبين المسلمين ، مبشرة بانتصار الروم بعد بضع سنين .

وأكدت السورة حقيقة أقوى الروابط بين الناس ، وهو الرباط الديني لأن المسلمين فرحوا بانتصار الروم لأن لهم دين ، ولهم كتاب منزل ، وفرح مشركو مكة بانتصار الفرس لأنهم يعبدون النار ، ولا دين لهم .

وتتطلق السورة من تأكيد هذه الحقيقة إلى عرض قضايا العقيدة كلها ، فتورد كثيرا من الآيات الدالة على صدق عقيدة التوحيد ، ومنهجها المستقيم في التعبد لله وحده ، وتعيش الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى مع الإنسان في نشأته الأولى ، وتكاثره من خلال أسرة فيها السكن والمودة ، وتمتعه في كون الله المحيط وتيسير شئونه في الليل والنهار في يقظته ومنامه ، وتربط هذه الآيات الإنسان بالله ، وتعرفه بأن الله مالك كل شئ يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَبِيلٌ ۖ ﴾ ^(١) وهو سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۚ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۖ ﴾ ^(٢) ، وتتحدث الآيات عن الرسل وتبين أن الله أرسل للناس رسلا عديدين . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا ۖ وَكَانَ

(١) سورة الروم ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٤٠ .

حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ وتهتم السورة بقضية البعث اهتماما كبيرا ،
وتعرضه فى آيات عدة . فيقول سبحانه :

- ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢) .

- ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَنُفِى الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (٣) .

وتأتى بقية أركان العقيدة ضمن الحديث عن التوحيد وارسال الرسل ووقوع
البعث لأن هذه الأركان تتضمن إيماننا بالكتب والملائكة .

- خامسا -

وسائل السورة فى عرض الدعوة

نلاحظ أن سورة "الروم" فصلت فى الآيات الإنسانية والكونية الدالة على
وجود الله وقدرته ، وقد خاطبت الإنسان بهذه الآيات ، ودعته إلى أن يتأمل فى
نشأته وحياته ليعرف الله تعالى .

وضربت له الأمثال الكثيرة الواقعية فى نفسه ، وعبيده ، وقدمت له
الأساليب العديدة ليستفيد بها .

ولعل أوضح ما اهتمت به السورة هو الدعوة إلى النظر فى أخبار
السابقين والسير فى الأرض ، والتأمل فى الماضى ليعرف العقلاء بذلك الحق
ويستقيموا على منهج الله تعالى .

(١) سورة الروم ، الآية ٤٧ .

(٢) سورة الروم ، الآية ١١ .

(٣) سورة الروم ، الآية ١٩ .

سورة "الروم"

التفسير

(٢٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

انتصار الروم على الفرس

يقول الله تعالى :

﴿ اَلَمْۤ اَغْلِبْ اَلرُّومَ ﴿١﴾ فِىۤ اَدْنٰى اَلْاَرْضِ وَهُمْ مِّنۢۢ بَعْدِ عَلٰیہِمۭۡ سَیَغْلِبُوۡنَ ﴿٢﴾ فِىۤ بَضْعِ سِنِیۡنَ ۖ لِّلّٰهِ اَلْاَمۡرُ مِنْۢۢ قَبْلُ وَمِنْۢۢ بَعْدُ ۚ وَیَوۡمَیۡذِ یَفۡرَحُ اَلْمُؤۡمِنُوۡنَ ﴿٣﴾ بِنَصۡرِ اللّٰهِ ۚ یَنۡصُرُهُۥ مَنۢۢ یَّشَآءُ ۚ وَهُوَ اَلْعَزِیۡزُ الرَّحِیۡمُ ﴿٤﴾ وَعَدَ اللّٰهُ ۚ لَا یُخَلِّفُ اللّٰهُ وَعَدَہٗ ۚ وَلٰکِنۡ اَکْثَرَ النَّاسِ لَا یَعْلَمُوۡنَ ﴿٥﴾ یَعْلَمُوۡنَ ظَہِرًا مِّنۢۢ الْحَیۡوَةِ الدُّنۡیَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ ہُمْ غَافِلُوۡنَ ﴿٦﴾ ۝﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

ذكر المفسرون أنه كان بين فارس والروم قتال ، وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم ، لأن فارسا كانوا مجوسا أميين ، والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب ، فبعث كسرى جيشا إلى الروم ، واستعمل عليهم رجلا يقال له "شهرمان" ، وبعث قيصر رجالا وجيشا وأمر عليهم رجلا يدعى "بخين" ، فالتقيا بأذرعات وبصرى فى أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم فغلبت فارس الروم ، فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق عليهم ذلك ، وفرح به كفار مكة ، وقالوا للمسلمين : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، ونحن أميون ، وفارس أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله هذه الآيات فخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى كفار مكة فقال : فرحتم بظهور إخوانكم ، فلا تفرحوا فوالله ليظهرن الروم على فارس .

أخبرنا بذلك نبينا ﷺ فقام إليه أبي بن خلف الجمحي فقال له : كذبت .

(٢٢)

فقال أبو بكر رضي الله عنه : أنت أكذب يا عدو الله .

فقال أبي : اجعل بيننا أجلا أراهنك عليه ، أراهنك على عشر قلائص منى ، وعشر قلائص منك ، فإذا ظهرت فارس على الروم غرمت ، وإذا ظهرت الروم على فارس غرمت ففعلوا ، وجعلوا الأجل ثلاث سنين .

فجاء أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك .

فقال له ﷺ : ما هكذا ذكرت ، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر ، ومادده في الأجل .

فخرج أبو بكر فلقى أبيا فقال له أبي : لعلك ندمت !!

فقال أبو بكر : لا فتعال أزايدك في الخطر ، وأماددك في الأجل فاجعلها مائة قلووص ، ومائة قلووص إلى تسع سنين .
فقال أبي : قد فعلت .

فلما خشي أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتااه ولزمه وقال : إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لى ضامنا كفيلا ، فكفله ابنه عبد الله بن أبي بكر .
فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى أحد أتااه عبد الله بن أبي بكر فلزمه ، وقال له : والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلا ، فأعطاه كفيلا ، ثم خرج إلى أحد قال : ثم رجع أبي بن خلف إلى مكة ومات بها من جراحته التي جرحه النبي ﷺ حين بارزه ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، وذلك على رأس سبع سنين من مراهنتهم وربطت الروم خيولهم بالمدائن ، وبنوا بالعراق مدينة وسموها رومية فقمر أبو بكر أبيا ، وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به للنبي ﷺ وذلك قبل أن يحرم القمار فقال النبي ﷺ : تصدق به^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٠١ .

(٢٣)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات ما حدث بين المسلمين ومشركى مكة حينما انتصر الفرس على الروم ، وتبشر المسلمين بنصر الروم ، وتؤكد وعد الله لهم بالنصر والتمكين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ اَلَمْ ﴾ هذه هي الآية الأولى في سورة "الروم" ، وهى حروف مقطعة تفسر بما فسر به أشباهها من الآيات السابقة ، وهى حروف تثبت صدق القرآن الكريم ، وتؤكد أنه كلام الله تعالى ، وتتادى الغافلين لينتبهوا ، ويستفيدوا بكلام الله تعالى ، ويتبينوا حكمه وأسراره .

﴿ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ في أدنى الأرض ﴿ أى انهزمت الروم أمام الفرس عند أقرب مكان في أرض الروم من جزيرة العرب ، والصراع والحرب بين الفرس والروم صراع ثابت وقديم لمحاولة كل أمة هزيمة الأمة الأخرى . والروم أمة معروفة ظهرت قبل الإسلام ، وتكونت من اليونان ، والصقالبة ، ومن الرومانيين الذين أصلهم من اللاتينيين سكان بلاد إيطاليا الذين نزحوا إليها من أطراف شرق أوروبا .

تكونت هذه الأمة المسماة بالروم من هذا المزيج ، فجاءت منها مملكة تحتل قطعة من أوروبا ، وقطعة من آسيا الصغرى ، وهى بلاد الأناضول . وقد أطلق العرب على مجموع هذه الأمة اسم الروم ، تفرقة بينهم وبين الرومان اللاتينيين ، وسموا الروم أيضا بنى الأصفر كما جاء فى حديث أبى سفيان عن كتاب النبى ﷺ المبعوث إلى هرقل سلطان الروم وهو فى حمص من بلاد

الشام إذ قال أبو سفيان لأصحابه : "لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر" (١) .

وقد أقام الروم امبراطورية كبرى في مواجهة الأمة الكبرى الثانية الفرس وجعلوا بلاد العرب مكان حروبهم وقتالهم ، فانقسم عرب الشمال في الشام والعراق بين الامبراطوريتين ، حيث تبع الغساسنة الروم ، وتبع المناذرة الفرس وكانت الحرب تقع في هذه المنطقة العربية في شمال الجزيرة العربية .

وأما بلاد اليمن والجنوب فقد تداول الفرس والروم عليه ، فأحيانا يسيطر الروم عليه ، ويجعلونه ولاية تابعة للحبشة ، وأحيانا يسيطر الفرس عليه ، ويجعلونه ولاية تابعة للفرس .

وأما قلب الجزيرة فلم يهتم به الفرس أو الروم ظنا منهم أنه لا فائدة فيه وأنه مجموعة من البدو في صحراء قاحلة .

والمراد بـ ﴿ أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ أبعد مكان في امبراطورية الروم عند حدود الغساسنة من بلاد العرب .

و "ال" في ﴿ الْأَرْضِ ﴾ للعهد الذهني أى انهزم الروم عند النقطة التى تفصل ولاية الغساسنة عن بلاد الحجاز ، وهى الأقرب للفرس ، ويحددها الجغرافيون بأنها بلدة "أذرعات" بالأردن .

﴿ وَهُمْ ﴾ أى الروم ﴿ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ ﴾ أى من بعد هزيمتهم من الفرس ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ أى سينتصرون على الفرس ويهزمونهم ، وكان من تمام المنة للمسلمين أن ينهزم الفرس عبدة النار ، وينتصر الروم اتباع المسيح ﷺ .

﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ أى سينتصر الروم بعد بضع سنين ، والمراد بالبضع العدد من ثلاثة إلى تسعة .

ولم يحدد الله وقت النصر لأن شأن العظيم الحكيم أن يكتفى بذكر المقصود إجمالاً ، ولا يكثر من حشو التفاصيل ، وقد أخذ المسلمون يتربون نصر الروم في كل وقت ، ولم ييأسوا إن تأخر إلى نهاية البضع . وقد تحقق انتصار الروم في بضع سنين فتأكد الإعجاز في أخبار القرآن الكريم الصادقة ، أمام المسلمين ، والمشركين ، والفرس ، والروم ، وهو دليل لكل هؤلاء ليدخلوا في الإسلام .

﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أى الشأن والتقدير كله لله تعالى من قبل هزيمة الروم ، ومن بعد انتصارهم ، فقد الله ممتد منذ الأزل ، ومستمر إلى الأبد ، فقد نصر رسله وأوليائه منذ كانوا ، وسيدوم نصره وعونه للمؤمنين إلى يوم القيامة .

وتقدم الجار والمجرور ﴿ لِلَّهِ ﴾ لبيان اختصاصه سبحانه وتعالى بالأمر كله دون أحد من عباده .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى يوم تغلب الروم الفرس يفرح المؤمنون بنصر آخر أعده الله تعالى لهم ، فقد انتصروا على أهل مكة يوم الحديبية ، وأغاثوهم ، وفى نفس الوقت صاروا يؤملون أكثر في انتصار الإسلام ، وانهزام الشرك ، والله الأمر كله ينصر من يشاء ، ويهزم من يشاء لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى ، فهو الغالب الذى لا يقهر ، الحكيم الذى يقضى في كل أمر بما يناسبه ، الرحيم المعين لعباده .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴾ أى أن الله وعد بنصر الروم على الفرس ، مع أنهم مغلوبون عند الوعد ، لأن وعد الله لا يتخلف ، والمؤمنون يتيقنون من هذا ، ويصدقون وعد الله تعالى ، إلا أن كثيرا من الناس لا يعلمون حقيقة الله ، ولا يؤمنون بصفاته ، ويبنون الأحكام على رؤيتهم العقلية القاصرة ، ويجعلون للنصر أسبابا مادية ، وجهلوا أن نصر الله لا يحتاج للأسباب التى يرونها .

إن نصر الله يأتى لمن يستحقه من عباده وفق نواميس إلهية علمها المؤمنون ، وتمسكوا بها .

لابد للنصر من قوة إيمانية دافقة ، وجهد مبذول ، وتوكل على الله والتجاء إليه ، وبذلك تختفى الأسباب المادية ، وتنطلق الأسباب الإيمانية لتحقيق النصر ، ولابد للنصر من جماعة مؤمنة تستحقه ، وتبذل طاقتها من أجله .
إن نصر الله لا ينزل للكسالى ، أو المنافقين ، أو الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا . يقول الله تعالى :

- ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ

مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (١) .

- ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ

الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (٣) .

(١) سورة الفتح ، الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٤٩ .

(٣) سورة محمد ، الآية ١١ .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى أن هؤلاء المشركين يعرفون أمورا تعلموها في شئون الحياة الدنيا مثل القيام بالتجارات ، وإنشاء المساكن وتشبيد الحصون والكبارى ، وزراعة الأرض ، وإقامة الجيوش ... وغير ذلك مما يحتاجون إليه في الحياة الدنيا ، وقد يتولون أرقى مناصب السلطة ، وأخطر مهام الحياة الدنيا .

﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى إن علمهم وتفوقهم قاصر على شئون الحياة الدنيا . أما شئون الآخرة فهم لا يعلمون شيئا عنها ، ولا يؤمنون بها ، ولا يؤمنون بالله مدبر لهذا الكون الكبير .
إن هذه الغفلة تعنى عدم تصور اليوم الآخر ، وعدم الإيمان بالله الخالق وعدم التدبر في أسرار الوجود ، وعدم ربط الأدلة بما تدل عليه .

إن هذه الغفلة تطمس معالم الإدراك في الإنسان ، فهو يرى المحسوسات ويفهم المعقولات ، ويحاول بحسه وعقله أن يستنتج من عناصر الكون ما يستفيد به ... ولا يربط ما يرى بموجده وخالقه .

ومن هذا المفهوم استمر كثير من الزعماء ، والعلماء على كفرهم وشركهم ، وتصوروا الإيمان جانبا من اللهو واللعب يريحون به أرواحهم وعواطفهم .
ويتعجب الإنسان وهو يرى زعماء وملوكا يحكمون أمما كبرى ، ويصلحون سياستها ، واقتصادها ، ومع ذلك يعادون الله ، ويعبدون غير الله تعالى ، ويتصورون الألوهية حيوانا أو حجرا ... أو غير ذلك ... ولا تفسير لذلك إلا الغفلة والضلال .

إن المؤمنين مع قلة عددهم يتمتعون بما خلق الله في كونه الكبير ويجعلونها دليلا للإيمان بمن خلقها ، ويجعلون معاشهم وسعيهم في كون الله

(٢٨)

الذى آمنوا به ، وانقادوا له ، ويقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ
فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(١) .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله ينصر المؤمنين به ، وقد وعد سبحانه وتعالى بنصر
الروم بعد هزيمتهم من الفرس ، والمؤمنون يعلمون أن وعد الله لا يتخلف ، ولذا
آمن المسلمون بنصر الروم وهم في مكة ، وراهنوا على ذلك لعلمهم ، ويقينهم
بوعد الله ، أما غير المؤمنين الله فهم غافلون عن الآخرة لا يؤمنون بها ولا
يصدقون بالله تعالى ، وكان هذا سبب ضلالهم وكفرهم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

مداومة الذكر إحياء للروح

خلق الله الإنسان مكونا من جسد ، وعقل ، وروح ، وأوجد سبحانه وتعالى
لكل عنصر ما يزكيه ، وينميه . فقدر تنمية الجسد بالطعام والشراب ، وجعل
نماء العقل بالفكر ، والثقافة ، والنظر ، والبحث ، وجعل حياة الروح في مداومة
ذكر الله ، وتذكر نعمه وأفضاله .

وقد دعت الآيات إلى تنمية الحياة الروحية بمداومة ذكر نعم الله تعالى ،
ومعرفة أنه الناصر والمعين ، وأن بيده ملكوت السماء والأرض ، وأن الأمر كله

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

منه واليه ، فهو منزل الكتاب ببيانه المعجز ، وأسلوبه الحلو الطلي ، وفوائده الجمة ، وهو سبحانه الذى يقدر للروح سعادتها وفرحها ، ويضمها إلى رحاب نوره ، وجلال قدرته وعظمته .

إن تسليم الروح بعموم علم الله تعالى ، وسعة قدرته ، وبالغ رحمته يضعها فى موطن الرضا والسعادة ... واستقامة العبد على تعاليم دين الله يحقق الراحة والهدوء لكافة عناصر الإنسان .

إن إحياء الروح بالذكر يحتاج إلى نشاط الجوارح فى الطاعة ، والى انبعاث العقل بالفكر ، وبذلك يتحول الإنسان إلى كيان ربانى متوازن لا يسعد إلا بالطاعة ، ولا يعلو إلا بالربانية التى تشمل كيانه كله .

الركيزة الثانية

المؤمنون يد واحدة

الفرس والروم أمتان متقابلتان قبل المبعث عاشا فى صراع وقتال على الحدود الشمالية لجزيرة العرب ، وبرغم فساد ما كانا عليه من دين ومذهب . فقد انحاز المسلمون للرومان ، وتمنوا انتصارهم لأنهم يرمزون للتوحيد بصورة مجملّة ضد الفرس الذين يعبدون الأصنام ، والنار ، وكسرى ... وفى هذا دلالة على إن الإيمان قوة تجمع المؤمنين فى إطار شامل ، يوحد شعورهم وأمانيتهم ، ويوجه نشاطهم إلى نصر دين الله تعالى ، والتعاون على البر والتقوى ، وتلك لمحّة خاطفة عاشها المسلمون فى مكة ، وعبروا عن أهم عامل يجمعهم وهو عامل الإيمان .

إن المسلم أخ المسلم ، يواليه وينصره ، ويتعاون معه ، ويساعده بنفسه وماله ، يفرح لفرحه ، ويتألم بما يؤلمه .

(٣٠)

الركيزة الثالثة

عوامل النصر والتمكين

تبين الآيات أن أهم عوامل النصر والتمكين هو الإيمان بالله تعالى لأن الإيمان يصل أصحابه بمصدر القوة الحقيقية ، وهى قدرة الله تعالى .
والله ينصر عباده وحزبه ، ويؤيدهم ، ويمكن لهم في الأرض ، وبهذا ينتصر دين الله بهم .
أن المؤمنين لا يغفلون عن ذكر الله تعالى ، ويعلمون أنه الحق ، فيلجأون إليه ، ويطيعونه ، ولذلك ينصرهم ، وحزب الله هم الغالبون .

ضرورة النظر والتأمل

في خلق الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿١﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَفْهَوْا أَلْسُوًا۟ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله واقع ، وأن البعث حق ، وأن الآخرة حق جاءت هذه الآيات تدعو الناس إلى التفكير والتأمل

(٣١)

في آيات الله الدالة على وحدانية الله تعالى ، وقدرته ، وتدعوهم إلى الإيمان باليوم الآخر الذى كفروا به .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات البراهين والحجج الموجودة في خلق الله تعالى ، الدالة على قدرته ، فقد خلق الله الإنسان ، وكلفه بالتفكير في ذاته ، وفى خلق السموات والأرض وما بينهما ، فقد أوجد الله مخلوقاته متلبسة بالحق ، قائمة به ، وقد لكل خلقه أجله ... وتوضح الآيات أن كثيرا من الناس يغفلون عن هذه الآيات ، ولا يستفيدون بأخبار السابقين ، ولو نظروا بأعينهم وعقولهم في بقايا الأمم التى سبقتهم لأمنوا بالله تعالى ، واعتبروا بهم فلقد كانوا أكثر منهم قوة ، وأشد بأسا ، وأقوى عمراناً وعملاً ، فلما كفروا أهلّكهم الله تعالى ، وعاقب أهل السوء بسوءهم ، ولم ينفعهم إنكار وجود .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تشير الآيات إلى عدد من الجوانب التى يجب أن يتفكر فيها المشركون ويتأملوا في تقدير الله تعالى ليدعوا الجحود والنكير ويؤمنوا بالله خالق هذه الآيات ... وهى :

(١) التأمل في خلق النفس :

يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى وفيه ينكر الله على المشركين غفلتهم عن اليوم الآخر ، وزعمهم استحالة البعث بعدما رمت الأجساد ، مع أنهم لو فكروا في أن الله خلقهم من جماد ، وجعل منهم نطفة ، تطورت إلى علقه تتعلق بالرحم ، إلى مضغة من اللحم ، إلى أجنة

(٣٢)

تتشكل من لحم وعظم ، إلى أطفال يلعبون ويمرحون ، إلى يفاعه نشطة ، إلى شباب وقوة ، إلى شيخوخة وضعف ، إلى هرم ، إلى وفاة ... لو تأمل الإنسان في أطوار خلقته وتتابعها لآمن بقدرة الله على البعث والحساب والحشر ، وعلى إدخال المطيع الجنة والى معاقبة العصاة بالنار .

وقد بدأت الآية بدعوة الإنسان إلى النظر في نفسه لينظر إلى أقرب الآيات إليه ، وأكثرها وضوحا عنده ، فالإنسان يشعر بخواطر روحه ، وجولات عواطفه ، ويحيط بماضيه ، وحاضره ، ويعلم عن ذاته من ذاته ما لا يعلمه أحد من الناس .

لو نظر الإنسان إلى نفسه ، وتأمل في طعامه وشرابه ، ونفسه ، وفكر في تحول الطعام والشراب إلى دم يسرى في أجزاء الجسم ، بمواصفات تتناسب مع كل جزء فيه ... ولو فكر في عمل الرئة والقلب ، وكافة الأعضاء وهى تحفظ الدم ، وتتقيه من العناصر الضارة ... لو تأمل الإنسان ذلك ، وعلم أن الله خلقه هكذا لآمن بالله ، وتيقن من أن فاعل ذلك قادر على إعادة الإنسان بعد موته إلى حياة أخرى يبعثه إليها ، ليحاسبه على عمله الدنيوى ليفوز بالجنة أو يعاقب بالنار .

إن العقل المجرد يقطع بأن الإنسان بما خلق الله فيه من طاقات وملكات لا تكفيه الحياة الدنيا ، ولذلك جعل الله الحياة الأخرى تكملة مستمرة للدنيا ، وبذلك تكون الدنيا مرحلة توصل لما بعدها في الآخرة ، حيث النعيم المقيم ، أو العذاب الأليم ، وبذلك يرى الإنسان امتداد حياته ، ويتحقق له أمله .

إن الدنيا ليست هى الأمل ، وليست هى الرجاء ، وعليه أن يؤمن بالآخرة ويعمل لها .

(٣٣)

(٢) التأمل في خلق السماوات والأرض :

يقول الله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا

بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى لو فكر الإنسان في خلق نفسه ، وفيما خلق الله في الكون المحيط به أو البعيد عنه ، وجمع بين هذه المخلوقات في المسار والأهداف ، والمصير لرأى جلال الخلق ، وكمال التقدير ، ولأمن بالبعث والحساب ، والجزاء ، كضرورة لاستمرار العدل ، ودوام القدرة الإلهية . فقد خلق الله خلقه العجيب ، المتنوع لخدمة الإنسان ، واتقان صناعة الحياة ، وحث النفس على التفكير في هذا الكون ، والتأمل فيما خلق الله فيه ، فقد أوجده كاملا مرتبطا بالحكمة ، لأداء وظيفة محددة ، لكل مخلوق ، بلا تعارض ، وبلا قصور .

وجعل الله خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وما فيهما ، مقدرًا وموزونًا بدقة ليحيا الإنسان في الدنيا ، وينال كل حاجاته ، وكل ما يتمنى ويرجو .

إن قيام المخلوقات بدورها برهان أمام الإنسان على قدرة الله على البعث والحشر والحساب .

لقد حدد الله لكل مخلوقاته أجلا سماه ، وقدره ، وغيبه عن الناس ، وعن المخلوقات لتستمر المخلوقات في حركتها المقدرة إلى آخر عهدها بالدنيا . ولو فكر الإنسان في نفسه ، وفي الكون الموجود فإنه سيعرف عددا من الحقائق :

أولاهما : الكون يقوم بما خلقه الله له بصورة منتظمة متكاملة فلا يطغى نوع على نوع ، أو يقصر مخلوق فيما خلق له .

ثانيهما : يعمل الكون في إطار واحد يعتمد على خدمة الإنسان ويهيئ له الدنيا الحسنة كما سخره الله تعالى .

ثالثها : تميز الإنسان بالعقل الذى فضله الله به ، ومكنه به من سيادة سائر المخلوقات ، والاستفادة منها ... وقد دعا الله الإنسان ليرتقى بالمخلوقات في مدارج العلا .

رابعاً : كلف الله من مخلوقاته الإنسان وحده ، وحثه على أن يجعل المخلوقات طريقاً تعرفه بالخالق ، وأن يتخذ من حركة المادة ، وتغيرها ، وتبدلها دليلاً على حتمية الآخرة فليس في الدنيا نعيم دائم يتمناه ... وليس فيها راحة مطلقة ينشدها الإنسان ، وليس فيها عدل تام يرجوه الإنسان .

إن الإيمان بالآخرة ركن من الإيمان ، وداع إليه ... لأن في الآخرة جزاء العاملين ، ومكافأة الطائعين .

خامسها : يؤكد التفكير ضرورة الآخرة ، لأن العقل البشرى ، والفطرة الإنسانية لا تتصور الدنيا هي دار العدل ، وموطن تحقيق الأمل .

ولا يتصور عقل وجود الإنسان في فترة زمنية يعمل فيها ما يعمل وينتهى إلى عدم محض يتساوى فيه كل الناس على اختلاف أعمالهم ، وصالحهم .

ولا يتصور أن نهاية الإنسان لا تختلف عن نهاية الحيوان والجماد .

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ أى إن كثيراً من الناس لا يصدقون باليوم الآخر ، ولا يؤمنون به ، ويرون أنه لا حياة بعد الموت ، وأنه لالقاء للحساب والجزاء ، وذلك بسبب أنهم لم يتفكروا في خلق أنفسهم ، ولا في خلق الآيات الكونية المحيطة بهم .

إنهم يتمتعون بالآيات ، ولا يفكرون فيمن خلقها لهم ، ولا فيمن حفظها لهم ، ولا فيمن سخرها لهم .

(٣٥)

(٣) عدد النظر في مصير الأمم الماضية :

يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ؟ ... أى أن أهل مكة لم يستفيدوا بما وقع للأمم الماضية

ولذا ينكر الله عليهم هذه الغفلة ، ويسألهم متعجبا من عدم إعمال فكرهم ، وعدم تأملهم في بقايا أمم هود وصالح ولوط عليهم السلام ، وكانوا يمرون على بيوتهم ، ويرون خسرانها ، ويعلمون هلاك الكافرين .

فالسير المراد هو مشيهم في الأرض حيث يرون البيوت الخربة بأعينهم وهم في رحلة الشتاء والصيف ، وكان عليهم أن يفكروا في مصائر هذه الأمم التى أهلكها الله تعالى بسبب كفرها ، وانكارها لليوم الآخر حتى لا يلاقوا مصيرهم .

والآية توجه المشركين إلى السير في الأرض والنظر لبقايا الأمم الماضية لمعرفة نهاية كفرهم ، وآخر ما حدث لهم ، وعاقبة شركهم .

وقد قضى الله بعدم عذاب الاستئصال للأمم الكتابية ، ولم يهلكهم بالعذاب أملا في إيمانهم ، أو في إيمان ذراريهم .

﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا

عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى على مشركى مكة أن ينظروا في عاقبة الأمم السابقة

ويقارنوا أنفسهم بهم ليعلموا أن ما وقع لهم من اليسير أن يحل بهم ، فلقد كانوا أقوى منهم أجسادا ، وأوسع منهم علما وتصرفا ، وعمروا الأرض بالعمل ، والسعى ، والتجارة ، وزرعوها ، وتقبلوا خلالها أكثر منهم ، وجاء رسل الله إليهم ، ودعواهم إلى الإيمان ، وترك الشرك ، ومع ذلك أصروا على الكفر

فأهلكهم الله ، ودمرهم ، وأبقى منهم آثارا تدل على ما حدث لهم ، وتشهد على عذاب الله الذى لحق بهم .

﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى أن

الهلاك الذى حل بالأمم السابقة جزاء كفرهم وشركهم قضاء عادل ، وحكم مكافئ للعمل ، لأن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس يظلمون أنفسهم بأعمال وجرائم يستحقون عليها العذاب والهلاك .

وذكر الآية لما حل بالأمم السابقة يشير إلى عدد من الأمور :

(١) بيان العدل الإلهى في الحكم والقضاء لأنه سبحانه في هذه الآية يوضح أنه ما أهلك أمة سبقت إلا بعد أن أرسل لها رسولا يدعوها إلى دين الله ، ويبين لها بطلان ما هى فيه ، ويؤكد العذاب الأليم الذى يستحقه المشركون .

(٢) توضيح أن قدرة الله غالبة ، ولن يمنعها أو تصدها قوى الأرض كلها ، وإن اجتمعت وتكاملت ، فلقد أهلك الله أمما اشتهرت بالقوة ، والصلابة ، والعدد ، والعدة في لحظات قليلة ، وبكيفيات شتى ، وأمره الشئ بـ "كن" يحققه .

(٣) التحذير الشديد لأهل مكة حتى لا يغتروا بما هم فيه من فضل ونعم ، فلقد أهلك الله من سبقهم ، وكانوا أشد منهم قوة ، ومن العقل أن يدركوا أن من أهلك الأقوياء يسهل عليه أن يهلك من هم أقل منهم قوة .

(٤) استمرار هذا التحذير إلى يوم القيامة حتى لا يغتر أحد بقوته ، ولا يتمادى مخلوق في ظلمه وعدوانه ، لأن الظلم تتعدد صوره ، وأنواعه ، والله عليم بالقائمين به ، وسيعاقبهم على ظلمهم في الدنيا وفى الآخرة . ومن رحمة الله بالناس أن أفهمهم ذلك ، وأراهم من قدرته ما يؤكد هذه الحقيقة بين الفينة والفينة ليعتبر بها العقلاء .

(٥) عفو الله عن عباده عظيم ، وقبوله للتوبة ثابت ، ولا يعاقب الله إلا المصر على المعصية ، ولذلك عاقب الأمم السابقة لإصرارهم على الكفر ، واستمرارهم في المعصية كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وهذا من عجيب الظالمين فقد أوردوا أنفسهم موارد الهلاك .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ اسْتَعَاؤُا السُّوءَ ﴾ أى أنزل الله عاقبته بالذين تمسكوا بالظلم ، وعملوا السيئات واستمروا عليها مدة طويلة كما تدل على ذلك ﴿ ثُمَّ ﴾ فقد أنتهم الدعوة ، فأكثرُوا الجدل ، ورضوا بما كانوا فيه رغم استمرار النصح ، ودوام الدعوة .

والعاقبة الحالة الأخيرة التى تأتى بعد حالات كثيرة عاشها الإنسان في أوضاع رضى بها ، واستقر عليها ... والمعنى أن عاقبة السوء تكون هى نهاية الذين أساءوا في أقوالهم ، وأعمالهم ... وتلك العاقبة تكون لهم في الدنيا بوار وهلاك ، وفى الآخرة نار وعذاب أليم .
والسوءى تقابل الحسنى وهما يدلان على نهاية ما يدلان عليه من وصف خيرا أو شرا .

﴿ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى أن السوء الذى عاش به هؤلاء المشركين هو أنهم كذبوا بآيات الله حين جاءتهم ، ولم يصدقوا برسول الله الذى أرسله الله إليهم ... واستهزأوا بكل آيات الله التى عرفهم بها رسولهم ، سواء كانت آيات تنزيلية أو تكوينية ، أو خارقة لعاداتهم ، وحياتهم .
ولم يكتف هؤلاء الناس بالتكذيب بل كانوا يسخرون ويستهزئون بالرسول وبالآيات التى بينها لهم ، تكبرا وعنادا ، وكفرا .

(٣٨)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الذين ينكرون لقاء الله في الآخرة لم يفكروا في خلق أنفسهم ، ولا في خلق السموات والأرض ، ولا في خلق أى شئ ، ولم يدركوا أن خلق الله قائم على العدل لتحقيق غايات يقدرها سبحانه وتعالى .
وتبين الآيات أن مشركى مكة لم يستفيدوا بما رأوا من آثار عاد وثمود وقوم لوط التى أبقاها الله شاهدة على ما حل بهم من هلاك ودمار بسبب ظلمهم وتكذيبهم .

وتبين الآيات أن عاقبة الذين يعملون السوء سوء مثله ، فلقد كذبوا رسل الله وهم يبينون لهم آيات الله في كونه وكتابه واستهزأوا بهم وبآيات .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية معرفة الواقع

في الدعوة إلى الله تعالى

يقوم الإسلام على الرضا النفسى ، والاقتناع العقلى ، ولا يتم ذلك إلا بعد نظر في الواقع ، وتأمل في المشاهدات ، وقياس ما يغيب على ما هو موجود محسوس ، وبذلك يتم الإيمان بالموجود المحسوس ، وبما يدل عليه من غيب وخفاء .

وقد اهتم العلماء بما عرف بالعلوم التجريبية التى تعتمد على المحسوس لأنها ترضى الحواس ، وتحقق الطمأنينة للعقل والضمير ، وفى نفس الوقت

توصل إلى الأمور الخفية ، البعيدة عن الحواس عن طريق الاستنباط أو القياس ، أو التمثيل .

وقد استخدم الإسلام قبل العلماء هذا المنهج التجريبي فدعا الناس إلى أن يبدأوا معرفتهم بالله بمعرفة أنفسهم ، وكيفية تكون عناصرها ، وطرق عملها وما فيها من مدركات نفسية وعاطفية وفكرية ، ويتفكروا في خالقها على هذا النحو العجيب ليؤمنوا بالله رب العالمين الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى . ويفكرون في السموات والأرض وسائر المخلوقات للوقوف على دقتها ، وحركتها ليروا قدرة الله تعالى .

إن المنهج الذى تدعو إليه الآيات هو السير في الأرض ، والتأمل في آثارها ، والتفكير العقلى في أحداث الماضى ليروا تاريخ الأمم ، وسبب هلاكها ليؤمنوا بالله ، ويعلموا أن الله على كل شئ قدير ، وسيرى العقلاء في تأملهم أن الأمم السابقة تميزت بالقوة والبطش وحل بها ما عاقبهم الله به لتبقى هذه الرؤية نذيرا لمن بعدهم حتى لا يكونوا مثلهم .

إن الموضوعية في البحث والنظر ، والدقة في التحليل والاستنتاج توصل إلى الإيمان بالله تعالى واليقين بما جاء به الإسلام ، ومسئولية الدعاة توجيه أنظار المدعوين للنظر في نعم الله عليهم في أنفسهم ، وفى الكون كله ليستقيموا على منهج الله تعالى .

الركيزة الثانية

الجزء من جنس العمل

لم يترك الله الناس لعقولهم ، وانما أرسل إليهم رسله ، ووضح لهم آياته وخاطب عقولهم ، وعواطفهم ، ودعاهم إليه بالحسنى ، ومع ذلك ظلم كثير من الناس أنفسهم فجحدوا نعم الله ، ولم يؤمنوا بدين الله ، وعارضوا الرسول الذى دعاهم إلى ربهم .

(٤٠)

لقد أنكر الكافرون البعث مع أن وجودهم في الدنيا يدل عليه ، ويبين أن يوم القيامة آت ، وأن الإعادة أهون من الإنشاء .

لقد ظلم المشركون أنفسهم بأن كفروا بالبينات ، وكذبوا بالحقائق الثابتة واستهزأوا بالرسول ، فعاقبهم الله بما يستحقون ، وبجنس ما فعلوا في الدنيا فجعلهم سخرية المؤمنين ، وأنزلهم منازل السوء ، وجعل مأواهم جهنم ، وبئس المصير .

إن الله يمهل ولا يهمل ، ولن يفلت أحد من الحساب ، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

الرجوع إلى الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عاقبة المكذبين بآيات الله جاءت هذه الآية لتبين أن الأمر كله في الدنيا وفي الآخرة بيد الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله هو الذى خلق المخلوقات ، وهو الذى يعيدهم إليه بالموت وهو الذى يبعث الموتى ، ويرجعهم إليه في الآخرة للحساب والجزاء .

(٤١)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ بدأت الآية بذكر اسم الله تعالى لإبراز المهابة ، وبيان أن الخبر المسند إلى المبتدأ ميسر في إطار قدرته سبحانه وتعالى ، والخبر هو بدء الخلق ، وإيجاده في الدنيا ... والناس بالبصر والبصيرة يرون الخلق موجودا بأنواعه ، وأصنافه ، وكثرته ، وكل موجود يدل على من أوجده ، وهو الله تعالى .

وتستمر الدنيا بقدرة الله ، وهدايته ، ويحدث فيها الخلق ، ويتجدد على صورته الثابتة التي خلقه الله عليها أول مرة ، إلى أن يحين أجل كل مخلوق فيموت في الوقت الذي حدده الله تعالى ، وبعدها يدفن الموتى إلى يوم القيامة في قبورهم .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أى يطول أمد الدنيا ، ويموت الناس وغيرهم ، ويسكنون قبورهم إلى أن تقوم القيامة ، فيحيى الله الموتى ، وتعود المخلوقات كلها إلى حياة أخرى ، تختلف اختلافا كلياً عن الحياة الدنيا .

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى أن الخلق بإعادة الحياة لهم يرجعون إلى الله للحساب والجزاء ، ليفوز بالجنة من عمل لها ، ويأوى الكفار والعصاة إلى نار جهنم ، وبئس المصير .

ولبيان أن الدنيا تشغل فترة طويلة ، والمكث في القبور يستغرق فترة طويلة كذلك عبرت الآية عن هذا الطول بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ الدالة على التراخى .

وفى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب لإيقاظ الانتباه ، ولبيان أن الأمر هام للمخاطبين قبل غيرهم .

(٤٢)

فإن قيل : ما الفرق بين الإعادة ، والرجوع إلى الله مع أنهما يكونان في إطار واحد ، وذات واحدة ؟

أقول : يوم القيامة طويل تكثر فيه الصور ، وتتنوع المشاهد ، لأنه يبدأ بالبعث عند النفخة الثانية حيث تعود الأرواح إلى أجساد أصحابها ، وتعود لهم الحياة التي كانوا عليها في الدنيا ، وهذه هي الإعادة ...

وبعد ذلك تنتشر الخلائق ، وتحرك من أماكن بعثهم ، ويسيرون إلى أرض المحشر حيث يكون الحساب ، وتكون الشفاعة ، ويكون الجزاء ... وهذا هو الرجوع إلى الله الذي ينتهي بدخول الجنة ، أو بدخول النار .

وبذلك يتضح أن الإعادة والرجوع إلى الله يحدثان يوم القيامة وكل منهما يمثل مشهدا من مشاهدها .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله تعالى هو الذى خلق الخلائق كلها في الدنيا وهو الذى سيعيد لها حياتها في الآخرة ، وسيرجع الجميع إليه للحساب والجزاء .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

بيان قدرة الله الشاملة

المخلوقات أنواع ، وأجناس ، وفصائل عديدة ، لا يحصيها إلا الله تعالى فكل من عوالم الخلق مكون من آلاف مؤلفة ، وفي الكون من العجائب والغرائب الكثير الكثير ، والعلماء يكتشفون الجديد دائما .

(٤٣)

وقد رزق الله الإنسان العقل ، ودعاه ليفكر به في مخلوقات الله تعالى
ليؤمن بمن خلقها ، وهو الله رب العالمين .

فكل مخلوق حادث ، والحادث له بداية زمنية ، والذي بدأ الخلق هو الله
خالقها وباريها ، وليسأل العاقل نفسه :

- كيف نشأت الحيوانات ، والطيور ، والحشرات ، والهوام ؟
- وكيف تنوعت أسماك البحار والأنهار ، حجما ، ولونا ، وصورة ؟
- وكيف وجدت حيوانات البرارى والصحارى والغابات ؟
- ومن الذى أوجد في كل مخلوق عوامل التكيف مع بيئته ، ومع الكائنات
حوله ؟!

- وما المدة الزمنية التى يعيشها كل مخلوق في الدنيا ؟
 - وما عدد مخلوقات الله في أرضه وسمائه ، وفى كونه القريب والبعيد ؟
 - وما هو المدى الحسى والعقلى الذى يستطيع العقل البشرى الوصول إليه ؟
 - وما هى الروح السابحة التى يلمسها الإنسان في نومه ؟
- إن كل المخلوقات لها بداية في وجودها ، ولن يقدر الناس على تحديد
هذه البداية بدقة ، والله العليم هو خالقها ، وهو الذى بدأها ... وهو سبحانه
يميتها ويحييها ، ويبعثها للحساب والجزاء ، وهو سبحانه الخبير بكل مخلوقاته .
- هذه الحقائق يجب أن يرمن بها الناس ليؤمنوا بالله تعالى ، ويلتزموا بكل
ما جاءهم من عند الله تعالى .

أحوال الناس يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌوَأُكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُونَ ﴿٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٥﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن الله مبدئ الخلق في الدنيا ، ومعيده في الآخرة وأنه سبحانه سيرجع الخلق إليه للحساب والجزاء جاءت هذه الآيات لبيان أحوال الناس في الآخرة حيث ينال كل إنسان جزاء ما قدمت يداه .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أحوال المجرمين الكافرين ، وأحوال المؤمنين يوم القيامة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ الساعة اسم من أسماء يوم القيامة والمراد به الوقت الذى تقع فيه القيامة ، وعند حشر الناس حيث يسكت الكافرون خجلا ، ولا يتكلمون ، فقد ظهرت الحقيقة التى أنكروها ، وكفروا بها

بلا حجة يستندون إليها ، ويستمر إبلاسهم وصمتهم وتجبرهم بثبوت ضلالهم ،
وابتعاد الأصنام عنهم .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ ﴾ أى ولم يجد المشركون الآلهة
التي عبدوها من دون الله ، والتي جعلوها شركاء لله ، ولم يروا منها شفيعا يشفع
لهم ، أو نصيرا ينصرهم ... وحينئذ يعلمون ما كانوا فيه من ضلال ، وبعد عن
الصواب .

﴿ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ أى إن الكافرين في يوم القيامة
يصمتون خجلا ، ولم يجدوا من أصنامهم وأوثانهم شفعا ، وحينئذ يكفرون
بالأصنام التي عبدوها حيث لا فائدة في كفرهم اليوم ، فلقد مضت الدنيا التي
كلفوا فيها بالإيمان ، ولا عودة إليها بعد قيام الساعة .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أى عند قيام القيامة يتفرق
الكافرون ، ويصيرون شيعا وأحزابا ، وتنتهم كل فرقة الفرق الأخرى وتتصورها
سبب الكفر والضلال ، ويتبرأ كل فريق من غيره ، ويتبرأ الشيطان منهم جميعا ،
ويحاسبون حسابا عادلا حيث ينال كل منهم ما قدمت يداه .
ويتفرق المؤمنون كذلك ، ويتوزعون في روضات الجنات ، وغرفها
ونعيمها ، إلا أن كلا منهم يحب أخاه ، ويأنس بلاقائه ، ويتفكه بعضهم ببعض
في الفردوس الأعلى .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ
يُخْبَرُونَ ﴾ أى أن المؤمنين بسبب إيمانهم بالله تعالى ، واستقامتهم على
طاعته ، واتباع دعوة رسوله ، وتمسكهم بالعمل الصالح يجازيهم الله أحسن
الجزاء ، ويدخلهم جنات النعيم ، يمرحون ، ويلعبون ، ويتمتعون بطيب المقام

(٤٦)

وجمال الصور ، والصوت الرخى ، والحدور العفن ، ونوال كل ما یرفدون ، بحب
غامر ، وأخوة صادقة ، وسلام مقفم .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي

الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى أن الذين كفروا بالله تعالى وعصوا الرسول ، وكذبوا

بما رأوا ، وبما سمعوا من آيات الله ، وأنكروا البعث والحساب فقد أعد الله لهم
عذابا أليما أحضره لهم ، ووضعهم ففله حتى لا ففغبوا عنه أبدا .

وهكذا :

ففما فف الخلق فف الآخرة ، ففبال كل إنسان ما قدمت ففده .

- ٤ -

معنى الآففات

ففبن الآففات أن المجرمفن ففالههم الحسرة فف ففوم الففامة فففسكتون ، ولا
ففكلمون ، ولا ففلكون حجة ففنطقون بها ، ولا ففجدون شففعا ففعفنفهم ، ولا نصفرا
ففتولاهم ، ولا ففجففهم الكفر بالأصنام فف ففذا الوقت فقد مضى وقت الفوبة
والففمان .

فف ففوم الففامة فففرق الفمفع ففلى جماعات ففعفش فف الفزاء العادل
الذى قدره الله لها ، ففف ففذهب المجرمون ففلى دركات جهنم ، ففعن بعضهم
بعضا ، وفففبرا بعضهم من بعض ... وففسعد المؤمنون برضوان الله تعالى ،
وففرحون بما هم فففه ، وففمفعون بروضات الجنات ، ففف النعمف المققم ،
والعفشة الفففة ، والالفقاء برسول الله ﷺ ، والففمفع بالنظر ففلى وجه الله الكرفم .

(٤٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الترغيب والترهيب في الآيات

أسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة ذات التأثير الكبير في المدعوين لأنه يدور مع أمانى الإنسان ومخاوفه ، ويرسم الطريق الذى يوصل إلى الخير ، ويحقق السعادة ، ويحدد سبل الضلال التى تؤدى إلى الضرر ، وعذاب السعير .

تصور الآيات أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين في الآخرة مع ربط هذه الأحوال بأسبابها الدنيوية ليسارع العقلاء إلى الأعمال الدنيوية التى يرجون نتائجها في الآخرة .

إن الذين آمنوا بالله تعالى ، وصدقوا برسول الله ﷺ ، ودخلوا في الإسلام صادقين يجزون يوم القيامة بجنات خضر يحيطها الماء والزرع ، ويتمتعون برياض ويساتين يلعبون ويمرحون ، وهم سعداء لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات . أما المشركون فإنهم يعجزون عن الكلام ، فيمسكون لسانهم بسبب جرائمهم التى ارتكبوها في الدنيا .

إن المشركين في يوم القيامة يختلفون ، ويتنازعون ، ويتبرأ كل منهم من غيره ، ويحضر عذابهم إليه ليكنوا فيه بسبب كفرهم بالله وآياته ولقائه . ودلالة الآيات ترغب في الإيمان وتدعوا إليه ، وتخوف من الكفر ، وتنفّر منه .

والإنسان في الدنيا عليه أن يختار لنفسه المصير الذى يريده ، ويعمل له .

وجوب دوام شكر الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُمِيطُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٩﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مصير الكافرين ، ومصير المؤمنين في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان الطريق المحقق لمصير المؤمنين ، وهو تقديس الله وطاعته ، والاستقامة على أمره .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات منهج القرب من الله تعالى ، وهو تنزيهه ، وتقديسه في كل وقت ، واستمرار حمده وشكره ، وتحقيق العبودية له ، فهو سبحانه وتعالى يحيى الموتى من الكائنات السماوية والأرضية ، وهو الذى سيبعث من فى القبور ، ويحشرهم ، ويحاسبهم ، ويجازيهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ أى نزهوا الله فى كل وقت ، حين ينزل عليكم المساء بليله وظلامه ، وحين يسفر عليكم الصبح بضياءه ونهاره ، وفضل التسبيح كبير .

يقول النبى ﷺ :

(٤٩)

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "من قال : سبحان الله وبحمده في كل يوم مائة مرة حطت خطاياها ، وإن كانت مثل زبد البحر" (١) .
- وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه" (٢) .
- وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم" (٣) .
- وعن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها زوج النبي ﷺ : "أن النبي ﷺ خرج ذات غداة من عندها وهي في مصلاها ، فرجع بعد ما تعالى النهار وهي في مصلاها . فقال لها ﷺ : لم تزال في مصلاك هذا ؟ قالت : نعم . فقال ﷺ : قد قلت بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرار ، لو وزنت بما قلت لوزنتهن ، سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ومداد كلماته" (٤) .
- وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال لنا : "أعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم ألف حسنة . فسأله سائل : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟

(١) صحيح البخارى . كتاب الدعوات . باب فضل التسبيح ج ٨ ص ٨٦ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الذكر والدعاء . باب فضل التسبيح والتلهيل ج ٤ ص ٢٠٧١ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الإيمان والنذور . باب إذا قال لا أتكلم اليوم ج ٨ ص ١٣٩ .

(٤) سنن أبي داود . كتاب الصلاة . باب التسبيح بالحصى ج ٢ ص ٨١ .

قال ﷺ : يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ، ويحط عنه ألف خطيئة^(١) .

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى والله هو المحمود من جميع خلقه في السموات والأرض ، وبدأت الآية بالجار والمجرور "له" لبيان أن الحمد خاص بالله تعالى في السراء والضراء ، وإن من شئ إلا يسبح بحمده .

﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أى وكما بحمد الله في كل مكان يحمد في كل زمان ، فيحمد في العشى وهو وقت اشتداد الظلام في الليل ، وفى الظهر حين اشتداد ضوء النهار .

وقد بينت الآية أن الحمد يشمل كل مكان رغم تنوعه في السماء وفى الأرض ، وفى العلو ، وفى السفلى ... ويشمل أيضا كل زمان في الليل والنهار ، وفى الظلام والنور ... وذلك لإظهار أن التبدل ، والتغيير ، والانتقال من حال إلى حال هو سمة المخلوقات في الدنيا ، وفق سنة كونية ، وضعها الله للمخلوقات لتبقى قوية في دلالتها ، شاهدة على وحدانية الله ، وقدرته واستحقاقه للتعظيم ، والتقديس ، والعبادة .

وقد فهم بعض العلماء الصلوات الخمس من الآية .

قال نافع ابن الأزرق لابن عباس رضى الله عنهم : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟

قال ابن عباس : نعم وقرأ هاتين الآيتين ، وقال : جمعنا الصلوات الخمس ومواقيتها^(٢) .

(١) مصنف ابن أبى شيبة . كتاب الدعاء . باب في ثواب التسبيح ج ٦ ص ٥٥ .

(٢) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٠٥ .

واعلم أن الله تعالى خص هذه الأوقات بالتسبيح دون غيرها ، لأن أفضل الأعمال أدومها ، والإنسان لا يقدر أن يصرف جميع أوقاته في التسبيح لأنه محتاج إلى ما يعيشه من مأكول ، ومشروب ، وغير ذلك ، فخفف الله عنه العبادة في غالب الأوقات ، وأمره بها في أول النهار وآخره وفي أول الليل وآخره ، فإذا صلى العبد ركعتي الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين ، وكذلك باقى الركعات ، وهى سبع عشرة ركعة مع ركعتي الفجر ، فإذا صلى الإنسان الصلوات الخمس فى أوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار بقى عليه سبع ساعات في جميع الليل والنهار ، وهى مقدار النوم ، والنائم مرفوع عنه القلم ، فيكون قد صرف جميع أوقاته في التسبيح والعبادة^(١) .

﴿ مُخْرِجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَمِيتِ وَمُخْرِجُ الْمَمِيتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى مستحق للحمد والتتزيه ، مع تقلب الأزمان ، وتغاير الأماكن ، فهو سبحانه الموجد لهذا التغيير ، القادر على خلق الموجودات المتقابلة ، فهو الذى يخرج من الجماد الميت كائنا حيا كما أوجد من النطفة والبيضة إنسانا وطائرا ... ويخرج من الحى ميتا جامدا كما يخلق النطفة والبيضة من الإنسان والطائر .

﴿ وَنُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى يحيى الأرض الجامدة الميتة بإنزال المطر عليها ، وإخراج النبات فيها .

﴿ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ مِنَ الْحَيِّ وَمِثْلَ إِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَمِيتِ يُحْيِيكُمْ فِي قُبُورِكُمْ ، ويخرجكم منها إلى الحشر للحساب والجزاء .

(١) المرجع السابق .

(٥٢)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله وحده مستحق للحمد والتتزيه والشكر في المساء وفي الصباح ، وتبين أن له سبحانه الحمد في كل مكان ، وفي كل وقت فهو الخالق لكل موجود ، وهو الذى يبعث الموتى ، واليه الرجوع للحساب والجزاء.

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الحمد لله رب العالمين

المؤمنون وحدهم هم الذين يعرفون فضل ربهم ، ولذلك تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، ويدامون على حمد الله والثناء عليه ... وسبب ذلك أنهم يقدرّون الله حق قدره ، ويعلمون أنه الخالق الرازق ، المحيى المميت ، قيوم السموات والأرض ، مالك الملك ، واليه المصير .
إن المؤمن يلهج لسانه بالذكر والحمد ، وتتشغل جوارحه بالطاعة ، ويمتلئ قلبه بحب الله تعالى .

وبمداومة الولوج إلى باب الله ، وطرقه ينفّث له ، وتتجلى عليه الرحمت فلا يسعد إلا بالذكر ، ولا يطمئن إلا بالثناء والشكر ... وحين يصل الإنسان إلى مقام العبودية يبقى هائما بحمد من يعيده ، وتتفتح أمامه الحجب ويتصل بالملأ الأعلى فيدرك بنور الله ، ولا يسعد إلا بحمد الله ، وذكره ، وشكره .
إن العبودية أن يعرف العبد قدر نفسه مع مقام ربه ، ويعلم دوره الواجب مع خالقه فيسبحه في ظلام الليل ، وفي وضوح النهار ، وفي سائر الأوقات .

(٥٣)

الركيزة الثانية الإقناع بالدليل

من أركان الإيمان الأساسية الإيمان باليوم الآخر وما فيه ، وهى من القضايا الغيبية التى لا يمكن إدراكها بالحواس فى الدنيا ، ولذلك كان لابد من التمثيل للإقناع به .

لقد أنكر المشركون البعث ، والإخراج من القبور بعدما رمت الأجساد ، وبليت ، وصارت رمادا تداخلت جزئياته ، وامترجت .

ومن هنا جاءت الآيات تبين أن الله يخلق الشئ من نقيضه ، فيخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى كما يخرج من البيضة طائرا ، ويخرج من الطائر بيضا .

وقد ساق الله دليلا على وقوع البعث ، وجعل ما ضربه من مثل دليلا على البعث لأن من يخلق الشئ من نقيضه قادر على الشئ بعد تفرقه ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾^(١) .

وبهذا يصير البعث قضية مسلمة ، ويتحول فى حياة المسلم إلى دافع قوى للعمل الصالح ، وإلى الإيمان بالله رب العالمين .

(١) سورة الروم ، الآية ١٩ .

مع آيات الله في الكون والحياة

- تورد سورة "الروم" ستا من آيات الله في الكون والحياة لتأكيد استحقاق الله للحمد الدائم وفق منهج يتضمن :
- (أ) ذكر الآية .
 - (ب) بيان فائدة الآية .
 - (ج) التعجب من عدم الاستفادة بالآية .
 - (د) إيقاظ القوة المدركة في الإنسان ليفكر ، ويسمع ، ويتدبر ، ويعقل ليعرف الله ويؤمن به .
- وسأورد هذه الآيات واحدة واحدة وفق ترتيبها في السورة على أن استخراج منها جميعا الركائز في النهاية .

الآية الأولى

خلق الإنسان من التراب

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية قدرة الله تعالى في خلق الإنسان من تراب ، واكثاره بالنسل والذرية ، وانتشاره في الأرض للمعاش والسعى ، وفي هذه الآية عجائب عديدة تؤكد وحدانية الله ، وتدعو إلى عبادته وحده سبحانه وتعالى .

(٥٥)

- ٢ -

معنى الآية من خلال الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ ﴾ آيات الله في كونه عديدة ، ومنها هذه الآية ،
والضمير في ﴿ ءَايَاتِهِ ﴾ يعود على الله تعالى ، والآيات جمع آية . ومعناها
البرهان والحجة ، والدليل ، والعلامة التي وضعها الله في كونه ، وأنزلها في
كتبه ليعرف العبيد ربهم ، ويؤمنوا به إلها واحد .
والقرآن الكريم كله آيات دالة على وجود الله ووحدانيته ، وقدرته ، ولذلك
لا ينبغي تسمية جزئيات مؤلف ، أو كتاب آخر بآية ، أو آيات كما يفعل غير
المسلمين في كتبهم ، ومؤلفاتهم .

﴿ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أى ومن آيات الله أن أوجدكم أول مرة من
تراب الأرض حين أمر سبحانه الملائكة ان تصنع من التراب صورة إنسان ،
فلما سووها نفخ فيها من روحه فكان آدم عليه السلام ، وتحول إيجاد النسل بعدها إلى
حمل وولادة بعد تزواج الذكر والأنثى .
وقد بقى الإنسان يجمع عناصر الطين والتراب فأبواه من التراب ،
ومطعمه اللحم والحب ، وهما من التراب .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ أى بعد ذلك أصبحتم عددا كثيفا
وقبائل وشعوبا تنتشر في ربوع الأرض ، تعلمون ، وتتاجرون ، وترحلون ،
وتعملون ، وتتصرفون .

وفى هذا آية كبرى تشير إلى آيات عديدة ، فخلق الإنسان من التراب آية
وخلق كل الكائنات من التراب آية ... والامتزاج والتلاصق بين المادة ، والروح

آية ، وتميز الإنسان بالعقل ، والفهم ، والتصرف عن سائر المخلوقات مع وحدة المنشأ آية .

وكل هذا يثبت فضل الله على الناس ، واستحقاقه أن يعبد وحده ، فهو الله الواحد المتفضل .

الآية الثانية

تحقيق التلاؤم والتماسك في الأسرة

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية قدرة الله تعالى في إيجاد الزوجين ، متلاصقين ، ومتحدين كأنهما كيان واحد ، رغم أن كلا منهما نشأ وترى في بيئة مغايرة للبيئة التي نشأ فيها الطرف الثاني ، وفي ذلك آيات للعقلاء ليعرفوا بها ربه .

- ٢ -

معنى الآية

من خلال الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى ومن براهين قدرته وفضله سبحانه وتعالى عليكم أيها الناس أن خلق لكم من جنسكم ، وطبيعتكم ذكرا وأنثى ليحدث بينهما التزاوج ، والتلاقى ، والتناسل . فالخطاب في الآية للرجل والمرأة على سواء .

وعظمة هذه الآية أن كل واحد من الزوجين ينشأ في بيئة خاصة ، لها عاداتها وتقاليدها ، وأعرافها إلا أن الله أودع في الرجل غريزة الميل للمرأة وأودع في المرأة غريزة الميل للرجل ، فيحن كل عنصر لما يميل إليه ، ويأتى شرع الله ليصنع من العنصرين كيانا واحدا .

وقد ألهم الله الرجل الزوج والمرأة الزوجة أن يسكن كل منهما لصاحبه ويركن إليه ، ويعامله كنفسه ، وأن يعلم أنه شريكه في صنع أسرة متكاملة هي أملهما معا ، وهدفهما معا .

ولا يتم إقامة الأسرة الطيبة إلا بتحقيق الصفات التى أمر الله الزوجين بها وهى .

﴿ لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ أى هيا الله كلا

من الرجل والمرأة ليأنس للآخر ، ويستريح معه ، وبذلك تستقر مشاعرهما وعواطفهما ، وتهدا نفسيهما ، ويطمئن عقل كل منهما لفكر الآخر ، ويتحقق بين الزوجين الأمن والطمأنينة ، وبذلك تنشأ المودة والرحمة ، فأساس الحياة الزوجية السكن ، والإنس ، ووظيفتها تحقيق الود ، والتعاون ، والرحمة وظهور كل خلق كريم .

إن السكن هو جوهر الحياة الزوجية ، والخلق الكريم أعراض لها ، ولذلك جعلت الآية السكن سبب إقامة الزواج ، والمودة والرحمة ثمرة من ثمرات الزواج. وهذا التكوين يشبه تكوين النبات فالتقاء الماء بالأرض ، والبذر ، وتفاعل هذه العناصر يخرج الشجر والزرع والثمر بقدرة الله ، وليس كل الزرع والشجر يخرج ثمراته ، وليس كل زواج ينتج سكنا ومودة ... وما أكثر الشجر الذى لا يخرج إلا نكدا ، ولا يفيد شيئا !! ... وما أكثر الزواج الذى ينتهى بالفشل والطلاق !! ...

ومن المعلوم أن الكائنات خلقت أزواجا بأمر الله إلا أنها لا تحقق من تزواجها مثل ما جعله الله للناس من سكن ، وحب ، ومودة ، وتماسك ، وارتباط . وقد خلق الله البشرية كلها من نفس واحدة هي نفس آدم ﷺ حيث أخرج الله من آدم زوجته "حواء" فأنس بها ، وعاشا معا في الجنة ، وقدر الله لهما أن يلبدا بنين وبنات على شاكلتهما ، ليقميا حياة زوجية على صورة آدم وحواء عليهما السلام لتنشأ أمم وشعوب تعمر الأرض إلى أن تقوم الساعة .

﴿ إِنِّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى في خلق الله الذكر والأنثى ، وتشريع الزواج لهما ليتمعتا بالهدوء والطمأنينة ، ويتعاملا بالمودة والرحمة آية عظيمة ، وبرهان على قدرة الله تعالى في هداية الإنسان إلى صنع الحياة ، وتعمير الأرض في هذا الزواج ، وعلى الزوجين أن يدركا ذلك ليعملا على تحقيق مراد الله تعالى .

وهذه الآية تتضمن عددا من الآيات :

- فخلق الذكر والأنثى بغريزة الزوجية وميل كل عنصر منهما للآخر آية تدفع كل منهما إلى التهيؤ لدوره مع صاحبه ، والإخلاص له ، فمعه يشبع غريزته ، ويحقق أمانيه ، ويخلد في ذريته ونسله .
- وجعل الرجل والمرأة كيانا واحدا في العقل والعواطف والهدف آية .
- وبدء الزوجية البشرية بآدم وحواء عليهما السلام ، واستمرار الحياة باستمرار الزواج بعد التناسل آية .

وعلى الزوجين أن يؤمنا بدورهما الذي جعله الله لهما ، ويعملا على أن تثمر شجرتهم ثمرا وخيرا لهما ولغيرهما من الناس .

إن الزواج الذي لا يحقق السكن ، ولا يؤدي إلى الرحمة والمودة اختل فيه جانب شرعى !!!

لم يشرع الله الزواج لتحقيق السكن والهدوء مع الآخرين ، واشعال الصراع بين الزوجين .

لقد أكرم الله الزوجين ، وأقام زواجهما على السكن ، وأمرهما بأن يتوصلا بالسكن إلى المودة ، والرحمة ، والتعاطف .

وان أزواجا حرمهم الله نعمة السكن يقضون حياتهم في جدل حول قوامة الرجل ، ومدى الطاعة التي كلف الله بها المرأة ، والمقدار المشروع وغير المشروع في معرفة كل طرف لأخبار الآخر .

إن التماسك بين الزوجين يشمل الفكر ، والوجدان ، ويجمع العقل والأمل ، ويدعو كل طرف لإرضاء صاحبه بما يرضى الله تعالى .

ولذلك جعل الله حق الزوج بعد حق الله على المرأة ، وأمر الرجل أن يحسن العشرة ومعاملة المرأة .

الآية الثالثة

خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَلَوْنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية بعض آيات الله في الكون والإنسان ، حيث خلق الله السموات والأرض ، وقدر اختلاف ألوان الإنسان ، وتنوع لغاته ولهجاته ، وشرع بين خلقه التعاون والتعارف .

(٦٠)

- ٢ -

معنى الآيات

من خلال الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى ومن دلائل قدرة الله ،

وبراهين وجوده خلقه السموات المزدانة بالكواكب ، والنجوم الثابتة والسيارة ...
وخلق الأرض وما فيها من سهول ووديان ، وبحار وأنهار ، وزروع وأشجار ...
ففى خلق السماء والأرض وما فيهما من تنوع وكثرة ، وتحديد مسار وغاية لكل
مخلوق آيات شاهدة على قدرة الله تعالى ووحدانيته واستحقاقه أن يعبد وحده .

﴿ وَأَخْتَلَفُ ألْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ ﴾ أى ومن آيات الله أن خلق الناس

من أصل واحد ، ونشرهم فى الأرض ، وخالف فى ألوانهم فصارت عددا ...
ونوع ألْسِنَتِهِم فصار لكل أمة لغتها الخاصة بها ، ونوع عاداتهم ، وأعرافهم
فأصبح لكل جماعة عادات ، وتقاليد لا توجد عند غيرها .

هذا التنوع فى الألسنة والألوان ناشئ عن التنوع والتعدد فى الشعوب ،
والأماكن ، والبيئات ... الخ . وهذه أعراض يكتسبها الإنسان ويعيش بها مدة
حتى تصير خاصة له ، وتستمر معه ، وهى تختلف عن الأعراض التى تظهر
وتختفى كالنوم والعمل ، والفرح ، والألم .

وهذا التنوع فى الخلق دليل وبرهان ، وحجة على وحدانية الله ، وقدرته .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى فى هذه المخلوقات آيات وحجج

تدل على قدرة الله تعالى ووحدانيته يدركها العلماء الذى ينظرون فيها ، ويؤمنون
بقدره الله الصانعة لها .

(٦١)

و "العالمين" بكسر اللام جمع عالم ، وهو الإنسان الذى يستتج من المشاهدات مفاهيم الإيمان بالله تعالى ، ويصل بالإيمان إلى ما يدل عليه .
يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١) .

الآية الرابعة نوم الإنسان ويقظته

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية ما خلق الله عليه السلام الإنسان عليه ، وما هياؤه له من أوقات وأحوال ينام فيها ويستريح ... وأوقات وأحوال للعمل والسعى لكسب المعاش ، ونوال فضل الله تعالى .

- ٢ -

معنى الآية

من خلال الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴾ أى
ومن براهين وجوده سبحانه وتعالى أن أوجد لكم في حياتكم أعراضا تحتاجون إليها مثل منامكم ، ويقظتكم .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

والمنام مصدر ميمى يراد به النوم الذى يعيشه الإنسان ، وهو تلك الحالة العجيبة التى يحتاج إليها الإنسان والحيوان وسائر الكائنات الحية بالضرورة ، لأن العمل والسعى يؤدى إلى ضعف الطاقات البشرية والحيوانية ويستمر الضعف حتى يعجز الكائن الحى بسبب التعب عن القيام بوظيفته ... ولذلك رزقه الله نعمة النوم التى بها تهدأ الأعضاء ، ويسكن الشعور ، ويقترب الإنسان من حالة الموت ، ويعيش في راحة وهدوء حتى ترجع إليه طاقته فيصحوا من نومه يقظا نشيطا ، وتعود إليه حياته كاملة .

وتتأكد قيمة هذه النعمة حين نتأمل إنسانا محروما من النوم ، فإنه يصاب بالأرق ، والاضطراب ، ويصل إلى الموت إذا لم يرزقه الله النوم . ومن إعجاز خلق الله أن هيا كونه لراحة الإنسان فجعل الليل يسكونه ، وقمره وقت النوم ، وجعل النهار بشمسه ، وضوئه للسعى والعمل ... ونظرا لأن بعض الناس يحب النوم في منتصف النهار وقت القيلولة ذكرت الآية أن المنام يكون ﴿ فِي أَلَيْلٍ وَالنَّهَارِ ﴾^(١) .

وحينما يستريح الإنسان بالنوم يستيقظ ، ويقوم للعمل ، والسعى لابتغاء فضل الله تعالى ، وأداء ما وجب عليه من عمل .

وقد تمت الآية المنام على ابتغاء فضل الله لبيان قيمة نعمة النوم على الإنسان فهى التى تنشطه ليعمل ، وتقوى عقله ليفكر ، وتجدد طاقاته النفسية ، والعقلية ، والجسدية التى لابد للإنسان منها .

فالذين يستخفون بالنوم ، ويعدون ضرورة من الضرورات الثقيلة المفروضة على الطبيعة البشرية ، ويحسبونه داء من تلك الأدواء التى تلحق الإنسان ، وتطغى على وجوده ، كالطفولة ، والشيخوخة . هؤلاء مخطئون أشد

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٣ .

الخطأ ، إما لجهلهم ، الذي يقصر بهم عن إدراك ما لا تلمسه أيديهم ، وتذوقه أفواههم ، وأما لأنهم ماديون ، لا يرون إلا المادة ، ولا يتعاملون إلا بها ولا يجدون في الإنسان إلا أنه حيوان ، مغلف بهذا الغلاف المادي من العظم واللحم !

وإذا كان "النوم" . على ما رأيت . نعمة جليلة ، فإن الله سبحانه وتعالى ، قد جعل الليل الذي هو الظرف الطبيعي للنوم . نعمة جليلة أيضا ، كما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) .

فالليل ، ستار يغطي الكائنات الحية ، ومنها الإنسان ، فيسلمها ذلك إلى السكن ، ثم النوم !....

إن لليل سلطانا قاهرا كسلطان النهار على الأحياء ... هذا للنوم ، وذاك لليقظة ... ذلك للموت ، وهذا للبعث ... ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ^(٢) .

وقد كان لليل ، سلطانه الكبير ، فهو يناظر النهار ، ويقاسمه حكم هذا العالم ، وقد أدى هذا السلطان ببعض الماديين أن جعلوا الليل والنهار إلهين أو موطنا لإلهين ... واعتقدوا في إله النور والظلام ، على حين كان معتقدهم في إله الظلام أنه شر ، وفي إله النور أنه خير ، وأن الحرب دائرة بينهما ، وأن على المؤمنين أن ينتصروا لإله الخير ، وأن يرقبوا خلاص العالم ، من الظلام ، والشر ، على يديه .

(١) سورة القصص ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٦٠ .

(٦٤)

وكم تغنى الشعراء بالليل ؟ وكم حدا الحداة وهم سائرون في عبابه ،
مأخوذون بهيبته وجلاله ؟
وكم ناجى العباد ربهم بالليل ، وقطعوا آناؤه حمدا وتسبيحا ، وركوعا
وسجودا ؟

إن الليل ، وإن لم يستول على الإنسان سلطان النوم فيه ، فإن في ظلامه
فرصة تحجز الحواس عن الانطلاق ، وتمسكها عن العمل ، وعندئذ تصحو
مشاعر الإنسان ، وتستيقظ روحه ، ومن هنا يكون مهينا للاتصال بالعالم
العلوى ، والوقوف على موارده ، والرعي من مشاريعه ...!

﴿ إِنِّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أى ان نعمة النوم
تتضمن على آيات عدة ، فهي تحقق راحة الإنسان ، وتلك آية ... وهي تنتهي
إلى اليقظة عند تمام الراحة وتلك آية ... وهي موطن رؤيا الصالحين وتلك
آية ... وهي تأتى وتنتهى ولا يمكن لصاحبها معرفة لحظة مجيئها ، ولحظة
انتهائها ، وتلك آية .

وهذه الآيات الموجودة فى النوم تحتاج إلى أن يعلم الإنسان أسرارها
وفوائدها لقلّة من يعتبرها نعمة لمجيئها فى صورة تلقائية ... ولذلك كانت
ضرورة الاستماع لفوائدها من الوحي ، ومن العلماء المتخصصين ، ليعلم العاقل
دورها فى الجهاز العصبى ، والعقلى ... وليرى ضرورتها للإنسان ليعيش ويقوم
بدوره لنفسه ، وأهله ، وللناس أجمعين ، ولذلك جعلها الله آيات لقوم يسمعون ،
 ويفكرون فيما يسمعون .

الآية الخامسة

ظهور البرق ونزول المطر

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية آية من آيات الله المتعلقة بالإنسان ، وليست متصلة به وهي آية البرق التي يرى الإنسان آثارها في نزول المطر على الأرض فيحييها ، ويخرج منها الزرع والثمر لتتجلى آياتها أمام العقلاء .

- ٢ -

معنى الآية

من خلال الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ومن نعم الله وأفضاله عليكم أيها الناس أنه يريكم وأنتم في الأرض البرق ، وهو لمعان شديد الضوء يتجلى عليكم في الأفق ، ويصاحبه نزول المطر ، أو نزول الصواعق ، ولذلك فأنتم حين ترون البرق تطمعون في نزول المطر الذي يكون عادة عقب البرق ... وتخافون من الصواعق التي تصيبكم بعد البرق .

﴿ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى ومن آيات الله تعالى أن أنزل من السماء ماء فيحيى الأرض ، وينبت الزرع ، ويخرج الثمر ، وجمعت الآية بين البرق ، ونزول المطر لأن البرق غالبا يبشر بنزول المطر بعده .

والإنسان والحياة كلها تحتاج إلى المطر ، ولذلك خلقه الله للإنسان ، وسيره إليه فى قدر عجيب معجز . فقد ينزل المطر على أرض يفيدها ، وقد ينزل على صخر أملس يتجمع فوقها ، ويسير فى بحيرات ، وأنهار لأماكن بعيدة ، وقد يخترق الأرض فى مسارب ليظهر عيوننا أو أبارا فى أماكن بعيدة يقدرها الله تعالى .

﴿ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى إن الآيات الموجودة

فى البرق ، ونزول المطر عديدة تحتاج من الناس إلى الاستفادة بها . وقد خصت الآية العقلاء بالذكر لما فى آيات البرق ، ونزول المطر من دقائق عظيمة تتصل بأسباب حدوث البرق ، ونزول المطر ، وما يعقبه من خروج الزرع ، وظهور الشجر والثمر لا يدركها إلا عقل يفكر ، ولب يبحث ، ويفهم ... أما المكابرون المعاندون فلن يستفيدوا بهذه الآيات لأنهم لا يستفيدون بفكرهم وعقلهم .

الآية السادسة

استقرار النظام فى السماء والأرض

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

الآية تبين قدرة الله تعالى فى خلق السماء والأرض بكل ما فيهما ، وحفظهما وهما ليقوما بكل ما خلقا له ، بصورة دائمة ومستمرة إلى يوم القيامة .

(٦٧)

- ٢ -

معنى الآية

من خلال الدلالات اللغوية

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أى ومن علامات

قدرة الله تعالى ، ووجدانيته قيام السماء والأرض بما أمرهما به سبحانه وتعالى
بلا قصور ولا انتهاء حتى تنتهى الدنيا .

فإيجاد السماء وما فيها ، ونشأة الأرض وما عليها آيات سبق ذكرهما ،
والآية هنا تشير إلى قيامهما بما أمرهما به .

فالقيام هنا يعنى الاستقامة والاعتدال على منهج سليم صحيح ، نجده ،
ونلمسه فى النظام الكونى الذى وضعه الله للسماء والأرض ... حيث الكواكب
والنجوم ، والأفلاك ، والمجرات ، والملائكة ، والرسل ، والسحاب ... وغير
ذلك فى السماء ، وكلها تسير فى مسار مقدر مقصود ... والأرض بأنهارها
وبحورها ، وسهولها ، وجبالها ، وحيواناتها ، وطيورها وكل ما فيها قائم على نحو
ما أراده الله تعالى .

هذه الاستقامة فى مخلوقات السماء والأرض شاهدة على قدرة الله تعالى .

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أى أن هذا

النظام القائم للسماء والأرض لا يدوم ، فهو محدد بأجله الذى قدره الله له ،
وحين ينادى المنادى يوم القيامة ، يوم تبدل السماء والأرض ، ويخرج الناس من
القبور للحساب والجزاء .

وفى هذا بيان أن انتظام قيام السماء والأرض قدر مؤقت يستمر باستمرار

الحياة الدنيا ... وتدل ﴿ثُمَّ﴾ على طول هذا القيام .

و ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ جار ومجرور تتعلق بالفاعل فى ﴿دَعَاكُمْ﴾ والمعنى دعاكم بنداء صادر من جهة الأرض يوضحه ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(١) وقد رجح الزمخشري هذا التعلق فى كشفه لأنه يرى أن إذا الفجائية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها .

وذهب غير الزمخشري إلى أن الجار والمجرور متعلق بالمفعول وهو ﴿تَخْرُجُونَ﴾ . والمعنى أنكم بعد النداء تخرجون من الأرض ، وهذا القول أكثر بيانا ، وأحسن فائدة لأنه يوضح خطأ المشركين حين تصوروا استحالة حدوث خروج من الأرض بالبعث بعد أن ترم الأجساد ، وتقنى الأبدان ، وقالوا فى ذلك ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾^(٢) ؟

وأما القول بعدم عمل ما بعد إذا الفجائية فيما قبلها فالأمر فيه قائم على التوسع والمجاز .
وجئ بحرف المفاجأة ﴿إِذَا﴾ فى قوله : ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ لإفادة سرعة خروجهم إلى الحشر فى صورة عجيبة ، وحركة واضحة حيث التتابع الكثيف من الموتى أثناء الخروج .
وجعل المبتدأ ضمير المخاطبين ﴿أَنْتُمْ﴾ ليعلم مشركو مكة أنهم سيبعثون ، وسيحاسبون ، وسينالون مصيرهم الأليم .

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة النمل ، الآية ٦٧ .

مؤيدات تؤكد آيات الله المذكورة

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ۚ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۚ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۚ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات البراهين المؤكدة لوحداية الله وقدرته ، وتضرب المثل المبين لضرورة إنزال الله منزلته ، والإيمان بالبعث ، وحتميته العقلية والشرعية ، وترك اتباع الهوى والضلال .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

تتناول الآيات بعض البراهين المؤكدة لقضيتين اشتملت عليهما الآيات السابقة وهما وحداية الله تعالى ، وقدرته على البعث والحشر بعدة أساليب بيانية وهي :

(١) التقرير والتأكيد :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلُّ لَّهُ ۚ قَنِينٌ ﴾ أى إن من الحقائق الثابتة التى يؤمن بها العقلاء ، ويسلم بها الناس أنهم يطيعون الله ، ولا يمكن لأحدهم معارضه القدرة الإلهية ، فهم فى صحتهم

(٧٠)

ومرضهم ، وحياتهم وموتهم ، وسعادتهم وشقاوتهم ، وكافة أمور حياتهم يخضعون للقدرة ، ويستسلمون لها ، وإن كفر بعض الخلق ، وادعى لنفسه أمرا فهو كاذب لأنه لن يبعد عن نفسه الموت حين مجيئه ، ولن يتخلص من الهزيمة حين وقوعها ، وسيسارع إلى القيامة حين يناديه المنادى ، وسيحشر للحساب عبدا ذليلا وحده ، ممتثلا لقضاء الله فيه .
وقد دل أسلوب الآية على تأكيد هذه الحقيقة ، فتقدم الجار والمجرور ﴿وَلَهُ﴾ تؤكد حصر القدرة المالكة لله وحده .

وايراد اسم الموصول ﴿مَنْ﴾ لبيان شمول القدرة المالكة لكل المخلوقات ، وتنتهى الآية ببيان الكلية الشاملة لكل مخلوق وتبين خضوعه وطاعته لله تعالى .

(٢) ضرب المثل على سهولة البعث :

يقول الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى أن الأمر كله بيد الله تعالى فهو الذى خلق الأشياء كلها من عدم محض ... ولا يستطيع مشرك أن يدعى خالقا غير الله تعالى ، ولا أن يوجد مخلوقا هينا مثل الذبابة .
والقدرة على بدء الخلق تؤكد القدرة على الإعادة والتركيب فشأن الصانع أن ينشئ جزئيات الآلة ويركبها ، فإذا فكك أجزائها سهل عليه أن يعيدها بأجزائها الأولى مرة أخرى والله المثل الأعلى .

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أى أن الإعادة أخف وأسهل من الإبداع ، هذا فى شأن الناس ، وهى فى قدرة الله تعالى أجل وأعظم .

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى والله المثل الأعلى والوصف البديع فى السموات والأرض ، وأنه لا إله إلا الله ، تعالى عن الشبيه والنظير ، فالبدء والإعادة من مكنون قدرته ، تتم بقوله : "كن" ، وإنما جاء ذكر

أن الإعادة أهون من البدء تقريبا لعقول البشر ، وكل الممكنات فى الدنيا والآخرة بالنظر إلى قدرة الله سواء .

يقول الإمام الغزالى : لا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة ، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم إلى ضوء الشمس ، ولكنهم ينالون منها ما تحيا به أبصارهم ، وقد تأنق بعضهم فى التعبير عن وجه اللطف فى إيصال معانى الكلام المجيد إلى فهم الإنسان لعلو درجة الكلام المجيد ، وقصور رتبة الأفهام البشرية .

ومن حسن الخطاب النزول به إلى مدارك المخاطب ليفهمه ويعيه فإن الناس إذا أرادوا أن يفهموا الدواب ما يريدون من تقديمها وتأخيرها ونحوه ، ورأوها تقصر عن فهم الكلام الصادر عن العقول مع حسنه وترتيبه نزلوا إلى درجة تمييز البهائم ، وأوصلوا مقاصدهم إليها بأصوات يضعونها لاثقة بها من الصغير ، ونحوه من الأصوات القريبة من أصواتها^(١) .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى وهو الله الغالب القدير الذى يضع كل

أمر فى موضعه الصحيح ، واختار الله ختم الآية بهاتين الصفتين لأنهما الصفتان اللتان تظهر آثارهما فى الغرض المتحدث عنه ، وهو بدء الخلق واعادته ، لأن العزة تفيد تفرد بالقدرة الغالبة ، والحكمة تفيد دقته فى الخلق والبعث والحساب .

(٣) ضرب المثل بالواقع البشرى :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى بين الله لكم شبيها من أنفسكم ،

ووضع مثلا تدركونه بحواسكم وخصكم به ، وجعله لكم لتفهموا وتعقلوا .

(١) التحرير والتتوير ج ٢١ ص ٥٤ .

وقد جعل الله هذا المثل مأخوذاً من واقع حياتكم أيها الناس ليكون واضحاً معروفاً مسلماً ، لأن الإنسان أعرف بنفسه ، وما يجول فيها من خواطر ، ومعان ، وخیالات ، وحقائق .

وهذا المثل مضروب للذين يجعلون الله أنداداً وشركاء لينظروا لأنفسهم ، ويتأملوا في الصلة بينهم وبين عبيدهم ، ليأخذوا منها واقعا يقدره الله فيه وينزلونه منزلته المقدسة الواجبة .

وفى المثل يقول الله تعالى للمشركين : ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ ؟ ... والاستفهام إنكارى حيث يسأل الله المشركين عن أمر لا يقبلونه على أنفسهم وفى حياتهم ، ولا يدفعون عن الله ما لا يرضونه لأنفسهم . ومعنى المثل فى صيغة سؤالهم : هل ترضون أيها السادة الأحرار أن يشارككم عبيدكم فيما تملكون من مال ومتاع ، وأن يكونوا أنداداً لكم ، وشركاء لكم فى كل شئ ؟

– وهل ترضون أن يحاسبكم العبيد كما تحاسبونهم ؟
– وهل تقبلون أن يشترك العبيد معكم فى الرأى والقرار كما تشاركونهم فيه؟

– وهل تقبلون أن تقسموا ما تملكون بينكم وبين العبيد بالتساوى فيصيروا شركاء لكم ؟

هذه أمور لا يقلبها السادة أبداً مع العبيد مع أنهم جميعاً من البشر ، وهنا ينكر الله على المشركين اتخاذهم لله شركاء من خلقه ، يسوون بينهم وبين الله الواحد مع أن الله مالك كل شئ ، وكل الخلق محتاج إليه ، وراجع إليه .

﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى تقبلون على أنفسكم أن تخافوا من عبيدكم إذا قصرتم فى التصرف معهم ، كما يخاف بعضكم من بعض عند

(٧٣)

التقصير ؟ ... وهل يعترىكم الخوف من مؤاخذتهم ، وعقوبتهم كما يخاف العبد المقصر أمام سيده ؟

وغاية السؤال أن السادة لا يفعلون ذلك مع العبيد ، وتبكيتم المشركين على ما يفعلونه مع الله تعالى حين يعبدون شركاء معه ...

وهذا المثل تشبيه هيئة مركبة بهيئة مركبة لاستخراج صورته مركبة .

فقد شبهت الهيئة المنتزعة من زعم المشركين أن الأصنام شركاء لله في التصرف ، وتدفع عن أوليائها ما يريد الله من تسلط عقاب أو نحوه مع أنهم يعترفون بأنها مخلوقة لله .

هذه الهيئة شبهت بهيئة ناس لهم عبيد صاروا شركاء في أرزاق سادتهم على السواء ، وصار سادتهم يحذرونهم إذا أرادوا أن يتصرفوا في تلك الأرزاق مخافة أن يكون تصرفهم غير مرضى لعبيدهم .

وهذا التشبيه وإن كان منصرفا للمجموع المركب من الهيئتين لإعطاء جامع مشترك هو وجه الشبه ، وهو التساوى بين الأعلى والأدنى ، وبين القادر والعاجز .

وهذا التشبيه قابل للتفريق في أجزاء ذلك المركب ، بتشبيه مالك الخلق كلهم بالذين يملكون عبيدا .

وتشبيه الأصنام التي هي مخلوقة لله تعالى بممالك الناس .

وتشبيه تشريك الأصنام في التصرف مع الخالق في ملكه بتشريك العبيد في التصرف في أرزاق سادتهم .

وتشبيه زعمهم عدول الله عن بعض ما يريد في الخلق لأجل تلك الأصنام ، وشفاعتها بحذر أصحاب الأرزاق من التصرف في حظوظ عبيدهم الشركاء تصرفا يابونه .

فهذه الهيئة المشبه بها هيئة قبيحة مشوهة في العادة لا وجود لأمثالها في عرفهم فكانت الهيئة المشبهة منفية منكرة ، ولذلك أدخل عليها استفهام الإنكار والجحود ﴿ هَلْ لَكُمْ ﴾ ؟ لينتج أن الصورة المزعومة للأصنام صورة باطلة بطريق التصوير والتشكيل إبرازا لذلك المعنى الاعتقادي الباطل في الصورة المحسوسة المشوهة الباطلة^(١) .

﴿ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى وبمثل هذا التفصيل فى المثل توضح الآيات الدالة على وحدانية الله ، وقدرته لأناس يستفيدون بعقولهم وأفهامهم ، ويتنزهون عن المكابرة ، ويرغبون فى الحق ... وهم بذلك يتميزون عن أهل الغواية والضلال ، الغافلين عن الحق وعن الصراط المستقيم .

سبب ضلال المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا هُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآيات سبب ضلال المشركين وهو أنهم أتبعوا الهوى ، وتركوا العلم والعقل ، فأضلهم الله لميلهم إلى الهوى ، فاستمروا فيه ، ولم يجدوا من دون الله وليا ولا نصيرا .

(١) التحرير والتتوير ج ٢١ ص ٨٦ بتصرف .

(٧٥)

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ "بل" للإضراب

الانتقال ، وبه تنتقل الآية إلى بيان سبب ضلال المشركين وعدم تنزيهم لله تعالى ، فقد ظلموا أنفسهم بالشرك ، وعبدوا أصناما اتخذوها شركاء لله بسبب أتباعهم للهوى ، وجهلهم بحق الله تعالى ، وتمادوا في باطلهم ، ولم يتدبروا في الآيات من حولهم حتى صار الشرك جبلة فيهم .

﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ ؟ ... والسؤال إنكارى لبيان عدم وجود

كائن ما يهدي من خلق الله فيه الضلال ، وهىء للظلم بسبب حبه وميله للشرك .

﴿ وَمَا هُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ أى وليس لمن أضله الله نصير ينقذه من

عذاب الله ، أو يتولى أمره في الآخرة .

- ٣ -

الركائز المستفادة

من الآيات السابقة

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أثر التكرار وأسراره

يورد القرآن الكريم في آيات عديدة البراهين والأدلة التى تثبت وحدانية الله تعالى ، واستحقاقه أن يعبد وحده ، ونلاحظ في آيات القرآن التى تناولت الآيات الإنسانية والكونية ... ما يلى :

أولا : إيراد القرآن الكريم لآياته وبراهينه تختلف في كل مرة عن غيرها ولو في بعض الجزئيات ... فهى أحيانا تركز على جوانب القدرة العظيمة ، وفى

أحيان أخرى تتجه إلى جوانب التأثير في الإنسان وفي أحيان أخرى تتعاون مع صاحبها في توضيح موضوع السورة ، وأغراضها .

ثانيا : تأتي الآيات الإنسانية والكونية للتدليل على قضية إيمانية تحدثت عنها الآيات قبلها فتتوافق معها ، وتؤيد مقاصدها ، ولذلك فهي تعد برهاناً للموضوع الذى ذكرت معه .

ثالثا : تشير كثرة الآيات ، وتكررها إلى عناية الله بالإنسان ، لأنها تواجه عقله ، وعواطفه ، وتحيطه بالبرهان والدليل ، ولا تدعه يعيش بعيداً عن علامات القدر الإلهية .

رابعا : يختلف النظم القرآنى في كل مرة ليناسب المدعوين الذين يسمعون آيات الله تعالى .

خامسا : يراعى تكرار الآيات في القرآن الكريم طبيعة الإنسان ، فهو سريع النسيان ، شديد النكران ، تأتية الشبه والخواطر التى تبعده عن الحق ، ولذلك كان التكرار تذكيراً لما نسى ، وتقديم الدليل بعد الدليل حتى يبعد الإنسان عن النكران والجحود ... ويزيل عنه مزاعم الضالين ، وشبه الأفاكين وتقسح أمامه الطريق إلى الحق والإيمان .

سادسا : يدل تكرار البراهين والحجج في القرآن الكريم على أن موضوع الإيمان هو القضية التى نزل القرآن الكريم من أجل تحقيقها ، وما عداها فهو فرع لها ، وأثر من آثارها .

إن الإيمان بالله تعالى هو قضية الرسل جميعاً ، وهى أساس الرسالة المحمدية ، ولذلك كانت هى رسالة القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى لبيان قضايا الإيمان ، والبرهنة على صدقها ، وإبطال ما عداها ، وتوضيح ضلال من لم يؤمن بالله ، وعارض رسل الله إليه .

إن القرآن الكريم يعرض الآيات المبهرة ذات التأثير في الإنسان ليحببه في الإيمان ، ويزينه أمام أبصارهم ، وبصائرهم .

الركيزة الثانية

ضرورة استفادة الإنسان بطاقات الإدراكية

خلق الله الإنسان ، ورزقه كثيرا من الطاقات التى يدرك بها الحقائق التى تحيط به وتهمه ، وأهم هذه الطاقات الإدراكية هى :

الطاقة الأولى : وهى قوة الإدراك الحسى فى الإنسان ، وبها يبصر الإنسان ويحس ، ويسمع ، وهو بهذا الطاقة يدرك الكون المحسوس ليصل بذلك إلى معرفة من خلقه وأوجده .

الطاقة الثانية : وهى قوة الإدراك العقلى ، وبها يفكر الإنسان فى الوجود الموجود ، ويجتهد إلى معرفة صانعه وهو الله تعالى .

الطاقة الثالثة : وهى قوة الإدراك الروحى ، وهى قوة العواطف الوجدانية التى تتعلق بالحسن والجمال ، ويتأثر بالغرائب والعجائب ، وبها يحب الإنسان ويكره ، وحولها يكون الإخلاص ، والصدق ، والوفاء .

الطاقة الرابعة : وهى قوة الإيمان بالله التى يدركها كل من استفاد بطاقات الأخرى ، وآمن بالله تعالى ، وصدق بما جاء به رسول الله ﷺ وبسبب هذه الطاقة يقبل المجاهد على الاستشهاد أملا فى أن يحيا فى الآخرة .

هذه هى طاقات الإنسان ، ولها تتجه آيات القرآن الكريم لتعمل الحواس ، ويفكر العقل ، وتسمو الروح ، وتنشط قوى الإيمان فى الإنسان فيهدى ، ويستقيم .

ولقد جاءت الآيات القرآنية هنا لتحرك جوارحه : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ولتشد انتباهه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ولتنشط عقله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ... ولتنثير عواطفه وروحه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

إن طاقات الإدراك في الإنسان هي التي تميزه عن سائر المخلوقات وإذا عطلها ، ولم يستفد بها فقد تحول إلى حيوان أعجم لا يهتمه إلا الأكل والشرب ، والتلذذ المادى (كما يتمتع الأنعام) .

وإذا عطل الإنسان طاقته الإدراكية يدنو إلى أقل من درجة الأنعام لأن الأنعام تستفيد بطاقتها التي جعلها الله لها ... أما الإنسان حين ضلاله يهمل طاقاته ، وينتكس ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(١) .

ومهمة الدعاة أن يخاطبوا الإنسانية في الإنسان ، ويحركوا ملكاته وطاقاته ليكون عبدا مخلصا مطيعا لله رب العالمين .

الركيزة الثالثة

منهجية الدعوة إلى الله في الآيات

توضح الآيات منهجا دعويا يحسن استفادة الدعاة منه ، وأساسيات هذا المنهج ما يلي :

أولا : تورّد الآيات النعم والأفضال التي جعلها الله للناس ، وأبقاها لهم يتمتعون بها ، ويرونها ، ويلمسون حاجتها إليهم .

فخلق الذكر والأنثى ، وتشريع الزواج لهما ، وبناء أسرة منهما تحقق السكن ، وتوجد المودة والحب ، وتساهم في تعمير الدنيا ، وتقدم بذلك آية يعيش فيها كل إنسان .

وخلق الإنسان في أطوار متتابعة تبدأ بالعلوق ... إلى أن يموت آية عظمى لا ينكرها عاقل من الناس .

وخلق الليل والنهار ، وتهيئة الإنسان لينام ليلا ، ويعمل نهارا آية كبرى تؤكد التكامل في الوجود ، وتوضح مدى الرعاية والعناية التي قدرها الله للناس .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

وهكذا سائر المخلوقات التى وضحتها الآيات تضم صورا عديدة لنعم الله تعالى على الإنسان ... ولهذا كانت واقعية الآيات وصلتها بكل إنسان ... وهذا يجعل الفكر العقلى يعيش مع الإنسان ، وهو يتأمل ، ويفكر .

لقد أطلق الفلاسفة مسمى "السوفسطائية" على فلاسفة الإغريق لأنهم أخذوا العقل إلى ما فوق الطبيعة للبحث عن أصل الوجود ، فلم يصلوا لشيء ، ولم يفيدوا أحدا ، حتى جاء "أرسطو" وطالب بأن يعيش الفكر الإنسانى مع الإنسان ، ونادى بمقولته : (إعرف نفسك بنفسك) .

إن الآيات فى السورة تعيش مع الواقع الإنسانى أملا فى أن ينظر الإنسان فى نفسه ليصل إلى خالقه وباريه .

وتلك نقطة هامة فى منهجية الدعوة نأمل أن يعيها الدعاة ليعيشوا مع المدعوين ويعرضوا فضل الله عليهم .

ثانيا : الآيات تشير إلى ترتيب عقلى له أهميته فى الإقناع والتأثير لأنها تبدأ بخلق الإنسان من تراب إلى أن صار هذا الإنسان الفرد بشرا كثيفا يملأ الأرض كلها .

ثم تأتى إلى بيان خلق الحياة الزوجية من ذكر وأنثى ... ومنهما كان التناسل ، وكانت الذرية ، مع بيان ما فى هذه الآية من عجب حيث إيجاد المودة ، والسكن بينهما ، وإيجاد الوحدة الكاملة فى هذه الثنائية التى كانت مختلفة قبل هذا التوحد .

وتنتقل الآيات إلى النعم التى أحاط الله بها الناس جميعا بعد تكاثرهم وانتشارهم فى الأرض ، ولذلك تبين الآيات :

- جعل السموات والأرض مجالا لحركة الإنسان ، وعمله ، وعلمه .
- تأثير البيئة المكانية ، والزمانية ، والحيوية فى الإنسان فاختلقت الألسنة وتعددت الألوان ، وتغايرت المقاصد والمهام .

- إعطاء الإنسان بصورة عامة كل ما يساعده فى الحياة ، وتمكينه من النوم بعد التعب ، والأكل إذا جاع ، والرى إذا عطش .
- تسخير المخلوقات لخدمة الإنسان ، فماء ينزل من السماء ، وأرض تنبت زرعاً وشجراً ، وقيام كل مخلوق بما خلق له .

إن هذا الترتيب فى الآيات ... وهذا التكوين المنسق للمخلوقات يؤكد للدعاة ضرورة ترتيب كلامهم ، وأفكارهم ، وتقسيم الفكرة إلى عناصر يمهّد السابق اللاحق ، ويتم اللاحق ما سبق ... وبهذا تقدم الدعوة فكرة واحدة فى الموضوع والدليل والأثر .

ثالثاً : تهتم الآيات بإظهار فضل الله تعالى فى تحليل موجز يساعد على التفهيم والإقناع ، فيربط الفضل بأثره ، فإيجاد الإنسان من تراب أحاطته رعاية الله تعالى حتى ملأ الأرض بشراً منتشراً فى ذبوعها للعمل والسعى ، والكدر والمعاش ، وبهذا التحليل الإجمالى توضح الآيات الحياة الزوجية ، وحركة الليل والنهار ، وقيام السماء والأرض بقدرة الله تعالى ، وإحياء الأرض بالماء .

إن الآية تصل إلى عمق الإنسان ، ويمكن للدعاة أن يدعو الناس بهذه الآيات مستقيدين بأبحاث علماء الإعجاز القرآنى ، وما بينوه من وجوه إعجاز القرآن الكريم .

الركيزة الرابعة

مقاومة عوامل الكفر فى الإنسان

خلق الله الإنسان مجبولا على الإيمانىة ، وأنزل دینه متلائما مع فطرة الإنسان التى ولد بها ... إلا أن الشيطان أخذ يعمل على إضلال الناس بعد أن أنظره الله تعالى ، ولذلك نشأت فى حياة الإنسان أمور أبعدته عن الخير ، وأخذته إلى الكفر والجحود .

ومسئولية الدعاة اكتشاف هذه العوامل الضارة والتخلص منها ليفي الإنسان إلى أمر الله تعالى .
وأهم هذه العوامل هي :

(١) **الجهل** : وهو يعنى عدم معرفة الأمور على حقيقتها ، وتفريغ النفس من سبل الهدى لتمتلى بعد ذلك بسبل الضلال والفجور ، ولذلك كان الاهتمام الأول للإسلام هو التعليم ، لأن الجهل لن يهزم إلا به .

(٢) **الجمود** : وهو يعنى ثبات الإنسان على حالة واحدة لا تتغير مهما تغيرت الحقائق ، والجمود لا يفيد فى شئ ، ولذلك كانت معاملة الواقع بما يناسبه ، ومن المعلوم أن التغيير هو من ضرورات الحياة أما الجمود فهو ضار بصاحبه ، لأنه يبقى الضال على ضلاله ، ويحكم باستمرار الفساد فى حياة الناس .

(٣) **التقليد العنصرى** : والمراد به تقليد الآباء والأجداد على ما كانوا عليه من جهل وكفر ، وهذا التقليد يعمى العين ويفسد العقل ، ويصم الأذن عن السمع ، ويطمس الروح فلا تتحاز لجمال ، ولا تتأثر بالجلال والكمال .

(٤) **تعطيل أدوات الإدراك** : ومعناه أن لا يستفيد الإنسان بطاقاته المعرفية ، ويستمر على ما هو عليه ، كالحیوان يأكل ، ويشرب ، ويعيش حتى يموت .
إن تحديد عوامل الكفر فى المجتمع ، وبين الناس يساعد الدعاة على القضاء عليها ببيان ضررها ، وإظهار الفوائد المرتبة على تجنبها ... وتلك كلها أمور ضرورية لنجاح الدعوة ، لأن المريض لا يشفى إلا بالقضاء على المرض ، والتخلص من الآفة التى تسببه ، ولن يمتلى الإناء بالخير إلا بعد تفريغه من الشر وتطهيره مما علق به من سوء .

وقضية الدعوة تحتاج إلى هذا التطهير العلاجى لتستقيم الأمور على منهج الله ، وتتجح الدعوة بين الناس .

دعوة المؤمنين إلى الاستقامة

يقول الله تعالى :

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ مُبِينًا إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا ۚ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٢﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين يخضعون للهوى عنادا وجهلا جاءت هذه الآيات تسلي رسول الله ﷺ وتأمره والمؤمنين معه بالاستقامة على منهج الدين الذي ارتضاه الله لهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى أمر رسوله أن يهتم بإقامة الدين كما أمره الله تعالى ، فقد خلق الله الإنسان على الفطرة ، وأمره أن لا يهتم بما يفعله المشركون ، وأن لا يلتفت إلى عنتهم واصرارهم على الشرك ، فقد فرقوا دينهم وصاروا شيعا وأحزابا يفرح كل منهم بما هو فيه رغم الضلال والكفر .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أى اتجه يا محمد بقصدك ، ونيتك ، وعقلك ، وجوارحك ، وبكيانك كله إلى الله تعالى .

واقامة الوجه تقويمه ، ووضعه في اتجاه معين ، والأمر في الآية لرسول الله ﷺ ، وهو عام للمؤمنين جميعا ليتجهوا بأعمالهم إلى الله مخلصين له الدين.

والأمر يشمل جوارح الإنسان كلها ، وإنما خص الوجه لأن به تتم المواجهة وهو أشرف ما في الإنسان .

و "ال" في الدين للعهد ، والمراد به الدين المعهود وهو دين الإسلام الذى بلغه رسول الله ﷺ ونزل به الوحي الذى يتميز بكونه ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى مستقيما مائلا عن الجور ، خاليا من الباطل ، متصفا بالحق ، بعيدا عن الشرك .

﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الفطرة هى أصل الخلقة التى خلق الله الإنسان عليها ، وتشمل النظام العقلى والجسدى المكونين للإنسان قبل أن يتأثرا بمؤثر خارجى بعيد عنهما ، فقد خلق الله الإنسان يمشى برجله ، وينظر بعينه ، ويفهم بعقله ... ويميل للخير ، وينفر من الشر بعاطفته ... وهذا هو الإنسان قبل أن يفسده عمل المفسدين .

ومعنى أن الله فطر الناس على الفطرة أى خلقهم أسوياء قابلين لأحكام الدين ، وجعل تعاليم الدين مناسبة لطبيعتهم ... فلو ترك الإنسان لعقله المجرد من غير إملاء عليه ، أو تأثير فيه لوصل إلى التوحيد بنفسه ، لأنه مهيا لأن يختار بفطرته الصواب حين ينظر فى مصنوعات الله ، ويتدبر فى أمر الخلق والتكوين .

والإنسان يميل بفطرته إلى دين الله تعالى ما لم يعرض له عارض خارجى يأخذه بعيدا عنه ... يقول النبی ﷺ : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها

من جدعاء" ^(١) ومعنى الحديث أن الإنسان مفطور على الإيمان إلا أنه محكوم بحكم أبويه الكافرين وتأثيرهما فيه ...

يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله وهو يشرح الحديث كل مولود يولد على خلقته التي خلقه الله عليها كما هي في علم الله تعالى من السعادة والشقاوة ، فكل مخلوق في التحيز صائر في العاقبة إلى ما فطر عليه ، وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها ، فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يولد بين يهوديين ، أو نصرانيين ، أو مجوسيين فيحملانه على اعتقادهما .

فكل مولود في مبدأ الخلقة يكون على الجبلية السليمة والطبع المتهبئ لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها لأن هذا الدين موجود بحسنه في العقول السليمة ، وانما يعدل عنه من عدل إلى غيره بسبب آفات التقليد ونحوه ، فمن سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره . ثم إن أبناء اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والملاحدة وغيرهم يتبعون آباءهم ، ويميلون لأديانهم ، ومذاهبهم ويتركون الفطرة التي خلقوا عليها .

ومعنى قوله ﷺ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟! أى إن البهيمة تلد بهيمة مستوية الخلقة ، كاملة الأعضاء ، فهل ترون فيها أذنا مقطوعة ؟ ... ولن تقطع الأذن بعد الولادة إلا بفعل فاعل ، وهكذا الناس يفسدهم إتباعهم لآبائهم ، والميل إلى أديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة ، والحجة المستقيمة بقوله : "كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء" . أي كما تلد البهيمة بهيمة مستوية لم يذهب من بدننها شئ وقوله : "هل تحسون فيها من جدعاء" يعنى هل تشعرون أو تعلمون أنها ولدت جدعاء مقطوعة الأذن والأنف ^(٢) ؟ ...

(١) صحيح البخارى . كتاب الجنائز . باب ما قيل في أولاد المشركين ج ٢ ص ١٠٠ .

(٢) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

وقد أرسل الله رسله لتأكيد عوامل الفطرة في الإنسان ، واطهار ما خفى منها ، ورد غوائل الهادمين لها ، وصيانتها بالبلاغ والدعوة ، والتذكير بآيات الله تعالى ، والتعريف بصور الفساد التى ينشرها المفسدون لطمس الفطرة في الإنسان ، واستبدال غيرها بها .

إن أعداء الإسلام يعملون على قتل الفطرة الإنسانية بإذاعة الفحشاء والمنكر ، ونشر المغريات المادية والجسدية التى تضل الإنسان وتشيع الفاحشة وتزين المنكر ، وتبعد الإنسان عن الحق بعدا شديدا ... وتضع بين الإسلام وبين الإنسان حاجزا يمنع تواصلهما ، وتربطهما .

إن عقيدة الإسلام تتفق مع منطق العقل ، وفطرة الروح ، وشريعته تتفق مع مصلحة الإنسان وحاجاته ... ولذلك يلجأ خصوم الإسلام إلى إذاعة الأوهام الضالة ، والعادات السيئة ، ونشر الأخلاق الرذيلة ، والمعاملات الضارة بين الناس بصور عديدة ، في قوالب عملية أو أقوال نظرية حتى يألفها الإنسان ، ويرتبط بها .

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى لا تغيير لفطرة الدين ، في الإنسان ، ولا

في تلاقى الدين مع الإنسان سوى ...

وقيل هذا خبر بمعنى الإنشاء ، ومعناه لا تغيروا فطرة الله التى خلقكم الله عليها ، وصونوها من العدوان عليها ، واحفظوها لتحفظوا بها دينكم وأنفسكم ... واعلموا أن العقل وديعة لدى صاحبه يتأثر بما يقدم له فلا تقدموا لعقولكم إلا الحق والصواب ، واتركوا وساوس الخناسين من الجنة والناس .

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ الإشارة إلى دين الإسلام لتعظيمه ، وبيان

اشتماله على الاستقامة ، وخلوه من الشرك ، واعتداله في أوامره ونواهيه .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وأكثر الناس هم المشركون

فهم لا يعلمون حقيقة الإسلام بعدما شوه أباؤهم صورته ، وكذبوا عليهم بادعاء زيف الإسلام وقصوره ، فصاروا في جهل عميم لا يعرفون عن حقيقة الإسلام شيئاً ... وهذا جواب لسؤال قد يسأله إنسان ما ، وهو ... مادام الإسلام ديناً قيماً خالياً من العوج فلم عدم إيمان كثير من الناس به ؟

إن الذين جهلوا الإسلام هم المشركون الذين أطاعوا كبراءهم ، وهم أهل الكتاب الذين أطاعوا رؤساءهم ، وهم الماديون الذين ضلت عقولهم فعاشوا في فلسفات قاصرة ، وجدل عقيم .

وبقابل المؤمنون هذه الأكترية بإيمانهم ، وإخلاصهم ، ومقامهم عند الله تعالى . ويقينهم بقوله سبحانه وتعالى :

- ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .

- ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾^(٢) .

﴿ مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ ﴾ هذه حالة النبي ﷺ والمؤمنين معه ، والتمسكين بالحق ، الملازمين للفترة ، فهم مطيعون لله بصورة مستمرة ، مستغفرون له في كل حال إن أطاعوا شكروا ، وإن أخطأوا ندموا واستغفروا .

﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى إن هؤلاء المؤمنين أنابوا إلى ربهم ، وخافوه ، ورجوا رضوانه ورضاه .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى أدوا الصلاة على وجهها ، وحافظوا على أوقاتها ، وأركانها ، وشروطها .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٣٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١٠٠ .

وقد ساقَت الآيَة أحوال المؤمنين وأوصافهم مساقا حسنا بليغا ، فبدأت بالإنابة وهى والرجوع إلى الله ، واللجوء إليه سبحانه ، وذلك بتصحيح الفطرة ، ومعالجة كل ما عرض لها من آفات ، ولهذا جاء بعد ذلك ، الأمر بتقوى الله ، وإقامة الصلاة ، حيث يلتقى هذا الأمر مع فطرة سليمة ، أناب أصحابها إلى الله ، ورجعوا إليه ، بعد أن بعدت بهم الآفات المادية عن الطريق المستقيم .

وقدمت الآيَة الأمر بالتقوى على إقامة الصلاة ، لأن التقوى ، وهى خوف الله وخشيته ، تجعل للصلاة ثمرتها ... فالصلاة ، وأية عبادة من العبادات أو أى قرينة من القربات ، لا محصل لها إلا إذا كانت عن إيمان بالله ، ومعرفة به ، وولاء وخشوع لجلاله وعظمته .

﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى اخلصوا لله فى العبادة ، والتقوى ، ولا تكونوا من هؤلاء الضالين الذين أشركوا بالله ، وعبدوا غيره ... وجهلوا كل شئ عن دين الله تعالى .

وأخذت الآيات تعرف بالمشركين التى نهت المؤمنين أن يكونوا منهم فقال تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى أن هؤلاء المشركين يتصفون بصفات عديدة منها :

(١) أنهم ليسوا على دين واحد ، فلقد عددوا صوره ، وصنع كل منهم ديناً لنفسه وجماعته ، وبذلك تعدد الدين مع أنه واحد إلا أنهم لضلالهم ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ وادعى كل منهم أنه على الحق دون سواه .

(٢) أنهم متفرقون فى أفكارهم ، واتجاهاتهم ، وأعمالهم فقد صاروا شيعا متحيزين بحيث تتجمع كل فرقة على رأى واحد ، وتتحاز له ، وتتوافق على متطلباته وحاجاته .

والشيعة تضم عددا من الاتجاهات ، ولذلك فهي أوسع دائرة من الحزب لأن الحزب يضم أصحاب الاتجاه الواحد ... ومعنى ذلك إن المشركين عدوا دينهم ، وانقسموا إلى جماعات كبيرة ، توزعت على فرق شتى مختلفة ومتعارضة .

(٣) اعتزاز كل فريق برأيه ، فلقد فرح كل فريق بدينه الذي وضعه ، واختاره لنفسه ، برغم تعارضه مع دين الآخرين ومذهبهم ، وقد ابتهج كل حزب بمذهبه ورضى به .

وفى ذكر هذه الأوصاف التى يتصف بها المشركون تحذير للمسلمين من أن يفعلوا في مثل ما وقع فيه المشركون ، فإذا اختلفوا في أمور الدين وهم يجتهدون في الأحكام ، أو وهم يبحثون في الآراء والسياسات فليحذروا أن يجرحهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعا متعادين متفرقين ، يلعن بعضهم بعضا ، ويذيق بعضهم بأس بعض .

- ٤ -

معنى الآيات

يأمر الله تعالى النبى ﷺ والمؤمنين معه أن يستقيموا على دين الله تعالى فهو دين الفطرة ولا يلتفت إلى ما يفعله المشركون الضالون فدين الله تعالى هو الدين المستقيم الحقيقى ، وما يتركه إلا الجهالة الذين يعجزون عن معرفة الحق واتباعه .

وتبين الآيات أن المؤمنين يلجأون إلى الله تعالى دائما ، ويرجعون إليه ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، ويحافظون على الصلاة ، ويؤدون العبادات ويبتعدون عن الشرك بعدا كليا ، ويهجرون المشركين وضلالهم لأنهم فرقوا دينهم وعدده ، وانقسموا إلى شيع وأحزاب ، وفرح كل فريق منهم بما ذهب إليه ... فليحذر المسلمون أن يكونوا مثلهم .

(٨٩)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإسلام دين الفطرة

الله خالق الخلق ، ومنزل الدين ... ولذلك اشتركا في أصل الوجود وتلاقيا وتلاءما في مسار الحياة ... فالإسلام هو دين الفطرة ، والإنسان خلق مجبولا على حب الفطرة ، والميل إليها ... ولا تتحقق سعادته ولا يستقيم أمره إلا في دين الله تعالى الذى كلفه الله به .

لقد أنزل الله الإسلام مكونا من عقيدة ، وشريعة ، وخلق ليرضى الإنسان ويشبع عناصره ، فالعقيدة ترضى عقله ، والشريعة تشبع بدنه وجوارحه ، والأخلاق تسعد روحه ، وعواطفه .

ومن علامات هذا التلاقى الفطرى بين الإنسان ودين الله تعالى أن الأديان كانت تأتى مناسبة للإنسان ، ملائمة لما هو فيه من عقل وتطور ، مراعية لبيئته ، ومستواه العقلى والفكرى ... فلما وصل الإنسان إلى قمة التطور جاء الإسلام دينا عاما للناس جميعا ، مستمرا إلى يوم القيامة .

إن الطاقات الإنسانية تأخذ الإنسان إلى مصدرها ، وتعيده إلى الله ، وتسعده بالمعية الربانية ... وخير الناس من قادته قواه إلى الله ، تذكره به ، وتسعده بشكره ، وتحبب إليه لقاءه ، وتجذبه إلى الطريق الصحيح الموصل إليه .

إن الإنسان الذى أكرمه الله بالفطرة ، وحفظها له يهيم بحب الله ، ويراه في كل خلقه ، ويطيعه في كل أمره ، ويستقيم له في كل أحواله وحالاته ترضيه العبودية لخالقه ، وتطمئنه الاستقامة في العمل والسلام .

(٩٠)

وأعداء الإسلام يحاربون الإسلام بأحد طريقين :

أولاهما : تشويه الإسلام بتشويه تعاليمه ، وتقديمها للمسلمين كأنها تعرقل تقدمهم ، وتحرمهم من لذائذ الدنيا ، وتخوفهم من العقوبات الدينية .

وثانيهما : تشويه الفطرة في الإنسان بإشاعة الفحشاء والمنكر في الفكر والعمل ، ونشر الخلاعة والمجون ، وإفساد عوامل التوجيه ، ومحاصرة الإسلام في طقوس قليلة ، واتهام المؤمنين بما ليس فيهم ، وحرمان المسلمين من التربية السليمة ، والعمل المستقيم ... وفي بروتوكولات حكماء صهيون دليل واضح على مخطط خصوم الإسلام .

وعلى الدعاة :

عرض الإسلام كما هو في الكتاب والسنة ، وبيان صلاحيته لكل زمان ومكان ، ورد كل ما يقال عنه ، ومناقشة الرأي بالدليل والبرهان ، وتفهم الناس الحق والصواب ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً^ط وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ^(١) 》 .

الركيزة الثانية

بيان صفات المؤمنين

خلق الله الإنسان بعدد من الطاقات والملكات ، والغرائز والدوافع ، ولذلك يتناوشه الخير والشر ، ويتجاذبه الفجور والتقوى ، ويعيش بين هذه العوامل المتعارضة لينتهي به الحال إلى الثبات على الإيمان ، أو الانزلاق إلى هاوية الضالين .

(١) سورة الرعد ، الآية ١٧ .

وقد بينت الآيات صفات المؤمنين ليتمسك بها العقلاء الصادقين ، وأهم صفات المؤمنين كما تدل عليها الآيات هي :

- (١) فهم يتصفون بالعلم الذى يفتح أبصارهم على آيات الله ، ويهذى بصائرهم بنور الله ، فيؤمنون بالله وهم بذلك راضون سعداء .
 - (٢) ويسرعون في التوبة والرجوع إلى الله إن أصابهم زيغ من الشيطان ، أو أتاهاهم ضلال من الناس .
 - (٣) ويخافون الله ويرجون عذابه فهو وليهم وربهم ، وهو الذى سيحاسبهم ويجازيهم .
 - (٤) ويؤمنون بدين الإسلام كما هو في الكتاب والسنة ، ويدعون ما عدا ذلك من ضلالات الفلاسفة ، ومتاهات المتكلمين .
 - (٥) ويفرحون بدين الله تعالى ، ويسعدون به ، ولا يستبدلون به غيره ، فهو دين الله الواحد الأحد ، المميز بصفائه ونقاؤه كما أنزله الله وحفظه .
- والمسلمون بهذا الإيمان يعلمون كل دخيل مزعوم في دينهم ، ولا يصدقون بها ، ولا يرونها شيئاً من دين الله تعالى .
- إن الدين الحق يحتاج إلى العلم به ، ولا سبيل لأعدائه إليه إلا بجهل أبنائه ، وعجز علمائه ... ولذلك وجب على الدعاة والعلماء أن يحفظوا دينهم ويحافظوا عليه ليردوا كل زيف ودخيل .

الركيزة الثالثة

بيان أثر الكفر في أصحابه

توضح الآيات أن الكفر يضل أصحابه ، ويوردهم موارد الهلاك ، ويضعهم في منزلة سافلة لا تليق بالإنسان ... إلا أنها تظهر في الكافرين وهو :

- فهم جاهلون بالحقيقة ، وأول جهلهم عدم العلم بالإسلام ، وعدم معرفة أن الإسلام خلا من العوج واستقام على الحق والصواب .
- وهم يتخذون آلهة مع الله الذى خلقهم مع أنها لا تضر ولا تنفع ، وفى ذلك جحود لحق الله تعالى ، وتمسك بالباطل واتباع للزيف والهوى .
- وهم قد ارتضوا أن يتعدد الدين ، ويتناقض فى تعاليمه وحقيقته ولم يفكروا فى أن التوحيد لا يكون عددا ... ودين الله ثابت فى أصالته لا يكون أديانا .
- وهم راضون عن تفريق المتدينين ، وتحويلهم إلى شيع وإلى أحزاب تتحرك فى متاهات وخيالات تسمى إلى الله ، وإلى رسله ، وإلى الناس ... إن المشركين فى الزمن الحديث لم يغيروا من خصائصهم المذكورة ولذلك أن كثر ضلالهم وكفرهم ، وجعلوا الدين لهوا ولعبا ، وجعلوا الله كائنا ماديا بعيدا عنهم ، وقدموا شهواتهم ، واشباع غرائزهم على تعاليم الله ، واتباع دينه الحنيف .

أحوال المشركين مع الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أُذْأَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٩٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ ۖ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٩٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٩٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٩٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٧﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أدلة التوحيد ، وضلال المشركين جاءت هذه الآيات لبيان أحوال المشركين مع قدر الله تعالى لأنهم حين الشدة يتضرعون إلى الله ، وحين ذهاب الشدة يعودون إلى شركهم وضلالهم ، فليفعلوا ما يريدون فإن لهم يوماً يرجعون فيه إلى الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين إذا نزلت بهم شدة لجأوا إلى الله واستغاثوا به وإذا جاءتهم رحمة الله ضلوا ، وكفروا ، وتدعوهم الآيات إلى أن يفعلوا ما يشاءون فإن يوم الحساب آت لا ريب فيه ، وسوف يجدون بما عملوا عذاباً أليماً ، ولن يجدوا لهم حجة تعينهم في يوم الحساب فقد عبدوا أصناماً ، واتخذوها آلهة بلا دليل من الشرع أو العقل ... وتتساءل الآيات عن سوء أحوال

المشركين ، وعدم ثقنتهم في ربهم مع أنه خلقهم ، ورزقهم كما يشاء سبحانه وتعالى ولو تدبروا في عطاء الله لأمنوا ، وصدقوا كما فعل المؤمنون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ تتناول الآية

بيان فطرة في الإنسان تعم المؤمن والكافر حين ينزل بهم ضر يلحق بأبدانهم أو معاشهم ، أو أحوالهم ، فإنهم يلجأون إلى الله تعالى ، ويطلبون منه رفع الضر والأذى ولو كان مسا قليلا .

وسبب هذا اللجوء أن المؤمنين يعلمون بفطرتهم ، وعقولهم أن أمرهم بيد الله فيلجأون إليه داعين مستغيثين ، وأما المشركون فتدفعهم الفطرة إلى العودة إلى الله فهو ربهم الذى خلقهم ليبعد عنهم هذا السوء الذى لا يقدر على رفعه سواه .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى أن

اللجوء إلى الله تعالى والرجوع إليه لا يستمر عليه جميع الناس ، فحين يرتفع الضرر ، ويخلصهم الله من الشدة ، وتتحقق الرحمة يعود فريق من الناس إلى الكفر والمعصية ، ونسيان الله ، وهم الفريق المشرك . أما المؤمنون فهم مستمرون على الإيمان ، و متمسكون بالعبودية الدائمة لله تعالى .

وهذا الموقف من فريق المشركين عجيب ينزل بمقامهم ورتبتهم كما تدل عليه ﴿ ثُمَّ ﴾ وتبين سرعة تقلبهم كما تدل عليه ﴿ إِذَا ﴾ الفجائية التى توضح ضلالهم وكفرهم بربهم الذى خلقهم ، ورزقهم ، واليه يرجع الأمر كله وكان

المأمول أن يستقيموا على الحق بعد رفع الضر عنهم إلا أنهم يفاجئون من يراهم بالكفر والشرك .

وعبرت الآية عن الضر بالمس ، وعن الرحمة بالإصابة لبيان أن المشركين لا يتحملون أى ضرر ، ولذلك يلجأون إلى الله مع المؤمنين حين وقوع أذى بسيط بهم ... وأن الرحمة إذا حلت بهم وكثرت فهم غافلون لا يذكرون الله بها .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ اللام لام

التعليل وهى تبين سبب جحود المشركين ، وعدم استفادتهم برحمة الله ، وهى أنهم يكفرون بآيات الله في أنفسهم ، وفى الكون ، وفى القرآن الكريم ، ولذلك يدعهم الله فيما هم فيه من ضلال فسوف يحاسبهم ويعاقبهم على شركهم ومعاصيهم .

وقد أمرهم الله بالتمتع بالكفر والضلال للتوبيخ والإنذار ، وسوف يعلمون سوء ما هم فيه ، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، وفى هذا الإنذار تحذير شديد من الشرك ، لأنه من الله تعالى ، ووعد الله لا يتخلف .

ويبين الله تعالى أن المشركين عبدوا آلهة اتخذوها من دون الله تعالى بلا دليل شرعى أو عقلى فقال تعالى : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ

بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ ... "أم" تفيد الإضراب والاستفهام الإنكارى ،

ومعنى ذلك إهمال محادثتهم ، وترك خطابهم ، واعتبار أن حضورهم عدما ، ولذلك انتقلت الآية من الخطاب إلى الغيبة ، وسألت منكرة عليهم ما هم فيه لأنهم يعبدون أصناما لم ينزل عليهم بها برهان أو لديهم حجة من العقل أو من الشرع ، وانما هو أمر اخترعوه وقلدوا فيه أباءهم ، وسفهاءهم بلا برهان

ولا دليل ، وسوف يسألهم الله عن ذلك . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ ^(١) .

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿ هذه حالة الإنسان الفطرية التي جبل عليها ، وذكرها في هذه الآية تأكيد لذكرها في الآية السابقة .

والفرق بين ذكر الآية في الآيتين أن الآية الأولى تتحدث عن الناس ، وتركز على عقيدتهم ، وتبين حالة المشركين خاصة فهم حين نزول الشدة يلجأون إلى الله لأنهم يقرون بربوبيته ، وحين زوال الشدة يعيشون مع أصنامهم التي عبدوها ، واتخذوها آلهة مع الله تعالى ... أما الآية الثانية فإنها تتناول أحوال المنافقين الذين لم يظهروا شركهم فهم يفرحون برحمة الله ، وحين الشدة يصيبهم القنوط واليأس .

وبعد ذلك بينت الآية سبب القنوط واليأس عند المنافقين ، والمشركين ، وهو أنهم يجهلون رحمة الله بعباده أجمعين فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ؟ ... والاستفهام إنكار لما هم عليه من قنوط ، ومعناه أنهم أصيبوا بالعمى ، ولم يروا رحمة الله بعباده جميعا . فقد رزقهم الله ، ومكن لهم في الأرض ... وقدر لهم ما يفيدهم فوسع الرزق لبعضهم ، وضيقه على آخرين ، ولو كانوا يعقلون ، ويفكرون في هذا التفاوت لآمنوا بالله في حالتي السراء والضراء كما آمن المؤمنون المخلصون .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٧ .

والرؤية المقصودة تكون بالبصر والبصيرة لمعرفة أحوال الناس ، واكتشاف اختلاف أرزاقهم ، لأن ذلك يدل على حدوث هذا الأمر بإرادة الله العليا ، وبتقدير مالك الملك ، المتصرف في العباد ... فيبسط الله الرزق ويوسع له بعض الناس ، ويضيقه ويقدره لآخرين ، بحكمة وتقدير ... فالأرزاق بيد الله ، يعطى منها ما يشاء لمن يشاء ... ذلك ما يعرفه المؤمنون بالله ، ويرضون بما قسم الله لهم ، فلا يبطر المؤمن إذا أصابته نعمة ولا ييأس ، أو يحزن ، إذا قدر الله عليه رزقه ...

﴿ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى إن فى عطاء الله ، وتنوع كيفة وكميته براهين ، وحججا للذين يؤمنون بالله تعالى لأنهم يرون قدرة الله فى كل فعل لله تعالى .

وهذه الآية هى أشبه بالتعقيب على الآية التى قبلها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ... وحتى ينجنب المؤمنون هذا الطبع اللئيم ، ويفعلون نفس الفعل ، ويعودوا إلى الكفر والقنوط بعد أن كانوا مؤمنين .

إن رجوع المنافق إلى الله رجوع شكلى ، لا صلة له باليقين والإخلاص ولم يقم على النظر والتأمل ... ذلك أنه لو نظر الإنسان إلى أحوال الدنيا ، وتقلبات الأيام ، وتبدل الأحوال ، ثم كان له من هذا النظر عبرة وموعظة لكان له من ذلك موقف رشيد حكيم ...

فإذا ساق الله تعالى إليه مزيدا من النعم والإحسان ، لم يستبد به الفرح ، ولم يأخذه الغرور ، لأنه يعلم أن ذلك إلى تبديل ، وتحويل ، وزوال ... وأنه إذا مسه سوء ، أو أصابه ضرر ، لم يقتله الجزع ، ولم يخنقه اليأس والقنوط ، لأنه

(٩٨)

يعلم . بإيمانه بالله . أن تلك الحال لن تدوم ، وأن مع العسر يسرا ، وأن بعد الضيق فرجا وسعة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الإنسان جبل على حب الخير والميل إليه ، ولذلك يفرح بالسراء والنعمة ، وإذا نزلت به شدة يختلف أمره ، لأن المشركين والمنافقين يتخذون آلهة غير الله تعالى يعبدونها حين الرخاء ، ويلجأون إلى الله حين الشدة بلا برهان أو حجة لما يفعلون ... أما المؤمنون فهم يؤمنون بالله تعالى ويعبدونه في حالتى السراء والضراء ، ويعلمون أن الله على كل شئ قدير .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية الإيمان بالقضاء والقدر

من قضايا الإيمان التسليم لقدر الله تعالى ، والرضا بخيره وشره ...
إن الله يختبر عباده ، ويبتليهم بالخير والشر ليظهر صالحهم ، ونقوم الحجة على القوم الكافرين .

ولذلك كان من شروط الإسلام الإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره .
إن المؤمن في البلاء يزداد إيمانا ، ويلجأ إلى الله داعيا وراجيا ليقينه أنه لا يقع في ملك الله أمر إلا بإرادة الله تعالى ، حتى إن من المؤمنين ليسعد بالسوء كما يرضى بالخير ... فلقد قال الله لرسوله : "لو أردت أن تكون حبال مكة ذهباً لكانت .

فقال ﷺ : لا يارب أجوع يوما ، وأشبع يوما ، فإذا شبعت حمدتك وشكرتك ، وإذا جعت تضرعت إليك ، ودعوتك" (١) .

إن المؤمنين يعلمون أن الخير الحقيقي في الآخرة ، ولذلك يعملون لها ، ويتحملون الأذى آملين في الفوز بها ، ولا تهمهم الدنيا فمتاعها قليل ، ونعيمها زائل ، وعمرها قصير .

إن المؤمنين في الدنيا عبيد لله ، يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، ويخلصون في العبادة ليجزون بصدقهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ (٢) .

الركيزة الثانية

بيان موقف المشركين من نعم الله تعالى

الكافرون بالله أناس ضل عقلهم ، وفسد تفكيرهم ، وعاشوا في ضلال مبين .

فهم يعلمون أن لكل موجود موجد ، ولكل مصنوع صانعا ، ومع ذلك لا ينظرون في خلق أنفسهم ولا في خلق ما حولهم ، ويسارع فريق منهم إلى الكفر بالله تعالى ، وعبادة غيره منكرين آيات الله وحججه التي ساقها إليهم وعرفهم بها .

وهم أيضا يؤمنون بأصنام وأوثان ، ويعبدون من دون الله تعالى بلا برهان عقلى ، وبلا دليل شرعى جحودا وتعننا .

(١) شعب الإيمان . كتاب الزهد وقصر الأمل ج ١٣ ص ٤٣ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٩ .

وهم لا يرون الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى واستحقاقه للعبادة ، ولا يعتبرون بها مع أنها معهم ، وبين أيديهم ، ومنها عطاء الله لهم جميعا فهو سبحانه يبسط الرزق لما يشاء ، ويقدره من يشاء بحكمة يعلمها الله ويريدها .
إن المشركين لا يستفيدون بآيات الله تعالى ويشقون وهم فى نعيم الله ، ويسارعون إلى الظمأ والعطش والماء حولهم من كل طريق .

إيصال الحقوق لأصحابها

يقول الله تعالى :

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُتُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُتُوا عِندَ اللَّهِ ۗ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٢٧﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدره من يشاء جاءت هذه الآيات تأمر بإعطاء الناس حقوقهم المالية ، وتبين أن الخير فى هذا العطاء فهو نفقة وزكاة تؤدى إلى تطهير المال ونمائه .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان ضرورة إعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم من النفقة والزكاة فهى خير وأعظم من الربا فى المعاملات المالية ، لأن الله يحب الإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين ، ويكره المعاملات الربوية فى حياة المسلمين .

الدلالات اللغوية

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ الفاء للتفريع تفيد

تفرع الأمر بعدها على الخبر المذكور قبلها . فقد سبق ذكر أن الله هو المعطى وأن المشركين يلهيهم الفرح عن الشكر ، وأن القنوط يبعدهم عن معرفة أنهم سبب الجزع والقنوط ، ولذلك فرغ الله عن قنوطهم ضرورة المحافظة على حقوق الناس ، فأمر بإعطاء ذوى القربى ، والمساكين ، وأبناء السبيل حقوقهم من المال لأن ذلك شكر لنعم الله تعالى ، وأداء الحقوق لأصحابها .

والأمر فى الآية لرسول الله ﷺ ، والمقصود به عامة المؤمنين ، والمعنى إعط أيها الرسول ، ومن تبعك من المؤمنين جزءا من مالك لأقربائك تقربا منهم ، ورعاية لهم ، وللفقراء المحتاجين الذين لا يملكون شيئا ، وللغريب المسافرين الذى انقطع عن ماله ، وبعد عنه .

وهذا الأمر نزل بمكة قبل الهجرة وهو يدل على وجوب الإنفاق من جانبيين :

أولاهما : صيغة الأمر ﴿ فَآتِ ﴾ وأمر النبى ﷺ بها يؤكد هذا الوجوب .

ثانيهما : بيان أن هذا الإيتاء حق ذوى القربى فى قوله : ﴿ حَقَّهُ ﴾

والحق يدل على الوجوب ، وكانت الصدقة قبل الهجرة واجبة على الجملة موكولة إلى حرص المؤمن على أدائها .

وقد أطلق عليها اسم الزكاة فى آيات مكية كثيرة، وقرنت بالصلاة ، فدل ذلك على أن المراد منها فى تلك الآيات الصدقة الواجبة ، وكانت غير مضبوطة بنصاب معين قبل الهجرة ، فلما استقر المجتمع ونشأت الدول ضبظت الزكاة بأصناف ، وأنصباء ، ومقادير تحدد إخراجها .

وانما ضبطت الزكاة بعد الهجرة فصار ما عداها من الصدقة غير واجب وقصر اسم الزكاة على الواجبة ، وأطلق على ما عداها اسم الصدقة أو البر أو نحو ذلك ، فجماع حق هؤلاء الثلاثة المواساة بالمال ، فدل على أن ذلك واجب لهم .

وأفاد الأمر بالإيتاء مجملا إعطاء المنفق فرصة التخير ، والتفاوت في الإعطاء حين يعطى فلكل حالة قدرها ، وليس كل المحتاجين على قدر واحد من الحاجة ، وصار لكل معط الحق في أن يفاوت بين محتاج ومحتاج .

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ اسم الإشارة يعود إلى المال الذي يأخذه الأقرباء ، وأصحاب الحقوق لبيان أنه خير وأفضل من الشح والبخل ، لأنهم ينفقونه طاعة الله تعالى ، ويبتغون به مرضاته ، ويتيقنون أنه ثواب مدخر لهم يجذونه عند الله يوم القيامة ...

وفى الآية إشارة ضمنية إلى أن من ينفق المال للرياء والسمعة ، ولا يريد به وجه الله تعالى لا ثواب له .

وقد يراد بـ ﴿ خَيْرٌ ﴾ الخبر دون التفضيل ، فالإنفاق خير ، وما عداه ضر واثم فلا مفاضلة بينهما .

﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى هؤلاء المؤمنون ، المنفقون ، المطيعون لله هم المفلحون على وجه الحصر والقصر ، فقد ربحوا بإعطائهم ، وحققوا المودة والمحبة ، وعلو الشأن في الدنيا ، وفازوا بجنات النعيم في الآخرة .

(١٠٣)

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوًا عِنْدَ اللَّهِ ﴾

الربا هو النماء والزيادة ، وهو فى الآية يفيد عدة معان :

(١) الربا المشهور وهو إعطاء المال مع رده بزيادة عليه .

(٢) إعطاء المال ليزداد مال من أخذه ليلتزم بطاعته .

(٣) إعطاء المال ليزداد مال الآخذ تقريبا وزلفى .

فهذه ألوان من الربا لا يقصد بها صاحبها وجه الله ، وقد يزداد بها المال إلا أنه لا يفيد إلا الفساد ، ولا يحقق للمعطى ثوابا عند الله تعالى ، ولا يجزى به شئ من الخير .

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُضْغِفُونَ ﴾ أى وما أعطيتكم من زكاة فرضها الله عليكم لمستحقيها تريدون

بها ثواب الله تعالى فإن الله يضاعف لكم الأجر والمثوبة .

يقول النبى ﷺ : "من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يصدق إلى

الله إلا الطيب فإنه الله يقبلها بيمينه ، ثم يرببها كما يربى أحدكم فلوه ، حتى

تصير التمرة مثل جبل" (١) .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان ضرورة إتيان ذوى القربى والمساكين وأبناء السبيل ما

يحتاجون إليه من مال ، فهو حقهم الواجب ، ولأن إعطاء المال لمستحقيه خير

من البخل والشح حيث لا خير فيها أبدا .

(١) مسند الإمام أحمد . مسند أبى هريرة ج ١٤ ص ١١٥ .

(١٠٤)

وتبين الآيات أن إيتاء المال لأخذه زائدا ، أو تقريبا للآخذ أو لتحقيق منفعة دنيوية فإنه لا يحقق ثوابا ، ولا يفيد صاحبه عند الله ، وأما إيتائه لإرضاء الله ، وكسب ثوابه ، فإن الله يتقبل العطاء ، ويضاعف ثواب المعطى وبيارك لصاحبه ، ويضاعفه له أجرا وثوابا عنده سبحانه وتعالى في الدنيا وفي الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

ما عند الله خير وأبقى

جاء الإسلام للناس ليبصرهم بأمور الدنيا والآخرة ، ويحدد لهم الطريق الذى يربطهم بالله ، ويسعدهم بالجنة ، ويوضح لهم الطرق التى تبعدهم عن الفوز والفلاح .

إن طريق الفوز هو طريق طاعة الله ، وإخلاص العمل له . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾^(١) .

إن عبادة الله تعنى طاعته فى كل ما أمر به ، والمحافظة على الحقوق لأصحابها كما حددها الله تعالى ، واعتبار أن الزيادة الصحيحة ، والنمو السليم هى زيادة الثواب ، ونمو الأعمال الصالحة ، والفوز بجنات النعيم .

إن إعطاء الزكاة ، والنفقات هو الذى يضاعف الأموال ، وبيارك فيها فى الآخرة ... وما قيمة مال يكتنزه صاحبه ، ويسلمه لورثته ، ولا يستفيد به فى آخرته .

(١) سورة البينة ، الآية ٥ .

(١٠٥)

إن الذين أضلهم الله وأعمى أبصارهم هم الممسكون . يقول الله تعالى :
﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(١) إنهم في الدنيا يبتعدون عن الناس ، ويقصدون الله ، وفي الآخرة
لهم عذاب أليم .

إن الممسك يمنع الزكاة فيعصى الله ، ويحرم القريب والمساكين فيضيع
إخوانه ، ويحرم ابن السبيل وهو ضيف عليه .

إن الإسلام حدد الحقوق والواجبات ، وربطها بعبادة الله تعالى ليتجلى
الإيمان في عمل الناس ، ويصير عاملاً رئيسياً لوحدة الناس ، وتحقيق التعاون
بينهم ، ليصيروا أمة واحدة ، متحابّة ، مترابطة ، تعيش في الدنيا سلاماً ، وترد
في الآخرة إلى جنات النعيم .

تنزيه الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۚ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ كُفٍّ مِنْ شَيْءٍ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن عطاء المال لوجه الله هو الخير جاءت هذه
الآية لبيان أن العمل كله لا يصح إلا إذا كان لوجه الله تعالى فهو الإله الواحد
القادر الذي يحيى ويميت .

(١) سورة التوبة ، الآية ٣٤ .

(١٠٦)

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله هو الخالق الرازق ، وهو المحيى والمميت ، وهو منزه عن الشريك سبحانه وتعالى حيث لا إله سواه ، ولا رب غيره .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾

تخبر الآية عن بعض أفعال الله تعالى للناس ، وتبين لهم أنه هو الذى خلقهم من عدم ، وهو الذى أعطاهم العقل والروح والجوارح وما به يتمكنون من العيش فى الحياة ، وتبين لهم أنه سبحانه رزقهم الصحة ، والمال ، والسلطان والولد ، وأعطاهم القناطر المقنطرة من الذهب ، والفضة ، والخيول ، والأنعام والحرث ... وهو سبحانه يميتهم عند انقضاء آجالهم ، ويبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، وفى ذلك تلخيص مجمل لبرهان وجود الله ، وضرورة الإيمان به وحده ، وقصر العبادة له .

و ﴿ ثُمَّ ﴾ فى الآية للتراخى الرتبى والزمنى لتفيد ترقى الإنسان فى الخلق والتطور ، وتفيد طول الحياة الدنيا ، وطول المكث فى القبر .

﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ؟ ... الاستفهام

إنكارى يفيد عدم نفع الآلهة لصنع شئ من هذا الذى فعله الله تعالى .

وأضيف الشركاء إلى ضمير المخاطبين ﴿ شُرَكَائِكُمْ ﴾ لأنهم الذين

اتخذوهم شركاء بعد أن صنعوها بأيديهم ، وأحاطوهم بالأوهام والأساطير ، ولولا فعل الكافرين ما كانت الأصنام شيئاً .

وهذه الأسئلة تعنى أن يسأل المشركون أنفسهم :

(١٠٧)

- هل من آلهة المشركين من خلق شيئا من المخلوقات ؟
- وهل من آلهة المشركين من رزق مخلوقا أى رزق ؟
- وهل من آلهة المشركين من أمات حيا ؟
- وهل من آلهة المشركين من أحيا ميتا ؟

وهذه الأسئلة يجب أن يتدبرها المشركون ، ويجيبوا عليها ، ليستمروا فى عبادتها إن رأوها تفعل شيئا من هذا ... ويكفرون بها إن رأوها لا تفعل شيئا من هذا .

وهى بالضرورة لا تفعل شيئا من هذا ، والمشركون يعلمون ذلك ، ولذلك يلزمهم السؤال بما يجب عليهم لقد سأل المشركون إبراهيم عليه السلام عن من كسر الأصنام التى كانوا يعبدونها فقال لهم : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ١٠٧ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ ١٠٨ ﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿ ١٠٩ ﴾ .

والآية تتضمن دليلا منطقيا على بطلان اتخاذ الأصنام شركاء ، وهو أن الإله المعبود يجب أن يخلق ، ويرزق ، ويحيى ، ويميت ، والأصنام والأوثان لا تقدر على شئ من ذلك ، فهى لا يصح أن تكون إلها ... والإله الحق هو الله رب العالمين الذى خلق ، ويخلق ، ويرزق ، ويحيى ، ويميت .

﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزهه سبحانه وتعالى وتقدس عن عبث المشركين وضلالهم ، فهم يعبدون غير الله تعالى ، ويتخذون شركاء معه.

(١) سورة الأنبياء ، الآيات ٦٣ . ٦٥ .

(١٠٨)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية ان الله واحد لا شريك ، وهو الذى يخلق ، ويرزق ، ويميت ويحيى ، أما الأصنام فإنها لا تفعل شيئاً من ذلك ، وهى بعجزها تؤكد هوانها وتثبت أن الله هو رب العالمين فإنها تقدست عظمتة ، وعلت صفاته ، وتنزه عن الند والشريك .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تشير الآية إلى ركيزة هامة ... هى :

بيان مقام الله رب العالمين

سبحانه الله ، علا قدره ، وتقدست صفاته ، واستحق أن يعبد وحده ، لا شريك له ، هو مالك الملك ، له الحكم واليه ترجعون .
ومقام الله عظيم ، يعرفه العابدون ، ويذكره العارفون الصادقون ، وكل ما فى الكون يدل عليه ، ويشهد له .
فكل الكون حادث مخلوق أوجده الله تعالى ، ويستحيل أن توجد الصدفة لأن الصدفة لا تتكرر ، ويستحيل أن يستمر الكون فى نظامه ودقته بقوى متوقعة بلا حد ولا وضوح ، ويستحيل أن يوجد بعض الكون بعضه الآخر إذ يتحول الحادث موجدا وموجودا فى وقت واحد وهذا لا يجوز كما أنه يؤدى إلى البحث عن البعض الفاعل ، والبعض المنفعل ، وهذا مستحيل .
ويستحيل أن يوجد الكون بلا فاعل لأن الحوادث ، والمستجدات تؤكد ضرورة وجود فاعل لكل منفعل .
ولا يبقى بعد كل هذه الاحتمالات المستحيلة إلا أن الله هو الخالق الموجد لكل مخلوق فهو القادر ، الحكيم ، العليم ، الخبير .

إن هذا الكون يتجدد الخلق فيه كل لحظة ، ويتكاثر الرزق ، ويتنوع كما وكيفا فى كل آن ، ويموت من يموت ، ويحيا من يحيا بأمر الله وقدرته ، وهذا مقام يعرفه المؤمنون ، وهو أساس الإيمان الصحيح بالله رب العالمين المنزه عن النظير والشريك.

انتشار الفساد فى الأرض

يقول الله تعالى :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿١٠٩﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن المشركين عبدوا غير الله تعالى ، وأشركوا معه آلهة أخرى جاءت هاتان الآيتان لبيان أن الفساد عم الأرض كلها يفعل الناس وسوف يحاسبهم الله على هذا الفساد الذى لم يعتبر أصحابه بالسابقين الأولين .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الناس قد انتهكوا حرمت الله ، واجتروا المعاصي ، وفشا بينهم الظلم والطمع ، وأكل القوى مال الضعيف ، فصب عليهم ربهم سوط عذابه ، فكثر الحروب ، وانتشر التدمير والإهلاك ، وعمت القلاقل وتحول البشر إلى دول متحاربة ، وأوطان يعادى بعضها بعضا ، وتحول الإنسان بالعلم إلى أدوات للدمار ، وآلات للقتل والتشريد .

(١١٠)

وكما أهلك الله الكافرين السابقين بكفرهم وظلمهم ، سيهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم ، فليجعلوا من سبقهم مثلاً لهم ، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أى بان

الفساد ، وانتشر فى الأرض كلها بعد أن لم يكن ، وشمل برها وبحرها ، وسبب هذا الفساد هو ظلم الإنسان ، وانحرافه عن منهج العبودية التى خلق لها وعدم استقامته على دين الله تعالى .

وليس الإنسان فاسدا بذاته فقد جعله الله خليفة له ، وأودع فى فطرته السوية الدين والخلق ، ولكنه يفسد باتباع الهوى ، والميل إلى الظلم والعدوان والرغبة فى استعباد الآخرين .

وسائر الكائنات التى يستخدمها الإنسان فى الظلم والفساد غير مسئولة معه فهو صاحب العقل والفهم ، وهو السيد المطاع ، وسائر المخلوقات مسخرة له ألهمها الله طاعته ، وهداها لما أمرت به .

ودل قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ على أن الإنسان مسئول

عن هذا الفساد ، فهو الذى مال إليه ، ورضى به ، وأحبه .

واسناد الكسب إلى الأيدي إسناد مجازى بعلاقة الجزئية والكلية لأن

الإنسان يكسبه بجوارحه ، وعقله ، وعواطفه ، وكيانه كله .

و "ما" اسم موصول عام يشمل كسب الإنسان كله معنويا وعمليا ، ظاهرا

وباطنا .

﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ وفى هذا تأكيد لحقيقة أن الفساد فى الأرض من كسب الناس ، وتأكيد أن الله سيحاسب الإنسان على فسادهِ ويعاقبه عليه ... وتبين الآية أن الله رحيم بعباده ، ولذلك يعفو عن كثير من سيئاتهم ، ويعاقبهم على بعض ما عملوا ، وتشير الآية إلى أن من العقوبة ما يقع فى الدنيا ، وبعضها يكون فى الآخرة لأن الفساد لا ينتج إلا فسادا وبوارا فى الدنيا ، وهلاكاً وعذاباً فى الآخرة .

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى لعل المفسدين إذا علموا أثر عملهم يرجعون عن فسادهم ، وأعمالهم السيئة ، ويتوبون عما هم فيه ، ويستقيمون على دين الله تعالى ، فقد انتشر فسادهم ، وبان ضررهم ، وهو رجوع يحبه الله تعالى . يقول النبى ﷺ : "الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً ، وبه مهلكة ، ومعه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكاني ، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا دابته عنده"^(١) .

وظهور الفساد يشمل كل مجال يوجد فيه المفسدون فى البر ، وفى البحر ولذلك ذهب جمهور العلماء إلى أن المراد بالبر اليابسة بما فيها من وديان وجبال وسهول وخلاء ، وفسادها يتم بفقدان منافعها ، وحدث الضرر خلالها فيكثر اعتلال الإنسان ، ومرض الحيوان ، وهلاك الطير ، وقلة الزرع والضرع ، وعدم لذة الثمرات ، ولا يوجد فى البر ما يرضى الإنسان .

ويراد بالبحر المياه ، عذبها ومالحها فتشمل الأنهار ، والبحار ، وفسادها يكون بانتشار التلوث فى الماء ، وقلة السمك ، واللؤلؤ ، والمرجان ، وكثرة

(١) صحيح البخارى . كتاب الدعوات . باب التوبة ج ٨ ص ٦٨ .

العواصف ، وانحباس الفيضان ، وقلة الماء ، وعجزه عن تحقيق حاجات الإنسان فلا يكفى زرعاً ، وينتشر الجفاف والدمار .

وقال بعض المفسرين إن المراد بالبر البوادي وأهل الصحراء ، والمراد بالبحر المدن والقرى .

وعلى كلا الرأيين فإن المقصود بيان عموم انتشار الفساد ، وذكر البر والبحر وحدهما لبيان ظهور الفساد فى جميع الأقطار الواقعة فى البر ، وعلى شواطئ الأنهار والبحور ، وفى الجزر الواقعة وسط الماء ... وفى كل ما يحتاج إليه الناس .

ووقع الفساد وظهوره ثابت اليوم فى المياه ، والبرية ليكون آية وعبرة لمن يتأمل فى آيات الله ، ويعلم أن الله على كل شئ قدير .

ودور الدعاة فى وسط هذا الفساد المنتشر توضيحه للمدعوين ، وبيان استحقاق المفسدين له ، وتوضيح طرق البعد عنه ...

ومن مهام الدعاة بيان أن الأمر بيد الله تعالى ، يوقع بعباده بعض العقوبة ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ وأن الفساد فى الأرض واقع بسبب كسب الناس ليعلموا ما آل إليه حالهم ، و ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وتوجه الآيات الناس إلى النظر فى أحداث السابقين فقد عاقبهم الله بشركهم ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ أى قل لهم يا محمد سيرا بعقولكم مفكرين ، وبأجسادكم سائحين ، وتأملوا فى العاقبة والمصير الذى انتهى إليه أمر المفسدين السابقين فقد أهلكهم الله ودمرهم بسبب شركهم وكفرهم بالله تعالى .

(١١٣)

وقد كان أهل مكة يمرون فى أسفارهم على القرى التى أهلكها الله تعالى ولا يعتبرون بمصيرهم فأمرهم الله أن يسيروا سير تدبر ، وتأمل ، ونظر ليعلموا مصير هؤلاء الأقوام ، ويقفوا على جحودهم ، ويروا عاقبة كفرهم وفسادهم وتكذيبهم لرسول الله تعالى عسى أن يستفيدوا بما يرون .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الفساد انتشر فى الأرض بسبب أعمال الناس ، وكسبهم فقد طغوا ، وبغوا ، وظلموا فعاقبهم الله ببعض أعمالهم بنشر الفساد بينهم ، وتأمر الآية رسول الله أن يوجه الناس إلى السير والنظر فى مصير الأمم السابقة ليعتبروا بها .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الواقع خير واعظ للعقلاء

يعيش الإنسان فى كنف الله ورحمته ، فقد خلقه ، وأكرمه ، وسخر له الوجود وحباه بالنعم والأفضال ، ووجهه إلى الاعتبار بالمخلوقات والمقادير فى ذاته ، وفى جنبات الكون كله .

إن الله سبحانه وتعالى يوجد فى خلقه ما يرغبهم فى طاعته ، ويخوفهم من معصيته ، وينزل على العصاة بعض عقوبته ليتوبوا عن ظلمهم ، ويرجعوا إليه سبحانه وتعالى ، ولا يصيروا جنودا للشياطين .

ولهذا يبتلى الله الناس ، ويذيقهم بعض ذنوبهم فى الدنيا ، فسادا يلحق بالمال والنفس ، والأهل ، والولد ، ليعتبروا ، ويعلموا قدرة الله ، ويخافوا من غضبه ، ويحذروا من استمرار المعاصى .

إن العاقل من ينظر إلى البلاء ينزل بالناس ، ويبحث عن سببه الظاهر وينجو بنفسه ، ويبتعد عن المصير الذى رآه فى غيره .

والمصائب فى الدنيا عديدة ، والعاقل من استفاد منها ، واتعظ بها ، ولذلك قالوا : كفى بالموت واعظا .

إن الإنسان حريص على مصلحة نفسه ، راغب فى الخير والفلاح ، وعليه أن يستفيد بالواقع الذى يراه ويعيشه فهو خير واعظ .

الركيزة الثانية

ضرورة التنمية الذهنية

الإنسان مخلوق محب للمعرفة ، جعل الله له عقلا يفهم ، وروحا تدرك ، وخواطر تتخيل وتتمنى ، وصار عليه أن يتأمل ، ويبحث عن أسرار ما يرى ليصل إلى ما فيه من عبر وعظات .

ولذا صار الإنسان مشغولا بالبحث عن معرفة ماضيه وحاضره ليأخذ منها ركائز تقيده فى مستقبله وغده .

إن الجهل جريمة يحاسب الله الإنسان عليها ، فلقد مكنه من عوامل الإدراك ، ودعاه إلى المعرفة ، ووسع أمام ذهنه مجال العلم والنظر ، ورفع الذين يعلمون على الذين لا يعلمون درجات .

إن الإنسان يحب الكسب ، ويرغب فى العلا والنمو ، وليس فى العلا أسمى من المعرفة .

ولذلك عد العلماء أساس التنمية الإنسانية المعرفة والزيادة فى العلم .

وقد ذكرت الآيات المجال المعرفى الذى يفيد الإنسان ، وهو كشف الفساد فى الأرض ، ومعرفة سببه ليتجنبه الإنسان ويبتعد عنه .
ومن مجالات المعرفة السير فى الأرض لرؤية آثار الأمم التى أهلكها الله تعالى بسبب ظلمها وكفرها .
ومن مجالات المعرفة دراسة التاريخ ، ومعرفة ما كانت عليه الأمم السابقة من كفر بالله تعالى ، وصد عن سبيله ومعارضة لرسول الله .
ومن مجالات المعرفة الوقوف على ضلال السابقين وشركهم ، وبعدهم عن الحق والصواب .
إن هذه المعرفة تنمى الذهن ، وتضع الإنسان على طريق الحق والصواب.

أمر النبى ﷺ والمؤمنين بالثبات على الحق

يقول الله تعالى :

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ^ط
يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴿٥٢﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ^ط وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ ^ط
يَمْهَدُونَ ﴿٥٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ^ط إِنَّهُ لَا ^ط
يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ۞ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما نهت الآيات السابقة الكافرين عن الكفر ، وأمرتهم بالسير والنظر فى الأرض جاءت هذه الآيات تأمر النبى ﷺ والمؤمنين معه بالثبات على ما هم عليه من دين الله تعالى لينالوا جزاء إيمانهم وصلاتهم .

(١١٦)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات ضرورة الاستقامة على دين الإسلام ، وتأمّر الرسول ﷺ بالثبات على الدين فقد حفظه الله ، وصانه من العوج ، والتعارض ، حتى ينال المستقيم عليه يوم القيامة الثواب الحسن ، والجزاء الجميل ، ويعاقب الكافر به بالعذاب الأليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ متفرع من الحديث قبله عن المشركين ، ولم يتجه الخطاب للمشركين بيانا لدنو منزلتهم ، واعراضا عن تشريفهم بالخطاب ، لأنهم يعارضون مضمونه ، ويكفرون به .

وخطاب النبي ﷺ فى الآية خطاب لأُمته ، والدين القيم هو دين الإسلام لاشتماله على الصواب ، والاستقامة ، والصراط المستقيم ، وهو أصل كل دين ، ولهذا كانت له الهيمنة والقوامة على كل دين سبق .

ومعنى "أقم وجهك" أسلك أيها الرسول الطريق الذى حدده له ربك بطاعته ، واتباعه فهو طريق مستقيم لا عوج فيه .

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ ﴾ أى استمر على ما أمرت به أنت ومن معك قبل أن يأتى يوم القيامة حيث الحساب والجزاء ، وهو يوم لا يردده راد ، ولا يغير مواعده أحد ، وما قدره الله فيه يقع لا محاله .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أى فى هذا اليوم يتفرق الناس بحسب أعمالهم فى الدنيا ، حيث يتوزع أصحاب الجنة على درجاتها ، ويتفرق أصحاب النار على دركاتهما .

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى فمن كفر بالله ، وأعرض عن الإيمان ،
 وضل سواء السبيل فى الدنيا فإنه يتحمل يوم القيامة عاقبة كفره ، وأوزار جحوده
 ، وظلمه ، وشركه ، ولن تحمل نفس عن نفس شيئا .

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِ يَمْهَدُونَ ﴾ أى ومن آمن بالله تعالى ،
 وصدق بالرسول ، وعمل الصالحات فقد مهد لنفسه المقام الكريم ، وأعد الفراش
 الهني لحياته فى قبره ، وفى جنات النعيم ، وبذلك يصير قبره روضة من رياض
 الجنة ، ويمتد نوره إلى الآفاق ، ويحيا حياة برزخيه كريمة ، ويسعد فى جنته بعد
 الحساب بما قدمه لنفسه فى الدنيا ، ويجد عند الله الأرائك يجلس عليها ، والسرر
 ينام فوقها ، والحياة الرغدة السهلة الطيبة يعيش فيها جزاء ما عمل فى الدنيا .
 وبهذا يتميز المؤمن عن الكافر فى الآخرة فى الأجر والثواب .

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى إن الله
 تعالى يضاعف للمؤمنين حسناتهم فضلا منه عليهم ، وحبا لهم ، ورضاعنهم .
 ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى يعاقب الكافرين
 بكفرهم ، ولن يغفر لهم لأنه يبعضهم ، ولا يحب أعمالهم وذواتهم .

ومن كمال رحمة الله بعباده أن عرفهم بمصير أعمالهم ، ورغبهم فى
 الإيمان والعمل الصالح ، وحذرهم من الكفر والضلال وترك لهم اختيار ما
 يريدون ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
 لِلْعَبِيدِ ۖ ﴾^(١) .

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٦ .

(١١٨)

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات رسول الله والمؤمنين به أن يستقيموا على الإسلام دين الله المستقيم ، الخالي من العوج والقصور ، ويعيشوا به فى الدنيا قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا يرد بعد مجيئه .

فى يوم القيامة يتفرق الخلق ، ويذهب كل إنسان إلى مصيره ، فالمؤمنون يدخلون الجنة ، ويتوزعون فى درجاتها الممهدة الحسنة ، والكافرون يلقون فى النار ، ويتفرقون فى دركاتنا ونارها ... وبذلك يتحقق للمؤمنين فضل الله ، ويلقى الكفار غضب الله فهو سبحانه لا يحبهم ، ويضل أعمالهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

ضرورة العمل لليوم الآخر

قدر الله للإنسان أن يعيش الدنيا مكلفا عاقلا ، وبعدها تكون الآخرة إثابة وجزاء ... والعاقل من آمن بالله تعالى ، واستقام على منهجه فى الدنيا ليفوز بجنات الله فى الآخرة .

إن الآيات تحث على الاستقامة فى الدنيا ، وطاعة الله فى كل ما أمر ونهى ، والمصارعة للعمل لوجه الله تعالى ، والصدق والإخلاص فى الطاعة والانقياد ، وتحث على العمل للآخرة بعدة طرق ... أهمها :

أولا : توضح أن الجزاء الحق على أعمال الدنيا يكون فى الآخرة حيث تقوم القيامة ، ويحشر الناس للحساب والجزاء ، وهو يوم واقع لا محاله لا راد له ، ولا مانع من وقوعه ، ولن تصلح فيه المعاذير ، وسوف تجد كل نفس ما قدمت .

ثانيا : سينال الكافر عاقبة كفره ، ولن يجد له نصيرا ينصره ، أو شفيعا يشفع له ، أو وليا يتولى أمره .

ثالثا : يصنع المؤمنون بإيمانهم مقاما هائلا فى قبره ، وفى يوم القيامة يفوزون بالجنة بإيمانهم ، وأعمالهم الصالحة ، ويتولاهم الله بفضلهم فيضاعف لهم الحسنات ، ويجزيهم أحسن الجزاء .

إن الله يحب عباده المؤمنين ، ويمتعهم برضوانه ، ويسعدهم بالنظر إلى وجهه الكريم ، فهم جنده وحزبه ، أما الكافرون فهم حزب الشيطان ، يبغضهم الله ، ويعاقبهم بسوء المصير .

آيات الله الداعية إلى الإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ أَلْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ١١٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا ١٢٠ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٢١ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ١٢٢ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ١٢٣ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ١٢٤ فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ تَحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ ١٢٥ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ١٢٦ .

(١٢٠)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة انقسام الناس إلى مؤمنين وكفار ، وتباين مصيرهم في الآخرة جاءت هذه الآيات لعرض الحجج والبراهين التي ساقها الله للناس ، وبيان أثرها فيهم ، وموقفهم منها .

- ٢ -

موضوع الآيات

الآيات تبين الشواهد الكونية والإنسانية التي جعلها الله للناس لينعموا بها في الدنيا ، وتوضح تأثيرها عليهم ، وموقفهم منها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تقدم الآيات عددا من نعم الله وأفضاله على الناس ، وحاجتهم الماسة لهذه النعم ... وهذه النعم هي :
(١) نزول الماء :

يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أى ومن آيات الله أن قدر لكم نزول المطر ، وإيجاد الأنهار لتحقيق الحياة . فقد جعل الله سبحانه وتعالى من الماء كل شئ حى ، فالزرع ، والشجر ، والطيور والحيوان ، والهوام ... وكل مخلوق يحتاج للماء ، وبدونه ما كانت الحياة .
ومن نعم الله وحججه على عباده أن أنزل عليهم الماء مطرا من السماء ويشرهم بقدومه بأن أرسل الرياح تبشر بالغيث ، ونزول المطر ، والناس بخبرتهم يستبشرون بالريح لوجوده قبيل نزول المطر ، فيفرحون بها لأنهم يعلمون أن المطر كثير النفع ، وحاجتهم إليه ماسة .

﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ أى لتتعموا بخير الريح والمطر الذى أرسله الله رحمة منه ، فتخضر الأرض ، وينمو الحيوان والطير ، ويشبع الإنسان ويرضى .

﴿ وَلِتَجْرِىَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾ أى ولتجرى السفن فوق الماء ، وتتحرك بقوة الريح مع اتجاه تيار الماء ، أو ضده ، بتقدير الله تعالى لها .

﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى ولتقصدا حصول المنافع التى قدرها الله لكم فى الريح والماء ، فتسافرون ، وتتاجرون ، وتعيشون .
﴿ وَاعْلَمُوا تَشْكُرُونَ ﴾ أى حقق الله كل هذا عسى أن تشكروه على نعمه وفضله .

(٢) بينات الرسل السابقين :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ يسليه فيه ربه ليصبر ويتحمل كما فعل الرسل السابقون الذين جاءوا قبل الإسلام إلى أممهم ﴿ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى أتوا لقومهم بالبراهين والحجج الواضحة البينة الداعية إلى الإيمان فانقسم الناس أمام دعوة الرسل إلى فريقين رئيسيين فآمن فريق ، وكفر الكثيرون .

﴿ فَأَنْتَقِمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا ﴾ أى أنزلنا العذاب والهلاك على الذين كفروا ، وعارضوا الرسل ، ولم يتبعوا الوحي الذى جاءهم ، وتلك جريمتهم التى عاقبهم الله عليها ، وأما الذين آمنوا واتبعوا الرسل فقد نصرهم الله تعالى .

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى وحق عليه سبحانه وتعالى

أن ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

وفى هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ والمؤمنين به ليصبروا على كفر الكافرين ، ويأملوا فى نصر الله تعالى لهم ولدينهم .

وقد يبطئ هذا النصر أحيانا . فى تقدير البشر . لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله ، ويقدرّون الأحوال لا كما يقدرها الله ، والله هو الحكيم الخبير ، يصدق وعده فى الوقت الذي يريدہ ويعلمه ، وفق مشيئته وسنته ، وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر ، وقد لا تتكشف ، ولكن إرادته هي الخير ، وتوقيته هو الصحيح .

ووعده القاطع واقع عن يقين ، يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين .

(٣) آيات تكون المطر :

يقول الله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أى ومن

آيات الله تكوين المطر وفق مراحل متتابعة هي :

(أ) ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أى يرسل الله الهواء فيحمل بخار الماء

ويرفعه إلى طبقات الجو العليا فيتكون من الماء الصاعد سحب يتحرك فى الجو ، وينتشر فى طبقات الجو العليا .

(ب) ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أى ينتشر السحاب فى طبقات الجو

ويتحرك ، ويمشى كما يشاء الله له فيتوزع ، ويختفى الضياء بسببه .

(ج) ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ أى ويجعل الله السحاب أحيانا فى صورة سحب

متراكمة ، مجتمعه فى مكان واحد .

(د) ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى فترى أيها الإنسان الودق وهو حبات المطر يخرج من وسط السحاب المنتشر أو المجتمع ليسقط على الأرض .

(٤) نشر البشرى للناس :

يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى إذا نزل المطر على من يشاء الله نزوله عليهم يستبشرون به ويفرحون ، لما سيعود عليهم بالنفع والفائدة .

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمُبْشِرِينَ ﴾ أى إن هؤلاء القوم كانوا قبل نزول المطر يائسين قانطين خائفين من عدم نزول المطر لشدة حاجتهم إليه ، فلما نزل عليهم استبشروا وفرحوا .

(٥) إحياء الأرض :

يقول الله تعالى : ﴿ فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى تأمل يا محمد وأمتك فى النتائج التى يحققها المطر للأرض فقد أحيانا بأمر الله بعد موتها ، فربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . وهذا النظر حسى يراه كل إنسان فى الأرض حين تخرج زرعها وشجرها ، وثمرها بسبب الماء الذى يأتيها بأمر الله تعالى فتتغير أحوالها ، وتتبدل شئونها.

(٦) الدلالة على البعث :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى أن من يحيى الأرض بالماء وينبت فيها الزرع والشجر ، قادر على أن يحيى الموتى فى قبورهم وحشرهم وحسابهم ، فهو سبحانه على كل شئ قدير

(١٢٤)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات بعض نعم الله وفضله على عباده ليؤمنوا به ، ويطيعوه ، فقد أرسل الله لهم الريح تبشرهم بنزول المطر ، وجعل المطر رحمة بهم فتحيا الأرض ، وينبت الزرع ، ويمتلئ الضرع ، ويستفيد الناس بالريح ، والهواء ، عسى أن يشكروا الله على عطائه .

كما تبين الآيات أن الله أرسل للأمم السابقة رسلا يدعونهم بآيات الله إلا أنهم أجزموا وكفروا بالآيات فاستحقوا الهزيمة والهلاك .

وتبين الآيات الإعجاز الإلهي في تكوين المطر في السحاب ، وانزاله في الوقت ، وعلى المكان الذي يريده سبحانه وتعالى ليفرح به الناس يعد يأس وقنوط .

وتبين الآيات أن من يفعل ذلك قادر على إحياء الموتى ، وإخراجهم من قبورهم للحساب والجزاء .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

تسخير المخلوقات للإنسان

أكرم الله الإنسان ، وفضله على خلقه كله ، وسخر له المخلوقات رغم ضخامتها ، ودقتها ، ودورها ، فالبهار والمحيطات تموج بالماء ، وتمتلئ بالأسماك والحيتان ، وتعج بالؤلؤ والمرجان ... كلها تعمل لمصلحة الناس ... والأرض بزروعها ، وأشجارها ، وثمارها مسخرة لخدمة الناس ... وهكذا يكون كل مخلوق ... والآية تأخذ واحدا من هذه المخلوقات أنموذجا توضح به للعلاء

(١٢٥)

عناية الله بالناس ، وتضرب بالمطر مثلاً حين يرسله الله من السحاب ، ويبشر به العباد بريح يسبقه ، ويفرحهم بهذا المطر .

إن الإنسان لا يستغنى عن الماء فهو يحتاجه فى طعامه ، وشرابه ، وطهارته ، وهو يحتاجه لزرعه ، وماشيته ، وشجره ، وهو يحتاجه ليعتدل الجو ، ويستقيم أمر الوجود فقد جعله الله سبباً للحياة ، وهو يحتاجه لينتقل فوقه بفاك إلى مكان بعيد .

والآية تشير إلى أن الماء نعمة يذيق الله بها العباد من رحمته ، وتبين وصوله إلى الناس فى كل مكان بعد نزوله مطراً من السماء .

إن المطر ينزل فى أماكن معينة ، ويعم نفعه العباد جميعاً ، لأن الله يفيد به من يقع عليهم ، ويجمعه سيولاً تتحرك فى أنهار إلى مكان بعيدة لينتفع به قوم لم ينزل المطر عليهم ، ويتسرب جزء منه إلى أعماق الأرض ليسير فى باطن الأرض إلى حيث أراد الله تعالى ليظهر للناس فى بئر ، أو ينبوع ...
إن ماء المطر يمشى من المرتفع إلى الأماكن المنخفضة لتكوين البحيرات الطبيعية والصناعية ويتحول بعد كل حركته إلى بخار يتصاعد إلى السماء ليكون سحاباً .

إن على الإنسان أن يتذكر نعمة الماء ، ومدى حاجته إليه ليشكر الله الذى أمدّه به ، ليستقيم على هديه ، وليكون من الفائزين .

الركيزة الثانية

بيان دقة الخلق والتكوين

من أدلة قدرة الله ، ووحدانيته دقة المخلوقات التى أوجدها الله تعالى فكل مخلوق له غاية ، وكل مخلوق مهياً لغايته ، وكل مخلوق يؤدى ما خلق له فى شكل دائم لا يتخلف ، فالشمس فى فلكها تظهر نهاراً ، وتغيب ليلاً ، وتقيد بأشعتها سائر المخلوقات .

(١٢٦)

والسمااء المرفوعة ، والأرض المبسوطه ، والجبال الضخمة ، والطير ،
والحشرات ، والهوام ... وكل مخلوق له رسالة وغاية يتحرك لها بدقة عاقلة
وحد لا يتركه ، ولا يغيب عنه .

ومن رحمة الله استمرار هذه المخلوقات فى حركتها ، ودقتها ، ووظيفتها ،
ف فوق أن المطر يصل لكل الناس فإن تكونه ونزوله يبين الإعجاز الإلهى ،
ويؤكد الإيمان بقدرة الله تعالى ...

إن الله سبحانه وتعالى يرسل الرياح على الأرض فتحمل من مائها بخارا
ترفعه إلى السمااء ، فيتكون من البخار سحب يتكثف فى طبقات الجو ويأخذ
صورتين فى السمااء :

أحداها : سحب ينتشر فى السمااء كفراش مبسوط يملأ الجو كله ،
ويخفى ضوء الشمس .

ثانيهما : سحب يتجمع ويتراكم فى مجموعات لا تغطى السمااء كلها ،
ويكون كسفا موزعا فى السمااء .

ويستمر المطر فى الماء على إحدى هاتين الصورتين حتى يأذن الله
بالنزل فينزل فى صورة جزئيات صغيرة تشق السحاب ، وتنزل إلى الأرض
نقطا من الماء ، أو حبات من البرد فيفرح به الخلق ، ويتمتعون بخيراته ، وتحيا
الأرض من موات .

لقد أثبت العلم هذه الحقائق عن تكوين المطر ، وتأكد الإنسان ، والأمل
أن يعرف الإنسان الموجد ، ويشكر الله رب العالمين .

الركيزة الثالثة

الكفر جريمة ضارة بصاحبها

آيات الله فى الكون عديدة ، وكلها تدعو إلى الإيمان بالله تعالى ، وتحثه
على ضرورة طاعة الله ، والاستقامة على أمره ، واتباع دينه ومنهجه .

فهذا الوجود كله من خلق الله . يقول سبحانه : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾^(١) .

وهل يتصور الإنسان حاله إذا حرم من نعم الله تعالى ...

هل يعيش الإنسان بلا ماء ولا هواء ؟ ...

وهل يستقيم حاله بلا طعام ولا شراب ؟

وهل يهنأ ويتمتع إذا خلا الكون من الحسن والجمال ؟

إن الإنسان وحده بغير خلق الله لا يساوى شيئاً ؟ ولا يمكنه أن يعيش أبداً ... ومن العجيب والغريب أن الإنسان يقر بأن الله مالك الكون ، وخالق الخلق ، وبيده ملكوت كل شئ ، ومع ذلك يتخذ إلها غيره ، ويعبده !!
ومن هنا ...

كان الكفر بالله جريمة يقع فيها الكافرون عن عمد وقصد بلا برهان ولا دليل ، ويقعون فيه بلا غاية وهدف .

أما إن الكافر يعارض الدليل الثابت لأن كل الأدلة تؤكد أن الله واحد لا شريك له ، والكافر يعارض هذه الأدلة ... ويتعمد عبادة أصنام لا تضر ، ولا تنفع ، ولا تفيد .

وأيضاً فإنهم يكفرون ويعبدون الأصنام بلا غاية فهي جماد لا تشفع ، ولا تنصر ، ولا تفيد ... ولذلك عد كفر الكافر جريمة كبرى ينتقم الله منه بسببها في الدنيا وفي الآخرة .

إن الإنسان إذا لم يستقر على شاطئ الإيمان فإنه يبقى بين العواصف والقواصف والأمواج لا يهدأ له بال ، ولا يصل إلى قرار .

(١) سورة لقمان ، الآية ١١ .

وحين يدرك العاقل ما فى الكفر من جرم فإنه يستفيد بالآيات ، ويؤمن بالله العظيم .

الركيزة الرابعة

البعث فى خدمة صلاح الدنيا

توجه الآيات نظر الإنسان إلى الاستعداد ليوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح ، فهو آت لا ريب فيه ، ولا عبرة لمن ينكره ولا يتصور وقوعه ، لأن قدرة الله فى الخالق والإيجاد تؤكد وقوع ما أخبر الله بوقوعه ، وليس البعث بأصعب من الخلق الأول ، بل هو أيسر لأنه إعادة وتركيب والخلق الأول إنشاء وابداع .

إن الإنسان يجب أن يعيش فى الدنيا عبدا لله تعالى يعرفه ، ويشكره ، ويذكره ، ويطيعه ، ويدعوه ، ويرجوه ، ويسلم الأمر له سبحانه وتعالى .

جمود أهل الضلال على كفرهم

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رَحْمَةً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ١٢٨ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَاتِ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿ ١٢٩ ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ ١٣٠ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة الأدلة المثبتة لتوحيد الله وقدرته جاءت هذه الآيات لتبين أن الآيات لا يستفيد بها الجاحدون الكافرون فهم صم بكم عمى لا يعقلون .

(١٢٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين جاحدون للحق ، مصابون باليأس والقنوط ،
وأنهم لا يستفيدون بطاقتهم الإدراكية ، فهم صم لا يسمعون ، عمى
لا يبصرون ، بكم لا يتكلمون ، وهم موتى لا حياة لهم في الحقيقة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾

إننا أرسلنا ريحا حارة أو باردة تهلك لهم الزرع بعد نمائه واستوائه ليتحولوا من
الأمل إلى اليأس ، ويتركوا البشرى إلى الحزن ، والجحود .
واصفار الزرع يعنى هلاكه ، لأن موت الزرع يبدأ باصفار ورقه ، ولذلك
كان اصفار الزرع كناية عن هلاكه وموته .

وكفرهم يعد موت الزرع دليل على فساد عقيدتهم ، وعدم توكلهم على الله
تعالى ، أما المؤمنون فإنهم يرضون بقضاء الله تعالى خيره وشره ، فإن جاءهم
من الله خير حمدوه وشكروه ، وان نزل بهم سوء دعوه ، ورجوه .
إن المشركين جحدوا نعمة الله ، ورضوا بالكفر والجحود ، وأنكروا فضل
الله عليهم ، فعطلوا عوامل الإدراك ، ونكصوا على أعقابهم .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾

أى لا تتأثر يا محمد بجحود هؤلاء الضالين فإنهم موتى حرمو الإدراك والوعى ،
فهم لموتهم لا يسمعون نداء ، ولا يجيبون على سؤال ... وهم صم لا يسمعون
دعاء أو نصيحة ، غفل لا يعون ولا يدركون ، ولذلك أعرضوا عن الحق ،
وبعدوا عن الصواب .

(١٣٠)

وفى هذا تسليية لرسول الله ﷺ حتى لا يحزن على صدور المشركين ،
وتمسكهم بالكفر والضلال فقد أدى واجب الرسالة ، وهو البلاغ المبين .

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أى لا تستطيع يا محمد أن تهدى
من أضله الله تعالى ، فقد أعمى الله بصيرته ، ووضعه في الضلال الذى أحبه
وتمناه ، واعلم يا محمد أنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهdy من يشاء .

﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِعَايَتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى أنك يا محمد
تسمع المؤمنين بآيات الله تعالى الدالة على وحدانية الله وقدرته . فقد دخلوا في
دين الله تعالى ، واستسلموا لربهم ، ولذلك فهم يسمعون ، ويفهمون ، ويعقلون .
وفى الآيات بيان لطبيعة الإنسان ، وتصرفه مع الفطرة ، فحين تسلم
فطرته ، وتدوم على خصائصها فإنها تجعل صاحبها يسمع ويعقل ، ويفكر في
الآيات ، ويستجيب لدعوة الله تعالى ... أما إذا فسدت الفطرة ، فإنها تعود
الإنسان على الجحود والإنكار لأن مداركه تصدأ ، وطاقاته تضل ، فلا تسمع
دعاء ، ولا تقدر على حديث ، وتستمر على الكفر والضلال .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الكافرين جاحدون لنعم الله تعالى ، ولم يلمس الإيمان
قلوبهم ، ولذا تراهم يستبشرون بالخير حين يأتئهم ، وإذا وقع ضر بهم يئسوا
وقنطوا فقد كفروا بالله ، واعرضوا عن طاعته لأنهم كالموتى لا يحسون بشئ ،
ولا يسمعون قولاً ، ولا يرون أمراً ، وإذا ذكروا لا يذكرون ، وإذا دعوا لا
يستجيبون .

(١٣١)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

توضيح فروق بين المؤمن والكافر

يختلف الكافر عن المؤمن اختلافاً بينا . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [١] إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ (١) . والآيات توضح ذلك بجلاء .

فالكافر يصاب باليأس من أول بلاء ينزل به ، فإذا أصفر لون ورق زرعه أصيب بالحزن والقنوط ، ورفض القدر ، واعترض عليه ، وأدبر عن الحق ، وبعد عن الصواب ، وسبب ذلك جحود قلبه ، وجمود روحه وعقله ، وتعطيل عوامل الإدراك فيه .

أما المؤمن فإنه يستسلم لله ، ويحسن الظن به ، ويرضى بالقضاء والقدر فإن نما زرعه شكر الله ، وإن أصفر شجره دعا الله ورجاه ، ويتذكر الله وهو ينظر في الكون ، ويسمع الصوت ، ويتجاوب مع كون الله في حيوية وفهم وإيمان .

فليتخير العاقل لنفسه ، وليحذر مخالفة أمر الله حتى لا يقع فيما وقع فيه الكافرون .

(١) سورة البينة ، الآية ٦ ، ٧ .

(١٣٢)

الإنسان بين الضعف والقوة

يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أدلة وجود الله ووحدانيته في الأفاق جاءت هذه الآية لبيان آيات الله في النفس البشرية من خلال تطورها من ضعف ، إلى قوة ، ومن قوة إلى ضعف ، وبيان أن الله عليم بكافة أحوال الناس .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله خلق الإنسان ضعيفا في طفولته ثم قواه في شبابه ، ثم جعله ضعيفا في شيخوخته وهرمه ، وهو سبحانه عليم بكل خلقه ، حكيم في إرادته وقدرته .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ يبين الله للناس أنه هو الذي خلقهم من ضعف حيث أخرجهم من بطون أمهاتهم أجنة لا تسمع ، ولا تعقل ، ولا تقدر على شئ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ أى طور خلقهم فرزقهم السمع ، والبصر ، والقواد ، وجعلهم شبابا يتميزون بالقوة والعافية ، ورجالا يتصفون بالعقل والحكمة .

(١٣٣)

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ أى جعل الإنسان ينتقل من قوة الشباب إلى ضعف الهرم والشيخوخة .

﴿ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ^ط وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ أى يخلق الله ما يشاء ، فيوجد من الضعف قوة ، ومن القوة ضعفا وشيبة ، فهو سبحانه يخلق ما يشاء ، وهو العليم بكل خلقه ، القادر على أن يفعل ما يشاء .

إن انتقال الإنسان من طور إلى طور بقدرة الله تعالى دليل على قدرة الله في البعث والإعادة فهو أهون وأيسر .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله تعالى خلق الإنسان من نطفة ضعيفا ثم قويا بالشباب والصحة ثم أمد عمره إلى الضعف والهرم ، وهو سبحانه عليم بكل شئ قدير على كل ما يريد .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

ليستفد الإنسان من حالتي ضعفه وقوته

يعرف الله الإنسان تطوره نشأته للوصول إلى بعض الأمور الضرورية :
أولها : أن يعرف الإنسان فضل ربه عليه ، فلقد خلقه من ماء مهين ، وتطور به في بطن أمه حتى ولد حيننا ، ورزقه الجوارح والعقل شيئا فشيئا حتى انتقل من حالتي ضعف الطفولة إلى قوة الشباب والرجولة ، واستمرت قدرة الله معه إلى نهاية حياته في الدنيا ... وعناية قدرة الله في تطور الإنسان ظاهره

(١٣٤)

حيث يراها الإنسان ، ولا يدعى لها فاعلا إلا الله سبحانه وتعالى ، وما جاءت به الآية هو حقيقة الإنسان في الدنيا .

ثانيها : ترشد الآية الإنسان أن يعتبر بماضيه لحاضره ، وأن يتأمل في طفولته وضعفه ليعرف فضل ربه عليه في قوته وصحته .

وعليه أن يدرك أن القوة تشمل الجوانب المادية والمعنوية ، الظاهرة في الإنسان **ثالثها :** أن يعلم الإنسان أن مرحلة شبابه ، وقوته لن تدوم لأن شأن الإنسان أن يصير . لو امتد عمره . شيخا هرما ضعيفا ، وهذا يجعله يغتنم قوته لضعفه ، وشبابه ولهرمه ، ونشاط ملكاته وطاقاته لوقت تضمر فيه وتقل .

يقول النبي ﷺ : " اغتتم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك " (١) .

إن حياة الإنسان حلقات متواصلة والعاقل من استفاد بها ، وأخذ منها الدروس والعبر .

ومن محاسن الإسلام أنه يجعل الإنسان يعيش مع نفسه ، ويستفيد من حياته ، ويأخذ من فضل الله عليه سببا للوصول لله رب العالمين .

أحوال الناس يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ٢٥ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٢٧﴾ ۝

(١) شرح السنة للبغوي . كتاب الرقاق ج ١٤ ص ٢٢٤ .

(١٣٥)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة خلق الإنسان وتطوره جاءت هذه الآيات لبيان أحوال الناس في يوم القيامة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الناس في يوم القيامة مختلفون في أحوالهم ، وتصوراتهم حيث يقسم المجرمون أنهم ما لبثوا في القبر غير ساعة قصيرة ، وأما الذين آمنوا فيرون أن الدنيا كانت زمنا طويلا ، وان مكث الموتى في قبورهم استمر مدة طويلة انتظارا ليوم القيامة الذى ينال كل إنسان فيه ما قدمت يداه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ الساعة

فى أول الآية هى يوم القيامة ، لأن الساعة أحد أسمائه ، و "ال" فيها للعهد .
وسميت القيامة بالساعة لأنها تعنى الوقت الذى يبعث الله الناس ويحييهم فى قبورهم بعد النفخة الثانية . يقول الله عنها : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾^(١) وهى ليست ساعة زمنية مكونة من الدقائق والثوانى .

فى لحظة البعث يحلف الظالمون ويقسمون بأنهم لم يمكثوا فى قبورهم إلا مدة زمنية وجيزة لا تزيد عن ساعة واحدة مكونة من الدقائق التى شعروا بها .
﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ أى أنهم فى قسمهم أنهم مكثوا فى القبر مدة قليلة كذب بين ، واقتراء محض يشبه كذبهم الذى استمروا عليه فى الدنيا

(١) سورة الزمر ، الآية ٦٨ .

(١٣٦)

فقد كذبوا على أنفسهم ، وعلى الله ، وعلى الناس معهم ، وأقاموا حياتهم على الكذب وهم يعبدون آلهة غير الله تعالى .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ

الْبَعْثِ ﴾ أى يرد المؤمنين على هؤلاء المجرمين ، ويبينون لهم أنهم مكثوا فى قبورهم مدة طويلة بدأت من يوم موتهم ووضعهم فى القبور حتى قيامهم للبعث والنشور ، وقد مكث كثير منهم فى قبره قرونا عديدة .

وسمت الآية المؤمنين بأولى العلم لأن الله أنار بصيرتهم ، فعلموا الحق وآمنوا به ، واتبعوه ... وهذا أفضل العلم ، ومعنى ﴿ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ مكثتم على كفركم بالبعث إلى يوم وقوعه كما هو مقدر ومكتوب فى اللوح المحفوظ .

﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلِيَكْنَكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى يوم القيامة

هو يوم البعث التى كنتم تتكرونها ، وتزعمون أنه لن يقع ، فها هو قد وقع وثبت أنكم كنتم لا تعلمون شيئا يوضح لكم الصواب والحق .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

أى فى يوم القيامة لا يقبل الله عذر من كانوا ينكرون البعث ، ولا يقبل منهم توبة فقد مضى وقتها ، ولا يسمع لطلبهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا فقد انتهى وقت السعى والعمل ، وجاء وقت الحساب والجزاء .

(١٣٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المجرمين فى يوم البعث ينظرون إلى حياتهم فى القبور ويرونها قصيرة ، فيقسمون أنهم لم يمكثوا فى قبورهم إلا زمنا قليلا لا يزيد عن ساعة زمنية فيرد عليهم المؤمنون الذين آتاهم الله العلم ، ويقولون لهم : لقد لبثتم فى قبوركم مدة طويلة، بدأت بوضعكم فى القبر ، واستمرت حتى يوم البعث الذى لم تكونوا به مؤمنين، وها هو البعث قد تحقق ، وانتهت معاذيركم ولا توبة لكم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

اضطراب منكرى البعث يوم القيامة

يأمر الله بنفخ الصور فيقوم الناس من قبورهم ، وينتشرون سائرين إلى أرض المحشر .

فى هذا اليوم يرى المشركون هول الموقف ، ويعيشون آلامه ومخاطره ويصيبهم الخزي ، ويعتريهم الجهل وعدم الإدراك ، ويكررون الأكاذيب التى عاشوا بها فى الدنيا ، ويقولون : لم نمكث فى قبورنا إلا ساعة من نهار ، فيرد عليهم الذين نور الله بصائرهم ، وآتاهم العلم ، ويقولون لهم : لقد مكثتم فى قبوركم مدة طويلة امتدت من لحظة موتكم إلى يوم بعثكم الذى وقع لكم وكنتم لا تصدقون به ، وكنتم تنكرونه ...

فى يوم القيامة ينال المشركون جزاء أعمالهم ، ولن يقبل لهم عذر ، ولن يسمع لهم عتاب .

هذه الصورة المنكرة للمشركين يوم القيامة تحذير لأمة محمد ﷺ ليؤمنوا حتى لا يكونوا مثلهم ، وهو ترهيب شديد قدمه الله فى صورة حوار واقعى يدل على نفوس الظالمين والمؤمنين يوم تتجلى الحقيقة ، ويقع البعث ويلجأ الظالم

(١٣٨)

إلى الكذب ، ويقسم على صدقه ، ويستمر على ما جبل عليه من افتراء كما أنه يحاول الاعتذار ، ويطلب الرجوع إلى الدنيا ليعمل صالحا ...
أما المؤمنون فقد عاشوا في الدنيا صادقين ، وهم في الآخرة على ما كانوا عليه في الدنيا فهم آمنون ، مطمئنون ، لا يرضون بكذب أو افتراء ، ولذلك يردون على الظالمين ، ويؤكدون لهم ما كانوا فيه من جهل وجحود وها هم اليوم في البعث الذي أنكروه ، وكذبوا به ...
إن يوم القيامة هو يوم الجزاء والوفاء ولهذا اليوم فليعمل العاملون .

دعوة النبي ﷺ والمؤمنين للسبر وتحمل عنت المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿١٠١﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿١٠٣﴾ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أدلة التوحيد ، والبعث والحساب جاءت هذه الآيات لبيان أن الله أنزل القرآن الكريم موضحا للحق ، مشتملا على البراهين والحجج والآيات فلا تتأثر يا محمد بما يقوله المبطلون فقد طبع الله على قلوبهم فاصبر ، وتحمل ، ولا تجعل للذين أشركوا بالله ، ولم يؤمنوا به سبيلا لترك الصبر والخلق الكريم .

(١٣٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم مشتملا على أمثال عديدة لتوضيح معانيه ، وتقديم براهين صدق رسول الله فيما دعا إليه ، وتنصح رسول الله بعدم التأثير بموقف الكافرين الذين ينكرون الحق بعد سطوع دليله ، وظهور براهينه . فقد طبع الله على قلوبهم ، فتحمل يا محمد ، واصبر ، واستمر في تبليغ الإسلام ، ودعوة الناس إلى الله تعالى ، ولا تجعل الكافرين يصرفونك عن الصبر والتحمل .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى ولقد

وضحنا للمشركين الحق ، وضرينا لهم الأمثال الدالة على وحدانية الله سبحانه وتعالى حتى لم يبق لهم عذر على كفرهم ، وشركهم .

﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾

فى الآية قسم محذوف تقديره والله لئن جئتكم يا محمد بالآيات العظام ليؤمنوا فلن يؤمنوا ، وسيتهمونك بإبطال أصنامهم وعقيدتهم ، ويستمرون على جحودهم وكفرهم ، ويقسمون أنكم مبطلون للحق والصواب .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى أن

الله تعالى يطمس على قلوب الذين لا يؤمنون بدين الله تعالى ، فقد أعمى الله أبصارهم وبصائرهم فأعلنوا كفرهم ، وعداوتهم للمؤمنين ، وبمثل ضلال قولهم يكون ضلال قلوبهم وعواطفهم .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى فاصبر يا محمد، وتحمل أذى المشركين

(١٤٠)

واعلم أن الله سينصرك ، وينصر دينك ، ويمكن للمؤمنين فى الأرض كما وعد ، فوعده حق لا ريب فيه ، ولن يخلف الله وعده أبدا .

﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أى ولا تجعل أذى المشركين وعنتهم يملكك على ترك الصبر والتحمل ، ويبعدك عن الحلم ، والصفح ، والرضا فهم لا يصدقون بحق ، ولا يعملون لصواب فدعهم وما هم فيه من ضلال ، ولا تجعل لهم سبيلا عندك .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم مشتملا على عديد من ألوان البيان والآيات ، والبراهين ليؤمن الناس ، إلا أن الكافرين يكفرون بالله ، ويردون الآيات ، ويتهمون المسلمين بإبطال الحق ، وتشويه الصواب ، ويمثل هذه الأقوال الباطلة يطبع الله على قلوب وعواطف المشركين ، فهم مجموعة من الجهلة الذين لا يعلمون شيئا .

وتتصح الآيات رسول الله أن يستمر على الصبر والتحمل ، ولا يجعل أذى المشركين ، وعنتهم سببا لصرفه وأصحابه عن الصبر والطمأنينة ، والخلق الكريم ، لأن هؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله ، وينكرون الصراط المستقيم ، وقد وعد الله رسوله بالنصر والتمكين ، والله غالب على أمره .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان أهمية القرآن الكريم للناس

تختتم سورة "الروم" ببيان دور القرآن الكريم للناس . فقد أنزله الله تعالى

(١٤١)

فيما لا عوج فيه ، يهدى للتي هي أقوم ، ويصنع من الناس أمة تخلص القصد لله ، وتعمل على نشر دين الله في الحياة .

إن القرآن الكريم نزل على محمد ﷺ ليصنع خير أمة للناس ، وليصير دستور المؤمنين إلى يوم القيامة ، وقد وضع الله فيه من ضروب البيان ، وأمثلة عديدة من الأساليب في إحكام دقيق ، وتفصيل واضح ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

إن القرآن الكريم هو كتاب الهداية والسداد من اتبعه نجا ، ومن تمسك بتعاليمه هدى إلى طريق مستقيم ، ومن هجره أضله الله ، ومن ابتغى النصر في غيره هزمه الله .

والمؤمنون هم الذين يعرفون منزلة القرآن الكريم في الحياة الإسلامية فيتمسكون بها ، ويسيروا على هداها ودور الدعاة مع القرآن الكريم إظهار حقائقه، ودعوة الناس لحفظه وفهمه، والعمل به .

الركيزة الثانية

موقف الجاهدين مع القرآن الكريم

عميت أبصار المشركين ، وضلت عقولهم ، فلم يروا نور القرآن ، ولم يلقوا على بيانه ، وهواه ، ولذلك يكفرون بالآيات ، ولا يرون فيها برهانا ويتهمونها بإبطال أصنامهم ، وتسفيه آلهتهم وأعمالهم .

والآية توضح أن الله طبع على قلوبهم ، وأغلق مفاتيح الهداية لديهم وحرهم من العلم والبصيرة ، ووضعهم في الظلم الذي مالوا إليه ، وأحيوه ، ولذلك كان لهم ما أرادوا من كفر وضلال .

الركيزة الثالثة

أهمية الصبر فى الدعوة وتبليغ الإسلام

تقدم الآية منهاجاً عملياً لتبليغ الإسلام للناس فى كل زمان ومكان ، وهذا المنهج قائم على الصبر والتحمل .

إن طريق الدعوة إلى الله شاق ، لأنه يواجه قوى البغى فى الأرض ، ويعمل على إخراجهم من الظلمات إلى النور ، وينادى بصناعة جديدة تغير عقيدتهم ، وتبدل أعمالهم وأخلاقهم إلى تعاليم دين الله تعالى .

إن المشركين متمسكون بآلهتهم ، وهم دونها يناضلون ، ويحاربون ، ولذلك فهم يقاومون بالكلمة ، والفعل ، والسلوك ، ويجتهدون فى إيذاء المسلمين ، وصرفهم عن الدعوة وتبليغ الإسلام .

وعلى المسلمين أن يعلموا خطط عدوهم ليحذروه ، وعليهم أن لا يتأثروا بمكرهم وأعمالهم ولا يتركوا دعوتهم وغيرهم إلى الله تعالى .

إن المسلمين بدينهم على الصراط المستقيم ، وهو منهج النجاة فى الدنيا والآخرة ، ولذلك يجب عليهم الاستقامة على هديه ، وملازمة الطاعة لله رب العالمين .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الروم" بتوفيق الله تعالى .

سورة "لقمان"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -**التعريف بسورة "لقمان"**

سورة "لقمان" سورة مكية عند الجمهور ، وفي أحد قولي ابن عباس رضي الله عنه .

وفي تفسير الكوشى أن قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ^(١) آية مدنية لحديثها عن الصلاة والزكاة .

وعن قتادة وابن عباس أن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ

أَقْلَمَتْ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَخْحَرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْئَسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ

﴿٢٨﴾ آيتان مدنيتان ويزيد ابن عباس آية ثالثة هي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ

اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ

يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ^(٣) لأن هذه الآيات نزلت

خلال جدل رسول الله ﷺ مع اليهود في المدينة بعد الهجرة .

والأولى اعتبار السورة كلها مكية لأن الرسول جادل اليهود وهو في مكة

وكان لليهود صلات بأهل مكة الذين رأوا أن اليهود أهل علم وكتاب وكان

يرجعون إليهم في أمور كثيرة .

وبالنسبة للصلاة والزكاة فإنهما شرعتا بمكة قبل الهجرة وعلى ذلك تكون

السورة كلها مكية .

(١) سورة لقمان ، الآية ٤ .

(٢) سورة لقمان ، الآية ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) سورة لقمان ، الآية ٢٩ .

وللسورة اسم واحد هو "لقمان" لذكر قصة "لقمان" مع ابنه عليهما السلام فيها .
وقد نزلت السورة بعد سورة "الصافات" .

وعدد آيات السورة ثلاث وثلاثون آية عند أهل المدينة ومكة ،
وأربع وثلاثون آية عند أهل الشام والكوفة والبصرة^(١) .

وللسورة صلوات عدة بسورة "الروم" منها :

(١) إنه تعالى قال فى سورة "الروم" : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ

مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾^(٢) وأشار إلى بعض هذه الأمثال فى مفتتح سورة "لقمان" .

(٢) يقول الله فى آخر سورة "الروم" : ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾^(٣) وقال فى سورة "لقمان" هذه : ﴿ وَإِذَا

تَتَلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾^(٤) وفى الآيتين تشابه فى المعنى .

(٣) يقول الله فى سورة "الروم" : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُاَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ

أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾^(٥) وقال فى سورة "لقمان" : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا

كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾^(٦) ، ففى كلتيهما إفادة سهولة البعث .

(٤) يقول الله تعالى فى سورة "الروم" : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾^(٧) ،

(١) التحرير والتنوير ج ٢١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٥٨ .

(٣) سورة الروم ، الآية ٥٨ .

(٤) سورة لقمان ، الآية ٧ .

(٥) سورة الروم ، الآية ٢٧ .

(٦) سورة الروم ، الآية ٢٨ .

(٧) سورة الروم ، الآية ٣٣ .

، وقال فى سورة "لقمان" : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلُمِ الدَّيْنِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾^(١) فذكر فى كل
كل من الآيتين قسما لم يذكره فى الآخر .

(٥) ذكر الله فى سورة "الروم" محاربة الروم والفرس ، وهما الامبراطوريتان
العظيمتان فى هذا الوقت ، وذكر فى سورة "لقمان" قصة عبد مملوك زهد
فى الدنيا ، وأوصى ابنه بالصبر والمسألة ، وذلك يقتضى ترك المحاربة ،
وبين الأمرين تقابل وبعد تام كما لا يخفى^(٢) .

وموضوع سورة "لقمان" هو العقيدة بكافة أركانها ، وقد عرضتها فى
صورة توضيح مواقف الناس على اختلافهم فى الإيمان والكفر ، وفى صورة
نصائح ومواظ من أب لولده ، وفى صورة عرض أدلة الآيات الكونية
والإنسانية فى السماء والأرض أو فى ضوء النهار وظلمات الليل .
وتعد مواظ لقمان عليه السلام لابنه عماد السورة وفيها بين لقمان ضرورة
الصدق فى الاعتقاد ، وأهمية وجود لازم العقيدة فى العمل والخلق والسلوك .

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٢ .

(٢) تفسير المراغى ج ٢١ ص ٧١ .

(١٤٨)

- ثانيا -

- التفسير -

هداية القرآن للمؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ الْم ﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ
عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات إعجاز القرآن الكريم ، واشتمال آياته على الحكمة والرشاد والإحكام ، وتبين أنها تهدي للحق ، وتعين المؤمنين الذين يعملون الصالحات فيقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويعملون الصالحات ، ويؤمنون باليوم الآخر وتوضح الآيات أن الله أكرم المحسنين المؤمنين الذين يعيشون بهداية الله ، ويمكن لهم من الفلاح في الدنيا وفي الآخرة .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ الْم ﴾ الألف ، واللام ، والميم (ا ، ل ، م) حروف مقطعة بدأت بها سورة "لقمان" لبيان إعجاز القرآن الكريم ، وللتنبية على حكمته واشتماله على الحكمة والأحكام والإحكام ، ليهتدى به الإنسان إلى الخير والصواب ، لأن علمه قاصر أمام علم الله تعالى .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ "تلك" اسم إشارة للبعيد لبيان ما فى

القرآن الكريم من علو المنزلة ، ورفعة الشأن ، وسمو القدر ، وتبين الآية أن القرآن الكريم نزل مشتملا على آيات عدة ، تضمنها كتاب كريم مشتمل على الحكمة ، متضمن للأحكام فى دقه وتفصيل ، فهو كتاب يفصل الآيات ، ويدل على كل خير وصلاح ، وهو كتاب ثبت ثبوتاً قطعياً أنه نزل من عند الله تعالى .

و "ال" فى الكتاب للعهد الذهنى حيث يعلم القراء والمستمعون أن المقصود بالكتاب فى الآية القرآن الكريم ما نزل منه فى مكة أو ما سيكون عليه بعد تمام إنزاله ، واختيار اسم الكتاب للدلالة على أنه يكتب ويدون .

ووصف الكتاب بالحكيم استهلال بارع ، ففيه إشارة واضحة إلى أهم موضوعات السورة ، وهى حكمة لقمان فى وصاياه لابنه عليهما السلام .

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى هذا الكتاب يبعد عن الزيغ والهوى

ويرشد إلى الحق والصواب ، ويشفى من الضلال ، ويعين على الصلاح ، والتقى ، ويستفيد به المحسنون ، وهم الذين صدقوا مع الله ، وآمنوا به ، وأصلحوا عملهم ، واستقاموا على الصراط المستقيم .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

هذا جواب عن سؤال محذوف تقديره : من هم المحسنون ؟ فكان الجواب هم الذين يحافظون على الصلاة ، ويؤدونها فى أوقاتها ، وشروطها ، وآدابها ، ويؤتون ما فرض الله عليهم من زكاة ، ويؤمنون باليوم الآخر بكل ما فيه من أحوال ، وأهوال ، ونتائج .

فإن قيل : الآية مكية ، فلم تحدثت عن الصلاة والزكاة ؟

أقول : تحدث القرآن الكريم فى مكة عن الصلاة والزكاة من عدة نواح فقد بين أن الرسل كانوا يصلون ويزكون ، وأنهم دعوا أقوامهم إلى الصلاة والزكاة ... وأيضا فإن الصلاة والزكاة قد شرعتا فى مكة ، وفرضتا فيها على الجملة إلا أن كفيائتهما ، ومقاديرهما ، وشروطهما ، وتفصيلاتهما فرضت فى المدينة بعد الهجرة ، ولذلك جاء ذكرهما فى القرآن المكى ... وأيضا فإن حديث القرآن المكى عن الصلاة والزكاة تهيئة نفسية بليغة للمؤمنين ليستعدوا لأدائهما بعد الهجرة فى دأب ، وهمة ، ونشاط .

وقد رغب الله فى المحافظة على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ببيان ما يترتب على المحافظة عليهما فقال تعالى .

﴿ **أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ أى

هؤلاء المحسنون المحافظون على عبادة الله ، المؤدون للصلاة والزكاة يهديهم الله للخير والصلاح ، ويوفقهم للعدل والأمان ، ويقدر لهم الفوز والفلاح فى الدنيا والاخرة .

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه ، وأنه محكم ثابت حكيم فى إرشاداته وبراهينه ، وأنه يهدى ويرحم المحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون باليوم الآخر ، وهم الذين يعيشون بهداية الله ، وفى رحمته ، وهم الفائزون فى الدنيا ، وفى الآخرة .

(١٥١)

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الاهتمام بإيراد البراهين

العقل هو ميزان الإدراك في الإنسان ، يعرف الغث من الثمين ، ويميز الحق من الباطل ، ولذلك كان بحثه الدعوب عن الدليل ليصل به إلى المدلول ... وكان خطاب القرآن الكريم له ليعرف الله ... وكانت الحروف المقطعة أمامه ليعرف منها أن القرآن الكريم كلام الله تعالى .
وهذه الآيات في أول سورة "لقمان" براهين عالية تدل على عظمة القرآن الكريم :

- فهو كلام الله المنزل على رسول الله المعجز بأقصر سورة منه مع أنه مركب من حروف كلام العرب .
- وهو الكتاب عالى الشأن ، عظيم القدر بما فيه من عقيدة كاملة ، وشريعة خاتمة ، وخلق كريم ، لا يساويه في ذلك كتاب آخر .
- وهو الرحمة المهدأة ، والنعمة المزجاة ، الهادى إلى سواء السبيل .
- وهو دستور الإسلام ، وسلاح المؤمنين في الفوز والفلاح في الدنيا وفي الآخرة .

ومهمة الدعاة مع القرآن الكريم استخراج كنوزه ، وإظهار محاسنه ، ودعوة الناس به واليه ، ووضعهم في حياة الناس دستورا ، وفقها ، وأدبا ، وخلقاً .
إن مزايا القرآن الكريم وخصائصه يجب أن تتحول إلى عمل وسلوك ، وتلك هي مسئولية الدعاة .

(١٥٢)

الركيزة الثانية **أهم صفات المؤمنين**

توضح الآيات صفات المؤمنين ، وأهم أعمالهم ، ومصيرهم فى الدنيا ، وفوزهم فى الآخرة فهم يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويستقيمون على ما أمر الله به ، ويعيشون عبادة الله مخلصين أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم المفلحون .

الضالون يشغلهم الله **عن هداية القرآن الكريم**

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۖ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطٌ ۚ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيتين

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث اشترى قينة (مغنية) وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق بها إليه .

ويقول لها : أطعميه واسقيه وغنيه .

ويقول لمن أتى إليه : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه .

وعن مقاتل رحمه الله أنه كان يخرج تاجرا إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم فيرونها ، ويحدث بها قريشا ، ويقول لهم : إن محمدا يحدثكم . حديث عاد

(١٥٣)

وتمود ، وأنا أحدثكم حديث رستم واسفنديار ، وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه^(١) فيصدهم بذلك عن الاستماع لدعوة محمد ﷺ .

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة طاعة المحسنين لله ، واستقامتهم على هدى القرآن الكريم جاءت هاتان الآيتان لبيان فريق من الناس يهجون القرآن الكريم ويستبدلون به اللهو والغناء واللعب .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن فريقا من الناس يستعين بلهو الحديث من غناء ، وأساطير ، ليصد الناس عن سماع القرآن الكريم ، ويبعدهم عن الاهتداء بهديه الكريم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ أى ومن الناس فريق لا يرضيه سماع القرآن الكريم فينصرف عنه ، ويصد الآخرين عن سماعه فيأتى بالخرافات ، والأساطير والمضاحيك ، وفضول الكلام ، كالنضر بن الحارث الذي كان يشتري الكتب ويحدث بها الناس ، وربما اشترى الفتيات ، وأمرهن بمعاشرة من أسلم ، ليحملهم

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

على ترك الإسلام ، وما مقصده من ذلك إلا الإضلال ، والصد عن دين الله ، وقراءة كتاب الله ، واتخاذ القرآن الكريم هزوا ولعبا .

وعن نافع قال : كنت أسير مع عبد الله بن عمر في الطريق ، فسمع مزمارا ، فوضع أصبعيه في أذنيه ، وعدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أسمع ؟ قلت : لا .

فأخرج أصبعيه من أذنيه وقال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع^(١) . وعن ابن عوف أن رسول الله ﷺ قال : "إنما نهيت عن صوتين أحققين فاجرين : صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان . وصوت عند مصيبة خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنه شيطان"^(٢) .

إن سماع الغناء الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على اللهو والمجون بكلام يشبب بذكر النساء ، ووصف محاسنهن ، وذكر الخمر والمحرمات ، لا خلاف فى تحريمه .

أما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح : كالعرس والعيد وحين التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق وحدو أنجشة (عبد أسود كان يقود راحلة نساء النبى ﷺ عام حجة الوداع) .

أما ما ابتدعه أصحاب البدع من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الطار ، والمعازف ، والأوتار فحرام .

وأما طبل الحرب فلا حرج فيه ، لأنه يقيم النفوس ، ويهرب العدو ، فقد ضرب بنات النجار بين يدي النبى ﷺ يوم دخل المدينة ، فهم أبو بكر بالزجر ،

(١) سنن أبى داود . كتاب الأدب . باب كراهية الغناء والزمير ج ٤ ص ٢٨١ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب الجنائز . باب ما جاء فى الرخصة ج ٣ ص ٣١٩ .

فقال رسول الله ﷺ : "دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد"^(١) . وقال ﷺ : "خذوا يا بني أرفدة ، حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة"^(٢) .
ولا بأس من استعمال الطبل والدف في النكاح ، وكذا الآلات المشهورة به والغناء بما يحسن من الكلام مما لا رفت فيه ، وسماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم لا يجوز^(٣) .

﴿ أُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى إن الناس الذين يفعلون ذلك ، ويلهون الناس عن القرآن الكريم لهم عذاب أليم يهينهم فى الآخرة كما أهانوا الحق فى الدنيا ، وتعدوا على كلام الله تعالى .
وقد بينت الآية أن الذى يقوم بهذا الضلال بعض الناس لقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ وهؤلاء هم المترفون الذين يملكون الوقت والمال ، وينفقون ذلك فى الضلال والإضلال .
وتبين الآية أن تصرف المشركين واضلال الآخرين أمر قائم على الجهل والغواية لا علم فيه ، ولا معرفة لأنهم يضلون ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

وفى إفراد الضمير حين الفعل فى قوله : ﴿ مَنْ يَشْتَرِ ﴾ وجمعه فى اسم الإشارة ﴿ أُولَئِكَ هُمْ ﴾ إشارة إلى حقيقة يعيشها الناس ، وهى أن الإيمان أو الكفر أمر ذاتى يعاقب الإنسان عليه وحده ، أما الجزاء والعقوبة فهى جامعة لمستحقيها حيث يلتقى ، فيلتقى أصحاب الجنة معا فى الجنة ، ويتقابل أهل النار مع قرنائهم فى النار ... وشتان بين الجمعين .

(١) السنن الكبرى للبيهقى . كتاب صلاة العيدين . باب الضرب بالدف ج ٢ ص ٣١٢ .

(٢) شرح السنة للبغوى . كتاب الجمعة . باب الرخصة في اللعب يوم العيد ج ٤ ص ٣٢٤ .

(٣) تفسير المراعى ج ٢١ ص ٧٣ .

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّا مُسْتَكْبِرِينَ كَانُوا لَمْ يَسْمَعُهَا كَأَنَّ فِي

أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أى أن هذا المشرك الذى اتخذ لهو الحديث مسلكا له كان إذا سمع آيات القرآن الكريم من قارئ يتلوها عليه يعرض عن سماعها ، ويبتعد عنها مستكبرا متعاليا حتى لا يسمعها ... وكأن فى أذنيه مانعا يمنعها عن السماع ، ويحول بينها وبين القرآن الكريم ، وهو الذى صنع هذا المانع بانصرافه بعيدا عن التلاوة والنالين .

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى بشر هذا المعرض عن سماع القرآن الكريم

بعذاب الله الأليم الذى أعده له فى الآخرة ، وقد عبرت الآية عن الإنذار بالتنبيه استهزاء بهذا الضال . فقد استهزأ بالقرآن الكريم وتكبر عن سماعه وفى يوم القيامة ، واليوم يستهزئ الله به ، ويعذبه ، ويبذل كبريائه هوانا وضعة .

- ٥ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن فريقا من الناس ممن أضلهم الله تعالى يشتري ما يلهى به الناس من غناء ومزامير ، وأساطير عن سماع القرآن الكريم ، ويلهيهم عنه ، بلا علم ، ولا معرفة ، وهؤلاء قد أعد الله لهم عذابا أليما يستحقونه ، ويستهزئ الله بهم كما استهزأوا بكلامه ، فلقد كانوا يستكبرون عن سماع القرآن الكريم ، وكانوا إذا تلى عليهم فروا بعيدا كأن فى أذنه صمم يصددهم عن الحق ، ويمنعهم من الهداية والاستقامة ، وليس لهؤلاء إلا العذاب الأليم الذى يهينهم ، ويؤذنه كما أهانوا القرآن الكريم ، وانصرفوا عن سماعه .

(١٥٧)

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تبين الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المشركون يصدون غيرهم عن القرآن الكريم

القرآن الكريم هو دستور الإسلام ودعامته ، وهو الحافظ لتعاليمه ، وهو الذى يهذى المتقين إلى سواء السبيل ... وقد أدرك خصوم الإسلام تأثير القرآن الكريم فى مستمعيه لحلاوة لفظه ، ودقة معانيه ، وبقائه بين الناس محفوظا بأمر الله تعالى ، أدرك الخصوم ذلك فعملوا على التصدى له ، وصرف الناس عنه بأساليب عديدة منها :

- (١) نشطوا فى إثارة المشاعر الشهوانية فى الإنسان لتسيطر على عقله ، ومشاعره ، وعواطفه ، والعقل يرى ذلك حين ينظر إلى كثرة الأفلام الهابطة ، والأغاني الماجنة ، والأزياء العارية ، والزينة المكشوفة فى الشارع ، وآماكن العمل ، ومؤسسات التعليم ليرى هذا النشاط .
- ما معنى أن يكون لكل فيلم من بطلات جميلات فانتات يظهرن فى أثواب كاشفة لأجسادهن ويعرضن قصصا للخيانة ، ويخلو من الغرام ، والهوى .
- (٢) أكثروا من إذاعة الحب والمجون يؤديه مغنيون ومغنيات يتمايلون بأجسادهم ، وأصواتهم ، ويثيرون فى المستمعين شهوة العشق المحرم ، ويشغلون الناس بما لا يفيد .
- (٣) وضعوا المهتمين بالقرآن الكريم ، وحفظه ، والعمل به ، فى منزلة اجتماعية متدنية لتنتفير الناس منهم ، وابعادهم عنهم .
- (٤) الاستهزاء بالمسلمين العاملين ، واتهامهم بالجهل ، والتخلف ، والجمود فى الوقت الذين يسمون فيهم أنفسهم بالمبدعين ، والمستنيرين ، والتقدميين .

إن خصوم الإسلام يبذلون أموالهم ليصدوا الناس عن القرآن الكريم ويصرفوهم عن دين الله تعالى .

إن المسلمين اليوم يجهلون تعاليم دينهم ، ويعجزون عن الدفاع عنه بسبب قصور العلماء والمسؤولين ، وجهلهم بتعاليم الإسلام ، وهجرهم القرآن الكريم .

وواجب الدعاة إزاء هذا الحال كبير فعليهم توجيه المسلمين للقرآن الكريم ، وشرحه لهم ، وبيان أهميته في العمل والسلوك .

وعليهم توضيح بعض المفاهيم المثارة في الحياة العامة مثل التنوير والنهضة ، والرقى ، والإبداع ليعلم الناس إن المفهوم الحقيقي لهذه المصطلحات يلتقى مع الإسلام ... وبذلك تسقط المزاعم الكاذبة ، ويتضح ضلال المفسدين .

الركيزة الثانية

لن يفلت مجرم من العقاب

الكافر يجتهد لنشر كفره ، ويحتال لإضلال الناس بلا برهان معه ، وبلا علم يؤيده ... وكل أعماله الاستهزاء بالحق وأهله ، والتعلق بالأكاذيب والمزاعم يثيرها بين الناس ليضل العامة .

إن المشرك لا علم له بما يقول ، ولذلك يلجأ إلى الاستهزاء والسخرية لإضلال الناس بما يبيده من ثقة كاذبة وصموداه ، ولو كان يملك برهانا لتحدى به وناقشهم ، وحاورهم ، إلا أنه لا يستطيع .

ولو كان يملك برهانا على مزاعمه لاستمع للقرآن الكريم ، وقابل الحجة بالحجة إلا أنه لم يفعل ، إنه يهرب من المواجهة ، ويستكبر عن سماع القرآن الكريم ، ويبدوا كمن وضع على أذنيه حاجزا يمنعه من السماع .

(١٥٩)

إن المجرمين لن يفلتوا من العقاب ، ولذلك أعد الله لهم فى الآخرة عذابا يهين كبرياءهم ، ويؤلمهم أشد الألم وأقواه .
وسوف يستهزئ الله بهم والمؤمنون جزاء ما اقترفوا فى الدنيا .
إن الجريمة لا تقيد ، والشرك لا ينفع ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

استقرار المؤمنين فى جنات النعيم

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨٩﴾ ۞ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيتان السابقتان بعض تصرفات الضالين مع كتاب الله تعالى وما سيلقونه من عقاب أليم جاءت هاتان الآيتان لبيان أحوال المؤمنين وجزائهم الطيب عند الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن المؤمنين بالله تعالى يعيشون الدنيا بإيمانهم ، ويستمرون فى الأعمال الصالحة المشروعة التى أمرهم الله بها ، ولذلك يثيبهم الله بجنات النعيم ، وقد وعدهم الله بهذا وهو العزيز الحكيم لا يخلف وعده .

(١٦٠)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

خَلَائِدِينَ فِيهَا ﴾ أى إن الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة ، فأتوا بما أمرهم به ربهم فى كتابه ، وعلى لسان رسله ، وانتهوا عما نهاهم عنه ، هؤلاء لهم جنات ينعمون فيها بأنواع اللذات من المآكل والمشارب ، والملابس ، والمراكب ، مما لم يخطر لأحدهم ببال ، وهم فيها مقيمون دائما لا يظعنون ، ولا ييغون عنها حولا .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أى ما أخبرنا به الله كائن لا محالة ، لأنه وعد الله

الذى لا يخلف وعده وهو الكريم المنان على عباده .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى وهو الشديد فى انتقامه من أهل الشرك به

الصادين عن سبيله ، الحكيم فى تدبير خلقه ، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة لهم .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن المؤمنين بالله تعالى ، المستقيمين على منهجه ، الذين يعملون الصالحات ، ويطيعون الله ورسوله يدخلهم الله فى جنات النعيم جزاء وفاقا على إيمانهم وعملهم ، وقد وعدهم الله تعالى بذلك ، ووعدده هو الحق ، وهو العزيز الحكيم .

(١٦١)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

دعوة الناس

إلى الإيمان والعمل الصالح

يعيش الإنسان فى الدنيا ، ويجتهد فى تحقيق آماله ، وطموحاته ، ويعمل بكل حرص على أن يكون غده أفضل من يومه .

إن الحرص غريزة إنسانية تدفعه إلى السعى والعمل وفق ما يرجو ويتمنى .

إن الإنسان يحرص على أسرة طيبة ، وذرية صالحة ، ويسر مادي ، وقبول اجتماعي ، وتلك كلها آمال حسنة ... ومن الناس من يحرص على شهواته ، وأنانيته ، ولا يعنيه إلا نفسه .

والآيتان توضحان للإنسان الآمال العظيمة وتحدد له الطريق إليها ، وتبين الآيات أن المستقبل العظيم هو الفوز بالجنة فى الآخرة .

إن الأمل الكبير هو الفوز بجنات النعيم ، ففيها من النعم والخير الكثير حيث الطعام اللذيذ ، والشراب الهنى ، والحدود العيون .

والطريق إلى الجنة هو الإيمان بكل ما جاء الإسلام به ، والاستقامة على

هديه ، ومداومة العمل الصالح الذى أمر الله به فى كل مجال .

وتؤكد الآية عدة جوانب لإثبات هذا الجزاء العظيم للمؤمنين ... وهى :

(١) البدء بالتأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ ووضع الأعمال الموصلة إلى الجنة صلة للموصول

لتأكيد أن أصحاب الجنة ، يتصفون بالإيمان والعمل الصالح حتى صار

ذلك جبلة فيهم ، يعرقون بها ، وكأنها صارت مسمى عمليا لهم .

(١٦٢)

(٢) تبين الآيات أن جنات النعيم أعدت لهم خاصة ، وكأنها صارت مملوكة ﴿ هُمْ ﴾ خاصة .

(٣) ربط الجزاء بوعدهم الله الذى لا يتخلف ، وقد وعد الله المؤمنين بجنات النعيم ووعدهم بالخلود فيها .

(٤) تأكيد قدرة الله على تحقيق ما وعد به ، فهو القوى الغالب وهو الذى يحقق الغايات الحقة ، وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون .

إثبات ضلال المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي ۚ أَنْ تَعْمَدَ بِكُمۡ وَتَكُنَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة ضلال الكافرين ، وصلاح المؤمنين ، والمصير الذى ينتظر الفريقين جاءت هاتان الآيتان لبيان خلق الله المعجز ، وإثبات ضلال المشركين ، وسفههم لأنهم يرون الآيات ، وينعمون بها ... ومع ذلك ينكرون خالقها ، وموجدتها .

(١٦٣)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله خلق السماوات ورفعها بغير عمد ، وبسط الأرض وأمدّها ، وأوجد فوقها جبالا لتثبيتها ، وخلق فيها كل دابة ، وأنزل من السماء مطرا ، وأنبت به الزرع والشجر ، وتبين الآيات أن هذا خلق الله تعالى الذى أوجده فهل تقدر الآلهة التى عبدها المشركون على إيجاد مخلوق منها أو مثلها ؟

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا ﴾ أى أن الله تعالى خلق السماوات ورفعها بغير عمد كما ترونها ...

و ﴿ تَرْوَاهَا ﴾ جملة تصلح أن تكون حالا من السماوات ويكون المعنى أن الله خلق السماوات بغير عمد كما ترونها وتشاهدونها .

ويمكن أن تكون صفة لـ ﴿ عَمَدٍ ﴾ والمعنى أن الله رفع السماوات بغير عمد مرئية لكم ... أو ملموسة لحواسكم مع وجودها .

والمراد بالسماوات العالم العلوى الذى يعلو الأرض ، فحيثما كان الإنسان على الأرض ففوقه السماء بما فيها من كواكب ونجوم .

﴿ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى وضع الله على الأرض جبالا في أماكن عدة حتى لا تميد الأرض بكم ولا تهتز ، ولا يختل توازنها فتسقط ، وتغمرها مياه المحيطات .

﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى ذرا في الأرض ما يدب عليها من كائنات حية تستفيدون بها في التنقل ، والعمل ، والطعام ، والتناسل .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أى

وأنزلنا من السماء مطرا ، جعله الله سببا لإنبات الزرع في الأرض واخراج كل أنواع وأصناف النبات ذات النفع الكبير للإنسان .

وفى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب لدعوة الجاحدين الكافرين أن يشهدوا جلال الله وآياته ، ويقروا بها ، ويؤمنوا بالله تعالى .

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ ؟ ...

"هذا" اسم إشارة لخلق الله الذى ذكر في الآية السابقة ، وفى ذلك دعوة للمشركين أن ينظروا في خلق الله ، ويقارنوا قدرة الله بما يرونه من عجز الأصنام التى اتخذوها آلهة مع الله ، ولذلك جاء الاستفهام في الآية لإنكار إثبات أى قدرة لهذه الآلهة ، لأنها لا تخلق شيئا ، والمعنى أخبرونى أيها المشركون عن أى شئ خلقته آلهتكم ؟ ... وفى هذا توبيخ لهم لأنهم لن يجدوا أى خلق للأصنام والأوثان .

﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى بل المشركون ظلموا أنفسهم

بالشرك ، ووضعوا أنفسهم في جهل وعمى ، وجرم كبير .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان خلق الله في السماء والأرض ، والنبات ، وتتحدى المشركين

أن يختلفوا شيئا مثلها ، وتوضح أنهم في ضلال كبير .

(١٦٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

شمول فضل الله للناس

تبنى الآيات بعض خلق الله تعالى ، وتوضح مدى استفادة الإنسان به
واقارره بأنها خلق الله تعالى ... وهى :

(١) خلق الله سبحانه وتعالى السماء ، ورفعها بلا أعمدة ، ووضع فيها
الشمس والقمر ، والنجوم ، والملائكة ، وكثير من خلقه لتعين الإنسان
على الحياة ... وفى رفع السماء بلا عمد آية كبرى تدل على قدرة الله
تعالى والعقل البشرى يؤمن بهذا الإعجاز الإلهى في رفع السماء لأنه
يدرك أن الجن والإنس لو اجتمعوا على أن يرفعوا بيتا بلا أعمدة فإنهم لا
يستطيعون .

(٢) تهيئة الأرض للمعاش والعمل مع أنها كروية . فقد ثبتها الله بالجبال ،
وخلق فيها الدواب ، وأجرى الماء ، وأنبت الزرع ، وملأها بالبهجة والحسن
، وتلك آيات للناس .

إن آيات السماء والأرض تحيط بالناس ، ويجب أن ينظرها الناس ويؤمنوا
بالله الذى خلقها لهم في نظام بديع ، وغايات مقصودة .

الركيزة الثانية

بيان سفه المشركين

توضح الآيات سفه الضالين فهم يعبدون أصناما لا تفيد ، ولا تسمع ، ولا
تبصر ، ولا تقدر على شئ ... ولذلك يبكتهم الله ، ويوجه أنظارهم إلى البحث

لمعرفة الحقيقة ، ويطلب منهم كشف ما تفعله الأصنام التي عبدوها من دون الله .

إنهم لن يروا شيئاً ، لأن الأصنام لا تقدر على شئ . يقول الله تعالى :
﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ^ع إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ^ط وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ^ع ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ^(١) .

وهكذا تقوم الحجة على الضالين ، ويظهر سفههم وفسادهم .

الركيزة الثالثة تقدير عقل الإنسان

خاطب الله العقل ، وأنزله منزلته اللائقة ، وجعله موطن الرضى والافتتاح ... ولذلك وجهه إلى الآيات الكونية المحسوسة ليفكر فيها ، ويعلم أن الذى خلقها هو الله رب العالمين ، وهى آيات ضخمة ، ورائعة ، وضرورية ... وحين ينظر إليها الإنسان ، ويتأمل في إيجادها يصل إلى قدرة الله الذى أوجدها وخلقها .

وينادى الله الناس ليبرزوا خالقا غير الله لهذا الوجود ، وحين يعجزون عن ذلك فليؤمنوا بالله الخالق العظيم .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٣ .

قصة لقمان وابنه "عليهما السلام"

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٨﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ۖ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ وَفَصَّلْتُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿٢٠﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنْتِخَبُمُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٢٢﴾ يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ ۚ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٢٣﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٤﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ۖ وَأَغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿٢٥﴾ ۝

- ١ -

صلة القصة بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة فساد اعتقاد المشركين رغم وضوح الآيات ، وظهور البراهين على وحدانية الله ، واستحقاقه أن يعبد وحده جاءت هذه الآيات بقصة لقمان وابنه عليهما السلام لبيان ما قاما به من عبودية لله تعالى

(١٦٨)

واستقامة على الصراط المستقيم وفي ثنايا المواعظ يتحدث لقمان عليه السلام عن البراهين الدالة على وحدانية الله تعالى ، وضرورة أن يعبد وحده .

- ٢ -

معنى الآيات

تبين الآيات مواعظ لقمان ونصائحه لابنه ، وهي نصائح قائمة على أساسيات الدين ودعائمه .

وبلاحظ أن المواعظ والنصائح صريحة في توجيهها من لقمان لابنه ، وقد جاءت خلالها آيات توصي الإنسان بوالديه إحسانا ، وتأمره بطاعتها فيما يأمران به في غير معصية الله تعالى مع توضيح أن هذه الوصية هي وصية الله للناس أجمعين .

وأرى أن هذه الآيات التي أمرت الإنسان بالإحسان لوالديه ليست بعيدة عن قصة لقمان ، فقد جاءت اثناؤها لبيان أن طاعة ابن لقمان لنصائح أبيه تندرج في الأمر العام للأبناء ليطيعوا آباءهم ... وأيضا فإن الآيات في مجملها تجمع بين الأوامر النظرية ، والتطبيق العملي لضرورة طاعة الأبناء ومتابعة نصح الآباء ، وتحسين العلاقات بين الآباء والأبناء .

- ٣ -

التعريف بـ "لقمان"

ورد اسم "لقمان" في هذه السورة فقط ، فهي السورة التي عرفت المسلمين به ، وذكرت أن الله أتاه الحكمة ، ورأسها شكر الله تعالى .

وقد اختلف السلف حول لقمان عليه السلام فبعضهم ذكر أنه كان رجلا صالحا عاقلا ، أتاه الله الحكمة ، ولم يجعله نبيا .

وبعضهم ذهب إلى أنه كان نبيا مرسلا .

وحجة من ذهب إلى أنه لم يكن نبيا أن الآيات لم تتحدث عن نبوته ،
ولم تبين أن الله أكرمه بنزول وحى ، ولم تشر الآيات إلى نزول الملائكة عليه
بدين وكتاب .

ينقل ابن عطية في تفسيره عن ابن عمر رضى الله عنهما أن لقمان كان
عبدا ، كثير التفكير ، قوى اليقين ، أحب الله فأحبه الله ، ومن عليه بالحكمة ،
وألهمه إياها فنطق بها ، ولم تذكر الآيات أنه دعا ابنه إلى دين ، وإنما سمت
حديثه مع ابنه وعظا وذلك بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ .

وذهب الذين قالوا إنه كان نبيا إلا الاستدلال بعدة أمور :
فقد بينت الآيات أن الله أتاه الحكمة ، والحكمة تعنى في بعض دلالاتها
النبوة ، وذلك في قوله تعالى عن داود عليه السلام ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ
الْخِطَابِ ﴾^(١) .

وأفاد قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾^(٢) أن
الحكمة هى النبوة ، لأنها تعنى معرفة الحقائق على وجهها الصحيح الدقيق ...
كما أن نبوة لقمان هى التى جعلته يوصى ابنه كإنسان أن يحسن لوالديه
ويطيعهما فى غير معصية الله تعالى وهذا من وصايا النبوة كما جاء فى آيات
قرآنية عديدة .

والأرجح القول بنبوة لقمان عليه السلام لأن القرآن الكريم سمي السورة باسمه
كما سمي سورا أخرى باسم إبراهيم ، ومحمد ، ويونس ، وهود ، ويوسف عليهم
السلام ، وهذا يشير إلى ما للمسمى من قدر وقيمة ، وأعلاها النبوة .

(١) سورة ص ، الآية ٢٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦٩ .

(١٧٠)

- ٤ -

مواظع لقمان لابنه من خلال دلالة الآيات اللغوية

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أى آتينا لقمان الحكمة إلهاما ، أو وحيا فنطق بالكلام الدقيق ، المتضمن للمعنى الواضح ، والاستقامة في العمل على ما ذكره في أقواله ومواقفه وفاعل الاتيان هو الله العظيم المتعال كما تدل عليه "نا" في قوله تعالى : ﴿ءَاتَيْنَا﴾ .

وقد ذكر المفسرون أقوالا ومواقف نسبوها إلى لقمان إظهارا لحكمته ومنها :

- قوله : ﴿لَا بُدَّ﴾ : إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها أناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها بالإيمان ، وشرعها التوكل على الله تعالى لعلك أن تتجو .
- من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزا ، والذل في طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية .
- ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع .
- يا بنى إياك والدين فإنه ذل النهار وهم الليل .
- يا بنى ارج الله عز وجل رجاء لا يجرك على معصيته تعالى ، وخف الله سبحانه خوفا لا يؤيسك من رحمته تعالى شأنه .
- من كذب ذهب ماء وجهه ، ومن ساء خلقه كثر غمه ، ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم .
- يا بنى حملت الجندل والحديد وكل شئ ثقيل فلم أحمل شيئا هو أثقل من جار السوء ، وذقت المرار فلم أذق شيئا أمر من الفقر .
- يا بنى لا ترسل رسولك جاهلا فإن لم تجد حكيما فكن رسول نفسك .

- يا بني إياك والكذب ، فإنه شهى كلحم العصفور عما قليل يغلى صاحبه .
 - يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا .
 - يا بني لا تأكل شبعاً على شبع فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله .
 - يا بني لا تكن حلوا فتبلع ولا تكن مرا فتلفظ .
 - لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور في أمرك العلماء .
 - لا خير لك في أن تتعلم ما لم تعلم ، ولا تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فحمل حزمة وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى .
 - يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه فكن معه وإن إلا فاحذره .
 - لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء .
 - يا بني أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولا بد لك منه .
 - يا بني كن كمن لا يبتغي محمداً الناس ولا يكسب ذمهم فنفسه منه في عناء والناس منه في راحة .
 - يا بني ، امتنع بما يخرج من فيك فإنك ما سكت سالم ، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك .
 - يا بني ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله يحيى القلوب بنور العلم كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء .
- قيل للقمان : ما بلغ بك ما نرى (يريدون الفضل) ؟
- فقال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنيني .
- يا بني ليكن أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح امرأة صالحة .

- يا بني إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون وهم إلى الآخرة سراعاً يذهبون ، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت واستقبلت الآخرة ، وإن داراً تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها .
ليس غني كصحة ، ولا نعمة كطيب نفس .
يا بني لا تجالس الفجار ولا تماشهم اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم .
يا بني ، جالس العلماء وماشهم عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم .

- وقال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض ، وأن مولاه أمره بذبح شاة وأن يأتيه بأطيب مضغتين فأتاه باللسان والقلب ، ثم أمره بذبح أخرى وأن ألق منها أخبث مضغتين ، فألقى اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا .
ودخل على داود وهو يسرد الدروع فأراد أن يسأله عماذا يصنع ، فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها داود لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت .
فقال لقمان : الصمت حكمة وقليل فاعله .

- وقيل للقمان : أى الناس شر ؟
فقال : الذى لا يبالي أن يراه الناس سيئاً أو مسيئاً .
وكان لقمان يفتي قبل مبعث داود فلما بعث داود قطع الفتوى .
فسئل عن ذلك ، فقال : ألا أكتفي إذا كفيت .

- إن الحاكم بأشد المنازل وكدرها يغشاه المظلوم من كل مكان إن يصب فبالحري أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً

خير من أن يكون شريفاً ، ومن يختار الدنيا على الآخرة تفقته الدنيا ولا يصب الآخرة .

– سأل داود لقمان عليهما السلام : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت في يدي غيري .

قال : إن الله رضيني لك فلم يوصني بك ، ولم يرضك لي فأوصاك بي .
– إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

– يا بني إنما مثل المرأة الصالحة كمثل الدهن في الرأس ، يلين العروق ويحسن الشعر ، ومثلها كمثل التاج على رأس الملك ، ومثلها كمثل اللؤلؤ والجوهر لا يدري أحد ما قيمته ، ومثل المرأة السوء كمثل السيل لا ينتهى حتى يبلغ منتهاه : إذا تكلمت أسمعت ، وإذا مشت أسرع ، وإذا قعدت رفعت ، وإذا غضبت أسمعت ، وكل داء يبرأ إلا داء امرأة السوء
– يا بني لأن تساكُن الأسد والحيات خير من أن تسكن معها : تبكي وهي الظالمة ، وتحكم وهي الجائرة ، وتنطق وهي الجاهلة وهي أفعى بلدغها .

– يا بني ، سافر بسيفك وخفك وعمامتك وخبائك وسقائك وخبوطك ومخزرك ، وتزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك ، وكن لأصحابك موافقاً إلا في معصية الله عز وجل .

– يا بني إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم ، وأكثر التبسم في وجوههم ، وكن كريماً على زادك بينهم ، فإذا دعوك فأجبهم وإذا استعانوا بك فأعنهم ، واستعمل طول الصمت ، وكثرة الصلاة ، وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد ، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم ، واجهد رأيك لهم إذا استشاروك ، ثم لا تعزم حتى تثبت وتنتظر ، ولا تجب في مشورة حتى تقوم فيها وتقع وتنام وتأكّل وتصلّى

وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته ، فإن من لم يحض النصيحة من استشاره سلبه الله رأيه ، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم ، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم ، واسمع لمن هو أكبر منك سنا ، وإذا أمروك بأمر ، وسألوك شيئا فقل نعم ولا تقل (لا) فإن (لا) عي ولؤم ، وإذا تحيرتم في الطريق فانزلوا ، وإذا شككتكم في القصد فقفوا وتآمروا ، وإذا رأيتم شخصا واحدا فلا تسألوه عن طريقكم ولا تسترشدوه ، فإن الشخص الواحد في الفلاة مريب ، لعله يكون عين اللصوص ، أو يكون هو الشيطان الذي حيركم ، واحذروا الشخصين أيضا إلا أن تروا ما لا أرى ، لأن العاقل إذا أبصر بعينه شيئا عرف الحق منه ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب .

- يا بني إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء ، صلها واسترح منها فإنها دين ، وصل في جماعة ولو على رأس زج ، وإذا أردتم النزول فعليكم من بقاع الأرض بأحسنها لونا ، وألينها تربة ، وأكثرها عشباً ، وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس ، وإذا ارتحلت فصل ركعتين ، ثم ودع الأرض التي حلت بها ، وسلم على أهلها فإن لكل بقعة أهلاً من الملائكة ، وإن استطعت أن لا تأكل طعاماً حتى تبتدئ فتصدق منه فافعل ، وعليك بقراءة كتاب الله ما دمت راكباً ، وعليك بالتنسيع ما دمت عاملاً عملاً ، وعليك بالدعاء ما دمت خالياً ، وإياك والسير في أول الليل إلى آخره ، وإياك ورفع الصوت في مسيرك^(١) .

(١) انظر التحرير والتتوير ، والكشاف ، والقرطبي ، وابن عطية ، والبيضاوي ، والشاف ، فكلها ذكر شيئاً من هذه الحكم ... وقد أثرت إيرادها لحلاوة لفظها ، ودقة معانيها ، وحكمها الراقية ليستفيد بها العلماء ، والدعاة وقد نقلتها من هذا المراجع مع أن هذه المراجع أوردتها مرسلة بلا سند .

﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ ﴾ أى ومن الحكمة التى آتاها الله للقمان أن يشكر الله تعالى قولاً وعملاً على ما أنعم عليه ، وانما كان الشكر رأس الحكمة لأنه ناشئ عن إيمان وثيق بالله تعالى ، ومن رضا مطلق بقدر الله تعالى ، ولذلك كان إبراهيم عليه السلام ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ ﴾^(١) سبحانه وتعالى ، وقد أمر الله آل داود فقال لهم : ﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾^(٢) .

﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾^ط وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿ أى أن الله يجازى الشاكرين ثواباً ونعيماً ، وبذلك يعود أثر شكرهم عليهم كما أنه سبحانه وتعالى يعاقب من كفر به ، وترك شكره .
وفى الآية ترغيب شديد ، وترهيب مخوف لأن الله غنى عن خلقه لا يحتاج لشكرهم ، ولا يضره كفرهم ، ولذلك فهو يثيب ويعاقب وهو القوى القدير ، وهو المحمود فى الأرض وفى السماء .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ أى اذكر يا محمد مقالة لقمان لابنه حالة وعظه وإرشاده إلى أحسن الأعمال والأقوال .
والوعظ فى مفهومه العام إرشاد بالقول المؤثر فى أعماق وعقول المخاطبين .

وانما بدأ لقمان نشر حكمته فى إرشاد أقرب الناس إليه وهو ابنه الذى قال له : ﴿ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ أى نادى لقمان ولده بأحب الأسماء إليه ﴿ يَبْنَى ﴾ لأن ذلك ادعى للاستجابة ، وأسرع فى تحقيق القرب ، وقد بدأ لقمان بوخطبه ولده بأهم القضايا التى يحتاجها الإنسان ، وهى إيمانه بالله وحده إذ قال

(١) سورة النحل ، الآية ١٢١ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ١٣ .

له : ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ أى وحد الله تعالى ، واخلص العبادة له ، ولا تشرك معه إلها آخر لأنه لا إله إلا هو سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أى قال لقمان لابنه لا تشرك بالله لأن الشرك بالله ، واتخاذ آلهة أخرى معه ظلم للنفس ، وللحقيقة ، ولدين الله تعالى فهو وضع للشئ فى غير موضعه ، وهو ظلم عظيم لأنه يسوى بين الحى والميت ، وبين الخالق والمخلوق .

روى البخارى عن ابن مسعود قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينما لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنه ليس بذلك إنه الشرك . ألا تسمعون لقول لقمان : ﴿ يَبْنِىْ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾^(١) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ أى أن لقمان عليه السلام بعد أن وعظ ابنه بعدم الشرك بالله ، وبين له خطورة الشرك ، وصاه أن يحسن لوالديه فى القول والفعل والحال ، وأسند الله هذه الوصية إليه سبحانه فقال : ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ لأهميتها فى المحافظة على حقوق ما للوالدين من حقوق على الأبناء ، وأولى الناس حقا على الولد أبواه ، وأعظم الحقوق حق الله ... وفى هذه الوصية تربية للإنسان ليعرف ما عليه من حقوق ، وماله من واجبات . وكانت الوصية للأبناء دون الآباء لأن المحافظة على الأبناء جيلة فى الآباء لا تحتاج لوصية ، أما الأبناء فقد يجحدون حق آبائهم ، ولذلك كانت لهم هذه الوصية .

(١) صحيح البخارى . كتاب التفسير . باب لا تشرك بالله ج ٦ ص ١١٤ .

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُرُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أى حملته أمه فى بطنها مشقة ، وتعبا متكررا متراكما بعضه فى إثر بعض ، وفى الآية إشارة إلى أخفى لون فى الصورة التي نبت منها الولد ، ونشأ فى حجر والديه ، والقات للولد إلى هذا الخيط الواهي من الحياة التي كانت له ، والتي أمسكت به الأم ، نطفة ثم علقه ... ثم مازالت تمسك بهذا الخيط فى حرص وحذر ، وتفرز له من عصارة حياتها ما يزيده على الأيام قوة ونماء ، حتى تفتق عنه رحمها وليدا ، طفلا ، ثم ما زالت به تحمله بين يديها ، وتضمه إلى صدرها ، وترضعه من لبنها ، حتى يطم ، ويرفع فمه عن هذا الينبوع الذي يمتص منه رحيق الحياة ، ليستقبل بعد هذا ما يمد به والداه من طعام ، حتى يشب ويكبر ، ويستطيع أن يسعى سعيه فى الحياة !

إنها رحلة استمرت نحو عامين ، قطعها هذا الإنسان دائرا فى فلك أمه بين حمل ورضاعة .

والوهن : الضعف ... و ﴿وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ : أى ضعفا على ضعف ... وهو حال من الفاعل والمفعول معا فى قوله تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُرُ﴾ ... فالضعف الذي تبدأ به حياة الجنين ، تتلقاه الأم ، فيصيبها منه ضعف ، هو ضعف معاناة الحمل ... فيجتمع ضعف الجنين ، مع ضعف الأم الوارد عليها منه ... وأسند الوهن إلى الأم دون الأب لأن الأم هى التى تتحمل التعب والمشقة فى الحمل والولادة والرضاعة . أما الأب فإنه يرعى ، وينفق ، ويوجه ، والعناء فى ذلك قليل ، ولذلك قال النبى ﷺ لمن سأله عن أحق الناس بحسن صحبته : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ... ثم أبوك ... ثم أدناك أدناك^(١) .

(١) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة والآداب . باب بر الوالدين ج ٤ ص ١٩٧ .

﴿ وَفَصَّلُہُ فِي عَامَيْنِ ﴾ أى أن الأم تتحمل المشاق والتعب فى حملها بالولد ، وفى إرضاعه حتى تفضمه بعد عامين من ولادته .

﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ أى واشكر الله الذى خلقك ورزقك ، واشكر والديك اللذين جعلهما الله سبب وجودك .

﴿ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ أى إن المرجع إلى الله الذى يصير أمر الخلق إليه فيحاسبهم ويجازيهم فانتبهوا أيها الأبناء وأطيعوا وصية الله تعالى .

فإن قيل : لم جمع الله بين شكره وشكر الآباء ؟

أقول : جمع الله بين شكره وشكر الآباء لبيان أهمية شكر الآباء فهى تقرب من شكر الله ... وهى الطريق إليه ... ولأن الأبوين يقومان بالتربية الظاهرة ، والله هو الموجد والمربى فى الحقيقة ، ولذا جعل الله الشكر بينهما فقال : ﴿ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ ... ثم فرق بين الشكرين فقال : ﴿ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ أى أن شكر الوالدين مختص بالدنيا ، وشكرى ممتد فى الدنيا والآخرة ... وأن الجزاء المستحق على شكر الدنيا يكون بعد المصير فى الآخرة .

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا

تُطِعُهُمَا ﴾ أى وإن بذلا معك الجهد كله على إن تعصى الله تعالى ، وتشرك به وتعبد إلها غيره فلا تطعهما ، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وجاء قوله تعالى : ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ لتأكيد عدم الطاعة فى دعوة الشرك مطلقا لأنهما لو دعوا الولد لعبادة إله لا يعلم شيئا عنه لا يطيعهما ومن باب أولى لا يطيعهما إن دعوا لعبادة إله باطل بين البطلان ، ويعرف الولد بطلانه .

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : "لما أسلمت حلفت أُمي ، أن لا تأكل طعاما ، ولا تشرب شرابا حتى أرجع عن الإسلام ، فناشدتها أول يوم فأبّت وصبرت ، فلما كان اليوم الثاني ناشدتها فأبّت وصبرت ، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبّت ، فقلت لها : والله لو كانت لك مائة نفس ، تخرج نفسا بعد نفس قبل أن أودع ديني هذا ، فلن أدعه ، فلما رأت ذلك وعرفت أني لست فاعلا أكلت" (١) .

﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ أى لا تطعهما فى الشرك والمعصية ، وأحسن صحبتها فى أمور الدنيا كالكرم ، والرفق ، والنفقة ، وحسن التعامل ، وكرم الخلق ...
والمعروف هو كل ما يقره الشرع ، ويعده معروفا ويرضاه العقل فى العمل والسلوك .

وقوله : ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ إشارة إلى سهولة الصحبة ، وقصر زمانها ، وبيان أن لطاعة الله فى الأبوين فى الدنيا ثوبا جزاء حسنا يلقاه الولد فى الآخرة ، وأيضا فإن الولد يستطيع فى الدنيا أن يصنع معروفا مع والديه ... وأما فى الآخرة فالأمر بيد الله وحده ... يفعل ما يشاء .

﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ أى وأسلك طريق ومنهج من تاب ورجع إلى الله تعالى ، واستقام على طاعته ، وهم الأبرار الأطهار ، وهم الأنبياء وأتباعهم .

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى أنكم أيها الآباء والأبناء سترجعون إلى الله بعد مكثكم فى الدنيا ، فيخبركم بما فعلتم مع آبائكم وأبنائكم ، وإن كان دقيقا خافيا ، وإيتاء الآخرة مستتبع لأثره ثوبا أو عذابا .

وفى النبأ غرابة ودهشة لأنه يتعلق بأخبار ظنها الآباء والأبناء لا رجوع إليها ولا ظهور لها .

وهذا الإيتاء صادق متعلق بالأعمال ، والأقوال ، والأحوال التى حدثت ولذلك يسلم بها الناس ، وينالون استحقاقهم عنها وهم لله مستسلمون .
ومن حكمة لقمان عليه السلام أن وضع لولده علم الله بكل شئ مهما دق ، واختفى فقال لابنه :

﴿ يَبْنِيْ إِيَّاهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أى اعلم يا بنى إن ما يفعله الإنسان من خير أو شر ، وإن كان فى قدر ووزن حبة من خردل ، موضوعة فى مكان مظلم ، بعيد عن الناس فى جوف الصخرة ، أو فى أعلى السموات ، أو فى أدنى الأرض فإن الله يعلمه ، ويأت بها يوم القيامة أمام صاحبها ، وهو يحاسبه بالعدل والقسط .

﴿ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى عليم بكل شئ ، رحيم بعباده ، لا تخفى عليه خافية مهما دقت وغابت .

﴿ يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ أى استقم يا بنى على تكاليف الدين ، واصبر فى أدائها ، فأقم الصلاة على وجهها ، وحافظ على أركانها ، وشروطها ، وخشوعها ، وخضوعها ، وأمر غيرك بالمعروف المسلم به شرعا وعقلا ، وأنه غيرك عن فعل أى منكر قبيح ، وأصبر على ما يصيبك من أذى الناس .

﴿ إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ إن هذه الأفعال المذكورة من الأعمال الحسنة التى أمر الله بها ، ووعد من أطاعه فيها بالثواب الجزيل .

وبعد أن بينت الآيات السابقة الجوانب التي وعظ لقمان ولده بإتيانها جاء النهى عن الجوانب التي نهى لقمان ولده عن الإتيان بها فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى لا تتكبر على الناس ، ولا تمل خدك لهم تعاليا ، ولا تمش فى الأرض مختالا ، متثاقلا كما يفعل المتكبرون .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى أن الله يكره المتكبر الذى يختال فى مشيته ، ويفخر ويتكبر على الناس بنعم الله تعالى .

﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أى إمش الهويناء كعباد الله ، فلا تسرع ولا تبطئ ... وخفض صوتك ، ولا ترفعه على الناس .

﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ أى إن أنكر الأصوات أعلاها وأفحشها أقواها ضجيجا بلا فائدة ، ورفع الصوت بما لا ينفع مضیعة للوقت وأذى للأسماع ، وليس رفع الصوت دليل صوابه ، أو حسنه فإن نهيق الحمير صوت مرتفع ومع ذلك فهو صوت منكر ، مزعج .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات وصايا لقمان عليه السلام ومواعظه لابنه فقد حثه على توحيد الله ووصاه بالإحسان إلى الوالدين ، وعرفه منزله الأم عنده ، وحثه على ضرورة الإحسان إلى الآباء وطاعتهم فى غير معصية الله تعالى ، وبين أن علم الله محيط شامل لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .
وأمره بإقامة الصلاة ، وأداء العبادات ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والصبر على الأذى ، وتحمل المشاق لأن ذلك من عزم الأمور .

ونهاه عن ترك الكبر فى صوره العديده ، مثل المشئ مختالا ، أو رفع الصوت تعاليا ، أو تصغير الخد عزة وأنفة ، لأن ذلك من أخلاق ، وأعمال الضالين .

وقد أورد المفسرون دررا من الحكم ، تسبوها إلى لقمان عليه السلام ، وقد ذكرت كثيرا منها لمعانيها السامية ، وغاياتها العالية .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تبين الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

مسئولية الوالد فى تربية أولاده

تحدثت السورة عن مواعظ لقمان عليه السلام لابنه ، وأشارت إلى حكمته فى أقواله وأعماله ، وركزت على حكمته مع ابنه ، وهو يعظه ... ولم تتحدث الآيات عن نصائح من لقمان عليه السلام لغير ولده .

وفى هذا إشارة إلى مسئولية الوالد عن ابنه فعليه أن يلقنه الخلق منذ صغره مستفيدا من حنان الأبوة ، وتعلق البنوة .

إن الوالد يعرف طاقة ولده الذهنية ، ولهذا يمكنه مخاطبته بما يفهم ، وبما يفيد ، يبسط له الحديث ، ويلقنه الاستقامة والخلق شيئا فشيئا .

إن تأثير الولد فى ولده كبير ، لأن الولد يرى فى أبيه القدوة المثالية ، وينقل عنه العادات والتقاليد ، ويتمثله فى القول والحركة ... وهذا أمر يلزم الآباء والأمهات بتقديم الصورة التى يحبونها لأولادهم من خلال عملهم وسلوكهم . يقول النبى ﷺ : "ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن" ^(١) .

(١) المستدرک على الصحيحين . کتاب الأدب ج ٤ ص ٢٩٢ .

(١٨٣)

لقد وجه لقمان عليه السلام ولده إلى الإيمان بالله تعالى ، واليقين بصفاته العلا
وعبادته وحده ، وحسن معاملة الناس ، وترك الغرور والكبر ، وهو بهذا يعلمه
العقيدة ، والشريعة ، والخلق .
ومن هنا نقول للوالدين : اتقوا الله فى أبنائكم ، وأطيعوا الله فيهم .

الركيزة الثانية **ضرورة الإحسان إلى الوالدين**

الوالدان سبب وجود الولد ، وهما مظهر العناية به ، وبرعايته ، وتحمل
المشاق من أجله . فقد حملته أمه ووضعت ، وارضعته ، وعاشت بسببه الآلام
والأوجاع ، وتحمل الوالد العمل والتعب للاتفاق على الولد حتى يشب رجلا أو
امراة .

ولهذا الفضل من الآباء نجد وصية الله للإنسان ليحسن لوالديه إحسانا
شاملا للقول والعمل والخلق .
إن الإحسان إلى الوالدين حق لهما ، وقيام الأبناء به أداء لحق أوجب الله
عليه .

وتضرب الآية لطاعة الأبوين صورة موحية ، وتوضح للولد إنهما لو
دعواه ، وألجا فى الدعاء ليكفر بالله تعالى ، ويغير عقيدته ، فعليه أن لا
يسمع لهما فى معصية الله تعالى ، ويحافظ لهما على صورة الإحسان ،
ويرحمهما ، ويخدمهما مع كفرهما ...

إنهم تحملوا من أجله المشاق وأنفقوا عليه المال والجهد ... وأملوا فيه أن
يكون بارا بهما ، ولذلك كان على الابن أن يكون محسنا لهما ، مطيعا لله
فيهما .

والله عليم بعباده جميعا ، عليم بتربية الآباء ، وبر الأبناء ، وسيحاسب
كل إنسان على عمله فلينتبه الآباء والأبناء ليقوموا بدورهم الواجب عليهم .

الركيزة الثالثة

الإيمان بالله أساس تربية الأبناء

وجه لقمان عليه السلام ولده إلى القضايا التي خلق لها ، لأن الإنسان خلق لعبادة الله تعالى ، وهى المهمة التي بعث الله بها الرسل ، وقد وجه لقمان ولده إلى العقيدة الدينية مركزا على ما يلى :

أولاً : وجوب توحيد الله تعالى ، والإيمان بسائر صفاته سبحانه وتعالى فهو سبحانه اللطيف الخبير ، العليم بسائر الخلق ، ولو كان مثقال حبة من جردل فى مكان مظلم بعيد .

ثانياً : العمل على التزام المسلم بعبادة الله تعالى فيقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويجعل كل أعماله خالصة لوجه الله تعالى .

ثالثاً : ضرورة التخلق بالأخلاق الكريمة ، ومعاملة الناس بأدب ، وتواضع ، وهدوء ، وسكينة ، وإذا نشأ الإنسان على أساس هذه المبادئ الدينية شاب على الخير والصلاح .

وتعد مواعظ لقمان عليه السلام لابنه مبادئ أساسية للتربية السليمة ، والنهوض بالإنسان ليسعد فى الدنيا والآخرة .

الركيزة الرابعة

أساسيات فى التربية

حين نعيش مع مواعظ لقمان يمكننا استنباط المبادئ التربوية التالية :

أولاً : الاهتمام بالتربية منذ الصغر لأنها كالنقش على الحجر .

ثانياً : البدء بالأقرب فالأقرب ، فالحرص على الأقرب كبير ، ومظنة طاعته عالية ، وما بعده يتبعه .

ثالثاً : قيام التربية على جناحى الأمر والنهى .

رابعاً : تخير القضايا وأولها قضايا العقيدة .

الكافرون بين آيات الله ، ودعوة الشياطين

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۚ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْنَا آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۚ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۚ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۚ وَمَن كَفَرَ فَلَا تَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۚ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مواضع لقمان عليه السلام لإبنيه وفيها دعوته إلى توحيد الله ، وإلى الاستقامة فى السلوك والخلق جاءت هذه الآيات لتوبيخ الذين يعرضون عن آيات الله التى يرونها صباح مساء ، وترفع شأن من يؤمن بالله وبطبيعته ، كما تسلى رسول الله ﷺ حتى لا يحزن على ما يفعله المشركون معه ومع دين الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات نعم الله وأفضاله التى يعيش بها الناس وتنعى عليهم عدم الاستفادة من دلالاتها ، ويميلون إلى الجدل الباطل ، والتقليد الأعمى ...

وتسلى الآيات رسول الله وهى تبين له جزاء المؤمنين ، وتدعوه إلى عدم التألم والحزن لكفر الكافرين ، وترك الأمر لله ، وسيجازى الله كلا بعمله .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى يدور حول ما يفعله المشركون ، ويسخر الله منهم مستكرا عليهم عدم استفادتهم بنعم الله التى جعلها لهم ، ونشرها حولهم ، وهم يعيشون بها ، ويرونها بحواسهم ، وأحاسيسهم ، ويشاهدونها بأبصارهم وبصائرهم ، ومع ذلك لا يؤمنون ... والمعنى أَلَمْ تشاهدوا أيها الناس ما سخره الله لكم فى السموات ؟ ... من شمس وقمر ، وكواكب ونجوم ، تستضيئون بها ليلا ونهارا، وتهتدون بها فى ظلمات البر والبحر ...

وما سخر لكم فى الأرض ؟ ... من سهول وجبال ، ومرتفعات ووديان ومن ماء ينزل مطرا من السحاب فيسقى الإنسان والطيور والحيوان ، ويسقى الزرع والنبات والشجر ... إلى غير ذلك من الأشياء التى خلقها الله تعالى لغذائكم وأقواتكم ، وحاجاتكم أيها الناس ، وبذلك وبغيره أتم الله عليكم نعمه ظاهرة وباطنة فلم لا تؤمنون ؟

ومعنى الإسباغ العطاء الواسع الكثير الشامل لكل حاجات الإنسان ، وقد تجلى الله على الناس بنعمه الظاهرة والباطنة .

والنعم الظاهرة هى النعم الإلهية التى تلمسها الجوارح ، ويشاهدها الإنسان ببصره ، ويدركها بعقله وهى الأقل بالنسبة للنعم الباطنة التى لا يعلمها الإنسان

ولا يراها ، وقد خلقها الله ، وأودعها فى كونه البعيد والقريب والتي يكشف العلم البشرى شيئاً منها كل حين .

إن الإنسان لا يعلم حقيقة عقله ، ولا أسرار روحه ، ولا كنهه عواطفه ووجدانه مع أنه يلمسها فى آثارها ، والكون أوسع وأكبر من الإنسان ، وأسراره معلومة لمن خلقها فهو موجدتها ، وباريها .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ

مُنِيرٍ ﴾ أى إن المشركين وهم فريق من الناس يكثر فيهم اللجاج ، والعناد والمماراة ، ولا يستفيدون بنعم الله ، وآياته التى تتلى عليهم ، ويشاهدونها .

إنهم يجادلون فى ذات الله وصفاته بلا علم علموه ، وبلا هدى يهديهم ، وبلا كتاب قديم أو حديث ينير أمامهم الطريق ، ويوضح لهم المنهج الذى يسلكونه .

هؤلاء المشركون أعماهم الحقد ، وأفسد التقليد عقولهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

ءَابَاءَنَا ﴾ أى إذا قيل لهؤلاء المشركين اتبعوا رسول الله فيما دعاكم إليه ، فقد أنزل الله عليه وحيه ، ووضح شريعته فى الكتاب الذى أنزله عليه ردوا على دعوة الرسول وعارضوها ، و ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ أى لن نتبع دعوة الرسول ، وسنستمر على ما كان عليه آبائنا ، وكل ما تركوه فىنا هو مذهبنا ، ولا نستطيع ترك دين الآباء إلى دين آخر .

﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى لرد موقف المشركين المقلدين ... والمعنى أيتبعونهم على كل

حال دون نظر إلى دليل ؟ ... فرما كان اعتقاد الآباء قائما على الهوى ، وقد زينه لهم الشيطان كما زينه لآبائهم من قبلهم .

وفى هذا توبيخ واضح للتقليد والمقلدين لأن التقليد يطمس التفكير العقلى ويحرم الإنسان من طاقاته وملكاته ... ويضعه فى موضع الحيوان الأعجم الذى يتبع صاحبه فى سروحه ورواحه ، وهو لا يفهم شيئا ، وكل ما يعنيه أن يأكل ، ويشرب ، ويلعب وأنه لعدوان أثيم على الجانب الروحي فى الإنسان وذلك بحرمانه من أن يذوق بوسائله الإدراكية ، والشعورية ، والوجدانية ، ما يغذى هذا الجانب ويرضيه تماما ، كما يفعل الإنسان فيما يتصل بغذائه الجسدى ، فهو الذى يتخير طعامه ، ويذوقه ، ويمضغه ، فإن استساغه تركه يأخذ سبيله إلى جوفه ، وإن مجه ، أو استخبثه ، ألقى به من فيه ، وحمى جوفه من سوء ما ينجم منه .

فكيف يقبل الإنسان أن يدع لغيره اختيار ما يغذى روحه ومشاعره ، ووجدانه ؟

إن الشيطان يعمل لنشر الفساد فى الأرض ، وعلى الإنسان أن يجتهد بعقله ، ويبحث فى الوجود عن موجه ليصل إلى الله ، ولا يصير تابعا للشيطان الرجيم .

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

الْوُثْقَىٰ ﴾ أى أما غير المقلدين فهم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله تعالى فاستقاموا على أمره ، وأطاعوه ، والتزموا تعاليمه ، وصبروا على تكاليفه ، وهم بذلك ارتبطوا بأوثق أسباب السعادة التى توصلهم إلى رضا الله ورضوانه .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَنَقَبَةُ الْأُمُورِ ﴾ أى أن المصير فى النهاية إلى الله حين

يرجع الخلق كله إليه ، يحاسبهم ، ويأتيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا سَحْرُنَاكَ كُفْرَهُ ﴾ أى اصبر يا محمد وتحمل ، ودع

الأمر لله تعالى لأن من كفر فعليه عاقبة كفره فلا تبتئس ولا تحزن فقد بلغت الرسالة ، وأديت ما كلفك الله به .

﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى سيرجعون إلينا مرغمين ، وسنبعثهم ونحشرهم

ونفضحهم ، ونحاسبهم ، ونجازيهم .

﴿ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى سنخبرهم بأعمالهم السيئة ، ونقيم الحجة

عليهم ، ونعذبهم بما عملوا ، وستصيبهم الدهشة حين يرون أمامهم ما ظنوه بعيدا غائبا ، أو خفيا مستورا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى إن الله محيط بعلمه ، يعلم ما فى

خبايا النفس ، وخفايا الضمير ، فعلمه شامل كامل يعلم السر والأخفى منه .
وتأكيد الآية علم الله بالصدور إشارة إلى علمه بكل ما هو باطنى فى الإنسان ، فهو يعلمه كظاهره .

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى نمتع

المشركين فى الدنيا مدة قليلة ثم نلجئهم بالموت فينتقلون إلى عذاب غليظ يوم القيامة ، وهو مصيرهم المشئوم الذى سيمكثون فيه .

ومتاع الدنيا قليل بالنسبة للآخرة فهو قليل فى قدره ، ووقته ، وعدم خلوصه ، ولا قيمة له بالنسبة لمتاع الآخرة التى يحرم الله هؤلاء المشركين منها .

(١٩٠)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله سخر ما فى الكون للإنسان ، وأفاض عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، ومع ذلك يمارى المشركون ، ويجادلون فى الله بلا علم ، ولا معونة ، ولا كتاب منزل .

وهذا ضلال من المشركين المقلدين لأنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله أبوا الطاعة ، وتمسكوا بتقليد آبائهم ، ولو كان آباؤهم على ضلال وكفر .
وهؤلاء المشركون فريق من الناس ، ومعهم يوجد المؤمنون الذين يسلمون أمرهم لله ، ويطيعونه ، ويتقونه كأنهم يرونه .
وهؤلاء المؤمنون هم المتمسكون بسبل النجاة التى تحقق سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

إن الجميع سترجعون إلى الله ، وسيحاسبهم الله لينالوا جزاء ما قدموا من عمل ، فمن كفر فعليه عاقبة كفره ، ومن آمن فله ثواب إيمانه ، وسينعم المؤمنون برضوان الله تعالى فى الآخرة ... أما المشركون فقد تمتعوا قليلا فى الدنيا ، وفى الآخرة يعذبهم الله وهم مكرهون فى عذاب أليم شديد .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

براهين الإيمان فى آيات الله

تجلت عناية الله بالإنسان ورحمته بهذه البراهين التى ساقها إليه ، ووضعها أمام نظره وعقله ليعرف بها ربه ، ويؤمن به ... وقد أحاط الله الناس بآياته ، وجعلها شاملة ، وحاجتهم إليها ظاهرة ... فكل ما فى السماء وما فى

الأرض من ماء وهواء ، وشموس وأقمار ، وطير وهوام ، وسائل وجامد ...
 وغير ذلك يحتاج الإنسان إليه ، ولا يعيش بدونه ... ويجده مذلا مسخرا له ،
 وتلك آيات الله سخرها للإنسان ، وجعلها دليلا على وحدانيته وقدرته ، وأرسل
 رسله لدعوة الناس ، وتعريفهم فضل الله عليهم ، من خلال هذه الآيات .
 ولا تحتاج الآيات الكونية من الإنسان إلا أن ينظر فيها ليعرف الله ،
 وعليه أن يسأل بعض الأسئلة ليصل إلى الله تعالى :

- من خلق هذه الكائنات على تنوع أماكنها ، واختلاف أدوارها ؟
- من هدى كل مخلوق لما خلق له ؟
- من حفظ ويحفظ هذه الموجودات على نحو ما خلقت عليه بلا هلاك أو
 قصور ؟

- من مكن الكائنات الحية من التجدد بعد الفناء ؟
 إن الله سبحانه وتعالى هو فاعل كل ذلك ... وقد جعلها للإنسان شاهدة
 على وجوده ، داعية لضرورة الإيمان ، والتعبد للخالق العظيم .
 إن الوجود له موجد وهو الله تعالى ، وسبحان الله رب العالمين .

الركيزة الثانية

سعادة الإنسان في الإيمان

أرضى إنسان على عمله ومصيره هو الإنسان المؤمن ، لأنه بإيمانه يقدر
 نفسه ويقدر الله تعالى .
 فهو مع نفسه يعلم أنه محدود القدرة والعلم ، لا يعرف إلا قدرا يسيرا عن
 المخلوقات فهو متأثر ببيئته ، وثقافته ، وتقاليد المجتمع الذي يعيش فيه .

لا يعرف الإنسان ما غاب عنه من الماضى والحاضر والمستقبل ، ولا يدرك إلا ما وقع عليه حسه ، أو تمكن منه عقله وفكره ... وإذا نظر لقواه وحجمه يجد أنه أصغر من الحيوان ، وأنه لن يبلغ الجبال طولا .
إنه قد يصل بمستحدثات العلم إلى قضايا عديدة غائبة ، ومع ذلك يبقى الكثير غائبا لا يدرى عنه شيئا .

هذا هو الإنسان بقدراته ، وعلمه ، وعقله .

أما الله فهو يعلم الغيب كله ، وقدرته شاملة لكل مخلوق ، وصفاته عالية شاملة منذ الأزل ، وهو الكبير المتعال ، خلق فسوى ، وقدر فهدى .
المؤمن يعلم هذه الحقائق عن الناس ، وعن الله ، ويعلم ويعيش وفق هذه المراتب السليمة ، فيؤمن بالله ، ويستسلم له ، وينقاد لأمره ونهيه لا يشغله ما وراء الحجب ، ولا يتمنى المستحيل ، ولا يعيش مع الله فى مرأى وجدل .
إنه يسلم أمره لله ، ويعلم يقينا أنه استسلم لربه ، وأن هذا الاستسلام هو دينه الذى يعبد الله به ، ويسعد خلاله فقد استمسك بعهد مع الله الذى لا يخلف وعده ، ولا يعجزه القيام به ... ويعلم أن الله يرضى عبادته وحزبه .
إن العبد يعيش مع الله فى الدنيا ، ويطمئن إلى استسلامه للقدرة العالية ، والتقدير العادل ... ولذلك كان الإيمان هو طريق السعادة ، وكان المؤمن أسعد الناس .

الركيزة الثالثة

الجهل والتقليد سبب الكفر

بعث الله رسله للناس ليأخذوهم إلى الله تعالى ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور ، وقد مكث الرسل دعاء للناس بصدق وأمانة ، فأمن من آمن ، وبقي الكثير على ضلاله وكفره .

(١٩٣)

ومن محصلة تاريخ الدعوات نرى أن الذى صرف الناس عن الحق ،
وحرّمهم من الإيمان عاملان رئيسيان :

أولاهما : الجهل السائد بين الناس ، فهم يعيشون بين آيات الله ولا يرونها
وقد يعرف بعضهم دور هذه الآيات فيتخذها إلها ويعبدها بدل أن يعبد من خلقها
، وهو الله تعالى ... وقد استغل المأ وأولو الرأى جهل الناس فوضعوا لأنفسهم
وضعا مقدسا لا أصل له .

ثانيهما : التقليد الأعمى الذى يدفع صاحبه للموروث فقط ، وهذا داء
خطير ، وبخاصة إذا كان الآباء على ضلال وهوى .

تبين الآيات سبب الكفر ، وتوضح أنه فى عدم العلم ، والتقليد ، وتتادى
بالاستسلام لله مع العلم والفهم ، ومعرفة الدين الذى ارتضاه رب العالمين .
على الإنسان أن يعلم أن الله على كل شئ قدير ، وأنه قد أحاط بكل
شئ علما ، وعليه أن يقدر الله حق قدره ، ويعلم حدود المخلوق ، ووجوب طاعة
الخالق سبحانه وتعالى .

الركيزة الرابعة

ما على الرسول إلا البلاغ

كان ﷺ يحرص على إيمان المدعوين ، وكان يحزنه عدم إيمانهم فطمأنه
الله ، وسلاه ، وعرفه أن مسئوليته هى البلاغ المبين ، فمن كفر فعليه كفره ،
وسوف يرجع الإنسان إلى الله يحاسبه ويجازيه ، وليس بعد الدنيا إلا الآخرة ،
وسيرجع الناس إلى الله فى الآخرة فمن كفر فى الدنيا فقد تمتع بالقليل وليس له
فى الآخرة إلا العذاب الأليم .

حيرة الجاحدين بين الإيمان والكفر

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١] اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [٢] .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة سبب جحود المشركين جاءت هاتان الآيتان لبيان وقوع المشركين فى الشرك ، وهم به عالمون .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الكافرين إذا سئلوا عن من خلق السموات والأرض ، سيقرون بأن الله هو خالق السماء والأرض ، ومع ذلك يشركون معه آلهة أخرى ويعبدونها من دونه .

ويأمر الله رسوله أن يحمد الله فقد رزقه المعرفة ، وهداه للخير الذى حرم المشركين منه ، وبينت الآيات أن المشرك جاهل لا يعلم شيئاً ، وأن الله هو المالك لكل موجود ، وهو الغنى عن غيره ، المستحق للحمد فى السماء والأرض.

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ؟ ...

السؤال للتقرير والتعجب ، والمعنى ولئن سألت يا محمد هؤلاء الكافرين الذين يعبدون غير الله عن من هو خالق السماء والأرض ؟ ... فإنهم سيحييونك ، ويقرون بأن الله هو خالق السماء والأرض ، وهو إقرار بالسنتهم ، ولا أثر له في قلوبهم وأعمالهم ، لأنهم يؤمنون بغير الله ، ويجعلون آلهتهم شركاء له ، يعبدونها بأعمالهم ومناسكهم ، وفي هذا بيان لجحودهم الشديد ، وسوء خلقهم فهم يقرون بالحق ، ويرفضونه بلا خجل ولا حياء .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى قل يا محمد لهم

الحق لتلجئهم إلى الإيمان ، وتقطع أذارهم ، وتعرفهم الصراط المستقيم ، واحمد الله تعالى على نعمه ، فأكثرهم جاهل لا يعلم شيئا .

إن العلم هبة إلهية يعطيها الله لمن يشاء من عباده المتقين ، فكثير من الناس يضل علمه ، ويسوقه إلى عذاب السعير ، أما المؤمنون فإنهم بعلمهم يعرفون الله ، ويؤمنون به ، ويطيعونه ، وهؤلاء هم العلماء فى الحقيقة .

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى إن

الله هو خالق السموات والأرض ، وهو المتصرف فيهما ، وهو مالكما ، وهو الغنى عن خلقه ، المحمود فى ملكه سبحانه وتعالى .

(١٩٦)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن المشركين إذا سئلوا عن خالق السماء والأرض فإنهم سيقولون إنه الله ، ومع ذلك يكفرون به لأنهم لا يستفيدون بما علموا ، ويفعلون فعل الجاهل .

والله سبحانه وتعالى يملك السماء والأرض ، وهو الغنى عن مخلوقاته المحمود في السماء والأرض .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

اضطراب المشرك وجهالته

أجهل الناس من يجهل الحقيقة بعد وضوحها ، فمن ينكر ضوء الشمس الساطعة ، أو يدعى عدم الضرر في الكذب والنفاق والخيانة فاقد للعقل ، معطل للحواس ، ولذلك قالوا من يجهل ، ويجهل أنه يجهل فجهله مركب من جهلين .

والمشرك إنسان من هذا الطراز الجاهل ، لأن يرى الوجود ، ويقربه ، ويؤمن بأن الله هو الخالق لكل شيء ، ومع ذلك لا يعبد ، ويعبد أصناما وأوثانا لا تفيد أمرا ، ولا تعلم شيئا ... وإذا دعى لتركها تعلل بمواريث الآباء وركن إلى الجهل والجحود .

إن المؤمن عليه أن يحمد الله أن هداه للإيمان ، وعليه أن يعرف أن متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير وأبقى .

كلام الله لا يعد ولا يحصى

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ
أُنْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

- ١ - سبب نزول الآية

لما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ
رَبِّي ﴾ ^(١) على رسول الله ﷺ أرسل إليه اليهود عن طريق أهل مكة قائلين له :
بلغنا أنك تقول عنا : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، أتعنينا أم قومك ؟ ...
فقال عليه الصلاة والسلام : كلا قد عنيت .
قالوا : ألسنت تتلو فيما جاءك إنا أوتينا التوراة فيها علم كل شئ ؟
فقال رسول الله ﷺ : هي في علم الله قليل ، وقد أتاكم الله بما إن علمتم به
انتفعتم به .

قالوا : كيف تزعم هذا وأنت تقول : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا
كَثِيرًا ﴾ ^(٢) فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير ؟ ... فأنزل الله هذه الآية ^(٣) .
وقيل : إن هذا الحوار كان بعد الهجرة إلى المدينة ، والأول أولى للحفاظ
على مكة الآية ، وأنه لا تعارض بين معنى الآية ، والموضوعات المكية للقرآن
الكريم .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦٩ .

(٣) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢١٨ .

(١٩٨)

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيتان السابقتان أن الله مالك الملك وهو الغنى الحميد جاءت هذه الآية لبيان أن كلام الله لا يحد ولا يعد ، ولا ينتهى .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن نعم الله لا حصر لها ، ولا حد لها ، ولذلك لا تتفد كلمات الله ، ولا تنتهى محامده وأفضاله .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أُخْرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أى ولو تصورنا أن الشجر كله بفروعه وأغصانه قد برى أقلاما ، وتحولت الأبحر إلى مداد لهذه الأقلام ، لو تصورنا ذلك فإنها لا تستطيع أن تكتب كلمات ، وسينتهى المداد ، وتكسر الأقلام ولن تنفذ كلمات الله تعالى الدالة على عظمته ، وجلاله ، وقدرته .
وانما ذكرت الآية ﴿ سَبْعَةُ أُخْرٍ ﴾ للمبالغة والدلالة على الكثرة ، وفى ذلك بيان أن الله محيط بكل خلقه ، وهو سبحانه ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾^(١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى أن الله غالب قهار ، فلا راد لحكمه ، ولا مانع لقضائه ، فهو سبحانه وتعالى يضع كل شئ فى موضعه .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٣ .

(١٩٩)

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية جلال الله ، وعظمته ، وقدرته التي لا يحصيها كلام ، ولا يعدها عاد ، حتى لو تصور الناس أن الشجر كله برى أقلاما ، وتحول الماء إلى مداد فإنها تنتهى ، ولا تنفذ كلمات الله المتصلة ببيان جلال وعظمته .

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

مغايرة صفات الخالق لصفات المخلوقين

تختلف صفات الله عن صفات البشر اختلافا كليا ، فالله سميع بصير ، والإنسان يسمع ويرى إلا أن البون الوصفين كبير .
إن الاشتراك فى المسمى لا يعنى الاشتراك فى المفهوم ، ولذلك كان من أساسيات الإيمان توحيد الله فى أسمائه وصفاته .

فسمع الله وبصره شامل كامل أزلى أبدي ، يرى ويسمع بذاته من غير آلة أو معاونة ... أما الإنسان فإنه يسمع بأذنه ، ويرى بعينه ، وكلاهما محدد بمكان ، وزمن ... لا يرى الإنسان موجودا بعيدا عنه ولو كان خلف ظهره ... ولا يسمع أمرا غاب عن حواسه ... أما الله تعالى فهو يرى ويسمع على نحو يعلمه سبحانه فهو ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ ﴾^(١) ، و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾^(٢) وهو سبحانه مع

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٥ .

مخلوقاته جميعا فى وقت واحد . يقول سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوٰى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنٰى مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٢) وفى الآية توضيح لمغايرة صفات الله عن صفات المخلوقين فكلمات البشر محدودة معدودة وفيها ما فيها من العوار أو العدوان أو الصدق والحق ... أما كلمات الله تعالى فهي لا تحد ، ولا تعد ، ولا توصف ومنتهى تصورها أنها أعظم وأكبر من كل تصور بشرى ، فلو صارت الأشجار أقلاما ، والبحار مدادا فإنها تنتفد وتنتهى ، ولن تنتهى كلمات الله .

إن المؤدى الحقيقى لهذه الآية هو تنزيه صفات الله عن صفات المخلوقين ف ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٣) .

(١) سورة طه ، الآية ٤٦ .

(٢) سورة المجادلة ، الآية ٧ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ١١ .

براهين قدرة الله ظاهرة

يقول الله تعالى :

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ١
 تَرَأَىٰ اللَّهُ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ٢
 أَلْحَقْ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ٣
 أَنْ أَلْفُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُريَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ
 صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ٤
 وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا
 نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ ٥ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن عظمة الله ، وقدرته لا تحد ، وأن كلمات الله لا
 تحصى جاءت هذه الآيات لبيان أن قدرة الله بالغة ، فخلق الكون وما فيه مثل
 خلق نفس واحدة فهو صاحب النعم وآياته دالة عليه ، وإيجاده المخلوقات بـ
 "كن" دليل على كمال قدرته سبحانه وتعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن قدرة الله شاملة ، وأن خلق الناس وسائر الكائنات مثل
 خلق نفس واحدة ... وهو سبحانه مالك الملك ، يولج الليل في النهار ، ويولج

(٢٠٢)

النهار فى الليل ، وهو الذى سخر الشمس والقمر ، وهما لوظيفتهما ، وفى آيات الفلك والموج آيات على وحدانية الله وقدرته .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى أن الله يريد لما يشاء ، قادر على كل شئ ، وأن القدرة التى توجد الشئ بمجرد المشيئة يستوى عندها الواحد والكثير ، فهى لا تبذل جهدا ولا تصاب بتعب ، ولذلك يستوى عندها خلق الواحد ، وخلق الملايين ، وبعث النفس الواحدة ، وبعث الناس أجمعين .

إن الخلق يتم بـ "كن" وهو سبحانه : ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى إن الله سميع لكل قول ، بصير بكل أمر وحال .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير إثباتا لبيان قدرة الله تعالى ... والخطاب لكل إنسان له عقل ونظر ... والمعنى ألم تنظروا أيها المشاهدون فى الكون وتروا كيف أن الله بقدرته ، وسلطانه يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وأنه سبحانه سخر الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وتلك آيات خلقها الله للناس ، وجعلها دليلا للإيمان .

(١) سورة يس ، الآية ٨٢ .

(٢٠٣)

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى أن الله عليم خبير بكل الأعمال والأحوال .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ ﴾
أى إن الله أظهر آياته المذكورة للناس ليؤمنوا بها ، ويعلموا أن الله هو المستحق للعبادة وحده ، ويعلموا أن ما عداه من آلهة معبودات باطلة .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى أن الله المتعالى على كل شئ صاحب السلطان على جميع خلقه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ ﴾ ... أى ألم تشاهد أيها الإنسان السفن وهى تمخر عنان البحر حاملة للآقوات ، والمتاع ، والأشخاص ، وترى ما فى ذلك من آيات شاهدة على وحدانية الله ، واستحقاقه أن يعبد وحده .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى أن فى الفلك والبحر والحركة آيات وبراهين يستفيد بها الصابرون على الضراء ، الشاكرون على السراء ، وهم المؤمنون المخلصون .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ أى أن المشركين ليسوا كالمؤمنين حين البأساء والضراء لأنهم إذا أحاطت بالمشركين أمواج عالية كالجبال ، وأحرق بهم الخطر حين يركبون السفن فزعوا إلى الله مخلصين له الطاعة ، ولا يشركون ، ولا يعلنون ما فى قلوبهم ... فلما

(٢٠٤)

تتحقق لهم النجاة ، ويخلصون إلى البر فمنهم من يبقى على إيمانه ... ومنهم من ينقض عهده ، ويعود إلى الكفر والضلال .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن قدرة الله شاملة ، وأنه سبحانه وتعالى يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، ويسخر الليل والنهار ، والشمس والقمر وهو الإله الحق الذى يستحق العبادة وحده ، والمؤمنون يأخذون من الآيات براهين للإيمان بالله تعالى .

وأن المشركين يلجأون إلى الله حين ينزل بهم الضر فإذا رفع الضر عنهم فمنهم من يستمر على إيمانه ، ومنهم من ينكص على عقبه ويعود إلى الضلال .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

يسر الخلق والبعث

قدرة الله دالة على وحدانيته ووجوده ... فقد خلق السموات السبع والأرضين السبع ، وأوجد ما فيها من عجائب وغرائب فى سبعة أيام ، ومع ذلك تكفرون ولا تؤمنون ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْلٌ ۝ ثُمَّ

أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٠٠﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظٍ ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٠١﴾^(١)

ويرى الإنسان قدرة الله فى كل شئ ، وسوف يراها يوم القيامة حيث يهلك الوجود بنفخة فى الصور ، وتحيا الخلائق بنفخة أخرى بلا تعب ولا مشقة ، وبلا وقت ، ولا جهود ... يقول الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۚ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾^(٢) .

وعلى الإنسان أن يؤمن بقدرة الله ويعلم أن البعث أمر ميسر ، وهو أهون من الخلق الأول ليعمل له ، وابتعد عن عبث الماديين المشركين .

الركيزة الثانية

آيات الله دعوة دائمة للإيمان

عاش رسول الله ﷺ مع الناس يدعوهم إلى الله ثلاثا وعشرون سنة ، وترك فيهم القرآن الكريم والسنة ، وأشار لهم إلى الآيات الكونية والإنسانية التى تقرر حقيقة القدرة وتذكره بحججه وبراهينه ، وتخاطب الإنسان بهذه الآيات ليسمعها بأذنه ، ويراهها بعينه ، ويتدبر فيها بعقله وذهنه ... لأنه لو فعل ذلك سيعلم أن الله على كل شئ قدير ، وأن البعث حق لا ريب فيه .

إن حركة الزمن وتتابع الليل والنهار ، وتنسيق التنقل بينهما ، فكلاهما يتحرك رويدا رويدا ، ويدخل كل منهما فى الآخر فى حركة سلسلة ، ومظهر

(١) سورة فصلت ، الآيات ١٢ . ٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٦٨ .

(٢٠٦)

بهيج يتفق مع أحاسيس الإنسان ومشاعره ... يولج الله كلا منهما فى الآخر
وتتحرك الشمس والقمر فى تناسق وتناغم مع الليل والنهار ، وفى فلك ثابت لا
يتغير ولا يتبدل إلى أن تنتهى الحياة الدنيا .

إن حركة الليل والنهار ، وسير الشمس والقمر تؤكدان وجود قدرة قاهرة
محركة ثابتة لا يصيبها تعب ، ولا تنالها مشقة .

وحين يؤمن الإنسان بهذه القدرة سيجد نفسه متسقا مع حكمة العقل ،
وواقع الأمور .

ومن آيات الله تعالى الدالة على قدرته ، الشاهدة على وجوب عبادته
حركة السفن فوق الأمواج الصاخبة مع اتجاه حركة الماء ، أو عكسها تحمل
الأثقال والأحمال ، وتنقل الإنسان والحيوان ، وتقرب البعيد ، وتحقق حاجات
الإنسان من تجارة ، وعمل ، وسعى ، ومقاس ... وآيات الله عديدة .

وفى كل شئ له آية .: تدل على أنه الواحد

إن الإنسان جزء من هذا الكون المخلوق ، وقد رزقه الله العقل ليرى هذه
الآيات ، ويوجه الله الإنسان ليرى ويستفيد ، ففيها برهان لكل مؤمن صابر
شكور .

وآيات الله ميدان واسع للدعوة لأن كل إنسان يراها ، ويفهم دلالاتها ،
ولذلك كانت مسئولية الدعاة التذكير بالآيات وفق منهج دعوى يلتقى مع
المخاطبين .

الركيزة الثالثة

بعد المشركين عن الحق والصواب

كان المأمول أن يؤمن الناس بعدما رأوا آيات ، وبعدما ذكروا بها إلا أن
هذا الأمل لم يتحقق لخلل فى عقل الناس وميولهم .

(٢٠٧)

إن المشركين يرون الليل والنهار ، ويشاهدون الشمس والقمر ، ومع ذلك لا يؤمنون ، وينسون أن الله خبير بما يعملون .

لم يفقه المشركون الحقيقة فتركوا عبادة الخالق ، وعبدوا المخلوق ، وأهملوا حق الله تعالى ، وعبدوا الأصنام التي لا تستحق شيئاً ... إنهم ضلوا فيما ذهبوا إليه ، فقد لعب بهم الهوى والشيطان فاتخذوا الأصنام آلهة وتركوا ألوهية الله الواحد ، الكبير المتعال .

إن المؤمن عبد رضى الله عنه ، ورحمه ، وهواه لما يحب ويتمنى ، وذلك فضل عليه ... أما الكافر فهو إنسان ضيع عقله ، وأفسد مداركه ، ومال للهوى ، ورضى أن يكون من حزب الشيطان أولئك هم الخاسرون .

دعوة الناس إلى التقوى وعدم الاغترار بالدنيا

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قدرة الله الشاملة ، ونعمه الواسعة ، وموقف المؤمنين والمشركين من آيات الله تعالى جاءت هذه الآية لدعوة الناس إلى التقوى ، وتذكيرهم بيوم القيامة ، وتعريفهم أن كل مخلوق عند الحساب يوم القيامة يهتم بنفسه ، ويدع غيره ولو كان أقرب الناس إليه فى الدنيا ويطلب النجاة لنفسه ، ويقول : نفسى ، نفسى .

(٢٠٨)

- ٢ -

موضوع الآية

تدعو الآية الناس إلى تقوى الله تعالى ، وإلى الحذر من اليوم الآخر الذى تجزى فيه كل نفس بما كسبت ، وتؤكد وعد الله بالجزاء فهو حق ، وعلى الإنسان أن لا يغتر بهذه الدنيا ، ولا يجرى وراء مغريات الشيطان الرجيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيَّمُ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ هذا من الله نداء للناس أجمعين بعد أن بين لهم آياته حتى يعبدوا الله ، ويخافوا ربهم ، راجين رحمته ، فهو المنعم المتفضل عليهم .

﴿ وَأَخْشَوْا يَوْمًا ﴾ أى خافوا أيها الناس الحساب الذى سيكون فى يوم القيامة ، وهو ليس كسائر الأيام فهو يوم طويل ملئ بالحسرة والندامة ، والهول الكبير .

﴿ لَا يَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾

أى اعملوا ليوم القيامة ، واستعدوا له فهو يوم الجزاء العادل ، حيث تجزى كل بما كسبت ، لا يعاقب أحد بذنب أحد ، ولا يأخذ أحد ثواب أحد ...

وقد ذكرت الآية شخصين فى غاية الشفقة والمحبة فى الدنيا ، إلا أن كلا منهما فى الآخرة لا يجزى عن الآخر شيئاً ، فكل نفس بما كسبت رهينه ... وهذا الشخصان هما الوالد والولد فكل منهما لا يعطى من ثوابه شيئاً للآخر ، ولا يتحمل عنه عقوبة ووزرا .

وقد نبهت الآية على أن الأعلى لا يعطى للأدنى ، والأدنى لا يعطى للأعلى ، مع أنهما كانا فى الدنيا على خلاف ذلك ، فالوالد كان يجزى عن ولده

(٢٠٩)

لكمال شفقتة عليه ، والولد كان يجزي عن والده لما له من حق التربية أما فى يوم القيامة فكل إنسان يقول : نفسي ولا يهتم بقريب ولا بعيد .

﴿ إِنِّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أى إن ما وعد الله بحدوثه فى هذا اليوم حق واقع لا شك فيه .

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى لا تخدعنكم الحياة الدنيا بزینتها وزخرفها فتميلكم إليها .

﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أى ولا يخدعنكم الشيطان فيبعدكم عن تقوى الله وطاعته ، ولا يغرنكم الهوى فهو للإنسان عدو مبين .

- ٤ -

معنى الآية

ينادى الله الناس ، ويأمرهم أن يخافوا الله ، ويرجوا رحمته ، وأن يعملوا ليوم القيامة حيث تجزى كل نفس بما كسبت ، لا يحمل أحد وزر أحد ولو كان أقرب الناس إليه ، ولن يتنازل أحد عن ثوابه لغيره أبدا ... فاحذروا أيها الناس هذا اليوم حتى لا تخدعنكم الدنيا بزخرفها وزينتها ، ولا يبعدكم الشيطان عن طاعة الله تعالى ، ولا يميل بكم الهوى عن الصراط المستقيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

قد أعذر من أنذر

قطع الله الأعذار عن سائر الناس ... فقد قطع كافة السبل التى يمكن تصور الاعتذار بها .

(٢١٠)

- فقد خلق الإنسان من عدم ، ورزقه الجوارح والعقل ، وأودع فيه العديد من الملكات والطاقات التي تمكنه من الفهم والإدراك ، وتمييز الحق من الباطل ، وتفريق الغث من الثمين .
- وسخر له الكون كله ، وعرفه بنعمه وأفضاله ، ودعاه إلى النظر والتأمل في نعم الله وآلائه ليسلك الطريق وهو به عليم .
- وأرسل له الرسل لتوضيح طريق الإيمان ، وشرح المنهج الموصل إلى الله مستقيدين بعقل الإنسان وآيات الكون .
- حذره من مغبة مخالفة أمر الله تعالى في الدنيا والآخرة . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾^(١) .

- عرفه بأحوال يوم القيامة فهو يوم طويل كألف سنة ، وأحواله عديدة حيث تدنو الشمس من الرعوس ، وتنتشر الصحف ، ويقام الميزان ، ويهتم كل إنسان بنفسه . يقول الله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾^(٢)
- حذره كثيرا من عدم الطاعة ، وبهذا وغيره انقطعت المعاذير وأصبح كل إنسان مسئول عن نفسه ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ﴿ إِنْ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾^(٣) .

(١) سورة طه ، الآية ١٢٤ .

(٢) سورة عبس ، الآية ٣٧ .

(٣) سورة الفجر ، الآية ١٤ .

القضايا التي استأثر الله بعلمها

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة بن حفصة من أهل البادية أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها ، وقال : إن أرضنا أجذبت فقل لي متى ينزل الغيث ، وتركت امرأتي حبلى فمتى تلد ، ولقد علمت أين ولدت فبأي أرض أموت فأنزل الله هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما دعت الآية السابقة إلى الإيمان بالله تعالى ، والحذر من اليوم الآخر جاءت هذه الآية لبيان أن الله استأثر بعلم مجيء يوم القيامة مع غير ذلك الغيبات وبين ذلك للناس ليستعدوا له في كل آن ومكان .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله استأثر بعلم أمور جمة ذكرتها الآية ، وأولها علم مجيء يوم القيامة .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٢٠ .

(٢١٢)

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى أن الله عنده علم وقت مجئ يوم القيامة وعلم ما يحدث فيها ، فلا يعلم أحد من الناس متى تأتى الساعة ؟ وماذا سيكون فيها ؟ ومن سيدخل الجنة ؟ ومن سيعاقب بالنار ؟

﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ أى أن الله هو الذى ينزل المطر ، ويعلم مقداره ، ووقت ، ومكان نزوله ، وكيف يغيث الناس .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ أى يعلم ما تحمل المرأة من ذكر أو أنثى ، ويعلم تكونه ، وتطوره منذ أن كان علقه ، ويعلم وقت ، ومكان مولده ، ويعلم عمله ، وعمره ، ومصيره .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أى أن الإنسان لا يعلم ماذا سيكسب فى غده ، ويعلم الله كسب الإنسان فى غده من خير وشر ، وما يعتريه من أقضية وأحداث ؟

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أى إن النفس البشرية لا تستطيع أن تحدد أجلها ، والمكان والصفة والهيئة التى ستكون عليها عند موته .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بهذه الأمور وبغيرها .

﴿ خَبِيرٌ ﴾ ببواطن الأمور فيعلن سرها وعلايتها .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : "مفاتيح الغيب خمس وهى

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ وَمَا

(٢١٣)

تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية الأمور التي استأثر الله بها ، ولن يعلمها أحد غيره وهي الأمور الخمسة المذكورة في الآية .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

قصور علم الإنسان

بلغ الإنسان شأوا كبيرا من التقدم والحضارة حتى ظن قدرته بوسائله العلمية على أنه قادر على كل شئ فيها .
إلا أن علم الإنسان مهما بلغ قاصر أمام علم الله تعالى ، وقد ضرب الله صورا معلومة تثبت قصور علم الإنسان ، ليعلم عجزه ، ويعتمد على ربه ، ويلجأ إليه ، فله العلم والإحاطة ، وهو العزيز الحكيم .
إن عبادة الله تقوم على حب الله والخوف منه ، وهذا لا يتم إلا إذا علم الإنسان قدر ربه ، وصار عبدا له ... وهذا واجب الإنسان ، ومسئولية الدعاة .



إلى هنا ينتهي تفسير سورة "لقمان" بتوفيق الله تعالى .

(١) مسند الإمام أحمد . مسند عبد الله بن عمر ج ١٠ ص ٢٣٠ .

سورة "السجدة"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٢١٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢١٦)

- أولا -

التعريف بسورة "السجدة"

السورة لها أسماء عدة ... منها :

(١) "السجدة" ، وقد ترجم الترمذى في سننه لها بهذا الاسم ، وسماها سورة السجدة^(١) ، ولا يصح اعتماد هذا الاسم إلا بتقدير مضاف له هو "سورة ألم السجدة" أو "سورة ألم تنزيل السجدة" وذلك لأن مسمى السجدة تسمى به كل سورة فى القرآن الكريم بها سجدة تلاوة ، وأيضا فإن سورة "فصلت" بها سجدة تلاوة ، ومن أسمائها "سورة حم السجدة" ولذلك لزم تقدير مضاف لمسمى "السجدة" يميز السورة عن غيرها .

(٢) "ألم تنزيل" فعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ "ألم تنزيل" و "سورة الملك"^(٢) .

(٣) "ألم تنزيل السجدة" فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ يوم الجمعة فى صلاة الفجر "ألم تنزيل السجدة" ، و "هل أتى على الإنسان"^(٣) .

(٤) "تنزيل السجدة" وقد ترجم البخارى للسورة بذلك فى صحيحه^(٤) ، وذلك على تقدير "ألم" قبلها .

(٥) "سورة المضاجع" لوقوع لفظ المضاجع فى قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ

جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾^(٥) .

(١) سنن الترمذى . أبواب تفسير القرآن . باب ومن سورة السجدة ج ٥ ص ٣٤٦ .

(٢) سنن الترمذى . أبواب فضائل القرآن . باب ما جاء فى فضل سورة الملك ج ٥ ص ١٦٥ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الجمعة . باب ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ج ٢ ص ٥ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب سورة السجدة ج ٦ ص ١١٥ .

(٥) سورة السجدة ، الآية ١٦ .

(٦) "المنجية" ففي تفسير القرطبي أن خالد بن معدان رضي الله عنه قال : بلغني أن رجلا كان يقرأها ، لا يقرأ شيئا غيرها ، وكان كثير الخطايا ، فنشرت جناحها ، وقالت : رب اغفر له فإنه كان يكثر من قراءتي فشفعها الرب فيه ، وقال : اكتبوا له بكل خطيئة حسنة ، وارفعوا له درجة^(١) .

(٧) "سورة سجدة لقمان" لوقوعها بعد سورة لقمان لئلا تلتبس بسورة "حم السجدة"^(٢) .

وسورة "ألم السجدة" مكية في إطلاق أكثر المفسرين ، ورواية عن ابن عباس رضي الله عنه وكل ما خالف ذلك صالح للتأويل مما يجعل السورة مكية^(٣) .
وعدد آيات السورة سبع وعشرون آية عند البصريين ، وعند غيرهم ثلاثون آية .

وقد نزلت السورة بعد سورة "النحل" .

وصلة سورة "ألم السجدة" بسورة لقمان لها أوجه عدة منها :

(١) اشتمال كل منهما على دلائل الألوهية .

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٨٤ .

(٢) التحرير والتوير ج ٢١ ص ٢٠٣ .

(٣) يلاحظ أن الرواية الثانية لابن عباس تذهب إلى أن الآيات من ١٦ إلى ١٨ آيات مدنية ، وهي قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ﴿٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٠﴾
إلا أن الأولى القول بأنها مكية كما في الرواية الأخرى عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) إنه ركز فى سورة "لقمان" على دلائل التوحيد ، وهو الأصل الأول فى دين الله تعالى ، وعلى ذكر المعاد ، وهو الأصل الثانى ، وفى سورة "الم السجدة" ذكر الأصل الثالث ، وهو النبوة .

(٣) إن هذه السورة شرحت مفاتيح الغيب التى ذكرت فى خاتمة سورة "لقمان" فقله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَرْجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾^(١) شرح لقله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾^(٢) وقله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾^(٣) شرح لقله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾^(٤) وقله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾^(٥) تفصيل لقله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾^(٦) وقله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾^(٧) إيضاح لقله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾^(٨) وقله تعالى : ﴿ أَعِدَّا صَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾^(٩) إلخ شرح لقله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾^(١٠) .

وموضوع السورة هو العقيدة كسائر السور المكية ، وفى السورة تتعدد الأساليب البيانية التى تؤكد الموضوع ، وتثبتته بالحجج والبراهين العديدة .

-
(١) سورة السجدة ، الآية ٥ .	(٢) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .
(٣) سورة السجدة ، الآية ٢٧ .	(٤) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .
(٥) سورة السجدة ، الآية ٧ .	(٦) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .
(٧) سورة السجدة ، الآية ٥ .	(٨) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .
(٩) سورة السجدة ، الآية ١٠ .	(١٠) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .

(٢١٩)

- ثانيا -

- التفسير -

القرآن الكريم كلام الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَنْزِلْ أَلْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ أَلْعَلَمِينَ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١٩﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم محكما لا شك فيه ، وأنه أعجز الجن والإنس على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، وقد أنزله الله تبشيرا للطائعين ، واندازا للمشركين الذين لم يأتهم كتاب قبل ذلك .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ ﴾ هذه الحروف المقطعة هي الآية الأولى في السورة لبيان العنصر الذى تكون منه القرآن الكريم ، وهو حروف كلام العرب ، وقد جعل الله من هذه الحروف قرآنه المنزل المعجز .
وقد سبق بيان المراد بهذه الحروف المقطعة عند تفسير بعض السور التى بدأت بها حتى يتعلم المسلمون منها حقيقة كتابهم ودينهم .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى هذا هو القرآن الكريم بإعجازه ، وتكونه من هذه الحروف قد أنزله الله تعالى خاليا من أى شك وزيف .

وهو الجدير باسم الكتاب لثبوته ، وحفظه ، وتواتره من وقت نزوله إلى يوم القيامة بواسطة عدول ثقة تلقوه من شيوخهم ، ونقلوه إلى من وراءهم ، ليستمر تواتره إلى يوم القيامة كما كان منذ نزوله إلى يوم الناس هذا .
إن القرآن الكريم يتميز بما يلي :

(١) إنه كتاب حفظه الله بالتدوين والكتابة كما حفظه بالقراءة والتلقى وفى تسميته بـ ﴿ الْكِتَابِ ﴾ بيان لهذه الميزة .

(٢) إنه كتاب خلا من الشك والاختلاف ، والأساطير ، فهو لا ريب فيه فبرغم نزوله منجما على ثلاث وعشرين سنة ، وبرغم عرضه للحدث الواحد فى آيات وسور عديدة ... برغم ذلك لم يحدث اختلاف فى معنى من معانيه ، ولم يقع خبر يناقض غيره ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(١) .

(٣) استمرارية الصدق فى القرآن الكريم ، وثباته على ما نزل عليه لفظا ومعنى ، وهذا دليل على أنه كلام الله . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٢) .

(٤) القرآن الكريم محدد المصدر والغاية .

(١) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٩ .

(٢٢١)

أما مصدره فهو كلام الله تعالى الذى تلقاه جبريل عليه السلام من ربه لفظا ومعنى ، ونزله به إلى رسول الله ﷺ وقرأه عليه ، وأكد له ﷺ حفظه وبيانه فى تواتره واستمراريته .

أما غايته فهى نشر الهداية ، وتحقيق الصلاح ، وبيان دين الله تعالى للإنس والجن ، ليكون لهم منهاج وسبيل رضىه ربهم لهم .
هذه الحقائق عن القرآن الكريم ترد زيف المشركين الضالين عن القرآن الكريم .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَّاهُ ﴾ أى إن المشركين يضربون عن الحقائق الثابتة للقرآن ، ويقولون : إن محمد اختلقه من عند نفسه ، وأخذه من أساطير الأولين ، وادعى كذبا أنه كلام الله تعالى ، وهم بذلك يرتكبون جريمتين :
أولاهما : اتهام رسول الله ﷺ بالكذب مع أنهم يعلمون أمانته وصدقه وقد جربوا هذا الصدق ، وتلك الأمانة مع محمد ﷺ منذ صغره .
ثانيهما : إنهم يكذبون على القرآن الكريم رغم وجوه الإعجاز فيه ، وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، وعجزوا عن ذلك مع أنه مكون من نفس حروف كلامهم .

﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ "بل" إضراب عن قول المشركين واثبات أنه الحق والصواب المنزل من عند الله تعالى ، فهو يشمل كل حق ، وهو دليل على عناية الله ، ورعايته لعباده فهو ربهم الذى يرببهم ، ويعتنى بشئونهم .
﴿ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ ﴾ أى أنزلنا القرآن الكريم عليك يا محمد لتنذر به قوما وهم المشركون من أهل مكة ، وهم قومك ، فلقد مضى الزمن الطويل ، ولم يأتهم رسول قبلك ينذرهم .

وفى الآية مسائل هى :

- لم يسند الله ﴿ قَوْمًا ﴾ إلى رسول الله ، مع أنهم قومه ، لأنهم بسبب شركهم غير جديرين أن يكونوا قوما لرسول الله ﷺ .
- إن مشركى مكة لم يأتهم رسول قبل رسول الله ﷺ فإبراهيم عليه السلام كان رسولا قبل ظهور مكة ، واسماعيل عليه السلام بعث لقومه ولم يكونوا كل العرب - زعم خصوم الإسلام أن الإسلام خاص بالعرب ومشركى مكة فقد نزل القرآن الكريم لإنذار المشركين دون غيرهم .

ورد هذه الدعوى بعدة نواح :

- الناحية الأولى :** أن القرآن الكريم إنذار لمشركى مكة إلا أن الآية لا تنفى أن يكون القرآن إنذارا لغيرهم أيضا .
- الناحية الثانية :** لا ينبغى الاكتفاء فى الاستدلال فى الإنذار بهذه الآية وحدها ومن الضرورى الاستفادة بكافة الأدلة ، وفيها بيان مفصل على أن الإسلام دعوة للعالمين .
- الناحية الثالثة :** الآيات القرآنية ، والواقع التاريخى ، وحركة الدعوة الإسلامية تؤكد أن الإسلام دين للعالم كله إلى يوم القيامة .
- ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى أنزلنا القرآن الكريم لتتذكر الناس بما جاء فيه عسى أن يوفقهم الله ، ويهديهم للحق ، ويكونوا مؤمنين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن القرآن الكريم مكون من الحروف المقطعة ، وأنه نزل من عند الله تعالى خاليا من أى اضطراب أو تناقض ، وليس بمسلم ما قاله

(٢٢٣)

المشركون عن القرآن فهو الحق المنزل من الله لتتذرع به ، وتدعو الناس لله رب العالمين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عظمة القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ لإخراج الناس من الظلمات والنور ... وقد أودع الله فيه من وجوه الإعجاز ما يجعله صالحا للناس أجمعين .

وتتضمن القرآن الكريم لوجوه الإعجاز دليل عظمته ، ورفعته ... ومنها :

(١) القرآن الكريم معجز بمصدره فهو كلام الله تعالى أنزله وحيا على رسول الله ليدعو به الناس إلى الله تعالى .

(٢) القرآن الكريم معجز بلفظه فهو مركب من نفس حروف كلام العرب ، ومع ذلك عجز البلغاء ، ويعجزون عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه .

(٣) القرآن الكريم معجز بمعانيه ، فهو خال من الشك ، والتعارض ، والاختلاف .

(٤) إنه صادق في كل أخباره ، صالح حكيم في كل أوامره ونواهيه ، يهدي الناس إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم .

(٥) القرآن الكريم هو الكتاب المهيمن على سائر الكتب والرسالات فما جاء به هو الحق ، والصدق ، والصواب .

الركيزة الثانية

عموم الدعوة الإسلامية

الإسلام نزل للعالم كله ، فمن أسلم فهو من أمة الإجابة ، ومن لم يسلم فهو من أمة الدعوة ، وقد سار الرسول ﷺ في الدعوة وفق طبيعة البشر وامكاناتهم ، فبدأ ﷺ بدعوة الأقربين من قومه ، ثم أخذ يتوسع في الدعوة شيئاً فشيئاً فدعا العرب في مرحلة لاحقة وهم الذين لم يأتهم رسول قبل رسول الله ﷺ وكانت آخر الرسائل رسالة إسماعيل عليه السلام . أما بنو إسرائيل فقد كثرت فيهم النبوات بعد إبراهيم عليه السلام

فلقد جاءهم إسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وموسى ، وعيسى ، وهارون عليهم السلام ... ولذلك كان المراد بالذين لم يأتهم نذير العرب . ولا يؤخذ من الآيات أن الإسلام خاص بالعرب ، لأن الآية تمثل مرحلة من مراحل الدعوة يوم أن كان الإسلام معزولاً في مكة قبل الهجرة . والآية تفيد دعوة هؤلاء ، ولا تمنع دعوة غيرهم ، ولذلك فهي تمهيد للآيات الأخرى الداعية لدعوة الناس كافة .

والآية تشير إلى عالمية الإسلام لأنها ترد زعم افترائه ، وتؤكد أن الحق هو ما جاء فيه ، وقد جاء فيه أن الله أنزل القرآن للعالمين . يقول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ^(١) .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) .

والآيات والأحاديث في عالمية الإسلام عديدة اكتفى بهذه الإشارة إليها .

(١) سورة الفرقان ، الآية ١ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

دلائل توحيد الله وعبادته وحده في خلق الكون والإنسان

يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٥﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صدق القرآن الكريم ، واثبات صحة الرسالة جاءت هذه الآيات لبيان بعض الأدلة المثبتة لتوحيد الله تعالى ، ووجوب عبادته سبحانه وتعالى وحده .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات عددا من أدلة وحدانية الله تعالى ، واستحقاقه أن يعبد وحده .

(٢٢٦)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى هو خالق السموات والأرض

وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد سبق بيان المراد بهذه الأيام الستة ، وبيان صفة استواء الله على عرشه .

﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أى ليس لكم أيها الناس

من دون الله من يلى أمركم ، أو ينصركم ، أو يشفع لكم إن أراد الله بكم ضرا أو منع عنكم رحمته وفضله .

﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ، وفى الكلام محذوف تقديره

أنسيتم الحق فلا تتذكرون الله وقدرته ولا تدركون خضوع الكون له ؟

وفى هذا بيان للناس ليتذكروا حق ربهم عليهم ، فلا يتخذوا لهم وكيلا

سواه ، ويقصروا اعتمادهم عليه سبحانه وتعالى .

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ

مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى وهو الله الذى يصرف الأمر كله ،

وينظمه ، ويعلم حركته ونهايته ، فى السماء ، أو فى الأرض ، أو بينهما ، أو فوق السماء ، أو تحت الأرض .

وكل أمور الحياة الدنيا تصعد إليه سبحانه وتعالى يوم القيامة ليحكم فيها

وهو يوم طويل مقداره ألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا .

وقد اختلفت الآيات فى مدة طول يوم القيامة فمن الآيات من ذكر أنها ألف سنة ، ومنها من ذكر إنها خمسون ألف سنة ، والمراد بيان طول هذا اليوم ، وصعوبة الموقف خلاله .

﴿ ذَلِكْ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الَّذِى أَحْسَنَ

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿ أى أن الله مدبر هذا الكون ، وهو العليم الخبير بكل ما حضر ، وما غاب ، وما هو مشاهد ، وما هو مستور ... وهو سبحانه القوى الشديد فى انتقامه ممن كفر به ، واشرك معه آلهة أخرى ، وكذب رسوله ... وهو سبحانه الرحيم بمن تاب من عباده ، واستقام على صراط الله المستقيم ، وهو سبحانه الذى أحسن كل خلقه ، وجمله وهياه ، وهده لما خلق له .

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ أى وبدأ الله خلق الإنسان من طين ،

وذلك حين خلق آدم عليه السلام ، وصورته الملائكة من الطين بأمر الله ، ونفخ الله فيه من روحه فصار بشرا سويا .

﴿ ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أى أن الله خلق حواء من

نفس آدم عليهما السلام ، وصارت زوجة لآدم عليها السلام ، ورزقهم البنين والبنات ، وتناسل من مائهما الناس ، وتكاثروا حتى صاروا قبائل وشعوبا ...

وببقى ارتباط الإنسان بالطين لأن ماء الرجل وماء المرأة يتكون من عناصر الطين ، وبذلك وجد الناس ، وانتشروا فى الأرض .

وذكرت الآيات أن الإنسان خلق من ماء مهين ، أى من ماء لا قيمة له فهو من النجاسات التى يجب تطهير ظهر الثوب منها ، واغتسال الإنسان بعد نزول هذا الماء إلا أنه بعد تفاعل المائين بقدرة الله تعالى يصير بالماء شرا مكرما بتكريم الله تعالى ، مقدرا بتقدير الله له .

(٢٢٨)

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفْئِدَةَ ۗ أَى أَن الله عدله ، وسواه على هيئته ، ونفخ فيه من روحه ، وأودع

فى هذه الصورة بعد نفخ الروح الطاقات والملكات مثل السمع ، والبصر والعقل ،

والعواطف لتعرفوا الله الذى أكرمكم ، ورفع شأنكم ، وجعلكم أحسن خلقه ، ومع

ذلك فإن الذين يقومون بحق الله تعالى قليل بين الناس .

﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۖ أَى أَنكم أيها الناس لا تؤدون حق الله

كاملا ، فتشكرونه شكرا قليلا لا يعادل فضله ، ولا يقوم به كثير من الناس .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على

العرش ، وعرف المشركين أنه لا ولى ولا شفيع لهم من دون الله تعالى ونعى

عليهم أنهم لا يتذكرون ... وتبين للمؤمنين أن الله يدبر الأمر كله ، وكل الخلق

راجع إليه ، وسيحاسبهم فى يوم طويل على كل ما عملوا ، ولن يغيب عن

الحساب عملهم فأن الله عالم بالغيب ، والشهادة ، وهو القوى الغالب ، والناصر

المعين ... وهو صاحب الفضل فقد بدأ خلق الإنسان من طين ، ثم قدر الذرية

والنسل من الزواج ، وأكرم الإنسان ، ورفع شأنه ، ورزقه الطاقات ، والملكات ،

والجوارح التى جعلته إنسانا يعلم ، ويعبد ، ويشكر ، ولا يكون من الجاحدين .

(٢٢٩)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

بيان آيات الله تعالى

رزق الله الإنسان العديد من عوامل الإدراك التى تمكنه من النظر والفهم والتحليل ، والاستنتاج ، والوصول لله تعالى ، والإيمان به حق الإيمان .
وجعل من مخلوقاته آيات للإنسان ليعرف بها الله الذى خلقها ، وهداها
وسخرها لخدمة الإنسان ... ومن هذه الآيات :

(١) خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وتسخير ما خلق فيهما
للإنسان ، وفى هذا الخلق العديد من البراهين الواضحة التى تدل على
قدرة الخالق ، وحكمته ، ورحمته .

(٢) تدبير أمر المخلوقات ، حيث قدر الله لكل مخلوق عمله ، ودوره مع غيره
فتكامل الخلق فى مسار بهيج يدل على وحده الصنع ، وقدرة الصانع
الحكيم .

(٣) تجميل الوجود ، حيث ظهرت الموجودات متناسقة ، يكمل بعضها بعضا
لتقدم صورة واحدة ، كلها حسن وجمال ... فمن ينظر إلى الأرض سيرى
جمال الزرع ، وخضرته بين أنهار جارئة ، وحيوانات سائره ، وكائنات
طائرة ، وأمواج هادرة .

ومن ينظر إلى السماء سيرى فى النهار الشمس ، والسحب ، والضوء ،
وفى الليل سيرى القمر والنجوم ، وغير ذلك .

(٤) خلق الإنسان آية كبرى فقد بدأ الله خلقه من تراب ، ثم طور الخلق
وأخرجه من ماء مهين ، وارتقى به إلى إنسان يملك الدوافع والملكات
الفكرية والعقلية ، ويعيش بروح الله فيه .

(٢٣٠)

(٥) تحديد الصراط المستقيم أمام الإنسان ، وتعريفه أن أجل الدنيا قصير ، وأن الآخرة آتية لا ريب فيها ، وأن الحساب والجزاء حق لا ريب فيه .
على الإنسان أن يعرف كل آيات الله تعالى ، ويؤمن به ، ويستسلم ، وينقاد له ، ويشكر الله على نعمه ، وأفضاله .
إن هذه الآيات يجب أن تصل إلى عقول وعواطف الناس لتحركها الله ، وتجذبها للخالق العظيم ، وتلك مسئولية الدعاة .

البعث حق لا ريب فيه

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١﴾ قُلْ يَتَوَفَّنُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٢﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنسِ وَالْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٤﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة موقف المشركين من القرآن الكريم مع كثرة الآيات ، ووضوح البراهين على قدرة الله ، ووحدانيته جاءت هذه الآيات لبيان موقف المشركين من البعث والرد عليهم بإثباته ، وبيان حالتهم يوم القيامة .

(٢٣١)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين ينكرون البعث ، ويستبعدون وقوعه بعدما تفتت الأجساد ، وتتوه في تراب الأرض ، وتأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يعرف المشركين أنهم سيموتون وسيبعثون ، وسيحشرون ، وسيحاسبون ، وسيلقون الخزي ، والعذاب الأليم في وقت لا تنفع فيه توبة ، ولا يقبل منهم عمل .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى يسوقه المشركون إنكارا للبعث أى وقال المشركون لرسول الله ﷺ أو قال بعضهم لبعض : هل يمكن أن تعود أجسادنا إلى الحياة بالبعث بعدما تفتتت ، وصارت ترابا ، وتوزعت في أديم الأرض ، واختلطت بغيرها ، وانما أنكروا ذلك لتصورهم استحالة بعث الأجساد بعدما رمت ، وتفتتت ، واختلطت ، وصار بعضها زرا وثمرأ أكله الناس .

وسبب إنكارهم ، وضلالهم أنهم قاسوا قدرة الله بقدرة الناس ، وتجاهلوا خلق الله للكائنات كلها ... ولو تأملوا ونظروا لعلموا أن الله قادر على فعل ما يريد ، والأمر سهل يسير ، يقول الله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ ^(١) .

﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ أى أن هؤلاء المشركين ينكرون البعث

ويستنبعون إنكار البعث بإنكار مشاهد اليوم الآخر كلها ، وبإنكار قدرة الله في الآخرة كما هو قادر في الدنيا ونسوا أنه سبحانه هو خالقهم ، وخالق كل شئ .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٤ .

﴿ قُلْ يَتَوَفَّنُكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

أى قل لهم يا محمد إن ملك الموت سيقبض أرواحكم عند تمام آجالكم ، فقد وكله الله تعالى ، وعينه لذلك ، وستقبرون فى قبوركم إلى يوم البعث حين يحييكم الله ، ويعيدكم إليه ، كهيئتكم قبل موتكم ، ويحاسبكم ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسيئ بإساءته ، وهذا إثبات للبعث واليوم الآخر .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا

أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ أى ولو ترى يا محمد هؤلاء المشركين وهم فى الحشر يحاسبهم الله على جرمهم وشركهم ، وسوف تراهم ينكسون رءوسهم خزيا ، وحسرة ، وندما ، وخجلا لما سبق منهم فى الدنيا ، فقد كانوا ينكرون اليوم الآخر بما فيه من بعث ، وحشر ، وحساب .

إنهم فى هذا اليوم يندمون على كفرهم ، وينادون ربهم معترفين بنعمه وفضله ، ويقرون بالحق ، ويوضحون أنهم أبصروا ، وسمعوا الصواب وآمنوا به ، ويطلبون أن يرجعهم الله إلى الدنيا ليؤمنوا بالله ، ويصدقوا بكل ما دعاهم إليه رسول الله ، ويكثروا من الأعمال الصالحة .

﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أى إننا مطمئنون لما نقول ، ولما وصلنا إليه من

معرفة . فقد كنا جهالا ضالين والآن آمنا بك ، وتأكدنا أنك أنت المستحق للعبادة وحدك ، وأنت رب العالمين ، وأنت تبعث من فى القبور ، وتحشرهم للحساب والجزاء .

وهذا طلب من المشركين فات أوانه فقد مضت الدنيا ، ولا عودة إليها مرة

أخرى .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾ أى ولو شاء الله هداية الناس جميعا لفعل ، ولكن تدبيره للخلق ، كفيلة بالمصلحة ، فلقد قضى سبحانه بوضع كل نفس فى المرتبة التي هى أهل لها بحسب استعدادها ، كما توضع فى الإنسان العين فى موضع لا يصلح له الظفر والإصبع ، والمعدة فى موضع لا يصلح له القلب ، ولذلك كان وضع كل نفس فى قدرها الذى قدره الله لها تبعا لميلها ، واستعدادها ، وأمانيتها ، ولذلك لم يأت كل النفوس الهدى لاختلاف ميولها ، ورغباتها ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى ولكن سبق وعيدي بملء جهنم من الجنة والناس ، الذين هم أهل لها ، بحسب استعدادهم لأنهم لا يصلحون لدخول الجنة كما لا يعيش البعوض والذباب ، إلا فى الأماكن القذرة ، ولو جعلنا فى القصور النظيفة النقية ما عاشا فيها ، إذ لا يجدن فيها غذاء ولا منفعة ، وهكذا هؤلاء المشركون إذا رأوا العالم المضىء المشرق ، والأنوار المتلألئة ، والحياة الطيبة فى الجنة لم يستطيعوا دخولها ، ويعجزون عن ذلك ، فما مثلهم إلا مثل السمك الذي لا يعيش فى البر ، ومثل ذوات الأربع التي لا تعيش فى البحر .

ولما بين الله لهم أنه لا رجوع إلى الدنيا أنبهم على ما عملوا من تدنيس نفوسهم بفعل المعاصي ، وترك الطاعة له فقال تعالى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أى فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم بهذا اليوم ، واستبعادكم وقوعه ، وعملكم عمل من لا يظن أنه راجع إلى ربه فملاقية .

ثم ذكر لهم جزاءهم على فعل المعاصي ، فقال : ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى إنا سنعاملكم معاملة الناسى ، لأنه تعالى لا ينسى شيئا ، ولا يضل عنه

(٢٣٤)

شئ ، وهذا أسلوب فى الكلام يسمى أسلوب المشكلة ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ اَلْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ ^(٣) .

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى وذوقوا اليوم عذابا تخلصون فيه إلى غير نهاية ، بسبب كفركم وتكذيبكم بآيات ربكم ، واجتراحكم للشرور والآثام .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات موقف المشركين فى الدنيا ، ويوم تقوم الساعة ، فهم فى الدنيا ينكرون البعث ، ويستبعدون وقوعه بعدما تحولت الأجساد ترابا ، وتناثرت ، وتداخلت ، وبذلك كفروا باليوم الآخر وبالله تعالى .
وهم فى الآخرة بعدما توفاهم ملك الموت الذى أوكّل الله إليه قبض أرواحهم ، وبعدما يحييهم فى قبورهم ، ويأتى بهم إلى الحشر للحساب والجزاء يندمون على كفرهم ، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا فقد أبصروا الحق وعرفوا أن الله حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق ، والحساب حق ليتداركوا ما فاتهم ، ويستقيموا على دين الله تعالى .

(١) سورة الجاثية ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١١٦ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٤٠ .

(٢٣٥)

وهذا طلب مردود حيث لا عودة للعالم مرة أخرى ، وقد سبق وعيد الله للمشركين ، وتحذيرهم من عذاب جهنم التي سيملاها الله من الجنة والناس ، ويتحسرون وهم يعلمون أنهم مقيمون في العذاب الأليم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

رد إنكار البعث

ينكر المشركون البعث ويوم القيامة بدعوى استحالة عودة الأجساد إلى ما كانت عليه قبل الموت ، فقد انفصلت الأرواح عن الأجساد ، وتفتتت الأجساد وصارت ترابا ، وطيرها الريح ، ووزعها على الأرض وتاهت في جنباتها ... وقد بنوا إنكارهم للبعث على ما حدث للأجساد ، وقالوا : كيف تعود الأجساد مرة أخرى ؟ وتلتقى بالأرواح ؟

إن هذا الإنكار سببه الجهل ، والحدود ، فهم يجحدون أن الله خلقهم على نحو خاص ، وبطاقات وقدرات معينة ، وفضلهم على سائر خلقه ، وسخر لهم ما خلق ، ورزقهم بكل ما يحتاجون إليه من غير جهد منهم ، وذلك كله إعجاز في الإيجاد ، ودلالة على القدرة الإلهية في الإبعاد ، وصفات الله لا يشاركه فيها غيره .

أما الجهل فإنهم يساوون بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق وهذا لا يجوز يقول الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة النحل ، الآية ١٧ .

إن الله يرد إنكار البعث بمواجهة المنكرين ، ويأمر رسوله أن يعرفهم أن الله حدد أجلهم فى الدنيا ، ووكل لقبض أرواحهم ملكا يميتهم عند أجلهم الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ، وهذا شأن يكرهونه ، ولا يريدونه ، فهل يمكنهم عدم الاستجابة لملك الموت حين يأتهم ؟ إنهم لا يستطيعون ذلك ، ويستسلمون لحكم الله تعالى ... فلم يعترضون على البعث وينكرونه، يقول الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٧﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٩﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٩٠﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ .

إن قدرة الله بالغة ، وهو الذى أحيا ، ورزق ، ويميت ويبعث ، والخلق راجع إليه لتجزى كل نفس بما كسبت .

إن الإيمان بالله يعتمد على العلم بالله ، والنظر فى آياته ، والإيمان بصفاته العلا ، وقدرته المطلقة على الایجاد والبعث .

وبراهين الإيمان مبثوثة فى الخلق ، والكون ، والتقدير ، والحكمة والنظام ، ودور الدعاة توضيح الآيات والبراهين بأسلوب يفهمه المدعوون ، وبكيفية تلتقى مع الحاجات والوقائع .

ومسئولية الدعاة فى هذا المجال كبيرة فهم المواجهون للناس ، والمعلمون لهم ، والشارحون لدين الله ... ولذلك وجب عليهم القيام بالواجب المنوط بهم .

(٢٣٧)

الركيزة الثانية

مصير مشركى البعث فى الآخرة

فى يوم القيامة تنهاز الشكوك ، وثبتت الحقيقة ، ويؤكد الواقع أن البعث حق يراه سائر الخلق وهم بين يدى الله تعالى .

فى هذا اليوم يتحسر المشركون على كفرهم ، ويصابون بالخزى ، والندامة ، والهوان ، والانكسار ، فقد ظهر لهم ضلال ما كانوا عليه فى الدنيا .

ينكس المشركون رءوسهم فى خجل ، ويطلبون من الله أن يسمح لهم بفرصة جديدة يعيدهم خلالها إلى الدنيا ، فقد عرفوا الحق ، وأبصروا الصواب ، ليعلموا صالحا ، ويعوضوا ما فات منهم ... فيرد الله عليهم ويعرفهم إنه لا عودة للدنيا مرة أخرى ، وقد سبق بيان ذلك لهم ، ولا قيمة لإيمانهم فى الآخرة فقد نسوا الله حين طلب الله منهم أن يتذكروه ، ولم تأت الآخرة إلا للحساب والجزاء ، فليحذر المشركون وهم فى الدنيا ما أعد الله لهم من عذاب أليم .

الركيزة الثالثة

الجزاء من جنس العمل

اليوم الآخر هو يوم الجزاء العادل لما عمله الإنسان فى الدنيا حيث تجد كل نفس ما قدمت وأخرت ، ولذلك يجازى الله المؤمنين خيرا وحسنا ، ويعاقب الضالين عذابا مؤلما .

لقد كفر المشركون بدين الله تعالى ، وأبوا طاعة الرسول ، وأعرضوا عن الحق فحق عليهم ما حل بهم فى الآخرة من عذاب السعير ، ولا يظلم الله الناس شيئا ولكن المشركين أنفسهم يظلمون .

صفات المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن ذكرت الآيات السابقة حال المجرمين فى الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان تذلل المؤمنين لربهم فى الدنيا ، وتسبيحهم بحمده ، ومجافاة جنوبهم للمضاجع ، يقومون الليل خوفا وطمعا ، وتوضيح الجزاء الحسن الذى ادخره الله لهم فى الآخرة ، ليقر به عيونهم ، وتسعد حياتهم كلها .

- ٢ -

موضوع الآيات

تتكلم الآيات عن صفات المؤمنين فى الحياة الدنيا ، فهم دائمون لذكر الله تعالى ، يسبحونه ، ويعبدونه ، ويسجدون له ، ويقضون الليل قائمين ، يدعون ربهم خوفا وطمعا ، وينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كما توضح الآيات أن الله قد أعد لعباده المؤمنين فى الآخرة ما تقر به عيونهم ، وتسعد قلوبهم ، وتتعم جوارحهم جزاء استقامتهم فى الدنيا .

(٢٣٩)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تعرف الآيات بصفات المؤمنين الرئيسية ، وتوضح أنهم يتمتعون بقلوب صافية ، وعقول واعية ، وأرواح أسلمت أمرها لله تعالى ، وجوارح عبدت نفسها لربها العظيم ، وهذه الصفات هي :

(١) التأثر المطلق بذكر الله تعالى :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أى إنما يصدق بآيات القرآن الكريم أناس يسارعون إلى الانقياد والاستسلام لله تعالى ، لا يجادلون ولا يمارون ، وانما يتأثرون بالآيات كلما سمعوها ، ويزداد إيمانهم كلما تكررت على مسامعهم ، ويتحول التأثير الإيماني إلى عبادة عملية ، فيهوون إلى الأرض متذللين لله ، واضعين جباههم على الأرض وهم ساجدون .

وبينت جملة الصلة أهم ما اتصف به المؤمنون فهم يسارعون إلى السجود كلما ذكرهم الدعاة والواعظون بآيات الله تعالى .

(٢) تسبيح الله تعالى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى إنهم يسبحون الله ويحمدونه فى سجودهم ، ويقرون بصفاته العلا ، وأسمائه الحسنى كلما ذكروا بها .

(٣) التواضع :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى أن صفات المؤمنين أنهم لا يتكبرون على العبادة ، ولا على الناس ، ويرون سعادتهم فى خضوعهم لربهم ، وتذللمن لمن خلق الخلق ، وملك الملك ، وهو العلى العظيم .

(٤) قيام الليل :

يقول الله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أى تبتعد جنوبهم عن الفرش ليلا فيقومون لله عابدين ، ويتركون السرر المفروشة ، وقد أعدوها للنوم .

(٥) التوجه الدائم إلى الله :

يقول الله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى أن هؤلاء المؤمنين يقومون الليل عابدين ، ويدعون الله تعالى خائفين وجلين من سخطه وعذابه ، وطمعاً فى رضاه ونعيمه .

— قال أنس بن مالك رضي الله عنه : "نزلت الآية فينا معاصر الأنصار ، كنا نصلى المغرب ، فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبي صلى الله عليه وسلم" (١) .

— وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ قال : هى قيام العبد أول الليل (٢) .

— وروى الإمام أحمد رضي الله عنه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "عجب ربنا من رجلين .

رجل ثار من وطائه ولحافه ، من بين حبه وأهله ، إلى صلاته فيقول ربنا : أيا ملائكتى : أنظروا إلى عبدى ، ثار من فراشه ووطائه ، ومن بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى .

ورجل غزا فى سبيل الله تعالى فانهزم ، فعلم ما عليه من الفرار ، وما له فى الرجوع ، فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندى ، وشفقة مما

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٢٤ .

(٢) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٢٥ .

(٢٤١)

عندى . فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما
عندى ، ورهبة مما عندى حتى أهرق دمه^(١) .

— وعن معاذ بن جبل قال : "كنت مع النبي ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوماً
قريباً منه ، ونحن نسير فقلت : يا نبي الله أخبرنى عما يدخلنى الجنة ،
وباعدنى عن النار .

قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه يسير على من يسره الله تعالى عليه ،
تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم
رمضان ، وتحج البيت .

ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟
قلت : بلى .

قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف
الليل ، ثم قرأ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ جَزَاءُ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟
فقلت : بلى يا رسول الله .

فقال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى
سبيل الله .

ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟

فقلت : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه .

ثم قال : كف عليك هذا .

فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟

(١) مسند الإمام أحمد . مسند المكثرين . مسند عبد الله بن مسعود ج ٧ ص ٦٧ .

فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم^(١) .

- وعن ابن عباس أنه قال فى الآية : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾ لذكر الله ، كلما استيقظوا ذكروا الله عز وجل ، إما فى الصلاة ، وإما فى قيام أو قعود أو على جنوبهم ، لا يزالون يذكرون الله تعالى^(٢) .

(٦) أداء حق المال :

يقول الله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى أن المؤمنين يؤثرون الله على لذائذ الجسد فيقومون لله ... ويؤثر طاعته على لذائذهم المالية ، فيؤتون الزكاة ، وينفقون المال فى سبيل الله تعالى .

وجاءت أوصاف المؤمنين بصيغة الفعل المضارع ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ تَتَجَافَى ﴾ ، ﴿ يَدْعُونَ ﴾ ، ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ لبيان إن هذه الصفات ثابتة فيهم ، مستقرة لديهم ، تظهر من أعمالهم وسلوكهم دائما ، بلا قصور أو توقف فهى مع المؤمن فى تجدد ، وثبات .

إن المؤمنين بهذه الصفات أصحاب إيمان متوقد ، وقلب مستيقظ ، وضمير مستتير ، إذا ذكروا تذكروا ، وإذا أمروا أطاعوا ، وإذا عبدوا استتاروا بحب الله تعالى ، يرون الراحة فى الطاعة ، ويشاهدون النعيم فى القيام :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَآوَلْتِكَ هُمْ ۖ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾^(٣) .

ولذلك أعد الله لهم الجزاء الأوفى الذى لا يقدر قدره إلا الله تعالى .

(١) سنن ابن ماجه . كتاب الفتن . باب كف اللسان فى الفتنة ج ٢ ص ١٣١٤ .

(٢) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٢٥ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ١٨ .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أى فلن يعلم أحد

من الناس ما أعده الله لهم من جزاء جميل حسن فقد أحبهم ، ووفقهم ، ورضى عنهم ، يقول الله عنهم : ﴿ أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾^(١) .

واخفاء جزاء المؤمنين دليل على عظمتهم ، وشدة حسنه إذا العظيم إذا أشار أفاد ، وإذا وعد وفى وإذا أعطى فعطأؤه على قدره ، وهو الكريم ، الغنى ، العظيم.

وبكفى فى عظمة هذا العطاء أن العيون تسعد به ، وأنه فوق وصف الواصفين ، وأعلى من خيالات المبدعين .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : "يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بله ما أطلعتكم عليه ، إقرعوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾^(٢) .

﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى جعلنا لهم ما أخفينا عنهم مثوبة لهم على أعمالهم الصالحة التى قاموا بها فى الدنيا ، فقد شغلوا حياتهم بطاعتى ، وأقاموا ليلهم لعبادتى وخشعوا لعظمتى ، فالיום أجزيهم بكرمى وحبى ، ورحمتى.

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المؤمنين يتميزون بصفات عالية تقربهم من الله تعالى فهم إذا ذكروا بآيات القرآن الكريم أطاعوا واستقاموا ، وخروا ساجدين يسبحون الله ،

(١) سورة البينة ، الآية ٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق . باب ما جاء فى صفة الجنة ج ٤ ص ١١٨ .

(٢٤٤)

ويحمدونه ، ويهجرون النوم ، ويقومون الليل ، ويتذللون لله في غير تعب ولا قنوط ، وينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى ، ولذلك يحسن الله جزاءهم ، ويشيئهم بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

توضح الآيات ركيزة هامة ... هي :

تسامى سلوك المؤمنين في الدنيا

يسعد المؤمنون في الدنيا وفي الآخرة .

أما سعادتهم في الدنيا فإنهم يطمئنون لأداء الواجب عليهم ، فقد عرفوا الله وعبدوه ، واستقاموا على تعاليمه ، ولم يقصروا في واجب عليهم .
وأشبعوا روحهم بذكر الله ، ورضوا بما قسم الله لهم ، ولم تشغلهم الدنيا بزینتها ، وكان كل همهم فيها العمل للآخرة والفوز بالجنة ... علموا أن متاع الدنيا قليل فلم يشغلهم بريقها ، ولم يهتموا باغراءاتها ، وعاشوا فيها عابدين قانتين .

أما سعادتهم في الآخرة فهو حياتهم في نعيم مقيم ، ورضوان كريم ، وصحبة طيبة ، ورؤية الله عز وجل .
هؤلاء هم المؤمنون ، وأعمالهم في الدنيا ، وجزاؤهم في الآخرة ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

اختلاف الجزاء الأخرى بين المؤمنين والمشركين

يقول الله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ ﴿٣﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ما أعده الله للمؤمنين جاءت هذه الآيات لبيان عدم تساوى المؤمنين مع المجرمين فى الجزاء والمصير حيث الحساب الشامل ، والجزاء العادل فى يوم الدين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تدور الآيات حول عدم مساواة المجرمين بالمؤمنين فى الجزاء الأخرى فجزاء المؤمنين يختلف اختلافا بينا عن جزاء المشركين لاختلاف عملهما فى الدنيا .

(٢٤٦)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى فى

الآية يوجهه الله لكل من يقرأ ويسمع ، ينكر فيه على من يتصور مساواة المؤمن بالفاسق فى الجزاء الأخرى .

أى هل يتساوى جزاء من كان فى الدنيا مؤمنا قانتا ، عابدا ، مؤديا ما عليه من حقوق الله وللناس ، مثل ثواب من كفر بالله ، وأشرك به ، وعادى الله ورسوله والناس أجمعين .

إن الاستفهام ينكر هذا التصور الذى يساوى جزاء المؤمن بجزاء المشرك لأنهما لم يتساويا فى الطاعة والاستقامة فلزم عدم التساوى فى العقوبة والجزاء ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ أى لا يستوى المؤمنون والكافرون فى الجزاء فى التصور العقلى ، والواقع الفعلى ، والعدل الإلهى .

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى إن الله قد أعد للمؤمنين جنات النعيم فقد صدقوا بدين الله تعالى ، وآمنوا برسوله ﷺ ، واستقاموا على الصلاح والاصلاح فى أعمالهم ، وأقوالهم ، وأحوالهم فى الدنيا ... ولذلك جهز الله لهم منزلا كريما واسع الغرف ، مصنوعا من ذهب وفضة ، تجرى الأنهار من تحته ، يأوون إليه بعد الحساب ، وهو الجزاء الذى أعده الله لهم .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أى وأما الذين كفروا بالله تعالى

وأشركوا معه آلهة أخرى ، عبدوها من دونه فإن مأواهم النار التى أعدها لهم

وفيهما تحترق أجسادهم ، وتشوى قلوبهم ، ويبقى اشتعال نارهم ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾^(١) .

﴿ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ أى كلما شارفوا الخروج ، وظنوا أن الخروج من النار أمر سهل بسيط أعيدوا فيها ، وقذفوا إلى قعرها بلا حيلة لديهم لأن أيادهم موثقة ، وأجسادهم موقدة ، والملائكة تدفعهم إلى القاع مرة بعد مرة .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ أى تسخر الملائكة منهم وهى تدفعهم إلى قعر جهنم ، وتقول لهم : ذوقوا عذاب جهنم التى كنتم بها تكذبون فى الدنيا ، وقد جاءكم التنذير فلم تصدقوا ، ولم تؤمنوا .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى يقسم الله تعالى بأنه سيديق المشركين شيئا من عذاب الدنيا قبل موتهم ، وهو العذاب الأدنى العاجل الذى يقع فى الدنيا ليأخذوا منه تحذيرا وإنذارا ، عسى أن ينجوا من العذاب الأكبر يوم القيامة ، ويرجعوا إلى الله تائبين ، إلا أنهم لم يستفيدوا بعذاب الدنيا ، واستمروا فى كفرهم وشركهم ومعاصيهم .
لقد أوقع الله بعض عذابه بهم ليعتبروا ويتوبوا إلا أنهم لم يعتبروا ، واستمروا فى معاصيهم ، واعرضوا عن آيات الله حتى جاءهم العذاب الأكبر فى الآخرة .

(١) سورة النساء ، الآية ٥٦ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى وأشد

الناس ظلما لنفسه ، ولغيره من جاءته آيات الله تذكره وتدعوه ، وتحثه على التقوى والعمل الصالح ، ويبقى على كفره وضلاله الذى هو فيه .

﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أى إننا سننتقم أشد الانتقام من

هؤلاء المجرمين المصرين على المعاصى .

وأبرزت الآية الاسم الظاهر ، وعرفت المشركين بالمجرمين للدلالة على أن الإجرام سبب هلاكهم وعذابهم .

يقول النبى ﷺ : "ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقد لواء فى غير حق أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره"^(١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المؤمن والمجرم لن يتساويا فى العقوبة ، لأن المؤمن صدق بالله ، ودخل فى الإسلام راضيا ، وسلك سبيل الصالحين ، وهذا يستحق بعمله ثوابا ونعيما ، فيقيم فى المنزل الذى أعده الله له ... أما الكافر فإنه يلقى فى النار المشتعلة ، وكلما تصور الكفار خروجهم من النار أمر الله بإعادتهم إلى قعرها ، ويقال لهم تذوقوا العذاب الذى كنتم لا تؤمنون به ، وقد بين الله للناس أن من أشد صور الكذب أن يكذب بآيات الله بعد سماعها ، ويعرض عنها مع صدها ، وسوف ينتقم الله منهم لمخالفتهم دين الله تعالى .

(١) المعجم الكبير للطبرانى ج ٢٠ ص ٦١ .

(٢٤٩)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

ضرورة الثقة المطلقة

فى عدل الله تعالى

يختلف سعى الناس فى الدنيا ، وتتعدد أعمالهم ، وأحوالهم ، ولذلك كان من العدل أن يختلف أثر أفعالهم فى الآخرة .

فى يوم القيامة يضع الله الموازين الدقيقة ليعلم كل إنسان حقيقة عمله ، ويسلم بالعدل فى الجزاء الذى حل به ... يقول الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ^(١) .

إن المؤمنين الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات يدخلهم الله الجنة ، ويجعلها لهم منزلاً وسكناً ، يأوون إليها فى سعادة ونعيم .

أما المشركون فقد كفروا بالله ، وبالغوا فى المعاصى ، وعارضوا رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا سمعوا كلام الله أعرضوا عنه ، واستهزأوا به ، ولذلك يخزيهم الله يوم القيامة ، ويدخلهم نار جهنم ، ويحيطهم فى قاعها ، وكلما تصوروا خروجهم من النار أعادهم إلى قعرها ، ويسخر منهم ويقول لهم ذوقوا ما كنتم به يستهزئون .

لقد ضل المشركون ضلالاً بعيداً ، وضاعفوا الكفر والمعصية ، ويتضح ضلالهم فى أمرهم ... فقد أوقعهم الله فى بعض عذاب الدنيا لينتبهوا ويحذروا

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧ .

(٢٥٠)

إلا أنهم لم يعتبروا ... وأيضاً فقد جاءهم الرسول ، وذكرهم بآيات الله فكذبوا بها ، وهذا جرم كبير سينتقم الله منهم بسببه .
إن عدل الله شامل ، ولن يفلت مجرم من العقاب ، وسيفوز المؤمن بجزاء ما قدمت يداه .

إشارة إلى قصة "موسى" ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَّهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِعَايِنَتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة اختلاف جزاء المؤمنين عن جزاء الكافرين جاءت هذه الآيات لبيان الجزاء الحسن لمن اتبع موسى ﷺ ، وهو أحد رسل الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

توضح الآيات أن الله أرسل موسى ﷺ إلى قومه فدعاهم إلى هدى الله تعالى ، وصبر وتحمل فكن مثله يا محمد وتحمل فسوف تلقى من قومك عنفاً وتكذيباً كما كان حال موسى ﷺ .

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرَّةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾

أى ولقد أرسلنا رسلا قبلك يا محمد ، ومنهم موسى ﷺ فقد دعا قومه إلى الله تعالى فأعرضوا ، وبغوا ، فتحمل وصبر ... فلا تشك يا محمد فى أنك ستعرض للأذى ، وصد الناس عن سبيل الله تعالى ، واعلم أنك ستلقى ما لقيه موسى ﷺ .

وهذا التفسير أقرب إلى مفهوم الآية من تفسير اللقاء بلقاء موسى ﷺ فى الآخرة ، أو بالقاء الكتاب إليه كما تلقاه موسى ﷺ .

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنَى إِسْرَءِيلَ ﴾ أى وجعلنا الكتاب الذى نزل على

موسى ﷺ هداية ، وأما لبنى إسرائيل ، وهم قوم موسى ﷺ فقد أنزل الله لهم التوراة يسيرون على هديها ... ويستقرون على صورتها ، وخصت الآية موسى ﷺ بالذكر لأنه من أولى العزم ، ولقرب عهده برسول الله ﷺ ودعوته هى دعوة عيسى ﷺ وقومه هم قوم عيسى ﷺ .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايَتِنَا

يُوقِنُونَ ﴾ أى جعلنا من بنى إسرائيل رؤساء فى الخير ، يرشدون إلى الحق وينادون بالدعوة ، ويؤمنون بالله ورسوله ، ويستقيمون على الصراط المستقيم متصفين بالصبر ، والتحمل ، واليقين .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

مُخْتَلِفُونَ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى سيقضى يوم القيامة فى أعمال خلقه فيثيب المطيع ، ويعاقب العاصى ، ويوضح الحق الذى اختلفوا فيه ، وهو عليم بالحق ، بصير بكل ما كان عليه الناس .

(٢٥٢)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل موسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل فدعاهم إلى الله تعالى ، فقابلوه بالعنت والأذى فصبر على المشاق ، وتحمل أذى المشركين ، فاعلم يا محمد أنك ستلاقي ما لاقى موسى عليه السلام فلا تشك في ذلك واعلم أن الله أنزل التوراة على موسى وجعله هداية لبنى إسرائيل ، وقد جعلنا منهم أئمة يدعون للخير والصواب لأنهم متصفون بالتحمل واليقين ، فاعلم أن للخير أصحابه ، وهو موجود في الناس إلى يوم القيامة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

ضرورة الاستفادة بقصص السابقين

عرض القرآن الكريم كثيرا من قصص الأمم السابقة ، وركز في كل مرة على احدى جوانب التأثير في القصة .

وقد أوردت سورة "السجدة" إشارة موجزة إلى قصة موسى عليه السلام مع قومه بنى إسرائيل لإبراز أمور معينة موضحا أن هذه الأمور ستوجد في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ... وهذه الأمور هي :

أولا : أن الله أنزل التوراة على موسى عليه السلام فيه هدى ونور لمن يؤمن به ويتبعه ، وكذلك سينزل عليك يا محمد كتاب كريم فيه هدى ونور ، وله الهيمنة على سائر الكتب .

ثانيا : أن من بنى إسرائيل من سيؤمن بموسى عليه السلام ويصير إماما يهدي ويدعو إلى الله على يقين وصدق ، وسيكون من أمتك أئمة يدعون إلى الله ،

(٢٥٣)

ويأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتميزون بالصبر ، والتحمل ، والصدق ، والأمانة .

ثالثا : أن موسى عليه السلام لقي من قومه أذى وعنتا ، وستلقى يا محمد من قومك مثله وأكثر فاصبر ، وتحمل ، واحتسب .

رابعا : يوم القيامة هو يوم الفصل بين الناس حيث ظهور الحقيقة والحساب الدقيق ، والجزاء العادل .

هذه الأمور عاشتها الأمم كلها ، وعاشها الرسول أجمعون ، ولذلك وجب على المسلم ، وعلى الدعاة أن يعتبروا بها ، ويعلموا أن مردنا إلى الله وأن المجرمين هم أصحاب النار .

براهين التوحيد والبعث

يقول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَفْلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢٥) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢٦) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٧) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴾ (٢٩) .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة الاعتبار بقصة موسى عليه السلام ورسالته لقومه جاءت هذه الآيات في ختام السورة لبيان أن المشركين لم يعتبروا

(٢٥٤)

بقصص السابقين وآثارهم التى يرونها ، ولم يتأملوا فى آيات الله التى خلقها لهم ، وتؤكد وقوع يوم القيامة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات بعض أدلة التوحيد ، واثبات البعث ، وتسلى رسول الله ﷺ وتدعوه إلى الصبر والتحمل ، وعدم التأثر بمواقف المشركين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى ، وفيه ينكر الله على أهل مكة عدم هدايتهم وإيمانهم مع أنهم يرون أدلة التوحيد وبراهينه فيما يشاهدون من آثار الأمم التى أهلكها الله تعالى حين رحلتهم فى الشتاء والصيف ... والمعنى ألم يصدق هؤلاء المكذبون ما يرون من هلاك الأمم السابقة بسبب تكذيبهم للرسل .

﴿ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ﴾ أى أن أهل مكة يرون خلال رحلة الشتاء

والصيف مصير الأمم السابقة وهم يسيرون فى مساكنهم التى هلكوا فيها .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى إن فى مساكن الأمم الخالية عبرا وعظات

داعية للإيمان .

﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ، ومعناه أى أصم هؤلاء

فهم لا يسمعون الآيات التى يتلوها رسول الله عليهم ، وفيها يذكرهم بقرى القوم الظالمين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا
تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ ؟ ... أى أغفلوا ولم يروا من آيات الله
أسرار ما يشاهدون من الماء ينزله الله ، ويسوقه إلى الأرض الجرز ، وهى
الأرض التى انقطع نباتها فتحيا بعد موات ، وتخرج من الزرع والنبات ما
تقتاتون به ، وتقتات منه أنعامكم ، وحيواناتكم .

﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ؟ ... أى أعموا عن هذه الآيات فلا يرونها ، ولا
يستفيدون بها .

فإن قيل : إن المشركين يسمعون ويبصرون فلم سألهم الله عن عدم
سمعهم وأبصارهم ؟

أقول : إنهم لم يستفيدوا بسمعهم وبصرهم فعد ذلك عندهم عدما .

وهكذا :

تثبت الآية الأولى قدرة الله فى الإهلاك ، وتثبت الآية الثانية قدرته فى
الإيجاد ، وهذا يؤكد أمرين :

- (١) إنه سبحانه وتعالى يضر وينفع ، وهو الإله العظيم .
 - (٢) إنه سبحانه وتعالى كما أوجد الحياة قادر على البعث بعد الموت .
- ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ويقول
المشركون لرسول الله مستهزئين به متى سيفتح الله عليكم ، ويأتىكم النصر الذى
تخوفوننا منه ؟ ... عرفونا بموعده نصركم إن كنتم صادقين فى أقوالكم لنا .

﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

أى قل لهم يا محمد ، وأخبرهم بحتمية وقوع الفتح فى وقت يقدره الله له ، حيث

تقوم القيامة ، وحين قيامها لا ينفعكم إيمان ، ولا يسمع لكم عتاب ، ولا يسمع لهم طلب ، ويحقيق بهم العذاب فقد مضى وقت الإنظار .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى فاعرض يا محمد

عن هؤلاء المشركين ، ولا تبال بهم ، وانتظر فتح الله عليك ، وانتظر ما يصنع الله بك وبهم فى الدنيا والآخرة ، فإنهم يتربصون بكم الدوائر ، وسوف ينصرك الله ، وترى فيهم ما يشفى صدرك وصدور المؤمنين .

وقد كان سؤال المشركين عن الفتح فى الدنيا فعمم الرسول فى إجابته لتشمل الفتح فى الدنيا والآخرة .

وقد ناسب آخر السور أولها :

فجاء فى أولها ذكر وسيلة الإنذار فى الرسالة حيث قال الله تعالى :

﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا ﴾ وجاء فى آخرها قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ﴾^(١) .

وجاء ذكر الله أدلة التوحيد فى أول السورة فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وجاء فى آخرها قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ .

وجاء ذكر البعث فى أولها فى قوله تعالى : ﴿ أَعِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا

لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾^(٢) وجاء كذلك فى آخرها يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ .

(١) سورة غافر ، الآية ٥٢ .

(٢) سورة السجدة ، الآية ١٠ .

(٢٥٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أهلك كثيرا من الأمم السابقة ، وأبقى كثيرا من آثارهم ليرأها أهل مكة ليؤمنوا ، ولكنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون .
ولو فكر المشركون فى المطر ينزل من السماء على الأرض الخالية من الزراعة ، فيخرج من الأرض زرعا يأكل منه الإنسان والحيوان لو فكروا فى ذلك لآمنوا .

إن أهل مكة كانوا مصرين على الكفر ، وكانوا يستهزئون بالمسلمين ويسألونهم عن وقت النصر الذى يذكرونه إن كانوا صادقين فيرد الله عليهم ويأمر رسوله ان يقول لهم : سيأتى يوم الفتح فى الوقت الذى قدره الله تعالى وحين مجيئه يحيط العذاب بهم فى وقت لا يقبل الله منهم إيمانا أو عتابا .
وتأمر الآيات فى النهاية رسول الله ﷺ ليعرض عنهم ، وينتظر نصر الله للمؤمنين واهلاكه للكافرين ، وهم كذلك ينتظرون .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الجود إفساد للقلوب والعقول

يتأمل العاقل فى إنسان يكفر بالله ، ولا يقر بدين ، وينكر الوحي ، ويعارض الرسول بلا وعى ولا هدف .
إن الكافر لا يرى فى المخلوقات دليلا على الخالق ، ويعبد صنما أو وثنا ولا يؤثر فيه ما يشاهد من عجائب الكون ، وغرائب الوجود ... ويرفل فى النعم

ولا يسأل عن المنعم ... يستنشق الهواء ، ويشرب الماء ، ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعيش النعم والفضل ، ويستمر على ضلاله وكفره .
إنه بهذه الصورة يؤكد أنه جاحد للفضل ، منكر للواقع ، غافل عن علل حياته ووجوده ، ووجود الكون كله .

إن الجحود أعمى أبصارهم فيمرون على آثار الأمم السابقة ولا يرونها وان رأوها لا يتأثرون ... وهم يشاهدون نزول المطر ، وجريان الأنهار ، ونبات الأرض فيأكلون ويشربون كما تأكل الأنعام بلا تفكير وتأمل ، فهم كالأنعام ينفهم الشعب ولا يفكرون .

ولذلك :

لا يعجب العاقل من أناس حصلوا على الشهادات الجامعية ولهم سبق فى الاختراعات العلمية ، ومع ذلك لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بدين ، لأن الفساد أعمى أبصارهم وأصم أذانهم ، وختم على قلوبهم فبعدوا عن سواء السبيل .
ومن هنا ...

كانت تربية النشئ ، وزرع الإيمان فى القلوب منذ الصغر أكثر فائدة لصنع سياج من الفهم ، يبعد الإنسان فى كبره عن الجهالة والجحود .
إن الجحود يغيب صاحبه عن الماضى فلا يستفيد بأحداثه ، ويغيبه عن الحاضر ... ويغيبه عن المستقبل فينكر اليوم الآخر ، ولا يؤمن بالله تعالى .
والسعيد من أنار الله بصيرته ، وهده إلى الطريق فصار من عباد الله الصالحين .

(٢٥٩)

الركيزة الثانية

ضرورة الإعراض عن الجاهلين

بلغ رسول الله ﷺ ما أمر به ، وكان يهمله إيمان الناس ، وكان يحزن على عدم إيمانهم ، ويكاد أن يقتل نفسه من الألم ، فعرفه الله أن عليه البلاغ المبين ، وقال له : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ ﴾^(١) .

وأمره سبحانه وتعالى رحمة به أن يعرض عن المشركين ، ويدع الأمر لله ، ولسوف ينصره الله تعالى ، ويحقق وعده فإنه سبحانه لا يخلف الميعاد .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "السجدة" بتوفيق الله تعالى .

(١) سورة القصص ، الآية ٥٦ .

سورة "الأحزاب"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٢٦١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -**التعريف بسورة "الأحزاب"**

سورة "الأحزاب" سورة مدنية بالإجماع نزلت بعد سورة "الأنفال" ، وقد اشتهرت باسم "الأحزاب" وليس لها اسم آخر ، ووجه تسميتها بالأحزاب أنها ذكرت أحزاب المشركين من أهل مكة والبادى الذين تجمعوا للقضاء على المسلمين فى المدينة فى نهاية العام الرابع من الهجرة ، فرد الله كيدهم ، وحفر المسلمون الخندق ، وكفى الله المؤمنين القتال .

وعدد آيات السورة ثلاث وسبعون آية باتفاق أصحاب العدد .

ووجه اتصال سورة "الأحزاب" بسورة "السجدة" أن الله تعالى فى آخر سورة "الم سجدة" أمر رسوله بقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾^(١) وجاء فى أول سورة "الأحزاب" قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٢) .

وسورة "الأحزاب" سورة مدنية ، ولذلك نجدها تشير إلى قضايا العقيدة بإشارات سريعة لتكون مقدمة للنظم المشروعة ، وللتوجيهات الدينية المختلفة .
فهى مع قضايا العقيدة تأمر النبى باتقاء الله ، وضرورة التوكل عليه .
يقول الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٣) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا^(٤) .

(١) سورة السجدة ، الآية ٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ١ ، ٢ .

(٢٦٣)

وتعرف بصفات الله تعالى فى قوله :

- ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا تَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾^(١) .
- ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٢) .
- ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾^(٣) .
- ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾^(٤) .

وتأمر المؤمنين بمداومة ذكر الله تعالى يقول سبحانه : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ ﴾^(٥) .

وتعرف الناس برسول الله ﷺ ... يقول الله تعالى :

- ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
- الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾^(٦) .

- ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ
- وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾^(٧) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ١٧ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٥ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٩ .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٢٧ .

(٥) سورة الأحزاب ، الآية ٤١ ، ٤٢ .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

(٧) سورة الأحزاب ، الآية ٤٠ .

- ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٦﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ﴿٤٧﴾ (١) .

وتتحدث عن يوم القيامة ... يقول الله تعالى :

- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿٤٨﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ ﴿٤٩﴾ (٢) .

- ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿٥١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ (٣) .

ومع الإجمال فى آيات العقيدة تفصل سورة "الأحزاب" فى القضايا العملية التى يحتاج إليها المسلمون فى مجتمع المدينة بعد الهجرة .

فتنظم للمسلمين صلّتهم برسول الله ﷺ ، وتذكرهم بفضل الله يوم أن جاءهم الأحزاب من كل جانب فنصرهم الله عليهم ، وتوضح علاقة رسول الله ﷺ بزوجاته أمهات المؤمنين تشريعا للناس ، وأسوة للعالمين ، وتشترع السورة للأسرة والزواج ، وتنظم دخول بيوت أمهات المؤمنين وتقرض الحجاب ، وتحت الناس على حفظ الأمانات ، وسيأتى تفصيل هذه الأمور عند بيان دلالات الآيات فى تفسير السورة .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٦٣ . ٦٥ .

(٢٦٥)

- ثانيا -

- التفسير -

توجيه النبي ﷺ والمؤمنين إلى الأعمال الفاضلة

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : إن الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعاوا النبي ﷺ أن يرجع عن دعوته على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فنزلت .

ويروى أن أبا سفيان بن حرب ، وعكرمة بن أبي جهل ، وأبا الأعور السلمي قدموا عليه ﷺ في زمان المودعة التي كانت بينه ﷺ وبينهم ، وقام معهم عبد الله بن أبي ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس ، فقالوا لرسول الله ﷺ : ارفض ذكر آلهتنا وقل : إنها تشفع وتنفع ، وندعك وربك فشق ذلك على النبي ﷺ والمؤمنين فنزلت .

وقيل : إنها نزلت في ناس من ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فطلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يمتنعهم باللات والعزى سنة وقالوا : لتعلم قريش منزلتنا منك فنزلت^(١) .

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١٤٣ .

(٢٦٦)

- ٢ -

موضوع الآيات

تتضمن الآيات أمر الله لرسوله بمداومة توكله على الله ، واستمرار تقواه ، وعدم طاعة الكافرين والمشركين فيما يطلبون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ هذا نداء من الله لرسوله يدعوه إلى الاستمرار في طاعة الله تعالى ، وهو نداء يتضمن تشريف النبي ﷺ ، ويبين علو مقامه عند ربه فهو يناديه نداء القريب منه ، ويناديه باسم النبوة إظهاراً لهذا التشريف ، ومن الواضح أن الله ينادى محمداً ﷺ باسم يشرفه مثل ﴿ يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ ، ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ... أما إذا أخبر عنه فإنه يذكر اسمه مثل ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ ليعلم الناس أن محمداً بشر مثلهم ، تميز عنهم بنزول الوحي .

والنبي هو الإنسان الذى اختاره الله ، وأنزل عليه الوحي ، وكلفه بإبلاغ الناس بشرع جديد ، أو بشرع نزل على غيره من الرسل .

﴿ أَتَقِي اللَّهَ ﴾ أى استمر على ما أنت عليه خشية ورجاء ، واطع ربك فى كل ما أمرك به .

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أى ولا تطع الكافرين من أهل مكة فهم يعلنون كفرهم ، ولا تطع المنافقين فهم يظهرون الإيمان ويبطون الكفر ، وكان النبي ﷺ يأمل فى إيمانهم ، وكان يلين معهم فأمره الله بعدم اللين ، وعدم الاستجابة لما يطلبون .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى إن الله تعالى عليم

بما تتطوى عليه النفوس ، حكيم فيما يأمر به أو ينهى عنه ، وكان الله متصفا بصفاته منذ الأزل ، وسيبقى كذلك إلى الأبد .

والأمر فى الآية لرسول ﷺ شامل للمؤمنين إلى يوم القيامة فهو ﷺ رائد المؤمنين ، والأمر له أمر لأُمته ما لم يكن خاصا به ﷺ بدليل قطعى .

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرًا ﴿ أى واتبع يا محمد ما يوحى الله إليك به ، فهو ربك الذى أرسلك وهو المعتنى بعباده ، لا يوحى إليهم إلا بما يصلحهم ، وهو سبحانه عليم محيط بسائر الأعمال والأقوال .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى فوض أمرك يا محمد

لله وحده ، واعتمد عليه فى سائر شئونك ، فإنه يغنيك ويكفيك ، وكفى به حافظا لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، وهو اللطيف الخبير .

- ٤ -

معنى الآيات

يأمر الله رسوله باتباع أمره ، والاستمرار فى الطاعة والتقوى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، والاعتماد على الله وحده فإن ذلك يكفيه ، والأمر للأمة كما هو أمر لرسول الله ﷺ .

(٢٦٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دعائم الإيمان فى الإنسان

ينقل الإيمان صاحبه إلى حياة إيمانية راقية لأنه يعتمد على الدعائم

التالية:

الدعامة الأولى : معرفة الله تعالى ، وتقديره حق قدره ، وعلى الإنسان أن يعبد الله حق العباد ، ويتصل به فى خشوع وتذلل ، ويعلم أنه مخلوق للعبادة يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١) والعبادة فى مجملها تجمع بين الحب والخوف فى آن واحد ، فيحب المعبود من يعبده لأنه يرى فيه الحسن والجمال ، والكرم ، والعطاء ، والرحمة ، والمودة ، ويخافه لأنه يعلم أن عقابه شديد ، وسلطانه كامل ، وحسابه عسير ، فهو يجمع بين الحب والخوف رغبا ورهبا ... وبذلك فهو يعبد الله تعالى .

إن تقوى الله تعالى تجمع بين الخوف والحب ، ولذلك كان الأمر بتقوى الله تعالى .

إن المسلم وهو يتقى الله تعالى يعيش فى كنفه ، ويستقيم على أمره ، وبذلك لا يطيع من ضل عن سبيل الله .

الدعامة الثانية للإيمان هى الاتباع الدقيق بكل ما أمر الله به ، أو نهى عنه ، لأن مقتضى العبودية أن يستقيم العبد على أمر سيده . يقول الله تعالى :

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

(٢٦٩)

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾^(١) ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(٢) .

الدعامة الثالثة للإيمان هى التوكل على الله ، والاعتماد عليه فى كل أمر ومن توكل عليه كفاه ، والله يحب المتوكلين .

الركيزة الثانية

الرسول رائد المؤمنين إلى الله تعالى

دعا رسول الله الناس إلى الخير ، وقادهم لدين الله تعالى ، وقد أمره الله بطاعته ... يقول الله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٣) وقد جاء الخطاب لرسول الله ﷺ فى حياة المسلمين ، ولذلك كان الرسول أسوة وقدوة ، يسير المسلمون على هذاه ، ويأخذون منهم دينهم قولاً وعملاً .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٤ .

(٣) سورة يونس ، الآية ٧٢ .

الحق ما شرعه الله دون سواه

يقول الله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيتين

نزلت الآيات في أبي معمر جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلاً لبيباً ، حافظاً لما يسمع فقالت قريش : ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلا وله قلبان . وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد . فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم ، فلقاه أبو سفيان واحداً نعليه في يده ، والأخرى في رجله . فقال له : يا أبا معمر ما حال الناس . فقال : انهزموا . فقال أبو سفيان له : فما بال إحدى نعليك في يدك ، والأخرى في رجلك . فقال أبو معمر : ما شعرت إلا أنهما في رجلي . فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٢٩ .

(٢٧١)

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة أمر الله لرسوله في التقوى والطاعة ، والتوكل
جاءت هاتان الآيتان في ضرورة طاعة الله ، والابتعاد عما يتصوره الجاهلون .

- ٣ -

موضوع الآيتين

الآيتان تبينان أن الله خلق للإنسان قلبا واحدا ، والواجب طاعة الله
والابتعاد عن مخالفته في كل ما أمر به أو نهى عنه .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ أى جعل الله لكل
إنسانا قلبا واحدا يفهم به ، ويعقل ، ولذلك فله واحد ، لا يجمع بين المتناقضات
، وقد كذب من قال إن الأريب له قلبان يزداد فهمه بهما ... لأن القلب الواحد
يزداد فهمه ، أو ينقص كما يقدر الله ... ومن المحتمل عند وجود قلبين لإنسان
واحد أن يعيش الإنسان متحيرا بين اتجاهين متعارضين ، ولو في بعض
الأحيان .

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أى ولم يجعل

الله الزوجة أما ، لزوجها لأن هذا تناقض لا يجوز .
وقد كان الرجل قبل الإسلام يقول لزوجته : أنت علي كظهر أمي فتحرم
عليه زوجته على التأبيد ، فلما جاء الإسلام شرع للظهار كفارة يقوم بها الزوج
لتعود إليه زوجته .

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ أى ولم يجعل الولد بالتبني مثل الولد من الصلب فى الميراث ، وفى كافة الحقوق والواجبات .

﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ الإشارة إلى الأمور المذكورة المنفية وهى القول بان للإنسان قلبين ، وجعل الزوجة أما ، وتسوية الولد بالتبني مثل الولد الصلب ليشير أنها أقوال مرسله صدرت من ألسنتهم بلا سند ولا دليل .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أى إن القول الحق هو قول الله تعالى ، وما خالف ذلك من أقوال مردود لاحق فيه .

﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أى والله يهدى الناس إلى أقوم السبل ، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم .

وخلاصة الآية رد ما كان يزعمه العرب قبل الإسلام ، واثبات للحق فى هذه القضايا خلال النقاط التالية ... وهى :

(١) إن الله لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر ، فأحدهما يكون نافلة غير محتاج إليه ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، وهذا يؤدى إلى التناقض فى أعمال الإنسان ، فيكون مريدا للشئ كارها له ، وظانا له موقنا به فى حال واحدة ، وهذا لا يكون .

(٢) إنه لم ير أن تكون المرأة أما لرجل وزوجا له ، لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها الجناح ، والمرأة مستخدمة فى المصالح الزوجية على وجوه شتى .

(٣) لم يشأ فى حكمته أن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له ، لأن البنوة نسب أصيل عريق ، والتبني إصاق عارض بالتسمية لا غير ، ولا يجتمع فى الشئ الواحد أن يكون أصيلا وغير أصيل .

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى انسابوا الأبناء لأبائهم ،

فذلك أعدل وأكرم فى حكم الله تعالى ، وفى ذلك ما يرى أن زيد بن حارثة رضي الله عنه كان يسمى قبل الإسلام زيد بن محمد فلما نزلت الآية سماه النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة رضي الله عنه .

وقصة ذلك إن زيد بن حارثة كان فى أخواله بني معن من بني ثعل من طيى ، فأصيب فى نهب من طيى فقدم به سوق عكاظ ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها ، فأوصته عمتة خديجة أن يبتاع لها غلاما ظريفا عربيا إن قدر عليه ، فلما قدم وجد زيدا يباع فيها ، فأعجبه ظرفه ، فابتاعه فقدم به عليها ، وقال لها : إني قد ابتعت لك غلاما ظريفا عربيا ، فإن أعجبك فخذيه والا فدعيه ، فإنه قد أعجبني ، فلما رأته خديجة أعجبها فأخذته فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عندها فأعجب النبي عليه الصلاة والسلام ظرفه فاستوبه منها ، فقالت : أهبه لك فإن أردت عتقه فالولاء لي فأبى عليها عليه الصلاة والسلام فأوهبته له إن شاء أعتق وإن شاء أمسك ، فشب زيد عند النبي صلى الله عليه وسلم ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب بأرض الشام فمر بأرض قومه فعرفه عمه فقام إليه فقال : من أنت يا غلام ؟

قال : غلام من أهل مكة .

قال : من أنفسهم ؟

قال : لا .

قال : فحر أنت أم مملوك ؟

قال : بل مملوك .

قال : لمن ؟

قال : لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

(٢٧٤)

فقال له : أعرابي أنت أم عجمي ؟

قال : عربي .

قال : ممن أصلك ؟

قال : من كلب .

قال : من أي كلب ؟

قال : من بني عبد ود .

قال : ويحك ابن أنت ؟

قال : ابن حارثة بن شراحيل .

قال : وأين أصبت ؟

قال : في أخوالي .

قال : ومن أخوالك ؟

قال : طيئ .

قال : ما اسم أمك ؟

قال : سعدي فالتزمه .

وقال : ابن حارثة ودعا أباه .

فقال : يا حارثة هذا ابنك فأتاه حارثة فلما نظر إليه عرفه .

قال : كيف صنع مولاك إليك ؟

قال : يؤثرني على أهله وولده ، فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة

فلقوا رسول الله ﷺ فقال له حارثة : يا محمد أنتم أهل حرم الله تعالى ، وجيرانه

وعند بيته تفكون العاني وتطعمون الأسير ، ابني عندك فامنن علينا وأحسن

إلينا في فدائه فإنك ابن سيد قومه ، وأنا سنرفع إليك في الفداء ما أحببت .

فقال له رسول الله ﷺ : أعطيكم خيرا من ذلك .

قالوا : وما هو ؟

قال : أخيره فإن اختاركم فخذوه بغير فداء ، وإن اختارني فكفوا عنه .

فقالوا : جزاك الله تعالى خيرا ، فقد أحسنت فدعاه رسول الله ﷺ .

وقال له : يا زيد أتعرف هؤلاء ؟

قال زيد : نعم هذا أبي ، وعمي ، وأخي .

فقال عليه الصلاة والسلام : فهم من قد عرفتهم فإن اخترتهم فاذهب معهم وإن اخترتني فأنا من تعلم .

قال له زيد : ما أنا بمختار عليك أحدا أبدا أنت معي بمكان الوالد والعم .

قال أبوه وعمه : أيا زيد أتختار العبودية ؟

قال : ما أنا بمفارق هذا الرجل فلما رأى رسول الله ﷺ حرصه عليه .

قال : اشهدوا أنه حر وأنه ابني يرثني وأرثه فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامته عليه عليه الصلاة والسلام^(١) .

﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ أى إذا

لن تعلموا آباءهم فانسبواهم أخوة وموالى لكم فى دين الله تعالى .

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ أى وليس عليكم حرج

واثم فى أى خطأ وقعتم فيه قبل نزول الآية فقد غفره الله تعالى .

﴿ وَلَٰكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أى ولكن الله يعاقبكم على تعمد الخطأ

بعد نزول النهى .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى إن الله غفور يغفر ذنوب عباده إن

تابوا وآمنوا ، وهو رحيم بهم يوفقهم ، ويعينهم .

(٢٧٦)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله خلق للإنسان قلبا واحدا ، ولذا يكون له اتجاه واحد يجب أن يجعله في طاعة الله تعالى لأن صاحبه إن لم يضعه في طاعة الله تركه للمعصية ، ولأن المتناقضين لا يجتمعان في خط واحد ... وكما لا تجتمع الزوجة والأمومة في امرأة ، لا تجتمع البنوة الحقيقية بالبنوة بالتبني في ولد واحد .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الاستقامة لها طريق واحد

الإسلام دين بين لا عوج فيه ولا التواء ، فمن دخل فيه وجد نفسه مع صفحة بيضاء ، واضحة المعالم يعرف أولها وآخرها .

يلتقى وضوح الإسلام مع فطرة الإنسان فتمتزجان في خط واحد مستقيم يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

إن الذي يبتعد عن الطريق المستقيم يضل بين تعدد الطرق ، والمنافق حين يتخذ لنفسه أكثر من طريق يعيش مذبذبا ﴿ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ (٢) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٣ .

إن الحركة فى الطريق الواحد تقرب الهدف ، وتدنى الغاية ، أما التنقل بين الطرق فإنه يضيع الوقت ، ويبعد صاحبه عن المأمول ، ولذلك خلا دين الله من أى تعارض أو اختلاف يهدى للتى هى أقوم ويضع العبد فى طريق الوصول لله رب العالمين .

لقد كثرت شياطين الإنس والجن فى الأرض ، وعملها إضلال المؤمنين وهم لذلك ينشرون الأفكار الفاسدة ، ويدعون إلى الأعمال الضارة ويغلفون أعمالهم بمسميات تستر معاييبهم .

والواجب أن يتمسك المسلم بطريقه إلى الله ، ويلتزم بالمنهج الذى وضعه الله لهذا الطريق ، فيحل لنفسه ما أحل الله ، ويحرم ما حرم الله لأن شرع الله بين ، ودينه واضح ﴿ وَمَا جَعَلَ أَذْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۖ ﴾^(١) .

الركيزة الثانية

الإسلام يحب ما قبله

المأمول من الإنسان أن يؤمن بالله تعالى ، ويدخل فى دينه حين يتضح له الحق ، وحينئذ يغفر الله له ما أخطأ فيه . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٢) وهذا من عدل الله فى قضائه ، ورحمته بالناس .

وحيثما يكتشف العاصى ذنوبه ، ويقطع عنها ، ويرجع إلى الله فإن الله يقبل توبه ، ويغفر ذنبه . يقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٤ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٥ .

(٢٧٨)

عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ .

منزلة النبي ﷺ في أمته

يقول الله تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۖ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦٩﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧٠﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧١﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أهمية النسب الحقيقي ، وأمرت بعدم مساواته بالتبني والادعاء ، ووضحت أن أخوة الدين أولى جاءت هذه الآيات تبين أن منزلة الرسول ﷺ وزوجاته عند المؤمنين أعظم من قرابة النسب ، وأن حقوق الأرحام مصانته ، والمعروف بين المؤمنين واجب ... ولقد أخذ الله الميثاق على الرسل ليبيلغوا الدين ليحاسب الله الناس على بيئته .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٧٠ ، ٧١ .

(٢٧٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن مقام رسول الله عند المسلمين أولى منهم بأنفسهم ، وأن زوجاته ﷺ أمهاتهم ، وأن أولى الأرحام أولى ببعضهم فى الميراث ، وتوضح الآيات أن الله أخذ الميثاق على الأنبياء ليلبغوا دين الله كما نزل الوحي به ، وأنه سبحانه وتعالى سوف يسأل الأنبياء والمؤمنين عن صدقهم ويثيبهم ، ويسأل الكاذبين ويعاقبهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى أن النبى ﷺ أشد قربا ، وأقوى ولاية ، ونصرة للإنسان من نفسه ، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بما فيه مصلحة وخير ، ولا ينهى إلا عن كل ضر وأذى . أما النفس فإنها تأمر بالفحشاء والمنكر ، والشيطان يأتيها ويغرها ، وهى تصيب وتخطئ ، وتعرف وتجهل . أما رسول الله ﷺ فهو ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١) .

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أى أن زوجات رسول الله ﷺ أمهات للمؤمنين ينزلن منازل الأمهات فى الحرمة والاحترام ، والتقدير والإكرام ، ومع ذلك فلا يحل النظر إليهن ، ولا الزواج منهن بعد رسول الله ﷺ .

(١) سورة النجم ، الآية ٣ ، ٤ .

وقد ظل الصحابة على تقديرهم لأمهات المؤمنين . يقول ابن عباس رضي الله عنه وهو يحمل جنازة ميمونة رضى الله عنها : "هذه زوج نبيكم فإذا رفعتم نعشها فلا تززعوا ، ولا تزلزلوا وارفقوا" .

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أى أن الأقارب ذوى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى الميراث من غيرهم فالأخ الشقيق أولى من الأخ بالتبنى ، وبهذا تأكد أن الميراث يكون بين الأقرباء وحدهم ، وأن التوارث بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة لم يعد موجودا بعد نزول الآية .

﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآكُمْ مَّعْرُوفًا ﴾ أى إلا أن يوحى بعضكم إلى بعض وصية لا تزيد عن ثلث المال ، لأن الوصية مقدمة على الإرث .

﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أى أن ذلك الحكم فى الميراث والوصية مدون ومكتوب فى كتاب الله تعالى لا تقبل تأويلا أو تغييرا .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ أى اذكر أيها الرسول أن الله أخذ العهد الشديد على النبيين جميعا ليقيموا الدين ، ويبلغوا الرسالة ، ويدعوا الناس إلى الله تعالى ، ويمهد كل سابق للاحقه ، ويصدق كل لاحق لمن سبقه .

والميثاق هو العهد المؤكد ، وقد أخذ الله العهد على سائر الرسل ، ومنهم أولو العزم وهم محمد ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام ، فهم أصحاب كتاب ، وجهدهم فى الدعوة شديد ، ولذلك خصتهم الآية بالذكر .

(٢٨١)

﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أى عاهدناهم عهدا قويا مؤكدا أن

يوفوا بالبلاغ ، والدعوة ، وينشروا دين الله بين المدعوين .

﴿ لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

أى أخذنا العهد الشديد على الرسل وعرفناهم أن الله سيسألهم عن أطاع ومن عصى ؟ ... لينال الصادقون ثواب صدقهم ، ويعاقب الكاذبين بعاقبة كذبهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن النبى ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه ﷺ أمهاتهم فى الاحترام ، والتقدير ، والطاعة مع عدم مخالفة الأحكام الشرعية فى الميراث الشرعى ، وتحريم النظر إليهن ، والزواج منهن .
وتبين الآيات أن الله أخذ الميثاق على الرسل ليبلغوا الدين بينا كما نزل به الوحى ، وسيسألهم عن الصادقين والكاذبين من الناس فهم شهداء عليهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

علو مقام الرسول ﷺ فى قلوب المؤمنين

تشير الآيات إلى مقام رسول الله ﷺ فى قلوب وحياة المسلمين ، وتوضح أنه أشد قربا من أنفسهم ، وأولى لهم منها ، ولذلك وجب حبه ﷺ ، فهو المرشد

إلى صلاح النفس ، والحياة ، وهو ﷺ الذى أرسله ربه ﴿ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾  وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا  ^(١) .

وحب رسول الله ﷺ ، وانزاله فى مقامه العالى أمر شرعى ، وقضية عقلية ، لأن النفس قد تضر صاحبها ، وتوقعه فى الفحشاء والمنكر ، وتلهيه عن الحق . أما رسول الله ﷺ فهو مصدر الهداية ، وأساس الاصلاح لا يأمر إلا بما فيه الخير .

عن أبى هريرة  قال : قال رسول الله ﷺ : "ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرعوا إن شئتم ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا ، فلتريه عصبته من كانوا ، ومن ترك ديننا أو ضياعا (عيالا) فليأتنى ، فأنا مولاه" ^(٢) .

عن زهرة بن معبد  أنه سمع جده عبد الله بن هشام  يقول : "كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : يا رسول الله ، لأنت أحب إلي من كل شئ إلا من نفسي . فقال النبي ﷺ : لا ، والذي نفسي بيده ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال له عمر : فإنه الآن ، والله ، لأنت أحب إلي من نفسي . فقال النبي ﷺ : الآن يا عمر" ^(٣) .

ومن أنوار النبوة كان دور زوجاته  فقد جعلهن الله أمهات للمؤمنين فى الحرمة والاحترام ، والتقدير والإكرام .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ج ٦ ص ١١٦ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الأيمان والنذور . باب كيف كانت يمين النبى ﷺ ج ٨ ص ١٢٩ .

(٢٨٣)

وحين يضع المسلمون رسولهم ﷺ فى مكانته اللائقة فإن هذا ينعكس على أعمالهم ، وقلوبهم ، وسلوكهم .
وواجب على الدعاة أن يعرفوا الناس برسولهم ، وشمائله وغزواته ، وكافة جوانب حياة ليكون أسوة للناس . يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾^(١) .

الركيزة الثانية **الرسل شهداء الله على الناس**

أرسل الله رسله للناس ، فقاموا بالواجب ، وبلغوا رسالات ربهم معتمدين على الله تعالى .
وقد جعلهم الله شهداء على أممهم ، وفى يوم القيامة يبينون الصادقين فى الإيمان ، والكاذبين فيه . يقول الله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾^(٢) ليحذر المؤمنون المعصية حتى لا يقفوا موقف الخزى يوم القيامة والرسول يشهد عليهم .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٤١ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٤١ .

آيات غزوة "الأحزاب"

أوردت سورة "الأحزاب" قصة غزوة "الأحزاب" التي سميت السورة بها في ثمان عشرة آية من الآية رقم (٩) إلى الآية رقم (٢٧) ، وقد بينت الآيات أهم أعمال الغزوة ، وبينت طبائع المؤمنين والمنافقين واليهود التي بدت خلال أحداثها ، وسوف أورد الآيات مقسمة إلى مقاطع ، كل مقطع يتضمن جزءا من قصة الغزوة في آية أو أكثر ، على أن أترك الركائز المستفادة من آيات الغزوة إلى النهاية^(١) .

(١) وقصة غزوة "الأحزاب" : أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهو ابن قيس وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعواهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، فديننا خير أم دينه ؟ قالوا : دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْبُسُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُولاَ أَهْدَىٰ مِنَ الْغَيِّ أَمْ لَا يَسْمَعُونَ ۚ ﴾ .

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعواهم إليه من حرب رسول الله ﷺ . فاجتمعوا على ذلك .

ثم خرج أولئك نفر من اليهود حتى جاءوا غطفان ، وقيسا ، وغيلان فاجتمعوا على ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وإن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم .

وخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب .

وخرجت غطفان وقائدهم عبيدة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة ، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة ، ومسعر بن ربيعة بن نيرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع .

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة ، وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان الفارسي ؓ وكان أول مشهد == ==

شاهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر فقال : يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا ضربنا خندقا علينا ، فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكموه .

وروي أن رسول الله ﷺ خط الخندق عام الأحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعا فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي ، وكان رجلا قويا ، فقال المهاجرون : سلمان منا ، وقال الأنصار سلمان منا ... فقال النبي ﷺ : سلمان منا أهل البيت .

قال عمرو بن عوف كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعا فحفرنا ، حتى إذا كنا تحت الأرض أخرج الله من بطن الخندق صخرة كسرت حديدنا ، وشقت علينا ، فقلنا : يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ وأخبره بخبر هذه الصخرة ، فإذا أن يعدل عنها ، فإن المعدل قريب ، واما أن يأمرنا فيها أمره ، فإننا لا نحب أن نجاوز خطه ، فرقي سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية .

فقال : يا رسول الله خرجت لنا صخرة بيضاء من بطن الخندق فكسرت حديدنا ، وشقت علينا حتى ما يجيبنا منها شيء قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك ، فإننا لا نحب أن نجاوز خطك ، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان إلى الخندق واستند على شق الخندق وأخذ عليه الصلاة والسلام المعول من سلمان ، وضربها به ضربة صدعها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها يعني المدينة ، حتى كأنه مصباح في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح ، وكبر المسلمون معه .

ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية فبرق منها برق حتى أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم ، فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح ، وكبر المسلمون معه .

ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح ، وكبر المسلمون معه .

وأخذ رسول الله ﷺ بيد سلمان ورقى فقال سلمان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئا ما رأيت مثله قط فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم وقال : رأيتم ما يقول سلمان .

قالوا : نعم يا رسول الله .

قال : ضربت الأولى فبرق البرق الذي رأيتم فأضاء لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها .

ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم أضاء لي منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فآبشروا ، فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعد فأتوني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فآبشروا ، فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعد صدق ، وعدنا النصر بعد الحصر .

==

== فقال المنافقون : ألا تعجبون يمينكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزل القرآن : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ . وأنزل الله : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ ﴾ .

عن أنس رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال : "اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة" . فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا .: على الجهاد ما حيننا أبدا
وعن البراء بن عازب قال : "رأيت النبي ﷺ ينقل معنا التراب وهو يقول :
والله لولا الله ما اهتدينا .: ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا .: وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا .: إذا أرادوا فتنة أبينا
ويرفع بها صوته .

ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فأمرني بما شئت .
فقال ﷺ : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .
فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديما لهم في الجاهلية .
فقال لهم : يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم .
قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم .

فقال لهم : إن قريشا وغطفان جاءوا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه وإن قريشا وغطفان ليسوا كهينتكم ، البلد بلدكم ، به أموالكم وأولادكم ونسائكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونسائهم وبغيره ، إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين هذا الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به ، إن خلا بكم فلا تقاوتوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشراقهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا حتى تتاجزوه .

قالوا : لقد أشرت برأي ونصح ثم خرج حتى أتى قريشا .
فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدا فقد بلغني أمر رأييت حقا على أن أبلغكم نصحا لكم فاكتموا علي .
== قالوا : نفعل .

== قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشrafهم فنعطيكهم فنضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم ؟
فأرسل إليهم أن نعم . فإن بعث إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان أنتم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهموني .
قالوا : صدقت قال فاكتموا علي .

قالوا : نفعل فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مثلما حذرهم . فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان .

فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا . وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابهم ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد ، فلما رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة .

قالت قريش وغطفان : تعلمن والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا إلى بني قريظة إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك شملوا إلى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم . وخذل الله عز وجل بينهم وبعث عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم .

وقد قام رسول الله ﷺ ليلة يصلى على النل الذي عليه مسجد الفتح ، ثم يلتفت ويقول : هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ فعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقوم رجل واحد ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فدعا حذيفة بن اليمان وقال : ألم تسمع كلامي منذ الليلة ؟

قال حذيفة : فقلت يا رسول الله منعني أن أجيبك الضر والقر .
قال : انطلق حتى تدخل في القوم ، فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، حتى ترده إلي ، انطلق ولا تحدث ==
== شيئا حتى تأتيني ، فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول : يا صريخ

(٢٨٨)

وقد جاءت آيات القصة مناسبة للآيات قبلها لأن الآيات قبلها تحدثت على نعم الله على الناس ، فجاءت آيات القصة لتكشف شيئا من النعم العملية التي رآها المسلمون خلال الغزوة .
وها هي مقاطع القصة فى آياتها .

المقطع الأول مجمل الغزوة

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رَحْمًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع الأول

يبين المقطع مجمل ما حدث فى غزوة "الأحزاب" فقد جاءت جنود وأحزاب ، وحاصروا المدينة فأهلكهم الله ، وصرفهم عن المدينة بهبوب ريح الصبا ، وظهور جنود من الملائكة ، ولقد علم الله ما حل بالمسلمين فنصرهم .

المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى فنزل جبريل وقال : إن الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتى ورحمت أصحابى ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع أبا سفيان يقول : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ ، فضحك حتى بدت أنيابه فى سواد الليل .

(تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٣٣ . ٢٣٥ بتصرف)

(٢٨٩)

- ٢ -

معنى المقطع الأول
من خلال دلالة الآية

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أى اذكروا أيها المؤمنون نعم الله التى أسبغها عليكم حين جاءتكم جنود الأحزاب من قريش ، وغطفان ، ويهود بنى قريظة ، فأرسلنا عليهم ريحا باردة فى ليلة باردة أحصرتهم ، وسفت التراب فى وجوههم ، وأمر ملائكته ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وما جت الخيل بعضها فى بعض ، وقذف الله الرعب فى قلوب الأعداء ، حتى قال طليحة بن خويلد الأسدى : إن محمدا قد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال ، وانهزم الأحزاب بريح الصبا ، وبملائكة لم يروا إلا أثرها فى الأحزاب .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ أى وكان الله تعالى عليما

بأعمالكم وقلوبكم فنصركم وأيدكم .

- ٣ -

معنى المقطع الأول

يبين المقطع الأول نعمة الله على عباده المؤمنين ، ويذكرهم بنصره لهم حين تجمع الأحزاب والأعراب من قبائل العرب حول الخندق ، فلما ضاق الأمر على المسلمين أهلك الله الأحزاب ، وسلط عليهم الريح والملائكة ، ونصر المسلمين لأنهم مستحقون للنصر بصدق عملهم وإخلاصهم .

(٢٩٠)

المقطع الثانى تجمع الأحزاب وخوف المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٢٩٠﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع الثانى

تبين آيات المقطع الثانى هلع المؤمنين من حشود الأحزاب ، وموقفهم بعد تجمع الأحزاب حول الخندق .

- ٢ -

تفصيل المقطع الثانى من خلال دلالة الآيات

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أى اذكروا أيها المؤمنون تجمع الأحزاب ومجيئهم إليكم ، ومحاصرة المدينة من كل جانب ، فلقد جاءوكم من جهة الشرق ، وكانوا من غطفان ، ومن تابعهم من أهل نجد . ومن بنى قريظة والنضير من اليهود ... وجاءوكم من أسفل الوادى من قبل المغرب وكانوا من قريش ، ومن شابعهم من الأحابيش ، وبنى كنانة ، وأهل تهامة .
لقد تجمعوا جميعا لاجتياح المدينة ، والقضاء على المسلمين فيها ، وقد غشيت المسلمين حالات خوف شديدة . يقول الله عنها : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ

﴿الْأَبْصَرُ﴾ أى بلغ بكم الخوف غايته حين حاصر الأحزاب المدينة ، فلقد اضطربت الأبصار فى رؤيتها ، وأصابتها الحيرة والدهشة ، فلم تعد ترى الصورة على ما هى عليه ، وصارت تنتقل شاردة بين المرئيات .

﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أى اضطربت القلوب من شدة الخوف والفرع حتى كأنها تتجاوز مكانها ، وترتفع إلى البلعوم آملة الخروج من جسد صاحبها ، وهو تعبير يبين شدة الفرع والخوف لأن القلوب لا تتحرك من مكانها ... فهو كقوله تعالى : ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾^(١) .

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أى صرتم تعيشون ظنونا كثيرة ، فمنكم مؤمن مخلص يستتجد بربه ، ويطلب نصره ، ومنهم ضعيف الإيمان أخذ يشكك فى وعد الله تعالى .

﴿هَٰذَا لَكِ آيَاتُ الْوُحْيِ﴾ أى فى وقت مجئ الأحزاب ، وفى كثرة تجمعهم كان الاختبار الكبير للمؤمنين ، فلقد ظهرت صلابة إيمانهم ، وكانوا مع خوفهم ، وهلعهم يتقون فى وعد الله تعالى ، ويأملون فى نصره ، وكانوا يرون الأحزاب قوة ، وعددا إلا أنهم كانوا على يقين بأن الله أقوى وأعظم منهم .

﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أى وأصيب المسلمون فى هذا اليوم بالخوف والشدة ، والقلق البالغ من كثرة عدد الأحزاب ، وقوة عدتهم .

(١) سورة القيامة ، الآية ٢٦ .

(٢٩٣)

- ٢ -

معانى المقطع الثالث من خلال دلالة الآيات

تتحدث الآيات عن مواقف المنافقين فى نشر الهزيمة بين المسلمين ،
وتبين سبب هذه المواقف من المنافقين وتنوعها :

فمنهم من أخذ يشكك فى وعد الله تعالى ، وعنهم يقول الله تعالى :
﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى واذكروا أيها المؤمنون مقالة المنافقين ومن فى قلبه مرض بعد
مجئ الأحزاب مشككين فى وعد الله تعالى ، عاملين على زعزعة المؤمنين فى
إيمانهم لقد قالوا : ما وعدنا الله ورسوله من النصر والظفر وعد باطل غرنا به
الله ، وأوقعنا فيما لا طاقة لنا به ، وسلخنا عن دين آبائنا ... وها نحن اليوم
محاصرون لا نستطيع أن نخرج لقضاء حاجاتنا .

والفرق بين المنافقين والذين فى قلوبهم مرض أن المنافق استقر على
الكفر وإن كان يظهر غيره ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فهم المترددون بين
الإيمان والكفر بلا استقرار على أيهما .

ومن المنافقين من أخذ يعمل على صرف أهل المدينة عن الإيمان ، وهم
الذين قال الله عنهم : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَأَهَّلِ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ

فَارْجِعُوا ﴾ أى واذكروا أيها المؤمنون مقالة بعضهم ، وعلى رأسهم مقالة عبد
الله بن أبى لأهل المدينة ليصرفهم عن القتال حين قال لهم : لا أمل لكم فى
النصر فاتركوا مواجهة الأحزاب ، وارجعوا إلى بيوتكم فهو أسلم لكم وأحسن .

وقيل : إن المعنى أنه لا فائدة لكم فى دين محمد فارجعوا عنه إلى دين
آبائكم .

ومنهم من انسحب من المعركة بمزاعم كاذبة وهم بنو حارثة ، وعنهم يقول الله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِذْ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أى أخذ هذا الفريق يستأذن النبي ﷺ في ترك المعركة بدعوى إن بيوتهم عورة يخشون عليها من عدوان المعتدين من اليهود وغيرهم ... وهذه المعاذير كاذبة لا حقيقة بها ، فليست بيوتهم عورة .
وسبب هذه المواقف من المنافقين ما يلى :

(١) الضعف الإيماني والعملى :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى إن هؤلاء المنافقين يريدون بأقوالهم وأعمالهم ترك المعركة والهروب منها . فقد حل الضعف اليقيني بهم فصاروا لا يتقون في وعد الله ، وسيطر عليهم الضعف العملى ونالهم الخوف والفرع ، وانحصرت إرادتهم في إرادة الهرب والفرار .

(٢) سيطرة النفاق عليهم :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ أى أن هؤلاء المنافقين يكذبون في أقوالهم ومزاعمهم بسبب نفاقهم ، وضعف إيمانهم ، لأن الأحزاب لو دخلوا المدينة من كافة جوانبها ، وأحاطوا بهم ثم طلبوا منهم الكفر ، وترك الاشتراك مع المؤمنين فإنهم يسارعون إلى الكفر ، ويتركون محمدا لأنه لا أثر للإيمان في قلوبهم ، ولن يمكنهم مع دعوى الإيمان إلا وقتا يسيرا .

إن عدم تمكن الإيمان من قلوبهم ، وخبث طويتهم ، واضمارهم النفاق يحملهم على الشرك ، ويعيدهم إلى الكفر عند أول صدمة تقابلهم ، وكأنهم كانوا ينتظرونها .

(٣) نقض العهد مع الله :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّوا

الْأَدْبَرَ ﴾ أى إن هؤلاء المنافقين الفارين وهم بنو حارثة قد هربوا يوم "أحد" قبل

ذلك ، ثم تابوا وعاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها ، وأن لا ينكثوا على أعقابهم إلا

أنهم في يوم الأحزاب فروا مرة أخرى ، ونقضوا عهدهم ، وولوا الأدبار .

﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أى أن الله سيسأل الناس عن الوفاء بعهودهم

ليجازيهم بما فعلوا مع هذه العهود ، ولن يفلت الناكثون من الحساب والعقاب .

- ٣ -

معنى المقطع الثالث

يبين المقطع الثالث أن المنافقين أخذوا يخذلون المؤمنين ، ويصرفونهم

عن الجهاد ، ويخوفونهم من الكافرين ... فمنهم من أخذ يشكك في قدرة الله

ووعده ويقولون : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، ومنهم من حاول صرف

المؤمنين عن القتال ... ومنهم من نقض عهده مع الله ، وأدبر على عقبه ،

وفر من المعركة مع أنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى سيحاسب على نقض

الميثاق .

المقطع الرابع

مواجهة المنافقين بسوءهم

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ١ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا تَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ٢ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات مواجهة رسول الله ﷺ للمنافقين بما أمره الله أن يذكره لهم وفيه يعرفهم أن الفرار لن ينفعهم ، وأنه لا عاصم لهم غير الله تعالى ، وأن الله يعلم سرهم ونجواهم .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الرابع من خلال دلالة الآيات

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ١

أى قل يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين ملكهم الذعر والخوف من الأحزاب ، ونادوا بالفرار ، وقل لهم : إن الفرار لن ينفعكم من الموت عند حلول الأجل ، ولن يزيح القتل عنكم إذا قدر الله موتكم لأن حياة الإنسان مقدورة ، ولكل أجل كتاب .

ولو قدر الله فراركم ، وحياتكم بعده ، فإن تمتعكم بعد الفرار قليل ، ينتهى حين حلول الأجل ... وبعده يكون البعث والحساب .

﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ

بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ينكر الله فيه على المنافقين الفارين تصور

النجاة بالفرار ، والهلكة في الجهاد أى قل لهم يا محمد من ينجيكم من قدر الله تعالى ؟ ومن يمنع لحوق الأذى بكم ويعصمكم من قدره لكم سواء كان خيرا أو شرا ... ضرا أو نفعا ؟ ... إنه لا ينجيكم غير الله ، ولا يمنع السوء عنكم سواء ، والجميع خاضع له سبحانه وتعالى .

﴿ وَلَا تَحْدُثْهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى ولن يجد

المنافقون وليا يتولى أمورهم ، ولا نصيرا ينصرهم غير الله تعالى ... وهم بفرارهم ضيعوا الولي ، وفقدوا النصير .

وجاءت جملة ﴿ وَلَا تَحْدُثْهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ... إخبارا لرسول الله ﷺ فقد كلفه الله

بأن يواجههم بالقول ، ويعرفهم خطأهم ، وبعد ذلك أخبره ربه بما سيكون لهم وبين له أنهم لن يجدوا وليا يتولى أمرهم ، أو نصيرا ينصرهم .

- ٣ -

معنى المقطع الرابع

تبين الآيتان أمر الله تعالى لرسوله أن يواجه المنافقين ويقول لهم : إن الفرار الذى تتأدون به ، وتبأشرونه لن يرد عنكم سوءا ، أو يجلب لكم نفعا لأن الآجال مقدره ، ولن تموت نفس قبل مجئ أجلها ، فلو قدر الله للفارين حياة فإنها متعة قليلة وتنتهى ، كما يقول لهم ﷺ : إنه لن يعصمهم ويمنع عنهم السوء إلا الله سبحانه وتعالى ، وتنتهى الآيات بإخبار رسول الله ﷺ أن المنافقين الفارين لن يجدوا وليا ، ولن ينصرهم أحد .

المقطع الخامس

توضيح صفات المنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۚ وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۚ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَنِزِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۚ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ۚ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع الخامس

يبين المقطع الخامس أهم صفات المنافقين بعد أن واجههم رسول الله ﷺ

بسوء أقوالهم وأعمالهم .

- ٢ -

معنى المقطع الخامس

من خلال دلالة الآيات

تتحدث الآيات عن صفات المنافقين كما تجلت يوم "الأحزاب" ... وهى :

(١) تعويق الآخرين عن الإيمان والجهاد :

يقول الله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ أى أن الله تعالى عليم بهؤلاء المنافقين ، ويعلم أنهم يثبطون غيرهم عن الإيمان ، ويصدونهم عن دين الله تعالى ، ويمنعونهم من القتال والجهاد .
والخطاب فى ﴿ مِنْكُمْ ﴾ للمنافقين إشارة إلى أن بعضا منهم قام بعملية التنشيط يوم "الأحزاب" بوسائل عديدة .

(٢) الجهر بمنع الناس عن ملازمة رسول الله ﷺ :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أى يعلم الله مقالة فريق المنافقين ، ونداءهم لإخوانهم المنافقين ويقولون لهم : أتركوا محمدا وأصحابه ، وتعالوا إلينا داخل المدينة ، نأكل الثمار ، ونعيش فى الظلال ، ونتمتع بالفرش والنساء .
وكان المنافقون يقولون لإخوانهم فى المدينة : إن محمدا وصحبه قليلو العدد ، ولو كانوا لحما لأكلهم أبو سفيان ومن معه .

(٣) الجبن عن اللقاء :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى إن هؤلاء المنافقين لا عزيمة لديهم ، ولا يتحملون الحرب ، وإن أتوه لا يمكنون فيه إلا وقتا قليلا ، ولا يؤدون خلاله إلا عملا هينا ، فلا أثر لهم ولا فائدة .

(٤) الهلع والفرع عند الشدة :

يقول الله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى إن المنافقين إذا رأوا الحرب والقتال ظهر جبنهم وخوفهم ، وأعدوا عدتهم للهرب والفرار ... وإذا

(٣٠٠)

نظرت إليهم يا محمد وهم خائفون ترى أعينهم تدور خوفاً وهلعا مثل دوران من قرب من الموت والفراق ، فتتجمد جوارحهم ، ويشخص بصرهم ، وتتجمد عقولهم ، ويعجز تفكيرهم ... ولا يدرون ماذا يفعلون ؟ وكيف يتصرفون ؟ إن عدم إيمان المنافق يضعه حين الخوف في الجزع الشديد ، والعذاب المهلك ، ويظهر ذلك على قلبه وجوارحه .

(٥) ادعاء البطولة حين الرخاء :

يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِالسِّنَةِ حَدَادٍ ﴾
أى أن المنافقين حين يتحقق الأمن ، ويذهب الخوف تهدأ نفوسهم ، ويتكلمون بكلام فصيح ، ويفتخرون بشجاعتهم واقدامهم وبطولاتهم ، وهم كاذبون .
إنهم عند الحرب أذلاء جبنا ، وعند النصر والغنيمة يدعون البطولة ، ويطلبون الغنيمة ، ويخاصمون المسلمين بالصياح العالى ، والادعاء الكاذب .
(٦) البخل الشديد بصورة عامة :

يقول الله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ أى أنهم كثيرو البخل فى الخير كله ، فقد جمعوا الكذب ، والخبث ، والحقد ، وقلة الخير فى كل مجال ، وسبب جمعهم لكل أوصاف السوء ، وبخلهم فى الخير كله ما قاله الله عنهم : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يُمْؤِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾
أى سبب ما هم فيه من بخل ، وبعد عن الخير عدم إيمانهم بالله تعالى ، وتكذيبهم لرسول الله ، وعدم إخلاصهم وصدقهم ... ولهذا أبطل الله أعمالهم ، وعاقبهم بما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى ، وبما يستحقون وذلك أمر هين يسير على الله تعالى .

(٧) سيطرة الخوف على المنافقين بعد انتهاء الغزوة :

يقول الله تعالى : ﴿ تَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أى أن المنافقين

بعد رجوع الأحزاب عن المدينة بقوا يظنون أن الأحزاب من غطفان وغيرهم لم يتركوا المدينة ، ولم يرحلوا عنها ... وكان ذلك من المنافقين استمرارا لخوفهم ، وأملا في هزيمة المسلمين ، ورجاء استمرار المسلمين منشغلين بمواجهة الأحزاب عند الخندق .

(٨) تمنى البعد عن ميادين القتال :

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي

الْأَعْرَابِ ﴾ أى ان هؤلاء المنافقين يتمنون عند مجئ الأحزاب مرة أخرى أن يكونوا وقتها بعيدين عن المدينة حتى لا ينالهم أذى ، أو يحتاجون لكذب ، إنهم يتمنون أن يعيشوا مع الأعراب فى البوادي ، بعيدين عن أهل المدينة .

﴿ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ ﴾ أى أن المنافقين يتمنون البعد عن المدينة

وقت الحرب مكتفين بالسؤال على أخبار المسلمين ممن يقدم إليهم من الرحل والتجار ، والأعراب .

﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى ولو كان المنافقون

بينكم أيها المؤمنون وقت الحرب فإنهم لن يقاتلوا إلا قتالا قليلا للرياء والنفاق لا يستفيد به المسلمون لقلته وتخاذله ، ولن يستفيدوا هم به لأن الله يعلم ما فى قلوبهم ، هؤلاء هم المنافقون فى وقت الرجاء وفى وقت الشدة ، فى صلتهم بالمشركين وبالمسلمين ، والله من ورائهم محيط .

(٣٠٢)

- ٣ -

معنى المقطع الخامس

تبين آيات المقطع الخامس صفات المنافقين على نحو ما ظهرت عليه
فى غزوة "الأحزاب" .

المقطع السادس

أحوال المؤمنين مع رسول الله ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا
اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۚ مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ
يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۚ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات صدق المؤمنين مع رسول الله ﷺ أثناء تجمع الأحزاب
واتخاذهم رسول الله أسوة لهم ، وبقينهم التام بوعده الله تعالى .

- ٢ -

ملخص المقطع السادس

من خلال دلالة الآيات

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى أن رسول الله ﷺ

يعد أسوة وقدوة للناس جميعا ، وهو أمامكم أيها الناس مؤمنكم ، وكافركم ،
ومنافقكم وهو قدوة حسنة فى أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ... إلا أن الذى يستفيد

بهذه الأسوة جماعة خاصة هم المؤمنون ، وكأن الله جعله ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أى أن الذى سيتخذ رسول الله أسوة له فى عمله ، ويسير على نهجه ومسلكه هم المؤمنون وحدهم ، الذين يعملون للجزاء الحسن فى الآخرة ، ويأملون فى رضى الله ورضوانه ، ويذكرون الله دائماً ، ويطيعونه فى كل حياتهم .

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ أى أن المؤمنين هم الذين اتخذوا رسول الله أسوة وقدوة لهم لأنهم على يقين بوعده الله ورسوله ، ولذلك لما رأوا الأحزاب قد أتوهم من فوقهم ، ومن أسفل منهم لم يضعف إيمانهم ، ولم يشكوا فى نصر الله لهم ، وقالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله فقد وعدنا بضرورة الابتلاء لإظهار المؤمنين الصادقين ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۚ مَسْتَهْمُؤُنَّ الْأَبْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۙ ﴾^(١) .

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾^(٢) .

﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ أى كما صدق الله فى وعده بضرورة الابتلاء سيصدق وعده فى وقوع النصر والغلب .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٤ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٢ .

(٣٠٤)

﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ أى لم يزدهم تجمع الأحزاب إلا قوة فى إيمانهم وتسليمهم ، ورضاهم بقدر الله تعالى ، وثقتهم التامة فى النصر لهم ولرسوله ولدينه .

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ أى أن من خصائص الإيمان وصفات المؤمنين أنهم صادقون مع الله يوفون بعهودهم ، ويبذلون أرواحهم رخيصة فى سبيل الله فى كل وقت ومكان ... فمنهم من جاهد يوم "بدر" ، وصبر ، وصابر حتى استشهد ، وقضى نحبه ، وحقق أمله .

ومنهم من استشهد يوم "أحد" ، وفى غير ذلك من الغزوات فى إقدام حقيقى ، وحب فى الشهادة لتكون كلمة الله هى العليا كما عاهدوا الله ورسوله .
﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ ﴾ أى ومن المؤمنين من ينتظر الشهادة فى لقاء آخر فهم على نمط من سبقهم صادقون مخلصون .

﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أى وما غيروا شيئاً من دين الله ، ولم يبدلوا ما لديهم من يقين ، فهم ملازمون للإيمان ، عاملون بصفات المؤمنين لا يغيرون ولا يبدلون .

عن أنس رضي الله عنه قال : "غاب عمى أنس بن النضر عن بدر ، فشق عليه . وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أراى الله تعالى مشهدا مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرين الله تعالى ما أصنع ، فشهد يوم أحد ، فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟

(٣٠٥)

قال : واهما لريح الجنة أجدها دون أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة ، وطعنة ، ورمية ، ونزلت هذه الآية : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾^(١) .

وروى صاحب الكشف أن رجالا من الصحابة نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ، وحمزة ومصعب بن عمير ، وجمع غيرهم رضي الله عنهم^(٢) .

- ٣ -

معنى المقطع السادس

يبين المقطع السادس أن المؤمنين ظلوا على صدقهم مع الله وزاد إيمانهم بوعوده سبحانه وتعالى ، فلما رأوا الأحزاب قالوا : هذا بلاء وعدنا الله به ، وأكدوا ثقتهم كذلك في وعد الله بالنصر والتمكين ، وهذا شأن المؤمنين دائما فمنهم من وفى بما عاهد عليه ، وجاهد واستشهد ، ومنهم من ينتظر الشهادة نصرا لدين الله ، ويقينا بوعده الله تعالى .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب التفسير . باب ومن سورة "الأحزاب" ج ٥ ص ٣٤٨ .

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٥٣٢ .

(٣٠٦)

المقطع السابع

بيان جزاء المؤمنين والمنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

المقطع يبين مصير المؤمنين والمنافقين فى الآخرة .

- ٢ -

تفصيلات المقطع السابع

من خلال دلالة الآيات

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى إن الله يختبر عباده ،
ويبتليهم بالخير والشر ، والأمن والخوف ليميز الخبيث من الطيب ، ويطهر
الصادق من الكاذب ، ويعطى لكل منهم ما يستحقه ، فيثيب المؤمن الصادق
على صدقه بالجنة .

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى ويعاقب الله
المنافقين على كذبهم وضلالهم إن استمروا على نفاقهم ويقبل توبتهم إن تابوا .
وقد علق الله عذابه المنافقين على مشيئته ليفتح أمامهم طريق الأمل والتوبة .
﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى إن الله يقبل التوبة ، ويعفو عن
السيئات ، ويغفر الذنوب جميعا ... وفى هذا تحبيب للإيمان ، ودعوة لعدم
اليأس ، وترغيب فى التوبة والرجوع إلى الله تعالى .
يقول الله تعالى :

(٣٠٧)

- ﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ
أَخْبَارَكُمْ ۖ ﴾^(١) .

- ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ
الطَّيِّبِ ۖ ﴾^(٢) .

أن طريق الإيمان واضح ، وملامح النفاق موجودة فليختر كل إنسان
لنفسه ما يريد .

المقطع الثامن

أحوال الكافرين والمشركين

في نهاية غزوة "الأحزاب"

يقول الله تعالى :

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية الحالة العامة للمؤمنين والأحزاب بعد انتهاء الغزوة ، فقد رد الله
الأحزاب بغیظهم وفسادهم ، ولم يحققوا نصرا أو هدفا ، وكفى المؤمنين القتال ،
ونصرهم بقوته وحكمته ، ورد الله عدوهم بلا حرب .

- ٢ -

تفصيلات المقطع الثامن

(١) سورة محمد ، الآية ٣١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٧٩ .

(٣٠٨)

من خلال دلالة الآية

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ أى لما تجمع

الأحزاب ، وظنوا انتصارهم ، وبقوا حول الخندق شهرا يحاولون اقتحامه ، وتحالفوا مع اليهود ، وحاصروا المؤمنين ، ورأوا قرب انتصارهم أخزاهم الله تعالى ، وردهم عن المدينة ، وهم فى فزع وهلع ، وأرسل عليهم ريح الصبا فقلعت خيامهم ، وزلزلت مشاعرهم ، وأرهبت الخيل والإبل ، وأطاحت بالقلوب والعقول ، وأنزل الله عليهم ملائكته تشردهم ، وتقزعهم ففروا إلى جهة مكة ، وانسحبوا من حصار المدينة ، بلا فائدة جنوها وبلا خير أصابوه ... وكل ما رجعوا به هو الخوف والرعب ، ومعاناة المسلمين واليهود معا .

﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أى انهزم المشركون والأحزاب واليهود

ورجعوا إلى مكة ، وتركوا حصار المدينة بلا قتال وحرب .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أى ونصر الله حزيه بقدرته فهو سبحانه

القوى القهار العزيز الحكيم فكفى المؤمنين القتال ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : "لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شئ بعده" ^(١) .

وعن عبد الله بن أوفى رضي الله عنه قال : "دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم" ^(١) .

(١) سنن أبى داود . كتاب الديات . باب دية الخطأ ج ٤ ص ١٨٥ .

(٣٠٩)

وروى محمد بن إسحاق أنه لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ : "لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم" (٢) .
وقد تحقق هذا فلم تغزهم قريش بعد ذلك، بل كان رسول الله ﷺ يغزوهم حتى فتح الله تعالى مكة .

- ٣ -

معنى المقطع الثامن

يبين المقطع الثامن أن الله هزم الأحزاب وحده ، ففرق جمعهم ، وشتت شملهم ، وردهم عن المدينة وهم معتاضون متألمون ، ولم يحققوا فائدة لهم ، وتم هذا بلا قتال ولا حرب ، والله عزيز حكيم .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجهاد والسير . باب الدعاء على المشركين ج ٤ ص ٤٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٣١٠)

المقطع التاسع موقف بنى قريظة

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۖ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع التاسع

يبين المقطع التاسع ما حل ببني قريظة بعد رجوع الأحزاب فقد حاصروهم المسلمون ، وأنزلوهم من حصونهم ، ولما أصابهم الرعب نزلوا على حكم الله تعالى ، ففضى الله عليهم بقتل رجالهم ، وسبى نسائهم وذريعتهم وتطهرت المدينة منهم^(١) .

(١) غزوة بنى قريظة كانت في آخر ذي القعدة سنة خمس ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما أصبح من الليلة التي انصرف الأحزاب راجعين إلى بلادهم انصرف ﷺ والمؤمنون عن الخندق إلى المدينة ، ووضعوا السلاح ، فلما كان الظهر أتى جبريل ﷺ رسول الله ﷺ متعمما بعمامة من إستبرق ، على بغلة بيضاء عليها رحالة ، وعليها من قطيفة من ديباج ، ورسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش رضى الله عنها وهي تغسل رأسه وقد غسلت شقه فقال جبريل : يا رسول الله قد وضعت السلاح ؟

قال : نعم .

قال: جبريل عفا الله عنك ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة وما رجعت الآن إلا من طلب القوم .

وروى أنه كان الغبار على وجه جبريل وفرسه فجعل النبي ﷺ يمسح الغبار عن وجهه ووجه فرسه فقال: إن الله تعالى يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة وأنا عائد إلى بنى قريظة فانهز إليهم فإنني قد قطعت أوتارهم وفتحت أبوابهم وتركتهم في زلزال ولبلال ، فأمر النبي ﷺ مناديا فأذن أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة == == وقدم

رسول الله ﷺ على بن أبي طالب برايته إليهم وابتدروا الناس ، وسار علي حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال : يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث .

قال : أظنك سمعت لى منهم أذى .

قال : نعم يا رسول الله .

قال : لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : "يا إخوان القردة قد أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته" .

قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولاً ومر رسول الله ﷺ على أصحابه بالصوريين قبل أن يصل إلى بنى قريظة فقال : هل مر بكم أحد ؟

فقالوا : يا رسول الله مر بنا دحية بن خليفة على بغلة بيضاء عليها رحالة وعليها قطيفة ديباج .

فقال ﷺ : ذاك جبريل عليه السلام بعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم ، فلما أتى رسول الله ﷺ بنى قريظة نزل على بئر من آبارها في ناحية أموالهم وتلاحق به الناس فأتاه رجال بعد صلاة العشاء الأخيرة ولم يصلوا العصر لقول النبي ﷺ : لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة ، فصلوا العصر بها بعد العشاء الأخيرة فما عابهم الله بذلك ولا عنفهم به رسول الله ﷺ قال العلماء : حاصرهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة حتى جدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وكان حبي بن أخطب دخل على بنى قريظة حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ووفى لكعب بن أسد بما كان عاهده ، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم .

قال كعب بن أسد : يا معشر يهود إنكم قد نزل من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلا لا ثلاثا فخذوا أيها شئتم .

قالوا : وما هن ؟

قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه فو الله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتؤمنون على دياركم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم .

فقالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم هذه فهل فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولا نترك وراءنا ثقلا يهمننا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئاً نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنتخذن النساء والأبناء .

قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما في العيش بعدهم خير .

قال : فإن أبيتم هذه الليلة ليلة السبت وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمّنوا فانزلوا فلعلنا أن نصيب من محمد وأصحابه غرة .

==

== قالوا : نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من قبلنا إلا ما قد علمت فأصابهم من المسخ ما لم يخف عليك .

قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه حازما ليلة من الدهر ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث لنا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيرهم في أمرنا .

فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال والنساء والصبيان بيبكون في وجهه فرق لهم .

فقالوا : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد .

قال : نعم .

قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم .

قالوا : بلى .

قال : فذلك إلى سعد بن معاذ وكان سعد جعله رسول الله ﷺ في مسجده في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها ربيعة وكانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخدق اجعلوه في خيمة ربيعة حتى أعوده من قريب ، فلما حكمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له وسادة من آدم وكان رجلا جسيما ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ ، وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما أكثروا عليه .

قال : قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني الأشهل فنعم لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه ، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال : قوموا إلى سيدكم فأنزلوه فقاموا إليه .

وقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك مواليك فتحكم فيهم .

فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت .

قالوا : نعم ... وقال رسول الله ﷺ : نعم .

قال : وعلى من ها هنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له .

قال سعد : فاني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء .

فقال رسول الله ﷺ لسعد : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات .

(تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٥١ ، ٢٥٣) .

(٣١٣)

تفصيلات المقطع التاسع من خلال دلالة الآيات

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ أى

وأنزل الله يهود بنى قريظة من حصونهم المنيعة بعد حصار المسلمين لهم ، فلقد خانوا المسلمين ، ونقضوا عهودهم مع رسول الله ، وانخدعوا بقول حبي الله أخطب ، حين أتاهم وقال لهم : جئتم بعر الدنيا ، جئتم بقريش والأحابيش وغطفان ... فقد اغتروا بهذا القول وتحالفوا مع الأحزاب على القضاء على الإسلام والمسلمين فى المدينة إلا أن الله أخزاهم ... وسارت الأمور على غير ما تصوروا ، فلقد أيد الله المؤمنين بريخ الصبا ، وبالملائكة ورجع الأحزاب إلى مكة ، ورجع المسلمون إلى المدينة ...

أوحى إلى رسول الله ﷺ أن انهض إلى بنى قريظة من فورك ، فأمر الناس بالسير إليهم ، وكانوا على أميال من المدينة بعد صلاة الظهر .
وقال ﷺ " لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة " .

فسار الناس فأدركتهم الصلاة ، فصلى بعض فى الطريق ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة فلم يعنف واحدا من الفريقين .

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أى ألقى الله الخوف والفرع فى قلوب

بنى قريظة حين حاصرهم المسلمون خمسة وعشرين ليلة ، وفاوضوا المسلمين ، وقبلوا حكم سعد بن معاذ ؓ حليفهم قبل الإسلام .

فاحضر رسول الله ﷺ سعدا ؓ وقال له : إن هؤلاء نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت .

فقال : وحكمى نافذ فيهم ؟

قال ﷺ : نعم .

فقال سعد : إني أحكم أن يقتل مقاتلوهم ، وتؤخذ أموالهم ، وتسبى درارتهم .

(٣١٤)

فقال ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى .

وهكذا تم القضاء على بنى قريظة بالقتل والسبي وأخذ الأموال .

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ أى أنكم بعد حكم سعد بن معاذ

أخذتم تقتلون فريقا من بنى قريظة وهم المقاتلون ، وتأسرون السبايا نزولا على حكم سعد .

﴿وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أى وأورثكم الله أيها المؤمنون

أرض اليهود ، ومزارعهم ، ومنازلهم ، وأموالهم ، وتطهرت المدينة من أوزارهم ، ورجسهم .

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطْهَوْهَا﴾ أى وقدّر الله لكم أن تراثوا أرضا أخرى لم تصلوا

إليها بعد ، وستراثونها حين تطوها أقدامكم ، وتصلون إليها فإنها ستصير ملكا لأمة المسلمين ... وهذا إعجاز تحقق للمسلمين على مدار التاريخ فقد ورثوا ممالك فارس والروم ، وانتشر الإسلام فى الأرض ، وصارت البلاد أرضا لله يملكها المسلمون .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ وكان الله قادرا على نصركم

وهزيمة الأحزاب والقضاء على بنى قريظة ، وسيستمر نصركم بقدرته سبحانه وتعالى .

- ٣ -

معنى المقطع التاسع

يبين المقطع التاسع أن الله قضى على بنى قريظة ، فنزلوا من حصونهم

، وقذف الرعب فى قلوبهم ، فرضوا بحكم الله فيهم كما قضى فيهم سعد بن معاذ

ﷺ .

وهكذا :

(٣١٥)

أتم الله نصره ، وأعز جنده ، وظهر المدينة من بنى قريظة الناقضين
لعهدهم مع رسول الله ﷺ ، وبذلك تطهرت المدينة من اليهود جميعا .



ركائز الدعوة

من آيات غزوة "الأحزاب"

تتضمن آيات غزوة "الأحزاب" عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الابتلاء ضرورة إيمانية

علم الله محيط بخلقه ، وقدرته شاملة لكل أمر ، وقد قضى سبحانه أن
تسير الحياة الدنيا على سنن البشر ليظهر في الناس الصادق في إيمانه ،
والكاذب في دينه وحياته ، ويقيم الحجة ، ويمنع أعدار الكاذبين .

وكان في مقدور الله أن يهزم الكافرون بـ "كن" وينتصر المسلمون بمثلها
إلا أنه سبحانه وتعالى جعل أعمال الدنيا تتحرك بصورة بشرية عادية ، ولذلك
كان الابتلاء ضرورة لإظهار معادن الناس ، وإبراز ميولهم ورغباتهم وقطع
أعدارهم ، وحتى يشهدوا على أنفسهم بأنفسهم .

إن الابتلاء يشمل الخير والشر ينزلان بالناس فتنة لهم ، وإبرازا لميولهم
وعبوديتهم لربهم ... يقول الله تعالى :

﴿ وَتَبْلُوَكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ^(١) .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٣٥ .

(٣١٦)

- ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ^ط فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) .

- ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ^ع وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْغَفُورُ ﴾ (٢) .

وقد قرر علماء الإنسانيات بتجاربهم الحديثة أن الإنسان يتأثر بالمواقف
الكبيرة المفاجئة ، ويتعامل معها بصورة تلقائية تعبر عن مكنون نفسه ، وخواطر
روحه ، ويظهر موقفه من الإيمان بلا التواء .

إن المؤمن حين الابتلاء يعود لربه القدير ، فيشكره على السراء ، ويرجوه
حين الضراء ، ويستمر يقينه بربه ، ولا يبتعد عنه بهلع أو جزع ، أو بسرور
وفرح .

وفى يوم "الأحزاب" عاش المؤمنون مع ربهم ، ورأوا آياته الكبرى ، وهم
يحفرون الخندق ، ولم يتركوا إيمانهم فى المواقف الشديدة ، فتحملوا البلاء ،
وصبروا على الأذى ، وظلوا مؤملين فى نصر الله وقالوا : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ ^ع وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

أما غير المؤمنين فإنهم انتكسوا على أعقابهم ، وأعلنوا نفاقهم عند البلاء
وظنوا ظنونا كثيرة وقالوا : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٤) .
إن الامتحان يظهر النتائج ، والابتلاء يميز الخبيث من الطيب .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٣ .

(٢) سورة الملك ، الآية ٢ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢٢ .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ١٢ .

(٣١٧)

والدعاة مسئولون عن تعريف الناس هذه الحقيقة ، وتهيئتهم لتقبل قدر الله فيهم ، والتسليم لما يحل بهم، لأن كل أمر في قدر الله موزون ، وله غاياته ونتائجه التي لا يعلمها إلى الله .

وليسأل الإنسان نفسه :

- هل جنى أهل الجزع والهلع خيرا ؟
- وهل غير إنسان من القدر شيئا ؟
- وهل يعلم الإنسان غيبا ؟
- وهل الخضوع لقدرة الله البادية في ملكه أولى أم المعارضة والمخالفة وهي لا تفيد ؟

إن العاقل هو من ينظر إلى أحداث التاريخ كله ليرى قدرة الله في حركتها ، وانطلاقها ... ويرى عجز الإنسان وضعفه في الأمور كلها ، وهو في أمور نفسه أوضح .

ليستعد المؤمن للبلاء ليسعد ، وحتى لا تكسره الرياح ، ولا تغرقه الأمواج :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ ^(١) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴾ ^(٢) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ^(٣) .

الركيزة الثانية

صدق المؤمنين الدائم مع الله تعالى

أرسل الله تعالى رسله لعباده ، وختمهم بمحمد ﷺ فاتبعه فريق من الناس وآمنوا برسالته ، وانقادوا لحكم الله تعالى .

(١) سورة البروج ، الآيات ١٦ . ١٢ .

ويتجلى الصدق والإخلاص فى أعمال المؤمنين وأخلاقهم قبل الابتلاء وبعده ، وسبب ذلك أنهم ﴿ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ^(١) ﴾ وأنهم ملأوا حياتهم بأنفسهم بذكر الله تعالى ، وسعدوا بالمعية الدائمة

مع الله تعالى لا يرضون لها فكاكا ، ولا يقعدون عنها كسلا ، أو نكوصا .
إنهم يصدقون بالحقيقة كلها ، ويعلمون أن الله هو خالقهم ، ورازقهم ، والمتصرف فيهم ، وفى المخلوقات كلها ... ولذلك آمنوا به ... وعلموا أن كل شئ بيد الله : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٢) ... ويعلمون أن الله جعل لكل شئ قدره ، وأنه مقدر النصر والهزيمة وإن كل شئ بيده ، ولذلك يلتزمون بطاعته والانقياد له ، ويوفون بعهده الذى عاهدوا الله عليه ، فمنهم من حقق غايته : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ ^(٣) .

لقد تجلت صور الإيمان يوم "الخنق" ، وبذل المؤمنون جهدهم لله ورسوله ، فسدوا على العدو كافة مساريه إلى المدينة ، ولم يقبل الأنصار أن يتنازلوا عن ثلث ثمار المدينة لأعدائهم حتى ينصرفوا عنهم ، وتمسكوا بعزة الإسلام ، وأبوا الصغار أمام أعداء الله فنصرهم وأيديهم ، وتمسكوا بما آمنوا به وقالوا : إن الإسلام زادنا كرامة وعزة .

(١) سورة محمد ، الآية ٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢٣ .

الركيزة الثالثة

ولله جنود السموات والأرض

ينصر الله عباده المؤمنين ، ويخذل عدوهم ، وقد تجلت عناية الله بالمؤمنين فى يوم "الأحزاب" فى صور عديدة ... منها :

(١) هياً الله المؤمنين ليستفيدوا بالفكر الفارسى فى الحرب ، فحفروا الخندق بمشورة سلمان الفارسى ﷺ ، فحقق بذلك وحدة المؤمنين ، وأكد أن الأحرار والموالى متساوون فى الحقوق ، ولم يعارض أحد سلمان لأنه ليس عربياً أو حراً كما فتح الاجتهاد فى أمور الدنيا ، والاستفادة بكل الآراء ما لم تتعارض مع أصول شرعية .

(٢) بشر رسول الله ﷺ أصحابه بالنصر والتمكين وهم يحفرون الخندق قبل مجئ الأحزاب عنده ، وهذه يقوى الروح ، ويمتن العزيمة ، وقد بقى المسلمون يؤملون فى النصر مع أن الهزيمة قربت منهم فى أحيان كثيرة .

(٣) لما اشتد الأمر على المسلمين أرسل الله جنده على الأحزاب فدمرهم وردهم من حيث أتوا خائبين ملعونين .

وقد ظهر جند الله فى الرياح العاصفة التى هبت ، وملائكة الله التى تحركت ، والسياسات الحكيمة التى هدى الله المسلمين إليها ، وسفاره نعيم بن مسعود ﷺ بين اليهود والأحزاب .

لقد جاء نصر الله من حيث لا يتصوره أحد ، والحمد لله فقد نصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

الركيزة الرابعة

ظهور المنافقين وأخلاقهم

المنافق عدو للإسلام وللمسلمين ، وخطورته تتشأ من كونه واحداً من المؤمنين ، يدعى أنه منهم ، وهو بذلك مخادع كاذب .

(٣٢٠)

وقد كشفت غزوة "الأحزاب" كثيرا من أخلاق المنافقين ... وأهمها :

(١) **تشبيط المؤمنين عن الإيمان** ، يسعى المنافقون بين المؤمنين لإضعاف

عزيمتهم ، وصرفهم عن دين الله تعالى ، ولذلك ينتهزون لحظات الشدة وينادون المؤمنين ليركوا محمدا ، ويرجعوا إليهم وإلى كفرهم .

(٢) **شدة الجزع والخوف** ، إذا اشتد البلاء بالناس نرى المنافقين خائري القوى

، فاقدى الفهم ، تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، لدرجة أنهم بسبب خوفهم لم يتصوروا أن الأحزاب تركوا الخندق ، ورجعوا إلى حيث أتوا .

(٣) **تتبع أخبار المؤمنين** ، يعرف المنافق إنه عدو للإيمان ، ولذلك يقعدون

حين الجهاد ، ويكتفون بمعرفة أخبار المسلمين فى المعرفة ليغيروا مواقفهم بتغير أخبار المسلمين ، ولو ألجأتهم الظروف إلى الوجود مع المسلمين عند القتال ، فإنهم يتحركون رياء وسمعة ، ولا يقفون أمام البأس إلا قليلا .

(٤) **إنهم دعاة هزيمة وانكسار** : يقعدون فى المواقف الجادة ، ويشكون فى

وعد الله ، وفى انتظار المسلمين .

(٥) **إنهم ليسو بمؤمنين** : إن المنافقين ليسو بمؤمنين ، فهم يحبون الكفر

ويسارعون إليه ، ولو تمكن الأحزاب من اجتياح المدينة لكانوا معهم .

إن المنافقين فى كل مجال خطر عليه ، لأنهم غير صادقين ، وغير أمناء ، ويحاربون الله ورسوله ... ولذلك وجب الحذر منهم ، والاستفادة من دروس القرآن وهو يعرف بهم ، ويبين طرق مقاومتهم والتخلص منهم ، والحذر الدائم من تأمرهم ، وكيدهم ، وخداعهم .

الركيزة الخامسة

تطهير المدينة من اليهود

تأسست دولة الإسلام في المدينة بعد الهجرة ، وفيها قبائل اليهود مع الأوس والخزرج ، وكتب النبي لقبائل اليهود ما يحقق لهم الأمن ، ويصون الحقوق ، ويعرفهم بالواجبات ليعيشوا مع المسلمين في دولة المدينة المنورة .

إلا أن اليهود أخفوا عداوتهم ، وأخذوا ينتظرون الظروف المناسبة للقضاء على الإسلام والمسلمين ... فتحالفوا مع المنافقين ، وساروا لأهل مكة وحرصوهم على رسول الله ﷺ ... وكان الرسول والمسلمون لهم بالمرصاد فأجلوا بنى قينقاع ، وبنى النضير عن المدينة بعدما خانوا عهودهم وعملوا على نشر الفحشاء في المدينة ، وقتل رسول الله ﷺ ، ولم يبق فيها إلا بنو قريظة ، الذين عاهدوا رسول الله ﷺ على الاستقامة ، وعلى عدم التحالف مع أعدائه من أهل مكة وغيرهم .

ولم يستمر بنو قريظة على عهدهم ، فقد خانوا رسول الله ، ونقضوا عهودهم معه ، وتحالفوا مع الأحزاب ، وأصبح المسلمون بعد حفر الخندق بين فكي الكماشة ، الأحزاب من خارج المدينة ، وبنو قريظة من داخلها .

وأذن الله للمؤمنين بالنصر ، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وأمر المسلمين بقتال بنى قريظة ، فذهبوا إلى ديارهم ، وحاصروهم حتى أنزلوهم على حكم الله تعالى ، وقضى الله عليهم بحكم سعد بن معاذ ؓ فيهم وتطهرت المدينة كلها ، وورث المسلمون أرض اليهود ، وديارهم ، وأموالهم وظهر أمر الله وهم كارهون .

إن اليهود أعداء المسلمين معروفون بالأنانية والعزلة ، ومن ديدنهم التآمر السرى الخبيث ، واستغلال غيرهم لأهدافهم .

وهم اليوم ...

وراء فساد المال ، وتآمر الأعلام ، وقد تمكنوا من التخطيط والتنفيذ حتى صارت لهم دولة استولوا عليها واغتصبوها من بلاد المسلمين .

والواجب :

الاحاطة بتاريخ اليهود ، والوقوف على أعمالهم السرية ، والمعلنة ، وأن يتمسك المسلمون بالشخصية الذاتية التي جعلها الله لهم ، وميزها بالخلق الحسن ، والعمل الصالح ، ونشر الخير بين الناس أجمعين .

ولا يصح :

إهمال مخططات اليهود ، وتركها تعيث ، وتعمل ، وتتأمر ، وتعلوا ...

ولا بد :

من المواجهة والعمل ، والتمسك بحبل الله المتين .

الركيزة السادسة

ضرورة العمل للأخرة

هزم الله الأحزاب ، وصرفهم عن المدينة ، ونال اليهود جزاءهم ، وطردوا من ديارهم وأموالهم ، وأخذ المسلمون يعملون بهدى الله ورسوله ، وذاع أمر الإسلام وانتشر ، وذلك كله قضاء الله فى الحياة الدنيا ، والمهم أن يعمل الناس لليوم الآخر حيث يسأل الله الصادقين عن صدقهم ، ويجازيهم عليه ويكشف الكاذبين ويعذبهم بنار السعير .

إن المتع الحقيقية فى الدار الآخرة ، والسعيد من استعد لها وسعى لها سعيها ، وهو مؤمن بالله ورسوله .

الجزء الثانى والعشرون

وأوله قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ .

سورة "الأحزاب" آية [٣١]

(٣٢٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توطئة :

يبدأ الجزء الثانى والعشرون من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾^(١) إلا أنى رأيت أن أضم آيات ثلاث سبقته إلى الآيات التى بدأ بها الجزء الثانى والعشرون لأنها تتناول موضوعا واحدا ، ولذلك بدأت الجزء بالآية رقم (٢٨) .

توجيه وإرشاد لأمهات المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾^(٢) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٣) يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مَّيِّنَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ^٤ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾^(٥) وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾^(٦) يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ^٧ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾^(٨) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ^٩ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ^{١٠} إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣١ .

(٢) من هذه الآية يبدأ الجزء الثانى والعشرون .

عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٨٦﴾ وَأَذْكُرْتُ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٨٧﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

بعد أن نصر الله نبيه ﷺ ، ورد عنه الأحزاب ، وفتح عليه بنى قريظة رغبت زوجاته ﷺ في متع الدنيا ، فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل ، والإماء والخدم ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق .

وتألم قلبه الشريف ﷺ بمطالبهن من توسعة الحال ، ومعاملتهم معاملة نساء الملوك ، وأبناء الدنيا من التمتع بزخرفها من المأكّل والمشرب ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في شأنهن وتخيبرهن .

فأقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ ، والناس ببابه جلوس ، والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له .

ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له .

ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلوا عليه بعد ذلك ، والنبي ﷺ جالس ساكت ، وحوله نساؤه .

فقال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك ، يا رسول الله ! لو رأيت ابنة زيد . امرأة عمر . سألتني النفقة أنفا فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : "هن حولى يسألننى النفقة" .

فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده .

فنهاهما رسول الله ﷺ وقالت عائشة وحفصة رضى الله عنهما : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

(٣٢٧)

ولما أنزل الله عز وجل الخيار ، بدأ ﷺ بعائشة رضى الله عنها فقال لها :
إنى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك .
قالت : وما هو ؟ .

فتلا عليها : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّاَزْوَجِكَ إِنْ كُنْتِ تُرِيدِينَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ .

قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى
ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نساءك ما اخترت .
فقال ﷺ : "إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثني معلما ميسرا ، لا
تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها" (١) .

ثم وعظهن ﷺ بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، وخصهن بأحكام
يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها لما لهن من مركز ممتاز بين نساء المسلمين ،
فإنهن أمهات المؤمنين ، وموضع التجلة والكرامة ، وهن فى بيت صاحب
الدعوة الإسلامية الذى منه انبعث نور الهدى والطهر ، والعفاف ، فأجدر بهن
أن يكن المثل العليا فى ذلك ، ويكن قدوة يأتسى بهن نساء المؤمنين جميعا (٢) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات فضل الله على المؤمنين ، ونصرهم على أعدائهم الذين
تحزبوا عليهم من أهل مكة ، وأعراب البوادرى ، وبنى قريظة جاءت هذه الآيات
لبيان دعائم البيت النبوى القائم على المودة والحب ، وحرية الاختيار والقرار

(١) مسند الإمام أحمد . مسند المكثرين . مسند جابر بن عبد الله ﷺ ج ٢٢ ص ٢٩١ .

(٢) تفسير المراغى ج ٢١ ص ١٥١ .

(٣٢٨)

ورعاية الله تعالى له بالتوجيه والإشارة ليكون أسوة للمؤمنين والمؤمنات حتى يعيشوا على نهج رسول الله ﷺ في بيته وسلوكه مع أمهات المؤمنين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات لأمهات المؤمنين الواجب عليهن ليكن قدوة للمؤمنين والمؤمنات .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتضمن الآيات المذكورة عددا من الأساسيات الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها أمهات المؤمنين ليكن قدوة للمؤمنات على الزمن كله ، وهذه الأساسيات ظاهرة في التوجيهات التالية :

التوجيه الأول

حرية الاختيار في القضايا الهامة

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ أي يا أيها النبي قل لأزواجك حين سألتك النفقة ، وخيرهن بين أمرين :

أولاهما : إن كن يرغبن في لذات الدنيا ، وزخرفها كما رأين في نساء يهود بنى قريظة فطلقهن ، واعط لهن ما يستحقون من نفقة على حسب الاستطاعة ﷺ كما يقول الله تعالى : ﴿ عَلَى الْمَوْسَىٰ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ ۚ حَقًّا عَلَى الْحَسَنِينَ ﴾ ^(١) وقد أمر الله رسوله بتخيير زوجاته

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٦ .

لأنه ﷺ لا يملك متاع الدنيا ، ولا يبحث عن زخارفها حتى يعطيهم ما رغبوا فيه ، ولذلك خيرهم بين واقع يعيش فيه ، وبين ما يأملون ، وقد بدأ رسول الله ﷺ بتخيير زوجته عائشة رضى الله عنها ، فلما قرأ عليها قول الله تعالى ، اختارت الله ورسوله والدار الآخرة ففرح رسول الله ﷺ باختيارها ثم دار على بقية نسائه ، وكانوا تسعا ، خمسا من القرشيات هن عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة رضى الله عنهن ... ومن غير القرشيات أربع هن زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وصفية بنت حي بن أخطب النضيرية ، وجويرة بنت الحارث من بنى المصطلق رضى الله عنهن .

ثانيهما : يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ

الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى وإن كنتم تترددون إرضاء الله تعالى ، والبقاء مع رسول الله ﷺ ، وتكتفون بنعيم الدار الآخرة ، وتقبلن مع رسول الله ﷺ شظف العيش ، وقسوة الحياة فإنه إحسان منكم ، وقبول كريم ، يعد الله لكن بسببه أجرا عظيما ، وثوابا تستحقونه على إيثاركم وحبكم لله ورسوله .

ومعنى الآيتين إن كنتم تؤثرون ما يرضي الله ، ويحبه رسوله ، وتفضلون خير الدار الآخرة ، فتخيرنه على غيره ، كما دلت عليه مقابلة إرادة الله ورسوله والدار الآخرة بإرادة الحياة الدنيا ، وزينتها فى آيتى التخيير فإن المقابلة تتحدث عن إرادتين لا تجتمع إحداهما مع الأخرى ، لأن التعلق بالدنيا يستدعي الاشتغال بأشياء كثيرة من شؤون الدنيا تلهي صاحبها عن الاشتغال بأشياء عظيمة من شؤون ما يرضي الله ، وما يرضي رسوله عليه الصلاة والسلام .

إن الله يحب أن ترتقي النفس الإنسانية إلى مراتب الملائكية ، والرسول ﷺ يبتغي أن يكون أقرب الناس إلى قلب المسلم ، وأقربهم إليه عن سار على

(٣٣٠)

طريقته لأن طريقته هي التي اختارها الله له . وبمقدار الاستكثار من ذلك يكثر الفوز بنعيم الآخرة ، فالناس متسابقون في هذا المضمار ، وأولاهم بقصب السبق فيه أشدهم تعلقا بالرسول ﷺ ، وأولى الناس بذلك أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام .

وانتهى التوجيه إلى اختيار أمهات المؤمنين رضى الله عنهن البقاء مع رسول الله ﷺ ، وترك حظوظ الدنيا ، ويكفيهن أنهن يعشن في بيت ينزل الوحي فيه ، ويصاحبن رسول الله ، ويخلصن الله تعالى ، ويسعدن في الآخرة .

- ٤ -

معنى التوجيه الأول

يبين التوجيه الأول أن رسول الله ﷺ لما جاء نسوته إليه يرغبن في متع الحياة الدنيا ، وزخرفها بعدما رأوا نساء بنى قريظة خيرهن بين أمرين ، فإن أرادوا الحياة الدنيا ومتعتها فليس أمامه إلا طلاقهن ، لأنه لا يملك ما يرغبون ولا يريده ... وإن كن يرغبن في الزهد والتقشف ، ويعشن مع رسول الله أمهات للمؤمنين فلهن ما يخترن .

وقد اخترن رضى الله عنهن البقاء مع الزهد والتقشف زوجات لرسول الله ﷺ ، ووضح بذلك ضرورة قيام الحياة الزوجية على المصارحة ، والتفاهم ، والتشاور ، والاختيار الحر .

ونلاحظ ملمحا هاما من عائشة رضى الله عنها حين طلب منها رسول الله أن تستأذن أبويها فقد ردت على الفور وقالت : أفيك استأذن أبوى يا رسول الله إنى اختار الله ورسوله ...

(٣٣١)

ولما أرادت من رسول الله أن يكتم على نسائه اختيارها لإظهار الحقيقة
منهن ، عرفها رسول الله بأنه سيخبر زوجاته بموقفها ليؤكد ﷺ أنه حريص
عليهن جميعا ، وليستقدن بما فعلت عائشة رضى الله عنها .

التوجيه الثانى

مضاعفة الجراء لأمهات المؤمنين

﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ
ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى اعلمن يا نساء النبى أن
منزلتكن عالية فانتن أمهات المؤمنين ، والوحى ينلى عليكم صباح مساء ،
وتتمتعن بنور النبوة فى كل لحظة ، ولهذا سوف يحاسبكم الله بشدة ، فمن تأت
مكن بمعصية ظاهرة فإن الله يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين .
وقد ذكر العلماء صورا للفواحش الظاهرة التى جعلتها الآية سببا لمضاعفة
العقوبة مثل الطلب من رسول الله ما يشق عليه ، ولا يجده ، فإن هذا يؤلمه ،
ومنه النشوز ، وسوء الخلق ، وعدم الطاعة ، والفاحشة المبينة هى المعصية ،
وليس المراد منها ما اشتهرت به بين الناس .
ومن المعلوم أن الفاحشة إذا وردت فى القرآن نكرة فهى المعصية وهى
التى هددت بها الآية أمهات المؤمنين .

﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أى ومن يطع الله ورسوله مكن ويعملن
للاخرة ، ويصلحن أقوالهن وأعمالهن ، فإن الله يضاعف لها حسنات أعمالهن
فإن كان المؤمنون يجزون الحسنة بعشر أمثالها فإن الله يجازى أمهات المؤمنين

(٣٣٢)

الحسنة بعشرين مثلاً ... ويزيدها الله كرامة في الدنيا وفي الآخرة ، فلها منزلتها بين المسلمين في الدنيا ، ولها رفيع الدرجات في الآخرة مع زوجها رسول الله ﷺ

- ٢ -

معنى التوجيه الثاني

تبين الآيات لنساء النبي ﷺ أن الله يضاعف لهن الحسنات كما يضاعف عليهن العقوبات فمن تأتي منهن بمعصية يضاعف لها العذاب ، ومن تأت بطاعة وعمل صالح تثاب مرتين من مثل ثواب المؤمنين . وهذا يبين منزلة أمهات المؤمنين ، فهن رضوان الله عليهن لم يقعن في معصية ، وكل أعمالهن طاعة لله تعالى ، وبعد عن المعاصي .

التوجيه الثالث

عدم الخضوع بالقول

﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ ينادى الله تعالى أمهات المؤمنين بما يشرفهن ، ويعلى مقامهن عن المؤمنات جميعاً ، فهن نساء النبي وهن أمهات الأمهات ، وقد شرفن عن سائر النساء بصحبة النبي ﷺ . وتعرفهن الآية أنهم متميزات عن سائر النساء ، لا يشبهن أحداً ، ولا يلحق بهن في الفضيلة والمكانة أحد .

﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ أى إن كن راغبات في الاستمرار على التقوى ، والمقصود الهاب مشاعرهن ، ودعوتهن على الزيادة في التقوى ، ومعنى الشرط دمن على التقوى .

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ أى دمن على التقوى ، وتجنبن رخامة الصوت ، ولين الكلام حتى

(٣٣٣)

لا يطمع منافق ، أو ضعيف الإيمان فيكن ، وقلن قولاً بعيداً عن الريبة حتى لا يطمع فيكن أحد .

وذكر بعض العلماء أن معنى ﴿ أَتَّقِينَ ﴾ استقبلتن ، والمعنى إن استقبلتن أحداً من الرجال فلا تتحدثن معه بصوت رقيق رخيم حتى لا يطمع فيكن من فى قلبه مرض .

ورأى هؤلاء أن هذا التفسير أولى حتى لا يتعلق فضلهم ، ولا نهيهن عن الخضوع بالقوى ، إذ هن متقيات لله فى أنفسهن قبل الشرط وبعده .
والقول المعروف هو الكلام الواضح الخالى من الليونة والرخامة التى تتحدث به المرأة مع زوجها .

- ٢ -

معنى التوجيه الثالث

توجه الآيات أمهات المؤمنين إلى ضرورة خلو حديثهن من اللين والرخاوة ، والتأنت حتى لا يطمع فيهن منافق مريض ، وتوجههن إلى القول السديد ، القوى ، الخالى من أى عوج ، فإنه يؤدى إلى الحق والصواب .

التوجيه الرابع والخامس

المكث فى البيت وعدم التبرج

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أى الزمن بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا لضرورة فإن المكث فى البيت أكرم للمرأة ، وأحفظ لها من عيون السفهاء ، والسنة الأفاكين ، والمرأة حينما تكون فى بيتها تكون أقرب لربها ، وأكثر ذكراً له . يقول ﷺ : "إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها"^(١) .

(١) مسند البزار ج ٥ ص ٤٢٨ .

ومجمل هذا الأمر ملازمة بيوتهن فيما عدا ما يضطررن فيه إلى الخروج
مثل موت أحد الأبوين ، وقد خرجت عائشة رضى الله عنها إلى بيت أبيها أبي
بكر رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه ، كما دل عليه حديثه معها في عطيته التي
كان أعطاها من ثمرة نخلة وقوله لها : "وانما هو اليوم مال وارث"^(١) .

وكن يخرجن للحج ومع رسول الله ﷺ في بعض الغزوات لأن مقر النبي
ﷺ في أسفاره قائم مقام بيوته في الحضر ، وأبت سودة أن تخرج إلى الحج
والعمرة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وكل ذلك مما يفيد إطلاق الأمر في قوله :
﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ .

ولما مات سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أمرت عائشة رضى الله عنها المسلمين
أن يمروا عليها بجنائزه في المسجد لتدعو له ، أي لتصلي عليه ولا تخرج من
بيتها .

وقد أشكل على الناس خروج عائشة إلى البصرة في "وقعة الجمل" ، فلم
ينكر خروجها كثير من جلة الصحابة منهم طلحة ، والزبير رضى الله عنهما
وأنكر ذلك عليها بعضهم مثل : عمار بن ياسر ، وعلي بن أبي طالب رضى
الله عنهما ، ولكل نظر في الاجتهاد .

والذي عليه المحققون مثل أبي بكر بن العربي أن ذلك كان منها عن
اجتهاد ، فإنها رأت أن في خروجها إلى البصرة مصلحة للمسلمين ، لتسعى بين
فريقي الفتنة بالصلح ، لأن الناس تعلقوا بها ، وشكوا إليها ما صاروا إليه من
عظيم الفتنة ، ورجوا بركتها أن تخرج فتصلح بين الفريقين ، وظنوا أن الناس
يستحيون منها ، فتأولت لخروجها مصلحة تفيد إطلاق القرار المأمور به في
قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ وكأنه يكافئ الخروج للحج ورأت أن الأمر

(١) موطأ مالك . كتاب الأقضية . باب ما لا يجوز من النحل ج ٤ ص ١٠٨٩ .

بالإصلاح يشملها وأمثالها ممن يرجى سماع الكلمة منهم ، فكان ذلك منها عن اجتهاد .

وقد أشار عليها بذلك جمع من الصحابة وخرجوا معها مثل طلحة ، والزبير رضى الله عنهما وناهيك بهما ، وهذا من مواقع اجتهاد الصحابة التي يجب علينا حملها على أحسن المخارج ، ونظن بها أحسن المذاهب .
وأُسندت البيوت إلى الزوجات مع أنها ملك الأزواج ، وذلك باعتبار السكنى .

﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ أى لا تظهرن محاسنكن ، وزينتكن للرجال كما كان النساء يفعلن فى الجاهلية قبل الإسلام .
ونسب ذلك إلى الجاهلية لبيان أن التبرج وابداء الزينة جهل ينشر الفساد والفسوق ، ولا صلة له بدين ، فهو من مواريث الكافرين قبل الإسلام .
ووصف الجاهلية بـ ﴿ الْأُولَى ﴾ لبيان أن المراد بالجاهلية المرحلة التي سبقت الإسلام ، وقال بعض العلماء : إن الجاهلية تعنى الجهل بالله ، وابطال حقه ، والإعراض عن طريقه المستقيم ، ولذلك كان فى ذكر ﴿ الْأُولَى ﴾ إشارة إلى مرحلة عرفت بأوصافها ، ومن الممكن أن تعود ثانية بصورة كلية أو جزئية الآن وقبله وبعده .

- ٣ -

معنى التوجهين

تبين الآية ما أمر الله به أمهات المؤمنين فقد أمرهن بعدم الخروج من البيت إلا لضرورة ، كما أمرهن بعدم إبداء الزينة واستعراضها أمام الأجانب كما كان يفعل الناس قبل الإسلام .

(٣٣٦)

التوجيه السادس والسابع مداومة العبادة وطاعة الله ورسوله

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ ﴾ تأمر الآية أمهات المؤمنين بتوجيهين :

الأول : عبادة الله تعالى ، وذلك يكون بأداء الصلاة على وجهها ، واعطاء الزكاة ، والإكثار من الإنفاق ، والاستقامة على منهج الله فى كل ما أمر به أو نهى عنه .

والعبادة تشمل الأعمال كلها حين يتوجه بها العبد إلى الله تعالى سواء حددها الشرع ، أولم يحددها ... وانما خصت الصلاة والزكاة بالذكر لما لهما من الأثر الكبير فى تطهير الأقوال والأعمال والقلب والجوارح .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(٢) .

وعلى هذا يعنى الأمر بالصلاة والزكاة الأعمال كلها ، وقد أمر الله الإنسان بأن تكون حياته كلها عبادة لله تعالى . يقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠٨﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ

أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٣) .

الثانى : الطاعة المطلقة لله ورسوله فى كل عملهن وتركهن ، فرسول الله بعث ليطاع ، وأولى الناس بالطاعة هم أهله رضوان الله عليهم .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٦٢ .

وقد عللت الآية سبب هذه التوجهات فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ أى إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء آل بيت النبى ﷺ ويطهركم من دنس الفجور والفسق ، ويذهب عنكم عيبة الجاهلية .

وأهل بيته ﷺ من كان ملازما له فى بيته من الأزواج ، والإماء ، والرجال ، والنساء ، والأقارب .

عن عائشة أم المؤمنين قالت : خرج النبى ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود ، فجلس ، فأنت فاطمة فأدخلها فيه ، ثم جاء علي فأدخله فيه ، ثم جاء الحسن فأدخله فيه ، ثم جاء الحسين فأدخله فيه ثم قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾^(١) .

- ٢ -

معنى التوجيهين

يوجه الله أمهات المؤمنين إلى عبادة الله تعالى وحده ومداومة طاعة الله ورسوله ، لأن هذين التوجيهين يطهران النفس ، ويذهبان الرجس والفسوق عن الناس .

التوجيه الثامن

مداومة قراءة القرآن ومراجعة السنة

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى داومن على ذكر ما يتلو

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٥٩ .

(٣٣٨)

عليكن رسول الله ﷺ من وحى ينزل عليه قرآنا كان أو سنة ... وفى هذا بيان لعلو مقامهن ، وسبقهن سائر المسلمات فإن الوحي يتلى عليهن ، وهن مع رسول الله ﷺ بعيدا عن فسوق الجاهلية ، ورجس السفهاء .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى إن الله كان رحيمًا فى إرشاده وتوجيهاته عليما بكل خلقه .

- ٢ -

معنى التوجيه الثامن

يأمر الله أمهات المؤمنين بمداومة قراءة القرآن الكريم ومراجعة السنة النبوية ليدوموا مع الحق والخير والصواب .



ركائز الدعوة

فى آيات التوجيه لأمهات المؤمنين

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عظمة أمهات المؤمنين

لما غنم المسلمون أموال بنى قريظة ، وديارهم ، وذهبهم وجد المؤمنون فى المدينة أنهم أمام مغنم كبير ، وظنوا أن الدنيا قد أتتهم راغمة ، وظهرت رغبة زوجات النبی ﷺ فى التمتع بزينة الدنيا ، فقد أحلها الله لهم ، وملكهم إياها .

وهنا كانت عناية الله بالمؤمنين ، فذكرهم باليوم الآخر ، وقرن نعيم الآخرة بنعيم الدنيا ليختاروا لأنفسهم ، ويجب أن يوضع موقف أمهات فى هذا الإطار ،

فهـن لم يتمردن على حياتهن مع رسول الله أبداً ، ولم يخالفن رسول الله فى أمر أمر به ، وتاريخهن مع رسول الله يشهد بذلك .

فهذه أم حبيبة رضى الله عنها إحدى أزواج النبى ﷺ ، وهى بنت أبى سفيان ، ينزل عليها أبوها قبل أن يدخل فى الإسلام ، وقد جاء إلى المدينة ممثلاً لقريش ، ليلقى النبى فى شئون بين المسلمين ، وبين مشركى قريش ... نزل أبو سفيان عند ابنته أم حبيبة رضى الله عنها ، فلما أراد أن يجلس على حشية كانت هناك ، ردت أم حبيبة بغير شعور ، وبلا رفق ... وعجب أبوها لهذا أشد العجب ، واستحال كيانه كله علامة إنكار تطلب تفسيراً لهذا الأمر الغريب ... وتلقاه أم حبيبة بما يكاد يذهب بعقله : أنت مشرك ... نجس فلا تمس فراش رسول الله !! ولم يصدق أبو سفيان ما سمعت أذنه ، كما لم يصدق ما رأت عينه ، وخيل إليه أنه فى حلم مزعج ... ولكن الواقع كان أقوى من أن تعيش فى ظله الأحلام طويلاً ، فصحا الرجل صحوه مذعورة ، وانطلق مسرعاً ليهرب من هذا الموقف الذى كاد يختنق فيه .

وأم حبيبة هذه على شطف العيش كانت تنعم فى ظل رسول الله بهناء الروح ، رأت أن لا تنعم وحدها بهذه النعمة العظيمة التى تجدها فى رحاب رسول الله ، وأن يكون لأختها "رملة" بنت أبى سفيان حظ من هذا الخير الوفير فتعرض على رسول الله ﷺ ، أن يتزوج أختها .

فتقول : يا رسول الله ... هل لك فى أختى بنت أبى سفيان ؟

فيقول الرسول الكريم : أفعل ماذا ؟

فتقول : تتزوجها !

فيقول ﷺ : إنها لا تحل لى^(١) ...

(١) التفسير القرآنى للقرآن ج ٢٢ ص ٢٨٩ .

وهكذا سائر أمهات المؤمنين ، فلقد كن يتمتعن بشفافية الروح ، وصفاء القلب ، والإيمان الخالص لله رب العالمين ، وحب رسول الله ﷺ .
وقد عشن مع رسول الله ﷺ الذى اتخذته قدوة لهن . فقد كان ﷺ ينام على حشية من ليف ، ربما تناها في الليلة الباردة ليتغطى ببعضها ، كما كان له وسادة من ليف أيضا ... وكانت تمر به الليالى ذوات العدد ، لا يوقد في بيته نار ، كما تحدثت بذلك السيدة عائشة رضى الله عنها ... ومعنى هذا أن لا خبز يخبز في بيته ، ولا لحم ينضج فيأكله ... وكان صلوات الله وسلامه عليه يخييط ثوبه ، ويخصف نعله .

إن أمهات المؤمنين جمعن الصفات العالية في الإيمان والتقوى ، ولذلك سارعن باختيار الزهد والتقشف والمكث مع رسول الله بلا مشاورة ولا تردد .
إن عظمة أمهات المؤمنين منارة واضحة لا يمكن الشك فيها ، ومسئولية الدعاة تجلية هذه للناس أجمعين .

الركيزة الثانية

الرضى والمودة أساس الحياة الزوجية

خير رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين على غير رغبة منهن حين أنتهمن غنائم بنى قريظة حتى لا يضمروا في أنفسهن رغبة دنيوية ، ووضعهن أمام الاختيار الحر ، وطلب منهن ﷺ أن لا يسرعن في الاختيار حتى يفكروا ويستشيروا .
وفى هذا ركيزة واضحة للحياة الأسرية الإسلامية ، ودلالة إلى الصورة الواجبة للأسرة المسلمة ، فلا قهر ولا إكراه في الإسلام بصورة عامة ، وفى الحياة الزوجية بصورة خاصة . يقول الله تعالى :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾^(١) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(١) .

فليس للرجل أن يحمل المرأة على الحياة معه ، وهي كارهة لهذه الحياة غير راغبة فيها ، حتى ولو كانت تلك الحياة على أعلى مستوى من الكمال والإحسان ... فأياها كان واقع الأمر في الحياة الزوجية ، فإن ذلك لا يحرم المرأة حقها في اختيار الحياة التي ترضاها لنفسها ، وتجد فيها ما تستريح له ولو كان على غير جادة الطريق ... إنها كائن رشيد يحمل أمانة التكليف ، ويتلقى جزاء ما يعمل من خير أو شر ... إن المرأة كالرجل في حمل التكليف وفي الثواب والعقاب ، وإن في إمساكها في بيت الزوجية على غير ما تريد حجرا على إرادتها ، واعتداء على إنسانيتها ...

ولو أنه كان من تدبير الشريعة الإسلامية ، أن تجعل للرجل سلطانا مطلقا على المرأة يمسكها به في بيت الزوجية ، من غير رضاها لكان أولى الناس جميعا بذلك ، هو رسول الله ﷺ فإنه لن تجد المرأة أبدا ظلا كهذا الظل الطيب الكريم ، تأوى إليه ، وتغذى فيه إنسانيتها بأنوار الله ، وتعطر روحها بأنفاس النبوة وكمالاتها ...

إن إلزام المرأة وقهرها في أن تحيا في هذا الوضع الكريم في بيت النبوة هو خير محض لها ، واحسان عظيم إليها ، وريح خالص لا شك فيه لها ... ومع هذا ، فإن الله سبحانه أمر رسوله الكريم ، بتخيير نسائه ، واعطائهن هذا الحق الذي لهن ، والذي ربما كان يمنعهن الدين ، ومقام الرسول في نفوسهن من النظر إليه ، أو التفكير فيه ! فجاء هذا العرض وذلك التخيير ، أمرا من الله يرفع عنهن الحرج ، ويفسح لهن الطريق إلى ما يردن .

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٩ .

وطبيعى أن يكون هذا موقف الإسلام من المرأة ، ومن تحرير مشاعرها من كل خوف ، واخلاء وجدانها من كل قيد ، فى الصلة التي تقوم بينها وبين الرجل ...

وهذا التحرير لإرادة المرأة ، واعطائها الحق فى الإمساك بعقد الحياة الزوجية أو بنقضها فوق أنه اعتراف بحق الجانب الإنسانى فى المرأة ، وحراستها من كل عارض يعرض لها ... ، هو فى الوقت نفسه اعتراف ضمنى بقداسة الرابطة الزوجية ، ورفعها إلى مستوى العقيدة الدينية ... سواء بسواء ... فالعلاقة التي تقيمها الشريعة الإسلامية بين الزوجين علاقة مقدسة ، لها جلالها ، ولها خطرها ، فى بناء المجتمع ، وفي تماسك وحداته .

إنها علاقة نفوس ، واتصال أرواح ، وارتباط مشاعر ، وتلاقى قلوب ... ولن يكون ذلك على كماله وتمامه ، أو على شئ من الكمال والتمام ، إذا لابسه شئ من القهر أو الإكراه ، أو الحرج ...

ولا ينظر الإسلام إلى الرجل والمرأة نظرتة للملائكة ، وانما ينظر إليهم على حقيقتهم فهم يخطئون ، ويفرطون ، ويظهر النشوز من كليهما ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ ﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾^(٢) .

وهكذا نرى أن الإسلام قد وضع منهج إصلاح الأسرة ، وعلاج النشوز فيها لتبقى كما أراد الله لها رحمة ، ومودة ، وسكنا .

(١) سورة النساء ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٢٨ .

(٣٤٣)

الركيزة الثالثة

الأسوة والقُدوة للمؤمنين والمؤمنات

فى بيت النبوة

تصور لنا آيتا التخيير حياة النبى ﷺ وأمهات المؤمنين فى صورتها البشرية العادية ، وأجمل ما فى هذه الحقيقة أنها حياة إنسان ، وحياة ناس من البشر ، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم ، وسماتهم الإنسانية مع تميزهم بالخلق الكريم ، والسمو العملى ... فى إطار المشاعر الإنسانية ، والعواطف البشرية التى لم تمت فى تلك النفوس ، ولكنها ارتفعت وصفت من الأوشاب ، ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان .

وكثيرا ما نخطئ حين نتصور للنبي ﷺ ، ولصحابته رضوان الله عليهم صورة نجدهم فيها من كل المشاعر ، والعواطف البشرية حاسبين أننا نرفعهم بهذا ، وننزههم عما نعهده نحن نقصا وضعفا .

وهذا الخطأ يقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم ، وتبقى شخوصهم فى حسننها فى رقي عال بين تلك الهالات ، أقرب إلى الأطياف التى لا تلمس ، ولا تتماسك فى الأيدى ! ونشعر بهم كما لو كانوا خلقا آخر ، مجردين من مشاعر البشر ، وعواطفهم على كل حال .

ومع شفافية هذه الصورة الخيالية فإنها تبعدهم عن محيطنا ، فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر ، يأسا من إمكان التشبه بهم ، أو الاقتداء العلمى بهم فى الحياة ؛ لأن صورتهم تختلف فى أذهاننا عن الواقع الموجود .

ونفقد بذلك التجاوب الحي بيننا وبين هذه الشخصيات العظيمة لأن التجاوب إنما يقع نتيجة لشعورنا بأنهم بشر حقيقيون ، عاشوا بعواطف ومشاعر وانفعالات حقيقية من نوع المشاعر والعواطف والانفعالات التى نعانيها نحن ، ولكنهم ارتقوا بها ، وظهروها من الشوائب التى تخالج مشاعرنا .

(٣٤٤)

اختار الله تعالى رسله من البشر لا من الملائكة ، ولا من أي خلق آخر غير البشر ، كي تبقى الصلة الحقيقية بين حياة الرسل وحياة أتباعهم قائمة ، وكي يحس أتباعهم أن قلوبهم كانت تعمها عواطف ومشاعر من جنس مشاعر البشر وعواطفهم وان صفت ، ورقت ، وارتفعت ، يحبونهم حب الإنسان للإنسان ، ويطمعون في تقليدهم تقليد الإنسان الصغير للإنسان الكبير ويتعلمون منهم تعلم التلميذ من أستاذه ، وبذلك يكونون أتباعا مخلصين .

وفي هذه الحادثة نقف أمام الرغبة الطبيعية في نفوس نساء النبي ﷺ في المتاع ، كما نقف أمام صورة الحياة البينية للنبي ﷺ ونسائه رضي الله عنهن وهن أزواج يراجعن زوجهن في أمر النفقة ! فيؤذيه هذا ، ولكنه لا يقبل من أبي بكر ﷺ وعمر ﷺ أن يضربا عائشة ، وحفصة رضي الله عنها على هذه المراجعة ، فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية تصفو وترتقى ، ولكنها لا تخدم ولا تكبت !

ويظل الأمر كذلك حتى يأتيه أمر الله بتخيير نسائه ، فيخترن الله ورسوله ، والدار الآخرة ، اختيارا لا إكراه فيه ، ولا كبت ، ولا ضغط ، فيفرح رسول الله ﷺ بارتفاع قلوب أزواجه إلى هذا الأفق السامي الوضئ .

ويعيش المسلمون والمسلمات هذه الصورة الوضيئة مع رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين ، ويأخذون الأسوة ، والقُدوة منها ، ويحاول كل من الزوجين أن يؤسسا الأسرة على تعاليم الله ، ومنهج الدين للحياة .

والدعاة عليهم تقديم الحياة الأسرية لرسول الله ﷺ ، وربطها بالحياة الاجتماعية المعاصرة للمسلمين ، عسى أن يعيش المسلمون الإسلام الذي أراده الله لهم .

(٣٤٥)

الركيزة الرابعة **وضع أسس حياة العفة والطهارة** **للمرأة المسلمة**

حددت الآيات أسس بناء المجتمع الإسلامى الصحيح ، ووجهت أمهات المؤمنين إلى هذه الأسس ليكون قدوة لسائر النساء .
وهذه الأسس تحقق كرامة المرأة ، وتصور عفتها ، وتمكنها من المساهمة فى بناء المجتمع الطاهر النظيف ، وأهم هذه الأسس :

- أولا -

الصوت الجاد المعروف

الناس ليسوا على شاكلة واحدة فمنهم الطاهر ، المؤمن ، ومنهم المنافق الخبيث ، ومنهم من شغلته شهواته ، وسيطرت عليه مباحج الحياة الدنيا ، والمرأة شريك الرجل فى الحياة ، والخبثاء يحاولون الإيقاع بها ، ولذلك يأمر الله النساء بالترفع عن أخطاء الرجال ، وشهوات المفسدين بالقول الجاد الخشن الخالى من الميوعة ، والخنوثة ، حتى لا يثرن شهوات الرجال ، ولا يحركن فيهم الغرائز الجنسية ، لأن ضعيف الإيمان الذى مرض قلبه ، يجرى وراء الصوت الناعم . يقول الله تعالى : ﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾^(١) .

وحيث ندرك هذا التحذير ، ونعلم نزوله عند نزول القرآن الكريم فى حياة رسول الله ﷺ وبين بداوة العرب ندرك أهميته فى عصرنا الحديث .
لقد اخترعت المدنية من ألوان الدنس الكثير ، فمن أصوات الخلاعة والمجون ، ومن ملابس الزينة والفجور ، ومن قصص العشق والهوى ، ومن

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٢ .

أصوات لا تخجل من فحشها وفجورها ... إلى غير ذلك ... الأمر الذى يؤكد أهمية هذا التوجيه الإلهى فى صيانة المرأة ، وحفظ المجتمع ، وحماية المسلمين من فساد الأخلاق والسلوك .

- ثانيا -

احترام المرأة لشخصيتها

المرأة لها دورها الكبير فى المجتمع ، وواجب عليها أن تهتم بدورها الاجتماعى الذى خلقت له فهى أم الرجال ، وشقيقتهم ، ولولاها لا نهدم المجتمع كله ، فهى مدرسة لتخريج الأجيال ... يقول أحمد شوفى :

الأم مدرسة إذا أعددتها .: أعدت شعبا طيب الأعراق

وقد اهتم القرآن الكريم بتكوين شخصية المرأة فى صورة أمهات المؤمنين فقال تعالى : ﴿ يٰٓيٰسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾^(١) وبهذا فعليهن أن يتميزن بشخصياتهن ، ويحافظن على أدوارهن مع رسول الله ومع سائر الناس . وكان ﷺ يأتى لأهل بيته ، ويحىي فيهم هذا المعنى ليصنع منهن نساء مسلمات يعملن لله ورسوله . يقول النبى ﷺ : "يا فاطمة بنت محمد لا أملك لك من الله شيئا ، يا صفية بنت عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، سلونى من مالى ما شئتم"^(٢) .

ويقول ﷺ : "يا فاطمة بنت محمد انقذى نفسك من النار فإنى والله لا أملك لك من الله شيئا"^(٣) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٢ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ﴾ ج ١ ص ١٩٢ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ﴾ ج ١ ص ١٩٢ .

(٣٤٧)

إن المرأة المسلمة رضىت بالله ربا ، وبمحمد رسولا ، وبالإسلام ديناً ،
وعليها أن تظهر ذلك فى أقوالها ، وأعمالها ، وحياتها .

- ثالثاً -

البقاء فى البيت

تأمر الآيات أمهات المؤمنين ومن ورائهن سائر المؤمنات بالبقاء فى
البيت ، ولا تخرج منه إلا لضرورة لتصون طاقاتها ، وتؤنس زوجها ، وترعى
أبنائها ، وتساعد المجتمع فى تربية جيل طاهر أمين . يقول الله تعالى : ﴿ وَكَرَنَ
فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾^(١) .

إن وظيفة المرأة الرئيسية أن تكون زوجة وأما ، ولذلك أوجب الإسلام
على الرجل النفقة ، وجعله مسئولاً عن زوجته وأبنائه .
وقد عارضت المدنية الحديثة ذلك ، ونادت بحرية المرأة فى العمل ، وفى
التصرف المالى والخروج من المنزل ، فألحقت بها ضرراً متنوعاً .
أضرت المرأة أولاً وحملت أعباء ليست من صميم رسالتها ، وللعقل أن
يتصور المرأة تخرج من بيتها فى الصباح الباكر ، وتعود إليه عند العصر
ويسأل ماذا هى فاعلة إزاء نفسها ؟ ومع أولادها ؟ ومع زوجها ؟ إنها لن تفعل
شيئاً فهى مجهدة كليلة ... وهى بعد ذلك تعتمد على المربيات والشغالات فى
رعاية زوجها ، وتربية أبنائها ، وفى ذلك ضرر كبير أثبتته الوقائع والأحداث .
إن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن
يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب
الأرواح والضمائر والعقول ، فى عصور الانتكاس والشرور والضلال .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

فأما خروج المرأة لغير العمل للاختلاط ، ومشاهدة الملاهي ، والاستراحة في النوادي والمجتمعات وحيدة ... أو مع بنيتها فضرره كبير .

لقد كان النساء على عهد رسول الله ﷺ يخرجن للصلاة في وقار ، وحجاب ، وحشمة ، ولم يمنعهم شرع الله من هذا الخروج .

ولكنه كان زمان فيه عفة ، وفيه تقوى ، وكانت المرأة تخرج إلى الصلاة متلعة لا يعرفها أحد ، ولا يبرز من مفاتها شيء ، ومع هذا فقد كرهت عائشة رضي الله عنها لهن أن يخرجن بعد وفاة رسول الله ﷺ !

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغسل^(١) .

وعنها رضي الله عنها أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد ، كما منعت نساء بني إسرائيل^(٢) !

فماذا أحدث النساء في حياة عائشة رضي الله عنها ؟

وماذا كان يمكن أن يحدثن حتى ترى أن رسول الله ﷺ كان مانعهن من الصلاة ؟! ماذا بالقياس إلى ما نراه في هذه الأيام ؟!

- رابعا -

عدم التبرج

أمرت الآيات أمهات المؤمنين بعدم التبرج كما كانت المرأة تفعل في الجاهلية فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾^(٣) وحينما ننظر ونتأمل الجاهلية الأولى ، ونقارنها بما عليه الناس نعرف أهمية عدم التبرج .

(١) صحيح مسلم . كتاب المساجد . باب استحباب التبكير بالصباح ج ١ ص ٤٤٥ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الأذان . باب خروج النساء إلى المساجد بالليل ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

يقول مجاهد : كانت المرأة تخرج وتمشى بين الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية .

ويقول مقاتل : كانت المرأة تلقى الخمار على رأسها ولا تشده ، فيظهر قلاندها وقرطبيها وعنقها ، وذلك هو التبرج^(١) .

وقد عد القرآن الكريم هذه الصور تبرج الجاهلية ، وحذر منه ، ودعا إلى تجنبه لما فيه من فساد فى الأخلاق ، وفساد فى السلوك ، وجعله العلماء مقياسا يعرف به التبرج فى كل زمان ومكان .

وحين نرى المسلمات اليوم ندرك أن الناس يعيشون فى درك سحيق ، وخلق هابط ، حيث النساء يخرجن من بيوتهن سافرات ، عاريات ، رعوسهن كأسنمة البخت ، يتجلين بالأثواب المثيرة ومعها كشف العورات ، والتمايل فى المشى ، والتخنث فى الحديث .

إنهن يتحلين فى الطرقات ، وحين الاختلاط بأغلى الحلى ، وأجمل ما انتجت بيوت الأزياء العالمية التى لا تعرف حدودا لعورة ، ولا تعمل لقيمة أو خلق ، أكثر من تزينها فى بيتها ومع زوجها ، ولذلك وجب الستر ، وعدم التبرج.

ـ خامسا ـ

طاعة الله تعالى

تأمر الآيات المؤمنات بعبادة الله تعالى ، وطاعته فى كل ما أمر به ، أو نهى عنه ، ومداومة ذكر الله تعالى لأن ذلك يشغل النفس بالحق ، ويهذى إلى سواء السبيل .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٥٨ .

(٣٥٠)

إن هذه التوجيهات الإسلامية تعم جميع المسلمات ، والتوجه بها إلى أمهات المؤمنين لبيان أهميتها ، وتوضيح أن المسلمات مكلفات بما كلف الله به أمهات المؤمنين .

وعلى الدعاة :

أن يقدمن الإسلام كله ، ويخترن منه ، ما يناسب المدعوين ، ويبينوا للناس مدى قربهم أو بعدهم من تعاليم الله تعالى .

إن هذه التوجيهات السامية للمرأة المسلمة أحاطها الإسلام بما يؤكد أهميتها وضرورتها . فقد جاء الخطاب . أولا . لرسول الله ليأمر به زوجاته وبناته ، ونساء المؤمنات ، وليعلم المسلمون مسئولية الرجال تجاه زوجاتهم ، وبناتهم ، وليعلم الدعاة دورهم في إيصال منهج الله للناس .

والتوجيهات . ثانيا . تنثير مشاعر المرأة نحو العفة والطهارة وهي تناديهن ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ﴾^(١) حتى يحافظن على كرامتهن وكرامة أهلهن .

والتوجيهات . ثالثا . تبين الفائدة المقصودة لما يأمرهن الله به ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢) .

وكل هذا الاهتمام يوضح للدعاة المجالات الهامة التي يجب أن يعملوا لها .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

صفات عباد الله المكرمين من الرجال والنساء

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

أورد المفسرون عددا من أسباب النزول لهذه الآيات ... منها :

(١) أن أزواج النبي ﷺ قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن ، ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به ؟ ... إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فأنزل الله هذه الآية .

(٢) وعن أم عمارة الأنصارية قالت : أتيت النبي ﷺ فقلت : مالي أرى كل شئ إلى الرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشئ فنزلت : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٥٩ .

(٣٥٢)

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة توجيهات الله لأمهات المؤمنين جاءت هذه الآية لبيان ما أعده الله لعباده الصالحين من الرجال والنساء .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآية أهم صفات عباد الله تعالى من الرجال والنساء .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

تبين الآية عددا من صفات عباد الله المخلصين من الرجال والنساء وهى :

(١) ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ وهم المستسلمون لله ظاهرا وباطنا

المطبقون لأحكامه القولية والعملية من الرجال والنساء .

(٢) ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وهم المستسلمون لله باطنا المصدقون

بأركان الإيمان من الرجال والنساء .

(٣) ﴿ وَالْقَنَاتِينَ وَالْقَنَاتَاتِ ﴾ وهم المطيعون والمطيعات لما أمر الله به

ظاهرا وباطنا .

(٤) ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ وهم الصادقون والصادقات فى الأقوال

والأعمال لأن الصدق علامة الإيمان .

(٥) ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ وهم الذين يتحملون المشاق والمكاره فى

طاعة الله ، وفى أداء التكليف من الرجال والنساء .

(٦) ﴿ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَتِ ﴾ أى المتواضعون والمتواضعات لله فى

عباداتهم ، وحياتهم كلها رجاء ثوابه ، وخوف عقابه .

(٧) ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَتِ ﴾ أى المنفقون والمنفقات الأموال

واعطائه للفقراء والمحتاجين وفى سبيل الله .

(٨) ﴿ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَتِ ﴾ أى الصائمون والصائمات فقد كسروا

شهوة البطن ، وزكوا عن أبدانهم .

(٩) ﴿ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَتِ ﴾ أى الأطهار والطاهرات فقد

حفظوا فروجهم وجوارحهم عما حرم الله تعالى .

(١٠) ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ أى المكثرون لذكر الله

بقلوبهم وألسنتهم قائمين ، وقاعدين ، وعلى جنوبهم .

هؤلاء المتصفون بهذه الصفات العشرة المذكورة من الرجال والنساء هم

عباد الله المكرمون ، الاصفياء المقربون عملوا لله فى الدنيا فاستحقوا رضوانه

فى الآخرة .

يقول عطاء بن رباح رضي الله عنه من فوض أمره إلى الله ، فهو داخل فى قوله :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ ومن أقر بأن الله ربه ، ومحمدا رسوله ، ولم

يخالف قلبه لسانه فهو داخل فى قوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ومن

أطاع الله فى الفرض والرسول فى السنة ، فهو داخل فى قوله : ﴿ وَالْقَانِتِينَ

وَالْقَانِتَاتِ ﴾ ، ومن صان قوله عن الكذب ، فهو داخل فى قوله : ﴿ وَالصَّادِقِينَ

وَالصَّادِقَاتِ ﴾ ومن صبر على الطاعة وعن المعصية وعلى الرزية ، فهو

داخل في قوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ ومن صلى ، فلم يعرف من عن يمينه وعن شماله ، فهو داخل في قوله : ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم ، فهو داخل في قوله : ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾ ومن صام في كل شهر أيام البيض ، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فهو داخل في قوله : ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ ومن حفظ فرجه عما لا يحل فهو داخل في قوله : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَرِهَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَرِهَتْ ﴾^(١) .

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى أعد الله للمسلمين

والمسلمات فى الآخرة غفرانا لذنوبهم ، وثوابا عظيما فى جنات النعيم .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية صفات الرجال والنساء التى يغفر الله لهم بها ذنوبهم ، ويدخلهم فى جنات النعيم ، وتوضح الآية تساوى الرجال والنساء فى عطاء الله تعالى ماداموا تساوا فى عبادته وطاعته .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٦٠ .

(٣٥٥)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عظم عطاء الله لعباده المخلصين

ذكرت الآية عشر أوصاف يتحلى بها المؤمنون والمؤمنات طاعة الله تعالى ، واستقامة على تعاليمه للناس ، وهى صفات تظهر متلازمة في سلوك المسلمين والمسلمات ، لأنها لا تكون جزرا منعزلة ، يظهر بعضها دون غيرها لأن تكامل صفة منها في شخص واحد يعنى تمتعه بسائر الصفات ، وان تفاوتت درجاتها .

والمسلم حين يكرمه الله بهذه الصفات يسعد في الدنيا ويتحول إلى إنسان اجتماعى يألف ويؤلف ، لأن كل من حوله يثق فيه ، ويأمن له ، ويحب أن يتعامل معه ، ويسعد كذلك في الآخرة لأن الله وعده بمغفرة الذنوب والأجر العظيم .

وليس هنا من فوز أعظم من فوز يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة .

الركيزة الثانية

تكامل صفات المؤمن

تتحدث الآية عن عشر صفات تأخذ المسلم إلى الله تعالى ، وهى على ترتيبها في الآية تتكامل وتتناسق .

فالإسلام الذي جاء بهذه الصفات هو أول درجات السلم ، الذي يرقى فيه المرء إلى منازل الشريعة ، وهو المدخل ، الذي يدخل منه إلى دين الله ... والإيمان ... هو العروج بالإسلام إلى موطنه من القلب ، وبه يتحقق التصديق التام واليقين الخالص .

والفتوت ... هو استجابة القلب ، وتقبله لهذا الإيمان الذي استقر فيه واطمأن به ، وظهر في أقوال اللسان ، وأعمال الجوارح .

والصدق ... هو نبتة نبتت من بذرة الإيمان في القلب تظهر على اللسان ، ويعرف بها المسلم ويتأكد بها الإيمان لأن من علامة المؤمن أنه إذا قال صدق ...

والصبر ... هو الغذاء الذي تنمو خلاله الصفات السابقة وتقوى ، لا تضرها أذى ، ولا يزيلها ضجر أو قنوط ، ويستمر المسلم مع صفاته حتى تعطى الثمر المرجو منها ...

والخشوع ... وهو الولاء لله ، والامتثال لأمره ، وهو الطريق الفسيح الذي يحقق النصر والفوز ، حيث يفوز الخاشع المطيع بحب الله له ، وصار سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها^(١) ...

وبعدما يكمل المؤمنون في ذواتهم ينتقلون إلى مرحلة تكميل غيرهم ، ويظهر فيهم المتصدقون والمتصدقات ، والصائمون والصائمات ، والحافظون فروعهم والحافظات ، ويستمرون في ذكر الله تعالى .

إن هذه الصفات هي الإنسان المسلم في مخبره ومظهره ، وفي مكوناته العقلية ، وسلوكه العملى .

واتقان العمل بها هو منهج صناعة الإيمان في الأفراد والمجتمعات .

(١) التفسير القرآنى للقرآن ج ٢٢ ص ٧١١ .

قصة زينب بنت جحش ”رضى الله عنها“

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٢٨) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ۗ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيِّ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۗ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٢٩) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۗ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣٠) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣١) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٣٢) .

- ١ -

سبب نزول الآيات

نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها وأخيها عبد الله بن جحش رضي الله عنه ، وأمهما أمية بنت عبد المطلب رضى الله عنها عمة رسول الله ﷺ ، وذلك أن النبي ﷺ خطب زينب لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وتبناه فلما علمت زينب رضى الله عنها أنه ﷺ يخطبها لزيد بن حارثة رضي الله عنه أبت وقالت : أنا ابنة عمك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسى ، وكانت بيضاء جميلة وفيها حدة

، وكذلك كره أخوها ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ﴾ يعني عبد الله بن جحش : ﴿ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ يعنى أخته زينب : ﴿ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ يعني نكاح زيد لزينب ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْحَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ أى ليس لهم الاختيار على ما قضى الله .

والمعنى أنهم يريدون غير ما أراد الله أو يمتنعون عما أمر الله ورسوله به ﴿ وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ أى أخطأ خطأ ظاهرا فلما سمعت بذلك زينب وأخوها رضيا وسلما ، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ ، فأنكحها زيدا ، ودخل بها ، وساق رسول الله ﷺ إليهما عشرة دنانير وستين درهما وخمارا ، ودرعا ، وملحفة ، وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة صفات المؤمنين والمؤمنات جاءت هذه الآية بصورة تطبيقية لهذا الصفات .

- ٣ -

موضوع الآيات

الآيات تبين قصة زينب بنت جحش رضى الله عنها ، وزواجها من زيد بن حارثة قبل زواجها من رسول الله ﷺ ، وتبين الحكمة والأحكام المأخوذة من هذه القصة وأساسها رفع الحرج في زواج زوجة الابن بالتبني وكانت الجاهلية تمنعه .

(١) شرح الشفا للقاضى عياض . باب فيما يخصهم في الأمور الدنيوية ج ٢ ص ٣٤٦ .

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ أى ما صح وما جاز لمؤمن ولا مؤمنة أمام حكم الله تعالى أن يختار لنفسه حكما آخر يغير حكم الله تعالى .

﴿ وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ أى ومن يخالف حكم الله تعالى ويأباه ، ويختار حكما آخر لنفسه فليس بمؤمن ولا مؤمنة ، فقد بعد عن الطريق المستقيم ، وسلك غير سبيل الهدى والرشاد .

وقد بين سبب نزول الآية أنها نزلت في شأن زينب بنت جحش وأهلها حينما أبوا في البداية أن يتزوج زيد بن حارثة رضي الله عنه زينب رضى الله عنها ، فلما علموا أن زواج زينب من زيد هو حكم الله أمضوه ، وكانوا من المؤمنين .

وزيد بن حارثة رضي الله عنه هو ابن رسول الله بالتبني ، وكان العرب يسمونه زيد بن محمد ، وكانوا يرون الابن بالتبني يرث كما يرث الابن الحقيقى ، ويذهبون إلى أن التبني يحرم زواج الأب من تزوج نساء ابنه المتبنى إذا طلقهن.

وزينب بنت جحش رضى الله عنها هى ابنة عمة النبی ﷺ تميزت بالجمال والحسن ، ورفعة الشرف والنسب ، وقد نزلت على حكم الله تعالى وحكم رسوله ، وتزوجت زيدا ، وكانت تشعر بنعم الله لها ، وترى أنها تزوجته مولى ، ورغبت في الطلاق والفرار ... فأعلم الله رسوله بأن زيدا سيطلق زينبا ، فأخفى النبی ﷺ ما علمه من ربه ، ولم يخبر به زيدا فعاتبه الله وقال له :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ أى اذكر يا محمد مقاتلك لزيد الذى توليت أمره ، وعلمته الإسلام ، وأنعمت عليه بحسن التربية ، واعتقته ، وقريته منك ونصحت به بما تعلم أنه لن

(٣٦٠)

يتم فلقد علمت بأنه سيطلق زوجته ... ومع ذلك قلت له : لا تطلق زوجتك ، وامسكها ، واتق الله في أمرها ، واصبر عليها ، ولا تطلقها ضاررا ، وتعللا بشموخها ، واعتزازها بجمالها وحسنها فإن الطلاق يؤذيها واتق الله فيها ، ولا تؤذيها ...

وفى هذا عتاب للنبي ﷺ لأن ما بينه وبين زيد من قرب لا يحتاج منه ﷺ أن يأمره بخلاف ما علم أنه سيكون .

﴿ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا أَلَّهِ مُبْدِيهِ ﴾ أى ما كان يصح منك أن تخفى في نفسك ما كنت تعلمه ، وتعلم أن الله سيبيديه ويظهره .

﴿ وَخَشِيَ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ ﴾ أى أنك يا محمد أخفيت خبر طلاق زينب عن زيد ، وأخفيت زواجك منها مخافة اعتراض الناس ، والله وحده الذى قضى بذلك ، وعرفك به ، وهو أحق أن تخشاه وحده ، وكان عليك أن تمضى في الأمر قدما ، رضى بحكم الله ، وتطبيقا لشرعه ، لا يضرك قول قائل ، ولا اتهام كذوب فتحكى لزيد ما أخبرك الله به ، وتعرف الناس بما قضى الله به .

﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾ أى لما دخل زيد بزينب وقضى حاجته ، وعاش معها مدة ملها ، ثم طلقها وبعد ذلك أمرناك بالزواج منها ، وجعلناها زوجة لك ، فدخلت بها .

﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ أى قضى الله بتزويجك يا محمد من زينب للقضاء على عادة موجودة قبل الإسلام وهى عدم زواج الآباء من زوجات من تبنوهم ، وبهذا رفع الحرج ، وظهر حكم الله نظريا وعمليا ، وهو جواز زواج الآباء من زوجات أبنائهم بالتبني .

﴿ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى إذا دخل الابن الدعى بزوجه وعاش معها

زمنًا ، فلا مانع من أن يتزوجها من تبناه بعد فراقها من زوجها .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أى إن أمر الله وقضائه واقع لا محالة ،

وقد أمرك الله بأن تتزوج زينب بعد طلاقها ، فصارت زوجة لك ، وأما للمؤمنين مع زوجاتك الأخريات .

روى البخارى : أن زينب رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات" (١) .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : "كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبي ﷺ إني لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدى وجدك واحد ، واني أنكحك الله إياى من السماء ، وإن السفير جبريل ﷺ" (٢) .

وكان ﷺ يقول : "إن المزوج الله ، والشاهد جبريل" (٣) .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى ليس على

النبي ﷺ أى حرج في تنفيذ ما أمر الله به ، وتطبيق شرع الله تعالى في شئون زواجه ، وحياته كلها .

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى تلك سنة الله في الأنبياء

السابقين ، فقد تزوجوا ، واقتنوا الإماماء ... ولا لوم عليك يا محمد في تكثير

(١) صحيح البخارى . كتاب التوحيد . باب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى أَلْمَاءٍ ﴾ ج ٩ ص ١٢٤ .

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٠ ص ٢٧٦ .

(٣) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٦٣ .

الزواج ، فشأنك شأن الأنبياء السابقين الذين مضوا قبلك ، فأنت واحد منهم ، شرع الله لك ما شرعه لهم ، وقدر لك ما قدر لهم .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ وكان قدر الله لأنبيائه جميعا قضاء

لازما لا محالة في ظهوره ووقوعه .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾

أى أن الرسل جميعا ، وأنت منهم يا محمد اختارهم الله ، وأرسلهم للناس لتبليغ رسالات الله ، وتبليغ دينه ، فهم يعملون على هدم الأصنام ، ونشر دين الله ، وإقامة النظام على منهج الله تعالى ... فيقومون بذلك بلا خشية من أحد أبدا إلا الله فكن مثلهم يا محمد ، ولا تعد لمثلها ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى وكفى الله رسله أى يمدهم بوحيه ، ويحافظ

عليهم ، وكفى الناس حين يؤمنون به ، يطبقون شريعته ، ويلتزمون بالأخلاق الكريم ، فهو سبحانه وتعالى سيحاسب الأنبياء والرسل والناس أجمعين ، وهذا كاف في تحقيق العدل ، والرحمة ، والثواب الجميل .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أى إن محمدا ﷺ ليس

أبا أحد من رجال العرب ، وله أن يتزوج من يشاء ، وليس عليه أن يخشى أحدا إن تزوج بزوجة من تنبأه إذا فارقها زوجها الأول .

﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ أى إن محمدا ﷺ رسول الله

وخاتم النبيين فهو أب لكل مؤمن إلى يوم القيامة ، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم يحرص عليهم ، ويدعوهم إلى الحق ، ويبين لهم الطريق ، ويهديهم سبيل الرشاد ... ويسعد الصالحون بلفائه فى الآخرة .

(٣٦٣)

وقد أجمع الصحابة ، والتابعون ، والعلماء على أن محمدا ﷺ خاتم الرسل والأنبياء ، عرفوا ذلك ، وتواتر ذلك بينهم وفي الأجيال من بعدهم ، ولذلك لم يترددوا في تكفير مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي حينما ادعى النبوة ، وصار معلوما من الدين بالضرورة إن محمدا خاتم النبيين والمرسلين فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ، ولو كان معترفا بأن محمدا ﷺ رسول الله للناس كلهم وقد ادعى الباب ومن بعده البهاء رسولا البابية والبهائية أنهما نبيان ، يأتيهما الوحي لتجديد الإسلام ... وهذا افتراء يناقض الحق والإجماع ، ويلحق من قال به بالكافرين .

وعلى طول الزمن ظهر كفار عديدون ، ادعوا النبوة ، وجعلوا لأنفسهم دعوة جديدة .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى وعلم الله شامل تام بكل شئ وسيحاسب الناس عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

فإن قيل : كيف يقال : إن النبي لم يكن أباً لرجل مع أن الله رزقه البنين ؟ أقول : إن الله رزقه الذكور وقد ماتوا صغارا قبل أن يصيروا رجالا وهم القاسم ، والطيب ، والطاهر ، وإبراهيم ، وقد ماتوا صغارا رضوان الله عليهم ... كما رزقه الله من الإناث زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة رضى الله عنهن .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المؤمنين والمؤمنات لا يختارون لأنفسهم مع خيار الله تعالى ، وتستعرض قصة زينب بنت جحش مع زيد رضى الله عنهما ، ومع رسول الله ﷺ ، وتبين الحكم والأحكام الشرعية المستفادة منها .

(٣٦٤)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

لا خيار لمؤمن بعد حكم الله تعالى

عقل الإنسان وفكره محدود بالزمان ، والمكان ، والذوات ، ولذلك فالإنسان لا يدري من الغيب شيئا .

أما علم الله تعالى فهو علم أزلي أبدى شامل لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ... خلق الخلق ، وأنزل دينه ، وشرع للناس نظمه ، ووضح أحكامه ، وصار الإنسان أمام طريقين :

الطريق الأول : التسليم المطلق لحكم الله تعالى ، فهو سبحانه يملك الوجود ، وبصرفه كما يشاء ، وما الإنسان فيه إلا ذرة صغيرة ، وعليه أن يستسلم لمحرك الوجود كله .

لقد بعث الله رسوله في الناس ، فعرفهم بالله ، ودعوا إلى حكمه الشامل فاستسلم المؤمنون لله ، ورضوا بحكمه ، وعاشوا على الإيمان به ، وتيقنوا بأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا أمام قدرة الله تعالى .

إنه الاستسلام المطلق لله الذي يقود خطاهم ، وبصرف حركاتهم ، وهم مطمئنون للقدرة التي تقودهم ، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين ، سائرون معها في بساطة ويسر ولين .

والمسلمون مع هذا التسليم يعملون ما يقدرون عليه ، ويبذلون ما يملكون ولا يضيعون وقتا ولا جهدا ، ولا يتركون حيلة ولا وسيلة . ثم لا يتكلفون ما لا يطيقون ، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص ، ومن

ضعف وقوة ، ولا يدعون ما لا يجدونه في أنفسهم من مشاعر وطاقات ولا يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، ولا أن يقولوا غير ما يفعلون .

هذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله ، والعمل الجاهد بكل ما في الطاقة ، والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون ... هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة الأمة في خروجها الأول للناس ، وهي التي أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تتوء بها الجبال ! واستقرار ذلك المقوم الأول في أعماق الضمائر هو الذي كفل لتلك الجماعة الأولى تحقيق تلك الخوارق التي حققتها في حياتها الخاصة ، وفي حياة المجتمع الإنساني إذ ذاك . وهو الذي جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك ، وخطوات الزمان ولا تحتك بها أو تصطدم ، فتتعوق أو تبطئ نتيجة الاحتكاك والاصطدام .

الله هو الذي بارك تلك الجهود ، فإذا هي تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم في فترة قصيرة من الزمان .

ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود ، وفق قدر الله المصروف لهذا الوجود^(١) ...

الطريق الثاني : وهو طريق المغرورين بأنفسهم وبقدراتهم ، وهو طريق يسوق الإنسان إلى الثقة في ذاته مع أنه محدود قاصر في قدرته كلها . إن الشيطان يوجد في أصحاب هذا الطريق ، ويوقعهم في الضلال والبهتان .

والمسلم العاقل يسلم أمره لله ، ويرحم الله زينب بنت جحش رضى الله عنها وقومها فقد أسلموا الأمر لله ، ولم يعد لهم خيار بعده .

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٥٩٣ .

الركيزة الثانية

التطبيق العملي أيسر طرق الإيمان والطاعة

قضى الله بزواج زينب بنت جحش رضى الله عنها من زيد بن حارثة رضي الله عنه وقضى بطلاقها منه ليبين للناس حكما شرعيا يخالف ما عليه الناس ، فلقد كان العرب قبل الإسلام يحرمون أن يتزوج الرجل منهم زوجة ابنه الذى تبناه بعد طلاقها ، فأراد الله إلغاء هذا الحكم .

وأن يستبدل به جواز زواج الرجل من أزواج أبنائه بالتبني ومن حكمة الله ، أن كان للنبي ﷺ ابن بالتبني ، هو زيد ابن حارثة ... وذلك ليكون في إبطال هذا التبني مثل يراه المؤمنون في النبي ، حين يبطل نسبة زيد إليه ، فلا يكون لمؤمن بعد هذا متعلق يدعى به انتساب أبناء من غير صلبه إليه ... وبهذا ينحسم الأمر في غير مهل أو تردد ، إذ كان النبي صلوات الله وسلامه عليه هو أول من نفذ هذا التشريع الإلهي ، وأول من ألغى التبني الذي كان قائما بينه وبين أحب الناس إليه ، زيد بن حارثة ... الذي كان يدعى زيد بن محمد ، ويدعوه المسلمون زيد حب رسول الله ...

ولو كان في هذا الأمر استثناء لكان رسول الله ﷺ أولى الناس به ، إذ لم يكن له ولد ذكر ، ولكان هذا الاستثناء من خصوصيات النبي ، وهذا يعنى أن هذا الأمر حكم واجب على كل مسلم ، وأنه أمر لا يرد عليه استثناء أبدا .

إن تحريم الزواج من نساء الأبناء بالتبني أمر شائع بين العرب ... وكان الجاهليون يلزمون أنفسهم بذلك ، تمكينا لهذا النسب بينهم وبين أديائهم وجعله على قدم المساواة في كل شئ ، مع أبناء الأصلا ب .

وكان لابد للقضاء على هذه العادة من مثل عملى يراه المسلمون في رسول الله ، فيقتدون به ، ولا يقع في صدورهم حرج من الخروج على هذا الإلف القديم .

(٣٦٧)

ومن حكمة الله في هذا، أن كان زيد بن حارثة (متبنى النبي) متزوجا من زينب بنت جحش الأسدية ، وهى ابنة عمه رسول الله ﷺ ، وقد خطبها الرسول لزيد ، وزوجها إياه ، ولم تستطع زينب ولا أهلها مراجعة رسول الله في هذا الزواج ، الذي كانت تراه زينب . ويراه أهلها معها . غبنا لها ، إذ كانت ترى . ويرى أهلها معها . أنها أشرف من زيد بيتا ، وأكرم نسبا .

ويتم الزواج ، ويدخل زيد بزوجه ... ولكن لم يقع التوافق بينهما ، إذ كانت زينب . كما عرفنا . تعيش مع زوجها بهذا الشعور المتعالي ، وكان زوجها يلقاها بما يحفظ عليه مروءته وأنفته كعربى ، وبما يعطيه القوامة عليها كرجل ، وكمسلم ... معا ...

ولا شك أن هذا الزواج الذي لم يقم على التوافق من أول الأمر ... إنما هو تدبير من الحكيم العليم ، وقد اصطنعه النبي بأمر من ربه ، لحكمة ستكشف عنها الأيام فيما بعد ...!

كان لابد أن يمضى الأمر الإلهي في حل الزواج من زوجات الأبناء المتبنين ، بعد انتهاء الزوجية ... بأمر ، أو بآخر ...

وكان لابد أيضا أن يكون النبي في هذا هو القدوة والأسوة ، حتى يأخذ المسلمون بهذا الأمر ، ولا يتخرجون منه ... وبهذا يقضى على عادة التبني ، وما اتصل بها ، فى فورية وحشم ...

وذلك لا يتم على تلك الصورة إلا إذا كان للنبي متبنى ... وقد كان ...

وأن يكون هذا الابن متزوجا ... وقد كان هذا أيضا ...!!

ثم يبقى بعد ذلك أن يطلق هذا الابن زوجته ، حتى تحل للنبي بعد انقضاء عدتها ... وقد كان ذلك أيضا ... فطلق زيد زوجته ... ثم لما انقضت عدتها تزوجها النبي ! ولا نقف من هذا الزواج أكثر من أنه أمر أمر الله نبيه به ، وألزمه إياه ...

فالله سبحانه هو الذي زوج النبي بأمره من مطلقة متبناه ، كما يقول سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ ^(١) ... فهذه هي حكمة هذا الزواج ...

الركيزة الثالثة

محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين

أرسل الله محمدا ﷺ وجعله خاتم الرسل والأنبياء فلا نبى بعد رسول الله ﷺ ولا رسالة بعده .

وقد راعت تعاليم الإسلام حاجات كون رسالة رسول الله ﷺ رسالة خاتمة فجاءت مناسبة للارتقاء العقلى الإنسانى ، فدعت إلى وحدانية مطلقة لله ، فى الذات ، والصفات ، والأفعال ، واجتثت الوثنية بأشكالها ، وألفاظها ، وتأثيراتها السيئة ، على الأفراد ، وعلى الجماعات بحيث لا يخضع الإنسان إلا لخالقه ، ولا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى .

وأيقظت الدعوة العقل من نومه فعابت على المقلدين والأتباع الذين كان شعارهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ ^(٢) .

وأمرت بالنظر والتدبر ، ووجهت الإنسان إلى الآيات والبراهين الكثيرة التى جعلها الله ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٣) ، وخص بها البشر ﴿ لَعَلَّهُمْ

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٧ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٢٣ .

(٣) وردت مادة "عقل" فى ٤٩ موضعاً فى القرآن الكريم .

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ ودعاهم إلى التدبر والنظر ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾

يكفى أن المعجزة الخالدة للدعوة الإسلامية كانت القرآن الكريم الذى خص العقل بالخطاب ، وأعطى لقوة الكلام وصحة الدليل حقه الأصيل ، ولم يكن أخذاً للأبصار ودهشة للمشاعر والحواس كمعجزات رسل الله السابقين .

ولم تهدم الدعوة الإسلامية الدعوات السابقة ، بل بينت أنها على نمطهم .
وأتى الإسلام فى كل مجال بتوجيه رائع ، واصلاح سليم ، ولم يترك مشكلة إلا أزالها ، ولا عقدة إلا حلها ، ولا خطأ إلا أصلحه .

يقول الشيخ محمد عبده : لم يدع الإسلام أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحيها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية الفكر ، واستقلال العقل ، وما به صلاح السجايا ، واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاء الغزائم إلى العمل ، وسوقها فى سبل السعى العديدة^(٢) .

وعدم مجئ رسالة بعد الإسلام يعنى أنه الرسالة الخاتمة ، وأنه الدائم إلى يوم القيامة .

وقد بشر الرسل جميعاً به ﷺ .

(١) وردت مادة "فكر" فى القرآن الكريم ١٨ مرة .

(٢) رسالة التوحيد ص ١٦٤ .

(٣٧٠)

دعوة المؤمنين إلى ذكر الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ نَحْيِيْتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ما ينبغى على رسوله أن يفعله مع حكم الله تعالى جاءت الآيات لبيان ما ينبغى على المؤمنين القيام به مع الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تتادى الآيات المؤمنين ، وتأمرهم بذكر الله تعالى كثيرا ، وتسبيحه فى كل الأوقات ، فهو سبحانه يدعوهم للاستقامة لينالوا سعادة الدنيا والآخرة ، ويخرجوا من ظلمات المادة إلى نور الإيمان ، فهو سبحانه بعباده رءوف رحيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ينادى الله عباده المؤمنين بما يشرفهم ، ويحثهم على الطاعة ، فيناديهم وهو قريب منهم ، ويبرز مساهم الذين تميزوا به وهو ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ليكون أدعى لاستجابتهم .

﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ أى أكثروا من ذكر الله بقلوبكم وجوارحكم وألسنتكم وفى كل أحوالكم ، وفى جميع أوقاتكم .

يقول ابن عباس : لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر ، فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه ، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله ، وأمرهم به في الأحوال كلها فقال تعالى : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾^(١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ أى أكثروا من ذكر الله بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي الصحة والسقم ، وفي السر والعلانية بحيث ترون ربكم في كل أعمالكم وأقوالكم ، ومع أى صفة وحال .

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى ونزهوا الله عن كل ما لا يليق به ، طرفى النهار عند القيام من النوم بكرة ، وعند الانتهاء من العمل وقت الأصيل ومن المعلوم أن ذكر الطرفين يقتضى ما بينهما ، وبذلك تذكرون الله حين سعيكم على المعاش ، وتعملون للدنيا والآخرة طوال حياتكم ، ومن المعلوم أن الأعمال العادية تتحول بالنية إلى عبادات شرعية .

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى يرحمكم ، ويهديكم ، ويعرفكم دينه ، ويثنى عليكم فى الملائكة الأعلى ، ويجعل الملائكة تستغفر لكم وتساعدكم ، وتحفظكم ... والصلاة من الله للعبد رحمة ، وذكر ، وغفران ، ومن الملائكة دعاء وثناء .

(١) سورة النمل ، الآية ٦٩ .

(٣٧٢)

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يريد بكم خيرا حين كلفكم بدينه ، ورحمكم بشرعته ، وأرسل لكم رسله ، ونشر ملائكته بينكم ليعينكم ، ويخرجكم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم .

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أى إن الله يرحم المؤمنين ، ويعينهم في الدنيا بتوضيح الطريق ، وإزالة السبيل ، وتبليغ الهدى ، وينصرهم في الآخرة بالفوز بالجنة ليؤمنوا من الفرع الأكبر ، ويأمر الملائكة بالسلام عليهم وخدمتهم.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أى تحية المؤمنين يوم القيامة حين ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَلَامٌ﴾ أى تحية المؤمنين يوم القيامة سلام يلقيه الرب عليهم ويأمر الملائكة بتحيتهم به .

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أى وأعد لهم ربح ثوابا حسنا في الجنة بعدله وكرمه سبحانه وتعالى .

- ٤ -

معنى الآيات

ينادى الله المؤمنين ، ويأمرهم ليدوموا على ذكر الله ، وتسبيحه طوال حياتهم فهو سبحانه يثنى عليهم ، ويذكرهم عنده ، ويحييهم بالسلام ، ويكلف الملائكة أن ترعاهم ، وتسلم عليهم ، ويجازيهم في الآخرة بالجزاء الأوفى الذى أعدّه لهم .

(٣٧٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

فضل ذكر الله تعالى

خلق الله الإنسان ليعبده ، ويتقيه ، ويطيعه ، ويعيش في الدنيا عاملاً
للاخرة ... وتتجلى عبودية العبد في حبه لسيده ، واتصاله به ، وحب الانتساب
له ... ولا يتحقق له ذلك إلا بالذكر الشامل للقلب والجوارح والخواطر ، والآمال
إن العبد المسلم يذكر ربه وهو يعمل حين يجعل العمل خالصاً لوجه الله
تعالى ، ويتكلم ويفكر ، ويحكم ويرى ملتزماً بأمر الله تعالى ، ويرى الله معه في
كل أحواله وحالاته ، يسمعه ، ويراه ، ويتجه إليه .

إن الذكر هو التوجه الصادق إلى الله تعالى ... وقد سئل النبي ﷺ عن
الإحسان فقال : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (١) .
إن نفس الإنسان ترتقى بذكر الله تعالى ، وتعلو بالاتصال به ، وتسعد
بمعية الرب الكريم .

صور الذكر عديدة فهو العبادات المفروضة ، وهو السنن الراتبة ، وهو
النوافل الكثيرة ، وهو الكلمة الطيبة ، والعمل الصالح ، وهو التخلق بالخلق
الكريم ، وهو استحضار الله في القلب واللسان .
إن ذكر الله أن تقول كلمة طيبة ، أو تعين محتاجاً ، أو تساعد فقيراً ، أو
تكون في حاجة مسلم .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ج ١٠

والذاكرون من عباد الله يحبون ، وينصحون ، ويرشدون ، ويعملون طاعة
لله رب العالمين .

ويشب الإنسان على ما نشأ عليه ، ولذا كان توجيه الصغير لعبادة الله
تعالى أحد الأسباب الرئيسية لتعود الإنسان ذكر ربه .
والأسوة والقيادة دورهما كبير في هذا المجال ... ولذلك ننادى الآباء
والدعاة للعمل في إخراج جيل ذاك يعمل لله ولرسوله وللمؤمنين .

دعوة النبي ﷺ للخلق الكريم

يقول الله تعالى :

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ وَلَا تُطِعِ
الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٨﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما نادى الله المؤمنين ليستمروا على ذكر الله تعالى نادى رسوله ﷺ
ليعرفه بمنزلته بين الناس ، ويحثه على تبشير المؤمنين وانهار الكافرين ، وعدم
طاعة المنافقين والكافرين ، وترك أذاهم ، والاعتماد على الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

ينادى الله رسوله بأحب أوصافه إليه ، ويأمره بتبشير المؤمنين ، وانهار
الكافرين والمشركين ، والقيام بالدعوة ، وانهار طريق الحق للناس ، واهمال
المشركين والمنافقين ، وتحمل الأذى منهم ، والتوكل على الله تعالى .

(٣٧٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى ينادى الله محمدا ﷺ بأحب أسمائه إليه فهو النبی الموحى إليه المتصل بالملأ الأعلى ، الذى يحمل دين الله للناس ، لينبئهم ، ويعرفهم بأنه أرسله ليبشر المؤمنين بالجنة ، ويخوف المشركين من النار وبأنه سيشهد عليهم جميعا ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾^(١) .

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى وأرسلتك تدعو الناس بأمر الله إلى الإيمان والتقوى ، وطاعة الله تعالى ، وتطبيق شرعه ، والتزام منهجه .
﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ أى وجعلك الله يا محمد سراجا ينير الظلمات ويهدى للحق ، ويدعو الناس إلى الصراط المستقيم .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ وعرف المؤمنين بالفضل الذى حباهم الله به ، فقد فضلهم على سائر الأمم ، وأعد لهم الثواب العظيم .

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى احذر يا محمد مطاوعة الكافرين والمنافقين فهم لا يرجون إلا كفرا ، ولا يطلبون إلا عدوانا ، واصفح عن أذاهم ، واصبر على سوءاتهم ، وعلى ما ينالك منهم ، واعتمد على الله ، وفوض أمورك إليه فهو كافيك ، وراعيك ، وحافظك .

(١) سورة النساء ، الآية ٤١ .

(٣٧٦)

- ٤ -

معنى الآيات

تتأدى الآيات رسول الله ﷺ وتعرفه بأسمائه فهو الشاهد ، والمبشر ،
والنذير ، والداعى إلى الله تعالى ، والسراج المنير ، ورسالة رسول الله للناس
تطبيق لهذه المسميات ، فهو ﷺ يبشر المؤمنين بالجنة ، وينذر الكافرين
والمنافقين بالعذاب الأليم ، وينير طريق الهدى للناس ، ويأمره الله بأن يمضى
لما به ، ولا يلتفت إلى المنافقين والكافرين ، وأن يدع أذاهم ، ويعتمد على الله
فهو الحافظ والمعين وكفى به وليا ونصيرا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

صناعة الدعاة

الدعاة فريق من الناس ، حباهم الله بالعلم ، وحببهم في خدمة الناس ،
واختارهم لتبليغ الإسلام ، وإيصاله إلى الناس ... والرسول عليهم السلام هم أسوة
الدعاة ، وقدوتهم فهم الهداة ، المهيئون صنعهم الله صناعة خاصة ، وفضلهم
على العالمين ... يقول الله تعالى :

- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾^(١) .

- ﴿جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَصْطَبَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤٢﴾﴾^(٢) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٠ .

(٢) سورة طه ، الآية ٤٠ ، ٤١ .

لقد هيا الله الرسل للرسالة ، وميزهم بصفات عديدة ، ونشأهم نشأة بشرية ليتمكن المؤمنون من تتبع خطاهم ، وصناعة دعاة مثلهم ... وواجب المسلمين أن يختاروا من الناس دعاة ذوات صفات مكتسبة كالأصالة ، وحب الخير ، والإيثار ، وامدادهم بالعلوم والمعارف الإنسانية التي توضح لهم طبائع الناس ، وطرق التأثير فيهم ، وكيفية إمدادهم بنور الإيمان ، وربطهم بدين الله تعالى .

إن إيجاد دعاة لدين الله تعالى يحتاج إلى صناعة خاصة تبدأ من اختيارهم مبكرا ، وتتعهدهم بالرعاية الصحية والفكرية والتعليمية ، والعملية لينشأوا بخصائص عالية يحبونها ، ويتمسكون بها ، ويعملون لها ، ومن المهم الاعتناء بالصغار عند التمييز ، وتحفيظهم القرآن الكريم ، والعلوم الإسلامية ليشبوا على علم ودين ، وإذا ما كلفوا بالدعاة سارعوا إليها مخلصين صادقين .

يخاطب الله في الآية رسول الله ﷺ ويقول له : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ فقد صار حمل النبأ والخبر جبلة فيه ، فقد تعود معاشرة الناس ، والتعاون معهم ، وتبين له الآية أن الله هياه لهذه النبوة فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ أى بعثناك إليهم بعدما صرت مالكا لكل الصفات الضرورية اللازمة لإيتاء الناس دين الله تعالى .

لا يصح لأمة مسلمة أن تترك شأن الدعاة للصدفة والهوى ، وعلى كل مسلم واجب في تكوين الدعاة ، ومساعدتهم في تبليغ الناس دين الله تعالى . وما أكثر الدراسات المنادية بهذا الواجب ... والأمر يحتاج إلى همة العلماء ، ومساهمة المسلمين أجمعين .

(٣٧٨)

الركيزة الثانية

دور الدعاة مع الناس

تتحدث الآية من أهم الصفات التي تميز بها رسول الله ﷺ ، فقد جعلها الله راسخة في سلوكه وحياته حتى صارت مسمى له ينادى بها ويعرف بها بين الناس .

إن هذه الأسماء صفات لرسول الله ، تحدد دوره بين الناس ، وتوضح أهم الصفات والأعمال التي يجب أن يتميز بها الدعاة إلى الله تعالى ، وأول هذه المسميات الوصفية ﴿ شَهِدًا ﴾ أى أنه عليه الصلاة والسلام يراقب أعمالهم ، ويشهد إيمانهم ، وسيكون عند الله شاهدا لهم أو عليهم ، ومعنى ذلك أن يراقب الدعاة أعمال المدعوين ، ويدعوهم إلى المعروف ، وينهوهم عن المنكر .
ومن هذه الصفات ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى لتبشير الطائعين بالجنة ، وتخويف العصاة من النار .

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ وهذا المسمى هو لب الإسلام ، وأساس الرسالة ، لأن الرسول والدعاة يباشرون دعوة الناس وأخذهم إلى الله تعالى كما أمر سبحانه وتعالى ، ولذلك وجب على الدعاة أن يأخذوا دين الله مخلصين ، وايصاله للناس بينا واضحا ، ويكشفوا المستور ، ويعرفوا المجهول ، ويهدوا إلى سواء السبيل .

إن الدعاة هم المصابيح التي تنير الظلمات ، وتوضح الطريق ، وتبين للناس سبل السعادة في الدنيا وفي الآخرة .

وعلى الدعاة :

أن يأخذوا من سيرة رسول الله ﷺ الفكرة والمنهج ، وينقلوا الإسلام للناس بالطرق الدعوية كما جاءت في سيرة رسول الله ، وعلى ألسنة الرسل أجمعين .

الركيزة الثالثة

اعتماد الدعاة على الله تعالى

العبد يعيش في طاعة سيده ، والإنسان عبد الإحسان ، والدعاة إلى الله تعالى هم علماء الإسلام الذين يتحركون بالإسلام على منهج رسول الله ﷺ ، ولذلك فهم أناس ينطلقون من منابع النبوة ، ويعملون لإيصال الخير ، وغايتهم ربط الناس بدين الله تعالى .

ولذلك كان من المهم أن يتجرد الدعاة من كيد الماكرين والمنافقين ، ويبتعد عنهم ، ويخلص عمله لله ، ويتوكل عليه ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ . سيلقى الدعاة الأذى والتأمر ، ومحاولة صرفهم عن رسالتهم ، وعليهم أن يأخذوا حذرهم ، ويدعوا الأمر لله ، فهو الحافظ ، وهو الناصر ، وهو المعين .

عدة المطلقة قبل الدخول

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَرَحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة التأدب في المعاملة مع النبي ﷺ جاءت هذه الآية بالحث على حسن المعاملة بين الرجال والنساء وبخاصة حين الطلاق والفرار .

(٣٨٠)

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن المطلقة قبل الدخول لا عدة لها ، وعلى زوجها أن يمتعها ويحسن معاملتها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ ينادى الله المؤمنين بصفة الإيمان ليسارعوا إلى الاستجابة ، ويعرفهم حكما من أحكام النكاح ، وهو أنه إذا عقدتم أيها المؤمنون على نسوة مؤمنات فى حدود ما شرع الله لكم ... ثم طلقتموهن قبل أن تقربوهن وتدخلوا بهن ، فلا عدة لهن ، ولكن عليكم أن تمتعهن بالكساء ، وتخرجوهن إلى بيوتهن ، أو إلى بيوت آبائهن مخرجا جميلا من مركب حسن وزاد طيب ، ومعاملة كريمة ، ومعها ما تستحقه من مهر .

وقد عبرت الآية عن الدخول بالمرأة بـ "المساس" مراعاة لأدب الخطاب ومحافضة على الخلق الكريم ، وفى لغة العرب من الكنايات والاستعارات والمجازات ما يحقق هذا الأدب الجميل .

وهذا الحكم لكل معقود عليها مسلمة كانت أو كتابية إلا أن الآية خصت المؤمنات بالذكر للإشارة إلى أن نكاح المؤمنة أولى من غيرها .

﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ أى ليس لكم عليهن عدة ولها أن تتزوج بعد الطلاق مباشرة .

﴿ فَمَتَّعُوهُنَّ ﴾ أى أكرموهن بالزاد والراحلة عوضا لهن عما أصابهن من ألم وأذى .

(٣٨١)

﴿ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ أى عاملوهن بعد طلاقهن بالسماحة والرفق ، واليسر ، والمودة ، والإحسان من غير أذى أو مضار .

- ٤ -

معنى الآية

تتأدى الآية المؤمنين ، وتبين لهم حكما شرعيا وهو أنه لا عدة للمطلقة إذا لم يطأها زوجها ، وكل ما لها هو السراح الجميل ، والمعاملة الطيبة ونصف المهر .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

دعوة الإسلام لمكارم الأخلاق

يهتم الإسلام بنشر مكارم الأخلاق دائما ، ويوقظ فى الإنسان إنسانيته التى خلقه الله عليها ، ولذلك يقول النبى ﷺ : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (١) .

والمسلم مكلف بمكارم الأخلاق فى كل حال وأن .

يقول الله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) ويجب أن تقوم الدعوة

(١) السنن الكبرى للبيهقى . كتاب الشهادات . باب بيان مكارم الأخلاق ج ١٠ ص ٣٢٣ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .

(٣٨٢)

على الحسن . يقول الله تعالى : ﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ ۚ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(١) .

إن الإسلام دين يقوم على الخلق الكريم ، ويعمل على نشره فى الأسرة
ووسط الجماعة ، وبين الناس أجمعين ... فلا عجب إذا أن يدعو إلى الالتزام به
فى المواقف التى يكون فيها مظنة الخلاف والخصام .

إن الفراق بين الزوجين حالة تعارض ، وتناقض بين طرفين يشبع بينهما
الخلاف ، وتكثر الكراهية ، وعنده يحدد الله الحقوق ، ويحث على القيام بها فى
إطار من الخلق الكريم .

ألا ما أروع الإسلام ، وما أحسنه من دين ينشر الحب والسلام
بين الناس !!

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

بيان ما أحل الله لرسوله الزواج بهن وتحديد وقته

يقول الله تعالى :

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عِمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ تَرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُتَوَى إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ ۖ وَمِنْ أَتَتْكَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝ لَا سِحْلٌ لَّكَ لِلنِّسَاءِ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلهما

لما بينت الآية السابقة حكم طلاق المرأة قبل الدخول بها جاءت هذه الآيات لبيان ما أحل الله لرسوله الزواج منهن ، أو التمسرى بهن ، ونهيه ﷺ عن الزواج بغيرهن ، أو عدم طلاقهن بعدما اخترن الله ورسوله .

(٣٨٤)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى أحل لرسوله ﷺ الزواج والتسرى ، بالنسوة اللاتي كن عنده بعد التخيير ، يتمتع بهن كما يشاء فقد جعل الله حق القسمة إليه دونهم ... وليس له ﷺ بعد التخيير أن يتزوج غيرهن أو يستبدل بهن غيرهن .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تخاطب الآيات النبي ﷺ وتعرفه بما أحل الله له من النساء ، فقد أخبره الله تعالى بحل من كن عنده من زوجات وسراري حين نزول آيتنا التخيير ، وحدد له ما سيكون عليه في مستقبل حياته في المدينة ليعلم ما أجازة الله له .

أما الخبر فيما كان عليه ﷺ من زوجات فهو قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ أى أن الله أحل لك يا محمد زوجاتك اللاتي آتيهن مهورهن على صورة ما شرع الله لسائر المسلمين من خطبة ، وولى ، وعقد ، ومهر .

ومع هذه الزوجات شرع الله لرسول الله ﷺ أن يتزوج من ثلاثة أصناف من النساء بعد ذلك فصرن أربعاً فأجمل الله في ندائه **الصنف الأول** ، ثم ذكر بعد ذلك ثلاثة أصناف هي :

الصنف الثانى : نسوة ملكهن رسول الله ﷺ مما أعطاه الله تعالى ، وعنهن يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ وهن النسوة اللاتي أخذهن المسلمون من العدو بلا قتال ، وهن بذلك جزء من الفئ

ويصرن ملك اليمين لمن أخذ واحدة منهن بالقسمة ، وهذا الصنف يناله سائر المسلمين مع رسول الله ﷺ .

الصنف الثالث : نسوة من قومه ﷺ يقربن منه من جهة أبيه أو أمه : هاجرن معه من مكة بعدما أسلمن فيها ، وعن هذا الصنف يقول الله تعالى : ﴿ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ أى شرع الله لك يا محمد أن تتزوج من بنات أعمامك ، وبنات عماتك ، وبنات أخوالك ، وبنات خالاتك اللاتي أسلمن فى مكة ، وهاجرن معك إلى المدينة ، أما من أسلمت فى مكة ، ولم تهاجر مع رسول الله ﷺ فإنها لا تحل لرسول الله .

وبنات عم النبي ﷺ هن بنات إخوة أبيه عبد الله ، وهن بنات العباس ، وبنات أبى طالب ، وبنات أبى لهب ، وأما بنات حمزة فإنهن إخوته من الرضاع لأن رسول الله وحمزة رضعا من ثدى واحد .

وأما بنات عماته فهن بنات عمته أميمة بنت عبد المطلب أم زينب بنت جحش ، وبنات خاله هن بنات عبد مناف بن زهرة ، وهن أخوال النبي ﷺ ومنهن قريعة بنت وهب ... وأما هالة بنت وهب فقد تزوجت عبد المطلب جد النبي ﷺ وصارت ابنتها صفية عمة لرسول الله ، وابنة خالته .

وقد أفرد اسم "العم والخال" وجمع اسم "العمات والخالات" لأن اسم العم والخال يأتى مفردا ويعم الجميع . أما العمة والخاله فإن جاءتا مفردا خصت ، ولذلك جمعتهما الآية لتحقيق العموم .

وشرط الزواج من هذا الصنف هو الإسلام ، والهجرة ، والقرابة .

الصنف الرابع : نسوة يهبن أنفسهن لرسول ليكن زوجات له بلا مهر ولا ولى ، وعن هؤلاء يقول الله تعالى : ﴿ وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ

إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨٦﴾ وهذا الحكم شامل لكل امرأة تهب نفسها للنبي ليتزوجها بلا مهر ولا ولى بشرط واحد أن تكون مؤمنة .

وهذه الهبة تأتي من المرأة ، وكان ذلك يحدث مع أصحاب المنازل العالية قبل الإسلام ، فشرعه الله للرسول وحده دون غيره من الناس لنسوة رغبين أن يعشن فى ظل الله ورسوله ، ولذلك قال الله تعالى لرسول الله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى هذا الحكم هو لك يا محمد خاصة إن اردته وقبلته ، وليس لأحد من المسلمين ذلك . فقد ثبت أن رجلا من الصحابة كان عند رسول الله ﷺ فجاءت امرأة ، وعرضت نفسها على النبي ﷺ ، فلم يجبها رسول الله ﷺ فرغب الرجل فى زواجها ، لأنه لا يملك شيئا ، وكان يظن يتزوجها هبة بلا مهر ، إلا أن النبي ﷺ سأله عن المهر ...

وقال له : ما عندك ؟

قال : ما عندي شئ .

قال : اذهب فالتمس ولو خاتما من حديد .

فذهب ثم رجع فقال : لا والله ولا خاتما من حديد ، ولكن هذا إزارى فلها نصفه ، ولم يكن له رداء آخر .

فقال النبي ﷺ : "وما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شئ وإن لبسته لم يكن عليك منه شئ .

ثم قال له ﷺ : ماذا معك من القرآن ؟

فقال : معي سورة كذا ، وسورة كذا لسور يعددها .

فقال النبي ﷺ : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن^(١) .

وقد ذكرت الآية اسم الرسول صريحا في الموضعين وهو (النبي) لبيان أن النسوة وهبن أنفسهن لرسول الله حبا لمقامه ، وشرفا بالانتساب إليه ، ليعشن في بيت يتلى فيه الكتاب والحكمة .

يقول أنس رضي الله عنه : جاءت امرأة إلى رسول الله فعرضت عليه نفسها .

وقالت : يا رسول الله ألك حاجة بي ؟

فلما سمعتها ابنة أنس رضي الله عنه قالت : ما أقل حياءها ! واسوأ تاه ! واسوأ تاه !

فقال أنس لابنته : هي خير منك ، رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها^(٢) .

وقد ورد أن النسوة اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ أربع هن ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة الأبصارية ، الملقبة بأُم المساكين ، وأم شريك بنت جابر الأسدية ، وخولة بنت حكيم السلمية ، وقد تزوج النبي ﷺ الأوليان فصرن أمهات للمؤمنين ، ولم يتزوج الآخرين .

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾

أى قد علم الله تعالى ما ينبغى فرضه على المؤمنين حين الزواج ، من مهر ، وولى ، وشهود ، وأنه لا يجوز أن تهب امرأة نفسها لغير رسول الله ﷺ ، وقد وضع الله في الإماء المملوكات شروطا ليدخل بها سيدها .

(١) صحيح البخارى . كتاب فضائل القرآن . باب القراءة عن ظهر قلب ج ٦ ص ١٩٢ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح ج ٧

ص ١٣ .

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أى أحلنا لك يا محمد ذلك الزواج ، وشرعناه ، وبيناه لك حتى لا تقع فى حرج وضيق بسبب ما نكحت من الأصناف المذكورة .

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى إن الله واسع المغفرة ، يغفر لعباده جميعا رحمة بهم ، وشفقة عليهم .

﴿تُرْجَىٰ مَن تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُتَوَىٰ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ^ط وَمَن أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أى أن الله أباح لك يا محمد أموراً ، وخصك بها وأمرك أن تخبر بها نساءك حين التخيير ، وهى :

(١) تؤخر مضاجعة من تشاء من زوجاتك اللاتى أبيع لك الزواج منهن ، وتضاجع من تشاء ، والأمر إلى رغبتك ، ولا يجب عليك قسمة بينهن فهو حقك واختيارك ، وليس للنسوة حق فيه .

(٢) جواز إرجاع من تطلقها ، ودعوتها إلى فراشك بلا حرج فى ذلك .
وكانت القسمة واجبة على رسول الله ﷺ فلما نزلت هذه الآية سقط عنه الوجوب وصار الاختيار إليه فيهن .

وقيل نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبى ﷺ وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن شهرا حتى نزلت آية التخيير فأمره الله تعالى أن يخيرهن فمن اختارت الدنيا فارقها ، ويمسك من اختارت الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين ، لا ينكحن غيره أبداً ، وعلى أنه يؤوى إليه من يشاء منهن ، ويرجى من يشاء منهن فيرضين به قسم لهن أو لم يقسم بينهن أو قسم لبعضهن ، دون بعض ، أو فضل لبعضهن في النفقة والكسوة ، فيكون

الأمر في ذلك إليه يفعل ما يشاء ، كما يشاء ، وكان ذلك من خصائصه ﷺ
فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط ، وبذلك خلص النبي ﷺ من خلافات
النسوة ، ومقارنة الضرائر بعد أن رضين بما اشترط عليهن رضى الله عنهن
واختلف رواه السيرة والعلماء في أنه هل أخرج أحدا منهن من القسم أم لا ؟
فقال بعضهم : لم يخرج أحدا بل كان ﷺ مع ما جعل الله له من ذلك
يسوي بينهن في القسم ، إلا سودة فإنها رضيت بترك حقها من القسم ، وجعلت
يومها لعائشة .

وقيل : أخرج بعضهن . فعن أبى رزين رضي الله عنه قال : لما نزلت آية التخيير
أشفقت زوجات النبي أن يطلقهن رسول الله ... فقلن له : يا رسول الله اجعل لنا
من نفسك ومن مالك ما شئت !! ودعنا كما نحن ، فنزلت هذه الآية فأوى رسول
الله إليه عائشة ، وحفصة ، وزينب ، وأم سلمة رضى الله عنهن وكان يقسم
بينهن بالسوية ... وأرجأ خمساً هن أم حبيبة ، وميمونة ، وسودة ، وصفية ،
وجويرة رضى الله عنهن فكان لا يقسم بينهن ما شاء^(١) .

وكان النبي ﷺ يقسم بين نسائه تكرماً منه ﷺ على زوجاته ، وكن يعلمن
أن القسمة صارت حقاً لرسول الله وليست حقاً لهن ، وكان ﷺ يقول : "اللهم هذا
قسمي ، فيما أملك فلا تلمني ، فيما تملك ، ولا أملك"^(٢) .

وثبت أنه ﷺ في مرضه الذي توفي فيه كان يطاف به على بيوت أزواجه
كل يوم ، وكان مبدأ شكواه في بيت ميمونة رضى الله عنها إلى أن جاءت نوبة
ليلة عائشة رضى الله عنها ، فاستأذن زوجاته أن يمرض في بيتها فأذن له .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٦٩ .

(٢) سنن أبى داود . كتاب النكاح . باب في القسم بين النساء ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٣٩٠)

﴿ ذَٰلِكَ أَدَّتْ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ أى تفويض القسمة لرسول الله ﷺ ، وجعله حقا له وحده أَرْضَاهُنَّ جميعا لأنهن يعلمن أنه لا خيار لمؤمن ، ولا مؤمنة مع حكم الله ورسوله ، وبذلك قُرت أعينهن بما يفعله ﷺ معهن ... وهذا أمر فطرى لأن الذى يعلم أنه لاحق له فى شئ يرضى بما يؤتى له عنه ... أما من يعلم أن له حقا فإنه لا يرضى إلا بحقه .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أى إن قرار أعين أمهات المؤمنين بما تفعله معهن يا محمد خال من أى ألم ، فهن جميعا راضيات بما تفعله معهن ، فقد رأين حرصك عليهن ، وجلبك الحسنات لهن ، وادخال السرور على قلوبهن .

إن قرة العين لا تأتى على دخن ، ولا تتحقق على مضض ، وعمادها الرضى ، والحب ، والتقدير ، وكان النبى ﷺ حريصا على إرضاء زوجاته جميعا فقد كن عنه راضيات ، وسعدن بما كن فيه من خير وفضل .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ أى إن الله عليم بكل شئ ، حكيم فى تقديره ، وهو سبحانه يعلم ما فى خبايا القلوب ، وخفايا الضمير ، ويحاسب عليها .

والقلوب فى تلك المواطن تجمع بين الرجال والنساء فى حياة زوجية متماسكة ، هى ملاك الأمر فى إصلاح هذه الحياة ، وازدهارها ، وارواء النفوس من ينابيع الرحمة والمودة ... وذلك إذا صلحت القلوب ، وخلصت النيات ... أما إذا انطوت القلوب على فساد ، وتلاقت على غش وخداع ، فلن تثمر الحياة الزوجية إلا ثمرا نكدا ، يطعم منه الزوجان ما يشقيهما ، ويضنيهما .

ويزرع العداوة والشنآن بينهما ...

وفى هذا التذييل ترغيب للنبي ﷺ والمؤمنين فى الإحسان إلى الزوجات وتحذير للنسوة من عدم الرضا فى حياتهن الزوجية ، ودعوة للجميع للحلم ، والتحمل ، ومراقبة الله تعالى .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾

أى لا يحل لك يا محمد أن تتزوج على نساءك بعد أن اخترتك حين خيرتهن ، ولا يجوز لك إن تطلق أحداهن ، وتتزوج غيرها مهما كان جمالها وحسنها .
يقول أنس رضي الله عنه : لما خير رسول الله زوجاته اخترن الله ورسوله فقصره الله عليهن ويقول ابن عباس : حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه^(١) .

﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ أى ولو أعجبك حسن امرأة بعد ذلك فلا تتزوجها .

﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ أى وأحل الله لك ما تملك يمينك فقط .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ أى أن الله مطلع على كل شئ ،

عليم بكل أمر ... فأطيعوه واحذروا مخالفته .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات ما أحل الله لرسوله من زوجات ، وما خصه به من أحكام دون سائر الناس ، وقد أثارت قضية تعدد زوجات النبي ﷺ أقاويل المفسدين ،

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٧٠ .

(٣٩٢)

وشككوا فى خلق رسول الله ﷺ ... وعلى مدار التاريخ لم يهدأ لهم بال ، فظلوا فيما هم فيه من إفك واضلال .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

رد ما يقال عن تعدد النبي ﷺ لزوجاته

يمكن تقسيم حياة النبي الأسرية إلى فترات أربع عاشها النبي ﷺ بدءا بزواجه من خديجة رضي الله عنها أولى زوجاته ، وانتهاء بميمونة رضي الله عنها آخر زوجاته حتى وفاته ﷺ وهي:

الفترة الأولى : بدأت حين تزوج النبي ﷺ السيدة خديجة رضي الله عنها وعمره خمس وعشرون سنة ، واستمرت حتى وفاة خديجة رضي الله عنها ، وعمره ﷺ اثنتان وخمسون سنة ، وهذه الفترة هي مرحلة شباب النبي ﷺ ومدتها سبع وعشرون سنة .

الفترة الثانية : بدأت بوفاة السيدة خديجة وعمره ﷺ اثنتان وخمسون سنة حيث تزوج ﷺ السيدة سودة بنت زمعة فى مكة ، وعاش معها أربع سنوات ، انتهت بعد الهجرة بعامين ، وكان عمره ﷺ أربعاً وخمسين سنة .

الفترة الثالثة : امتدت ست سنوات ، منذ أن كان عمر النبي ﷺ أربعاً وخمسين سنة ، إلى أن بلغ ستين سنة ، وفيها تزوج النبي ﷺ عددا من أمهات المؤمنين منهن عائشة وحفصة وغيرهن وتوفي الرسول عن تسعة منهن وكانت ميمونة آخر من تزوجهن ﷺ .

(٣٩٣)

الفترة الرابعة : وتمتد من بلوغ النبي ﷺ سن الستين إلى أن توفي ﷺ عندما بلغ ثلاثا وستين سنة ، وفي هذه الفترة لم يتزوج النبي ﷺ أحدا حيث حرم الله تعالى عليه الزواج فيها ، وأمره أن لا يستبدل بإحدى زوجاته غيرها .
وحين ندقق النظر في تعدد زوجات النبي ﷺ ، وبخاصة في المراحل العمرية المذكورة لرسول الله ﷺ نلاحظ الآتي :

أولا : أن النبي ﷺ تزوج خديجة رضي الله عنها ، وكانت تكبره بخمس عشرة سنة وعاش معها حتى لقيت ربها وعمرها خمسة وستون عاما وكان عمر النبي ﷺ وقتها خمسين عاما .

ثانيا : استمر رسول الله ﷺ مع زوجة واحدة عجوز حتى بلغ سنه خمسون سنة ؛ لأنه تزوج سودة بنت زمعة الأرملة المسنة بعد وفاة خديجة ، ولم يدخل بسواها .

ولو وجد أعداء الإسلام في زواج الرسول ﷺ لعبا ، أو هوى ، أو مطعنا لأذاعوه ، ونشروه في العالمين ، لكنهم مع عداوتهم لرسول الله لم يتكلموا في زواجه ﷺ بل شهدوا له بالعفة والطهر .

ثالثا : في ست سنوات تزوج النبي ﷺ العربيات ، والكتابات ، والمصريات مع ما كان فيه من جهد وجهاد أقام فيه للإسلام دولة ، وانتصر في غزوات عدة اشترك فيها ، ولم يبق في المدينة مع نسائه إلا زمنا يسيرا ، وهذا يؤكد أن تعدد النبي ﷺ للزواج كان لمصلحة عليا أمره الله بها .

رابعا : تشير الآيات إلى أن الله تعالى هو الذي كان يوجه النبي ﷺ في أمر الزواج ، فأحل الله الزواج بأمهات المؤمنين ، وعرفه بذلك في قوله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾^(١) والله سبحانه هو الذى حرم عليه الزواج بعد آيتى التخيير فقال له : ﴿ لَا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ .

وهذه الملاحظات :

تؤكد لنا حقيقة واضحة ، وهي أن رسول الله ﷺ لم يكن شهوانيا أبدا كما يدعي بعض أعداء الإسلام ؛ لأنه لو كان شهوانيا لاختار بكرا ، صغيرة وجميلة في زواجه الأول ، ولتزوج معها غيرها وبخاصة أن المجتمع الجاهلي كان يعدد الزوجات بلا حد معين ، وكان النبي ﷺ قبل الرسالة يملك الوقت الذي يمكنه من إشباع شهوته ، بدل أن يضيقه في الخلاء والبعد عن الناس .

ولو كان النبي ﷺ شهوانيا لأوثر عنه اتصاله بالغواني والبغايا ، وكان لهن يومذاك دور معروفة ، وكان المجتمع يقر هذا العمل لمن يريده .

لكنه ﷺ لم يكن كذلك وإنما عاش طاهرا ، عفيفا ، لم يتهم بريبة ، ولم يرم بخطيئة ، وعاش صادقا آمينا .

وبعد موت خديجة رضي الله عنها تزوج سودة رضي الله عنها في مكة ، وهي الأرملة العجوز ، وعاش معها وحدها أربع سنوات ، وهو رسول الله ﷺ ولو رغب في أي فتاة عذراء ، وجميلة ، ومسلمة لسعدت به ، ولرحب به قومها جميعا ، لكنه ﷺ تزوج سودة لتعلم الدنيا كلها أن الغاية لم تكن أبدا إشباع شهوة ، أو التمتع المجرد بالأنثى ، أو الانغماس في الملذات الحسية .

يقول الأستاذ عباس العقاد : قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع زوجات لمحمد دليل على فرط الميول الجنسية .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٠ .

(٣٩٥)

قلنا له : إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر جنسيا لأنه لم يتزوج قط
فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مفرط جنسيا لأنه جمع بين تسع نساء .
ونحن قبل كل شيء ، لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يتزوج ويتمتع
لأنها الفطرة لا عيب فيها .

فحب المرأة لا معابة فيه ما دام في إطاره المشروع ، وفي حده المباح .
وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن حده ، وحتى يشغل
المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططا في طلبه ، فهو عند ذلك مسح للفطرة
المستقيمة ، يعاب كما يعاب الجور في جميع الطباع !!
فمن الذي يعلم حقيقة ما صنع النبي في حياته ، ثم يقع في روعه أن
المرأة شغلته عن عمل كبير !! أو عن عمل صغير ؟!

من من بناء التاريخ قد بنى في حياته ، وبعد مماته ، تاريخا أعظم من
تاريخ الدعوة المحمدية ، والدولة الإسلامية ؟!!

ومن ذا الذي يقول عن تراث محمد ﷺ : هذا عمل رجل مشغول بالنساء؟
عم شغلته المرأة ؟
ومتى شغلته ؟
وكيف شغلته ؟

لم يتحدث أحد من المؤرخين أن محمدا شغل بالمرأة عن رسالته ،
ومسئوليته .

ومن ذا الذي تفرغ لعمل ما فبلغ فيه شأو محمد في مسعاه ؟ ولو كان
تخصصه في جزئية صغيرة من تاريخ محمد ﷺ الشامل ؟
إن عظمة محمد ﷺ قد أتاحت له أن يعطي الدعوة حقها ، ويعطي المرأة
حقها ، فالعظمة حينئذ رجحان يذكر ، وليست بنقص ينكر .

(٣٩٦)

وهذا الاستيفاء السليم لكل واجباته ﷺ كمال في الرجولة ، وفي الأداء ، وفي السلوك .

ورسالة محمد إذن هي الرسالة التي يفهمها أناس خلقوا للحياة ، ولم يخلقوا نابذين لها ، ولا منبوذين منها .

وشريعته إذا هي الشريعة المطلوبة لعامة الناس في كافة العصور لما يتمتعون فيها من حلال مشروع .

وأعجب شئ أن يقال عن النبي ﷺ : إنه استسلم للذات الحس ، وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن في الطلاق ؛ لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة ، وهو لا يستطيعها .

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة ، وأغرقهن في الحرير ، والذهب ، وأطايب الملذات .

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟

أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهم ، ولا يغضب المسلمين ، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله ؟ وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء ، حتى يقال : إنه كان يفرط في ميله إلى النساء ؟

هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه؟!؟

أو هل دفعه إلى نقض العظمة ويخالف ما يحمد من سيرته؟!؟

وهل ألجأه أن يترخص فيما يرضاه أتباعه ، ولا ينكرونه عليه؟!؟

لم يكلفه شيئا من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله ، وصغيرها ، ولم نر فيه ﷺ رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون ، بل رأيناه رجلا يغلب تلك الملذات في طعامه ، ومعيشته ، وفي ميله إلى نسائه ، فيحفظها بما يملك

منها ، ولا يأذن لها أن تسومه ضربية مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسيطة قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك في قدرة النبي عليها لو أراد .
 ويزيد في غرابة اتهام النبي بالإفراط الجنسي أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ، ولا بعد زواجه ، حتى تتخبط فيه الظنون ذلك التخبط الذريع .

فمحمد كان معروفا بين الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة .

كان معروفا من صباه إلى كهولته ، فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس في ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان ، حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح ، بل عرف بالطهر والأمانة ، واشتهر بالجد والرصانة ، وقام بالدعوة بعدها ، فلم يقل أحد من شائئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه أهون الهنات .

لم يقل أحد : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى ، الذي كان من شأنه مع النساء كيت ، وكيت ، يدعوكم اليوم إلى الطهارة ، والعفة ، ونبذ الشهوات .
 كلا لم يقل أحد هذا قط من شائئيه ، وهم عديد لا يحصى ، ولو كان لقوله موضع لجري على لسان ألف قائل^(١) .

وهناك من يعترض على تعدد زوجات النبي ﷺ لمجرد التعدد في ذاته ، ويرون ذلك غير لائق بعظماء الرجال .

والذين يقولون ذلك ضعيفو العقول ، بسطاء التفكير ؛ لأنهم إن كانوا من الإباحيين الذين يعيشون بين الخليلات ، والعاشقات ، والصاحبات ، فهؤلاء لا

(١) عبقرية محمد ص ١٣٦ . ١٤٠ بتصرف .

(٣٩٨)

يصح الالتفات إليهم ؛ لأن اعتراضهم لا مقياس له ، ولا معقولية فيه ، ولأن الزواج عندهم لا قيمة له ، وحديثهم هراء لا مصداقية فيه ، ولا معنى له .
وان كانوا أصحاب دين يقول بالتعدد ، فهم قوم يحرمون على غيرهم ما أباحه دينهم ، ولذلك فإهمالهم أمر عادي ، واعتراضهم مردود عليهم ، وعليهم أن يناقشوا أنفسهم ودينهم في إباحة التعدد .

وان كانوا من أهل الكتاب "يهودا أو نصارى" ، فإن الحقيقة يجب أن تتضح وهي أن العهد القديم يذكر أن عددا من الأنبياء عدوا أزواجهم حيث لا عيب في الزواج والتعدد .

إن فرط الرجولة ليس عيبا في الرجل ، بل هو كمال وقوة إذا ظهر ضمن الإطار الذي حدده الله تعالى ، وحافظ على حقوق سائر الأطراف ، وكان عامل خير للمجتمع ، وتقدمه^(١) .

وان كان العيب في التعدد تكثير النسل ، والمساهمة في الانفجار السكاني . كما يقولون . فإن الله تعالى قدر لرسوله ﷺ أن يموت وليس له من الأبناء إلا فاطمة رضي الله عنها ، فلقد توفاهم الله تعالى جميعا في حياة النبي ﷺ ما عدا فاطمة رضي الله عنها .

وان تصور البعض أن التعدد يضر بالمرأة ، فهو معارض بما يحققه التعدد للمرأة من فوائد عديدة .

(١) الإسلام للأستاذ سعيد حوى ص ١٥٧ .

والخلاصة هي تأكيد حقيقة براءة النبي ﷺ من كل زيف أشاعه أعداؤه
حول زواجه ﷺ .

الركيزة الثانية الأسباب الخاصة بزواج رسول الله ﷺ بكل واحدة من أمهات المؤمنين

لكل زوجة تزوجها رسول الله ﷺ حكمة اجتماعية هامة ، وذلك يتضح
حين نعرف الأسباب الخاصة التي دعت رسول الله ﷺ إلى الزواج بكل واحدة
من أمهات المؤمنين :

(١) تزوج النبي ﷺ سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو الذي أسلم
واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هربا من اضطهاد المشركين ، ومات
هناك وأصبحت امرأته بلا معين ، وهى أرمل رجل مات في سبيل الدفاع
عن الحق ، فتزوجها النبي ﷺ وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان احتفاظا
بعقيدته ، وقد شاركته هذه الزوجة في أهوال التغريب والنفي ، وحماية لها
من أهلها أن يفتنوها ، لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم .

(٢) تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وعمرها زهاء خمسين عاما ، وكان
زواجه منها سببا في دخول خالد بن الوليد في دين الله ، وهو المجاهد
الكبير ، والبطل العظيم ، وهو الذي غلب الروم على أمرهم فيما بعد ، وله
في الإسلام أيام غر محجلة إلى أن زواجها بالنبي ﷺ يسر لذوى
قرباها وسيلة للعيش ، فطعموا من جوع ، وأمنوا من خوف وأثروا بعد فاقة

(٣) تزوج ﷺ جويرة رضى الله عنها وكان أبوها الحارث بن ضرار سيد
بنى المصطلق بن خزاعة جمع قبل إسلامه جموعا كثيرة لمحاربة النبي ﷺ

، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام فأبوه ، فحاربه حتى هزموا ووقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها على سبع أواق من الذهب ، فلم تر معينا لها غير النبي ﷺ فجاءت إليه وأدلت بنسبها ، وطلبت حريتها فتذكر النبي ﷺ ما كان لأهلها من العز والسؤدد ، وما صاروا إليه بسوء التدبير والعناد ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم ، ثم تزوجها فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بنى المصطلق : إن أصهار رسول الله لا يسترقون ، وأعتقوا من بأيديهم من سبيهم ، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرا لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر .

(٤) تزوج ﷺ السيدة عائشة رضي الله عنها مكافأة لأبي بكر الصديق ﷺ ، إذ كان شديد التمسك برسول الله ﷺ مولعا بالنقرب منه ، فكان ذلك قرّة عين لها ولأبويها وفخرا لذوى قرياتها ، وكان عبد الله بن الزبير (ابن أختها) ﷺ يفاخر بنى هاشم بذلك .

(٥) تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما مكافأة لزوجها الذي توفى مجروحا في موقعة "بدر" وفي تلك الحقبة كانت السيدة رقية بنت الرسول ، وزوج عثمان قد توفيت ، فعرض عمر ابنته على عثمان فأعرض عنها رغبة في أم كلثوم بضعة الرسول ليستديم له بذلك الشرف فعز هذا على عمر وأنفت نفسه فشكاه إلى أبي بكر فقال له لعلها تتزوج من هو خير منه ، ويتزوج من هي خير منها له (يريد زواج عثمان بأم كلثوم وزواج حفصة بالنبي ﷺ) .

(٦) تزوج ﷺ صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، وكانت قد وقعت في السبي مع عشيرتها ، فأراد النبي ﷺ أن يتزوجها رافة بها لأنها ذلت بعد عزة ، واسترقت وهى السيدة الشريفة عند أهلها ، وتأليفا لقومها حتى يدخلوا في كنف الإسلام ، وينضوا تحت لوائه .

(٤٠١)

(٧) تزوج ﷺ زينب بنت جحش الأسدية ، لإبطال عادة جاهلية كانت متأصلة عند العرب وهي التبني بتنزيل الدعى منزلة الابن الحقيقي ، وإذا أراد الله إبطال هذه العادة جعل رسوله ﷺ أسوة حسنة في هذا .

الركيزة الثالثة

حاجة المسلمين إلى التعدد

إن النظرة العامة للمسلمين جميعا تدعو إلى إباحة التعدد ، ونعرض بعض الصور الاجتماعية الضرورية أمام أصحاب القلوب الفاهمة ليروا حكمة التعدد في الإسلام .

والأمثلة على فوائد التعدد للمرأة عديدة منها :

- أن تكون الزوجة عقيما والرجل يريد الولد ، فإن من الخير لها أن يتزوج ثانية عليها ، وتبقى في رعايته .
- أن تكون مريضة يرعاها زوجها ، ومن الخير لها أن يتزوج أخرى وتبقى هي في عصمته .
- أن يملك الرجل طاقة "أي شيقا" ويحتاج لأكثر من زوجة فزواجه أفضل من ارتكابه الحرام .
- وحينما تكثر النساء عقب الحروب فإن التعدد هو العلاج لذلك ، والا فسد المجتمع كله .

إن التعدد في هذه الحالات أكرم للمرأة لتعيش في كنف رجل يرعى حقوقها ، بدل أن تضيق في معترك الحياة الضروس ، وهو أكرم للمجتمع حفاظا على الطهر والفضيلة ، وضمانا ، لحقوق كل فرد فيه ، وهو أكرم للرجل ليصل ما بينه وبين الناس بذرية صالحة ، وأسرة كريمة حانية .

أحكام وآداب فى آيات الحجاب

يقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِىَّ فَيَسْتَحِىءَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِىءُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥١﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٢﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٣﴾ إِنْ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٤﴾ ۞ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

نزلت هذه الآية يوم تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش رضى الله عنها فعن أنس رضي الله عنه قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش رضى الله عنها دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا

(٤٠٣)

القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه وأنزل الله قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات حكم زواج النبي ﷺ وأدبه ﷺ مع زوجاته جاءت هذه الآيات لتشريع حجاب زوجات النبي ﷺ ، وضرورة الاستئذان عليهن ، وطريقة التأدب معهن ومع سائر المؤمنات .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات عدة أحكام هي :

- (١) ضرورة الاستئذان قبل دخول بيت النبي ﷺ .
- (٢) من دعى إلى طعام فلينتشر ولا يجلس بعد الطعام .
- (٣) سؤال أمهات المؤمنين من وراء حجاب بعد فرضه .
- (٤) كمال علم الله بكل شئ ، وأنه سبحانه وتعالى قد رفع الحرج عن المرأة عند لقاء الآباء والإخوة والأرحام .
- (٥) ضرورة المحافظة على حقوق النبي ﷺ وأهمية استمرار الصلاة عليه ﷺ .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

تبين الآيات عددا من الآداب التي يجب أن يتخلق بها المسلمون مع رسول الله ﷺ ومع أنفسهم ... وهي :

(١) دخول البيت بعد الإذن به :

(١) تفسير المراغى ج ٢٢ ص ٢٨ .

يقول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا

أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِرِينَ إِنَّهُ ﴾ تبين الآية حكما شرعيا يتصل بأدب الاستئذان ، وتخص المؤمنين بالنداء لأنهم الأسرع في الإجابة ، وأن هذه الاستجابة دليل على إيمانهم .

وفى هذا النداء نهى عن دخول بيوت النبى حين الدعوة إلى طعام قبل نضجه ، لأن المدعو إذا دخل قبل إعداد الطعام فإنه يبقى وقتا يكون أهل البيت فيه مشغولين بإعداد الطعام ، وقد يلبس خلاله ثياب المطبخ والعمل ، ولا يرغب أن يراهم أحد على حالتهم وربما بدت منهم عورة لا يصح لأجنبى أن يراها .

ومعنى ذلك أن دخول بيت النبى ﷺ يتوقف على أمرين هما الدعوة ، والإذن ، مقترنين أو منفصلين .

وخصت الآية دخول بيت النبى ﷺ بدعوة الطعام جريا على عادته ﷺ فإنه كان يجلس فى المسجد يقابل من يقصده ، أو يأتيه زائرا ، أو مستفتيا ، أو مبايعا ، ومن المسجد كان يقود الناس داعيا ، ومبشرا ، ونذيرا ، واماما .

﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ أى إذا دعاكم صاحب البيت وهو رسول

الله ﷺ وأذن لكم فادخلوا لقضاء ما دعيتم إليه .

(٢) عدم الانتظار بعد الطعام :

أى من الأدب مع النبى ﷺ ومع المؤمنين أن من يدعى إلى الطعام فعليه أن يخرج من البيت بعد الأكل فقد تحققت الغاية التى دعى لها ، وعليه أن ينتشر فى الأرض للعمل ، وابتغاء فضل الله تعالى ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ ولا تظلوا جالسين فى البيت بعد الأكل ﴿ وَلَا

مُسْتَعْسِينَ لِحَدِيثٍ ﴿ أَى وَلَا تَظْلُوا فِى الْبَيْتِ لِتَأْتُوا مَعَ غَيْرِكُمْ بِالْأَخْبَارِ الْغَرِيبَةِ ، وَالسِيرِ الْمُتَعَدَّةِ ، وَالْحَدِيثِ الْمَعْجَبِ ، وَالْفَكَاهَةِ الْمُضْحَكَةِ ، وَالْخَرَافَاتِ الْمُنْتَشِرَةِ ، وَهَذَا يَحْدُثُ مِنَ الثَّقَلَاءِ ، فَهَمْ لَا يَرَاعُونَ مَشَاعِرَ غَيْرِهِمْ ، وَيَجْلِسُونَ بَعْدَ الطَّعَامِ بِلَا دَاعٍ وَلَا رَغْبَةٍ ، وَهَذَا مِنْ مَسَاوِئِ الْخَلْقِ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَنْ عَمَدٍ فَهُوَ مِنْهُى عَنْهُ لَضَرَرِهِ ... وَإِنْ كَانَ عَنْ غَيْرِ عَمَدٍ فَهُوَ سُلُوكٌ خَالٍ مِنَ الذُّوقِ ، وَمِرَاعَاةِ الْقِيَمِ الْحَسَنَةِ .

﴿ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِىَّ فَيَسْتَحِىْ مِنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِىْ مِنْ الْحَقِّ ﴾ أَى إِنْ اللَّبِثَ وَالْمَكْثَ ، وَالْجُلُوسَ فِى بَيْتِ النَّبِىِّ ﷺ بَعْدَ الْأَكْلِ كَانَ يُؤْذَى النَّبِىَّ ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ قَضَاءِ بَعْضِ حَاجَاتِهِ ، وَيَضِيقُ الْبَيْتَ عَلَى أَهْلِهِ ، وَيَعْطَلُهُمْ عَنْ مَهَامِهِمْ ... وَكَانَ ﷺ يَسْتَحِىْ مِنْ إِخْرَاجِ ضِيُوفِهِ ، وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْجُلُوسِ ... إِلَّا أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ الْحَقَّ ، وَيُرْشِدُ إِلَى السُّلُوكِ السَّوِىِّ ، وَلِذَلِكَ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْجُلُوسِ بَعْدَ الْأَكْلِ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْخُرُوجِ ، وَيَعْلَمُكُمْ السُّلُوكَ السَّوِىِّ .

(٣) فَرَضُ الْحِجَابِ :

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أَى إِذَا سَأَلْتُمْ أَبْهَاءَ الْمُسْلِمِينَ أَمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ أَى امْرَأَةً أُخْرَى مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فَاسْأَلُوهُنَّ وَهَمَّ خَلْفَ سِتْرٍ ، مَتَجِبَاتٍ عَنْكُمْ .

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، فَلَوْ أَمَرْتُ أَمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ فِى صَبِيحَةِ عَرَسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَزِينَتِ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِى ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَهِيَ مِمَّا وَافَقَ تَنْزِيلُهَا قَوْلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٤٠٦)

﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أى أن حجاب أمهات المؤمنين

ونساء المسلمين ، وسؤالهن ، والحديث معهن حين الحاجة من وراء ستر طهارة للقلوب ، وصيانة للأعراض .

إن حجاب المرأة المسلمة يقوى طهارة القلوب ، وينجى الروح من وساوس الشيطان ، لأن قلوب الرجل والمرأة تبقى طاهرة بالتقوى ، وتعظيم حرمان الله ، وحرمة النبي ﷺ ، إلا أن التقوى لا تصل بهم إلى درجة العصمة ، ولذلك أراد الله أن يزيدهم منها بما يكسب المؤمنين مراتب من الحفظ الإلهي ، ويبعدها عن الخواطر الشيطانية بقطع أسبابها ، وما يقرب أمهات المؤمنين من مرتبة العصمة الثابتة لزوجهن ﷺ فإن الطيبات للطيبين .

وأیضا فإن للناس أوهاما خيالية ، وظنونا سيئة تستقبل إشاعة السوء ، وتنشرها بلا وعى كما حدث فى قضية الإفك ، ولذلك شرع الله حجاب أمهات المؤمنين قطعا لكل تقول وارجاف بعمد أو بغير عمد .

وفى تشريع الحجاب لأمهات المؤمنين زيادة تقرير معنى أمومتهم للمؤمنين ، فى قلوب المؤمنين التي هي أمومة روحية شرعية بحيث تنعكس هذه الأمومة الروحية المعنوية إلى باطن النفس ، بعيدا عن الصور الذاتية فيصبح معروقات بعنوان الأمومة .

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أى وما صح من مؤمن

ولا مؤمنة أن يؤذى رسول الله ﷺ بالمكث فى بيته ، أو النظر إلى عورات أمهات المؤمنات ، والمؤمن يحب رسول الله أكثر من نفسه ، ويتجنب أى أمر يؤذيه ، ويعلم أن إيذاء رسول الله يبعده عن الإيمان ، ويجعله مع المفسدين .

(٤٠٧)

(٤) عدم نكاح احدى زوجات النبي ﷺ :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ أى ولا يجوز أبدا أن ينكح أحد من المسلمين احدى زوجات رسول الله ﷺ إذا فارقتها الرسول بموت أو طلاق ، زيادة فى شرفه ﷺ واطهارا لعظمته وجلاله ولأنهن أمهات المؤمنين ، والمرء لا يتزوج أمه .

﴿ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ أى إن زواج احدى نساء النبي بعد أن يفارقها خطب عظيم ، وعذابه أليم شديد .
والحمد لله فقد التزم المسلمون بالأدب مع رسول الله ﷺ ولم يحدث فى الواقع شئ مما نهى الله عنه مع أمهات المؤمنين .

﴿ إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى إن موقفكم من الآداب التى أمركم الله بها أو نهاكم عنها يعلمها الله تعالى أخفيتموها أو أظهرتموها ، ويحاسب عليها ، وهو اللطيف الخبير .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ أَلْفَافًا وَلَا بَنَاتِهِمْ وَلَا أُخَوَاتِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أى لا جناح ولا إثم فى ترك الحجاب مع آبائهن ، أو أبنائهن ، أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن ، أو النساء المسلمات ، أو العبيد ، والإماء لما فى ذلك من حرج مع هؤلاء ، ويستوى فى ذلك النسب والرضاعة .

﴿ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ ﴾ أى واخشين الله فى السر والعلن ، والتزمين بالحجاب فى أطره المشروعة .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أى إن الله شهيد على

كل شئ ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أى إن عظمة رسول

وجلاله كبير عند الله تعالى ، وعند الملائكة ، ويجب أن يكون عظيما عندكم أيها المسلمون ، وأن تلتزموا الأدب معه وتصلوا عليه كما صلى الله عليه والملائكة كل على قدره وبمعناه ، لأن الصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن الناس ثناء ودعاء وطاعة .

وقد أراد الصحابة أن يعرفوا كيفية الصلاة على النبى ﷺ ، ولذلك سألوا النبى ﷺ عن كيفية هذه الصلاة قالوا : "يا رسول الله هذا السلام عليك قد علمناه فكيف نصلي عليك" ؟ يعنون أنهم علموا السلام عليه من صيغة بث السلام بين المسلمين ، وفي التشهد ، فالسلام بين المسلمين صيغته : السلام عليكم . والسلام في التشهد هو "السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته" أو "السلام على النبى ورحمة الله وبركاته" .

فقال رسول الله : قولوا : "اللهم صل على محمد ، وعلى أزواجه ، وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد" (١) .

وجاءت الآية آمرة بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، ولذلك وجب على المسلم أن يصلى على رسول الله ﷺ ولو مرة واحدة في العمر ، واستحب للمسلم أن يصلى ويسلم على النبى ﷺ مرات عديدة كثيرة فلقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصلون على النبى ﷺ كلما تذكروه .

(١) صحيح مسلم . كتاب الصلاة . باب الصلاة على النبى ﷺ ج ١ ص ٣٠٦ .

فلقد ثبت أنه لما توفي رسول الله ﷺ واعتري عمر رضي الله عنه من الدهش ما هو معلوم ، وتكلم أبو بكر رضي الله عنه بما هو معلوم قال عمر رضي الله عنه : إنا لله وإنا إليه راجعون صلوات الله على رسوله ، وعند الله نحتسب رسوله .

عن أسماء بنت أبي بكر أنها كانت تقول كلما مرت بالحجون "صلى الله على رسوله محمد وسلم لقد نزلنا معه هاهنا ونحن يومئذ خفاف" (١) .

وعن فاطمة بنت الحسين عن جدتها فاطمة الكبرى رضى الله عنهن قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد ﷺ وقال : رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلى على محمد وسلم وقال : رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك (٢) .

والسلام معلوم في تحية الصلاة ، وهو يعنى الأمان والتسليم ، وقد شرعه الله تحية للأولين السابقين عند اللقاء ليأمنوا الغيلة ، والثأر ، والعدوان ... وجعله الله تحية الملائكة للمؤمنين يوم القيامة .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أى وعليكم أيها المؤمنون أن توقروا رسول الله ، وتعظموه كما أكرمه الله ، وكما عظّمته الملائكة ، وذلك بأن تصلوا عليه بالأسنتكم وقلوبكم ، وتسلموا أركانكم لمنهجه ، وتتقادوا لدين الله كما بلغكم به .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات بعض الآداب التى أمر الله بها عباده المؤمنين ليتبعوها مع رسول الله ﷺ وفى حياتهم .

(١) صحيح البخارى . كتاب الحج . باب متى يحل المعتمر ج ٣ ص ٧ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب الصلاة . باب ما يقول عند دخول المسجد ج ٢ ص ١٢٧ .

(٤١٠)

وقد أمرهم الله تعالى بعدم دخول بيت النبي ﷺ إلا بعد الإذن بالدخول وأنهم إذا دعوا إلى طعام لا يدخلون إلا بعد تجهيز الأكل ، لأنهم إن دخلوا قبل ذلك سيشغلون أهل البيت ، ويفسدون راحتهم في العمل ، ولا فائدة في هذا الانتظار ... فإذا انتهوا من الطعام فليصرفوا إلى أعمالهم حيث لا فائدة من جلوسهم في البيت بعد الأكل .

إن المكث في البيت كان يؤذى النبي ﷺ ومن أدبه ﷺ أنه لم يبين لكم ذلك حتى لا يغضبكم ، ويسئ إليكم ، والله يبين لكم الحق لتتبعوه وتتركوا أذاه ﷺ .
ويأمر الله المؤمنين بمخاطبة أمهات المؤمنين ، وسائر المؤمنات من خلف ستار ، فلقد فرض الله الحجاب طهرة للقلوب ، وحماية للأعراض ، ومنعا لأذى رسول الله ﷺ وبعدا عن أذى المؤمنين والمؤمنات .

كما يأمرهم بعدم الزواج بواحدة من أمهات المؤمنين بعد فراق الرسول لها بموته ﷺ أو بطلاقها .

وليعلم الناس أن الله عليم بكل أمر ، قادر على كل شيء ، وأنه سبحانه وتعالى أعلى مقام نبيه ، وأثنى عليه فكونوا مثله في حب النبي ﷺ واتباعه ... والانقياد لحكمه ، والاستقامة على دينه ﷺ .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية تحديد الحركة والمسار

في حركة الدعوة الإسلامية

توجهنا الآيات إلى ركيزة كبرى تقيد المسلمين أفرادا وجماعات في حركة

الحياة ، وتناديهم بأهمية التخطيط والتنظيم فى العمل والحركة حتى لا يضيعوا وقتنا ، أو يفسدوا عملا .

لقد خلق الليل والنهار ، ووزع العبادات على الأوقات ، وجعل لكل مخلوق عملا ، ولكل عنصر فى الإنسان حقا ... ونادى فى المسلمين إذا دعوا لطعام أن ينصرفوا بعد انتهاء الأكل والطعام ، ولا يضيعوا الوقت فى الجلوس والسمر ولغو الحديث .
ومن هنا ...

نقول للدعاة نظموا عملكم ، ووزعوا مهامكم على أوقاتكم ، ووازنوا بين المهام ، ولا تهتموا بأمر ، وتتركوا ما عداه ... فسر النجاح هو النظام ، ونجاح الدعوة يكون بأدائها فى وقتها ، وعلى وجهها الصحيح .

الركيزة الثانية

طهارة القلب أساس البناء الصحيح

صناعة الإنسان من أخطر وأهم الصناعات فى هذا الوجود ، وسبب ذلك أن الإنسان ليس آلة تحركها الأصابع ، أو عقلا تحكمه الأعداد والنظريات ، ولا هوى توجهه الزينة والزخارف .

إن الإنسان هو كل ذلك فى تماسك وترابط ، فإذا حاول عالم علاج جانب فى الإنسان فعليه أن يلحظ الجوانب الأخرى ، ويدرك مدى التأثير والتأثر فيما بينها ... ولا يستطيع ذلك على وجه الدقة إلا خالق الإنسان ، وهو الله رب العالمين ... ولذلك وجب اتخاذ منهج الله فى تربية الإنسان وتوجيهه .

إن إصلاح الإنسان فى منهج الله يتم بما يلى :

(٤١٢)

أولاً : الاهتمام ببناء البدن على أساس صحى سليم لأن العقل السليم فى الجسم السليم .

ثانياً : تنظيم المؤثرات الحسية لتمد صاحبها بالأعمال الطيبة وتمكنه من الخير قولاً وعملاً مثل إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ونشر التعليم ، والتعاون على البر والتقوى فإن لتلك الأعمال الحسية آثاراً طيبة على القلب والضمير .

ثالثاً : طهارة القلب ، ويأتى ذلك أثراً من آثار إصلاح المدركات الحسية ، والاكتثار من الأعمال الصالحة .

رابعاً : وضع القلب فى مكان قيادة الإنسان ، وهذا ما دعا الله إليه بعدما رى القلوب على العفة والطهارة .

خامساً : يجب تجنب ما نهى الله عنه فهو سوء يضر ولا يفيد .
وعلى الدعاة تقع مسئولية كبرى لنشر الإسلام ، وحمايته من الأفاكين ، ولا يمكن للدعاة تقديم قيم الإسلام ، وتوضيح آثارها فى الحياة الفردية والجماعية ، ومؤيداتها فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية .

(٤١٣)

العذاب الأليم للمعتدين

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما أمر الله في الآيات السابقة بضرورة احترام رسول الله ﷺ ، وطاعته جاءت هذه الآيات تنهى عن إيذاء الله ورسوله بالمعصية ، والفسوق والإعراض عن الإيمان ، وإيذاء المؤمنين بالاتهام الكاذب ، والعدوان الآثم .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الذين يؤذون الله ورسوله بالمعاصي ، والأقوال الباطلة ملعونون في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب أليم ، وأن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات واتهامهم بالكذب والتعدى عليهم يعاقبون بعقاب شديد .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ ﴾ وهم معارضو الدين ، القائلون في الله بغير علم ، ومنهم من قال : ﴿ عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ ﴾ ، ومنهم من قال : ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ ﴾

اللَّهِ ﴿١﴾ ، ومنهم من قال : "الملائكة بنات الله" ، ولا يصدقون بالحق الذى بلغهم عن الله تعالى ، ويستمرون على الكفر والشرك والمعاصى ، وهذا الإيذاء يعود أثره عليهم بالويل والثبور فى جهنم ويئس المصير .

روى أبو هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ الحديث القدسى الذى رواه عن ربه قال : قال الله عز وجل يؤذنى ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر بيدي أقلب الليل والنهار (٢) .

وعن أبى هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : "قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا حبة ، وليخلقوا ذرة" (٣) .
وعلى هذا فايذاء الله يعنى مخالفة أمره ، وارتكاب معاصيه ، لأن الله لا يلحقه أذى من أحد .

﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على الله ليتكلم عن الذين يؤذون رسول الله بالآقوال الكاذبة مثل دعوى أنه ساحر ، أو شاعر ، أو كذاب ، وبالأفعال الضارة كوضع الشوك أمام بيته ، وكسر ربايعيته يوم "أحد" ، وصد الناس عن دينه ، والإعراض عن طاعته ، وعدم الدخول فى دينه .

﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى أن من يؤذى الله ورسوله يطرده

الله من رحمته فى الدنيا ، ويبعده عن نعمه وفضله فى الآخرة .

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وهى لهم مع لعنته عذابا شديدا يهينهم ،

ويحرقهم .

(١) سورة التوبة ، الآية ٣٠ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب التفسير . باب ﴿وَمَا يُلْكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ج ٦ ص ١٣٣ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب اللباس . باب نقض الصور ج ٩ ص ١٦١ .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾

أى والذين يرمون المؤمنين والمؤمنات بالتهم ، ويصفونهم بالقبح ، ويقعون فى شأنهم بغير عمل قاموا به ، ولا بينة معهم على قولهم .

ويشمل هذا الإيذاء كل اتهام ، وأغاليط يثيرها أعداء الله على المؤمنين والمؤمنات بلا دليل معهم ، ولا حجة تشهد لهم مثل اتهامهم لعائشة رضى الله عنها بالزنا ، والكذب على الصحابة ، وجهرهم بالفحشاء والمنكر .

وليس قوله تعالى : ﴿بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ شرطا يبيح لهم إيذاء المؤمنين لو اكتسبوا لأن أى إيذاء للمسلم لا يجوز ، وسوف يعاقب الله عليه . فقد سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة .

فقال ﷺ : الغيبة أن تذكر أخاك بما يكره .

قيل : يا رسول الله ، وإن كان فيه ؟

فقال ﷺ : إن كان فيه فقد اغتبتبه ، وإن لم يكن فيه فقد بهته^(١) .

﴿فَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ الْغُتَّاءَ﴾ أى تحمل هؤلاء الكاذبون عدوانا

واضحا ، وظلما كبيرا ، وإنما بينا يستحقون عليه العذاب الأليم .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الذين يؤذون الله بالكفر المعاصى ، ويؤذون الرسول بالاتهام الكاذب ، والعمل الضار ، ويؤذون المؤمنين والمؤمنات بالاتهام واللعن يلعنهم الله ويطردهم من رحمته ، ويجعل لهم فى الآخرة عذاب السعير .

(١) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة والآداب . باب تحريم الغيبة ج ٤ ص ٢٠٠١ .

(٤١٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

ضرورة تجنب أذى الناس

المسلم إنسان ذو خلق ، يتمسك بالهداية ، ويحيا بحسن المعاملة ... لا يعرف الحقد أو الكراهية ، ولا يميل إلى الظلم والعدوان ، وانما يعمل بدين الله ، وينتصر لله فقط ، ويتعاون من الناس ، وينصحبهم ، ويسعى فى تحقيق الخير لهم .

إنه يشعر بمسئوليته الدينية ، ويجتهد لنشر دين الله بين الناس ، ويعمل ليتحاب الناس ، وينتشر الود بينهم .

ولقد ضرب الله للمسلمين مثلا هاديا حين نصره رسوله ﷺ بين العرب ودانت له مكة كلها ، وظن المشركون أن محمدا ﷺ سينتقم منهم إلا أنه ﷺ واجه من أذوه ، وتعدوا عليه ، وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء^(١) .

لقد حرم الله إيذاء النبى والمؤمنين والمؤمنات ، وطرد من يفعل ذلك من رحمته ، وأعد لهم عذابا أليما .

ومنع الله إيذاء غير المسلمين ، وحث على عدم إيذاء الحيوانات ، وسائر المخلوقات ، ووضع لكل عمل أدايه .

إن المسلم داع إلى الله بخلقه وسلوكه وأقواله ، وواجب عليه أن يلاحظ ذلك فى تعاملاته مع الناس .

إن طاعة الله واجبة ، وحب رسول الله دين ، والتعاون بين المسلمين يصنع الأمة الفاضلة .

(١) السنن الكبرى للبيهقى . كتاب السير . باب فتح مكة حرسها الله ج ٩ ص ١٩٩ .

ضرورة التستر من المعتدين

يقول الله تعالى :

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥١﴾ لَّيْنٌ لِّمَنْ يَنْتَهِيَ الْمُنَافِقُونَ ۚ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۚ مَلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا تُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ۚ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۚ ﴿٥٢﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن من يؤذى الله ورسوله والمؤمنين فقد احتمل بهتاناً ، واثماً كبيراً جاءت هاتان الآيتان تأمر بفعل ما يرد الأذى ، وتحذر المنافقين والكاذبين من سوء ما يفعلون .

- ٢ -

موضوع الآيات

تأمر الآيات النبي ﷺ أن يأمر زوجاته وبناته ، وسائر نساء المسلمين بلبس الملابس الساترة ، وادناء الجلابيب على الصدور لأن ذلك أقرب لتحقيق العفة ، والطهارة ، وصرف الأنظار عن المرأة .
وتهدد الآيات المنافقين ، والمرجفين ، وضعاف الإيمان بشن الحرب عليهم إذا لم ينتهوا عن سفاهتهم ، وعدوانهم ... فلقد لعنهم الله أينما وجدوا ،

وهزمهم ، وقتلهم ، وجعل ذلك سنة فى الذين سبقوا ، ولن تتبدل هذه السنة إلى يوم القيامة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلًّا لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ﴾ ينادى الله رسوله ، ويأمره أن يقول للنساء وبخاصة زوجاته ، وبناته ، والمؤمنات ، ويأمرهن بأن يدنين عليهن من جلابيهن . والجلاليب جمع جلباب وهو ثوب أصغر من الرداء ، وأكبر من القناع والخمار ، تضعه المرأة على رأسها فيتدلى جانباه على عذاريها ، وينسدل سائرته على كتفها وظهرها .

﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أى إن لبس الجلباب أقرب لظهورهن عفيفات طاهرات ، فلا يتعرض لهن أحد ، ولا يلقاهن مكروه من السفهاء .
﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى إن الله غفار رحيم لمن وقع في إثم ، ثم تاب ورجع إلى الله تعالى .

ولما أمر الله المؤمنات بلبس الثياب الساترة للعورة حذر الرجال الذين هم مظنة تتبع النساء ، والنظر إليهن فقال تعالى : ﴿ لِّئَلَّا يَكُنَّ لِلنَّاسِ شَحَافَ الْغُرُبَاتِ وَالْمُرْجُفُونَ ﴾ حذرت الآية ثلاثة أصناف من الناس يذيعون الأكاذيب حول عورات المسلمات وهم :

(١) المنافقون ، وهم الذين يعلنون الإيمان ، ويبطنون الكفر ، وهم أخطر على المسلمين من الكافرين لظن كثير من الناس إيمانهم فيتعاملون معهم على أنهم مؤمنون ، وهم على خلاف ذلك .

(٢) الذين في قلوبهم مرض ، وهم ضعاف الإيمان الذين يمتلئ باطنهم

بالشك والريب ، ويدور حالهم بين الإيمان والنفاق .

(٣) أهل الإرجاف ، وهم الذين ينشرون الأكاذيب في المدينة وسط الناس مثل

الحديث عن ضعف المسلمين ، وقلة عدتهم وسلاحهم ، ونشر أخبار

البعى ، والفحشاء ، والمنكر .

﴿ لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أى إن لم يحذر هؤلاء الناس ما يقومون به من

إلحاق الأذى بالمؤمنات ليسلطنك الله عليهم ، ويدعوك إلى حربهم ، ويوجب

عليك قتالهم ، واخراجهم من المدينة ، ويتم الإغراء بالأمر بقتالهم ، واطهار

ضعفهم ، وسهولة النصر عليهم .

﴿ ثُمَّ لَا تُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى إن أغراك الله بهم ، ودعاك

إلى قتالهم فلن يعيشوا معك ... ولئن قاتلتهم يا محمد ستهزمهم ، وستخرجهم من

المدينة ، وينتهى جوارهم لك فيها .

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ أى هؤلاء الناس ملعونون ، ومطردون

من رحمة الله تعالى أينما وجدوا لسوء أفعالهم وأقوالهم .

﴿ أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴾ أى أنهم فى كل مكان يقيمون فيه سيؤاخذون

بأعمالهم ، ويقتلون تقتيلا دائما .

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

أى إن هذه هى سنة الله تعالى فى الأمم السابقة فقد لعنهم ، وأهلكهم ، ولن تتبدل

هذه الطريقة مع الأمم الأخرى .

(٤٢٠)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أمر الله تعالى للمؤمنات بلبس الحجاب ، وارتداء الجلباب لما فى ذلك من تحقيق الطهارة ، وتيئيس مرضى القلوب من إيذاءهن والنظر إليهن .

وتحذر الآيات المنافقين والمرجفين من إيذاء المؤمنات لأنهم إن لم ينتهوا سيسلط الله عليهم المؤمنين لينتقم منهم ، ويمنعهم من البقاء فى المدينة ، فقد لعنهم وطردهم من رحمته ... فتلك سنة الله فى الأمم السابقة ، ولن تتبدل وتتغير .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

القيادة ريادة فى العمل والسلوك

القائد مسئول عن كل ما ينادى به ، ويحث غيره عليه ، فهو مسئول عن نفسه أولا ، ومسئول عن غيره بعد ذلك ، ولذلك لما أمر الله بالحجاب بدأ رسول الله ﷺ بتطبيق الحجاب على زوجاته وبناته ومعهن أمر المؤمنات جميعا به . ليست القيادة فى الإسلام ترفا ، وانما هى مسئولية وريادة ، لأن الجماهير والعامة تتأثر بالعمل أكثر من تأثرها بالقول ، ولأن عمل القائد برهان صدقه ودليل حجته فى الدعوة ، وصحة ما يقول به . فمن يأمر بالصلاة عليه أن يبدأ بها حتى لا يشك المستمع فى دعوته ، ويظن به السوء ويقول : لو كان فى نصحه خير لسبقنا إليه .

(٤٢١)

والنبي ﷺ كان إذا أمر بأمر كان أسبق الناس إليه ، ولو نهى عن شئ كان أسرع الناس لتركه .

ولذلك كانت هذه الركيزة للدعاة نهمس في آذانهم ليهتموا بالعمل والتطبيق ولا يعلموا عملا يخالف قولهم ، وأن يؤكدوا دعوتهم بأعمالهم ، وسلوكهم .

الركيزة الثانية

أهمية الحذر من الخصوم

يوجد في الناس مؤمن ، وكافر ، ومنافق ... وكان المأمول أن يقرر كل إنسان لنفسه ما يرى بلا عدوان على غيره ، أو استهزاء به ، إلا أن ذلك الأمل لم يحدث ، فكثر الصراع بين أصحاب الأديان والمذاهب ، وأخذ كل فريق يحاول أن ينتصر لفكرته وهدم الأفكار الأخرى ... وهذه قضية واقعية بين الناس ، ولذلك وجب أن يعرف الدعاة والمسلمون خصومهم ، ويأخذوا الحذر منهم ، ويصونوا المجتمع من كيدهم ومكرهم .

والآيات تعرف بالخصوم بصورة مجملة ، فهم المنافقون الذين يعلنون للمسلمين أنهم معهم ، وإذا لقوا الكافرين قالوا : إنا نستهزئ بالمسلمين ونحن معكم ... وخطر المنافقين شديد لأنهم يخادعون المسلمين ، حتى يعاملوهم معاملة المؤمنين ، ويتقوا فيهم ، وهم خائنون .

وضعاف الإيمان هم أناس لم يثبت الإيمان في قلوبهم ، فهو يؤمنون أحيانا ، ويشكون أحيانا أخرى ، وهذا الفريق يضر المسلمين لأنه يعطى صورة سيئة عن الإسلام والمسلمين .

والمرجفون في مكة جماعات يهتمون بنشر الإشاعات ، وإذا عتها بين الناس ، ويحاولون إضعاف المسلمين ، ونشر الذعر بينهم ... هؤلاء هم أظهر أعداء الإسلام ، وخطرهم كبير في المجتمع .

(٤٢٢)

ويجب على الدعاة تتبع أعمال الخصوم ، والرد عليها ، وتقوية المسلمين علميا وعمليا ، ... وعلى كل مسلم أن يتمسك بدينه ويدافع عنه ، ويعلم هديه وحكمه وأحكامه .

الركيزة الثالثة

النصر فى النهاية للمؤمنين

يدور الصراع بين أهل الحق وبين أصحاب الباطل إلا أن الله ينصر عباده المؤمنين فى النهاية .

وقد بينت الآية تلك الحقيقة ، وهددت بها أعداء الإسلام فى مكة ووضحت أن تلك هى سنة الله فى الأمم السابقة ، ولن تتغير ، والأمر يحتاج إلى ما يلى :

(١) أن يعرف المؤمنون دورهم ، ومسئولياتهم ، ويحافظوا على تعاليم الله إليهم ، ويتمسكوا بمنهج القويم ليستحقوا نصر الله ومعونته .

(٢) أن يعرفوا الناس بالإسلام ، ويبلغون تعاليمه بالحسنى ، ويبشرون من أطاع بالجنة ، ومن عصى بالنار ليختار كل لنفسه .

لا يصح أن يعيش المسلمون والإسلام غريب عنهم ، لا يفهمون منه إلا المسمى ، ولا يدركون من تعاليمه إلا القشور .

ولا يصح من الدعاة أن يغفلوا تبيان الإسلام للناس فدورهم هو التعليم والتعريف بالإسلام ... وبدون العلم يختفى الإسلام من واقع الحياة ، وينساق البسطاء مع مكائد الفاسدين .

إن مهمة الدعاة اليوم شديدة أمام انتشار البدع ، وكثرة الفرق ، ونشاط المبشرين والمفسدين .

إن الله ينصر رسله وعباده ، ولا يضيع أجر من أحسن عملا .

(٤٢٣)

هوان الكافرين يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا ۖ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٨﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا
أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا
السَّبِيلَ ﴿٢٠﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن أُنذرت الآيات السابقة المنافقين والمرجفين وضعاف الإيمان ،
وبينت حالتهم في الدنيا جاءت هذه الآيات تؤكد وقوع الساعة ، وتبين أحوال
الكافرين والمنافقين فيها .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الناس جميعا يسألون عن مجئ الساعة ، وترشد النبي ﷺ
أن يقول لهم : إن علم الساعة وكل ما يتصل بها عند الله لا يعلمها إلا هو ،
كما تبين أن الله لعن الكافرين ، وحرّمهم من رحمته ، وأعد لهم عذابا أليما يوم
القيامة حيث تتقلب وجوههم ، وأجسادهم في نار جهنم ، وحينها يندمون ويقولون
: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله ، ويحاولون إلقاء الذنب على سادتهم وكبرائهم
لأنهم قادوهم إلى الجحيم ، ودعوا عليهم بمضاعفة العذاب ، ولا قيمة لاعتذارهم
وندمهم ، فقد دعوا إلى الله ، ولم يؤمنوا .

(٤٢٤)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ يخبره الله فيه أن

جميع الناس يسألونه عن الساعة .

فالمؤمنون يسألون عن الساعة حبا في معرفة ما غاب عنهم ، وقد نهوا

عن ذلك ، فلقد روى أن صحابيا سأل رسول الله عن الساعة .

وقال : متى الساعة ؟

فقال له النبي ﷺ : ماذا أعددت لها ؟

فقال الرجل : والله يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ، ولا صوم سوى أنى

أحب الله ورسوله .

فقال ﷺ : أنت مع من أحببت^(١) .

والكافرون المكذبون بالساعة يسألون عنها تهكما ، وسخرية ، وهؤلاء

يقول الله عنهم : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾^(٢) .

والمنافقون يسألون عن الساعة ليجدوا مطعنا في حقيقتها يتخذونه سبيلا

للطعن فيها ، وفي الإسلام كله .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ؟ ... الاستفهام تقرير للحقيقة

وفيه يسأل الله رسوله عن الشئ الذى يخبره بموعدها حيث لا وجود له ، فقد

أخفى الله وقتها عن رسول الله ﷺ واختص بعلمها سبحانه وتعالى حيث قال الله

تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾^(٣) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب علامة حب الله عز وجل ج ٨ ص ٤٠ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ١٨ .

(٣) سورة النازعات ، الآية ٤٤ .

(٤٢٥)

ولذلك لا تدرى يا محمد موعدھا فقد تكون فى زمن بعيد ، وقد تكون فى زمن قريب ، وبعد ذلك أخذت الآيات تعدد ما أعد الله للكافرين فى الآخرة فقد أعد لهم ما يلى :

(١) اللعن والطرء من رحمة الله :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى طرد الكافرين من رحمته ، فلن يروا خيرا قط ، فقبورهم حفرة من حفر النار وحشرهم يتم والشمس فوق رؤوسهم ، والخزى يحتويهم ، وشدة الحساب تهولهم ، وسوء المنقلب يبدو لهم .

(٢) الاصطلاء بنار السعير :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ أى أن الله هيا ، وجهز للكافرين نارا خاصة بهم يدوم أوارها ، ويستمر عذابها ، ويستقرون فيها .

(٣) عدم وجود المعين أو الناصر :

يقول الله تعالى : ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى أن الكفار حين الحساب لا يجدون وليا يتولى أمرهم ، أو نصيرا ينصرهم ، أو شفيعا يشفع لهم .

(٤) الندم والحسرة :

يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ أى إن الكافرين فى يوم القيامة يلقون فى نار السعير ، ويقلبهم الله فى نار جهنم بغير اختيار منهم كما يقلب الشواء ليشوى من جانبيه .

(٤٢٦)

وقد يكون التقلب للوجه وحده حقيقة ، إلا أن الأولى اعتباره للبدن كله
وانما خصت الآية الوجه بالذكر مجازاً لأنه أشد ما يظهر عليه الحريق ، وكل
الحواس الرقيقة فيه ، حيث السمع ، والبصر ، والتنفس ، والإحساس .
وتظهر الحسرة على الكافرين وهم يتمنون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا
رسوله ﷺ فقد بان لهم صدق الله ﷻ ورسوله .

(٥) محاولة البراءة من الكفر :

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا
الَسَّبِيلَ ﴾ أى إن الكافرين يحاولون القاء ذنوبهم على السادة والكبراء بدعوى
أنهم ساروا خلفهم ، وأطاعوا أمرهم ، فأوقعوهم فى الهلاك والعذاب .
والسادة هم عظماء القوم كالملوك ، والرؤساء ، والملا .
والكبراء هم رؤساء القبائل وهم أعلى شأننا فى قبيلتهم ، ولكن هذا اعتذار
مرفوض ، فقد أرسل الله رسوله ، وخاطب سائر الأفراد ، وعرفهم بأن المسؤولية
عند الله فردية ، وسوف يسألهم الله :
- لماذا أطعتموهم ؟
- ولماذا دمتم فى الطاعة إلى أن جاء أهلكم ؟
- ولما لم تنتبهوا وقد جاءكم النذير ؟

(٦) معاداة الكبراء والسادة :

يقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَامْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا
كَبِيرًا ﴾ أى إن الكافرين وقد استحقوا العذاب الواقع عليهم يدعون الله أن
يضاعف عذاب سادتهم وكبرائهم بسبب أنهم أغرهم ، وتسببوا فى كفرهم .

(٤٢٧)

وهذا دعاء يستحقه سائر الكافرين لأن الكفر لا يبقى مع صاحبه ، ولكنه ينتشر فى الناس ، ويبقى فى الأبناء والأتباع ، والكافر يورث الكفر لبنيه . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾^(١) ولذلك يقول الله للكافرين الذين ينادونه : ﴿ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الناس يسألون رسول الله عن وقت الساعة حيث يأمره الله سبحانه أن يقول لهم : علمها عند الله ، وأنه لا يدري عنها شيئا ، وعسى أن تكون قريبة .

وتبين الآيات حال الكافرين فى الآخرة فتبين أنهم ملعونون ، وقد أعد الله لهم عذاب السعير ، وليس لهم فيها ولى ولا نصير ، ولا ينفعهم ندم ، ولا يقبل منهم عذر ، وهم وكبراءؤهم وسادتهم فى عذاب مضاعف أليم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الساعة حق

الإيمان بيوم القيامة قضية إيمانية راسخة ، صدق بها المؤمنون ، وجعلوا عملهم فى الدنيا طريقا لها فاستقاموا على دين الله تعالى ، وساروا على منهج

(١) سورة نوح ، الآية ٢٧ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٣٨ .

(٤٢٨)

الإسلام ... أما الكافرون فقد أنكروا اليوم الآخر ، وأخذوا يسألون عن الساعة
عساهم يجدون مطعنا فيها ، وقد حسم الله قضية يوم القيامة فجعل العلم بوقت
مجيئها إليه ، ورغب في خيرها ، وخوف من الحساب والعقاب فيها ، وقرب
إليهم نعيمها وعذابها بصور مادية يعيشونها .
إن الإيمان باليوم الآخر جزء من الإيمان بالله تعالى وهو حق لا ريب فيه .

الركيزة الثانية **أحوال الكافرين فى الآخرة**

أعرض الكافرون عن الإيمان بالله تعالى ، ولم يؤمنوا برسول الله ﷺ
ونقضوا عهودهم ومواثيقهم ، وقد لعنهم الله ، وطردهم من رحمته ، وأعد لهم
عذابا أليما ، فى نار تشوى وجوههم وأبدانهم .
وسيعلم الكفار هوان آلهتهم ، وسوء مصيرهم يوم القيامة حين لا يجدون
نصيرا ينصرهم ، أو وليا يتولى أمرهم ، أو شفيعا يشفع لهم ... ولن يقبل الله
عذرا منهم ، وسيرد الله عليهم ، وهم يلقون اللوم على سادتهم وكبرائهم .
وحين ينادون بمضاعفة العذاب على من أضلوهم يعرفهم الله بأن لكل
ضعفا فالكل أضل غيره ، وكان نصيرا للشيطان الرجيم .
وفى بيان أحوال الكافرين فى الآخرة ترهيب لمن نزل القرآن فيهم ، لأن
مصير الكفر واحد ، والعاقلة من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت .
والدعاة قدوة فى العمل ، وعليهم تحذير الناس من المعاصى ، ودعوتهم
إلى الأخلاق فى الإيمان والعمل .

(٤٢٩)

دعوة المؤمنين إلى التقوى والعمل الصالح وعدم إيذاء رسول الله ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْنَ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ
وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۝ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ
فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بين الله في الآيات السابقة لعنته لمن يؤذى رسول الله ، وينكر الساعة
جاءت هاتان الآيتان لإرشاد المؤمنين إلى عدم إيذاء رسول الله ، وضرورة
الإلتزام بالتقوى ، والتلفظ بالأقوال الحسنة لينالوا جزاء حسنا عند الله تعالى في
الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيتين

يأمر الله المؤمنين أن لا يؤذوا رسول الله ، ولا يكذبوه كاليهود الذين آذوا
موسى ﷺ ، وأن يتقوا الله سبحانه وتعالى ، ويحسنوا أقوالهم وأعمالهم ليصلح
الله جزاءهم ، ويغفر ذنوبهم ، ويفوزوا فوزا عظيما .

(٤٣٠)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا

قَالُوا ﴾ ينادى الله المؤمنين ، وينهاهم عن أن يكونوا مثل اليهود الذين آذوا موسى بأقوال يكرهها ، أو أفعال لا يحبها فبرأه الله مما قالوا ، وأظهر كذبهم ، وفسادهم .

وقد اختلفت الروايات فى الأقوال التى قالها اليهود عن موسى ﷺ فمن العلماء من قال : إنهم عابوا فيه أمراضا بدنية ... ومنهم من ذهب إلى أنها عيوب خلقية . والأولى أن نقف عند حديث القرآن الكريم فى هذا الموضع .
عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : "قسم رسول الله ذات يوم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله .
فاحمر وجه النبى ﷺ ثم قال : رحمة الله على موسى فقد أودى بأكثر من هذا فصبر" (١) .

﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أى أن بنى إسرائيل آذوا موسى ﷺ

واتهموه بما ليس فيه إلا أنه ﷺ كان وجيها عند الله تعالى ، وهذا يكفيه ، ويرد أذى الناس عنه .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى يا أيها المؤمنون خافوا الله

واطيعوه ، وارجوا مثوبته ، ورحمته ، واعبدوه لذاته وفضله .

(١) صحيح البخارى . كتاب فرض الخمس . باب ما كان النبى ﷺ يعطى المؤلفة قلوبهم ج ٤

﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أى وقولوا فى رسول الله والمؤمنين قولا عدلا سليما لا جور فيه ، ولا عدوان ، والقول السديد باب كبير من أبواب الخير يقول ﷺ : "يرحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم" (١) .

ويقول : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت" (٢) .

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أى من يتق الله ويقول قولا سديدا يغفر الله ذنبه ، ويصلح عمله ، ويصرفه عن المعاصى ، ويحبب إليه الإيمان والصلاح .

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أى ومن يطع الله فى سائر أوامره ، ونواهيه فقد فاز فوزا كبيرا فى الدنيا والآخرة .

وهذا التذليل شرط وجزاء ليعم سائر الطاعات ، وكافة أنواع الجزاء فهو يؤكد ما سبقه ، ويزيد عليه .

- ٤ -

معنى الآيتين

ينادى الله المؤمنين ويأمرهم أن لا يؤذوا رسول الله ﷺ حتى لا يكونوا كاليهود الذين آذوا موسى بالأقوال الكاذبة ، والاتهامات الباطلة فبرأه الله مما قالوا ، وجعله وجيها ، مجاب الدعوة ، كما يأمرهم سبحانه وتعالى بالتقوى والسداد فى القول ليغفر الله ذنوبهم ، ويصلح أعمالهم ، ويقدر لهم الفوز العظيم لإيمانهم وتقواهم .

(١) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب حفظ اللسان ج ٨ ص ١٠٠ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الحدود . باب الضيافة ونحوها ج ٣ ص ١٣٥٢ .

(٤٣٢)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

عناية الله بالمؤمنين

تأمر الآيات المؤمنين وتطلب منهم أن يقوموا بالواجب عليهم مع رسول الله ﷺ ، ومع إخوانهم المؤمنين ، وتعرفهم بالثواب الجزيل الذى أعده الله لهم ... وبذلك أثبتت ركيزة هامة تميز الطريق أمام الناس ، وتوضح لهم أن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها .

ومن عناية الله بالمسلمين أن حدد لهم الطريق ، وبين لهم الغاية ، وناداهم وقربهم إليه ، وخصهم بتبعيته ، وسماهم المؤمنين .

ومن دلالة الآية يجب على المؤمنين تقدير أصحاب الفضل ، وطاعتهم فيما شرع الله تعالى ، لأن معارضتهم تؤذيهم .

وتدل الآية كذلك على ضرورة أن يعيش المؤمن فى رحاب الله تعالى ، ويراقبه فى أقواله ، وأفعاله ، فلا ينطق إلا بالرأى السديد ، ولا يفعل إلا الصالحات ليفوز فى الدنيا والآخرة .

وعلى الدعاة :

دعوة الناس إلى الاستقامة فى القول والعمل ، وضرورة اتباع صراط الله المستقيم .

إن عرض تعاليم الإسلام بالحسنى يحتاج إلى التقرب من المدعوين ، وتحسين الطاعات ، وتقبيح المعاصى ، وإظهار آثار العمل .

إن المسلم مطيع لله ، والمؤمن أطوع ... وإيذاء الآخر كبيرة وإيذاء الرسول والمؤمنين أكبر وأفحش .

(٤٣٣)

ثقل حمل الأمانة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما أمرت الآيات السابقة المؤمنين بألا يؤذوا رسول الله ﷺ وأن يصلحوا أعمالهم ، وأن يتقوا الله تعالى ليصلح شئونهم ، ويغفر ذنوبهم ، ويقدر لهم الفوز والفلاح جاءت هاتان الآيتان لبيان أهمية الأمانة ، وخطورتها وضرورة تحملها وأدائها فهي برهان الصدق ، ودليل الإيمان .

- ٢ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الأمانة ثقيلة ، وقد عرضها الله على السموات والأرض والجبال فرفضن حملها ، وخفن من ذلك إلا أن الإنسان حملها ، وصار مسئولا عنها ليجزى خيرا إن حافظ عليها ، وشرأ أن ضيعها ، ولم يحافظ عليها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض والجبال ، وما فيها من نعم وآلاء لنقوم

(٤٣٤)

بدورها الذى هداها الله له خدمة للإنسان ... ولم يخلق فيها عقلا ، ولم يجعلها محلا للتكليف ، ولا موطننا لتحمل المسؤولية .

والأمانة هى التكليف الدينية من عقيدة ، وشريعة ، وخلق ، وهذه المخلوقات الكونية تقدم الآيات للعقلاء كما خلقها الله بصورة عادية بلا مسؤولية ولا إدراك ... فهى فى أصل خلقتها فى حكم من رفض العرض ، فلم يتحمل مسؤولية أدائها والقيام بها .

أما الإنسان فهو المخلوق العاقل فقد خلقه الله مدركا لفعله ، راضيا به ، أو كارها له ، وقد كلفه الله بالدين كله ، وجعله أمانة يتحملها ، ويعيش بها ... وهذا يحتم عليه الرضى بالدين ، والمحافظة على تعاليم الله ، والإيمان والتصديق وصيانة الحقوق ، وأداء الواجبات فى عدل ، ودقة ، وإيمان ، ويقين .

إن تميز الإنسان بالعقل هو الذى حمله مسؤولية الدين ، وجعله أمانة يحملها ، ويقاوم فى أدائها وساوس الشيطان ، ونزغات الضالين .

ويعلم الله أن الإنسان تتنابه الانفعالات ، ويسيطر الغضب فيوقعه فى الظلم ... كما تسيطر عليه الشهوات ، وحب الزخارف والهوى فيقع فى الجهل .

ولقد كلف الإنسان بالدين عسى أن يهجر الظلم ، ويترك الجهل ، ويستقيم على منهج الله لينال ثواب الصادقين .

﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ سَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ

ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ أى أن الله تعالى لم يحمل سائر الكائنات التى خلقها على

ضخامتها أمانة الدين لأن الله لم يضع فيهم عناصر تحمل الأمانة وأدائها ، ولذلك صار حالها حال من رفض تحمل أمانة الدين ، لأن الله لم يكلفهم بها أصلا .

أما الإنسان فقد حمل أمانه الدين بالمكونات التى جعلها الله فيه ، من فهم وعقل ، وإدراك ، ولذلك كان تكليفه بحمل الدين ، وبعث الرسل لهدايته وإرشاده

(٤٣٥)

، ... ولذلك كان تقصير الإنسان في حمل أمانة الدين تعطيلًا لطاقاته وقدراته ، فهو يظلم نفسه ، ويجهل واجبه ، إن لم يؤد للأمانة حقها .

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى إن الإنسان بعقله وملكاته يحمل

الأمانة الدينية ، ويؤدى لها حقها ليكون من الصادقين ، لأنه لو غفل عن هذه الأمانة التى تحملها فهو كاذب منافق ، خائن لقوى الإدراك التى جعلها الله له ، والله يوم القيامة سيثيب الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين والكافرين بكفرهم عذابا أليما .

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى إنه سبحانه وتعالى يغفر ذنوب عباده

المؤمنين الأماناء ، ويرحم عباده الصادقين .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله تعالى خلق الإنسان مكونا من جسد وعقل وروح ، وهىأه لحمل الأمانة الدينية فصار مسئولا عنها ، وقد عجزت السموات والأرض والجبال عن حمل أمانة الدين لأنها لم تنتهيا لها ، ولا تقدر على حملها ، ولم تخلق لذلك بخلاف الإنسان فهو مخلوق عاقل كريم كلفه الله بحمل الأمانة فهو مسئول عنها أمام نفسه وأمام الله تعالى .

وعلى الإنسان أن يحافظ على أمانة الدين ليفوز بجنت النعيم فقد وعده الله بها ، وعليه أن يبتعد عن سلوك المنافقين والكافرين ، فإنهم يكفرون ولا يؤمنون بدينه ، وأولئك لهم عذاب السعير .

(٤٣٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

مسئولية الإنسان عن دين الله تعالى

خلق الله الإنسان بعناصره مفطورا على الدين ، وجعل عناصر الدين مناسبة لعناصر الإنسان ، بحيث يحتاج الإنسان لما يشبع طاقاته ، ويأتى الدين لتحقيق كافة الحاجات فى الإنسان .

ركب الله الإنسان من بدن وعقل وروح ، وجاء الإسلام إشباعا لهذه العناصر ، فأحل الله الطعام والشراب واللباس والنكاح والزينة والجمال وكل ما يحتاج إليه الجانب المادى فى الإنسان .

وأنزل الله العقيدة وعرف العباد بها ، ودعاهم إلى النظر والتأمل والتفكير ، وبذلك يرضى الجانب الباطنى فى الإنسان .

ودعا الإسلام إلى المودة والرحمة ، وحث على الصفاء والإخلاص ، ونادى برعاية الضعيف والمسكين ، وبذلك ترضى الروح ، ويطمئن الوجدان .

ومن هنا كان التوافق التام بين الإسلام والإنسان ، ونزل الإسلام وليس فى الوجود ما يحمله إلا الإنسان ، ولذلك حمله الله إياه ، وهياه لتطبيقه فى الوجود ورزقه كافة القدرات والطاقات التى تمكنه من حمله ، فقد أبت كل الكائنات أن تحمله لعجزها ، وعدم توافقها معه .

أما الإنسان :

فقد صار مسئولا عن الإسلام ، وصار عليه أن يحافظ عليه ، لأنه نزل له وتوافق معه ، وعينه الله لحمله ، وكلفه به .

(٤٣٧)

إن الإسلام هو الأمانة ، والمسئول عنها هو الإنسان ، الذى حمله وكلفه الله به ... وكان المأمول أن يرتقى الإنسان بالإسلام إلى درجات الفوز والنعيم ... إلا أن هذا المأمول لم يتحقق إلا فى حالات قليلة ، فحين تنتصر المادة على المعنى ، وتسيطر الشهوات على الإنسان ، وتبعده عن الله تعالى يبتعد الإنسان عن دين الله ، ويظلم نفسه ، ويعيش فى حياة الغش والجهل .
إن بعد الإنسان عن دين الله خيانة للأمانة ، يظلم بها نفسه لأنه تعدى على سائر الحقوق ، وجهل الواجب عليه .

والدعاة وسط الناس هم العلماء الرواد ، ودورهم تصفية النفوس البشرية لتحمل أمانة الدين فى جد وصفاء ... وهم جنود الدعوة الأوفياء يدفعون الإسلام كل عدوان ويجلون به بالحق والقسطاس المستقيم .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الأحزاب" بتوفيق الله تعالى .

سورة "سبأ"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٤٣٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٤٠)

- أولا -

التعريف بسورة "سبأ"

سميت السورة باسم "سبأ" لورود قصة سبأ وقصة انهيار سدهم فيها ، وقد اتفق العلماء والمفسرون والقراء على هذه التسمية ، ولم يذكروا سواها وهى سورة مكية بالاتفاق^(١) ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾^(٢) نزل بالمدينة لأنه يرى أن المراد بالذين أوتوا العلم هم اليهود فى المدينة ... إلا أن العلماء رأوا أن المراد بالذين أوتوا العلم المؤمنون وأمة محمد ﷺ لقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾^(٣) ولا مانع أن يراد بهم علماء اليهود قبل أن يؤمنوا ، وقبل أن يهاجر إليهم رسول الله ﷺ .

وعدد آياتها خمس وخمسون آية عند الشاميين ، وأربع وخمسون آية عند غيرهم^(٤) .

وقد نزلت سورة "سبأ" بعد سورة "لقمان" .

وتتصل سورة "سبأ" بسورة "الأحزاب" بعدة أوجه منها :

(١) تفسير الألوسى ج ٢٢ ص ١٠٢ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٦ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٤٩ .

(٤) تفسير الألوسى ج ٢٢ ص ١٠٢ .

(١) تعرض الآية الأولى فى سورة "سبأ" صفات الله تعالى كما جاءت فى الآية الأخيرة من سورة "الأحزاب" . وفى سورة "سبأ" يقول الله تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۖ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ۝ (١) ،

وفى سورة "الأحزاب" يقول الله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ (٢) .

(٢) فى سورة "الأحزاب" ورد سؤال الكفار عن الساعة وذلك فى قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝ (٣) ، وفى سورة "سبأ" جاء إنكار الكافرين للساعة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ ۖ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ (٤)

(١) سورة سبأ ، الآية ١ ، ٢ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٧٣ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٦٣ .

(٤) سورة سبأ ، الآية ٣ .

وموضوعات سورة سبأ هي موضوعات السور المكية ، فهي تركز على العقيدة بمختلف أركانها .

فتعرف بالله ، وتبين وحدانية وصفاته ... يقول الله تعالى :

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۖ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ۝ (١) .
- ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

- ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ ﴿٣﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (٣) .

وتعرف برسل الله تعالى ... يقول الله تعالى :

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة سبأ ، الآية ١ ، ٢ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٣٦ .

(٣) سورة سبأ ، الآية ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) سورة سبأ ، الآية ٣٤ .

(٤٤٣)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

وتعرف بالكتب المنزلّة ... يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم قَبْلَكَ مِنْ نَّذِيرٍ ﴾^(٢) .
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَتْهُمْ أَسْطُفُفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنشَأَ لَكُم مِّنْهُمْ أَتَشْكُرُونَ ﴾^(٣) .

ويعرف الناس باليوم الآخر ... يقول الله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۖ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ ﴾^(٤) .

ويعرف بالملائكة ... يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُم لَآءٍ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۚ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلَ جِنٍّ ۖ أَكْثَرُهُمْ بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾^(١) .

(١) سورة سبأ ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٤٤ .

(٣) سورة سبأ ، الآية ٣١ .

(٤) سورة سبأ ، الآية ٣١ .

(٤٤٤)

وهكذا قدمت سورة "سبأ" أركان العقيدة كلها ، كما دعت إلى مكارم الأخلاق خلال وقد تحدثت السورة عن دور المستكبرين وتبعية المستضعفين ، وحيل الكافرين كما سيتضح خلال التفسير .

- ثانيا -

- التفسير -

الحمد التام لله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ
مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ۞ .

- ١ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله إله واحد ، وأنه المحمود بذاته في الدنيا وفي الآخرة
والمؤمنون العارفون يحمده في الدنيا ، وله الحمد كله في الآخرة فهو سبحانه
مالك السموات والأرض ، المتصرف في كل خلقه بحكمة قادرة ، وعلم دقيق .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۞ ﴾ الحمد هو الثناء على الله تعالى بما هو أهل له ، ودخلت
لام الاختصاص على لفظ الجلالة ﴿ لِلَّهِ ۞ ﴾ لبيان اختصاص الله وحده بالحمد ،
فهو الذي خلق ، وبرأ ، وأحيا ، وأمات .

و "ال" فى ﴿ اَلْحَمْدُ ﴾ للاستغراق لتفيد أن الحمد كله لله فهو المحمود بذاته ، والمحمود من عباده ، وخلق ، ومن كل موجود وكائن فهو سبحانه الذى أوجده وكونه ، وليس لغيره حمد أبدا .
قد يثنى إنسان على مخلوق ، ويشكره على أمر ما ، إلا أنه لا يحمد أبدا لأن الحمد خاص به سبحانه وتعالى .

وقد صدرت خمس سور قرآنية بـ ﴿ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وكلها سور مكية توزعت فى أرباع المصحف ، فجاءت سورة "الفاتحة" فى أوله ، وجاءت سورة "الأنعام" فى الربع الثانى ، وجاءت سورتنا "الكهف" ، وسبأ" فى الربع الثالث ، وجاءت سورة "فاطر" فى آخر الربع الثالث مع بدايات الربع الرابع ... وفى هذا إرشاد لضرورة مداومة حمد الله تعالى ، فقارئ القرآن الكريم يتعلم الحمد ويؤمر به ، ويعرف فضل الله ، واستحقاقه للحمد بين الفينة والفينة ، وهو يتلو كتاب الله تعالى ، ولذلك قالوا : إن ذكر ﴿ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تعليم للإنسان ، وبيان لأهمية الثناء الدائم على الله بما هو أهل له ، وذلك من الإنسان إقرار بالفضل لصاحبه ، وحث على العبودية الدائمة لأن دوام الذكر والحمد يبسر الاستسلام ، ويجعل العبودية عادة مؤداه .

ومن العلماء من ذكر أن ﴿ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ خبر بمعنى الإنشاء ، ومعناه احمدا الله .

وحتى يمتلئ يقين المؤمن بحمد ربه عرفه القرآن الكريم بأسباب استحقاق الله للحمد فقال تعالى : ﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ

أَلْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ ومعنى هذا أن الله مستحق للحمد وحده لما يلي :

فهو . أولا . يملك ما فى السموات ملكا حقيقيا ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى يديره ، ويتصرف فيه ، ويوجد من خلاله ما يحتاج الإنسان إليه ، وذلك يؤكد ضرورة أن يحمد الإنسان ربه ، ففى السماء التى خلقها الله مهابط الأنوار ، ودلالات الهدى ، واليها تعرج الأعمال والأرواح ، ومنها ينزل الخير كله ، ولولا المطر ، والغوث ، والعون الإلهى ما وجدت الحياة ولولا الوحي والرسالة ما سعد البشر بنور الله .

إن السموات موطن الملائكة ، واليها تصعد الأرواح ، وبها تتعلق القلوب والوجدانات .

وهو سبحانه . ثانيا . يملك ما فى الأرض من مخلوقات ، وأكوان ، وموجودات لا يشاركه فى هذه الملكية أحد ، وفيها أرزاق العباد ، وأنظار العقول ، وميادين التأمل والتفكير .

وفى الأرض تتنوع السبل ، وتوجد المخلوقات ، وينبت الزرع ، ويتنوع المعاش ... ولولا قدرة الله ما هبت نسمة هواء ، وما نبت شجر ، وما خرج معدن ، والحمد لله فقد ملأ الأرض بالحياة .

وكل من فى السموات والأرض مخلوق لله ، لا يعلم شيئا عن خلق ذاته ولا يعلم الأجل الذى تنتهى حياته عنده ، وكل شأن من شئون المخلوقات بيده سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه . ثالثا . محمود فى الدنيا ، وله الحمد كذلك فى الآخرة ، وتقدم الجار والمجرور ﴿ لَهُ ﴾ للدلالة على انحصار الحمد لله فى الآخرة كما هو الحال فى الدنيا .

ومع هذه الآية تبدو ملاحظتان :

الأولى : تقدم الآية دلالات الحمد لكل مخلوق ، فما من مخلوق إلا وهو جزء مملوك لله فى السماوات ، أو فى الأرض ، أو بينهما ، أو فوق السماء ، أو تحت الأرض ، يعيشه بذاته ، ويراه بحواسه ، ويدركه بعقله ، ويستفيد به وهو لا يدرك كنه نفسه ، ولا كيفية خلقه وإيجاده .

الثانية : تشتمل الآية على براعة استهلال لسورة "سبا" ، لأن السورة كلها تتكلم عن براهين الوجدانية ، وتؤكد صفات الله تعالى بكمالها ، وتماها وترد مزاعم الشرك والضلال فناسبها أن تبدأ بالحمد الثابت لله تعالى .

وأىضا فإن إيراد استحقاق الله للحمد فى الدنيا وفى الآخرة بصيغ بيانية مختلفة حيث تبدأ بالحمد معرفا بـ "ال" لتوضيح أن الحمد بكماله ، وبكافة معانيه هو لله وحده ... وتضيف إلى هذا بيان أن الحمد ﴿لِلَّهِ﴾ خاصة ، فهو حق ذاتى خالص ، وحينما تأتى لبيان الحمد فى الآخرة فتبدأ بقوله تعالى : ﴿وَلَهُ﴾ تأكيد لهذا الحق الإلهى الخاص به سبحانه وتعالى فى الدنيا وفى الآخرة ، وبذلك يعرف الناس أن الحمد كله لله ، وإن أباه بعضهم فى الدنيا .

وهو سبحانه . رابعا . متصف بالعلم والحكمة فهو سبحانه العليم الخبير خلق كل شئ من لا شئ ، ووضع فى صورة حسنة ، وهىأه ليقوم بدوره الذى خلق له ، وهو سبحانه يصرف المخلوقات كما يشاء ، وعلمه بالمخلوقات علم يشمل بدء خلقها ، وذواتها ، وأنواعها ، ووظائفها ، وما يحدث لها ومعها وصلتها بغيرها ، ومقدار عمرها ، ووقت أجلها ، وميعاد بعثها وقيامها ، فعلمه سبحانه محيط بالمخلوق من الأزل إلى الأبد ، وشامل للمعنوى والمحسوس ، وما

(٤٤٨)

هو حاضر وغائب ، وما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون إلى يوم القيامة ، وما يكون بعدها في علمه كما كان قبلها .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ هذا تفصيل لجانب من علم الله تعالى .
والولوج الدخول والسلوك مثل نزول المطر ودخوله إلى باطن الأرض واختفاؤه تحت التراب .

والخروج من الأرض يشمل ما يظهر فوقها كالنبات ، والدواب ، وسائر المخلوقات .

وما ينزل من السماء كالمطر ، والملائكة ، والصواعق .
وما يعرج فيها هو الصاعد إليها ونحوها كالهواء ، والأرواح ، والأعمال ، وحركة الملائكة وهي تنزل من السماء ثم تعرج إليها .
وقد أسندت الآية إلى الأرض الولوج والخروج وهو أوضح ما يعبر عن أحوال المخلوقات فيها ... وأسندت إلى السماء النزول والعروج وهو أوضح ما يعبر عن صور اتصالها بالعالم الأرضي ، وتقدير الله فيه .
ولو أخذ الناس جميعا يحاولون إحصاء ما يلج وما يخرج من الأرض ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها لأفنوا أعمارهم ، ولعجزوا عن هذا الإحصاء .

فكم من شئ في اللحظة الواحدة يلج في الأرض ؟

وكم من شئ في هذه اللحظة يخرج منها ؟

وكم من شئ في اللحظة ينزل من السماء ؟

وكم من شئ في هذه اللحظة يعرج إليها ؟

وكم من حبة تختبئ أو تخبأ في جنبات هذه الأرض ؟

(٤٤٩)

وكم من دودة ، ومن حشرة ، ومن هامة ، ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية ؟ وعلى أبعاد شتى .

وكم من قطرة ماء ، ومن ذرة غاز ، ومن نسمة هواء ، ومن إشعاع كهرياء تندس في أرجاء الأرض الفسيحة ؟ وتجول خلالها ، وتحمل معها ما قدر الله لها من خير أو من شر ؟

وكم يلج في الأرض وعين الله عليه ساهرة لا تنام ؟

وكم يخرج منها ؟

وكم من نبتة تنبت ؟

وكم من نبع يفور ؟

وكم من بر كان يتفجر ؟

وكم من عواصف تجرى ؟

وكم مد في الماء يعلو ؟

وكم من مستور ينكشف ؟

وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور ؟

وكم مما يرى ومما لا يرى ، ومما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير ؟

وكم من نقطة مطر تنزل ؟

وكم من شهاب ثاقب يسقط ؟

وكم من شعاع محرق يدمر ، وكم من شعاع منير ينتشر ؟

وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور ؟

وكم من رحمة تشمل الوجود ، وتخص بعض العبيد ؟

وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده أو يقدره ؟

وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله .

وكم مما يعرج في السماء ؟

(٤٥٠)

كم من نفس صاعد من نبات ، أو حيوان ، أو إنسان ، أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان ؟

وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستترة لم يسمعها إلا الله في علاه ؟

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة ؟

وكم من ملك يعرج بأمر الله ؟

وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله . ثم كم من قطرة بخار

صاعدة من بحر ، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم ؟

كم في لحظة واحدة ؟

وأين يذهب علم البشر واحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا

الأعمار الطوال في العد والإحصاء ؟ وعلم الله الشامل الهائل اللطيف العميق

يحيط بهذا كله في كل مكان ، وفي كل زمان ... ويعلم كل قلب وما فيه

من نوايا ، وخواطر ، وما له من حركات ، وسكنات ، وهو مع هذا يستتر

ويغفر ... ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾^(١) ...

ومن باب الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم عدم الجمع في الآية بين آيات

السماء والأرض في نسق واحد بحرف العطف ، وذلك لإرادة البسط في الأدلة

والبراهين في موضع يحتاج للبسط والتفصيل .

وهذا ملمح نقدمه للدعاة ليكون الإيجاز حين الحاجة إليه ، ويكون

التفصيل والتطويل حين إفادته للدعوة والمدعوين .

وعلم الله بكل مخلوق في السماء أو في الأرض ، وما يتحرك فيهما نزولا

أو صعودا ، علوا أو سفلا ملازما لإرادته سبحانه وتعالى وقدرته ، وقضائه ،

فهو صانع ذلك كله ، يعلم الأمر منذ الأزل ويريده ، ويقدره ، ويقضى به ،

وينجزه وقتما يشاء ، وكيفما يشاء .

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٦٢٦ .

(٤٥١)

﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ وهو سبحانه واسع الرحمة ، سابغ المغفرة ، والعباد محتاجون إلى رحمة الله تعالى وإلى غفرانه ، ولذلك وجب عليهم أن يعملوا ، ويأخذوا بالأسباب فكل نفس بما كسبت رهينة .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الحمد لله تعالى وحده فى الدنيا والآخرة فهو سبحانه الخالق المتصرف المدبر لكل ما فى السماء والأرض ، وهو العليم الخبير .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دوام حمد الله تعالى

الله سبحانه هو خالق الخلق ، وباسط الرزق ، ومعطى النعم ، وله الأمر كله فى الدنيا والآخرة ، وقد بعث الله رسله للناس ليعرفوهم بربهم ، وبما يجب عليهم ليكونوا عبادا عابدين ، محافظين على العمل الذى خلقوا له ... ويرغم أن الفطرة فى الإنسان توضح له علو جلال الله وعظمته ، فإن الله أرسل الرسل ، وكلفهم بتبليغ الرسالة ، وارشاد الناس إلى واجبه الدينى حتى لا يكون لهم عذر فى عدم قيامهم بحق الله عليهم .

إن دعامة العبودية تبدأ من القلب حين يمتلئ بحب الله ، ويوقن بجلاله وعظمته ، ويرى ببصره وبصيرته آيات الله فى نفسه ، وفى الموجودات المحيطة به ، والبعيدة عنه ... وبعدها يفيض ما فى القلب على اللسان فيلهج بالشثناء ، والحمد ، والذكر ، والشكر ، والحب . فقد جعل اللسان دليلا على ما فى القلب

والمحبون لله الذاكرون فضله ، الحامدون ذاته ، وعظمتهم يجدون أنفسهم طائعين حامدين ذاكرين لله ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ﴾^(١) .

والتذكير بآيات الله تعالى وبخاصة ما يتصل منها بالإنسان هو أقوم الطرق ، وأنجح السبل للوصول إلى قلوب المدعوين ، وحثهم إلى الإيمان بصانع هذا الوجود وهو الله رب العالمين .

ومنهجية الدعوة إلى الله تعتمد سبيلها ببيان فضل الله تعالى ، وتوضيح كمال علمه وقدرته ، وعظيم عطائه ومننه لأن الإنسان عبد الإحسان ، ودائما يبحث عن القدرة الخفية التي تحيط به ، ويتمنى أن يعرفها ، ويتصل بها ، ومسئولية الدعاة هي إحاطة الإنسان بمعرفة الله وصفاته ، وبيان فضله وآياته وطرق المحافظة على حقوقه سبحانه وتعالى .

إن حقوق الله أن يعبد وحده ، ويطاع أمره ، ويطبق شرعه ، ويحيا الناس في دنياهم بدينه ، ودور الدعاة شحذ الهمم ، ومداومة التذكير ، وسد منافذ الهوى والشيطان ليبقى الإنسان مع فطرته في رحاب طاعة الله تعالى .

الركيزة الثانية

العلم أساس الإيمان

الإسلام قائم على العلم ، لأنه مجموعة من المعارف العقلية التي يمتلئ بها عقل الإنسان فيعرف الله وصفاته ، وحقه ، ويعرف الرسل والرسالات ، ويعرف أصول الدين وفروعه ، وبعد العلم يكون القول والعمل ... ولذلك كان اهتمام الإسلام بالعلم والعلماء .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

إن الإسلام عن طريق العلم يعرف الإنسان ما هو ظاهر ، وما هو مخبوء ، فى السماء أو فى الأرض ، ويبين له مدى استفادته مما خلق الله تعالى ، فالله هو الذى أنزل الماء ، وأرسل الريح ، وأنبت الزرع ، وأوجد الأنعام ، والخيول ، والحمير ، والبغال ليستفيد بها الإنسان .

والله هو الذى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ... وهو سبحانه منزل القرآن الكريم دعوة للناس ، وبياناً لطريق الله المستقيم .

والجانب الإدراكى فى الإنسان هو الذى يربطه بهذه المخلوقات ، فالحواس تسمع وتبصر وترى ، والعقل يفهم ، ويعلم ، ويدرك ، والروح تسمو لمصدرها ، وتهيم بالوجود ، وحسنه ، ودقته .

والعلم فى الإنسان يشمل هذه المدركات ، ولذلك كان العلم دعامة الإيمان يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا سَخَشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمْتُمُوهُ ﴾ ^(١) إن العالم يرى الله فى جبل أشم ، وفى معدن مخبوء ، وفى طير سابح ، وفى هوام مستورة .
إن مكتشفات العلم كل يوم توضح أسراراً دقيقة فى الذرة الصغيرة ، وفى الطاقة المعنوية ، وفى المخلوقات التى لا يتصورها عقل بشرى .

إن العلم يؤكد قدرة الخالق العظيم .

وقد أشارت الآيات إلى علم الله تعالى ، وبينت دقة علمه بخلقه كله ليتخذ الإنسان من ذلك إيماناً يهديه ، ويصله بالله العليم الخبير ، وليتعلم الإطار الذى يضعه فى المعلومات الهادية إلى الله .

ومن حكمة الله تعالى أن ألزم الإنسان بالعلم ليكون مسلماً ، لأنه يحتاج فى العقيدة أن يفهم الإلهيات والنبوات ، والسمعيات ، وبالنسبة للشرعية لابد له

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

أن يفهم أحكام كل عمل يؤديه ، عبادة ، أو معاملة ، أو خلقا ... ولابد من معرفة أحكام النكاح والفرار ، والحياة والموت .

إن العلم دعامة الإيمان ، والإيمان طريق النجاح ... وخير الناس من يرزقه الله علما ، ويهديه به إلى الصلاح والاستقامة على دين الله تعالى وعلم الناس جميعا ضرورة إيمانية ، وعلم الدعاة أعلى قدرا ، وأكثر اهتماما لأن علمهم يفيض على المدعوين نصحا ، ووعظا ، إرشادا ، وهداية لدين الله تعالى .

الرد على منكرى البعث وإثبات أحوال الناس يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ^ط قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمِ الْغَيْبِ ^ط لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ لَيَجْزِيكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ^ع أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٤﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّمَّزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٦﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٧﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنْ

(٤٥٥)

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ كُنْشًا نَخَسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٤٥٥﴾ .

- ١ -

مناسبة الآيات لما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة حمد الله وحده ، فهو المحمود في ذاته والمحمود من عباده وخلقه ، وهو الصانع الحكيم جاءت هذه الآيات لرد إنكار الكافرين لليوم الآخر ، وترك حق الله عليهم ، وإثبات اليوم الآخر ، وإظهار بطلان آرائهم ، وفساد ما هم فيه .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات موقف الكافرين من اليوم الآخر فهم ينكرونه ، ويعملون على إضلال غيرهم ، وترد الآيات هذا المزاعم ، وتبين أن الساعة آتية لا ريب فيها حيث يحاسب الله الخلائق ، ويعطى كل إنسان ما يستحقه فيسعد المؤمنون بالجنة ، ويشقى الكفار في نار جهنم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الكفر ستر الحق ، وإخفاؤه ، وإهماله ، وهو إنكار الموجود الثابت ، والذين كفروا هم الذين رفضوا طاعة رسول الله ، وأنكروا ما دعاهم إليه ، واتخذوا غير الله آلهة عبدوها ، ولذلك عرفوا بالكفر وتميزوا به ، وصار كفرهم علما عليهم ، ولذلك أسندت الآية القول إليهم وجعلت الكفر مسمى لهم .

﴿ لَا تَأْتِيَنَا السَّاعَةُ ﴾ الساعة اسم من أسماء يوم القيامة ، ويطلق الاسم على كافة مشاهد الآخرة ، وقد أنكرها الكافرون بقولهم هذا ، لأن عدم الإتيان يعنى عدم الوقوع ، وقطعهم بعدم الوقوع يعنى إنكار مجئ يوم القيامة .
وحديث الكافرين يراد به كل الناس ، وليس فريقا منهم ، لأنه عنوا به نفى مجئ الساعة للناس جميعا .

وجاء نفیهم للساعة بعدما خوفهم رسول الله ﷺ من حساب الله تعالى يوم القيامة ، وإيقاع الجزاء المناسب لعملهم فى الدنيا ، وعرفهم بجنت عرضها السموات والأرض ، ونيران ألیمة شديدة .

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّی لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد لأهمية الأمر ، وضرورة رد هذا الإنكار بأجلى وسيلة ، وقد ظهر الحسم فى الرد فى هذه الكلمات الموجزة ... فقد أمر الله برد مقاتلهم بأن يقول لهم ﴿ بَلَىٰ ﴾ وهى حرف مختص بإبطال النفى المذكور ، ورده كله .

كما أمر الله رسوله أن يقسم على بطلان ما زعموا بقوله له : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّی ﴾ أى أقسم لكم برى الذى خلق وسوى ، وأعطى ورزق ، وأمات وأحيا بأن الساعة آتية .

وقد أقسم رسول الله بقوله : ﴿ وَرَبِّی ﴾ لأن المشركين يقرون بربوبية الله فأتاهم من حيث إيمانهم ، وأكد لهم فى جملة المقسم عليه أن الساعة حق وذلك بلام القسم ، ونون التوكيد ، وبذلك أبطل كفرهم ، وانكارهم للساعة ، وأكد لهم مجيئها .

وهذه الآية احدى آيات ثلاث أمر الله رسوله أن يقسم فيها على وقوع اليوم الآخر ، ويواجه المشركين بالقسم ، ويرد عليهم ما زعموا .
والآيتان الأخريان هما :

يقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ^(١) .

ويقول الله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ^(٢) .

وأخذت الآيات تعرض دلائل كمال صفات الله تعالى لتأكيد أن الساعة آتية وأن الله عليم خبير ، وأنه حكيم رحيم فقال تعالى : ﴿ عَلِيمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى إن وقت مجئ الساعة لا يعلمه إلا الله تعالى فهو يعلم الغيب كله ، لا يغيب عنه وزن ذرة كائنة فى السموات أو فى الأرضين ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر منه إلا وهو معلوم لله تعالى ، مفصل منذ الأزل فى علمه سبحانه وتعالى .

وحديث القرآن الكريم عن الذرة يشير إلى إعجاز قرآنى ، فلقد بقى العلماء يفهمون أن الذرة هى أصغر الأجسام مطلقا ، وليس بعدها أصغر منها إلا إنهم فى العصر الحديث توصلوا إلى أن الذرة تتفتت وتتحول إلى طاقة ، وبذلك ظهر إعجاز القرآن الكريم حين ذكر أن هناك ما هو الأصغر من الذرة .

(١) سورة يونس ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة التغابن ، الآية ٧ .

وعلم الله بالذرة والأصغر منها يعنى أن الأجساد وإن رمت ، والعظام وإن تلاشت وتطايرت ، وتداخلت وتحولت إلى شئ آخر فعلم الله محيط بها يعيدها كما كانت ، ويجمعها بعد تفرقها ، ويحييها فى البعث كما خلقها أول مرة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ؕ أُولَٰئِكَ هُم مَّغْفَرُونَ

وَرَزَقُ كَرِيمٌ﴾ أى يبعث الله المؤمنين من قبورهم ، ويسوقهم إلى الحشر ، ويحاسبهم ، ويثمن إيمانهم ، وعملهم الصالح ، ويجازيهم عليه بمغفرة ذنوبهم وانزالهم منازل الصادقين ، ويرزقهم بكرمه هناءة العيش ، وطيب المقام .

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ هُم عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾ أى أن الكافرين الذين خاضوا فى دين الله ، وبذلوا جهدهم وسعيهم لإبطال أدلة البعث ، واثارة الشبهات ظنا منهم أنهم سيسبقون قدرة الله تعالى ، ويأخذون الناس إلى الكفر باليوم الآخر ... إنهم لن يحققوا شيئا مما يعملون له ولن ينالوا فى الآخرة إلا العذاب الأليم . وقد تضمنت الآيات اللّمحات التالية :

أولا : بدأت آيات الجزاء بلام العقابة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ لبيان مآل الناس وعاقبتهم .

ثانيا : أطلقت الجزاء الخاص بالمؤمنين ، ولم تحدده بجزاء معين ليكون عاما ، ومتنوعا ، ولتذهب النفس كل مذهب فى إطار قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾^(١) وكرم الله لا تحد جوانبه ، ولا يتصور مداه .

(١) سورة الرحمن ، الآية ٦٠ .

ثالثا : بينت الآيات مقام المؤمنين الرفيع عند الله فأشارت إليهم ب : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الدالة على علو الشأن والمقام ، ونكرت "مغفرة" و "رحمة" لبيان أن الله الكريم سيعمهم بغفرانه ، ويخصهم برحماته وجناته .

رابعا : بينت الآيات أوهام الكافرين في سعيهم الدعوى لإنكار البعث وابطال دين الله تعالى وظنهم إمكانية النصر والغلب .

خامسا : وضحت الآيات سوء مآل الكافرين ، وذكرت أنهم مبعدون من رحمه الله . فقد خصهم بعذاب مؤلم لا يقادر قدره إلا الله تعالى .

وتوضيح جزاء المؤمنين والكافرين بالجنة أو بالنار في الآخرة لبيان حكمة الله في الحساب والجزاء ، فهو لا يترك الناس سدى ، ولذلك جعل الآخرة لتجزي كل نفس بما كسبت ، ففي الإيجاد الأول حكمة وتقدير ، وفي البعث والحساب والجزاء حكمة وتقدير كذلك .

فإن قيل : أشارت الآيات إلى المؤمنين والكافرين ب ﴿ أُولَئِكَ ﴾ فما الفرق بينها ؟

أقول : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ مع المؤمنين تشير إلى علو مقامهم ، ومع الكافرين تشير إلى سفلى منزلتهم بدلالة ما بعد كل منهما .

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾

الرؤية هنا عقلية ، والمراد إثبات أن رأى الكفار في البعث باطل ، يرده الذين رزقهم الله عقلا ، وأتاهم علما بحقائق الأشياء ... وهم بعقلهم وعلمهم يرون أن ما أنزل الله على رسوله هو الحق ، وأن ما بينه الرسول لهم عن الساعة واليوم الآخر هو الصدق الذى لا مزية فيه ، وأن الوحي المنزل على رسول الله ﷺ يرشد إلى الصواب ، ويهتدى إلى صراط مستقيم .

وفى الآية تكريم للعلماء ، وتشجيع على العلم والتعلم ، لأن العلماء شهود الحق ، يميزون بين الصالح والطالح ... وهم فى كل زمان نور الهدى ، ومصابيح الظلام .

وفيهما بيان منزلة الرأى العلمى الصحيح ، وضرورة الأخذ به ، كما وضحته الآية لأن رأى العلماء فى البعث والحساب تأييد له ، وتأكيده أنه أيسر وأهون من الخلق الأول ... وأن من قدر على خلق كل ما فى السموات والأرض قادر على البعث ... ويظهر العلماء شهادة العقل على البعث ، حيث لا يرى العقل إفلات ظالم من العقوبة ، وأن الآخرة ضرورة لتتال كل نفس جزاء ما قدمت ... ويرى العلماء أن الخلائق الحية يستقيم أمرها على التكليف والحساب والجزاء فى كل زمان ، وفى كل مكان ، ولذلك يصير من الضرورى مجئ اليوم الآخر ليحقق الله العدل فى مخلوقاته ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وفى الآية كذلك بيان أن دين الله هو الحق فهو يرشد إلى الخير ، ويحقق المصلحة ، ويهدى البشر إلى دين الله العظيم ، وتؤكد الآية هذه الحقيقة بشهادة العلماء .

وقد بين بعض العلماء أن الآية مدنية ، وأن الذين أوتوا العلم هم اليهود فى المدينة ، وكانوا يؤمنون بالبعث .

والأولى أن تكون الآية مكية ، وأن يكون المراد من الذين أوتوا العلم العلماء فى كل زمان ، ليشمل علماء أهل الكتاب ، وأصحاب النبى ﷺ والمؤمنين على الزمن كله ... وبخاصة أن يهود المدينة قالوا لكفار مكة أنتم ﴿ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾^(١) وقد كان صحابة النبى ﷺ أنجما ساطعة فى العلم ، والمعرفة ، والعقل صقلوها بنور النبوة ، وبركات الوحي .

(١) سورة النساء ، الآية ٥١ .

﴿ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ويرى الذين أوتوا العلم أن الوحي المنزل على رسول الله ﷺ يرشد إلى تصحيح الفكر ، وإقامته على أسس سليمة ، وإلى استفادته من مختلف المدركات التي تحيط بالإنسان .
ويرشد إلى بناء الإنسان عقليا ، وروحيا ، ووجدانيا ، وينير أمامه الطريق ، ويرشد إلى ضرورة استقامة الدنيا والآخرة على منهج الله تعالى ، ويرشد إلى أن كتاب الله يهدي للتي هي أقوم ، بلا عوج ، ولا اختلاف فهو يهدي إلى صراط الله العزيز الحميد .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى تحرك كفار مكة وهم ينكرون البعث ويعملون على نشر الكفر به بين الناس ، فقال بعضهم لبعض استهزاء وسخرية ، ولم يعارض بعضهم بعضا ، وصار هذا الحديث بينهم منتشرا .

﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّمَّزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؟ ... والاستفهام إنكارى ، وفيه ينكر كفار مكة ، وهم يتحداثون ويتناولون بما يقوله لهم هذا الرجل ... وهو محمد ﷺ ، وفى تسميتهم له بـ ﴿ رَجُلٍ ﴾ سخرية منهم به ﷺ لأنهم لا يرون استحقاق أن يذكر اسمه المعروف به ، ويعدون ما يقوله محمد لهم من عجائب الأحاديث المنكرة فى نظرهم ، ويسرفون فى الغرور ، وهو يتصورون أنفسهم مستدلين بالنبأ العجيب ، الغريب ، المدهش الذى يقول به محمد ﷺ وهو أنهم بعد موتهم ، وتفتت أجسادهم ، وتكسر عظامهم ، وتفرق أجسادهم إلى تراب تذروه الرياح تعود الأجساد كما كانت ، وتسكنها الروح مرة أخرى ليتم الحساب ، ويسكن فى الجنة أصحابها ، وفى النار أهلوها ... إنهم يرون استحالة ذلك ، ويندهشون للقول به ،

ويعرضونه للناس بأسلوب يؤكد استحالتة ، لأن الأجساد فى نظرهم إذا قطعت ، ثم تناثرت ، وبليت لا تعود إلى الحياة مرة أخرى ، ولذلك قالوا عن رسول الله لما أخبرهم بالبعث ، وضرورة الإيمان به ... قالوا : ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أى يرى كفار مكة أن القول بالبعث عجيب مدهش ، ويتعجبون من إخبار محمد لهم أنه وحى جاء من السماء ، وهم فى هذا الخبر يشككون . ويقولون : ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أى أن محمدا ﷺ . وحاشاه . كذب على الله كذبا شديدا فى خبره عن اليوم الآخر ، لأنهم لا يصدقون نزول هذا الخبر من الله تعالى .

وان سلموا بصدق محمد ﷺ كما عهدوه فإنهم يذهبون إلى إصابته بجنون وخلل فى عقله ... فأمر محمد فى نظرهم يدور بين الكذب على الله ، وبين الجنون والخبيل .

وقد رد الله قولهم ، وأثبت صدق محمد ﷺ وصدق رسالته فى قوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ "بل" للإضراب وهى تفيد نفى كلام المشركين عن محمد ﷺ وإثبات الحق والصواب ، وتعريف المؤمنين أن الأمر ليس كما يزعم الكافرون ، لأن محمدا ﷺ هو البر الرشيد ، الذى جاء بالحق ، ونطق به ، وأنه مبلغ عن الله تعالى بالحق ، وأنهم هم المشركون لا خلاق لهم ، ولا علم لديهم ، ولا عقل فيهم ، لأنهم لو كانوا عقلاء لآمنوا بالله ، ولو كانوا أصحاب علم لنظروا فى الآيات ... ولو كانوا أصحاب خلق ما سفهوا محمدا وكذبوه ... إنهم يعيشون ضالين عن الحق ، بعيدين عن الهداية ، ولهم فى الآخرة التى أنكروها عذاب شديد ... وقد سارعت الآية بتقديم العذاب على الضلال مع أن العذاب مرتب على الضلال الذى

يسبقه استعجالا لما يسوءهم ، واستحضارا لمآلهم ، وبيانا لفساد آرائهم عن البعث فقد أوقعتهم فى العذاب الشديد ، والضلال البعيد .

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ ﴾ ؟ ... أى أعموا فلم يروا ، وجهلوا فلم يعلموا خلق الله لكونه كله وفيه دلالات على قدرة الله تعالى على الخلق والإعادة ، وهى دلالات موجودة يعاينونها حيثما وجدوا ، ويشاهدونها أينما ذهبوا ... وفيها البيان والدليل لأن من قدر على خلق ، وتنظيم هذه المخلوقات لا يعجزه أن يعيدها مرة أخرى بعد فنائها .

﴿ إِن كُشِفَ عَنْهُمْ الْأَرْضَ أَوْ نُسِقَظَ عَلَيْهِمْ كَسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

أى هل وصل الجهل بهؤلاء المشركين أن نسوا قدرة الله تعالى ، فلو شاء سبحانه وتعالى أن يخسف بهم الأرض لأمر به لو أَرَادَهُ ، ولو أمر به لوقع عليهم الخسف كما خسف بقارون الأرض ، فابتلعت وداره معه ، ولو شاء سبحانه وتعالى أن يسقط عليهم قطعا من النار المحرقة لفعل كما أسقط النار على أصحاب الأيكة ...

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ الآية هى الدليل والعلامة ،

وقد جعل الله آياته فى كونه المشار إليه يستفيد بها العبد العاقل الأبواب الذى يعرف حق ربه فيعبده ، ويتوكل عليه ، ويرجع إليه ، ويستغفره .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات مقالة منكرى البعث من أهل مكة ، وترد عليهم ، وتبين لهم أن علم الله شامل ، وقدرته عامة لا يغيب عنه شأن ، ولا يخرج عن ملكه أمر

(٤٦٤)

... وتبين الآيات أن الله سيحاسب كل نفس على ما قدمت يداها ، وسوف يتحسر الكافرون على ما كانوا فيه من غرور وبهتان أبعدهم عن معرفة الآيات ، ودفعهم إلى الاستهزاء برسول الله ﷺ .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

البعث حق لا ريب فيه

جعل الله الدنيا دار عمل وتكليف ، والآخرة دار حساب وجزاء ... وقد دارت دعوة الإسلام إلى إصلاح الدنيا بمنهج الله ليكون الفوز بالجنة كما وعد الله .

ومع أن العقل يسلم بإمكان وقوع البعث والحساب فقد ركز المشركون ضلالهم على إنكار اليوم الآخر ، وانطلقوا منه إلى إنكار رسالة الرسول ، وإنكار الإسلام كله ، ولذلك جاءت الآية لإثبات وقوع اليوم الآخر بعده طرق :

الأولى : رد دعوى الخصم مباشرة ، فثنى قالوا : ﴿ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾^(١)

فإن الرد عليكم جاء مباشرا ، مؤكدا بالقسم ، وقال الله لهم : ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾^(٢) .

(١) سورة سبأ ، الآية ٣ .

(٢) سورة التغابن ، الآية ٧ .

(٤٦٥)

الثانى : بيان شمول علم الله وقدرته لسائر خلقه ، فهو . سبحانه . عليم بكل مخلوق ولو كان أصغر من الذرة ، وهو . سبحانه . قادر على الإيجاد والاعدام كما يشاء ويريد .

الثالث : استعراض الأدلة التى استند إليها المفكرون ، وردّها ، وذلك ببيان إنكارهم للبعث لاستحالة جمع الأجساد مرة أخرى ، لأن الأجساد فى رأيهم تمزقت ، وتفتت ، وتبعثرت ، ويستحيل جمعها مرة أخرى ، وتصور الكافرون قوة دليلهم فأخذوا يقولون به ، ورد الله قولهم ببيان أنهم يجهلون قدرة الله تعالى ، فلو تأملوا فى خلق السموات والأرض ، وما فعل الله بالأمم التى سبقتهم لعلموا أن الله على كل شئ قدير ، وأن من خلق هذا الكون العظيم قادر على البعث والإعادة .

الرابع : بينت الآيات تعنت المشركين وسفهمهم ، وذلك ببيان قولهم ان محمدا ﷺ مجنون ، وكاذب ، وهم بذلك أفاكون ، فعلمهم بمحمد ﷺ قبل الرسالة وبعدها يؤكد أنه ليس مجنوناً ، ولن يكون كاذباً .
إن الساعة آتية لا ريب فيها ... وعلى كل إنسان مكلف أن يتأكد من هذه الحقيقة ، ويستعد لها بالإيمان والعمل الصالح .
ويجب أن يعلم الناس هذه الحقيقة ليعملوا ، ويؤمنوا ، ويستعدوا .

الركيزة الثانية

مراعاة الإسلام لوجدان الإنسان

تأثير الجانب الباطنى فى الإنسان على ظاهره كبير ، ولذلك كانت ضرورة البدء ببناء العقيدة قبل تشريع النظم ، وانزال الأحكام ... وصار معلوما

للدعاة والمربين أن الاهتمام بطهارة الباطن ، واشباع العواطف ، واقناع العقل أساسيات البناء الحقيقي للإنسان .

ولهذا نلاحظ أن الآيات أخذت تربي الإنسان على مهابة الله بإظهار جلاله وعظمته ، وكمالاته ، فهو العليم بما غاب زمانا ، ومكانا ، وحالا ، وهو المطلع على القلوب والنوايا والمقاصد ، وهو سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ مَا يَكُونُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةُ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۚ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (١) ۚ

وتعرف الآيات بعظم مخلوقات الله ، وتشير إلى السموات والأرض ، وما فيهما ، وتذكر الآيات بفعل الله في الأمم السابقة بعد كفرهم ، وتمسكهم بالكفر . فقد خسف الله بهم الأرض ، وأرسل عليهم عذابه كسفا من السماء ساقطا . وتذكر الآيات جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وعاقبة الضالين المكذبين ليعلم المكلفون النهاية ، ويستعدوا لما يشاءون فيها . إن الروح تتجذب للقوة الرحيمة ، ولقدرة الله التي أعطت ، وتعطى وتسيطر ، وتملك .

والإنسان في جملته يتمنى رائدا يقوده إلى الحق ، ... وإذا وثق قلبه وعقله في هذا الرائد يطيعه ، ويتبعه ، ويعمل لرضاه . إن العابد الذي يقضى ليله قائما ، ونهاره صائما ، ويضحى بحياته مجاهدا قد باع نفسه لله ، وسعد بما يقضى به الله .

(٤٦٧)

إن تربية الوجدان الروحي هو البناء الحقيقي للإنسان ، ولا تتم هذه التربية إلا بتربية المهابة ، والتسليم بأن العزة لله ، وأن الأمور كلها بيده يصرفها كيف يشاء .

إن المؤمنين الأول طهروا قلوبهم ، وأخلصوا في إيمانهم ، وصاروا عبادا ربانيين ، يعيشون لله ، ويعملون لله ، ويستعدون للرجوع إلى الله ، وهو الرحمن الرحيم .

الركيزة الثالثة **الإيمان هداية ونور**

يتمنى كل إنسان أن يكون سعيدا فى الدنيا ، وفى الآخرة ، ينشد الناس هذه السعادة كل بطريقته ... وأعظم الناس قدرا من ينشد السعادة فى طاعة الله تعالى ، والإخلاص له فى التمسك بدينه ، والعمل بشريعته .

والآيات تبين أن السعادة الحقة تكون فى العلم بالله ، وملازمة العبودية القائنة له سبحانه وتعالى ، ومداومة حفظ القرآن الكريم ، وفهمه ، والعمل به وملازمة هديه ، وارشاده .

والأمل فى المسلمين أن يعلموا ، ويعملوا ، كل ما يرضى الله لأنه يحقق لهم الخير والرضى .

ويجب أن تمتلئ القلوب بحب الله ، ويعيش المسلم عبدا مخلصا لله ، فيحيا بهدى الله ، ويسعد بنوره العظيم .

قصة داود وسليمان عليهما السلام

يقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا^ط يَجِبَالُ أَوِي^ط مَعَهُ وَالطَّيْرَ^ط وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ^ط
 ﴿١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعَ سَاعَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ^ط وَأَعْمَلُوا صَالِحًا^ط إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
 ﴿٢﴾ وَلُسَلِّمَنَّ^ط الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ^ط وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ^ط وَمِنَ
 الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ^ط وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ
 السَّعِيرِ^ط ﴿٣﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ^ط وَجِفَانٍ^ط كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ^ط
 رَّاسِيَتٍ^ط أَعْمَلُوا^ط آالَ دَاوُدَ شُكْرًا^ط وَقَلِيلٌ^ط مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ^ط ﴿٤﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا
 عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمَ عَلَى مَوْتِهِ^ط إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ^ط فَلَمَّا خَرَّ
 تَبَيَّنَتِ الْجُنُّ أَنْ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ^ط الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ^ط ﴿٥﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن العبد الأواب هو الذي يؤمن بربه ، ويتمسك
 بدين الله تعالى جاءت هذه الآيات لبيان صور تطبيقية لأناس نعموا بفضل الله
 فأمنوا به ، وظلوا على الصراط المستقيم ومنهم داود وسليمان عليهما السلام .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات النعم والمعجزات التي أعطاه الله سبحانه وتعالى لداود
 وسليمان عليهما السلام .

(٤٦٩)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ أى ولقد أكرمنا داود ، وأوحينا إليه ،

ومكانه من قوى طبيعية فى الأرض لتكون معجزة شاهدة على نبوته ... وهى :

(١) تأويب الجبال :

يقول الله تعالى : ﴿ يَجِبَالُ أُوبَى مَعَهُ ﴾ أى أوحينا إلى الجبال وقلنا لها

سبحى معه ، وكررى ذكره وشكره لله تعالى ، فالجبال مأمورة بتسبيح الله مع داود ، ومأمورة أن تقوم بجانبه شاكرة ، ومؤيدة .

(٢) تأويب الطير :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرُ ﴾ أى وقلنا للطير أوبى مع داود ، وسبحى

واشكرى الله تعالى .

وقد اختار الله الجبال والطير وأمرهما بمداومة التسبيح والشكر لبروز الجبال على الأرض ، وعلوها فوقها فهى تتوب عنها ... وكذلك الطير ، فهو أبرز ما يطير فوق الأرض ، ويستمر فوقها ، ويخرج منها فهو يمثل الدواب والمخلوقات الأخرى الكائنة فى الأرض .

والأمر شامل لكل مرتفع ، ولكل دابة تمشى أو تطير ، وهذا يشير إلى أن الله جعل الكون كله يشارك داود ﷺ فى عبوديته ، وتسبيحه لله رب العالمين .

(٣) إلانة الحديد :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ أى وجعلنا الحديد مع داود ﷺ

لينا سهلا ، يصوره كيف يشاء ، ويصنع منه ما يريد .

(٤٧٠)

﴿ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ أى ألنا الحديد لداود عليه السلام

ليصنع منه الدروع ، وآلات الحرب فى إحكام ودقة مقدرة ، لتقوم بدورها التى أعدت له .

والسابغات هى الدرع الواقية الساترة للجسد كله لحمايته من الرماح والسيوف ، وسميت بالسابغة لأنها تعم الجسد كله .

وتقدير السرد أى عمل الدروع بحساب ودقة لأنها تصنع من الحديد ، وتتماسك بحلقات ومشابك ، ولابد من إحكامها لتتناسب أجزاؤها ، وتكون دروعا متينة متماسكة .

﴿ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أى اتقنوا أعمالكم ، وأحسنوا أداءها أجازيكم بصلاحكم ثوابا ، وأجرا حسنا .

﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى بصير بأعمالكم خبير بنواياكم ، وسيجازيكم عليها .

وكما تفضل الله على داود عليه السلام تفضل على ولده سليمان عليه السلام بنعم أخرى ... وهى :

(١) تسخير الريح :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ أى

سخرنا لسليمان عليه السلام الريح تجرى بأمره إلى الجهة التى يأمرها به فى سرعة خاطفة ، فتمضى فى غدوة واحدة ، أو فى روحة واحدة مسافة تستغرق من سليمان مسيرة شهر سيرا على قدمه .

وهذا التفسير أولى مما ذهب إليه البعض بأن الريح كانت تستغرق شهرا فى ذهابها ، وشهرا فى رجوعها فتذهب فى شهر فارغة ، وتعود محملة فى شهر آخر ، وسبب ما قلت أن رقعة مملكة سليمان لم تكن تتجاوز حدود فلسطين ،

(٤٧١)

وهذه الرقعة هى التي يمكن أن تقطعها الريح فى غدوة أو روحة من نهار ...
وأقرب شاهد لهذا ما جاء فى القرآن الكريم من أن سليمان لم يكن يعرف
مملكة سبأ قبل أن يخبره الهدد بخبرها ... فلو كان ملك سليمان ﷺ مما
يتسع لجريان الريح شهرا ، لكان ملك يسع معظم العالم كله ولكانت سبأ داخله
فى سلطان هذا الملك ، من باب أولى ...

(٢) إذابة النحاس :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ ﴾ والقطر هو النحاس ،
ويتميز عن الحديد بحاجته إلى نار أشد .
واسالة النحاس تختلف عن إلانة الحديد لأن إلانة الحديد تعنى بقاء
الحديد على صورته المادية مع سهولة تشكيلة بصورة أخرى ، أما إسالة النحاس
فإنها تعنى تحول النحاس إلى مادة سائلة .
والقطر هو النحاس وأرادت الآية بعين القطر بيان أن النحاس بعد سيلانه
يشبه الماء الجارى الذى فى العين (البئر) .
(٣) تسخير الجن :

يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أى
وسخر الله لسليمان ﷺ الجن لتعمل ، وتخدمه بما يأمر به بتقدير الله تعالى .
﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى أن الجن
التي تخالف أمر الله تعالى ، وتجاوز الحد ، ولا تعمل لسليمان ، وتترك طاعة
الله تعالى تلق عذاب جهنم بلهيبها وسعيرها .

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَاسِيَّتٍ ﴾ أى أن الجن الذين كانوا مع سليمان عليه السلام كانوا يعملون ما
يأمرهم به من :

- ﴿ مَحْرِبٍ ﴾ وهى بيوت العبادة وكانوا يقيمونها بأمره .
- ﴿ وَتَمَثِيلٍ ﴾ وهى صور كائنات مجسدة تنزين بها القصور .
- ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ والجفان جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة التى
يوضع فيها الطعام ، وهى فى ضخامتها وسعتها تشبه حوض الماء
الكبير الذى يجتمع فيه الماء .
- ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَّتٍ ﴾ والقدر هى الأوانى التى يطبخ فيها الطعام ، وهى
لضخامتها ، وثقلها ثابتة فى الأرض لا تتحرك مثل الجبال الرواسى .
وفى الآية دلالة على سعة ملك سليمان عليه السلام وعلى أنه كان يجمع على
مائدته الأعداد الكثيرة من الناس التى احتاجت إلى الأوانى والقدر الضخمة
المذكورة .

﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ أى اشكروا الله يا أبناء داود ، واعلموا أن
الشكر قول وعمل ونية .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى وقليل من عباد الله من يذكره
وبشكره .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهِمَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِمْ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُمْ ﴾ أى أنه لما حان أجل سليمان عليه السلام وكان واقفا متكئا على
عصاه يرقب الجن ، فمات وبقي على حالته بعد موته ، وبقيت الجن ترقبه ولم

(٤٧٣)

تعلم بموته إلا بعد أن أكلت القرصة ما تحت العصا فوقع على الأرض وعلمت الجن أن سليمان عليه السلام مات فتركت العمل .

﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي

الْعَذَابِ أَلْمُهِينِ ﴾ أى علمت الجن بموته بعد سقوطه على الأرض ، فلما

علموا بموته ظهر لهم عدم علمهم بالغيب ، لأنهم لو علموا بموت سليمان فى حينه لتركوا العمل من وقته ، ولما ظلوا فى أعمالهم الشاقة المهيئة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات معجزات الله لداود وسليمان عليهما السلام .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تبين الآيات ركيزة هامة ... هى :

كشف حقيقة الجن

الجن خلق من خلق الله تعالى لهم خصائصهم ، أبوهم إبليس الذى طرده الله من رحمته ، وأنظره إلى يوم القيامة ، وتركه فى غواياته ، ووساوسه بين الناس ليظهر الصادق من الكاذب .

وقد جاء الإسلام ، وبلغه رسول الله ﷺ إلى الإنس والجن ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأخذ الضالون من الجن يعملون فى الإفساد والإضلال ، ويغرون الإنسان بالفحشاء والمنكر ... وقد اتبع فريق من البشر الجن فى ضلاله وفساده ، وظنه يعلم الغيب ، ويقدر على فعل أشياء لا يستطيعها الإنسان ... والآيات ترد ذلك ردا بينا . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ

مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿١﴾ ولذلك ضل فريق من البشر ، وهم يظنون فى الجن أنهم يعلمون الغيب فسعوا إليهم بطلاسم وتعاويز غير مفهمومه .

لقد رأى بعض الناس أن للجن قدرة على الحركة ، والانطلاق فى آفاق فسيحة ، ويظنون أنهم أقدر من الإنسان على النظر البعيد الذي يكشف ما سيأتى به الغد ، ويبالغون فى الكشف حتى تصوره نوعا من الغيب .

فمثلا إنسان على طريق سفر يمكن أن تراه الجن ، وتخبر عنه ، وعن حاله على هذا الطريق ، والحديث الذي يتحدث به ، والأمتعة التي معه ، وبعدكم من الزمن سيصل إلى المكان الذي يتحدث فيه أهله عنه ؟ ... كل هذه الأمور وكثير غيرها يمكن أن يعلمها الجن ، قبل أن يعملها الإنسان الذي فى الطرف الآخر من هذه الوقائع ... وهو فى الواقع ليس من علم الغيب ، وإنما هو مشاهدة ، حيث هو واقع محسوس يراه الجن رأى العين ... فهو حضور بالنسبة للجن ، ولكنه غيب بالنسبة للإنسان البعيد عن موقع الحدث ... حيث يرى الجن . ولا نرى نحن البشر . ما وراء الأبواب المغلقة ، أو الجدر القائمة ، ونحوها ... وهذا غيب بالنسبة لنا ، ولكنه حضور بالإضافة إلى الجن ...

أما الغيب بالنسبة للجن ، فهو الأحداث التي لم تولد بعد ، ولم تخرج إلى عالم الشهود ، كمقدرات الله فى خلقه ، وما يلقون على طريق حياتهم من خير أو شر ... كالعمر ، والرزق ، والذرية ، وغير ذلك مما هو مقدر على الإنسان...

ومثل الجن فى هذا مثل سائر المخلوقات ، لا يعلم شيئا عما قدره الله لكل مخلوق ... فهذه المقدرات التي هى فى حالة كمون ، لم تتحرك بعد إلى الظهور

(١) سورة الجن ، الآية ٦ .

(٤٧٥)

، لا يعلمها إلا علام الغيوب ، أو من خصه ممن اصطفى من رسله ، فأظهره على بعض ما انطوى فى صحف الغيب .

وموت سليمان بالنسبة للجن غيب ، إذ أن الروح التي كانت تلبس سليمان وتضفى عليه الحياة ، هى سر من أسرار الله ، وغيب من غيوبه ، وأمر من أمره ، لا يعلمه إلا هو ، فلما زالمت مكانها من سليمان لم يشعر الجن بها ، ولم يعلموا من أمرها شيئاً ، وحسبوا سليمان . وهو ميت . أنه فى غفوة ، أو فى سنة من النوم ... فلما سقطت العصا التي كان يتكى عليها ، وخر ميتا دون حراك ، علم الجن أنه مات ، وتبين لهم من ذلك أنهم لا يعلمون الغيب ، ولو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أمر الروح التي زالمت سليمان ، ولعلموا أنه مات ، ولما لبثوا فى قيد التسخير والعمل يوماً أو بعض يوم ... إنه عذاب مهين لهم ، واذلال لسلطانهم ، وقهر لجبروتهم .

وظهر بذلك أن الجن لا يعلم غيباً ، وأنه مخلوق ذو خواص معينة ، وهى لغرابتها يتصورها البعض علماً بالغيب ، مع أن الأمر ليس كذلك ، ولجوء البعض للجن وهم لا يجوز .

وقد أعطى الله الإنسان الوسائل التى تمكنه من التخلص من وساوس الجن ومكائده ، وهى وسائل ثابتة فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

قصة مساكن سبا ، وسد مأرب^(١)

يقول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٦﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا

(١) وصف الهمداني في كتابه (وصف جزيرة العرب) سد مأرب فقال : يقع في الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير ، تمتد مئات الأميال نحو الشرق الشمالي ، وبين هذه الجبال أودية تصب في واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقي ، وهو أعظم أودية الشرق ، وشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول ، وانحدرت حتى تنتهي أخيرا إلى وادي أذنة ، وهو يعلو سطح البحر بنحو ١١٠٠ متر ، وتسير فيه المياه نحو المشرق الشمالي حتى تنتهي إلى مكان. قبل مأرب بثلاث ساعات ، وهو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلن ، أحدهما بلن الأيمن وثانيهما بلن الأيسر ، والمسافة بينهما ستمائة ذراع يجرى السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي في وادي أذنة .

وقد اختار السبئيون المضيق بين جبلي بلن وبنوا في عرضه سورا عظيما عرف بسد مأرب أو بسد العرم ، لأنه لا أنهار عندهم ، وإنما يستقى أهلها من السيول التي تتجمع من المطر ، وقد كان يذهب أكثرها في الرمال ، فإذا انقضى فصل المطر ظمئوا وجفت أغراسهم ، وربما فاض المطر فسطا على المدن والقرى فنالهم منه أذى كثير .

وبين المضيق ومدينة مأرب متنوع من الأرض تبلغ مساحة ما يحيط به من الأرض من سفوح وجبال نحو ٣٠٠٠ ميل مربع كانت صحراء جرداء قاحلة فأصبحت بعد تدبير المياه بالسد غياضا وبساتين على سفحى الجبلين وهي المعبر عنها بالجنتين الجنة اليمنى والجنة اليسرى اه . (تفسير المراعى ج ٢٢ ص ٧١) .

(٤٧٧)

لَيَالِي وَأَيَّامًا ءَامِينَ ﴿٤٧٧﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
﴿٤٧٨﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧٩﴾ وَمَا
كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي
شَكٍّ ۚ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٤٨٠﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حال الشاكرين ونعمه عليهم مثل داود وسليمان
عليهما السلام ، جاءت هذه الآيات لبيان أحوال بعض المكذبين كأهل سبأ فقد
بدل الله حالهم لما كفروا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قصة سد مأرب واستفادة أهل سبأ به ، ثم لما أعرضوا وكفروا
دمر الله السد ، وتبدل حالهم إلى بوار .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ أى جعل الله لأهل سبأ فى
وطنهم ، وبلدهم التى يقيمون بها علامة تدل على قدرة الله تعالى ، وقد جعلها
الله لـ "سبأ" لأنها كانت فى موطنهم ، وهم الذى كانوا يستفيدون من هذا السد
الذى جعله الله لهم دليلا على وجوده وقدرته .

﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى جعل لأهل سبأ بستانين عظيمين يمتلآن نباتا ، وثمرًا ، يقعان حول الوادى ، أحدهما فى يمين الوادى ، والثانى فى يساره ، وقد أرسل الله رسله إلى أهل سبأ ، وعرفوهم فضل الله عليهم فى إيجاد هذين البستانين ، وجلب الماء لهما ، وإقامة السد الذى حفظ الماء خلفه للرى ، والسقيا .

﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أى أرسلنا لهم الرسل ، فعرفوهم بالله ، وبينوا لهم أدلة وجود الله البادية فى السد الذى يحفظ لهم ماء المطر ، ويخرج البساتين الياضنة ذات الحبوب ، والثمار ، فى حسن وجمال ... وقامت دعوة الرسل على تعريفهم بالله ، وإظهار نعمه وآلائه التى تعرف به ، وتدعوهم إلى الاستقامة على منهجه وشكره على ما أوجده لهم .

﴿ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى قال الرسل لأهل سبأ ، اشكروا الله على نعمه عليكم ، فقد جعل بلدكم مليئة بالخيرات ، والعطاء ، وغفر لكم ذنوبكم .
﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ أى استقام أهل سبأ فترة على شكر الله تعالى إلا أنهم بعد ذلك أعرضوا عن ذكر الله وشكره ، ومنعوا غيرهم من اتباع الرسول ، فبدل الله حالهم ، ودمر السد الذى كان يحفظ لهم الماء بواسطة سيل ضخيم يعرف بـ ﴿ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ الذى كسر السد ، ودمر البساتين ، والجنان ، وأهلك الحرث ، والنسل ، ولم يبق منهم إلا شردمة قليلة منهم تفرقت فى البلاد .

﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ أى هلكت البساتين ، وضاع الزرع والشجر ، وتبدل حال أهل

سبيلاً" ولم يبق لهم فى بساتينهم إلا شجر لا فائدة فيه ، مثل شجر الخمط ، والأثل ، وعدد قليل من شجر السدر .

والخمط شجر الأراك ، ويطلق على كل شئ مر ... والأثل شجر عظيم الفروع يشبه "الطرفاء" ... **والسدر** شجر له شوك يشبه شجر العنب والليمون ... **والسدر** فيه نفع لأنه يغسل به ، وله رائحة طيبة ، ولذلك كان هو أقل شجرهم .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾ اسم الإشارة عائد إلى ما حدث لأهل

سبيلاً ، وما نزل بهم من تدمير وضرر لبيان جزاء الله للضالين المكذبين فقد كفروا بالله تعالى ، وأعرضوا عن دعوة الرسل فيهم .

﴿ وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار ذيلت به الآية

لبيان أن الله يجازى الذين كفروا ، وأعرضوا عن دينه بالعذاب الأليم ، والعقوبة الملائمة لكفرهم وفسادهم .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَ ﴾ أى

جعلنا بينهم وبين قرى الشام التى باركنا فيها ، وكانوا يرحلون إليها تجارا فى قوافل تسير فى الصحراء والبادى ، وقد امتلأ الطريق من سبيل إلى الشام بالقرى الصغيرة التى يستريح فيها التجار والرحل ... وهذه القرى الممتدة على طريق الشام أقامها أصحابها منعا لوحشة الطريق ، ولتزويد المسافرين بالزاد والماء ، وليستريح فيها المسافرون .

﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ أى قلنا

لأهل سبيل : سيروا فى تجارتكم إلى الشام ، مستفيدين بهذه القرى الظاهرة فى راحتكم وأمنكم . فقد قدر الله لكم فى سفركم الراحة والأمن مع طول السفر الذى

يستغرق أياما وليالى ... والآية تشير بهذا التقدير إلى نعمه الأمن والأمان فى التنقل وطلب المعاش ، وتدعو المسلمين إلى التعاون فى هذا الأمر الهام .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ أى طلبوا من الله تعالى أن يبعد

بين قرى الطريق ، وبطروا ما قدر الله لهم ، وظلموا أنفسهم حين طلبوا المشقة والتعب بدل اليسر والراحة ، استعلاء ، وكبرا ، وظنا منهم أنهم سيحملون فى ركابهم ما يريحهم ، وييسر لهم حاجتهم ... فعاقبهم الله تعالى وبذل يسرهم عسرا ، ولم تفدهم أحلامهم شيئا .

﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أى أن

أهل سبا قد ظلموا أنفسهم ، وكفروا بنعم الله عليهم ، ففرقهم الله على الديار بعد أن كانوا جمعا ، وأفقرهم بعد غنى ، وأضعفهم بعد قوة ، فصاروا أحاديث للناس يضربون بهم المثل ، ويملاؤن بسيرتهم مجالس السمر والخيال .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى إن فى قصة أهل سبا

وانهيار سدهم ، وتبعثر حالهم ، وعقوبات الله التى نزلت بهم آيات واضحة لكل إنسان يصبر على البلاء ، ويشكر الله فى السراء والضراء .

وجاءت "الآيات" جمعا لأنها تتضمن عدة آيات وعبر وهى :

حالة مساكنهم آية على قدرة الله ورحمته وانعامه ، وأنه الواحد المتصرف الذى جعل لهم السد والبساتين .

وفى إرسال سيل العرم آية على انفراده تعالى بالحكم ، وعلى أنه المنتقم وعلى أنه واحد ، فلذلك عاقبهم على الشرك .

وفى انعكاس حالهم من الرفاهة إلى الشظف آية على تقلب الأحوال ، وتغير العالم ، وآية على صفات أفعال الله تعالى من خلق ، ورزق ، وإحياء ، وإماتة .

(٤٨١)

وفي القصة آية تبين عدم الاطمئنان لدوام الحال .

وفى عمران إقليمهم ، واتساع قراهم الممتد إلى بلاد الشام آية على مبلغ العمران وعظم السلطان واختلاف التصرفات .

وفي القصة آية على أن الأمن أساس العمران .

وفي تمنيههم زوال الأمن آية على ما قد تبليغه العقول من الانحطاط المفضي إلى اختلال أمور الأمة وذهاب عظمتها .

وفيما صاروا إليه من النزوح عن الأوطان والتشتت في الأرض آية على ما يلجئ الناس إلى الضياع بسبب ارتكاب الأخطار والمكاره .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

أى توقع إبليس من أهل سبيل أن يطيعوه ، ويعصوا الله ، فلما أغواهم صدق توقعه ، واتبعوه فى ترك دين الله ، والإعراض عن منهج الله إلا نفرا قليلا منهم تمسك بإيمانه ، واستمسك بالعروة الوثقى ، واستمر على إيمانه بالله تعالى .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أى إن القوم اتبعوا إبليس ،

وعصوا الله بلا سلطان ، أو فضل لإبليس عليهم ، فهو لا يملك إلا الإغواء ، ويعمل بالمكر والخداع على صرف الناس عن دين الله تعالى .

﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى ليس

للسيطان على الناس سلطة وقدرة ، وليس معه برهان وحجة ، ولكن الله ابتلى الناس به ليظهر المؤمن الصادق الموقن بالآخرة من المنافق الكاذب الذى يشك فى الدار الآخرة .

(٤٨٢)

إن الشيطان يوسوس للناس ، ويأتيهم من حيث رغباتهم ، وأمانتهم ،
ويظهر إخلاصه ونصحه ، ويختلف الناس حوله فضعيف الإيمان ينخدع له ،
والمؤمنون الصادقون يستعينون بالله من الشيطان الرجيم .

ووسوسة الشيطان تشبه وباء موجودا بين الناس ، ومن شأن الأقوياء
الأصحاء عدم التأثر بالوباء لقوة المناعة لديهم ، أما المرضى والضعاف فكثيرا
ما يصيبهم المرض والوباء .

﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى إن ربك يا محمد حافظ لكل أمر
وسيحاسب ويجازى به .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات قصة سد مأرب فقد جعله الله لهم ، وحفظ لهم به الماء فى
الوادي ، ورزقهم بستانين كبيرين على جانبي الوادي ، وأعطاهم النعم والخيرات
الكثيرة ، وأمرهم بشكر الله وطاعته ، إلا أنهم عصوا وكفروا فبدل الله حالهم ،
ودمر السد ، وهلك الزرع والبساتين ، وجازاهم الله على كفرهم دمارا للسد ،
وتشردا فى الأرض ، وهوانا بين الناس .

ومن قدر الله لهؤلاء الناس أن يسر لهم رحلتهم إلى قرى الشام المباركة
ويسر الطريق بكثرة القرى والاستراحات فيه ، إلا أنهم طلبوا صعوبة الطريق
وبعد السفر ، وكثرة المشاق ، وظلموا أنفسهم فمزقهم الله كل ممزق ، وجعل
سيرتهم تسلية للمجالس ، وأمثلة للناس .

ولقد توقع إبليس إضلالهم ، فلما حاول معهم صدق توقعه فاتبعه أكثرهم
وعارضه المؤمنون ، وهم قليل .

(٤٨٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

وجوب شكر الله تعالى

الفضل كله لله ، وكل ما في الكون من تقديره وخلقه ... فقد خلق الله الإنسان وسواه ، وركبه في أبهى صورة ، وكونه من عناصر متعددة تمكنه من الحياة والحركة ، والفهم ، والنظر ، والسعى ، والتدبير .
والهم كونه المخلوق أن يؤدي للإنسان كل ما يحتاجه ، ويتمناه ...
والنظرة العاقلة تؤكد هذه الحقيقة .

وحين نتأمل الآيات نعلم أن الله رزق أهل سبأ بستانين يانعتين مليتين بالزرع والشجر ، ليأخذا منهما الحب والفاكهة ، والزرع والشجر ، وصان لهم السد ليحفظ الماء لهم ، وبذلك عاشوا حياة كريمة طيبة ، ووجب عليهم أن يشكروا الله تعالى ، فقد رزقهم طيب المعاش ، وحسن المقام ، وغفران الذنوب ... إلا أن الشيطان وسوس لهم ، وأغواهم فأعرضوا عن طاعة الله ، وكفروا به ، واتخذوا الشمس إلها .

وكونوا مملكة قوية عبر الهدد عنها لسليمان حين قال له ما حكاه الله عنه في قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِءَ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [١١] إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [١٢] وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ

﴿ ١٤ ﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَ الْحَبَّةَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿ ١٥ ﴾ (١) .

وقد عاقبهم الله بكفرهم ، وأرسل عليهم سيل العرم فانهدم السد ، وذهبت مياهه سدى ، وتحولت البساتين إلى شجر مر لا يفيد ، وجازاهم الله على كفرهم فى الدنيا ، وجزاء الآخرة أشد وأقسى .

لقد نزل بأهل سبأ هذا العذاب لأنهم لم يقدرُوا الله فضله ، ولم يؤمنُوا به وبدل أن يشكروا الله جحدوا فضله ، وعارضوه .

إن الله يمهّل ، ولا يهمل ، ويضع أمام المسلمين خارطة الطريق ﴿ ١٦ ﴾ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^ط وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿ ١٧ ﴾ (٢) .

وخير للإنسان أن يبصر نعم الله له ، ويشكر الله أن جعل له عينا ترى وأذنا تسمع ، وعقلا يفهم ، ولسانا يتكلم ، ومكنه من الأكل ، والتنفس ، والحركة ، وأحاطه بالنبات ، والهواء ، والماء ، والحيوان ، والطير ... ليأكل ويشرب ، ويتنفس ، ويحيا ، ويعيش ، ونعم الله عديدة ، وكل جزئية فيها تدعو إلى شكر الله تعالى .

إن جهد الشيطان أن ينسى الإنسان ربه ، وأول ذلك نسيان فضائله ونعمه وعلى الدعاة :

سد منافذ الشيطان فى النفس البشرية ، وتذكير الناس بفضل الله تعالى ، وارشادهم إلى طاعة الله تعالى ، لأن الطاعة تقيد النعم ، وتزيل النقم ، ودور الدعاة هو التذكير ، والإرشاد .

(١) سورة النمل ، الآيات ٢٢ . ٢٥ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٧ .

(٤٨٥)

الركيزة الثانية

الكافر يعاند نفسه

الكفر إنكار الحق ، وطمس الصواب ، وهدم للصرائط المستقيم ... ولذلك عمل الشيطان لتحقيقه بين الناس ليسود الضلال والبهتان .

وجاء الإسلام لهدم الباطل ، وتنقية عقول الناس من الضلال والكفر .

إن الكفر يسوق صاحبه إلى إنكار أصحاب الفضل ، ويدفع أتباعه إلى الغرور ، والتعالى ، وادعاء أنهم قادرين بعقولهم ، وفكرهم على صنع ما هم فيه ، وعمل ما يريدون .

والكفر بيئة حسنة للشيطان يمرح فيها ، ويسرح ، ويغرى ، ويوسوس ويببوا ناصحا أمينا للمفسدين .

ولقد انتشر الكفر فى قوم سبا ، فظنوا أنفسهم قادرين على فعل ما يشاءون ولذلك عملوا على إزالة الاستراحات والقرى التى جعلها الله لهم على امتداد الطريق إلى الشام، وطلبوا من الله أن يباعد بين هذه القرى ، فكان أن باعد الله بينهما ، وبذلك ظلموا أنفسهم ، وانهدم السد ، وتفرقوا فى البلدان ، والفيافى ، وضاع ملكهم وسلطانهم .

إن غرور الكافر يسوقه إلى التمدادى فى المعصية ، والاستمرار فى الشطط حتى لا يستيقظ إلا بعد فوات الأوان .

لو عقل الإنسان أمره لفكر فى كل أعماله ، وبحث عن صانع الوجود وخالقه ، وعمل على الإيمان به قبل أن يجئ يوم لا يصلح الإيمان فيه .

ولو تأمل الناس فى أعمال الكافرين لرأوا فيها التناقض ، وعدم رعاية المصلحة ، وقيامها على العدوان ، واهمال حقوق الآخرين .

إن الكافر يملأ عقله بالفواحش ، ويعيش بالمنكر ، ويجهل القيم والمبادئ ويكفى أن حياته ونشاطه قائمة على إنكار حق الله تعالى .

وحديث القرآن الكريم عن الكفر والكافرين طويل يحتاج إلى من يظهره ويوضحه للناس ، ويبين ما فيه من فساد وضلال ... وتلك مسئولية الدعاة .

الركيزة الثالثة

الخلق الحسن فى تبليغ الإسلام

توضح الآيات المنهج الحسن فى تبليغ الإسلام ، فهى لا تتصادم مع المشركين ، وانما تأتيتهم بالسؤال عن طبيعة الآلهة ، وتطلب منهم الاستعانة بالشركاء لينصروهم ، ويعينوهم ، وتستفهم منهم عن خالق الخلق ، ومالك الملك ، لأنه المستحق للالوهية .

والآية تسوى فى الخطاب بين المؤمنين والمشركين فى صورة محايدة ليظهر الحق بذاته وبراهينه ، ويعرف الباطل بكنهه وواقعه ، وتؤكد أن الأمر لله فى الآخرة ، وهو يفصل بين الناس ، ولن يحمل إنسان جرم غيره ، ولن يسأل عنه ، والجزاء الحق يرتبط بالعمل ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾^(١) .

إن الدعوة إلى الإسلام تكون بالحسن ، واللين ، والصدق ، والوضوح ، ولا يصح قيام الدعوة إلى الله على غير الخلق السليم ، ومن المعلوم أن نبل الغاية يحتاج إلى شرف الوسيلة ، وسلامة المصدر والتوجيه .

ورسول الله ﷺ صورة للداعية فى حبه للناس ، وحرصه على هدايتهم ، وهو أسوة الدعاة إلى يوم القيامة ... يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٢) .

(١) سورة النساء ، الآية ١٢٣ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

إبطال الشرك والشركاء

يقول الله تعالى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْثِقَالَ ذَرَّةٍ
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ
﴿١١﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ
قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ﴿١٣﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ يَجْمَعُ
بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ قُلِ أَرُونِي الَّذِينَ
أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٦﴾ ۞

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أحوال الضالين والعصاة جاءت هذه الآيات تأمر
رسول الله أن يستهزئ بآلهة المشركين ، ويسخر منهم ، ومن أتباعهم ويسألهم
ليبين براهين التوحيد وقدره الله تعالى ، وينفى الشرك والشركاء .

- ٢ -

موضوع الآيات

الآيات تأمر رسول الله ﷺ أن يطلب من المشركين رؤية قدرة الأصنام
والأوثان ، فهي لا تملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وليس لهم
سلطان ما ، لأنهم لا يشاركون الله في أمر ما ، ولا قوة لهم تعينهم ، وتتصرهم

، وليس لهم شفاعة يشفعون بها ... إن الله إله واحد وهو الخالق ، والرزاق ، وكل شئ بإرادته ، وهو المتصرف فى الدنيا والآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء

المشركين من قومك الذين يعبدون الأصنام ، ووبخهم على سوء صنيعهم ، وبين لهم فسادهم ، وقل لهم : ادعوا أصنامكم فى مهام أموركم ليدفعوا عنكم الضر ، ويجلبوا لكم النفع لعلهم يستجيبون لكم ، ويؤكدون أمامكم أنهم آلهة ، وان لا فلا أحقية لهم فى الألوهية التى تنسبونها لهم .

﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أن

هذه الآلهة المزعومة لا تملك شيئاً ولو قدر ذرة فى السماوات أو فى الأرض .

﴿ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ ﴾ أى أن الآلهة المزعومة لا تملك مثقال ذرة

ولا تشارك الله فى ملكية شئ ، فهى لا تملك أبداً لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل المشاركة .

﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴾ أى ولا قدرة لها ، ولا يستعين الله بهم

مطلقاً .

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى ولا تنفعهم

شفاعة غيرهم ، لأن الشفاعة لا تتم إلا بإذن الله تعالى ، وقد قضى سبحانه وتعالى بانعدام شفاعة الأصنام لأنفسهم ولغيرهم .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقُّ ﴾

أى ينتظر الناس فى الحشر الشفاعة حتى يأذن الله بها ، فإذا أذن الله بالشفاعة

وهذأت النفوس ، وانتهى الفرع يسألون عن إذن الله بالشفاعة ويقولون : ماذا قال ربنا . فيقال لهم : إن الله قال الحق ، وأنه لا شفاعة إلا لمن ارتضى ، وصار جليا أمامكم أنه لا شفاعة إلا لمن أذن له الله تعالى .

﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى المتعالى عن جميع خلقه ، العظيم الذى لا يقارب عظمته مخلوق .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؟ ... أى قل يا محمد واسألهم عن الله الذى يرزقهم من السماء والأرض .

﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أى إنهم سيجيبونك بأن الذى يرزقهم هو الله ، لأنهم يؤمنون بأفعال الله ، وحيث أن إجابتهم معلومة فبادر يا محمد بقولها فإنهم فى خزى وهوان يمنعهم من النطق والإجابة .

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين أينما على الحق والآخر على الباطل ؟ ... لأن الحق واحد لا يتغير .

وهذا أسلوب فى الكلام العربى يستعمل لقطع الجدل والمراء حتى يفكر كل طرف ليرى صوابه أو خطأه .

ومن دقة العدل والانصاف أن بدأ الرسول بنفسه ، وثنى بالمشركين فى إمكانية اتباع الحق ، أو الوقوع فى الضلال بعد أن بين لهم أدلة التوحيد ، وأثبت صفات الله تعالى التى يؤمن بها .

﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى وقل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن كل فريق سيسأل عن عمله ، ويجزى عليه بعدل ودقة ، ولن يسأل فريق عن عمل غيره ، فأنتم أيها المشركون لا تسألون عن آثامنا وذنوبنا ، ولن نسأل عن أعمالكم ، فكل نفس بعملها ، وسلوكها .

(٤٩٠)

﴿ قُلْ سَجِّعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى قل لهم يا محمد وعرفهم أن الله يجمع الخلق كله يوم القيامة حين الحشر والحساب ليقضى بينهم بالعدل والحق ، ويجازى كل نفس بما تستحقه ، وهنا تتضح الحقيقة ، وتعلمون أن الله هو الواحد لا شريك له .

﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أى وهو سبحانه الماضى فى حكمه ، العليم بأخبار عباده .

﴿ قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِمْ شُرَكَاءَ ﴾ أى قل لهم يا محمد ما هى الأدلة والحجج التى جعلتكم تجعلون الأصنام شركاء لله ؟ عرفونى بها ودلونى عليها .

﴿ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم وقتلتم فالله إله واحد قوى غالب ، يقدر شئون الدنيا والآخر ، ويضع كل شئ فى موضعه الذى قدره له .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يقول للمشركين : هاتوا أصنامكم وآلهتكم المزعومة لتعينكم ، وتتصركم ، وهذا من قبيل الاستهزاء والسخرية لأن الأصنام والأوثان أحجار لا تفيد ، ولا تملك مثقال ذرة فى السماء أو فى الأرض ، ولا تشارك الله فى ذرة ما ، ولا قدرة لها حتى يستعين الله بها ، ولا تملك أصنامكم الشفاعة لأن الشفاعة بإذن الله تعالى .

فى يوم القيامة تتضح الحقيقة وينال كل إنسان جزاء عمله ... وقد أمر الله رسوله أن لا يطيل الجدل مع المشركين ، وأن يقول لهم : إن الحق واحد لا يتعدد ، وأينا على صواب والأخر على خطأ ، ولن يسأل احدا عن جرم

(٤٩١)

غيره ، وعرفوني سبب استحقاق الأصنام للألوهية فإنى لا أؤمن بذلك ولا أصدق.

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

تهافت الآلهة المزعومة

رحمة الله بالناس بالغة ، ورأفته بهم كبيرة ... ولذلك وسع الله للناس أبواب الخير ، وأرسل رسله للناس مبشرين ومنذرين ، ولم يتركهم لضلال العقل ، وهوى الشياطين .

ومن رحمة الله بعباده أن ناقش معهم قضية العقيدة بأركانها ، فعرفهم بوحدانيته ، وبين لهم صفاته ، وما قدره لهم من نعمة وفضل .

ومن رحمته سبحانه وتعالى أن حذرهم من الشرك والمشركين ، ودعاهم إلى ترك عبادة غير الله تعالى مستدلا بما يلى :

(١) أنها آلهة مصنوعة حادثة لا تملك شيئا ما ، ولا تستطيع أن تتصرف فى أقل من ذرة فى السموات أو فى الأرض ، ومن لا يملك ، ولا يقدر ولا يتصرف لا قيمة له فى حياة ، ولا يصح أن يكون إلها !!

(٢) إن الآلهة التى يعبدها المشركون لم تفعل ، أو تقدم أى شئ لتكون آلهة وهى لم تطلب ذلك أصلا ... ولم تدع أنها أوجدت شيئا ، أو اشتركت مع الله فى صنع شئ ، أو احتاج الله إليها فى شئ ، فمن أين لكم القول بالوهيتها ؟

(٣) إن هذه الآلهة لا تستطيع أن تنصر اتباعها ، أو تشفع لهم عند الله تعالى لأنها لا تفيد نفسها ، أو تبعد الضر عن غيرها ... فكيف تعبدونها ؟

(٤٩٢)

(٤) الله رب العالمين أنزل أحسن الحديث قرآنا مرشدا للحق ، وهاديا للصراف المستقيم ، وموضحا سبل النجاة فى الدنيا وفى الآخرة ، وهو الخالق ، المالك ، الرزاق ... فكيف تسوونه بالله ، وتعبدونه وتجعلونه إلهًا ؟ إن هذا ضلال مبين .

الركيزة الثانية **وجوب معرفة الله بآياته**

دعوة الإسلام واضحة فى غايتها ، وأهدافها ... فهى تهدف لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وإنقاذهم من ضلال الشرك إلى نور التوحيد والإيمان . والدعوة إلى الإيمان قائمة على دعائم مركوزة فى الإنسان .
فإن الله هو الخالق لكل حاجات الإنسان ... ولولا رزق الله لهلك الناس ، وانعدمت الحياة !!

والعقل الفاهم يربط الأسباب بمسبباتها ، ولذلك يصل إلى أن خالق الوجود هو الله تعالى ... أما الأصنام والأوثان فلا فعل لها ؟
ومن المعلوم أن الحق واحد لا يتعدد ، وحين يختلف الناس فى عبادة الله فمن أحق بالعبادة ؟
الله أم الأصنام ؟
وما علة الاختيار ؟
إن من المشركين من يعبد حجرا ، أو بقرا ، أو طيرا ، أو عنزا ... فهل يصح هذا ؟

أرونى ماذا خلق الذين من دون الله ؟
والمؤمنون والمشركون أحدهم على الحق ، والآخر على الباطل ؟ فأيهما يا ترى ؟

إن يوم القيامة هو يوم الفصل والحساب ، وقد أعد الله الجنة والنار ، ولن تزر وازرة وزر أخرى ، فليتخير الإنسان لنفسه ، وليستعد لما يرجو ويتمنى .

إقامة الحجة على الكافرين وابتات اليوم الآخر

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْجِلُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَتْهُمْ أَسْتُضْعَفُوا لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِّلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُمْ أَدَادًا ۖ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٣٣ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أدلة التوحيد ، وتحدثت عن نعم الله للنبين وللمؤمنين ، وللناس أجمعين جاءت هذه الآيات لتبين للناس أن رسالة الرسول ﷺ عامة وخاتمة ، وترد مزاعم الأفاكين الذين يكفرون بما جاء به محمد ﷺ .

(٤٩٤)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن رسالة محمد ﷺ عامة لسائر الناس ، وأن الدعوة بها أمر قائم إلى يوم القيامة ، لا يوقفها جهل كثير من الناس ، ولا إنكارهم لليوم الآخر ، ولئن استهزأوا بك يا محمد ، وسألوا عن يوم القيامة ، فعرفهم أن علمه عند الله وحده ، وسيأتي في ميعاد قدره الله تعالى ، وسوف يحاسبهم الله عن كفرهم بالقرآن الكريم ، ويعاقبهم بنار السعير ، ولن ينفعهم الندم حين الحساب .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ الخطاب في الآية لرسول الله ﷺ حيث يعرفه الله بأنه اختاره ، واصطفاه ، وأرسله للناس جميعا مغايرا لسائر الرسل الذين سبقوه ، فلقد بعثوا لقومهم خاصة ، وقد كلفك الله يا محمد بتبشير الطائعين بالخير ، وإنذار العصاة بالشر والضر .

فالعالم كله موطن دعوة الإسلام ، بلغه رسول الله ﷺ ، ويستمر المسلمون في تبليغ الدعوة الإسلامية للناس كافة إلى يوم القيامة ، كما أوجب الله عليهم .

وتحديد عموم الرسالة جاء بصيغة القصر ليفيد قصر عموم الرسالة على دعوة محمد ﷺ ليبين أن دعوة كل الرسل قبل محمد ﷺ كانت خاصة .

وفيد القصر ثبوت أصل الرسالة ، وذلك يقتضى الإيمان بمحمد ﷺ رسولا إلى الناس كافة ، ويفيد أن دعوة غيره باطلة بعد بعثته ﷺ ، فلا وجود لدعوة مع رسالته ، ولا وجود لنبي بعده ﷺ لأن ذلك يتعارض مع دعوته ﷺ .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى إن كثيرا من الناس لا يعلمون حقيقة ما جئتهم به فمنهم من ينكر رسالتك أصلا وهؤلاء يقول الله

عنهم : ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ^١ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾^(١)
 ومنهم من يكفر بجزء مما تدعوهم إليه دون غيره فيكفرون باليوم الآخر ،
 ويتساءلون منكبين كما يقول الله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ^٢ قَالَ
 مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٢) ومنهم من يجعل الرسالة خاصة بالعرب وكل
 ذلك كفر قائم على الجهل ، والحدود .

وحصرت الآية أحوال النبي ﷺ مع الناس في التبشير والإنذار لبيان أن
 كافة الأوامر والنواهي في الإسلام يعود أمرهما إلى الدعوة للخير ، أو تجنب
 الشر لسائر الناس ، ولذلك قدم الجار والمجرور ﴿لِلنَّاسِ﴾ على طبيعة دعوته
 ﷺ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ لبيان عموم الإنذار والتبشير للناس من أول وهلة .

وقد أكدت الآية عموم رسالة النبي ﷺ بذكر أنها كافة ، وأنها للناس
 أجمعين .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى أن جهل
 الكافرين يدفعهم إلى إنكار البعث وما فيه من مبشرات ، وإنذارات ، ويستهزئون
 برسول الله ، ويقولون للمسلمين : متى يقع يوم القيامة الذى تبشروننا به ،
 وتتنذروننا به ؟ ... أخبرونا بميعاده إن كنتم صادقين في أخباركم عنه .
 إن الكافرين في سؤالهم عن اليوم الآخر ، ينكرون اليوم الآخر ، وحججه
 ويشككون في صدق رسول الله والمؤمنين ، ويطلبون معرفة وقت مجئ يوم
 القيامة وهم يعلمون أن الله استأثر بعلمه ... وطلبهم يدل على جهلهم لأنه لا

(١) سورة ص ، الآية ٤ .

(٢) سورة يس ، الآية ٧٨ .

يلزم المخبر عن أمر صادق أن يكون عالما بوقته ، أو بتفاصيله ، والإخبار عنه في الجملة كاف .

﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِدُّونَ ﴾

أى قل يا محمد إن الله قدر لكم أيها الكافرون ولسائر الخلق وقتا محددا تقوم فيه القيامة ، وهو وقت النفخة الثانية التى قال الله عنها : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾^(١) فإذا قامت القيامة فلا إيمان لكافر ، ولا توبة لمذنب آثم ، فلا تسألوا عن ميعاد يوم القيامة ، واستعدوا له قبل أن يأتيكم العذاب وأنتم مشركون ، فلن تتأخر قيامتكم ، ولا تتقدم عن الموعد المقدر في علم الله لحظة واحدة .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ

يَدَيْهِ ﴾ وقال المشركون من أهل مكة : لا نصدق أن القرآن الكريم كلام الله ولا نؤمن بكتب أخرى نزلت قبل القرآن الكريم ، ولذلك فهم يكفرون بأى خبر يعرفهم بيوم القيامة ، وبما فيه من أهوال ، بينها لهم محمد ﷺ .
وانما أعلنوا عدم إيمانهم بالكتب السابقة لعلمهم بما فيها من صفة رسول الله ﷺ لأنهم لو آمنوا بها للزمهم ما جاء فيها ...

وكفرهم بالكتب السابقة دليل على جحودهم وسفهم لتعنتهم في مواجهة ما يدعوهم إلى النجاة والفوز ، وقد دفعهم العناد إلى إعلان كفرهم بالكتب السابقة مع أنهم كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب على دين صحيح ، خاص بهم ، وكانوا يتمنون نزول كتاب خاص بهم مثلهم كما قال الله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا

(١) سورة الزمر ، الآية ٦٨ .

أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ
تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴿٥٧﴾ (١) وكفرهم بالقرآن الكريم ،
وبالكتب السابقة مردود بالأدلة والبراهين العديدة ، وعلى رأسها المعجزات التي
أيد الله بها رسوله ﷺ ، والرسول قبله عليهم السلام ، وشهادة المؤمنين الصادقين
من أصحاب رسول الله ، وأتباعه الأخيار ، وإقرار البلغاء العرب بأن القرآن ليس
من كلام البشر .

وقد ترك الله الرد على عدم إيمانهم بالقرآن الكريم لبيان أن تهافت قولهم
واضح أمام كل من له عقل .

وقد كفر مشركوا مكة بالقرآن الكريم ، وحددوه بالإشارة في قولهم
﴿ بِهِذَا الْقُرْآنِ ﴾ وذلك يبين أنهم كفروا بما هو مشاهد ثابت أمامهم ،
ومعروف لهم ، وما لم ينزل من القرآن وقت مقاتلتهم ملحق بما نزل .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الخطاب هنا
لكل من يصلح لتلقى الخطاب من المؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وهو
يبين حال الكافرين ، وهم موقوفون عند الله يوم الحشر للحساب والجزاء .
وجواب "لو" محذوف تقديره لرأيت أمرا عجباً مدهشاً يعيش فيه الظالمون
الذين أشركوا بالله ، وعبدوا غيره ، وقد سيطر الذهول على أحوالهم وأفعالهم ،
وأقوالهم .

﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ أى يحاور بعضهم بعضاً ، ويلوم
كل منهم الآخر ، ويتهمه ، ويرى أنه سبب ما هو فيه .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٦ ، ١٥٧ .

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أى يقول الاتباع

والعامة للأغنياء ، والمملأ ، والمستكبرين : أنتم سبب ضلالنا وكفرنا .

﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى يقول المستضعفون للمتكبرين من

أهل مكة : أنتم سبب كفرنا ، وقد صدقناكم ، وتمسكنا بأرائكم ، وأقوالكم ... ومكركم فعشنا معكم نعبد الأصنام ، ونكفر بالله ... ولولا أفعالكم معنا لآمنا بالإسلام ، وصدقنا محمدا ﷺ .

و ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْتَكُمْ عَنْ

أَهْدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى وفيه يرد المستكبرون اتهام الضعفاء ، وينكرون مقاتلتهم ... ويسألونهم ، هل منعناكم عن الإيمان وأجبرناكم على الكفر ؟ ... وهم في إنكارهم صادقون وكاذبون ...

أما صدقهم فإنهم لم يجبروا أحدا من المستضعفين على الكفر بصورة صريحة مباشرة ، والإيمان عمل أساسه القلب لا ينفع إكراه معه .

وأما كذبهم فإنهم كانوا دعاة الكفر ، وقادة في الضلال ، وقد زينوا لاتباعهم الكفر ، وأكدوا لهم ألوهية الأصنام والأوثان وأخذوا يفتلون لهم الحيل ويدعونهم بكل إغراء للاستمرار على عبادة الأصنام ، مثل آبائهم واسلامهم حتى عبدوها معهم ، وكفروا بالله تعالى .

﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ أى يقول المستكبرون إنا لم نطلب منكم الكفر ،

ولم نمنعكم من اتباع محمد ، فأنتم سبب الكفر ، فقد احتوت نياتكم وقلوبكم على حب الجريمة فأسرعتم إلى تصديقنا ، وكفرتم بمحمد ودينه ، وطابقت أعمالكم نواياكم .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾

أى قال المستضعفون للمستكبرين : أنتم لم تقهرونا على الشرك والكفر ، ولكنكم أخذتم في إغرائنا بالكفر ، وأكدتم لنا ألوهية الأصنام والأوثان ، واستمرت دعوتكم لنا طول الوقت لنكفر معكم فصدقناكم ، ودار مكركم حول ضرورة تقليد الآباء ، والخوف من انتقام الأصنام .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى أنكم أيها

المستكبرون دتمتم طويلا في دعوتنا إلى الكفر ، وطلبت منا أن نعبد آلهة أخرى تقرنا إلى الله ، وتكون شركاء له .

وقد بين المستضعفون منهج دعاة الكفر معهم ، وأساسياته هى :

(١) الاستمرارية في الطلب ، وتكرار الكذب حتى يتصوره البعض صدقا ، وذلك أمر معروف في علوم الدعاية والإعلان الذين يحددون طرق الإغراء ، وجذب الآخرين لما يريدون .

(٢) حسن الدخول إلى عقلية المشاهد والمستمع وذلك بتحسين اتخاذ آلهة مع الله فقد زعم المستكبرين للضعفاء أن عبادة الأصنام ليس شركا ، وإنما الأصنام آلهة صغرى تقرهم إلى الإله الواحد الكبير .

(٣) إخلاص الكافرين لكفرهم ، فهم يرونه حسنا ، ويعملون بإصرار على نشره بين الناس ويحيطونه بالأوهام ، والأساطير ، والإغراءات .

وفى يوم القيامة يظهر الحق ، ويعرف الضعفاء الخديعة التى صدقوها ، وتنتابهم الحسرة والندامة لما كانوا فيه من غفلة .

﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أى أن المستضعفين يكتمون

حسرتهم ، وندمهم فى قلوبهم حينما يرون العذاب المعد لهم .

(٥٠٠)

﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِيَ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى وأنزلنا العقوبة

بالكافرين ، ووضعنا رقابهم فى قيود ، وسقناهم إلى جهنم حتى لا يتصوروا هربا أو مغالبة ، وجمعنا المستكبرين والضعفاء فى نار السعير .

﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير لبيان

أنهم جوزوا بكفرهم الذى كانوا فيه الدنيا ، فلقد تركوا الشرك يلعب بهم ، واليوم نقيدهم من رقابهم ، ونجرهم إلى جهنم ، ونجازيهم بعملهم وكفرهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات إعلان مشركى مكة أنهم لن يؤمنوا بالقرآن الكريم ، ولا بالكتب السابقة ، وهى تقرر الموت والبعث والحساب ، وتوضح أن هذا الكفر ضلال منهم ، وأن يوم القيامة حق ، وفيه ستظهر الحقائق ، وسيعم الندم الكفار والعصاة ، وسينالون عند الله أشد العذاب .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإسلام دعوة عالمية

جرى القدر الإلهى على أن يرسل للناس رسلا منهم ، يؤيدهم بالمعجزات المناسبة لمن بعثوا فيهم ، وقد بدأت الدعوات للناس خاصة حيث كان الرسول يبعث لقومه خاصة ، فلما تطورت البشرية توسعت دائرة الرسالة ، فأرسل الله بعض الرسل إلى قومه وغيرهم كما بعث شعيب عليه السلام إلى مدين ، وإلى أصحاب الأيكة ، وكما أرسل موسى عليه السلام إلى المصريين وإلى بنى إسرائيل ... فلما

(٥٠١)

وصلت البشرية إلى نضج عقلى واسع مكنها من الفهم الكلى ، ومن التواصل الحضارى ، ومن التعاون الإنسانى ، حينذاك جاءهم الإسلام شاملا للناس أجمعين ، ودائما إلى يوم القيامة ، وقدر الله للإسلام أن يهيمن على الرسالات والأديان الإلهية السابقة ، بمعنى أن يصدق ، ويقرر عقائدهم ، ويكمل شريعتها ، ويصحح ما تغير فيها ، وينظم الحياة بالقضايا الجديدة التى يحتاجها وفق المبادئ العامة التى شرعها .

إن الله رب العالمين ، والدين كله منه ، وجعله الهيمنة للإسلام أمر مسلم لأن ما كان يناسب الإنسان فى وقت تخلفه لا يناسبه بعد تطوره ، ومن حق صاحب الدين أن يجدده حتى لا يتجمد ولا يتخلف ، وأيضا فإن الرسل جميعا موكب واحد يدعون لدين ربهم ، ولذلك مهد كل رسول لمن يأتى بعد ، وكمل كل رسول من سبقه ، وجاء محمد ﷺ خاتما لرسول الله ، وداعيا للناس كافة ، ودائما إلى يوم القيامة .

والناس جميعا إلى يوم القيامة هم أمة الدعوة ، حيث يجب على من أكرمه الله بالإسلام أن يبلغه لغيره أملا فى أن يسلم الجمع أمرهم الله رب العالمين .
وواجب على أصحاب الأديان أن يتحابوا ، ويتعاونوا ، ويتركوا التعصب والكراهية لأن مذاهب الألحاد ، واللعن ، والعدوان ليست من دين الله تعالى ، وواجب على المؤمنين أن يتحلوا بالخلق الكريم فى حياتهم ، ودينهم .

الركيزة الثانية

دور السفطة مع الكافرين

السفطة فكر أعتمده بعض اليونانيين القدماء ، ومذهبهم إنكار كل ما يعرض عليهم ولو كان حقا ، لأنهم لا يسلمون إلا بما عندهم ، ويعاندون فى رد ما عداه ، وإن لم يتمكنوا من الرد والعناد ادعوا عدم قدرتهم على الرد والمناقشة.

(٥٠٢)

والكافرون يسلكون هذا المسلك فهم مستمرون على عبادتهم للآلهة المزعومة ، فهي مقررة عندهم ، ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وأحاطوها بالأساطير والأوهام ... فإذا جاءهم من يدعوهم إلى تركها ، وعبادة الله وحده عاندوه بكلام لا يفيد ، ولا يصح أن يكون دليلا ، وإنما هو العناد فقط ، وإن عجزوا عن الحوار والجدل لجأوا إلى العدوان ، ورفضوا سماع الدعوة .
هذه هي السوفسطائية في حقيقتها طبقها المشركون الضالون في مكة مع رسول الله ﷺ ، ولذلك كان البلاغ المبين ، وكانت الهجرة إلى المدينة .

الركيزة الثالثة

تعارض الكافرين في الآخرة

في يوم القيامة تظهر الحقائق ، ويرى كل إنسان مصيره الذي يستحقه ، ويتأكد الكافرون من ضلال ما كانوا فيه ، ويصابون بالحسرة والندامة ، ويتهم كل واحد منهم غيره بأنه سبب ضلاله وكفره .

ويتجلى في الآخرة منظر عجيب يقوم به الكافرون ، فهم يقرون بضلال ما كانوا فيه من كفر ، ويعادى بعضهم بعضا ، ويحاول كل منهم أن يلقي سبب الجريمة على غيره .

يقول العامة المستضعفون للمستكبرين فيهم : أنت سبب كفرنا ، ولولا أنتم لأسلمنا وآمنا ... فيرد عليهم المستكبرين ويقولون لهم : لم نجبركم على شيء ، ولم نزد عن الحديث معكم ، وأنتم الذين رضيتم بالكفر وتمسكنم به ... فيقول المستضعفون : لقد خدعتمونا ، وأخذتم تنتشرون مزاعمكم طوال الوقت وحسنتم الكفر أمامنا فسرنا وراءكم ، وكفرنا .

ويستمر الجدل بين الكافرين في صورة تؤكد الخصومة والعداوة ... إنه حال لا ننمناه لمؤمن ، ولذلك ندعو إلى الاستقامة ، واتباع طريق المؤمنين .

(٥٠٣)

كفار مكة

على خطى الكافرين السابقين

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء
كَفِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ إِن
رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا
أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَأُولَٰئِكَ هُم جَزَاءُ الْوَعْدِ لِمَن أَصْعَفَ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ
يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ إِن رَّبِّي
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ
مُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧١﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات موقف المشركين من أهل مكة من الإيمان برسول الله ﷺ
وعدم دخولهم في الإسلام جاءت هذه الآيات تسلي رسول الله بما كان من الأمم
السابقة مع رسلهم ليصبر ، ويحتسب ، ويتحمل .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل للأمم السابقة رسلا يدعونهم إلى الحق فكفروا
بهم ، واتبعوا مترفيهم في الضلال ، وترد الآيات مزاعم السابقين ، لأنها مزاعم
أهل مكة ، وتبين أن قدر الله غالب ، ولن يهرب منه أحد ، والله على كل شيء

(٥٠٤)

قدير ، يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدره عن من يشاء ، وهو الرزاق ذو القوة المتين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ أى أن الضالين

السابقين فعلوا مع رسلهم ما تراه فى أهل مكة ، فلقد أرسل الله رسلا إلى كل الأمم ، وجعل لكل أمة نذيرا ، يدعوهم إلى الإيمان ، ويخوفهم من الكفر الذى هم فيه فتصدى لهم المترفون وهم أصحاب المال ، والولد ، والسلطان ، وقالوا : إنا كافرون بما جئتمونا به ... وكافرون بأن الله إله واحد ... وكافرون بأنه أرسلكم ... وكافرون بما تدعوننا إليه .

وقد أضل الغرور المترفين ، وظنوا أن النعم التى جعلها الله لهم تؤكد صواب ما هم فيه ، بدلالة اختصاصهم بها وحدهم ... ونسوا أن العطاء الدنيوى لا يدل على صواب صاحبه ، فقد ينال الظالم سلطانا ، ويصيب اللص غنى ، ويعلو المستكبر فوق الضعفاء .

﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أى قال الظالمون المترفون ذلك ،

وأكدوا لرسل الله أنهم منكرون لما جاءوا به ، ومنكرون رسالة الرسل فهم بشر ، ومتمسكون بعبادة الأصنام والأوثان .

وقد عبر الكفار عن سبب كفرهم ، وهو غرورهم بما حكاه الله عنهم فى

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ أى

أنهم استدلوا على صدق كفرهم بكثرة أموالهم ، وأولادهم لأنهم يؤمنون بأنها من

الله ، ومن إرادته يرون أنه مادام قد خصهم بها فى الدنيا ، فإنه لن يعذبهم فى الآخرة ، وأن مقامهم العالى فى الدنيا سيكون لهم فى الآخرة .
وكذبوا فى هذا التصور ، لأن الله يعطى الدنيا لمن أحب ، ولمن لا يحب ، وأن أحوال الدنيا مرتبة على أسباب دنيوية ، ولذلك تجد براعة المشركين ، وغنى الملحدين ، وسلطان الظالمين ... أما أحوال الآخرة فهى مبنية على الإيمان والتقوى ، وقد حكم الله الأمر فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ﴾^(١) .

وقد بنى المشركون مقالتهم على ما ذهب إليه السوفسطائيون بأن ما هم فيه هو الحق ، ولا صواب فى غيره .

﴿ قُلْ إِنْ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى قل لهم يا محمد إن الله سبحانه وتعالى حكيم قدير يوسع لبعض الناس العطاء كما يشاء ، ويضيقه عن من يشاء وفق حكمته وإرادته ... ولربما وسع رزق العصاة ، وضيق رزق المؤمنين ، أو غير ذلك ، ولذلك كانت الدنيا دار بلاء ، واختبار وسعى وعمل ، وإيمان وكفر ، وكانت الآخرة بعدها للجزاء والثواب .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى ومع ثبوت مشيئة الله المطلقة فى الإعطاء والرزق فإن كثيرا من الناس لا يعلمون هذه الحقيقة ويجهلون أسرار القدرة الإلهية ، ولذلك يتوهمون أن بسط الرزق علامة على القرب من الله تعالى .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ ﴾ أى إن

أموالكم وأولادكم أيها المشركون التى تفتخرون بها على غيركم ، وتتصورون فيها نجاتكم ، وتظنون أنها تقربكم من رحمة الله وجنته ، ليست كذلك لأن الدنيا دار عمل وتكليف ، والجزاء فى الآخرة على طاعة الله ، والاستسلام له والالتزام بأمره ونهييه .

إن الذى يحقق لكم الطمأنينة فى الدنيا ، والجزاء الحسن فى الآخرة هو الإيمان ، والعمل الصالح ، ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى إن المقربين من الله الذين ينالون رضوانه ، ويفوزون بجنته ، وينجيهم الله من العذاب هم الذين آمنوا بالله تعالى ، وأطاعوا رسوله ، والتزموا بالأعمال الصالحة التى أمرهم الله بها ، وابتعدوا عن الأعمال السيئة التى نهاهم الله عنها .

وقد استثنى الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات من المستكبرين الكافرين مع اختلاف كل فريق عن الآخر لبيان ما بين الفريقين من فرق ، وتأکید أن الجزاء المعد للمؤمنين الصالحين لا يناله الكافرون الضالون .

وقد ذكرت الآية جزاء المؤمنين الصالحين فى قوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ

هُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى يجازى المؤمنين بما يلى :

(١) رفعة المقام : فقد أشار الله إليهم بقوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ الدالة على

البعد إشارة إلى علو مقامهم ، ورفعة منزلتهم ، فلقد بعدوا فى علوهم بعدا عظيما .

(٢) مضاعفة الحسنات : يقول الله تعالى : ﴿ هُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ ﴾ فقد

وضحت الآية أن الله يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات جزاء مضاعفا من فضله وكرمه . يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(١) والضعف المضاعف المكرر بأكثر من مثله . يقول النبي ﷺ : "كل عمل ابن يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله تعالى"^(٢) .

وقد ضرب الله لهذا الجزاء المضاعف مثلا فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٣) .

(٣) حسن الحال والمقام في الآخرة : يقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرَفِ

ءَامِنُونَ ﴾ والغرفات جمع غرفة ، وهي المكان المتسع العالى ، البهى منظره ، المطل على الجمال والحسن ، وقد أعدده الله للمؤمنين ، وجعله لهم مأوى ، فيقيمون فيه سعداء ، آمنين ، مستقرين ، لا يخافون انقطاعه وزواله .

إن إيمانهم وعملهم الصالح هما سبب هذا النعيم ، وليس هو كثرة المال والولد .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٠ .

(٢) صحيح ابن ماجه . كتاب الصيام . باب ما جاء في فضل الصيام ج ١ ص ٥٢٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦١ .

روى عن علي كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : "إن في الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها .

فقال أعرابي : لمن هي ؟

قال ﷺ : لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام" (١) .

وفى الآية ترغيب فى الإيمان والعمل الصالح ، وترهيب من الركون إلى كثرة المال والولد والسلطان ، لأن ذلك لا يفيد فى ميزان الله شيئاً .

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ ﴾ أى هؤلاء الذين يتخذون مما رزقناهم أسلحة يتفاخرون بها ، ويصدون عن آيات الله ، ويحسبون أنفسهم قادرين على الهرب من عذاب الله واهمون لأنه لا قدرة لهم يغلبون بها ولن يجدوا مكانا يفرون إليه ، لأن الملك كله لله .

﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى هؤلاء الكافرون يسوقهم زبانية النار إليها ، ويلقونهم رغم أنوفهم فى أتونها ، ولن يغنيهم عن العذاب شئ مما أملوا فيه ، ففى يوم القيامة ﴿ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ (٢) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ (٢) .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أى قل لهم يا محمد بعد أن علموا حقيقة أهل النار ، وأصحاب الجنة فى الآخرة ، وعاقبة أعمالهم الدنيوية قل لهم : إن الرزق بيد الله يوسع لمن يشاء من عباده

(١) سنن الترمذى. كتاب أبواب صفة الجنة . باب ما جاء فى صفة غرف الجنة ج ٤ ص ٦٧٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ ، ٨٩ .

، ويضيقه عن من يشاء ، وعلى الإنسان العاقل أن يشكر الله على نعمه وعطائه ، ويتخذ من الرزق آية تقربه من الله تعالى .

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى إن أطعتم الله فيما رزقكم ، وأخرجتم زكاة أموالكم ، وتصدقتم ، وأنفقتم فإن الله تعالى سيعوضه لكم بما هو أكثر منه ، بطمأنينة ، وأمن فى الدنيا ، وفى الآخرة بجنان النعيم حيث الأمن والسعادة والرضى .

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى والله سبحانه وتعالى هو العليم بعباده ، والقادر على العطاء ، والرازق فكونوا معه يكن لكم .
يقول النبى ﷺ : "ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا"^(١) وليس فى الآية تفضيل ، لأن عطاء الله هو الخير دون سواه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل رسله إلى الأمم السابقة يدعون إلى دين الله تعالى إلا أن الناس كفروا بدعوة الرسل ، وقادهم المترفون المستكبرون الذين أعلنوا الكفر ، وحسبوا أنفسهم على الحق لكثرة أموالهم ، وأولادهم ، ويرون أن الله وسع أرزاقهم ، وأكثر أموالهم ، وأولادهم لصواب ما هم فيه من دين ، وأكدوا أن الله لن يعذبهم فى الآخرة بدليل عطائه فى الدنيا ... وهذا وهم باطل وظن مردود ، لأن الله جعل الدنيا لسائر الناس ، وكلفهم دينه ، وأرسل لهم رسله ، وأن العطاء الدنيوى مقدر للجميع ، وبسط الرزق وتضييقه فى الدنيا وفق مشيئة

(١) صحيح البخارى . كتاب الزكاة . باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ ج ٢

(٥١٠)

الله فقد يعطى العاصى ، والكافر ... ويضيق على المؤمن المستقيم لحكمة يراها سبحانه وتعالى ، وكثرة الأموال والأولاد والجاه فى الدنيا ليست برهان القرب من الله تعالى ، والفوز بجنته ، والنجاة من ناره ، فلقد جعل الله الحسنى فى الآخرة للمؤمنين به ، الذين استقاموا على الأعمال الصالحة ، وضاعف لهم الجزاء الحسن .

وعلى الذين كفروا أن لا يغتروا بأموالهم وأولادهم ، وأن يعلموا العذاب الذى أعدّه الله لهم ، ويعرفوا أنهم لن يفروا منه ، وسيضعهم الله فى العذاب الذى سيحضره لهم .

إن الله يوسع أو يضيق الرزق كما يشاء ، وعلى المؤمنين أن يتيقنوا من عطاء الله الذى يعوض لهم ما ينفقون ، وهو سبحانه كريم جواد .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان سفاهة الضالين

فى مواجهة دعوة الله

للحق دائما خصومه ، وقد قضى الله بذلك ليميز الخبيث من الطيب .

يقول الله تعالى :

- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۚ ﴾^(١) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾^(١) .

وعند الله يوم القيامة ، وفى ميزان العدل يتضح الحق ، ويخسأ الباطل
ويزول .

إن الضالين يلجأون إلى شبه واهية مكذوبة ويتخذونها دليلا وبرهانا لهم
ومن أمثلة ذلك أن الله أنعم على الجميع فى الدنيا ، ورزقهم ، ودعاهم إلى الحق
، وبين لهم أنه سبحانه يبتليهم بالخير والشر ، والحساب الدقيق سيكون لهم فى
الآخرة حيث يجزون على الطاعة والإيمان ثوابا وجنة ، ويعاقبون على العصيان
والكفر عذابا وجحima .

والكفار والمنافقون يعلمون مع سائر الناس أن الدنيا ليست هى دار الجزاء
، وأن الله يعطى جميع البشر ، بحكمة يقدرها سبحانه وتعالى .
ومن الممكن إعطاء العصاة ، وحرمان المؤمنين كما يقدر .

ومن هنا نرى كذب الكفار ، وهم يتخذون من عطاء الله ، وكثرة أموالهم
وأولادهم دليلا على صدقهم ، ونجاتهم فى الآخرة ، ويقولون :
﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴾^(٢) .

إن الحقيقة تؤكد أن الإنسان إذا وضع فى التراب بعد الموت يترك
ماله وولده ، ولا يصاحبه إلا إيمانه وعمله ... ولربما كان ماله وولده سببا لعذابه
حيث السؤال عنهما بعد الإيمان والتقوى .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٣ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٣٥ .

يقول النبي ﷺ : "لا تزول قدما عيد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ... عن عمره فيما أفناه ؟ ... وعن شبابه فيم أبلاه ؟ ... وعن علمه ماذا عمل فيه ؟ ... وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟" (١) .

وسيعذب الضالون إذا لم يشكروا الله على نعمتى المال والولد . يقول الله تعالى : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ٢ ﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ تَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ ﴿ ٣ ﴾ كَلَّا ط لِيُثْبِتَنَّ فِي الْخُطْمَةِ ﴿ ٤ ﴾ (٣) .

إن المال والولد عطاء الله ، وليس للإنسان دخل فى إيجادهما ، ودلالتهما تؤكد رحمة الله ، وتكريمه للناس ... ولا تدل أبداً على نجاة من أتاه الله أحدهما أو كلاهما .

إن الإسلام عقيدة ، وعمل ، وخلق ، وقد حددت الشريعة سبل الإسلام ، ومسالكه ... والعاقل من التزم بالطريق ، وتمسك بالصراط المستقيم .

الركيزة الثانية

منهجية الترغيب والترهيب فى الدعوة

تدل الآيات على منهج الترغيب الذى تتبعه الدعوة الإسلامية ، وهى تخاطب الناس ، وتدعوهم إلى الله تعالى ، وتأتيهم من حيث ما يرغبون ، ونلاحظ ذلك فى الآيات وهى تقرر أن الله يخلف لمن ينفق ، ويبارك له فى ماله وولده ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وهو خير الرازقين .

(١) سنن الترمذى . كتاب صفة أبواب الجنة . باب فى القيامة ج ٤ ص ٦١٢ .

(٢) سورة الفلم ، الآية ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة الهمزة ، الآية ٣ ، ٤ .

(٥١٣)

وتبين الآية أن الذين آمنوا بالله حقا ، وصدقوا برسول الله صدقا ، واتبعوا ما أنزل الله ، واستقاموا على أعمال صالحة ، فأولئك يضاعف الله لكم الأجر ويدخلهم جنات الفردوس حيث النعيم المقيم ، والصحبة الراقية ، والأمن الدائم والسعادة الشاملة ... وينجيهم الله من عذاب يلقاه الكافرون المكذبون .

إن الترغيب والترغيب فن بليغ في الدعوة إلى الله تعالى ، ولذلك حسن إقناع عرضه ، والتأثير به في المستمعين ... والأمر يحتاج إلى فهمه ، وحسن إيراده ... فلا يصح أن يكون كلام الداعية ترهيبا كله ... أو ترغيبا كله وإنما يكتفى منه بلقطات موحية تعد دليلا في الموضوع المثار .

والدعاة العلماء قادرون على التخير والعرض وهم يرغبون في الطاعة ويخوفون من المعاصي .

ويمكن إيراد الترغيب والترهيب من خلال قصص القرآن الكريم ، واسقاطه على واقع الناس .

تقريع عبدة الملائكة يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ لِإِيَّامِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن كثرة المال والولد لا صلة لها بمحبة الله تعالى

(٥١٤)

وأن حبه ورضاه متصل بطاعته ، والاستقامة على دينه جاءت هذه الآيات توضح أحوال الكافرين فى الآخرة ، وتبين تقريع الله لهم بسؤاله الآلهة التى عبدوها من الملائكة والجن ، واطهار خزيمهم بنبؤ الملائكة منهم ، وبيان أن الكفار وآلهتهم لا يملكون نفعا ولا ضرا ، وأن النار هى عاقبة الكافرين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله يحشر المخلوقات جميعا يوم القيامة ، وسيجمع الكافرين ، وآلهتهم من الملائكة ، ويسأل الملائكة : أَرْضَيْتُمْ أَنْ يَعْبُدَكُمْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ ؟ ... فتد الملائكة بأننا نتبرأ منهم ، ولا شأن لنا بعبادتهم ، فأنت ربنا ، وولينا ، ونحن طائعون كما خلقتنا ... إلا أن هؤلاء الكافرين كانوا يعبدون الجن ، ويستمعون لوساوسهم ، وأكثرهم كانوا يؤمنون بالوهية الجن .
وبيكت الله الكافرين ، ويبين لهم أنه لا نفع إلا فى الإيمان بالله ، وها أنتم أيها الكافرون وآلهتكم لا تجدون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ، ولا نجاة للظالمين من عذاب السعير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أى اذكر يا محمد لقومك أحوال الناس يوم يبعثهم الله من قبورهم جميعا ، وجمعهم فى أرض المحشر للحساب والجزاء ليروا صورة الهوان الذى ستصيبهم .
﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ أى أن الله سيحشر الخلائق جميعا ، ويحاسبهم ، ويبكتهم على ضلال وكفرهم ، ومن ذلك

سؤال الملائكة الذين اتخذهم بعض الكفار آلهة ، وعبدوهم من دون الله تعالى
تقريباً للكافرين ، وبياناً للضلال الذى عاشوا فيه .

يقول الله للملائكة : أهؤلاء الكفار الموجودون أمامكم ، الذين نحاسبهم
كانوا يعبدونكم فى الدنيا ، ويخصونكم بالعبادة وحدكم ؟

فيرد الملائكة ويقولون لله : أنت ربنا ومولانا ، ونحن نقديسك ، ونعبدك
وحدك ، وهؤلاء الكافرون كانوا يعبدون الجن الذين آمنوا بأنهم آلهة لهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۗ

أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ أى قالت الملائكة : نحن عبيدك يا ربنا ، نقديسك ،

وننزهك ، ونخصك بالعبادة فأنت خالقنا ، ومحيينا ، والمتولى أمرنا من غير

هؤلاء الكافرين ... إنهم كانوا يعبدون الجن ، وأكثر المشركين كانوا يتخذون

الجن آلهة ، وآمنوا بهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ

يَعُودُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ^(١) .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى فى يوم

القيامة حيث الحساب والجزاء لا يملك الكافرون ، والملائكة نفعا يسديه بعضهم

لبعض ، أو ضرا يمنعه بعضهم عن بعض ، ويظهر هوانهم ، وخسرانهم ،

وضعفهم . يقول الله تعالى : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ^(٢) .

﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

أى ويقول الله للكافرين الذين عبدوا غيره ذوقوا عذاب جهنم التى كذبتكم بحقيقتها

(١) سورة الجن ، الآية ٦ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٣ .

(٥١٦)

فى الدنيا ، وها هى اليوم حقيقة واقعة ترونها ، وتعاقبون بها .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يجمع الخلائق يوم القيامة ويحاسبهم على رعوس
الأشهاد ، ويبيكت الكفار ، ويسخر منهم حين يسأل الملائكة عن من كانوا
يعبدونهم من دون الله ، وترد الملائكة بأنهم يؤمنون بالله ، ويقدسونه ، ويعبدونه
، وأن هؤلاء الكافرين آمنوا بالجن ، وعبدوهم أكثرهم ، وهم برءاء مما فعلوا .
وفى يوم القيامة تتجلى الحقائق ، ويتضح للجميع أن المخلوقات لا تنفع
ولا تضر ، وأن الكافرين معذبون فى نار جهنم جزاء عصيانهم ، وكفرهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

بيان خرى الكافرين يوم الحشر

الحشر أحد مشاهد يوم القيامة ، يطلق على جميع مشاهدتها ، ويسمى به
إحداها ، لأن القيامة تبدأ بالبعث حيث إحياء الموت ، ثم النشر وهو تحرك
الخلائق من قبورهم للوصول إلى أرض الحساب ، ثم الحشر ، وهو تجمع
الخلائق فى أرض المحشر للحساب ، وفى أرض المحشر يتم نصب الميزان
، واتمام الحساب ، ووقوع الشفاعة ، ثم التحرك فوق الصراط إلى الجنة ، أو
إلى النار .

فى يوم الحشر يكون الحساب حيث يسأل الله الملائكة الذين اتخذهم
بعض الكفار آلهة ، وعبدوهم ، ويقول الله للملائكة أمام الكافرين : أهؤلاء
الكافرون كانوا يعبدونكم ؟ ... وهل رضيتم بذلك ؟ ... فتجيب الملائكة والكفار
يسمعون : ننزهك يا ربنا ، ونقدسك ، ونعبدك وحدك ، فأنت ولينا ، واعتمادنا ،

وقد كنا ومازلنا على ذلك التقديس والتعظيم ، وهؤلاء الكفار كانوا يعبدون الجن ، وأكثرهم كانوا يؤمنون بالوهمية الجن ، ولا شأن لنا بما فعلوا .

يصاب الكفار بالخزي والندامة ، ولا يجدون لأنفسهم مخرجاً ، ولا يعترفون بأنهم ظلموا أنفسهم ، ويقول الله لهم : اليوم ذوقوا عذاب النار التي كنتم تكذبون بها ، فهي جزاؤكم ، وقد أعددتها لكم .

رد إنكار المشركين لرسالة محمد ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿١٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٥﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين هم أصحاب النار جاءت هذه الآيات لبيان الأسباب التي دلت على كفرهم ، وجعلتهم من أصحاب النار .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الكافرين كذبوا بآيات الله تعالى ، وقالوا عن آيات القرآن الكريم بعد أن تليت عليهم : إنها كذب اختلقه محمد ليبعدكم عن دين آبائكم ، وقالوا عن القرآن : إنه سحر مختلق لا أصل له ، وكل حديثهم عن القرآن

ومحمد هراء لا دليل لهم عليه من كتاب أو رسالة ، فلقد مضت مدة طويلة لم يأتهم خلالها رسول يرشدهم ، ولم ينزل عليهم كتاب يشهد لقولهم ، وشأن المشركين فى التكذيب كشأن الأمم السابقة ، وسيحقيق بهم العذاب كما حل بالسابقين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَتٍ ﴾ أى اذكرنا يا محمد للمؤمنين موقف أهل مكة حين قرأت عليهم ما نزل عليك من آيات القرآن الكريم بأسلوب جميل ، ومعان دقيقة ، فقد اتخذوا عدة مواقف ظالمة هى :

(١) اتهام الرسول بالإضلال :

يقول الله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ ﴾ أى هذا رجل يقصدون به محمدا ﷺ ويزعمون أنه من عامة الناس الفقراء المجهولين، يعمل جاهدا على أن يمنعكم من دين آبائكم لتكون معه فى دينه الذى ينادى به ، ولم يبينوا لهم حججه ولا براهينه ، وأبرزوا لهم ما ينفروهم من اتباعه ﷺ وهو صرفهم عن دين الآباء ، وترك تقليدهم ... وأنه ﷺ رجل عادى لا يتميز عنهم بشئ ، فلقد تركوا موضوع الدعوة الذى ظهر لهم ، واتضح صدقه بالآيات البينات ، ولجأوا إلى إثارة مشاعر الناس ضد رسول الله ﷺ .

(٢) القرآن لم ينزل من عند الله :

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ أى وقال الملأ للضعفاء أيضا : إن هذا القرآن الذى يتلوه محمد لم ينزل من عند الله ، وإن

محمد أتى به من قبل نفسه ، وزعم أنه كلام الله ، وزعموا أن القرآن الكريم .
وحاشاه . كذب شديد زعمه محمد ترويجا لدعوته ، وجذبا للناس .

(٣) القرآن الكريم سحر ظاهر :

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى وقال الذين كفروا من أهل مكة عن القرآن الكريم الذى أتاهم بالهدى ، والاصلاح ، والدعوة إلى تحقيق سعادة الدنيا والآخرة ، قالوا : هذا سحر ظاهر فقد أعمى أبصارنا ، وغيب عقولنا ، فلم نستطع رده ، واستطاع أن يؤثر فى بعض رجالنا ... ولا يتم ذلك إلا كونه سحرا .

واتهامات المشركين ظاهرة البطلان لأن ما كان عليه الآباء ضلال مبين بدلاله أن ألتهتهم لم تدفع عنهم عدوانا ، ولم تمنع محمدا من دعوتهم ، وأن القرآن لا يأمر إلا بخير ، وقد تحداهم الرسول ﷺ بأن يؤلفوا ويؤتوا بمثل أقصر آية فعجزوا مع أنهم أهل الفصاحة والبلاغة ، ولو كان القرآن مؤلفا من قبل بشر لظهر فيه الاختلاف ، والتناقض ، والاضطراب ، والتعارض ، ولم يحدث شئ من هذا .

وقد رد الله اتهامات المشركين ، وبين أنهم هم الذين يكذبون ، وهم الذين يختلقون كلاما لا معنى له ، ولا سند له ، وذلك فى قوله تعالى .

﴿ وَمَا أَتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ

نَذِيرٍ ﴾ أى إن الدين الصحيح يأتى من عند الله تعالى ، وهؤلاء المشركون يهرفون ويكذبون لأن الله لم ينزل لهم كتابا قبل القرآن الكريم يعرفهم بكذب القرآن الكريم ، فهم أمة أمية فكيف يدعون ما ادعوا ؟ ... وأيضا فإن الله لم يرسل لهم رسولا قبلك يا محمد فمن أين لهم ما يزعمون ؟

(٥٢٠)

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا
رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى إن هؤلاء المشركين لم يستفيدوا شيئاً من أخبار
السابقين ، فقد أهلكهم الله تعالى على تكذيبهم ، ومع بأسهم وبطشهم التى لم
يصل مشركو قريش لعشرها عاقبهم الله تعالى ... لما كذبوا الرسل ، وأنكر
عليهم ما فعلوا .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن مشركى مكة كانوا إذا سمعوا آيات القرآن الكريم لا
يؤمنون بها ، ويزعمون أنها كذب اختلقه محمد ﷺ ليصد الناس عن دين آبائهم
، ويؤكد كذبهم بلا دليل ولا سند ، لأنهم لم يقرأوه مزاعمهم هذه فى كتاب منزل
، ولم يأتهم به رسول ، ولذلك استحقوا بسبب قولهم هذا العذاب الأليم ، فلقد
أهلك الله الأمم السابقة لما كذبوا الرسل مع بأسهم وقوتهم التى لم يبلغ كفار مكة
عشرها .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

توضح الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عدم الموضوعية فى جدل المشركين

يقوم الإيمان على الإقناع الكريم ، ولذلك لازمت الدعوة إلى الإسلام
البراهين والحجج المادية والمعنوية الدالة على صدق الإسلام .
- فمعجزات الرسول أدلة مادية شاهدة على صدقة .

- ونزول القرآن الكريم بما فيه من منهج إصلاحى يشمل العقيدة والشريعة والخلق ، وبما صاحبه من تحد واعجاز دليل على صدقة .
- وعرض الآيات الكونية فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وتوجيه النظر إليها لمعرفة صانعها ، وموجدتها حجج دامغة على صدقة .
- وقصص السابقين ، وما حدث فيها من حوار وآثار تؤكد صدق الإسلام وأحقيته .

ومع هذا يعيش الكافرون هذه الحقائق ، ويهرون منها بمناقشات بعيدة عنها ، وكانوا إذا قرأ للرسول ﷺ آيات القرآن عليهم يردون باتهام الرسول بأنه يريد صرف الناس عن أمجادهم ، ودين أسلافهم بلا نظر للموضوع الذى يدعوهم إليه ، ويتهمونهم بالكذب والافتراء والسحر والجنون .

وأحيانا تأتى الشهادة من العدو لأنهم يتهمون رسول الله بالكذب وهو المشهود له بالصدق ... ويتهمونهم بالجنون وهو المعروف بالفطنة ، ويتهمونهم بالسحر ، وهو بعيد عنه تماما .

إن اتهامات المشركين لرسول الله عادت عليهم ، وهذا شأن الظلم والكذب دائما .

الركيزة الثانية

القول بلا دليل مردود

يهرف المشركون بما لا يعرفون ، ويتهمون الرسول بالبطلان ، ويستمررون فى العداوة ، والبهتان ، والله من روائهم محيط .

وما دروا أن العقول لا تقبل كلاما مرسلا لا دليل عليه .

والأدلة منحصرة فى دلالة العقل ، أو دلالة المعرفة ، أو دلالة الدين ، وليس مع الكافرين شئ من هذا .

(٥٢٢)

فهم يدرسوا فى كتب مؤلفة تثبت ما يقولون به .
ولم ينزل عليهم دين يعرفهم صدق ما يقولون .
ولم يستفيدوا بتجارب السابقين فقد كانوا مثلهم فى الضلال فأهلكهم الله
تعالى وعلموا ذلك ، وساروا فى نفس الطريق .
ولم يفكروا بعقولهم ، ولو فكروا لعلموا أن محمدا ﷺ صادق أمين لا
ينطق عن الهوى ، وهو رسول كريم ... ولعلموا هوان الأصنام .

الأمر باستمرار الدعوة

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ ۖ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْنِي ۖ وَفُرْدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ ۚ
مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ قُلْ
مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ۝ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ۝ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ
الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ
فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي ۖ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صور الضلال التى استحق بسببها الكافرون
العذاب الأليم جاءت هذه الآيات لبيان السبل الحكيمة لمعرفة الحق ، وبيان دليل

(٥٢٣)

صدق النبي ﷺ فى دعوته ، فهو لا يأخذ عليها أجرا من الناس ، ولا يقصد منها إلا الهداية ، والاصلاح .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات طرق التفكير الصحيح الموصول للحق ، وتبين أن الرسول لم يأخذ من المشركين أجرا على دعوته ، وأنه ﷺ يبلغ دعوة الله التى أرسل بها فى الحق والصواب ، وعليها يكون الحساب والجزاء .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتصدر الآيات الخمس المذكورة أمر رسول الله ﷺ بـ ﴿ قُلْ ﴾ لبيان أهمية ما تضمنته الآيات ، ففى أمره ﷺ أن يأمرهم دليل أن موضوعات الأمر هامة ، وتحتاج إلى تنبيه خاص ، ووعظ كبير ، وقد تضمنت كل آية موضوعا رئيسيا فى منهج الدعوة إلى الله تعالى .
وقد أثبت العلماء هذه الحقيقة ، ووصلوا إلى التفكير الذاتى ، أو المحادثة بين شخصين لأن ذلك أنجح طرق التفكير ، فهو يؤدى إلى معرفة الحقيقة .
أما التفكير الجماهير فإنه ينشر الغوغائية ، ويطمس الصواب .
وقد تضمنت كل آية موضوعا واضحا ولذلك عنوت لكل آية بموضوع خاص بها .

موضوع الآية الأولى

ضرورة التفكير الصحيح

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بَوَاحِدَةٍ ﴾ أى قل يا محمد للمشركين ، وأنصحهم بأمر واحد ، وأرشدكم إليه ليصلوا بواسطته إلى الحق .

وعظمهم بـ ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَيْ وَفَرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى أن تتدبروا فى أمر محمد ، وفى القرآن مليا ، وتتركوا رأى الجماهير الصاخب ، وذلك بأن يفكر الفرد وحده ، أو مع واحد آخر لتصلوا إلى الصواب ... وذلك لأن التفكير الفردى ، أو تفكير الاثنين يحلل بهدوء ، ويكشف الحقائق ويحدد الإيجابيات والسلبيات ، ويظهر الزيوف ، أما عقل الجماهير فإنه لا يوصل إلى أمور ثابتة ، ولا يبين صوابا .

﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ أى إن محمدا الذى صاحبتموه ، وعرفتموه ليس مجنونا أبدا ، لأن المجنون يقول ما لا يعرف ، وينطق بالشئ وضده ، وينطق بما لا فائدة فيه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فهو يقرأ عليكم كتابا محكما مفصلا ، لا ريب فيه ولا اختلاف ، وهو يهدى إلى صراط الله المستقيم ... وكل ذلك دليل على كمال عقل رسول الله ﷺ ، وسمو غاياته ، ونبل وسائله ﷺ .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أى وما محمد ﷺ إلا رسول أرسله الله تعالى لينذركم عذاب جهنم التى قرب مجيئها لتؤمنوا بالله وتتجوا من عذابها الشديد بطاعة رسول الله ، والاستقامة على منهج الله تعالى . وقد اكتفت الآية بنفى الجنون عن رسول الله ﷺ مع أن المشركين اتهموه بالسحر ، والكهانة ، وقول الشعر ، لأن اتهام الجنون يصرف الناس عن سماعه ، فبدأت الآية بنفى الجنون ليفكروا بعد إيمانهم بثبوت عقل النبی ﷺ فى بقية التهم ، وردھا سهل عليهم .

فأما السحر والكهانة فسهل نفيهما بنفى خصائصهما ، فأما انتفاء السحر فبين لأنه يحتاج إلى تعلم ، ومزاولة طويلة ، والنبي ﷺ بين ظهرانينهم لا يخفى عليهم أمره .

(٥٢٥)

وأما الشعر فمسحته منفية عن القرآن كما قال الوليد بن المغيرة ، فلم يبق في كنانة مطاعنهم إلا زعمهم أنه كاذب على الله ، وهذا يزيفه قوله : ما صاحبكم من جنة ، فقد عرفتموه برجاحة العقل ، وكمال الصدق ، ودقة الأمانة في شبيبته وكهولته ، فكيف يصبح بعد ذلك كاذبا ؟ ... كما قال النضر بن الحارث : فلما رأيتم الشيب في صدغيه قلت : شاعر ، وقلت : كاهن ، وقلت : مجنون ، والله ما هو بأولئك . وإذا كان لا يكذب على الناس فكيف يكذب على الله ، كما قال هرقل لأبي سفيان وقد سأله : هل جريتم عليه كذبا قبل أن يقول ما قال ؟

قال أبو سفيان : لا .

قال : فقد علمت أنه لم يكن ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله .

موضوع الآية الثانية

الرسول لا يأخذ أجرا على الدعوة

يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى قل لهم

يا محمد وبين لهم أنك لا تطلب منهم أجرا ، ولا عطاء على تبليغهم دين الله تعالى ... ودعوتهم إلى الله تعالى ، فأنت رسول الله إليهم تتصحهم نصيحة خالصة لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وانقاذهم من غياهب الكفر إلى وضوح صراط الله المستقيم ، وبذلك ينالون الخير فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى إن الأجر الذى ارجوه هو ثواب الله ،

ومعونته ، ومعيته فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى والله هو العليم الخبير بسائر عبادته ، وسوف يحاسبهم على أعمالهم فى الآخرة .

فإن قيل : لم نفى الرسول ﷺ أخذ الأجر منهم مع أن أحدا لم يتمه بذلك ؟
أقول : لما اتهموه ﷺ بالشعر والكهانة ، وذلك مظنة أن يكون عمله لينال جائزة الشاعر ، وحلوان الكاهن كعادة العرب ، عرفهم أنه ﷺ ليس واحدا مما يتصورون ، وأنه ﷺ لن يأخذ منهم أجرا ، وأنه لن ينتفع منهم بشئ وكل غايته إيمانهم ومصلحتهم .

موضوع الآية الثالثة

الدين منزل من عند الله تعالى

يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ ﴾ أى إن الله سبحانه يلقى الوحي للناس من عنده سبحانه وتعالى رحمة بهم ، واعتناء بأحوالهم ، والقاء الوحي يتضمن معان لا تعارض بينها ...
 فهو يعنى . أولا . أن الله يلقى وحيه على رسول يختاره من بين عبادته كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾^(١) ، وقال سبحانه : ﴿ يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾^(٢) .

ويعنى . ثانيا . أن الوحي ينزل بالحق ، ويلقيه جبريل عليه السلام على الباطل فيزيله ويسحقه يقول الله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾^(١)
 ويقول سبحانه : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾^(٢) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .

(٢) سورة غافر ، الآية ١٥ .

ويعنى . ثالثاً . أن الله سينشر دينه فى الأرض ، ويعلى شأنه بين الناس ، وأن الإسلام سيظهر على الدين كله .
وهذه المعانى مستفادة من الآية ، ولا تتناقض بينها فيمكن الأخذ بها كلها .
وختمت الآية بيان أن الله واسع العلم بكل شئ ، محيط بالغيوب على تنوعها زمانا ومكانا ، وأفرادا ، ولذلك ثبت مجئ الحق من عنده لظهور ما أراده الله تعالى .

موضوع الآية الرابعة ثبات دين الله فى الأرض

يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى قل لهم يا محمد إن دين الله قد ثبت فى قلوب الناس ، واستقر بين العالمين ، وهلك الباطل بعد انتشاره ، وتكسرت الأصنام بعد صناعتها ، وعلم الناس الحقيقة ، ولذلك لن يبدأ ظهور الباطل مرة أخرى بعد فناءه ، ولن يعيده أفاك أثيم .
ومعنى ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ اضمحلال الشرك وزواله ، وعجزه عن الانتشار والذيع .

روى أنه ﷺ لما دخل المسجد الحرام عند فتح مكة وجد حول الكعبة أصناما منصوبة فأخذ يطعنهما ، ويكسرها ، ويقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٨ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨١ .

(٥٢٨)

الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا^(١) ، ويقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ
وَمَا يُعِيدُ^(٢) 》 .

والآية تشير إلى زهوق الباطل في مكة يوم الفتح ، وتنبئ بزواله من
الأرض كلها بجهد المسلمين ، وإيمانهم .

موضوع الآية الخامسة

حياد النبي ﷺ وموضوعيته

يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي^ع وَإِنْ
أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي^ع إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ 》 أى قل لهم يا محمد
إنما أدعوكم إلى الحق ، والرشاد ، والنجاة ، فإن ظننتم غير ذلك فإن الله
سيحاسبني ويحاسبكم ، فإن كنت ضالا فعقوبة الضلال خاصة بي ، وإن كنت
هاديا مرشدا إلى الصواب ، والصرط المستقيم فهو وحى الله إلي ، فهو ربي
الذى يتولانى ، ويرشدنى ، ويهدينى ، وهو سبحانه سميع لكل قول ، قريب من
خلقه لا يغيب عن علمه شئ أبدا .
وفى تذييل الآية بيان أن الخير كله من الله ، وأنه ﷺ مبلغ ما جاء الوحي
به من عند الله .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨١ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٤٩ .

(٥٢٩)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسوله محمدا ﷺ ليقول للناس ما يصلح حالهم ، ويعرفهم أنه رسول الله ﷺ ليبلغهم دين الله تعالى الذى يزىح الشرك ويزيل الباطل ، وينير الأرض بنور الله ، ويحاسب الناس على أعمالهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المواجهة المباشرة أقوى طرق التأثير

الصراع الفكرى أشد أثرا من الصراع المادى ، لأن الفكر مرتبط بالعقل والروح ، وهما مصدر القيادة فى الإنسان .
وقد أنكر مشركو مكة على رسول الله ﷺ ما يدعوهم إليه من حق ، ولذلك أمر الله رسوله بمواجهتهم بأسلوب مباشر ، وأن يلتقى بهم ، ويقول لهم ما يريد ، ولذلك تصدرت الآيات بـ "قل" لبيان أهمية المباشرة فى الخطاب .
إن علماء الاتصال والإعلام ينادون بأهمية الاتصال الجمعى ، ويعنون به .

إن الاتصال الجمعى يعنى التقاء رجل الإعلام بمجموعة يعرفها ، ويخاطبهم ، ويسمع منهم لأن المواجهة تفيد معرفة رأى الآخر ، وتوضح ردود الأفعال ، وتيسر النقاش ، والحوار ، وتمكن الدعاة من توضيح الموضوع ، وإيراد الأدلة ، ومناقشة المعارضة ، وإزالة الشبه ، والوقوف على نتائج الحوار .
وهذا الاتصال ينتهى بمعرفة موقف كل إنسان حضر لقاء الدعوة .

(٥٣٠)

ولذلك كان النبي ﷺ يلتقى بمن يدعوهم فى مكة فى دار الأرقم ، ويذهب إلى القبائل فى ديارهم رغم المشاق ، وصعوبة المواجهة .
ويمكن للدعاة أن يقيموا لقاءات حوارية مع جماعات دعوية للوصول إلى رؤية شرعية فى أى قضية يرونها .

الركيزة الثانية

اتباع المنهج الأسلم للتفكير الصحيح

العقل الفردى هو أن يلتقى الإنسان مع نفسه فى اتصال ذاتى يفكر به فى موضوع ما ليصل إلى الحقيقة ، والتحدث مع شخص آخر لا يبعد عن التفكير الفردى لأنه يعنى اشتراك فردين فى مناقشة موضوع واحد .
إن الإنسان مع نفسه يكتشف رد الفعل عن الآخرين لأن الإنسان هو الإنسان ، وما يشعر به هو نفس ما يشعر به الآخرون .
وهذا ما دعت إليه الآية بعظه النبي ونصحه للمشركين أن يفكروا تفكيراً فردياً فى أمر محمد ﷺ ، وذلك أن يفكروا فرداً واحداً ، أو فردين اثنين فى حال محمد ﷺ وسيصلون إلى أنه ليس شخصاً مجنوناً لأن الشخص المجنون لا يعرف ما يقول ، ويناقض نفسه ، ولا يحمل قضية معينة ... أما محمد ﷺ فهو يدعوهم إلى الله ، ويقدم لهم البراهين والحجج ، ويدعوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ويناقشهم فى أقوالهم وأعمالهم ، وهذه أمور تبعد كل البعد عن الجنون .

إن الإشاعة والأكاذيب تنتشر بسرعة وسط الجماهير ، ولذلك عد العقل الجماهيرى مفسدة للرأى ، ومضيعة للحقيقة .

(٥٣١)

الركيزة الثالثة **تجرد الدعوة للحق**

الدعاة إلى الله تعالى ، وفى مقدمتهم رسول الله ﷺ يقومون بالدعوة متجردين من أى كسب شخصى ... إنهم يعملون على تبليغ دين الله ، ونشره بين الناس ، والدفاع عنه ، ورد الشبه التى ينيها خصوم الإسلام .

لقد بين رسول الله هذه الحقيقة للناس ، ووضح لهم الحقائق التالية :

أولاً : بيان أنه لن يأخذ أجرا على دعوته ، ولن يكلفهم شيئا ، وأن أجره على الله وحده .

ثانياً : الأمر كله بيد الله تعالى ، وهو سبحانه يثبت الحق ، ويزهق الباطل .

ثالثاً : المسؤولية فى الإسلام فردية ، ولذلك وجب التجرد لله فى العمل والحركة .

وهكذا يكون إخلاص الدعاة فى عملهم ، ودعوتهم .

تهديد المشركين بعذاب يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ؕ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ۖ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ ۖ ﴾ .

(٥٣٢)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة بطلان شبه المشركين جاءت هذه الآيات لبيان العذاب الشديد الذى ينتظرهم فى يوم القيامة حيث لا تقبل لهم توبة ، ولا ينفع منهم ندم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين سيفزعون حين يرون العذاب ، ويتمنون الهرب ، والتخلص منه ولن يتمكنوا من ذلك فقد مضى زمن التوبة والإيمان ، وكان يمكنهم أن يتوبوا ويستقيموا فى الدنيا . أما فى الآخرة فلن تنفعهم توبة ، ولا يقبل منهم إيمان ، ويحرمون من شهواتهم الطيبة ، وأحلامهم التى ضيعوها بسبب كفرهم فى الدنيا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا فَوْتَ ﴾ أى ولو ترى يا محمد المشركين يوم القيامة حين يأتيهم العذاب فإنك ترى منهم أمرا عجبا ومدهشا ، لأنهم يحاولون الهرب ، والنجاة من العذاب ، ولا يستطيعون ذلك حيث لا مهرب لهم ولا ملجأ لهم ، ولا يمكنهم النجاة مما أعد الله لهم من عذاب جهنم .

﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى ويأخذهم العذاب بقوة فهو قريب منهم يأتيهم فلا يتمكنون من الهرب والفرار .

﴿ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ﴾ أى وقال المشركون يوم الفرع آمنا بدين الله الذى جاء به محمد ﷺ ، وهو إيمان لا ينفع فقد مضى وقته ، ولذلك قال الله لهم :

﴿وَأَنِّي لَهُمُ التَّنَافُثُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ؟ ... أى كيف يقبل الله إيمانهم بعد

الفرع ، وقد أنتهم الدعوة فى الدنيا ، وبلغهم رسول الله الإسلام ، ودعاهم على مهل وتؤدة ، وعرض عليهم الآيات والبراهين ، وحضهم على النظر والتفكير وقتا طويلا فلم يؤمنوا ... واليوم حين الفرع يؤمنون !!؟

لقد مضى وقت الإيمان بقيام القيامة ... مع أنه كان بين أيديهم فى الحياة الدنيا ، وهو اليوم بعيدة عن يوم القيامة .

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾

أى كيف يؤمنون اليوم بما كفروا به من قبل ، وقد سبق أن قذفوا دعوة الإيمان بالضلال ، وكان بينهم وبين الآخرة شوط بعيد ، ملأوه بالكفر ، وأنكروا الآخرة وهى غائبة عن أبصارهم .

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أى وضع بينهم وبين ما يتمنون

وهو الرجوع إلى الدنيا مانع يرد هذه الشهوة ، ويؤكد استحالتها ... وسنة الله فى عباده أن من مات لا يعود إلى الدنيا مرة ثانية .

﴿كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ أى فعلنا بهم ما فعلناه مع

أمثالهم المشابهين لهم فى الكفر والضلال ، فقد تمنوا العودة إلى الدنيا ، ولم يأذن الله لهم .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَلٍّ مُّرِيبٍ﴾ أى إن الضالين فى الأمم السابقة كانوا

فى الدنيا شاكين فى الحق ، منكبين للرسول ، مكذبين للوحى ، منكبين ليوم القيامة ، ولم يقرروا بالحق إلا بعد ما رأوا العذاب والهلاك .

(٥٣٤)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين حينما يرون عذاب الله فى الآخرة يصيبهم الفزع ، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليؤمنوا ، ويتوبوا ، ولن يتحقق لهم ذلك حيث يحيط العذاب بهم من كل جانب ، لأن إعلانهم الإيمان قد فات أوانه ، وقد دعوا إليه فى الدنيا طويلا ، وبمختلف الأساليب فأبوا .

وفى يوم القيامة يرون حاجزا بينهم وبين تحقيق أمانيتهم فى العودة إلى الدنيا كما حدث مع المشركين المشابهين لهم فى الأمم السابقة .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

حال الكافرين فى الآخرة

تتحدث الآيات عن حالة الكافرين والعصاة فى الآخرة ، فإنهم حين يرون العذاب ينتابهم الهلع ، ويصيبهم الفزع ، فلقد أتاها ما أنكروه ، وعارضوه ، ويرون أنفسهم فى حصار العذاب الذى يأتهم سراعا لقربه ، ولا يستطيعون فرارا منه ، ولن يقبل يوم القيامة ندم وتوبة ، فقد دعوا إلى الإيمان طويلا فى الدنيا ، وقلبت أمامهم براهين الإيمان ، وحجج الإسلام فردوها .

واليوم يحاولون الإيمان هربا من العذاب فيأمرهم الله بالصمت ، ويقول لهم : ﴿ أَحْسَعُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ﴾^(١) .

فى يوم القيامة تذهب أحلام الكافرين سدى ، ويجدون الموانع بينهم ، وبين ما يتمنون ، ويجمع الله الكافرين فى مكان واحد ، يحترقون فيه بنار

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٠٨ .

(٥٣٥)

السعير ، لأنهم جميعا كفروا بالله ، وعارضوا الرسل ، ورضوا أن يكونوا من الكافرين .

وفى الآية تحذير للأحياء ، وترهيب لهم من الكفر والمعاصي ، وذلك من وجهين :

الوجه الأول : إن الله يعاقب كفار مكة بمثل ما عاقب أشياعهم السابقين وعلى نفس الطريق يكون عذاب من كفر وعصى على طول الزمن .

الوجه الثانى : إن الله عاقب كفار مكة لشكهم فى دين الله ، وكان من الضرورى إنزال العقوبة بمن جادل فى دين الله متيقنا مما يقول من باب أولى .

إن من الناس من يدعى الإسلام وينشط فى رد تعاليمه ، ويرى عدم صلاحها للعصر الحديث ، ويقدم ما وضعه العقل البشرى على ما شرعه الله تعالى ، وهؤلاء الناس على خطر كبير .

إنهم يلجأون إلى التأويلات البعيدة ، والتشكيك فى الدلالة ، وهذا أمر يعلم الله حقيقته .

وفى يوم القيامة تظهر الحقيقة ، ويتم القضاء العادل بين الناس .
ولذلك فليعمل العاملون .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "سبا" بتوفيق الله تعالى .

سورة "فاطر"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٥٣٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣٨)

- أولا -

التعريف بسورة "فاطر"

أجمع الصحابة والتابعون والمفسرون على أن سورة "فاطر" سورة مكية وقد استثنى الحسن من السورة آيتين ذكر مدنيتهما وهما قوله تعالى :

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ۖ ^(١) .

- ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ بإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ^(٢) .

ولا مانع من نزول الآيتين في مكة وفي المدينة معا .

وتسمى السورة بإسمين ، تسمى باسم "فاطر" وهو الاسم المشهور وتسمى باسم "الملائكة" ووجه التسمية بهذين الاسمين ذكر "فاطر" في أول آية منها ، ولم تذكر في غيرها ، وذكر الملائكة في الآية الأولى أيضا ، ولم تذكر في غيرها كذلك .

ونزلت سورة "فاطر" بعد سورة "الفرقان" .

وعدد آياتها عند أهل المدينة والشاميين ست وأربعون آية وعند غيرهم من أهل الكوفة ومكة والمصريين خمس وأربعون آية .

وجه مناسبة سورة "فاطر" لسورة "سبأ" أن كليهما بدأ بالحمد لله ، إلا أن الحمد في سورة "سبأ" يتصل بنعم الدنيا ، والحمد في سورة "فاطر" يتصل

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٩ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ٣٢ .

بنعم الآخرة ... وأيضا فإن سورة "سبا" ختمت بهلاك المشركين ، وضياح آمالهم ، وبدأت سورة "فاطر" بتعليم المؤمنين أن يحمدا الله جزاء ما قدر لهم من هداية فقد اشتملت السورتين على حالين متقابلين .

وقد تناولت السورتان أسس العقيدة الدينية ، وبراهين الإيمان بالله تعالى وقدمت العديد من الآيات الكونية الدالة على وجود الله تعالى ، واتصافه بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى .

تبين سورة "فاطر" وحدة الله تعالى ، وتوضح ما ثبت له من صفات الكمال والجلال ، وتورد الآيات الدالة على ضرورة أن يعبد الله وحده ... يقول الله تعالى :

- ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(١) .

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾^(٢) .

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾^(٣) .

(١) سورة فاطر ، الآية ١١ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ٢٧ .

(٣) سورة فاطر ، الآية ٤١ .

وتتحدث الآيات عن الرسل والرسالات ... يقول الله تعالى :

- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾^(١) .
- ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾^(٢) .

وتتحدث السورة عن القيامة وما فيها ... يقول الله تعالى :

- ﴿ يَتْلِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾^(٣) .
- ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُخَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾^(٤) .
- ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾^(٥) .

وتتحدث السورة عن الكتب المنزلة ... يقول الله تعالى :

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾^(٦) .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ٤ .

(٣) سورة فاطر ، الآية ٥ .

(٤) سورة فاطر ، الآية ٣٣ .

(٥) سورة فاطر ، الآية ٣٦ .

(٦) سورة فاطر ، الآية ٢٩ .

(٥٤١)

- ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ بإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ ﴾^(١) .

وتتحدث عن الملائكة ... يقول الله تعالى :

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِةِ رُسُلًا ۚ أُولَٰئِكَ أَجْنَحٌ مِّثْنَىٰ وَثُلُثٌ وَرُبْعٌ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾^(٢) .

وتتخلل السورة آيات تدعو الناس إلى الإيمان ، وتتحدى باتباع دين الحق وعدم الاغترار بالدنيا ، والتأمل فى آيات الله فى الكون كله ... فى كل شئ توجد آية تدعو إلى الإيمان بالله تعالى .

(١) سورة فاطر ، الآية ٣٢ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ١ .

(٥٤٢)

- ثانيا -

- التفسير -

وجوب حمد الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مِّثْنَىٰ وَتُلُكٌ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ۝ .

- ١ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان استحقاق الله للحمد وحده ، فهو سبحانه خالق السموات والأرض ، ومنشئهما من العدم ، وهو . سبحانه . الذى جعل الملائكة رسلا للناس ، وخلق لهم أجنحة على طرق شتى ، صورة وعددا ، وهو الذى يفعل ما يشاء ، ويعطى من يشاء ، ويمنع عن من يشاء ، وهو الغالب الذى يقوم تقديره على العدل والحكمة والرحمة .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الألف واللام فى ﴿ الْحَمْدُ ﴾ للاستغراق ، واللام الداخلة على لفظ الجلالة ﴿ لِلَّهِ ﴾ للاختصاص ، وذلك يفيد أن الحمد كله لله وحده ،

فهو سبحانه محمود فى ذاته ، ومحمود من سائر خلقه ، وله الحمد فى الدنيا ، وفى الآخرة ... يقول الله تعالى :

- ﴿ وَدُشِّحَ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ ^(١) .

- ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ^(٢) .

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۚ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۚ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ^(٣) .

وفى بدء السورة بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ إشارة إلى ما تناولته السورة ، فقد قدمت أغلب آياتها دلائل القدرة ، وبينت آيات الله الداعية إلى الإيمان .

﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى خالق السموات والأرض ، وموجدها على غير مثال سابق ، فلقد روى عن ابن عباس أنه قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى الذى أنشأتها ابتداء فعرفت منهما معنى فاطر ^(٤) .

وفاطر صفة لله تعالى تفيد الماضى والحاضر والمستقبل فهو سبحانه منشئ كل مخلوق فى الماضى والحاضر والمستقبل .

(١) سورة الرعد ، الآية ١٣ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١٥ .

(٣) سورة الحج ، الآية ١٨ .

(٤) شعب الإيمان . كتاب العلم ج ٢ ص ٢١٢ .

والحمد ثابت لله فهو خالق السماء والأرض ، وما بينهما على غير مثال سابق ، فى إحكام تام ، ودقة واضحة ، يكتشفها العلم ، ويصل العلماء إلى كثير من هذه الدقائق ، والمراد بالماء والأرض العالم بأسره ، فلقد خلقه الله من عدم ، وأخرجه إلى الوجود على غير مثال يحتذيه ، أو قانون ينتحيه .
والقول بأن المراد من السماء والأرض كل مخلوق فى الكون كله أولى من قصره على الماء ، والهواء ، والأرض ، والنبات ، وبعض المخلوقات .

﴿ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا ﴾ أى إن الله خالق الملائكة ، وجاعلهم رسلا إلى الناس جميعا ، الخاصة منهم والعامة ، فيأتون الأنبياء والرسل بوحي الله تعالى ، ويلهمون الصالحين ، ويبشرونهم بالرؤيا الصالحة ، ويوصلون للخلق آثار قدرة الله ، وصنعه كإنزال المطر ، وإرسال الرياح ، وانماء الزرع ، وتوزيع الأرزاق ، ويطيعون الله تعالى فى أمور العالم التى يأمرهم بها .

﴿ أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّنْئَىٰ ۖ وَثُلُثَ ۖ وَرُبَعَ ۖ ﴾ أى إن الملائكة يرسلهم الله تعالى للمهام التى كلفوا بها ، على هيئات مختلفة ، وأجنحة متعددة .
والأجنحة جمع جناح وهو ما يكون للطائر بمنزلة اليدين للإنسان ، ويحتمل أن يكون ذكر الأجنحة للملائكة ذكرا حقيقيا ، وهذا يفيد أن لهم أجنحة حقيقية ، وأن هذه الأجنحة مصفوفة جناحين جناحين فى الصف الواحد ، وبعضها ثلاثة ثلاثة ، وبعضها أربعة أربعة ، وبذلك تتعدد الصفوف فتبلغ أعدادا كثيرة ، وبذلك نفهم ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه رأى جبريل بستمائة جناح^(١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق . باب إذا قال أحدكم آمين ج ٤ ص ١١٥ .

يقول الزمخشري : مربى فى بعض الكتب أن صنفا من الملائكة عليهم السلام لهم ستة أجنحة ، فجناحان يلفون بهما أجسادهم ، وجناحان يطيران بهما ، وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل^(١) .
 ويجوز أن تكون أعداد الأجنحة لكل ملك متغيرة فى كل وقت حسب الأعمال التى يكلفون بها ، والمسافات التى يقطعونها .
 والملائكة أجسام لطيفة ، نورانية ، أخيار ، ذوو قوة عظيمة ، ومن خصائصهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، ومقرهم السماوات ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض .

وهذا التشكل انكماش ، وتقبض ، فى ذرات نورانيتهم ، واعطاء صورة من صور الجسمانيات الكثيفة لذواتهم . دل على تشكلهم قوله تعالى لهم يوم بدر : ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾^(٢) ، وقد ثبت تشكل جبريل ﷺ للنبي ﷺ فى صورة دحية الكلبي ﷺ ، وتشكله له فى حديث سؤال عمر بن الخطاب ﷺ لرسول الله ﷺ عن الإيمان ، والإسلام ، والإحسان والساعة ، فلقد جاء جبريل ﷺ فى صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد (أي من أهل المدينة) حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه .
 وقول النبي ﷺ بعد أن فارقهم الرجل "هل تدرون من السائل ؟
 قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال ﷺ : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"^(٣) .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٩٥ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ١٢ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب المساجد . باب استحباب الذكر بعد الصلاة ج ١ ص ٤١٤ .

وثبت حلول جبريل في غار حراء في بدء الوحي ، وظهوره للنبي ﷺ على كرسي بين السماء والأرض بصورته التي رآه فيها في غار حراء كما ورد في حديث نزول سورة المدثر ، ورأى كثير من أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر ناسا لا يعرفونهم على خيل بقل يقاتلون معهم^(١) .

وبجوز أن يكون المراد بذكر الأجنحة معنى مجازيا لبيان القوة التي يخترق بها الملائكة الآفاق ، ويذهبون إلى كل مكان في السماء ، أو في الأرض بأمر الله تعالى ... ولا مانع من إرادة المعنيين معا ، والله عزيز حكيم .

﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى هو خالق

الملائكة بأجنحة متنوعة ومختلفة كما يريد ويقدر ، وهو سبحانه يزيد في المخلوق أو ينقص ما يشاء ، وليس الإنسان بدعا في هذا ، فالله سبحانه وتعالى يقدر له الشكل الحسن ، أو الصوت الحسن ، أو الحظ الحسن ، أو الملاحظة في العينين ، أو في الأنف ، أو في الوجه ، أو خفة الروح ، أو جعودة الشعر وحسنه ، أو العقل ، أو العلم ، أو الصنعة ، أو العفة في الفقر ، أو حلاوة النطق .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى إن الله قادر على فعل كل شئ

زيادة أو نقصا في كل خلقه حسا كان أو معنى فاقدروا الله قدره .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا

مُرْسَلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى أن قدرة الله شاملة فهو

فاطر السموات والأرض ، وهو فاتح الرحمة للناس ، وهو ممسكها عنهم ، ولا يقدر أحد على إمساك ما فتحه الله ، أو على فتح ما أمسكه .

(١) انظر كتب السنة في أبواب غزوات النبي ﷺ .

ورحمة الله تعنى المعونة والرزق والعطاء الحسى والمعنوى ، وقد قيدت الآية الرحمة وجعلتها للناس لبيان أن الله رحيم بالناس ، وأنه ممدهم بكل ما يحتاجون ... وأطلقت الإرسال لبيان أن مشيئة الله مطلقة ، وقدرته نافذة لا يستطيع مخلوق أن يمنعها أو يصددها .

ومعنى ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى لا يقدر أحد بعد الله تعالى أن يفعل شيئاً ضد مراد الله تعالى .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى أن الله هو الغالب القوى الذى لا يغلب الذى يضع خلقه فى موضع مناسب لهم .

والآية تشير إلى أن مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه وتعالى ، فما يعطى من خير لا يستطيع أحد منعه ولا إمساكه ، وأي خير يمسكه الله فلا يبسطه ولا يفتح له ففتح غيره ، لأن الأمور كلها بيده ، ومنه البذل والعطاء ، والمنع والإمساك ، وهو القادر على كل ما يشاء ، وهو الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

وفي الآية عظة للناس للإقبال على ربهم ، والتوجه إليه فى قضاء حاجتهم ، والتوكل عليه فى جميع مآربهم ، والإعراض عما سواه من جميع خلقه .

روى البخارى بسنده أن الوارد كاتب المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : أملى على المغيرة بن شعبة فى كتاب إلى معاوية رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دنو كل صلاة مكتوبة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد^(١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الأذان . باب الذكر بعد الصلاة ج ١ ص ١٦٨ .

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : "إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع قال : ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شئ بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد : اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد" ^(١) .

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال : ثلاث آيات فى كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق الله إذا قرأتهن فما أبالى ما أصبح عليه أو أمسى ^(٢) هي :

أولهن : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ .

وثانيهن : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وثالثهن : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الحمد كله لله تعالى فهو منشئ المخلوقات كلها على غير مثال سبقها ، وهو مرسل الملائكة بصور مختلفة ، وأشكال شتى ، والله قادر على فعل ما يشاء ، يعطى من يشاء ، ويحرم من يشاء لا راد لقضائه ، ولا مانع لحكمه ، وهو الغالب الذى لا يغلب ، الحكيم فى تقديره ومشيئته .

(١) صحيح مسلم . كتاب الصلاة . باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ج ١ ص ٣٤٧ .

(٢) شعب الإيمان . كتاب التوكل بالله عز وجل والتسليم ج ٢ ص ٤٧٤ .

(٥٤٩)

- ٥ -

ركائز القدوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة عبادة الله وحده

خلق الله الإنسان ، وكلفه بغاية واحدة . يقول الله تعالى عنها : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١) ويسر سبحانه للإنسان كل أسباب الحياة ، وخلق له الكائنات على تنوعها ، وسخرها للإنسان .
إن الكون على سعته ، وضخامته ، وتنوعه يقدم للإنسان كل ما يحتاج إليه بصورة تلقائية عادية ، وفق تقدير الله لها .

فكل ما فى الأرض من سهل وجبل ، وهواء وماء ، وزرع وشجر ، وحيوان وأنعام ، وطير وهواء ، ونهر وبحر ... وما فى ذلك وغيره من الأسرار التى خلقها الله للإنسان فهو يستفيد بها ، ويعيش بها ، ولا يستغنى عنها .

والسمااء وما فيها من كواكب ونجوم ، وخلق وملائكة ، وأفلاك ومسارات خلقها الله ، وذلها للإنسان .

وظهر من عظمة الله وقدرته أن خلق الإنسان محتاجا لهذا الكون ، وخلق الكون مناسبا لحاجات الإنسان ، وبذلك تكامل الخلق ، وعلم الإنسان أنه هو المكلف ، وأن الكون مخلوق له .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

(٥٥٠)

إن الله فاطر السموات والأرض وما فيهما ، وهو الذى جعلهما مسخرين للإنسان ، وأبرز خلالهما الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى ، وأبرزها للإنسان ليؤمن بها ، ويعلم أن الله على كل شئ قدير .

ومن عظمة قدرة الله تعالى أن خلق الملائكة ، وجعلهم رسلا يسيحون فى الأرض طائعين مستسلمين ، وكلفهم بخدمة الإنسان ، واعانته فى صور شتى ، واضحة متعددة ، ويعيش الإنسان فى الدنيا متمتعا بأفضال ربه عليه ، ويرى النعم من حوله تترى فمن السماء ينزل المطر ، وينزل الوحي ، وتأتى الملائكة تبشر بأمر الله ، ومن الأرض ويوجد الخير ، ويكثر ، ويتكاثر عطاء الله تعالى . وتصل الملائكة بقدرة الله إلى كل ما تأمر به ، وتقوم بعملها طاعة لله تعالى ... يرى الإنسان هذا ، ويتمتع به ، وواجب عليه أن يحمد الله عليه ، ويشكره ، ويذكره بالطاعة ، والاستقامة على منهجه العظيم .

لقد أعطى الله الإنسان العقل ، وجعل له الجوارح ، وأودع فيه الروح ، ليدرك بالجوارح ما يحس به ، ويفهم بالعقل أسرار الكون من حوله ، ويسبح بالروح فى الملكوت العظيم ، والغايات الكبرى لكل مخلوقات الله تعالى .

لقد بعث الله رسوله للناس ليعرفهم بخالقهم ، ويدعوهم إلى دينه ، والاستقامة على منهجه ، وسجل لهم فى قرآنه الكريم آياته البينات حتى لا يبقى أمام الإنسان عذر يعتذر به ... أو ملجأ يفر إليه .

ودور الدعاة إيقاظ عقول المدعوين على نعم الله فى كل خلقه ، وإبراز أسرار المخلوقات أمام الناس ليعودوا إلى ربهم ، ويستسلموا له ، وهو الرحمن الرحيم .

(٥٥١)

الركيزة الثانية

المخلوقات تقدير الله تعالى

كل ما يقع فى كون الله هو من تقديره وقضائه ، وليس لأى مخلوق فى هذا الكون فعل أو إيجاد ... وذلك يؤدى إلى عدة أمور ضرورية :

أولاًها : اليقين التام بأن ما يقدره الله يقع ، وما يفتح بابه لا يخلق ، وأن ما يغلقه ويمنعه لا يقدر مخلوق على فعل أمر على غير مراد الله تعالى .

ثانيها : مسئولية الإنسان عن عمله ترتبط بالنية ، والله عليم بها ، فمن علم الله حبه لأمر ، وميله إليه قدره له ، وقضى به ، وبذلك يكون الفعل فعل الله ، والإنسان مسئول عن نيته ، ورغبته ، وقصده .

ثالثها : ضرورة التوجه فى الدعاء والطلب إلى الله وحده فعنده مفاتيح الأمور كلها ، وقد جعل الله عمل الإنسان سببا ظاهرا للفعل ، ولذلك كان من الأفضل للإنسان أن يقصر حاجته على ربه ، ويدعوه ، ويرجوه ، وهو سبحانه غالب لا يقهر ، حكيم يقدر لكل أمر قدره .

إن رب الكون هو مالكة ، ويجب أن يعلم كل مملوك سيده ، ويقدم له حق الملكية طاعة ، وانقيادا ، وخضوعا .

ولم يكن من العبث أن يكلف الإنسان بالعبودية لله تعالى ، فهو سيده ، وهو خالقه ، وهو الرحمن الرحيم .

وبحول صوت الدعوة والدعاة بين الناس مذكرا بحقائق الكون ، ومسار القدر الإلهى العجيب بين الناس ، وموضحا حكمة الله الكامنة فى مخلوقاته جميعا ليرضى الناس بما قدر لهم ، ويستقيموا على صراط الله المستقيم .

ودور الدعاة العمل الدعوى بين الناس ، ومخاطبتهم بالحسنى والاستفادة من الأحداث فى العودة إلى الله تعالى .

نداء للإيمان وتسليية لرسول الله ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيتان السابقتان استحقاق الله للحمد وحده ، جاءت هذه الآيات تدعو الناس إلى ضرورة تذكر نعم الله والإيمان به ، وعدم تكذيب رسول الله وعدم الاغترار بالدنيا ، وعدم طاعة الشيطان ، والحذر من عذاب الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تنادى الآيات الناس ليذكروا نعمة الله تعالى عليهم فقد خلقهم ورزقهم ، وحثهم على عدم تكذيب الرسول حتى لا يحل بهم ما نزل بالمكذبين السابقين فالمرجع إلى الله ، ووعدده حق ، وستتال كل نفس ما قدمت ، ولن يستوى

(٥٥٣)

الطائعون والعصاة أبدا ، وعلى العقلاء أن يتخذوا الشيطان عدوا لهم ،
ويكفروا به فهو عدوهم الحقيقى .
وتسلى الآيات رسول الله ليصبر ويحتسب ، كما صبر أولو العزم من
الرسل ، ولا يؤذى ﷺ نفسه بالحزن على ضلال القوم وكفرهم ، ويدع الأمر
لله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ هذا نداء للناس جميعا
ليذكروا نعمة الله عليهم ، فقد أوجدتهم من عدم ، ورزقهم ، ومكنهم من الأرض ،
واستعمرهم فيها ، وأرسل لهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وبصرهم بالحق
والهدى .
وذكر نعمة الله تعالى تكون بمعرفة قيمة النعمة ، والمحافظة عليها
بأداء حقها ، وعبادة الله الذى أوجدها ، واتخاذها إلها لا شريك له ، وهو بذلك
يشمل القول ، والعمل ، والسلوك .
وذكر الله يكون بالقلب ، واللسان ، والعمل جميعا ، والاقتصار على أحدها
دون غيره ذكر غير سديد وناقص ... لأن الذكر بالقلب وحده كتمان له ...
والذكر باللسان وحده هذيان ... والذكر بالعمل وحده مباهاة ورياء ... أما
اشتغال الذكر لجوانبه الثلاثة فهو الذكر المطلوب لأنه يجمع القول ، والقلب ،
والجوارح فى خط العبودية المستقيم .

﴿ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى جاء فى الآية لإنكار
ما عليه المشركون من عبادة غير الله ، وهل وقع شركهم بسبب أنهم يعلمون
لهم خالقا غير الله ؟ ... إنهم إن فكروا فى السؤال لأدركوا ضلالهم ، فهم يقولون

أن الخالق هو الله تعالى ، والواجب عليهم أن يؤمنوا بمن يقدر ، ويخلق ، ويذكروه في قلوبهم ، وألسنتهم ، وجوارحهم .

و ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى هو الذى يعطيكم النعم التى تعيشون بها ... وجملة ﴿ يَرْزُقُكُمْ ﴾ يمكن أن تكون صفة لخالق ، والمعنى هل لكم خالق يرزقكم غير الله تعالى ؟
ويمكن أن تكون استئنفا بيانيا لا صلة له بما سبق .

والأظهر أن تكون وصفا لأن الرزق من لوازم الخلق ، والخلق بدون الرزق لا معنى له ، لأنه يؤدي إلى الهلاك ، وبذلك تنتفى الخالقية .
وقد نزلت الآية بذكر نعمتى الإيجاد ، والإمداد ، وربط الرزق بأنه من السماء والأرض لتحديد عدة غايات :

الغاية الأولى : بيان تعدد الجهات والوسائل التى يرزق الله بها الناس فالرزق ينزل من السماء ماء للشرب ، والطهارة ، والسقيا ، وإيجاد الحياة فهى لا تستغنى عن الماء ، ويأتيهم من الأرض زرعا ، ونباتا ، وهواء ، وماء ، ومعادن ، وكائنات عدة .

الغاية الثانية : بيان أن أسباب الرزق تحيط بالناس ، وهى مسخرة لهم مع أنهم لا يعرفون لها بداية ، أو نهاية ، ولا يدركون كنهها ، وأسرار حركتها ، ومهامها .

الغاية الثالثة : تأكيد أن الأرزاق تأتيهم من الله تعالى حتى لا يغفلوا عن ذلك ، فقد تلهيهم أرباح تجاراتهم ، ونتاج مصانعهم ، ومحصول زراعاتهم عن حقيقة أن الرزاق هو الله .

(٥٥٥)

الغاية الرابعة : توضيح أن الله هو الذى خلق الوجود كله ، وهو الذى يمدّه بأسباب البقاء والحياة، وسيدوم إمداده إلى نهاية الدنيا كما يشاء الله تعالى. إن الله يغيّر فى أرباح الناس المقدرة ليعلموا أن الأرزاق بتقدير الله تعالى ، وتدبيره ، وقدرته .

فكم من صناعة تسقط بلا سبب ؟! ...
وكم من زرع يموت بتغير فى الهواء أو الماء ؟! ...
وكم من كوارث وأحداث تظهر فى الطبيعة التى خلقها الله تعالى بلا سبب ماضى معلوم ؟!

إن الرزاق هو الله ، والمبقى على الحياة هو الله ، وكل شئ عنده بمقدار .
﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى ليس هناك إله غير الله يخلق ، ويرزق ، ويقدر ويتصرف ، ويملك الوجود كله .

﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتعجب ، والمعنى فكيف تكذبون هذا الكذب الشديد ، وتعبدون غير الله تعالى مع أنه هو الذى جعلكم ، وأوجدكم ، ورزقكم ، ولولا فضله ما أوجدكم ... وما أحياكم ...

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أى لا تبتئس يا محمد من تكذيب المشركين ، فهذا دأب المشركين فى الأمم السابقة فقد كذبوا رسلهم ، فاصبر كما صبر الرسل ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى إن الأمور كلها ، والناس جميعا سيرجعون إلى الله فى الآخرة للحساب والجزاء ، وسينال كل إنسان عاقبة عمله وسلوكه .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهذا نداء للناس جميعا ، يأتي بعد أن بين الله دلائل التوحيد من خلال آياته في الخلق ، والإنشاء ، والرزق ، والعطاء ... ويؤكد لهم فيه أن البعث ، والحساب ، والجنة ، والنار حق ، وهو وعد الله على ألسنة الرسل لا شك فيه ، وبراهينه ظاهرة بينة ، لأن من أبدع قادر على أن يعيد الخلق مرة ، ومن أوجد هذا الكون الضخم في السماء وفي الأرض قادر على بعث الناس في الآخرة فهم خلق بسيط بالنسبة للمخلوقات الأخرى .

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أى لا تغتروا أيها الناس بالمتع التي ترونها في الحياة الدنيا ، لأن النفوس أمارة بالسوء ، وتضر صاحبها حين تغرقه في اللذائذ ، والشهوات ، وتنسيه ما عليه من حقوق الله وللناس ... وأسندت الآية الغرور إلى الحياة الدنيا مع أن النفس هي التي تغر لبيان أن النفس حين تنجح في غوايتها تدفع صاحبها إلى الاستغراق في شهوات الدنيا ، فلا يرى سواها ، ولا يعمل إلا لها ، وكأنها صارت له رائدة ، وقائدة .

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ولا يصدكم عن الله غرور يأتيكم من شياطين الإنس والجن .

والفرق بين الغرورين أن الغرور الأول يأتي من قبل النفس ، والغرور الثانى يأتي من خارجها ، إلا أنهما يلتقيان في ذات واحدة ، ويؤديان إلى إضلال صاحبهما ، واغراقه في المعاصي والضلال .

وإذا تذكر الإنسان فضل الله عليه ، وتمسك بطاعة الله فإنه يقتل غرور نفسه ، وبذلك لا يتمكن أعداء الله من إضلاله لأنه ذكر الله وأطاعه .

إن الشيطان يعجز عن الولوج إلى قلوب المؤمنين ، ولذلك وجب على الإنسان أن يغلق طرق الشيطان في نفسه بالطاعة والذكر الدائم لله تعالى ...

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾^(١) .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَّ عَدُوٌّ ﴾ أى الشيطان لكم عدو أيها الناس ، يدعوكم إلى الضلال ، ويعمل على إخراجكم من النور إلى الظلمات ، وهو دعوب في سعيه لإضلالكم ، فقد أخرج أباكم آدم عليه السلام من الجنة ، وهم مستمر في إبعادكم عنها ، واغوائكم ، وقد صرحت الآية باسم الشيطان لبيان المصدر الرئيسى للوساوس والغرور ... وأخبرت الآية عن الشيطان بأنه عدو للناس ، فقد جبل على هذه العداوة ، وأظهر عمله ومهامه خلالها ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُكَ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾^(٢) .

﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أى لا تتبعوا وساوسه ونصائحه ، فهو عدو لكم ، فعاملوه على أساس هذه العداوة ، ولا تتركوا له ، واستعينوا بالله منه ، وإذا أصابكم طائف منه فعودوا إلى الله وتذكروا .

إن طاعة الله هى أقوى السبل لقهر الشيطان ، وقد ثبت أن الشيطان يخاف من عباد الله المؤمنين . يقول النبى ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : "إيه يا ابن الخطاب ما رآك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجا"^(٣) ... وورد أن رسول الله ﷺ قال : "ما رأى الشيطان يوما . هو فيه أصغر ، ولا أذهر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ ، منه في يوم عرفة . وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة

(١) سورة الحجر ، الآية ٤٢ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٣٩ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب التيسم والضحك ج ٨ ص ٢٣ .

، وتجاوز الله عن الذنوب العظام . إلا ما رأى يوم بدر^(١) .

﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ ﴾ إن الشيطان يدعو بغواياته جميع الناس إلا أن أثر دعوته لا يظهر إلا فى الذين يركنون إليه ، فيصيرون من حزبه ، وكأنه يدعوهم وحدهم .

﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى يدعو الشيطان حزبه لاتباعه فى الكفر والضلال ، وبذلك يستحقون العذاب عند الحساب ، وتكون عاقبة أمرهم فى الآخرة هى الخسران المبين .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أى إن الذين كفروا هم حزب الشيطان ، وأتباعه فقد أطاعوه ، واستحقوا عذاب السعير ، وهو عذاب شديد يتوافق مع كفرهم وعصيانهم لله تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أى ينجى الله المؤمنين الذين آمنوا بدين الله ، وصدقوا رسول الله ، وجعلوا أعمالهم صالحة مستقيمة على شرع الله وهدايته ، فهؤلاء لهم أجر كبير فى الآخرة حيث يغفر الله ذنوبهم ، ويسكنهم فى الرياض النضرة ، ويجعل لهم ﴿ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٧﴾^(٢) .

وأما المؤمنون الذين يعصون الله فى بعض شئونهم ، فهم ليسوا من أتباع الشيطان ، لأنهم ليسوا من حزبه ، وليسوا من أتباعه الخالص ، وتوبتهم ورجوعهم إلى الله تعيدهم إلى حظيرة الإيمان ، وتجعلهم من حزب الله .

(١) موطأ مالك . كتاب الحج . باب جامع الحج ج ٣ ص ٦٢١ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٠٧ ، ١٠٨ .

وقد ذكرت الآية الطرفين المتضادين فى الناس ، وهما الذين كفروا وهم اتباع الشيطان المتحزون له ... والذين آمنوا وعملوا الصالحات واستقاموا على الحق ، وهم المتحزون لله ... وبين الطرفين أنواع كثيرة خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، وهؤلاء يجزون على قدر حالهم من قرب أو بعد عن أحد الطرفين ، والأولى لهذه الأنواع أن لا يستمروا فى مواقع التذبذب ، وينحازوا إلى مصالحهم فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى

لإنكار من يساوى بين فريقين متضادين : **الفريق الأول** فريق يعيش فى الضلال ، ويغوص فى السيئات ، ويحسن له الشيطان الكفر والمعاصى حتى يرى عمله السيئ حسنا وصالحا ... **والفريق الثانى** فريق هداه الله للحق فهو يطيع الله فى إيمانه وعمله ، ويرضى بحكم الله ومنهجه ...

وسؤال الآية يدور حول إنكار تساوى الفريقين فى العمل والحكم والمصير لبيان أنهما لا يستويان ، والثابت أن الفريق الأول خاسر ضال ، وقد بينت الآية أن عمله سوء ، وإن رآه حسنا .

وسكتت الآية عن الفريق الثانى مكتفية بدلالة المفهوم عليه ، لأن المقصد الأسمى للآية هو بيان طرق إغواء الشيطان ، وطرق كيدته للإنسان لأنه يحسن السوء ، ويزين الفسق ، ويبرز الفحشاء والمنكر فى ثوب قشيب يعجب الضالين .

إن أعداء الإيمان لا يعلنون حربا صريحة على الإيمان والمؤمنين ، وإنما يزينون المنكر ، ويأتون للإنسان بدعاوى الحرية ، والعدل ، والمساواة والكرامة ... ويدسون فى هذه المسميات السم .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى إن سبحانه وتعالى يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء وفق نواميس معينة ، وهى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى نفوس العباد ، ويطلع على مقاصدهم ، ونواياهم ، واستعداداتهم فيخلق لهم العمل الذى يرغبونه ، فيقع منهم ، وهم به راضون .

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ أى لا تحزن يا محمد على كفرهم ، ولا تقتل نفسك عليهم تحسرا وألما ...

وجمعت الآية الحسرات لأن كثرة الحسرة وتتابعها يؤدى إلى زيادة الحزن والألم ، وتوصل إلى الموت والهلاك ، ولذلك نهى الله رسوله عن الحزن والتحسر على الكافرين فعليه البلاغ المبين ، وقد قام به .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ أى إن الله تعالى عليم بما يصنع الناس فبلغ الدعوة يا محمد ، ودع الناس لله فهو عليم بهم ، ومرجعهم إليه ، وسيحاسبهم بدقة ، ويجازيهم بما عملوا وصنعوا .

- ٤ -

معنى الآيات

ينادى الله الناس ليذكروا نعم الله عليهم فقد خلقهم ، ورزقهم ، وأرسل لهم رسوله مبشرين ومنذرين ... وينكر الله على الناس كفرهم فيسألهم عن سبب كفرهم ، وهل هناك خالق غير الله يدعوكم إلى الكفر ؟

وتبين الآيات أن يوم القيامة حق ، وتطلب من الناس أن يبتعدوا عن غرور النفس ، وغرور الشيطان ، ويؤمنوا بالله تعالى ... فقد أعد الله لأتباع

(٥٦١)

الشیطان عذابا شديدا فى نار جهنم ... وأعد للمؤمنين الذين يعملون الصالحات
ثوابا جزيلا حسنا فى جنات النعيم .

وتأمر الآيات النبى ﷺ أن لا يحزن أو يتألم على كفر الناس ، وعليه أن
يقوم بالبلاغ المبين فتلك رسالته ، وأمر الناس بعد البلاغ إلى الله يحاسبهم ،
ويعاقبهم ، وهو عليم بهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الله رحيم بالناس

الإيمان بالله تعالى فطرة مركوزة فى الطبع ، ينميها صاحبها ، ويظهرها ،
ويقوى بها رسل الله عليهم السلام وهم يدعونه إلى الإيمان بالله تعالى ، ويعرفون
العباد بدلائل الإيمان فى الكون والحياة .

لقد تجلت رحمة الله بعباده فى حبه لإيمانهم ، وتقديم أدلة أحقيته للألوهية
لهم ، ونداءاته المتكررة ليؤمنوا .

إن نداء الله الناس يعنى قربه منهم ، فهم خالقهم ، ورازقهم ، والمنعم عليهم
، ولذلك كان النداء أحد الوسائل الهامة فى دعوة الناس .

وتكرار تذكيرهم للنعم يقويهم أمام إغراء الشيطان الذى يتقدم للناس بمكره
وخداعه ليصير الذكر سدا حصينا يمنع الشيطان من تحقيق مآربه .

وتؤكد الآيات أن الرازق هو الله وحده ، ولذلك فهو المستحق أن يعبد
وحده ، لأن الكون والمخلوقات كلها حادثة مصنوعة ، ويستحيل القول بأنها
خلقت شيئا وتبعا لذلك لا يصح أن يتخذها أحد إلها .

(٥٦٢)

إن الله خالق الخلق ، ومعطى الرزق ، والمتصرف فى السماء والأرض وهو المستحق وحده للعبادة .

الركيزة الثانية

عصمه الله لرسوله ﷺ

بلغ رسول الله ﷺ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وتحمل كثيرا من العنت والأذى من أهله وقومه ، وخاصمه المشركون والكافرون ، والمنافقون ، وجادلوه بالباطل ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وأخرجوه من بلده ، وحاربوه ، وتمنوا قتله ، والقضاء عليه ، إلا أن الله عصمه ﷺ منهم ، ونصره ، وأعانه ، وسلاه بالخبر والقدرة .

وعلم رسول الله ﷺ مراد الله له فصبر وتحمل ، وأدى الأمانة ، وقام بالبلاغ المبين ، واستمر على إخلاصه حتى لقي ربه .

إن تسليمة الله لرسوله عبرة للدعاة إلى الإسلام ، فهم ورثة الدعوة بعد رسول الله ، وعليهم أن يعلموا أن الطريق شاق ، والمهمة صعبة ، لأنهم يواجهون تلا متراكما من الفجور والظلم ، وأنهم يعملون فى أصعب صناعة ، وهى صناعة الإنسان ، والترقى به إلى حالة جديدة غير ما هو فيه .

إن رسالة الدعاة رسالة دينية ، وهى تتطلب الصدق ، والإخلاص ، ومداومة العمل الجاد ... وأجر الدعاة عند الله عظيم، وعليه فليتكلم المتوكلون.

الركيزة الثالثة

كشف عوامل الإضلال فى الإنسان

لا يستمر الإنسان على فطرته ، لتأثره بما يعايشه ، ويعامله ، وبما يراه من أمور مادية ، ومعنوية فى بيئته ... ويجد الإنسان نفسه أمام عوامل تشده

إلى الضلال ، ومعصية الله تعالى ، ولو لم يكن حذرا لوقع فيها ... وأهم هذه العوامل :

أولا : الغرور الذاتى : يجد الإنسان نفسه فى غنى مادية ، وسلطة وجاه فيعلو على الناس ، ويطغى ، ويتحول حاله كما حدث لقارون حين قال ما حكاه الله عنها : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ^(١) .

إن الإنسان إذا أصيب بالغرور ينسى حق الله تعالى ، ويغفل عن حقوق العباد ، ولذلك ينهى الله عباده عن هذا الغرور ، ويذكرهم باليوم الآخر حيث الحساب الدقيق لكل الأعمال .

ثانيا : ألاعيب الشيطان : الشيطان عدو الإنسان ، وهو باق فى الدنيا لإفساد الناس ، وقد مكنه الله من السياحة فى الأرض ، والاطلاع على ما فى نفوس العباد ، ووضع مع كل نفس قرينا من الجن يساعد الشيطان على الدخول فى الجسد الإنسانى ، والتحرك فى كافة جوانبه ... وحين يظفر الشيطان بغفلة من الإنسان يوسوس له ، ويزين له المعاصى ، ويحبب إليه الشهوات ، ويصور له السوء حسنا ... ويستمر يخادعه حتى يبعده عن الله ... وقد عرف الله الإنسان بألاعيب الشيطان ، وحذره منه ، وعرفه طرق التغلب عليه .

ثالثا : الجهل المركب : والمراد به أن يقع الإنسان فى معصية الله ظنا منه أنها ليست بمعصية ، وهذا جهل منه ... إلا أنه يستمر فيها محبا لها رائيا حسناتها وجمالها بعد أن يعرف ضلالها ، وهذا هو الجهل المركب الذى لا يصح أن يقع فيه الناس .

رابعا : خداع النفس : قد يخدع الإنسان نفسه لمصلحة آنية ، وإن تعارضت مع مصلحة بعيدة ، فيجرى وراء الهوى ، ويتمسك بالضلال لغاية فى

(١) سورة القصص ، الآية ٧٨ .

(٥٦٤)

نفسه ... وهو بهذا يخدع نفسه ... لأنه لو تجرد في التأمل ، ونظر في آيات الله لآمن بحق ، ودخل في دين الله تعالى .
إن هذه العوامل التي تضر الإنسان ، وتوقعه في المهالك عوامل ساقطة لا قيمة لها .

ولذلك وجب على الدعاة تتبعها في الناس ، وضرب الأمثلة لها ، وبيان تساقطها ، وعدم جدواها ، وضرورة التخلص منها .
وواجب على الناس أن يسارعوا إلى الحق ، ويتمسكوا به فهو خير لهم وأجدى نفعا وفائدة .

الركيزة الرابعة **منهجية الدعوة إلى الله في الآيات**

يمكن الاستفادة بالآيات في أمور أساسية في منهج الدعوة إلى الله تعالى .
لأنها بالنسبة للدعاة تعرفهم بالله ، وتبين لهم أنه لا إله إلا هو ، وتبصرهم بضرورة التضحية ، والصبر ، والقيام بأمانة الدعوة ، وأداء واجباتها ، وتوضح لهم أن الأمر بيد الله وكل ما عليهم هو البلاغ المبين .
وبالنسبة للمدعوين تبين لهم مصير المكذابين ، وعداوة الشيطان ، وضرورة تجنب عوامل الفساد كما تؤكد لهم أهمية الإيمان بوعده تعالى ، ووقوع يوم القيامة بما فيه من حشر ، وحساب ، وجزاء .
وبالنسبة لأساليب الدعوة تستعمل الآيات النداء ، والاستفهام ، والتأكيد .
ومن وسائل الآيات ضرب الأمثال ، والترغيب والترهيب ، والخوف من معصية الله تعالى .

ومن أقوى ما أظهرت الآيات هو بيان ما يناله المؤمنون من المغفرة ،
والثواب الجزيل ، وما يصيب الكافرين من عذاب الأليم .
وهكذا ...

يمكن للدعاة أن يأخذوا من الآيات منهاجا يستفيدون به فى عملية الدعوة
إلى الله تعالى .

بيان وحدانية الله وقدرته فى المبدأ والمعاد

يقول الله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ۝ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ
هُمَ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۚ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن
نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَثْقَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ
مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ وَمَا
يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ۚ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۚ وَمِن كُلِّ
تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۚ وَتَرَىٰ الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ
لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ

النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ
 اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ
 ﴿٢٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ
 الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ ؕ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿٢٤﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة ذكر الله تعالى ، وعدم تكذيب رسول
 الله ﷺ لأن وعد الله حق ، وعذابه أليم شديد جاءت هذه الآيات لتأكيد وقوع يوم
 القيامة ، وإيراد الأدلة والبراهين على الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وإصلاح
 العمل للفوز في الدنيا وفي الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله يحيى الأرض بعد موتها بالماء والزرع ، وهذا دليل
 يثبت البعث يراه الناس في كل آن ، وكل مكان ، وتوضح الآيات أن الله تعالى
 يهب العزة لمن يشاء من عباده ، ويختار منهم الصادقين الصالحين ، ويعاقب
 الذين يعملون السيئات ، كما تبين الآيات أن كل شئ بقدره الله تعالى ، وعدله
 ورحمته ، وآياته شاهدة على حكمته وقدرته ، فهو سبحانه يخرج للناس اللحم
 الطرى من النهر والبحر بطعم لا يتغير ، مع أن الماء مختلف ، ويولج الليل
 في النهار ويولج النهار في الليل ، ويسخر الشمس والقمر ، ودلالات قدرته
 سبحانه في كل شئ تثبت تفاهة الأصنام ، وسفاهة من يعبدونها من دون الله
 تعالى .

(٥٦٧)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أى

إن الله تعالى هو الذى يرسل الرياح ، ويحركها إلى حيث يشاء ، فى صورة هواء لين عليل ، أو فى صورة عواصف هوجاء ، وجعل من الرياح سحابا مكونا من ذرات الماء الصاعد ، الذى يحمله الهواء ، ويرفعه إلى طبقات الجو العليا ، ومنه يتكون السحاب ، ويتحرك إلى حيث يريد الله ، فيسقط المطر فى الموضع الذى يختاره الله ، حيث تكون الأرض ميتة لا نبات فيها ، وبه تخضر الأرض ، وتخرج النباتات ، والحب ، والفاكهة ، والأب ، ويتغذى الإنسان والحيوان ، والطيور ، والهوام !!!..

فموت الأرض عدم وجود النبات فيها ، وحيائها بالنبات والحركة وإخراجها الخيرات التى جعلها الله سببا لها .
وبدأت الآية بذكر اسم الله الصريح لبيان أن ذلك كله فعل الله تعالى وتقديره ، وحكمته ، ورحمته .

واختارت الآية من دلائل التوحيد ما له صلة مباشرة بحياة الإنسان ، لأنه لا حياة بدون وجود الهواء ، والماء ، والنبات ، وفى نفس الوقت اختارت الآية ما يعد دليلا على البعث ، والرجوع إلى الله تعالى .

﴿ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ أى إن البعث ، والنشور ، والحشر ، يشبه بعث

الحياة فى الأرض ، فقد ظهر الوجود بعد العدم ، وتحققت الحياة بعد الموت ... والنشور هو إحياء الموتى ، وإحياء الأجساد بعد تفرقها ...

إن حياة الأرض بالزرع إيجاد شئ من لا شئ ، واطهار لحياة جديدة بعد موت وفناء ، وهذا هو النشور ، والحشر ، والحساب للموتى بعد بعثهم يوم القيامة .

عن أبى رزين رضي الله عنه قال : "قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟

قال ﷺ : يا أبا رزين أما مررت بوادي قومك ممحلا ؟
قلت : بلى .

فقال : ثم مررت به يهتز خضرا ؟
قلت : بلى .

قال ﷺ : فذلك يحيى الله الموتى وذلك آيته فى خلقه" (١) .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى من كان يتمنى العزة

لنفسه فى الدنيا ليكون شريفا ، ومكرما ، ومقدرا ، وبعيدا عن السوء ... ويتمناها فى الآخرة أيضا ليعيش مع النبيين ، والشهداء ، والصالحين ، فى جنات النعيم فليعمل الأعمال الصالحة ، ويتقرب إلى الله بالعبادة والتقوى ، فعند الله الكرامة ، والشرف ، والتقدير ، وخزائن السموات والأرض ، وهو سبحانه يعطى العزة لمن يستحقها ، وهى كاملة تامة عنده يعطيها لمن يشاء من عباده .

والفرق بين عزة الدنيا وعزة الآخرة أن عزة الدنيا ينالها العصاة والمستكبرون مع المؤمنين إلا أنها تكون خالصة صافية للمؤمنين مشوبة بأذى للكافرين المذنبين ...

أما عزة الآخرة فهى للمؤمنين وحدهم ، وهو عدل من الله ورحمة .

(١) المستدرک على الصحيحين للحاكم . كتاب الأهوال ج ٤ ص ٦٠٥ .

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ والكلم الطيب

هو القول الحسن ، وأعلاه شهادة التوحيد ، والعمل الصالح هو العمل الذي شرعه الله تعالى ، وهو القائم على الاستسلام لمنهج الله تعالى ، والالتزام به . وعبرت الآية بصعود الكلم الطيب ، ورفع العمل الصالح لإفادة أن الكلام يظهر أثره بعد النطق به مباشرة ، وذلك يؤدي إلى سرعة صعوده ... أما العمل الصالح فإنه يحتاج لجهد ووقت ، ويؤثر في الناس بعد وقت ولذلك يكون رفعه بهدوء ، ورتابة .

والصعود والرفع يلتقيان في المعنى ، ومع ذلك أوردتهما الآية منفصلتين فجعلت الصعود للكلم الطيب ، وجعلت الرفع للعمل الصالح لفائدتين :

أولاهما : الإيمان إلى أن العمل الصالح أهم من الكلم الطيب على الجملة لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعا من معظم الكلم الطيب (عدا كلمة الشهادتين ، وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة مثل دعاء يوم عرفة) فلذلك أسند الله رفعه إليه بنفسه سبحانه وتعالى .

كقول النبي ﷺ : "من تصدق بصدقة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا طيبا ، كأنما يضعها في كف الرحمن يرببها كما يربي أحدكم فلوه حتى تصير مثل الجبل" (١) .

وثانيهما : أن الكلم الطيب يتكيف مع الهواء بمجرد النطق به فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته ، وأما العمل الصالح فهو كعمليات عملية عارضة لذوات فاعلة ومفعولة فلا يناسبه إسناد الصعود إليه ، وإنما يحسن أن يجعل متعلقا لرفع يقع عليه ، ويسخره إلى الارتفاع .

(١) موطأ مالك . كتاب الصدقة . باب الترغيب في الصدقة ج ٥ ص ١٤٤٨ .

(٥٧٠)

﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أى والذين يَمْكُرُونَ المكر السيئ ، ويدبرون لإيذاء المسلمين ، وصد الناس عن سبيل الله لهم عذاب شديد فى الآخرة .

﴿ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُ ﴾ أى ومكر أولئك الكافرين بائر خاسر لا فائدة فيه ، ولا بقاء له .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى هذا دليل على وحدانية الله وقدرته ، مأخوذ من وجود الإنسان نفسه ، وهو أنه سبحانه وتعالى خلق آدم من تراب ، وجعل من آدم حواء ، وأوجد البشر من تزواج الذكر والأنثى .

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَثْقَلٍ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أى لا تحمل المرأة الجنين فى بطنها ، ولا تلده إلا والله يعلمه ، فهو سبحانه الذى قدره ، ويمكن له ، ورعاه ، وحدد ميعاد الحمل به ، ووقت مولده ، وسائر حياته فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ وَمَا يَعْمرُّ مِنْ مُعمرٍ وَلَا يُنقصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى ولا أحد يقضى الله له بطول العمر إلا ويبلغه ، ولا أحد يقدر الله له قصر العمر ، إلا ويموت عنده ، ولن يقدر الخلق جميعا على تغيير الموعد الذى حدده الله لكل نفس بزيادته ، أو بإنقاصه لحظة واحدة .

لقد قدر الله لكل مخلوق قدره ، وحدد لكل مخلوق أجله ، ولولا ذلك لاضطرب العمران ، وفسدت الحياة .

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى إن وضع موازين الحق ، لحفظ الحياة وتنظيم الدنيا يسير على قدرة الله ، وتقديره .

﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هذا دليل على وحدانية الله ، وقدرته مأخوذ من نعمة الماء ، وتنوعه إلى ماء عذب ، وماء مالح ، فبين سبحانه وتعالى أن الماء يجرى فى بحرين يختلفان اختلافا فى تكوينهما ، وطبيعتهما ، وأثرهما .

فالبحر الأول هو النهر ، العذب ماؤه ، المحبوب شربه ، المزيل للعطش ، والمكون من ماء المطر ، الجارى من أعالي السفوح إلى الأماكن المنخفضة فى أنهار ظاهرة ، أو مودعة فى باطن الأرض .

والبحر الثانى هو البحر المالح الذى لا يشرب ماؤه لشدة ملوحته ، الواسعة مساحته ، الممتلئ دائما بالماء ، وفيه تصب الأنهار .

ومع اختلاف البحر عن النهر فإنهما يتفقان فى تحقيق حاجة الإنسان .

﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أى من النهر والبحر تصطادون السمك ، وتأكلون لحمه الطرى اللين .

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أى تخرجون من النهر والبحر لآلىئ ومعادن تلبسونها وتتحلون بها .

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ﴾ أى وتشاهد السفن فى البحرين تشق طريقها على الماء حاملة تجارتكم ، ورحالكم إلى بلاد لم تكونوا قادرين عليه إلا بشق الأنفس .

﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى ولتستفيدوا بخيرات البحر والنهر المتعددة .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى وعسى أن تشكروا الله على نعمه وعطائه من النهر والبحر ، وتحافظوا على حقه سبحانه وتعالى .

﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا لِّسَجَرٍ لِّأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هذا دليل من الزمان على توحيد الله تعالى ، وهو أن الله يدخل الليل فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل ، وسخر لكم الشمس والقمر لتطلع الشمس فى النهار ، ويظهر القمر فى الليل ، وفى هذا دليل على وحدانية الله ، وكمال صفاته وقدرته .

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أى إن الله تعالى هو ربكم المالك لجميع خلقه ، وهو الذى خلقكم ، ورعاكم ، وأمدكم بأسباب الحفظ فى الدنيا .

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ أى إن الأصنام التى تعبدونها من غير الله لا تملك شيئا ولو كان حقيرا ، لأن القطمير هو القشرة التى تكون فوق النواة فهى لا فائدة فيها البتة ، وهى لا تملك شيئا ولا تقدر على شئ أبدا .

﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ أى إن الأصنام جماد مصنوع لا تسمع ، ومع فرض أن الأصنام تسمع فإنها عاجزة عن الاستجابة لطلبكم .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكُمْ ﴾ أى فى يوم القيامة يتبرأ الشياطين والأصنام ممن عبدوهم .

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ولا يخبركم الصدق والصواب إلا الله تعالى فهو اللطيف الخبير .

(٥٧٣)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل الرياح ، وكون السحاب ، وساق الماء إلى الأرض الميتة فأحيها ، ويمثل ذلك يكون النشور ، والأمر كله إلى الله فبعزه يعز عباده ، وآياته فى خلقه عديدة .

فهو . سبحانه . خلق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، وقدر له الرزق والأجل ، لا يتخلف الإنسان عن تقدير الله أبداً فى الإيجاد ، والإمداد ، والنفاذ . وهو . سبحانه . أوجد النهر والبحر ، ومع اختلافهما جعلهما يمدان الإنسان باللحم الطرى ، والحلية التى يتحلون بها ، وجريان السفن فوق ظهريهما للسفر والتجارة وحمل الأثقال .

وهو . سبحانه . يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، فى إحكام متقن ، ودقة سابغة ، فهو . سبحانه . مالك الملك ، وهو على كل شئ قدير ، ولا قيمة لأصنام يتخذها المشركون آلهة من دون الله تعالى ، فهى لا تملك شيئاً قط ، ولا تسمع نداء أبداً ، ولو قدر الله لها أن تسمع فإنها لا تستجيب لشئ ، وفى يوم القيامة تتبرأ الأصنام ممن عبدها ، وجعلها شريكاً لله تعالى ، وهذا نبأ ، صادق يخبر الله به ، وهو العليم الخبير .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية مراقبة العبد لله تعالى

يعيش الإنسان فى الدنيا عبداً لله تعالى . طوعاً أو كرهاً . لأن كل الذى يقع فى ملك الله هو الذى يريده سبحانه وتعالى .

والإنسان فى الدنيا يسعى ويكدح ، ويرجو ، ويتمنى ... وعليه أن يلتزم بأمر الله ، ويطيع تعاليم الدين إن رغب فى تحقيق ما يتمنى .

إن الأعمال مقدرة فى علم الله ، وحادثة بصنع الله ، والله محيط بعباده وضع القلوب بين يديه ، وأحاط بكل شئ خبرا ... وحين يتيقن الإنسان من هذه الحقائق ، ويعلم أن الأعمال تصعد إلى الله ، ويرغب فى أن يكون شريفا مكرما بعيدا عن كل سوء ، فعليه أن يلتزم بالعبودية لله ، ويلزم الطرق على باب رحمة الله ، لأن الباب يفتح لمن يداوم الطرق .

ليعلم المسلم ان العزة كلها بيد الله تعالى فمن رغبها فعليه أن يحسن قوله ، ويصلح عمله ، ويستقيم على صراط الله القويم .

الركيزة الثانية

بيان آيات الله ، وخصائصها ، ودلالاتها

تعرض الآيات المذكورة عددا من آيات الله فى الكون ، وتشير إلى دلالتها ومقاصدها ، وهذه الآيات الواردة فى الآيات تتميز بما يلى :

أولا : تخاطب العقل ، وتكشف ظواهر الوجود كما يشاهدها الإنسان ، فيسلم بها ، ولا يجد لديه معارضة فى كل ما يسمعه ، فهذا السحاب يحمل ماء ويسير إلى مكان يسقط فيه المطر على أرض ميتة فتحيا ...

وهذا الإنسان خلقه الله . أولا . من تراب ثم طوره إلى مولود من ذكر وأنثى ، وجعل من الذكر والأنثى الشعوب والقبائل يبسر لاعتت فيه ، ولا تعب .

وهذان البحران ، العذب والمالح لا يستويان طعما ، أو مساحة ، ومع ذلك يشتركان فى إخراج اللحم الطرى ، والحلية ، وسير السفن وهذا الزمان يتحرك فى ليل ونهار ، وبين شمس وقمر بلا تخلف ولا اضطراب .

هذا كله خلق الله ... الإنسان يراه بحواسه ، والعقل يدركه ، ويبصره ، ويفكر فى جوانبه الظاهرة التى ذكرتها الآيات ليعيش العقل فيها ويسلم بها ولا ينكرها .

إن الآيات وهى تخاطب العقل لا تغرب به إلى الجوانب الخفية ، ولا تدخله فى الغيبات المجهولة حتى لا تترك للشيطان مدخلا يلج منه .

ثانيا : تعيش الآيات الكونية المذكورة مع واقع الإنسان ، لأنها معلومة للإنسان ، يراها ويحسها ، وأى حديث عنها ينبهه ، ويصل إليه ... فالسحاب والمطر ، والأرض ، والزرع ، والنبات ، والهواء هى حياة الإنسان ونشاطه وارتباطه بها شديد ... والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وتطور الإنسان أمور يحسها الإنسان ، ويتمنى معرفة أى شئ عنها .

ثالثا : ربطت الآيات الإنسان بحاجاته الضرورية التى لا بد له منها ، فراحته ونومه ، وطعامه وشرابه ، وسعيه وعمله متصلة بالآيات المذكورة .

رابعا : إبراز جوانب الدهشة فى الآيات ، وذلك بالإشارة إلى لمحة قدرية فى كل آية ، فالله يحدد للمطر موعد ومكان نزوله ، ومساره إلى الأرض التى يريد أحياءها ، فقد ينزل المطر على أرض صلبة ، ويسيل إلى واد منبسط فيتكون النهر والبحيرة ، ويجرى ظاهرا إلى حيث يريد الله تعالى ... والإنسان يولد طفلا وينمو حتى يصير كهلا ، ولكل أجله الذى تنتهى عنده حياته ، والله هو العليم الخبير .

والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنهر والبحر ، وما فيها من منافع وأسرار من تقدير العزيز الرحيم .

فى كل هذه الآيات دلائل مبهرة ، وشواهد ناطقة على قدرة العزيز الحكيم ، والآيات فى مجملها تدل على ما يلى :

(١) وقوع البعث والنشور ، فهذا الخلق والإيجاد الذى يحدث فى الكون كل لحظة يدل على قدرة الله على البعث ، لأن من خلق قادر على أن يعيد ما خلق مرة أخرى ، وهو أهون عليه ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(١) .

(٢) لا يحيق المكر السئ إلا بأهله ، لأن الله مطلع على قلوب العباد ، يعلم سرهم ونجواهم ، ولذلك فمكر الماكرين لا يفيد ، وهو يبور فى الدنيا ، ولأصحابه فى الآخرة عذاب شديد .

لقد ظن كثير من الناس انتصارهم بالمكر ، والظلم ، والخداع ، فإذا بالقدر يمهله ولا يمهله ، وفجأة تميد الأرض من تحت أقدامهم ، فلا ينفعهم مكر ، ولا يفيدهم خداع ، وآيات ذلك بين الناس كثيرة ومعلومة .

(٣) إن الأعمار بيد الله تعالى ، وحكمته سبحانه وتعالى فى إطالة العمر أو نقصه بالغة ليعتبر الناس ، ويتذكر أولو الألباب .

إن العاقل هو من يمر بآيات الله ، ويستفيد بها ماديا ، ومعنويا ، ويقر بفضل الله ، ويكون من عباد الله الصالحين .

الركيزة الثالثة

لا إله إلا الله

الله هو الذى يخلق ، ويهدى ، ويتصرف ، ويتميز بكافة صفات الكمال والجلال التى تليق به سبحانه وتعالى .

ومن هنا ...

ظهر جليا فساد اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله تعالى لما يلى :

(١) سورة الحج ، الآية ٧٠ .

(١) الأصنام لا تملك شيئاً ، ولا تقدر على شئ مهما كان ضئيلاً حقيراً والذي

لا يملك لا يحكم ، ولا يصح أن يكون إلها .

(٢) الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء لصممها وعجزها ولا تكون آلهة .

(٣) الأصنام مخلوقات جامدة عاجزة ولم تدع شيئاً ولا أثر لها . فكيف تعبد ؟

إن على المؤمنين أن يعرفوا الحق ، ويتبعوه ، وذلك هو الخير .

إن الله إله واحد ، لا شريك له والكون شاهد عليه ، والمؤمنون له عابدون .

دعوة الناس إلى الله وتخويفهم من الكفر

يقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۚ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهٍ لَا تُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۚ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۚ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۚ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۚ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۚ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۚ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۚ ۝

(٥٧٨)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله هو مالك الملك ، وخالق الخلق ، ومرسل الرسل جاءت هذه الآيات لحث الناس جميعا على الإيمان بالله تعالى ، وبيان أنه الإله الحق المنعم على عباده ، القادر على فعل ما يريد .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات عددا من الأدلة الداعية إلى الإيمان بالله تعالى ، وتعرف أن على الرسول البلاغ المبين وحده حتى لا يحزن على إصرار الضالين ، وكفر الكافرين ، فهم يشبهون الأمم السابقة التي أهلكها الله تعالى لكفرها ، ونجى سبحانه الرسل ، والمؤمنين منهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتأدى الآيات الناس ، وتحثهم على الإيمان بالله ، واتباع دينه الذى أرسل به رسوله محمدا ﷺ لعدة أوجه ... يقول الله تعالى عنها :
- ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ ينادى الله الناس جميعا ، ويعرفهم بحقيقة قد تغيب عنهم ، وقد لا يهتمون بآثار العلم بها ، وهذه الحقيقة هي حاجتهم الدائمة إلى الله تعالى ، فهم ضعفاء ، فقراء ، يحدتهم الزمان ، والمكان ، وكافة المواد البيئية المحيطة بهم ، ومن كان هذا شأنه يحتاج إلى من يعينه ، ويمكنه من الاستقامة والحياة ، والتغلب على المجهول الذى لا يعلمه ... ولذلك كانت حاجتهم الماسة إلى الله تعالى فهو العزيز الحكيم ، وهو الغنى ، بيده ملكوت السموات والأرض وهم الفقراء المحتاجون .

والآية تفيد قصر فقر العباد إلى الله بتعريف طرفى جملة المنادى به ،
وهى ﴿ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ﴾ لبيان حاجة الإنسان الضرورية إلى الله تعالى ،
لأن من ثبت فقره ثبتت حاجته إلى معونة وعطاء .

فإن قيل : المخلوقات كلها محتاجة إلى الله في وجودها ، وعملها ، فلم
جاء قصر الفقر على الإنسان وحده ؟

أقول : المخلوقات كلها غير مسئولة ، وهى محتاجة في وجودها ،
واستمراريتها إلى الله تعالى ، إلا أنها غير مكلفة ، وهى تؤدى
ما وجدت له بلا توقف ، والله يعطيها ما يساعدها على القيام بدورها ، أما
الإنسان فهو المخلوق المكلف ، وقد تصيبه غفلة ، أو جحود ، فاستحق
أن يذكر بفقره دون غيره ... وحينما يتأكد الإنسان من فقره يستعين بمن
يعطيه ، ويرزقه ، ويطيعه ، ويستقيم على أمره ونهيه .

- ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى أنتم أيها الناس المحتاجون إلى الله
تعالى ، وهو الغنى وحده ، لا تتفد خزائنه ، ولا يحد عطاؤه ، وهو
المحمود بذاته ، المستحق للعبادة وحده ، فاتخذوه إلها ، واخلصوا في
العبادة له ، فهو وحده الغنى وأنتم الفقراء ، وهو المحمود بعبائنه ، وأنتم
محتاجون لهذا العطاء .

- ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

بِعَزِيزٍ ﴿٤٧﴾ أى أطيعوا أيها الناس ربكم لأنكم تعيشون برحمته ، وهو
القوى القهار ، ولو أراد سبحانه وتعالى أن يسلط عليكم هلاكاً يقضى
عليكم ، ويستبدل بكم قوما آخرين يعبدونه لوقع ما يريد ، وذلك أمر يسير

على الله ، وليس استبدال غيركم بكم ممتنع على الله تعالى إلا أن الله لم يشأ ذلك فاستقيموا على أمره ، حتى لا ينزل غضبه عليكم .
وفى هذا تهديد شديد ، وانذار واضح للناس ليؤمنوا بدين الله ، ويعبدوا الله وحده .

- ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا تُحْمَلْ

مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ ﴾ أى استعدوا أيها الناس ليوم القيامة بطاعة الله ، والاستقامة على دينه ، واعلموا أن الحساب عسير ودقيق ، ونتائجه فردية ذاتية ، ولن تحمل نفس آثمة ذنب نفس آثمة أخرى . يقول الله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۖ ﴾^(١) .

وان قضاء الله فى عدله نافذ لدرجة أن أى نفس تحمل أوزارا ثقيلة قد تدعو غيرها ليحمل عنها شيئا من الوزر فلا يحمل عنها ، ولو كان المدعو ذا قرابة كالأب والإبن ، لأن الموقف شديد ، وحال الناس "نفسى ... نفسى" . يقول الله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾^(٢)

فإن قيل : إن من أضل غيره يحمل مثل ضلاله مع ما يحمله ابتداء لقوله تعالى : ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾^(٣) فما معنى قوله

: ﴿ لَا تُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾^(٤) .

(١) سورة الطور ، الآية ٢١ .

(٢) سورة عبس ، الآية ٣٧ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية ١٣ .

(٤) سورة فاطر ، الآية ١٨ .

أقول : معنى النفل الآخر الذى لا يحمله الضال إن دعى له أن الضالين يحملون جزاء إضلالهم لغيرهم ، فى الدنيا مع ضلالهم هم ، فما فعلوه مع غيرهم هو إثمهم ، فهو وزر فعلوه فوق وزرهم .
وفى هذا إيدان شديد بعذاب يوم القيامة ليسارع العقلاء إلى الإيمان قبل يوم القيامة ، ويتوبوا إلى الله لينجوا من عالم الأوزار الأليم الذى يراه الضالون المكذبون .

يقول الله تعالى :

- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(١) .

- ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۖ وَصَدِيقَتِهِ ۖ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۖ﴾^(٢) .

روى عن عكرمة رضي الله عنه أنه قال : إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة .

فيقول : يا بنى أى أب كنت لك ؟

فيثتى الولد على أبيه خيرا !!

فيقول له أبوه : إنى قد احتجت على متقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى .

فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أخاف مما تخاف منه ، فلا أستطيع إعطائك شيئا .

ثم يتعلق الرجل بزوجه فيقول : يا فلانة أى زوج كنت لك ؟

فتثتى عليه خيرا .

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٣ .

(٢) سورة عبس ، الآيات ٣٤ . ٣٧ .

فيقول لها : إنى أطلب منك حسنة واحدة تهيينها لى ، لعل أنجو بها مما ترين .
فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق إن أعطيك شيئاً مما طلبت إنى
أتخوف مثل الذى تتخوف^(١) .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ هذا

خطاب للنبي ﷺ تسلية له وهى وتدعوه إلى عدم الحزن على كفر المشركين
وضلالهم ، وعدم التألم على إصرارهم وعنيتهم ... وتعرفه بأن الإنذار
يفيد الذين يعرفون قدرهم ، ويعظمون الله ، ويخشونه ، ويتقونه مع أنه
غائب عنهم ، ويخافون عذابه الذى أنذرهم به رسول الله ﷺ ، ويعبدون الله
تعالى بصورة دائمة ...

وهؤلاء هم المؤمنون ، فهم يعبدون الله حق العبادة ، ويقيمون الصلاة
على وجهها الصحيح .

فإن قيل : المؤمنون يؤدون سائر العبادات فلم خص الصلاة بالذكر ؟

أقول : المؤمنون الصادقون يؤدون سائر العبادات ، وانما خصت الآية
الصلاة بالذكر ، لأنها عماد الدين ، وهى علامة وشاهد على إيمان من أداها ،
ومن آمن بالله حقاً ، وحافظ على الصلاة صدقاً فهو محافظ على الدين كله .

﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى ومن

يتطهر من الأدناس ، ويطيع الله ، ويؤمن بدينه فقد طهر نفسه ، واستفاد بطاعة
الله ، وسيفوز بالجنة فى ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ ﴿ ٨٨ ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ ٨٩ ﴾^(٢) .

(١) تفسير المراغى ج ٢٢ ص ١٢٠ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ ، ٨٩ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٥٨٣﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٥٨٤﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٥٨٥﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ أى أن سبحانه وتعالى لا يسوى عقوبة المؤمن بعقوبة الكافر ، لأن هذه التسوية مرفوضة فى حكم الشرع ، وفى رأى العقل .

فلا يستوى الأعمى عن الحق الغافل عنه مع البصير بالحق الذى يتمسك به ، ويهتدى بهداه .

ولا تستوى ظلمات الكفر والضلال بنور الهداية والإيمان .

ولا يستوى ظل عرش الله ونعيم جناته بحرارة الشمس ونار جهنم .

كما لا يستوى من أحيا قلبه بالإيمان وجوارحه بالعمل الصالح بمن أ مات قلبه وسوده .

إن هذه الأمور المتقابلة لا تتساوى مطلقا ، وللناس منها فى واقعهم دليل وشاهد . ففى الناس عميان ومبصرون ، وأحياء وأموات ، وحر وظل ، وظلام ونور ، وهم يرون عدم تساوى المتقابلين فى الصورة ، والأثر ، والفائدة ، ولذلك كان الحكم حقا على أمثالها فى حياة المؤمنين ، وحياة الضالين .

وقد روعى فى هذه الصور الأربع توزيعها على صفات المؤمنين والكافرين ، وأثر الكفر والإيمان عندهما ، وانما قدم تشبيه حال الكافر على تشبيه حال المؤمن لأن الغرض هو تفضيع حال الكافر ، وتحسين حال المؤمن بعد ذلك .

إن المؤمن بصير سميع ، نير القلب ، يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم ، يمشى فى ظلمات لا خروج له منها ، فهو يتيه فى غيه وضلاله

في الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى حرور وسموم ، وحميم وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى يهدى من يشاء وهم المستحقون للهداية ، ويجعلهم يسمعون ، ويفهون ويهتدون فقلوبهم متيقظة ، وأرواحهم حية قوية ، ولديهم استعداد للهدى ، ولذلك يمكنهم من السماع والهداية .

﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ أى أن من مات قلبه ، وتجمد على الضلال والشرك فهو مثل من انتقل إلى الله ، ودفن فى قبره لا يسمع شيئاً ، ولا يقر بدعوة ، ويستمر فى ضلاله وكفره .

﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أى وما أنت يا محمد إلا منذر لهؤلاء المكذبين الضالين الذين طبع الله على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، فلا تحزن عليهم ولا تتألم على ضلالهم .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أى إنا أرسلناك يا محمد للناس بدين الله بشيرا لمن أطاع ، ونذيرا لمن عصى كما أرسلنا إلى الأمم السابقة رسلا منهم للإنذار والتكذيب ، فأنت على طريقهم واكتفت الآية بذكر إنذار الرسل السابقين حتى لا يبقى الضلال رائجا ، وأن يتحول الله عباده بالدعوة إلى الحق ، سواء عملوا بها أو لم يعلموا ، فإنها لا تخلو من أثر صالح فيهم .

والآية توضح حقيقة أن جميع الأمم جاءها نذير ، ولم يسم القرآن الكريم بصورة عامة منهم إلا الأنبياء والرسل الذين كانوا في الأمم القاطنة في بلاد

العرب ، وما جاورها ، لأن القرآن حين نزوله ابتداء بخطاب العرب ، ولهم علم بهؤلاء الرسل ، فقد علموا أخبارهم ، وشهدوا آثارهم فكان الاعتبار بهم أوقع ، ولو ذكر القرآن الكريم للعرب رسل أمم لا يعرفونهم لكان إخبارهم عنهم مجرد حكاية ، ولم يكن فيه استدلال واعتبار .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى أن مشركى مكة يسIRON على خطى من سبقهم من الأمم ، فقد كذبوا الرسل ، والرسالة التى جاءوا بها ، وانكار المعجزات الباهرة التى أظهروها ، والمواعظ القوية التى نطقوا بها ، والكتب المنزلة الباقية فيهم .

ولما كان المقام هنا لتسليية الرسول ﷺ ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل .

فمنهم الذين أتوا بآيات ، خارقة للعادة فقط مثل صالح ، وهود ، ولوط عليهم السلام .

ومنهم من أتوا بالزبر وهي المواعظ التى يؤمر بكتابتها وزبرها ، أى تخطيطها لتكون محفوظة ، وتردد على الألسن كزبور داود ، وكتب أنبياء بني إسرائيل الوعظية الذين دعوا بما جاء به موسى ﷺ .

ومنهم من جاءوا بالكتاب المنير ، وهى كتب الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى ، فذكر الباء فى قوله تعالى : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ إشارة إلى تنوع أصناف المعجزات لتناسب اتباع كل رسول .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ؟ ... أى إن الذين

كذبوا الرسل السابقين قد أخذهم الله بعذاب شديد ، أهلكهم ، ودمرهم بعد أن

أنكر الله عليهم كفرهم ، وهذا هو الشأن مع قومك يا محمد ، ووعد الله لا يتخلف .

- ٤ -

معنى الآيات

ينادى الله الناس ، ويدعوهم إلى الإيمان بالله فهم محتاجون إليه ، وهو القادر على أن يبدل بهم غيرهم من المؤمنين ، وتعرفهم الآيات بأن الله سبحانه وتعالى سيحاسب الناس على أعمالهم فرادى ، ولن تتحمل نفس وزر نفس أخرى ، مهما كان قربها منها فى الدنيا ، وتسلى الآيات رسول الله ﷺ حتى لا يتألم لكفرهم ، وحتى يعلم أن إنذاره وتبشيريه لن يفيد إلا المؤمنين الذين يعظمون الله ، ويعبدونه ، وهم الذين يفيدون أنفسهم بالطاعة والاستقامة .

وتبين الآيات أن حال الكافرين ومصيرهم لن يتساوى مع حال المؤمنين ومآلهم ، فالكافرون عميان وأموات ، ومصيرهم ظلام ونار . أما المؤمنون فهم أحياء مبصرون ، وعاقبتهم نور وظلال .

وتبين الآيات أن الرسول ﷺ نذير وبشير ، وشأنه وشأن الكافرين معه كشأن الرسل السابقين وأقوامهم ، وحكم الله فيهم عادل ﴿ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾^(١) ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُبِينِ ﴾^(٢) .

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٦ .

(٢) سورة النور ، الآية ٥٤ .

(٥٨٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حاجة الإنسان إلى الله تعالى

لا يستغنى العبد عن سيده ، ولا يمكن لمخلوق أن يستقل عن خالقه ، لأن الله خلق الإنسان ، وأمهده بالصحة ، والرزق ، ومكن له في الأرض حتى صار فتيا ، يحكم شئون الدنيا ، ويدبر أمور الحياة ، والفضل كله لله .

وقد عرف إبراهيم عليه السلام الناس بربهم فقال لهم ما حكاه الله عنه : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ^(١) .

إن الإنسان فقير محتاج ، ضعيف ، ولذلك فهو يحتاج إلى الله الغنى ، الفرد ، الصمد ، القوى ، القدير .

ولذلك كان من أقوى مواعظ القرآن الكريم أن يعيش الإنسان في كنف خالقه ، ويتغذى بقدرته ، ويحتذى بحماه ، وينقاد له ، ويستسلم لمشيتته ، ليصونه ويحفظه ، ويباهى به ملائكته ، وليعلم الإنسان أنه إن عصى الله فلن يضر الله شيئا ، والله قادر على إهلاكه ، واستبدال غيره به . وبهذا الإيمان يعتدل الإنسان ويستقيم .

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٨٢ . ٧٨ .

الركيزة الثانية

تحديد المسؤولية والجزاء فى الإسلام

دعا الرسول ﷺ الناس جميعا ، ونزل القرآن الكريم والسنة النبوية لتحديد مسؤولية الإنسان عن عمله فى الدنيا ، وتعريفه الجزاء الذى يناله مناسبا لعمله . وقد أحاط الله الإنسان بعدد من عوامل حفظ الأعمال مع علم الله بها منذ الأزل ليراها الناس عند الحساب ، ويتأكدوا من عدل الله فى الحساب والجزاء ومن هذه العوامل :

(١) وجود الملائكة مع كل إنسان لتسجيل كل أعماله فى كتاب مقروء مصور يراه صاحبه يوم القيامة ، يقرأه ، ويقر بما فيه ، ويقول الله له : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾^(١) وحين يقرأه يقول : ﴿ مَا لِي هَذَا أَلَكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾^(٢) .

(٢) شهادة الأرض بما حدث فوقها ، لأنها تحفظه ، وتنطق به بأمر الله تعالى . يقول سبحانه : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ ﴾^(٣) وما يحدث فى الطائرات وفى الأفق تابع للأرض تحفظه وتتكلم عنه .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٤ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٤٩ .

(٣) سورة الزلزلة ، الآيات ٥ . ٢ .

(٣) شهادة الجوارح . يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١) .

(٤) شهادة رسول الله ﷺ حيث يطلعه الله على أخبار الناس . يقول الله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾^(٢) .

فى يوم القيامة تتحدد الأعمال ، وتجد كل نفس ما عملت حاضرا أمامها وتحمله وحدها ، ولا تجد من يحمل عنها شيئا مهما كان قريبا ، لأن الحقيقة كما قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾^(٣) .

إن على الإنسان العاقل أن يعرف هذه الحقيقة ، ويختار لنفسه ، ويستعد للقاء الله . يقول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُقُوا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾^(٤) .

الركيزة الثالثة

أهمية دور العقل فى تحقيق السعادة

الإنسان مخلوق عاقل ، ميزه الله بالعقل ... ومؤدى ذلك أن يتأمل فيما يرى ، ويفكر فى الآيات التى يبصرها ويقرؤها ... وأن يصل بعقله إلى قرار يتمسك به ، ويعمل له .

(١) سورة النور ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٤١ .

(٣) سورة عبس ، الآية ٣٧ .

(٤) سورة لقمان ، الآية ٣٣ .

(٥٩٠)

ومن قضايا العقل أن المتناقضين متغايران ، وأن المتناقضين لا يتساويان في القيمة والغاية ، وأنهما لا يوصلان لنتيجة واحدة ، ولذلك كان الحكم البدهي إن الإيمان بالله لا يساوى الكفر ، ولا ينتج الإيمان ما ينتجه الكفر .
فالإيمان معرفة بالله ، وكشف لقدرته ، والاستعداد للقائه ، والطاعة الدائمة.

والكفر جحود للنعمة ، وانكار للحقيقة ، ومعصية لله ، وانكار لليوم الآخر ... ولهذا لا يستوى المؤمن والكافر ... فقد يتركى المؤمن بالطاعة ، وينتكس الكافر بالمعصية .

وكل إنسان مسئول عن عمله ، ويوم الحساب آت لا ريب فيه ، وفيه توفى كل نفس ما كسبت ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾^(١) .

الركيزة الرابعة

دور الدعاة في حياة الناس

قد يغفل الناس عن واجبهم ، وقد يوسوس لهم الشيطان ، وقد يلعب بالناس الهوى ، وحينئذ تتجلى رحمة الله بهم ، بتكليف دعاة هداة ، يعرفون الناس بالحق ، ويهدونهم إلى الصراط المستقيم .
وقد أكرم الله الناس بالرسول فبعث رسولا لكل أمة عرفهم بالله ، وحثهم على اتباعه ، وأنذرهم ، وخوفهم من حساب الله يوم القيامة .
وقد كذبت أمم كثيرة برسولها فأهلكها الله تعالى .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٤ .

والأمة الإسلامية على خطى الأمم السابقة ، بعث الله فيهم رسوله ﷺ ، فبلغهم بالإسلام ، وحثهم على طاعة الله ، والإيمان به ، وسار الدعاة من بعده على منهجه ﷺ ، واستمروا يبلغون الناس دين الله تعالى .

وعلى الدعاة أن يعلموا بعض الحقائق حتى لا يصابوا بياس أو قنوط ...

(١) إن من الناس من يسارع إلى الخير ، ويدخل في الإسلام ، لركة في

قلوبهم ، وحسن في أعمالهم ، وطهارة في سلوكهم ، فهم يؤمنون بالله ،

ويخشونه ، ويعبدون الله حقاً ، ويتجهون بأرواحهم إلى الملا الأعلى ،

ويعلمون أن المصير إلى الله فيعملون ليوم لقائه ، ليفوزوا بجنات النعيم .

(٢) ومن الناس عتاة متمردون ، ماتت قلوبهم ، وعميت أبصارهم ، فهم لا

يؤمنون ، ولا يهتدون ، وهؤلاء لا يؤمنون بالآخرة ، فينكر الله عليهم

ضلالهم ، ويدخلهم نار جهنم ، وبئس المصير .

(٣) مسئولية الدعاة هي البلاغ المبين ، وهذا يقتضى بيان الموضوع ،

واظهار تميزه من غيره ، ومدى ارتباطه بالعقيدة ، والدفاع عنه .

وبهذا يتم دور الدعاة ، والله يوفقهم .

آيات الله محيطية بالناس

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ۚ وَمِنَ

النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ۚ كَذَٰلِكَ ۚ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا

الصلوة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلايةً يَرْجُونَ ثَجَرَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٥٩٢﴾
لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٥٩٣﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا ومصيرهم في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان الدلائل الكونية التي خلقها الله للناس ، وأحاطهم بها ، ودعاهم إلى رؤيتها ، والاستفادة بدلالاتها .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات النعم التي خلقها الله للناس بصورة مباشرة فلقد أنزل الله سبحانه من السماء ماء ، وأخرج به من الأرض ثمرات مختلفا ألوانها ، وخلق الجبال متغايرة ألوانها ومعادنها ، ... والعلماء يدركون ذلك ، ويؤمنون بالله ، ويقرأون القرآن الكريم ، ويعبدون الله ، ويرجون الربح والفوز في الآخرة ، ويعلمون أن استقامتهم وطاعتهم لله تجارة رابحة ، وكسب أكيد لأن الله يجازي المحسن بإحسانه ، ولن يظلم الله أحدا من خلقه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير يخاطب الله به رسوله ﷺ ليرفع عنه حزنه على كفر الناس ، ويعلم أن اختلاف الناس أمام هداية الله أمور مقدرة في علم الله تعالى كاختلاف النبات ، والثمر ، في ألوانه ، وأحجامه ، وفوائده ، فهكذا الناس يختلفون أمام هدى الله تعالى .

وهو خطاب كذلك لكل من يرى ويشاهد ، ليسارع إلى الإيمان بالله بعد رؤيته آيات الله الموجودة معه ، وحوله ، ... ومن المعلوم أن الحس أقوى طرق الإدراك .

والرؤية المقصودة رؤية بصرية حسية لأنها تتعلق بالمحسوسات الكونية القريبه التي يراها الناس ، ويشاهدون آثارها ، فالماء ينزل من السماء مطرا ويتجمع فى بحيرات ، ويسير أنهارا فوق الأرض ، أو تحتها ، لرى الحقول فتخرج زرعا ، ونباتا ، وشجرا ، وتثمر ثمرا مختلفا ألوانه ، وأحجامه كالعنب ، والبلح ، والرمان ، والزيتون ... الخ .

وفى هذه المرئيات المختلفة دلالات عديدة على قدرة الله تعالى ، تحتاج من الإنسان أن ينظر إلى هذا الثمر ، ويؤمن بموجده ، وخالقه ، ويتأمل فى أسرار تنوعه ، واختلاف لونه ، وطعمه ، وحجمه مع أن الأرض واحدة ، والعوامل البيئية واحدة ... يقول الله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَبَّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرْعٌ وَخَيْلٌ صَبَوَانٌ وَغَيْرُ صَبَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(١) .

﴿ وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾
أى إن الله كما خلق من الثمر ألوانا مختلفة خلق من الجبال ألوانا مختلفة ، ومحتويات متنوعة .

فمن الجبال كتل حجرية بيضاء ... ومنها الأحمر ... ومنها الأسود شديد السواد .

(١) سورة الرعد ، الآية ٤ .

وتحتوى جبال على الحديد ، وأخرى على النحاس ، وثالثة على الذهب والبتروىل ... الخ .

ومن الجبال رمال ناعمة متحركة ، ومنها صخر جامد صلد ، وتلك كلها من آيات الله الخالق العظيم .

وقد ذكرت الآية وسط حديثها عن تعدد ألوان الجبال قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ لبيان أن فى البياض ، أو فى الحمرة ، أو فى السواد ، أو فى غير ذلك اختلاف فى درجة اللون ، ومستواه ، وكله من خلق الله تعالى .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ أى إن الناس ، والدواب ، والأنعام مختلفة فى ألوانها أيضا ، وهذا الاختلاف بقدره الله تعالى لا يقدر عليه أحد .

﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ أى إن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى عن معرفة ، ويلتزمون بشريعته بيقين ، وهم الذين يعلمون أن قدرته شاملة ، وعبادته ضرورة حتمية على العابدين .

يقول ابن عباس رضي الله عنه : يخافنى من خلقى من علم جبروتى ، وعزتى وسلطانى ، وعظمنى ، وقدرنى ، وخشونى ، ومن ازداد علما ازداد خشية^(١) .

ويقول الحسن البصرى رضي الله عنه : العالم من خشى الرحمن بالغيب ، ورجب فيما رجب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا

تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٢) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٣٠١ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : صنع رسول الله ﷺ شيئا فرخص فيه فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك ﷺ فجمع الناس ، ثم خطب فيهم ، فحمد الله ، ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إنى لأعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية^(١) .

والعلماء هم الذين تدبروا فى مخلوقات الله ، ونظروا فى الكون ، وعلموا أن الله هو القادر العظيم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ أى إن الله قوى غالب ، رحيم غفور ، يفعل ما يريد ، ويحكم بما يشاء ، لا يفر مخلوق من قضائه ، وهو سبحانه غفور رحيم ، يحب العفو ، ويبدل سيئة التائبين حسنات .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ أى إن المؤمنين الذين يقرأون القرآن الكريم ، ويعبدون الله تعالى ، ويحافظون على فرائضه ، وينفقون فى سبيله من أموالهم سرا وجهرا ، يرغبون فى الفوز بثواب الله تعالى ، ودخول جنات النعيم ، هؤلاء يربحون فى تجارتهم مع الله ، وسينالون على استقامتهم خيرا ، وسيحقق رجاؤهم فى كسب دائم لا يهلك ، ولا ينقطع .

وفى الآية إلى إشارة هوية العلماء الخاشعين ، وبيان أنهم النالون للقرآن الكريم ، العاملون بما يعلمون ، الراغبون فى الفوز الأكبر يوم القيامة .

(١) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب ما لم يواجهه الناس ج ٨ ص ٢٦ .

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

أى إن أعمال المؤمنين فى الدنيا تعود عليهم بالكسب والفوز فقد وفوا عملهم ، واستحقوا الأجر عليه ، والله يوفيههم حقهم ، ويزيدهم نعيما وثوابا من كرمه ورحمته ، ويغفر ذنوبهم ، ويشكر استقامتهم بإثابتهم ، ويسكنهم فى جنات النعيم

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أحاط الإنسان بالآيات الكونية التى تمد الإنسان بالخير والفضل ، وأنزل من السماء ماء ، وأنبت فى الأرض ثمرات مختلفة ألوانها ، وجعل الجبال متعددة الألوان والمنافع ، وخلق الإنسان ، والأنعام ، والدواب مختلفة كذلك فى صورها ، وألوانها ، وعطائها لتتنظروا بأبصاركم ، وتشاهدوا بأعينكم ، وتعلموا قدرة الله ، وتؤمنوا به ، لأن العلم طريق الإيمان والعلماء يعرفون الله ، ويعبدونه وحده ، ويكسبون أجرا وثوابا ... يقرأون القرآن الكريم ، ويخلصون فى العبادة والتقوى ، ويتوكلون على الله ، ويعملون فى تجارة لا خسارة فيها ، وبذلك يلتقى العلم والعمل فيوفيههم الله أجورهم ، ويغفر ذنوبهم ، ويسكنهم فى جنات النعيم مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تبين الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دور العلم فى الإيمان

العلماء ورثة الأنبياء ، والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فقد أودع الله فى كونه دلائل قدرته ، وحث الإنسان على النظر فيها

ليتهدى ... ولم يستفد من هذه الدعوة إلا العلماء الأصفياء ، فقد عاشوا مع دلائل الآيات ، وشاهدوا الإعجاز الإلهي في كونه الكبير ، وعادوا بالآيات إلى خالقها ، وآمنوا بالله العظيم .

والمراد بالعلم العلم الذى يهدى إلى الله ، ويعرف الناس بدينه وشريعته ومن هنا كانت خشية العلماء ، وكان مدحهم بما علموا ، فقد جعلهم العلم مصدر الخير . يقول النبي ﷺ : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .

والعلم أنواع ثلاثة ، وأحسنه العلم النافع . يقول النبي ﷺ : "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقيّة ، قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب ، أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" (١) .

إن العالم المؤمن يرى ما في الكون من اختلاف لا يعرف سببه ، فيؤمن بقدرة الله ، وتستمر رؤيته لهذا الاختلاف في الجبال ، والحيوان ، والإنسان ، وكل مخلوق ليبدل على قدرة الله الذى خلق ، وقدر ، وهدى .

انظر إلى العصفور والطيور في ألوانها وأشكالها ... وانظر إلى الفراشات في تنوعها وجمالها ... وانظر إلى الوجود لتعلم قدرة الله ، وتؤمن بالله ، وتحقق الإيمان به سبحانه وتعالى .

تأمل في جمال الكون وانظر .: إلى آثار ما صنع الملك

(١) صحيح البخارى . كتاب العلم . باب من علم وعلم ج ١ ص ٢٧ .

عيون من لحين شهادات .: بأن الله ليس له شريك

الركيزة الثانية

الترغيب فى طاعة الله تعالى

تبين الآيات قدرة الله تعالى الداعية إلى الإيمان ، وترغب فى عبادته وتوضح ما ينال المؤمنين من ثواب جميل فى الآخرة ، فالحمد لله غفور ، يعفو عن ذنوب عباده ، ويرحمهم بسبب إيمانهم ورجوعهم إليه سبحانه وتعالى .

كما أنه سبحانه وتعالى يعدهم بالريح والفوز إن هم أقاموا الصلاة ، وحافظوا على العبادات ، وأنفقوا فى سبيل الله ، ويعرفهم أنهم بعملهم هذا يتاجرون مع الله تجارة رابحة لا بوار فيها ولا خسران .

إن الله تعالى سيوفيه أجورهم ، ويضاعف حسناتهم ، ويكرمهم ، ويشكر لهم طاعتهم بعبائهم ، وفضله .

وانى فى هذا الموقف أتصور تاجرا ينشط حين يتأكد من رواج تجارته وكثرة كسبه ... إنى أتصوره حريصا على الكسب يفكر فى إنمائه ، ويحبه ويحافظ عليه ، وذلك ما نراه فى المؤمنين الصادقين .

إن المجاهد الذى يبذل روحه فى سبيل الله يتاجر بها لأنها ستعود عليه بحياة عند الله تعالى ، مليئة بالفرح والسرور ، والسعادة والحب والخير لدرجة أن الشهيد يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليجاهد ويستشهد مائة مرة لحسن ما رأى عند الله تعالى بسبب استشهاده .

إنها التجارة الربحة والفوز العظيم ، وكفى بالله وكيفا .

عظمة ورثة القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ بإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ۖ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله يوفى العاملين أجرهم ، ويغفر ذنوبهم جاءت هذه الآيات لبيان أن القرآن الكريم حق وصدق ، وأن الذين يهتدون بهديه ، ويبتغون منهجه يستحقون الثواب العظيم ، وأن الذين يكفرون بالله ، ولا يتبعون تعاليم القرآن لهم عذاب أليم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ مصدقا للكتب السابقة ، وأن الله جعله وحبا ثابتا للمؤمنين الذين اصطفاهم الله للإسلام ، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على عباده فمن استقام منهم على منهج القرآن الكريم فله

(٦٠٠)

نعيم دائم فى الآخرة حيث طيب المقام ، وجمال الحلى ، وحسن اللباس ،
والسرور فى جنات لا يمسه فيها نصب ولا يمسه فيها لغوب .
وأما الذين كفروا فيلقون فى نار جهنم ليدوم عذابهم حيث لا تقبل منهم
توبة ، ولا ينفعهم إيمان فقد مضى زمن الإيمان وقبول التوبة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

يَدَيْهِ ﴾ أى إن القرآن الكريم الذى أنزلناه إليك يا محمد هو الحق من ربك ،
المشتمل على دين الله تعالى ، المصدق لما أنزله الله فى الكتب السابقة ،
المهيمن عليها ، يصدقها ، ويكملها ، ويصحح ما تغير منها ، فهو المصدر
الموحى به ، وهو الدستور لدين الله تعالى ، المهيمن على الكتب كلها .
وقد تضمنت الآية عددا من الملامح اللغوية الدالة على عظمة القرآن
الكريم ... وأهمها :

(١) بيان أن القرآن الكريم وحى الله أنزله على رسول الله ﷺ ، وفى هذا
توضيح لعظمة القرآن الكريم لأنه كلام الله .

(٢) إن القرآن الكريم نزل على محمد ﷺ لتأكيد رسالته ، وبيان صدقه ،
وتوضيح أنه أفضل الرسل وأنه خاتم الرسل ، وكتابه خير الكتب التى
أنزلها الله تعالى .

(٣) تسمية القرآن الكريم بـ ﴿ الْكِتَابِ ﴾ مصدرا بـ "ال" لبيان أنه الكتاب
المعهود ، المعروف بسموه ، وعظمته ، وهيمنته .

(٤) قوله تعالى : ﴿ هُوَ ﴾ ضمير قصر ، يفيد ويؤكد قصر الحق على ما فى
القرآن الكريم .

(٥) قوله : ﴿ مِنْ ﴾ للبيان لتفيد توضيح ما فى الموصول "الذى" من الإبهام

ليكون المعنى والذى أوحينا إليك هو الحق ، فقدم الموصول الذى حقه أن يكون صفة للكتاب للتشويق ليقع التوضيح بعد الإبهام ، ويتمكن معناه فى النفس ، وتستقر دلالاته المقصودة فى العقول والأفهام .

(٦) تعريف ﴿ الْحَقُّ ﴾ بـ "ال" المفيدة للجنس ، ومجيئه معرفة للموصول

والصلة يفيد قصر الحق على هذا الكتاب الموحى به .

(٧) تفيد الآية بمفهومها أن غير القرآن من الكتب بعيدة عن الحق إلا إذا شهد

لها القرآن الكريم وأكد صدقها كما قال تعالى : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

أى مصدقا للكتب السابقة ، والقرآن الكريم يصدق النصوص الباقية فى الكتب السابقة كما نزلت ، وأما ما حرف منها فلا يصدق .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى إن الله عليم بأعمال وأقوال عباده

بصير بما يقع منهم فيشرع لهم الأحكام ، وينزل لهم الكتب ، ويرسل الرسل وفق

حكمته وتقديره ... وتأکید التذييل بـ ﴿ إِنَّ ﴾ واللام فى قوله : ﴿ لَخَبِيرٌ ﴾ ليتأكد

الناس أن الله خبير بأحوالهم وأقوالهم ، بصير بأعمالهم وسلوكهم ، وعليهم أن يعملوا بما أمرهم الله به ليفوزوا فى الآخرة .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ "ثم" للترتيب

الرتبى ، وهو يعنى أن الله تعالى أحاط القرآن الكريم بالعلو والرفعة فبعد أن أنزله من عنده على رسوله قدر له أن يبقى فى الدنيا مع الناس محفوظا مصانا ، واختار سبحانه لحمله أمة اصطفاها من عباده لترثه ، وتعمل به .

والذين اصطفاهم الله هم المؤمنون الذى اختارهم ، وهادهم للإسلام ،

وربط قلوبهم بحب القرآن الكريم ، والتمسك به ، وحفظه ، والمحافظة عليه وهذه

(٦٠٢)

الأمة المصطفاة ليست على درجة واحدة فى الاستقامة لأنها تنتوع إلى أنواع ثلاثة ، تعرف بمقدار تمسكها بالكتاب ، ومحافظتها مع اصطفائهم .
وهذه الأنواع هى :

النوع الأول : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أى ومن الذين اصطفينا

جماعة ظالمة لنفسها ، ترتكب بعض المعاصى ، وترتكب بعض المحرمات ، وتترك بعض الواجبات ، فتتورط فى العقوبة ، ويقبل الله منها التوبة .

النوع الثانى : ﴿ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ أى ومن الذين اصطفاهم الله جماعة

لا ترتكب المعاصى ، وتتجنب المحرمات ، ولا تترك الواجبات ، ولكنهم لم يصلوا إلى منتهى درجات القرب من الله ، فلا يكثرون من النوافل ولا يبالغون فى الزهد ، اكتفوا فى تدينهم بالإسلام والإيمان ، وقصروا فى مقامات الإحسان .

النوع الثالث : ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى ومن الذين

اصطفاهم الله الواصلون للغايات ، المحافظون على كافة تعاليم الله ، المداومون للطاعة ، التاركون للمباحات خوفا من الوقوع فى الشبهات ، وهؤلاء قد نفعوا أنفسهم ، وقدر الله لهم الفوز الكبير .

إن الأنواع الثلاثة هم الأمة التى اصطفاهم الله ، واختارها لحمل كتابه ، وورثهم حفظه ، والمحافظة عليه .

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال عن هذه الطوائف الثلاث كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم فى الجنة^(١) .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب التفسير . باب من سورة فاطر ج ٥ ص ٣٦٣ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية على المنبر : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا
الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ رَبِّي اعْبُدْ ۚ وَالْحَقُّ لِلَّهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ذَا جَلَالٍ ۚ ﴾ : "سابقنا سابق
، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له" (١) .

وروى البغوي بسنده عن ثابت رضي الله عنه : "أن رجلا دخل المسجد فقال : اللهم
ارحم غربتي ، وأنس وحشتي ، وسق إلي جليسا صالحا .

فقال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا ، لأنا أسعد بك منك ، سمعت رسول
الله ﷺ يقرأ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ رَبِّي اعْبُدْ ۚ وَالْحَقُّ لِلَّهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ذَا جَلَالٍ ۚ ﴾ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ رَبِّي اعْبُدْ ۚ وَالْحَقُّ لِلَّهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ذَا جَلَالٍ ۚ ﴾ .

يقول العلماء : أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما
المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله
الله الجنة . يقول الله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ۚ إِنَّ رَبَّنَا
لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۚ ﴾ .

وقال عتبة بن صهبان رضي الله عنه : سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله
عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ رَبِّي اعْبُدْ ۚ وَالْحَقُّ لِلَّهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ذَا جَلَالٍ ۚ ﴾ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ رَبِّي اعْبُدْ ۚ وَالْحَقُّ لِلَّهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ذَا جَلَالٍ ۚ ﴾ .

ف قالت : يا بني كلهم في الجنة ، أما السابق فمن مضى على عهد
رسول الله ﷺ ، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة ، وأما المقتصد فمن تبع أثره من

(١) البعث والنشور للبيهقي . باب قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ رَبِّي اعْبُدْ ۚ وَالْحَقُّ لِلَّهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ذَا جَلَالٍ ۚ ﴾ ج ١ ص ٨٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد . مسند أبي الدرداء ج ٢٦ ص ٢٧ .

(٦٠٤)

أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمتلي ومثلكم ، فجعلت نفسها معنا^(١) .

﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى أن هذا التنوع فى الأمة المصطفاة بتقدير الله ، واردة وهو العليم الحكيم .

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ الإشارة إلى توريث الأمة كتاب الله تعالى لبيان ما فى ذلك من فضل خص الله به الأمة الإسلامية ، ولذلك جاء خبر اسم الإشارة جملة مصدرية بالضمير ﴿ هُوَ ﴾ ووصف الفضل بالسمو ، والعظمة والكبر .

وقد أعد الله لعباده الذين اصطفاهم لوراثة القرآن الكريم الجزاء الحسن والمآل الطيب ... وهو :

(١) دخول الجنة : يقول الله تعالى : ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أى أن الله تعالى يدخلهم جنات عدن ، وهى أوسط الجنان ، وأعلىها لتكون مأواهم ، ومستقرهم .

(٢) التمتع بالحلى والزينة : يقول الله تعالى : ﴿ تَحُلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ أى أن الذين اصطفاهم الله واختارهم لكتابه ، يدخلون الجنة ، ويلبسون فيها الحلى المزينة ، المكونة من الذهب واللؤلؤ ، وغيرها مما يرغبون ، ويشاءون .

(١) مسند أبى داود الطيالسى . كتاب أحاديث النساء ج ٣ ص ٩٢ .

(٣) لبس الحرير : يقول الله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أى أن

هؤلاء الناس يلبسون الحرير فى الجنة جزاء لهم على ما عملوا فى الدنيا .

(٤) تحقيق الأمن والطمأنينة : يقول الله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أى أن المؤمنين بعد استقرارهم

فى جنات عدن ، يشعرون بالأمن والطمأنينة ، فلا ينتابهم هم ، ولا يسيطر عليهم خوف ، فيحمدون الله أن أزال خوفهم ، ونجاهم من الهموم ولذلك يعلنون شكرهم ، وثناءهم على الله ، وحمدهم له ، لأنه غافر لذنوبهم مستحق للشكر منهم على ما يقدره لهم .

(٥) خلودهم فى الجنة : يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ

مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمُسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى أن المؤمنين

يحمدون الله أن جعل الجنة دار إقامة دائمة لهم ، لا يرون فيها تعباً ولا يصيبهم إعياء ولا فتور ينالهم .

فإن قيل : هل يتمتع المؤمنون جميعاً بهذا الجزاء الكبير مع أن منهم

ظالماً لنفسه ، ومنهم مقتصد ؟

أقول : يدخلهم الله الجنة جميعاً ، لأن الظالم يقبل الله توبته . يقول الله

تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا

رَحِيمًا ﴾ ^(١) ... والمقتصد يضاعف الله له الحسنات بحسن نيته ، وبهذا يجزى

الجميع الجزاء الأوفى .

(١) سورة النساء ، الآية ١١٠ .

(٦٠٦)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم مصدقا للكتب السابقة ، ومهيما عليها ، وجعله دستور الدين ، وأساس الإيمان ، وجعله إرثا ، باقيا ، محفوظا في المؤمنين الذين يتفاوتون في درجة إيمانهم ، وقد أعد الله لهم جزاء حسنا طيبا يستحقونه في الدنيا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

هيمنة القرآن الكريم

أرسل الله رسله للناس ، وأنزل عليهم كتبه ، تهدي للحق ، وترشد إلى الصراط المستقيم ، وقد ختم الله كتبه بالقرآن الكريم ، كما ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهِيمًا عَلَيْهِ ۝ ^(١) ﴾ ومعنى الهيمنة التأكيد ، والتقوية ، والتكميل ... وهذا يؤدي إلى تأكيد ما صح منها ، ونفى أى دخيل عليها ، وتكميل أى نقص لا يوجد فيها .
وقد تحققت هذه الهيمنة بطرق متعددة :

أحدها : حفظ القرآن الكريم ليبقى بنصه الذى نزل به من عند الله تعالى محفوظا بين الناس ، وبذلك تبقى كلمات الله الأخيرة للناس كما نزلت ، وبها تصح الكتب السابقة .

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

ثانيها : بيان الكمالات الواجبة لله ورسله جميعا لتكون هي أساس الحكم في صدق الكتب السابقة .

ثالثها : اشتغال القرآن الكريم على عقائد واضحة ، وشريعة كاملة ، وخلق كريم تأكيد لهذه الهيمنة لأن الكتب السابقة خلت من جوانب دينية عديدة ولذلك رجع أصحابها إلى القرآن الكريم في قضايا التشريع ، والأمور الحياتية المختلفة .

الركيزة الثانية

علو مقام المحافظين على القرآن الكريم

المحافظة على القرآن الكريم محافظة على الدين كله ، فهو الدستور الثابت ، والوحي المنزل المستقيم ، وقد اختار الله تعالى لحمل هذا القرآن عباده المؤمنين ، وأودع فيهم أمانة حفظه ، والمحافظة عليه ، وبشرهم بالخير في الآخرة ، فقد أعد لهم جنات عدن يسكنون فيها ، وزينهم بالحلّى والجواهر وألبسهم الحرير ، وأكرمهم بالأمن والطمأنينة ، وغفر ذنوبهم ، وعفا عنهم ، ووضعهم في عليين ، وآتاهم كل ما يريدون بلا تعب ، ولا لغوب .

إن القرآن الكريم أمانة في أعناق الأمة ، وهي مسئولة عن القيام بكافة حقوقه .

الأمة مسئولة عن تربية بنيتها به ليسلكوا طريقه ، وينهجوا منهجه .

وهي مسئولة عن الالتزام بما جاء فيه من نظم وتشريعات .

وهي مسئولة عن تطبيقه في كافة النظم المالية ، والتجارية ، والقضائية .

ولا يصح أن يتعامل المسلمون بغير ما أنزل الله والقرآن في أيديهم .

ولا يجوز أبدا أن يتصور مسلم أن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى أفضل وأكثر نفعا من الحكم بالقرآن الكريم .

(٦٠٨)

لا يصح هذا أبدا ، وواجب أمة الإسلام المحافظة على القرآن الكريم كما ورثوه عن رسول الله ﷺ .

جزاء الكافرين

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٦٠٨﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ الْنَذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٦٠٩﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦١٠﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة الجزاء الحسن الذى قدره الله للمؤمنين الذين اصطفاهم الله لوراثة القرآن الكريم ، والمحافظة عليه ، جاءت هذه الآيات لبيان ما يصيب الكافرين من أهوال يوم القيامة بسبب ضلالهم ، وكفرهم فى الدنيا . إن الله عليم بجميع الناس ، ومحاسبهم على أعمالهم وسلوكهم ، ومعاقبهم بما يستحقون .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الكفار مخلصون فى النار باقون فى سعيها ، لا يموتون فيستريحون ، ولا تخفف عنهم فيرتاحون ، ويستمر صراخهم ، وتعلو استغاثتهم ، ويطلبون أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا ويستقيموا بعدما بان لهم الحق ، فيرد الله

(٦٠٩)

طلبهم ويعرفهم بأنهم عاشوا فى الدنيا ، وجاءهم الرسول ، ونزل عليهم الكتاب ، وبلغتهم الدعوة ، ولم يؤمنوا وهم اليوم فى دار الحساب والجزاء فليذوقوا جزاء أعمالهم ، وليس للظالمين فى يوم القيامة من ينصرهم أو يشفع لهم .
إن الله سبحانه وتعالى عليم بعباده ، عليم بالغيب كله ، فى نية الإنسان وفى كل مكان ، وزمان ، وحكمه هو الحق والعدل .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ أى إن الذين كفروا بالله ورسوله ، وأنكروا كتاب الله تعالى ، وجدوا نعم الله عليهم أعد الله لهم نار جهنم ، وألقاهم فيها خالدين ، مستمرين .

وقدمت الآية ﴿ لَهُمْ ﴾ على المبتدأ لبيان أن النار قد أعدت لهم خاصة ، ويفهم من ذلك أن النار التى يعذب فيها عصاة المسلمين نار أخرى غير هذه النار التى يعذب بها الكافرون .

﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ أى أن هؤلاء الكفار يستمر عذابهم ، وتدوم عقوباتهم ، فكلما احترقت جلودهم بدلناهم جنودا غيرها مع استمرار اشتعال النار بهم ، ويستمر حالهم هكذا فلا هم يموتون ، ويقضى عليهم فيستريحون من العذاب ، ولا تنطفئ النار ، أو تخفف فيرتاحون من سعارها وشدتها .

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ أى أن هذا جزاء كل كافر ظالم لنفسه وهو جزاء عدل يستحقه كل كافر .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا ﴾ أى يستمر إحراقهم ، وهم يصرخون ، ويتألمون ، ويطلبون ما ينجيهم من الله ويقولون ما حكاه الله على لسانهم :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى يطلبون من الله أن يخرجهم من جهنم ، ويعيدهم إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم ، ويعملوا أعمالا صالحة غير التى كانوا عليها فى الدنيا ، بعدما بان لهم الحق ، وعلموا الصواب .

يرد الله طلب الكافرين ، ويوبخهم ، ويقول لهم : ﴿ أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرْ ﴾ ؟ ... الاستفهام لإنكار طلب الكافرين ، والمعنى أقصرنا عمركم ؟ ... ولم نعمركم فى الأرض مدة طويلة ، يمكن لكل صاحب عقل يريد الحق أن يفكر ، وينظر ، ويهتدى ، ويتذكر .
يبكت الله الكافرين ، ويستهزئ بهم فقد جاءتهم فى الدنيا الآيات بدلالاتها الأقوى مما رأوه من عذاب .

﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ أى لم يترككم الله لعقولكم ، وانما أرسل لكم الرسول ، يتكلم بلغتكم ، ويحاوركم ، ويبين لكم الآيات ، والبراهين فى أنفسكم وفى الكون ، ويثقل عليكم كتاب الله تعالى ، ويخوفكم من الحساب والعقاب ... ومع كل هذا تمسكتكم بالكفر ، ولم تسمعوا الدعوة ، ولم تؤمنوا بدين الله تعالى .
﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى فذوقوا العذاب ، وعيشوا فى نار جهنم ، فليس لكم ناصر ، أو معين . يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ ^(١) .

وتبين الآية سبب ما هم فيه ، وذلك بإبراز الاسم الظاهر ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ مكان الضمير "لهم" ليعلم الناس جميعا إن الظلم يورد صاحبه موارد التهلكة ، وليس بعد الكفر ذنب آخر .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لقد أعذر الله على عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين ، لقد أعذر الله إليه ، لقد أعذر الله إليه^(١) .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى أن الله تعالى عليم بكل شئ ، ما ظهر وما خفى ، وما اتضح وما بقى في النوايا ، ويعاقب المستحقين للعقوبة بدقة وحكمة .

وبينت الآية علم الله بما في الصدور لبيان أن العقوبة على العمل مرتبطة بما في صدر صاحبها من قصد ، بخلاف عقوبة الناس في الدنيا فهي قائمة على الظاهر ، أما الباطن فلا يعلمه إلا الله ، ولذلك فهو . سبحانه . جعل النية أساس العقوبة والحساب .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يعاقب الكافرين بنار جهنم التى أعدها لهم ، وأخلدهم فيها معذبين فلاهم يموتون فيستريحون ، ولا تخفف عنهم النار فيقل عذابهم ، وللكافرين أمثالها ... وعلم الله محيط بجميع عبادته .

وفي يوم القيامة يصرخ الكافرون من عذاب النار ، ويطلبون من الله أن يعيدهم للدنيا ليتداركوا ما فاتهم ، ويؤمنوا بالله ، ويصلحوا أعمالهم ... فيرد الله طلبهم ، ويعرفهم بأنهم مكثوا في الدنيا عمرا طويلا كان يمكنهم فيه أن يؤمنوا ،

(١) سورة محمد ، الآية ١١ .

(٦١٢)

إلا أنهم أبوا ذلك ، ولذلك يعذبهم الله ، ويذيقهم عذاب السعير ، ويبين لهم أنه عليم بكل شئ ، وهو سبحانه مطلع على المقاصد ، وعلیم النوايا ، ويعاقب عليها ... فليتذكر ذلك العقلاء ، وليحذروا أن يكونوا مع الكافرين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة تقدير الخالق العظيم

يحرم الإنسان نفسه من الخير حين يغتر بذاته ، أو يغره الشيطان الرحيم إنه في حالتي الغرور يغفل عن حقوق الله عليه ، ويضيع نفسه بعدم تقديره لله الخالق العظيم .

إن الله عليم بكل شئ ، وقدره ماض ، وحكمه ثابت ، وكل ما يحدث فهو مراد الله تعالى ... ولذلك كان من الضروري أن يعرف الإنسان ربه ، ويعبده ، ويطيعه ، ويتيقن من أن كل شئ بيده ... يقول الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(١) ، ومعرفة الله تعالى تقتضى الإيمان بكل كمال يليق به سبحانه فهو العليم بكل شئ ، ولن يغيب عن عمله شئ ، ولذلك يحاسب بدقة ، ويعاقب بعدل .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

الركيزة الثانية

العذاب الشديد للكافرين

تبين الآيات العذاب الشديد الذى أعده الله للكافرين ، وميزه بالديمومة والاستمرار ليعيش الكافر فى لهيب جهنم المستعرة ، ونار الجحيم الشديد ... ومع استمرارية النار تستمر حياة الكافرين بأجسادهم وأرواحهم ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنُهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾^(١) ... فلا تنتهى أجسادهم بالفناء والحريق ، ولا تهدأ النار فيرتاحون ... إنهم يجزون على معاصيهم فى الدنيا ، فكما استمروا على الكفر والمعاصى ، وفعل المنكرات ، والإصرار على الشهوات يعاقبهم الله باستمرار حياة أجسادهم وأرواحهم فى نار ملتهبة بلا توقف أو انقطاع .

إن الكفار وهم فى النار يستغيثون ، ويصرخون ، ويطلبون العودة إلى الدنيا بعدما رأوا الحقيقة فى الآخرة ، ويرد الله طلبهم ، ويعرفهم أنهم رأوا من الآيات ، وعاشوا عمرا يكفى لمعرفة الحقيقة الجليلة التى ارشدت إليها الآيات العديدة فى الكون ، وفى كتاب الله تعالى .

لا عذر لكافر أو عاص إن مات على كفره ، ومعاصيه ، فقد بلغتهم الدعوة ، وعرفوا الحق ، ومكث الدعاة فى الناس يأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، ومع ذلك استمروا على الكفر ، وصدوا الناس عن دين الله تعالى ، واستكبروا فى الأرض ، وعتوا عتوا كبيرا ، إن الله يرد طلبهم ، ويقول لهم : ﴿ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾^(٢) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٠﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَتَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١١﴾^(٢) .

(١) سورة النساء ، الآية ٥٦ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات ١٠٨ . ١١٠ .

خيبة الكافرين وسوء فهمهم

يقول الله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۖ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٦١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۖ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٦٣﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عذاب الكافرين في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان ضلال الكافرين في الفهم ، والتقدير ، والسلوك ، وعدم نظرهم للحقائق وعدم استفادتهم من الآيات والعبر .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله جعل الناس متعاقبين في الخلق ، يخلف بعضهم بعضا ، ودعاهم إلى الإيمان ، وقدم لهم الحجج والبراهين ، فمن أبى الإيمان ورضى بالكفر فقد غضب الله عليه ومقته ، وكتب له البوار والخسران . وتبين الآيات أن الكافرين يعبدون أصناما لا قيمة لها ، ولا دليل عليها ، ويكفرون بالله الذي رفع السماء وأمسكها ، وحفظ الأرض من الزوال ، وليس له شريك ، ولا إله إلا هو رب العالمين .

الدلالات اللغوية

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى هو الله تعالى الذى خلق الناس ، ومكنهم من التصرف في الأرض ، وأنعم عليهم ، وجعلهم خلفاء له فيها ، يخلف بعضهم بعضا ، ويأتى بعضهم عقب بعض ، وأرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين .

﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى فمن كفر بالله ، وجدد الآيات ، وعارض الرسل ، وعبد الأصنام من دون الله ، فليتحمل عاقبة كفره ، وهو ضنك الدنيا ، وعذاب الآخرة .

﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أى لا يزيد الكفر أصحابه إلا بغض الله الذى يخزيهم ، ويذنبهم ، ويهينهم .

﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أى لا يزيد الكافرون بسبب كفره إلا خسارة أنفسهم في الآخرة .
ولقد كررت الآية كفر الكافر مع كل عقوبة لبيان أن سبب مقت الله ، والخسارة هو كفرهم .

وقد كان المشركون يتكبرون على المسلمين ويشاققونهم ، ويبينون لهم أنهم أعظم قدرا من أن يتبعوهم ، وأنهم لن يفارقوا دين آبائهم ، وبحسبون ذلك مقنا منهم للمسلمين فجازاهم الله بزيادة المقت على استمرار الكفر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ

إِلَى الْإِيْمَنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١﴾ ، يعني : ينادون في المحشر ، ويوضح لهم أن

مقت الله عذاب أليم يروونه اليوم ، فأين ما كانوا فيه يمترون ؟

وكان المشركون يتصورون أن كفرهم سيعلى شأنهم ، ويجلب لهم النفع والفوز ، وأن المسلمين هم الخاسرون فجازاهم الله بعكس أعمالهم ومرادهم وجعلهم خاسرين ، وحصر الخسران على أعمالهم ، كما حصر مقت الله عليهم بسبب كفرهم .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا

مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد ، وواجههم بالحقيقة الذى تدعوهم إليها واسألهم عن حقيقة الآلهة التى عبدوها من دون الله تعالى .

وقل لهم : أخبرونى أيها المشركون عن أصنامكم التى تعبدونها من دون الله ، وعرفونى بأى شئ خلقوه فى الأرض ، ولو كان ذبابة حتى تجعلوها شريكة لله ، وتعبدوها .

والسؤال إنكار لسفاهة المشركين ، وهم يعبدون الأصنام ... لأن هذه الأصنام لا تخلق شيئاً ولو حقيراً . فكيف تكون إلها ؟

وإذا ثبت عجز الأصنام ، وهم يقرون بذلك ... فكيف يكون الإله عاجزاً ؟

﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ؟ ... أى هل لهذه الأصنام اشتراك مع

الله فى خلق شئ واحد ... ؟ ... وهذا سؤال لإنكار ذلك أيضاً لأن الله ذمهم ، وذم آلهتهم ، وبين لهم أنها أصنام لا تضر ، ولا تنفع ، ولا تملك شيئاً ، وبذلك ثبت عدم ألوهية الأصنام فهى لا تشارك الله فى الخلق ولا تشركه فى الألوهية .

﴿ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴾ ؟ ... أى هل آتينا المشركين

كتابا يشهد لأصنامهم بالصدق ؟ ... وأين هو إن كان ؟ ... ولا وجود له .
والمقصود بهذه الأسئلة إبطال عبادة المشركين للأصنام ، لأن العبادة
تكون بحكم العقل ، أو بدلالة النص ، ولا حكم للعقل في عبادة الأصنام لعجزها
وعدم قدرتها على فعل شئ ... ولا وجود لنص يأمر ويوجه لعبادة الأصنام .

﴿ بَلْ إِن يَبْدُوَ أَظْلُمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى إن الظالمين

كفروا بالله تعالى ، واتبع الأبناء الآباء ، وتوارثوا الكفر ، وقلد المتأخرون
السابقين في الكفر والضلال ، وغرهم الشيطان ، وزين لهم ما يفعلون .

ولما سفه الله الأصنام والأوثان ... ذكر الناس بعظمة الله . فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ أى إن الله يصون

الأرض والسماء ، ويحفظهما من الزوال ليستمر انتفاع الإنسان بهما .
وفى إمساك السموات والأرض في فلك ثابت ، وخلاء واسع دلالات
شاهدة على قدرة الله تعالى .

﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ﴾ أى ولئن زالت

السموات والأرض لا يقدر على حفظهما إلا الله تعالى ، ولا يقدر على أمسكهما
أحد بعد الله تعالى .

﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى حلیم بعباده

رحيم بهم ، لا يعاجلهم بالعقوبة ، وانما يدعوهم إلى الإيمان ، ويقدم لهم الأدلة
والبراهين العديدة ، ويغفر ذنوبهم ليؤمنوا ويؤمنوا .

(٦١٨)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله خلق الخلق ، وجعلهم يخلف بعضهم بعضا ، وأرسل لهم رسله مبشرين ، ومنذرين ، فمن كفر فعاقبه كفره عليه .
إن الكفر لا يحقق لصاحبه إلا غضب الله ، والخسارة الدائمة ، ويؤكد ضلال الكافرين لأنهم يعبدون أصناما لا تخلق شيئا ، ولا قيمة لها ، ولا يحتاج الله إليها ، ولم يشهد لها كتاب منزل ، أو عقل واع .
إن عبادة الأصنام قائمة على التقليد ، وغرور الشيطان الذى أبعد الناس عن الإيمان بالله تعالى الذى يمسك السماء والأرض من الزوال ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أعذر من أنذر

لا عذر لمن لقي الله مذنباً عاصياً ، فلقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وأنذر وبشر ، وفصل في صور العذاب ، وبين ما في الجنات من نعيم ، ولم يبق للإنسان عذر يعتذر به .
فليس له أن يعتذر بالجهل ، لأن الدين أصبح معلوما ، واضحا .
ولا عذر له في عدم علمه بنتائج الأعمال لأن الله فصل العمل ، وحدد المصير ، وأكد البعث والحساب والعقاب .

ولا عذر له في إلقاء المسؤولية على غيره لأن المسؤولية فردية ، وكل إنسان مسئول عن عمله ، ومجزى به .
إن الحساب دقيق ، والدين معلوم ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها .

الركيزة الثانية **لا عقل في عبادة الأصنام**

تدل عبادة الكافرين للأصنام إلى فقدانهم العقل والتفكير ، وتركهم للنظر والتأمل ، وقد أدى بهم هذا الشأن إلى اتخاذ آلهة غير الله تعالى .
ودلالة عبادتهم للأصنام على سفههم واضحة ... والعقل يتساءل عن الأسباب التي جعلت الكفار يفعلون ذلك :
- هل خلقت الأصنام شيئا لا نعرفه ؟ والمطلوب تعريف الناس بهذا المخلوق إن وجد ... وإذا لم يثبت للأصنام خلقا لا يصح اتخاذها آلهة .
- هل اشتركت الأصنام مع الله في خلق شيء ؟ ... وأين ؟ ... ومتى ؟ ...
إن هذا لم يحدث ...
- هل نزل كتاب من الله على الأصنام ، أو على من عبدوهم يشهد لهم ويدعو الناس إلى عبادتهم ؟ ...
إن اتخاذ الأصنام آلهة مع الله أمر مردود ، وكل ما يفعله الكافرون كبر واستعلاء .

الركيزة الثالثة **بيان رحمة الله بالناس**

يرحم الله عباده ، ويقدر لهم الخير ، ويتجلى ذلك فيما خلقه لهم .
فهو . سبحانه . يمسك السماء والأرض من الزوال ، ولا يقدر غيره على ذلك ، وزوالهما زوال للحياة الدنيا ، والإبقاء عليها استمرار لهذه الحياة .

وهو . سبحانه . حفظ للناس دينه ، وكتابه ، وجعله صوت الدعوة الخالد إلى يوم القيامة ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾^(١) .
وهو الذى يقبل التوبة ، ويغفر الذنب ، ويعفو عن كبير من ذنوب عباده إنه غفور رحيم .

كذب الكافرين وضلالهم

يقول الله تعالى :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ
إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۚ ﴿١٦﴾ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
وَمَكَرَ السَّيِّئُ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِقَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ
كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۚ ﴿١٨﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ
ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَرْسَلَ
اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۚ ﴿١٩﴾﴾

- ١ -

سبب نزول الآيات

الآيات تتحدث عن كفار مكة فإنهم لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم وتناولوا عليهم قالوا : لعن الله اليهود والنصارى أنتهم الرسل فكذبوهم ، وأقسموا

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٢ .

(٦٢١)

بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدي دينا منهم ، وكان ذلك قبل مبعث النبي ﷺ فلما بعث الله محمدا ﷺ كذبوه فأنزل الله الآيات تتحدث عن ذلك ، وتبين كذب الكافرين وضلالهم^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة خيبة الكافرين في عبادتهم للأصنام مع أنها لا تضر ، ولا تنفع ، ولا تخلق ، ولا دليل عليها من العقل أو من الشرع جاءت هذه الآيات لتبين أكاذيب المشركين ، وسوء خلقهم ، وعدم استفادتهم بالأمم السابقة .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن مشركي مكة كانوا يقسمون بأغلظ الأيمان قبل مبعث النبي ﷺ على أنهم إن جاءهم رسول ليكونن أهدي من غيرهم ، وأحسن إيماننا من سواهم ، فلما جاءهم محمد ﷺ ازداد نفورهم ، واستكبروا في الأرض ، ومكروا بالمؤمنين ، ولم يتأملوا في الأمم السابقة ، ولم يستفيدوا بخبرها ، ولم يتعظوا بما حدث لها ... وتبين الآيات أن الله قضى بعدم استئصال الأمم الكتابية ، ولذلك يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة بعد انقضاء آجالهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجُلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾^(٢) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٣٠٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٣٤ .

الدلالات اللغوية

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ

مِّنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أى وحلف المشركون في مكة بالله ، وكان من عادتهم القسم بالله في مهام أمورهم ، وقد بذلوا كل جهدهم في هذا اليمين ، وأكدوه ، وجأهروا به ، وأغلطوا فيه ، وذكروا أنهم إن جاءهم رسول بدين من الله ، وكتاب منزل لنكونن أكثر قبولا له ، وإيماننا به من آية أمة من الأمم الأخرى التى جاءها دين من الله تعالى .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أى لما جاءهم رسول من

الله ازدادوا له معارضة ، وقاوموه مقاومة شديدة ، ولم يؤمنوا به .

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أى وصار حالهم إلى كبر

واستعلاء ، ومكر سئ ، وأخذوا يصدون الناس عن الدين ، وظهر أنه لا عهد لهم ، ولا صدق في إيمانهم ووعدهم .

﴿وَلَا سَحِيقُ الْمَكْرِ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أى ولا تعود عاقبة المكر السيئ

إلا على أهله دون غيرهم .

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ ؟ ... أى فهل ينتظر

المشركون من أهل مكة مصيرا آخر غير المصير الذى لحق بالأمم السابقة حين كفرت بدين الله تعالى ، والله عدل ، وهو العليم الخبير .

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أى إن

سنة الله واحدة في خلقه لا تتبدل ، ولا تتحول . فمصير المشركين مثل مصير من سبقهم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ؟ ... أى أفقد هؤلاء عقولهم ، وجهلوا ؟ ... ولم يسيروا وينظروا في مصير الأمم السابقة التى أهلكها الله بسبب كفرها مع أنها كانت أشد منهم قوة وأكثر سلطانا وأثرا .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾
أى إن الله قادر على فعل ما يريد ، وهو سبحانه يقضى في الناس بعدله ورحمته ، لا يستعصى عليه أمر ولا يعجزه شأن ، لأن ملك السموات والأرض له ، وإذا أراد أمرا قال له : كن فيكون .

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يعاقب المشركين على كفرهم ، وهو عليم بهم ، قادر على إنفاذ قضائه فيهم .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى يمهل عباده ، ويغفر لهم ، ويدعوهم إلى التوبة ، ولو عاقب الناس على أعمالهم في الدنيا لهلك البشر جميعا ، ولما وجد على ظهر الأرض إنسان .

﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى إن الله يؤخر عقوبة الناس إلى وقت حدده عند سبحانه وتعالى .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ أى إذا حل الأجل الذى حدده الله تعالى فإن كلا يجازى بما يستحق إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، والله بصير بالناس ، عليم بكل ما كانوا يعلمون .

(٦٢٤)

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن أهل مكة كانوا يقسمون بأغلظ الأيمان قبل مبعث النبي ﷺ أنهم سيكونون من أحسن الأمم إيماناً لو جاءهم رسول ، فلما جاء محمد ﷺ كفروا به واستكبروا ، وصدوا الناس عن سبيل الله تعالى ، ومكروا مكراً شيناً بالدين وأصحابه ، إلا أن مكرهم سيئول إليهم ...
إنهم لم ينظروا إلى ما حل بالأمم السابقة ليرى أن ما وقع لهم سيحل بهم ، فهم أضعف منهم سلطاناً ، وأقل منهم قوة ، ولن تتغير سنة الله في أهل مكة ... ولقد حدد الله للعقاب موعداً يقع عنده فاعلموا ذلك واعملوا له وآمنوا بالله رب العالمين .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان صفات الكافرين

الكفر بالله نتاج صفات عديدة في الكافر ... وهي :

(أ) الوعود الكاذبة ، فهم يعدون ولا يوفون .

(ب) الفجر في الخصومة ، لأنهم يحاربون من يعارضهم ، ويشندون في اللجج والخصومة .

(ج) الكبر على الناس ، لأنهم ينكرون الحق ، ويضيعون الحقوق ، ويتعالمون على الناس .

(٦٢٥)

(د) المكر والخداع ، لأنهم يعملون على خداع الناس ، واغرائهم بأمور لا يقدرون عليها .

(هـ) عدم تعمقهم فى الفهم ، لأنهم يعلمون ما حدث للمشركين فى الأمم السابقة ولا يتعظون بها .

وبيان الآية لهذه الصفات إرشاد للمؤمنين ، ولغيرهم ليتجنبوها ولا يقعوا في بعضها أو كلها .

وقد جاء التحذير من هذه الصفات في القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية ليكون زادا للدعاة ، يستفيدون به في دعوة الناس لله رب العالمين .

الركيزة الثانية

التاريخ دروس وعبر

اهتمت الدراسة الإنسانية بعلم التاريخ لإصلاح الحاضر والمستقبل به ، ولذلك سماه ابن خلدون (علم العمران البشرى) .

وقد نبه القرآن الكريم إلى أهمية النظر في أحداث الأمم السابقة واستنباط الدروس والعبر منها في مسيرة الحياة .

والعاقل من اتعظ بغيره ، وتجنب طرق الضرر ، واتبع سبل الهدى .
إن الاتعاض بالماضى منهج عملى ، لأن تكرار التجربة ممكن ، وما حدث يجوز إحداثه مرة أخرى .

ومن هذا الباب حديث القرآن الكريم عن قصص الأمم الماضية ، فقد أوردها ، وركز على مفاصل العبرة فيها ليستفيد بها أهل القرآن الكريم ... يقول الله تعالى : ﴿ فَأَقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(١) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٦ .

(٦٢٦)

الركيزة الثالثة **الله يهمل ولا يهمل**

قضى الله للأمم الكتابية أن لا يستأصلهم بعذاب يقضى عليهم ليبقى
الناس ويكلفوا بالدين ، لأنه سبحانه لو استأصلهم لانتهدت الدنيا .
وقد فتح الله باب التوبة ، وأمر باستمرار الدعوة ، ولم يعجل بالعقوبة
رحمة بالناس عسى أن يفتح الله قلوبهم ويهديهم للجميع ، فيتوبون ويرجعون .
إن الله عدل رحيم ، وأخذة أليم شديد ... والعاقل من يسعى لخيره
ومستقبله .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "فاطر" بتوفيق الله تعالى .

سورة "يس"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٦٢٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -**التعريف بسورة "يس"**

سورة "يس" سورة مكية نزلت بعد سورة "الجن" ، وقد أجمع الصحابة والتابعون والمفسرون على مكية السورة ، إلا أن ابن عطية روى أن جماعة قالت : إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ^(١) نزلت في بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلون إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ فقال لهم ﷺ : "دياركم تكتب آثاركم" ^(٢) ... وليس الأمر كما قال هؤلاء فقد نزلت الآية بمكة ، ولكن الاحتجاج بها كان على بنى سلمة في المدينة ^(٣) .

وللسورة عدة أسماء هي :

- (١) تسمى السورة "يس" وهو اسمها المشهور ، وهو اسم مكون من حرفي الياء والسين ينطقان مقطعين ، وسميت السورة بهذين الحرفين لعدم ورود الحرفين معا على هذه الصورة في سورة أخرى ...
- وقد ثبت أن النبي ﷺ قال : إقرأوا سورة "يس" على موتاكم ^(٤) .
- (٢) وتسمى السورة بـ "قلب القرآن" . يقول النبي ﷺ : "إن لكل شيء قلبا ، وقلب القرآن يس" ^(٥) ، وقد ذكر حجة الإسلام الغزالي رحمه الله سبب هذه التسمية فقال : إن المدار على الإيمان الاعتراف بالحق والنشر ، وهو

(١) سورة يس ، الآية ١٢ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب المساجد . باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد ج ١ ص ٤٦٢ .

(٣) التحرير والتتوير ج ٢٢ ص ٣٤١ .

(٤) سنن أبي داود . كتاب الجنائز . باب القراءة عند الميت ج ٣ ص ١٩١ .

(٥) سنن الترمذى . كتاب أبواب فضائل القرآن . باب ما جاء في فضل ياسين ج ٥ ص ١٦٢ .

(٦٣٠)

مقرر فى السورة على أبلغ وجه وأحسنه ، ولذلك شبهت بالقلب الذى به صحة البدن وقوامه^(١) .

(٣) وتسمى السورة بـ "العظيمة" . يقول النبى ﷺ : "إن فى القرآن لسورة تدعى العظيمة عند الله تعالى ، وهى سورة يس"^(٢) .

(٤) وتسمى السورة بـ "المعمة" لأنها تعم صاحبها بخيرى الدنيا والآخرة ، وتدفع عنه بلوى الدنيا والآخرة .

وعدد آياتها عند الكوفيين ثلاث وثمانون آية ، واثنان وثمانون آية عند غيرهم .

ووجه اتصال سورة "يس" بسورة "فاطر" متعدد منها :

الوجه الأول : أن سورة "فاطر" بينت أن الله أرسل محمدا نذيرا للناس فقال تعالى :

- ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾^(٣) .

- ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾^(٤) .

- ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾^(٥) .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٢ ص ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق ج ٢٢ ص ٢٠٨ .

(٣) سورة فاطر ، الآية ٣٧ .

(٤) سورة فاطر ، الآية ٤٢ .

(٥) سورة فاطر ، الآية ٤٢ .

وجاء في سورة "يس" قوله تعالى :

- ﴿ يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝ ۞ ^(١) .

الوجه الثاني : جاء في سورة "فاطر" قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝ ^(٢) ، وفي سورة "يس" جاء قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝ ^(٣) .

الوجه الثالث : تكلمت سورة "فاطر" عن جزاء المؤمنين في الآخرة فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝ ^(٤) لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ^(٥) ، وجاءت سورة "يس" وعرضت الموضوع فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَكُونُونَ ۝ هُمْ فِيهَا فَكَّهُةٌ وَهُمْ مَّا يَدْعُونَ ۝ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ۝ ^(٦) .

(١) سورة يس ، الآيات ١ - ٦ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ١٣ .

(٣) سورة يس ، الآية ٣٨ .

(٤) سورة فاطر ، الآية ٢٩ ، ٣٠ .

(٥) سورة يس ، الآيات ٥٥ - ٥٨ .

الوجه الرابع : تتحدث السورتان عن عذاب الكافرين وهوانهم في الآخرة فيقول الله تعالى في سورة "فاطر" : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝٣٦ ۝٣٧ ۝٣٨ ۝٣٩ ۝٤٠ ۝٤١ ۝٤٢ ۝٤٣ ۝٤٤ ۝٤٥ ۝٤٦ ۝٤٧ ۝٤٨ ۝٤٩ ۝٥٠ ۝٥١ ۝٥٢ ۝٥٣ ۝٥٤ ۝٥٥ ۝٥٦ ۝٥٧ ۝٥٨ ۝٥٩ ۝٦٠ ۝٦١ ۝٦٢ ۝٦٣ ۝٦٤ ۝٦٥ ۝٦٦ ۝٦٧ ۝٦٨ ۝٦٩ ۝٧٠ ۝٧١ ۝٧٢ ۝٧٣ ۝٧٤ ۝٧٥ ۝٧٦ ۝٧٧ ۝٧٨ ۝٧٩ ۝٨٠ ۝٨١ ۝٨٢ ۝٨٣ ۝٨٤ ۝٨٥ ۝٨٦ ۝٨٧ ۝٨٨ ۝٨٩ ۝٩٠ ۝٩١ ۝٩٢ ۝٩٣ ۝٩٤ ۝٩٥ ۝٩٦ ۝٩٧ ۝٩٨ ۝٩٩ ۝١٠٠ ﴾ (١) .

ويقول في سورة "يس" : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝١ ۝٢ ۝٣ ۝٤ ۝٥ ۝٦ ۝٧ ۝٨ ۝٩ ۝١٠ ۝١١ ۝١٢ ۝١٣ ۝١٤ ۝١٥ ۝١٦ ۝١٧ ۝١٨ ۝١٩ ۝٢٠ ۝٢١ ۝٢٢ ۝٢٣ ۝٢٤ ۝٢٥ ۝٢٦ ۝٢٧ ۝٢٨ ۝٢٩ ۝٣٠ ۝٣١ ۝٣٢ ۝٣٣ ۝٣٤ ۝٣٥ ۝٣٦ ۝٣٧ ۝٣٨ ۝٣٩ ۝٤٠ ۝٤١ ۝٤٢ ۝٤٣ ۝٤٤ ۝٤٥ ۝٤٦ ۝٤٧ ۝٤٨ ۝٤٩ ۝٥٠ ۝٥١ ۝٥٢ ۝٥٣ ۝٥٤ ۝٥٥ ۝٥٦ ۝٥٧ ۝٥٨ ۝٥٩ ۝٦٠ ۝٦١ ۝٦٢ ۝٦٣ ۝٦٤ ۝٦٥ ۝٦٦ ۝٦٧ ۝٦٨ ۝٦٩ ۝٧٠ ۝٧١ ۝٧٢ ۝٧٣ ۝٧٤ ۝٧٥ ۝٧٦ ۝٧٧ ۝٧٨ ۝٧٩ ۝٨٠ ۝٨١ ۝٨٢ ۝٨٣ ۝٨٤ ۝٨٥ ۝٨٦ ۝٨٧ ۝٨٨ ۝٨٩ ۝٩٠ ۝٩١ ۝٩٢ ۝٩٣ ۝٩٤ ۝٩٥ ۝٩٦ ۝٩٧ ۝٩٨ ۝٩٩ ۝١٠٠ ﴾ (٢) .

الوجه الخامس : السورتان مكيتان ، ولذلك كان موضوعهما الرئيسي قضايا العقيدة ، والدعوة إلى توحيد الله تعالى ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه وقد خلت السورتان من الأحكام الشرعية ، وموضوعات سورة "يس" هي موضوعات العقيدة ، وبخاصة الحديث عن اليوم الآخر .

(١) سورة فاطر ، الآية ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) سورة يس ، الآيات ٦٣ . ٦٧ .

فقد تناولت سورة "يس" توحيد الله تعالى ، وبيان صفاته ... يقول الله تعالى :

- ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿١٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ ﴿١٥﴾ ^(١) .
- ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَى ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ﴿١٦﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ﴿١٧﴾ ^(٢) .

وتكلمت عن الرسالة ... يقول الله تعالى :

- ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٨﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٩﴾ تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ﴿٢٠﴾ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ ^(٣) .
- ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ ^(٤) .
- ﴿ يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ ^(٥) .
- ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٢٥﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٢٦﴾ ^(٦) .

(١) سورة يس ، الآيات ٢٢ . ٢٥ .

(٢) سورة يس ، الآية ٦٠ ، ٦١ .

(٣) سورة يس ، الآيات ٦٠ . ٦١ .

(٤) سورة يس ، الآية ١٣ ، ١٤ .

(٥) سورة يس ، الآية ٣٠ .

(٦) سورة يس ، الآيات ٦٩ ، ٧٠ .

وتحدثت عن اليوم الآخر ... يقول الله تعالى :

- ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ٥١ ﴿ قَالُوا يَنْوِيلُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ۚ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ٥٢ (١) .

- ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾ ٥٣ ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِئُونَ ﴾ ٥٤ ﴿ هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ ٥٥ ﴿ سَلِمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ ٥٦ (٢) .

- ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ٥٧ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ٥٨ (٣) .

وتكلمت عن الكتب السماوية ... يقول الله تعالى :

- ﴿ يَسَ ۖ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴾ ٥٩ (٤) .

وبقية أركان العقيدة تأتي في مضمون الآيات ، فتنزل الكتب على الرسل كان بواسطة الملائكة ، ولكل نبي كتاب منزل يضم بين دفتيه الوحي الذي نزل . وتتميز سورة "يس" بضرب الأمثال في أولها وفي آخرها ، وكثرة تناولها لمشاهد الخلق عند الحشر والحساب ، وتنوع أدلتها في إثبات العقيدة ، وتأكيد صفات الله بكمالها وشمولها ... وتناولت سورة "يس" الأمم السابقة بالذكر العام ، بلا بيان الأمم التي تحدثت الآيات عنها ، فنتحدث أصحاب القرية التي

(١) سورة يس ، الآية ٥١ ، ٥٢ .

(٢) سورة يس ، الآيات ٥٥ . ٥٨ .

(٣) سورة يس ، الآية ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) سورة يس ، الآية ١ ، ٢ .

جاءها ثلاثة من الرسل برسالة واحدة ... وتحدثت عن إنكار الإنسان لليوم الآخر ، وأوردت البراهين الواضحة التي ترد إنكار المنكرين ، وثبتت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

وتدور السورة حول الآيات الكونية المحيطة بالإنسان حيث المطر ، والأرض ، والزرع والنبات ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وتذكر الإنسان بالموت ومجيئ الأجل ، والبعث ، وتبشر بالجنة ، وتخوف من النار ... كل ذلك وغيره في نظم فشيبي ، ومعنى دقيق ، يأخذ بالألغاز ويهتدي إلى صراط مستقيم .

وأسلوب السورة يجمع سهولة العبارة ، وجمال النظم مع وضوح المعنى وإظهار العناية ، ولذلك كان للسورة دورها الهام في حياة المسلمين . يقول النبي ﷺ : "إن لكل شئ قلبا ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله تعالى له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات" (١) ... ومن القلب يسرى الدم إلى الجسد كله فيحيا الإنسان سليما معافى .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب فضائل القرآن . باب ما جاء في فضل يس ج ٥ ص ١٦٢ .

(٦٣٦)

- ثانيا -

- التفسير -

عظمة القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ ﴾^(١) .

- ١ -

موضوع الآيتين

الآيتان تبينان إعجاز القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه ، ويشيران إلى علوه وتساميه بالقضايا التي يتضمنها نظمه الكريم .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَسَّ ﴾ هذه هي الآية الأولى في السورة ، وبها سميت السورة ، وهي مكونة من حرفين مقطعين يقرأ كل منهما وحده ، وهما (يا . سين) ولا يصح أن يعد الحرفان كلمة واحدة مكونة من حرفين متصلين ... ولا يصح القول بأنها اسم من أسماء النبي ﷺ ، أو أنها اختصار مرخم من قولنا : "يا سيد" .

(١) يلاحظ أن الجزء الثاني والعشرين ينتهي بنهاية الآية رقم (٢٧) وهي قوله تعالى : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ لبدأ الجزء الثالث والعشرون بالآية رقم (٢٨) ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُودٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ ، وسوف اكتفى بإذن الله تعالى بالإشارة في الهامش إلى الجزء الثالث والعشرين عند بدايته حتى أحافظ على عناصر القصة ، وترابطها ، ولا أجعلها في جزئين منفصلين .

(٦٣٧)

وتقرأ الآية بيا مخففة ، وسين ممدودة ، وهذان الحرفان يدلان على إعجاز القرآن الكريم ، وتثبتان أنه كلام الله تعالى لأنه مكون من نفس الحروف التي يؤلف بها العرب كلامهم ، ومع ذلك عجزوا ويعجزون عن الإتيان بأقصر سورة منه .

وتصدير السورة بالحروف المقطعة إشارة إلى حسن بدء الكلام بما ينبه الإنسان ، ويذهب غفلته ، ويوقظ مداركه ، ليفهم ويستفيد بالكلام المذكور بعده وهو تأكيد رسالة محمد ﷺ .

وفيه توجيه بضرورة الإيجاز في التقديم لأي حديث ، وأهمية توضيح غموضه في إيجاز منعا للملل ، وحتى يقدم المستمع على تفاصيل الموضوع بعد ذلك ليعلم المجل ، ويتبين الغامض الغريب .

وقد ذهب البعض إلى أن التقديم الغامض الموجز يفيد العقلاء والعلماء ، ويشدهم لمتابعة موضوع الحديث ، ويجذب المستمع إليه .

وقد درج علماء الاتصال إلى تشويق المستمع بالإشارة ، والوقوف بالحديث عند نقطة غامضة تحتاج لتوضيح وتفصيل لتفعيل غريزة حب المعرفة عند المستمع ، ليتابع الحديث ، ويعرف الموضوع بعد الفاصل ، أو في أيام لاحقة .

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ هذا قسم آخر جاء بعد القسم في الآية الأولى لبيان

شرف القرآن الكريم ، واطهار علو قدره ، وذلك يتضح في الأمور التالية :
(١) اختيار الإقسام بالقرآن الكريم يدل على عظمته لأن العظيم يتخير لقسمه الشئ العظيم ، وبخاصة إذا كانت غاية القسم إثبات شئ عظيم ، وهو هنا إثبات رسالة محمد ﷺ التي نورت الوجود كله .

(٦٣٨)

(٢) تسمية القرآن باسمه المشهور للدلالة على تلقيه من الله تعالى ، ونقله إلى رسول الله ﷺ ، وتواتره في الأمة متلفظا به على لغة قريش ، التي نزل بها جبريل عليه السلام .

والقرآن اسم غلب على الكتاب الذي أوحى الله به إلى محمد ﷺ ، ليكون مصدر الحكم والدين ، ودليل الهداية والإرشاد ، ومنهج إخراج الناس من الظلمات إلى النور .

(٣) وصف القرآن الكريم بـ ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ يشير إلى أهم المزايا التي اتصف بها القرآن الكريم فهو محكم في ألفاظه ، ومعانيه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ويلاحظ في القسم القرآني أن الله دون عباده يقسم ببعض مخلوقاته ، ويتخير منها مخلوقا له أهميته ليقسم به ليكون دليلا على جواب القسم ، وبذلك يثبت جواب القسم بصيغة القسم وبالدليل المركوز في المقسم به .

وتعاليم القرآن حكمة تامة لأنها تقدم موضوعها ، وتشير إلى ما يدل عليه وتنبئه ، بمنهج واضح ، وأسلوب مستقيم ، وقد أقسم الله بكلامه بعدما صار كيانا في أيدي ، والسنة الناس ، ليبقى هاديا ، مؤثرا ، وأمانة يتحملها المسلمون .

- ٣ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان إعجاز القرآن الكريم ، وتنبهان على تقديسه ، وتقديره والعمل به ، وتشيران إلى خصائصه في كلمات ، فهو معجز ، نزل من عند الله ، وقدّر الله حفظه ، وأمر كتابته وقراءته ، والعمل بأحكامه ، والتحلي بحكمته .

(٦٣٩)

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الرمزية في التوجيه

الناس كلهم أبناء آدم عليه السلام ، وقد قدر الله لهم أن يختلفوا اختلافا كبيرا ، منذ أن خلقهم إلى أن تقوم الساعة ، فهم مختلفون طولا ، ولونا ، وطبعا ، وخلقاً ، وفهما ، وإدراكا . يقول الله تعالى : ﴿ لَتَعْمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ^(١) .

ومن جوانب الاختلاف بين الناس الاختلاف في مستوى الفهم ، والإدراك فمن الناس من توصل إلى اختراع القنبلة الذرية ، وفجر الطاقة ، ووصل إلى أسرار كونية عديدة ، وصعد إلى الفلك الأعلى ... ومنهم من لا يجيد شيئا قط ويعيش كالأعمى على غيره من الناس ، وقد يحسن منظره ، ولا مخبر له .

ومن هنا وجب تنوع الخطاب للناس ، فمن الناس من تكفيه اللمحة الخاطفة ، والإشارة السريعة ، ومنهم من لا يستفيد بالكلام الطويل ، والمواعظ الدائمة .

ومن هذا الاختلاف ، وبسببه أنزل الله الحروف المقطعة ترمز على معان كثيرة يقرها الناس ، ويعلمون بعض أسرارها ، ويسلمون الأمر لله ، ولا يقف أمامها ، ويستفيد منها إلا أولو الأبواب .

(١) سورة الطلاق ، الآية ١٢ .

لقد ظن المشركون حين سمعوا الحروف المقطعة أنها كلمات لا تدل على شئ ، وظنوها منقصة بلاغية ، إلا أن العقلاء كانوا على غير هذا الفهم فاستفادوا من القرآن الكريم وعملوا بما جاء فيه .

إن الحروف المقطعة ترمز إلى معان كثيرة وقف العلماء على بعضها ، وعجزوا عن معرفة كثير منها فتركوه لعلم الله تعالى .
والدعاة يستفيدون من الحروف المقطعة عدة أمور :

الأمر الأول : أن الله خلق الخلق كما يشاء ، واختار رسله ، واصطفاهم من الناس ، وخصهم بصفات الفطنة والذكاء والبلاغة وكفاهم من وحى الله الإشارة لهم ، فقد تلقوها ، وبينوا ببلاغتهم للناس ما نزل مجملا غامضا .

الأمر الثانى : أن يحدثوا الناس بما يقدرّون على فهمه ، ولا يخاطبونهم بما لا يفهمون ، ولذلك رأينا الرسول ﷺ يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويبين لهم الغامض بضرب المثل ، وإيراد القصة ، ويؤكد المعنى لهم بالقسم ، وأساليب البيان المختلفة .

الأمر الثالث : الاستقامة في طاعة الله ، وعدم التردد في تبليغ الدعوة إلى الناس كما أمر الله ... لأن رسول الله ﷺ قرأ الحروف المقطعة على المشركين ، ولم يلتفت إلى معارضاتهم مادام الله قد أمره بقراءتها .

الأمر الرابع : من الضرورة أن يقف الدعاة والمدعوون عند قدراتهم التى خلقهم الله عليها ، فإن عجزوا عن فهم أمر ، أولم يحيطوا بشئ فعليهم أن يسلموا الأمر لله قائلين كما علمهم الله تعالى في قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ ﴾^(١) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

(٦٤١)

الأمر الخامس : على المؤمنين أن يتيقنوا . دعاة ومدعوين . من عون الله ونصره . فقد وعد الله بذلك فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾^(١) ...

ونزول القرآن الكريم عون من الله لرسوله وللمؤمنين ، وخوارق العادات تؤكد هذه الحقيقة .

والكون كله خارق لعادة الناس فقد أوجده الله ، وهده ، ونظم حركته لتكريم الإنسان ، وتيسير حياته ... ألا يحقق كل ذلك الثقة فى معونة الله تعالى للمؤمنين ؟!

الركيزة الثانية **تعظيم القرآن الكريم**

تدعو الآيتان إلى عظمة القرآن الكريم ، وضرورة تقديسه ، وتقديره ، فتقسم بهما ، حيث جاءت الآية الأولى قسما بالحروف المقطعة ، وجاءت الآية الثانية قسما بالقرآن الحكيم ، لأن الإقسام بهما يفيد ما يلي :

(١) **التعظيم والتقديس** ، لأن العظيم إذا أراد أن يثبت أمرا لغيره ، فإنه يقسم بشئ عظيم لديه ليثبت المقسم عليه أمام الآخرين ، ويبين عظمة المقسم عليه ... والمقسم هو الله ، والمقسم عليه هو تأكيد رسالة محمد ﷺ للعالمين ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فافتضى ذلك أن يكون المقسم به عظيما مناسبا للمقسم ، وللمقسم عليه ... وهذا يوضح أن الحروف المقطعة ، والقرآن الكريم ، وهما المقسم بهما عظيمان .

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٨ .

(٦٤٢)

(٢) الدعوة إلى الاهتمام بالقرآن الكريم ، فإن الإقسام بالحروف ، وبالقرآن إرشاد إلى الاهتمام بهما ، وحفظهما ، والمحافظة عليها فهما أساس الدين ، ودعامة الوحي ، والاهتمام بهما اهتمام بالدين كله .
وقد حظى القرآن الكريم من المسلمين بالاهتمام الكامل ، وظهرت المؤلفات العديدة للمحافظة على رسمه ، وكتابته ، وقراءته ، والمحافظة على كل ما جاء فيه .

تكریم محمد ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما أقسمت الآيتان السابقتان بالحروف المقطعة ، وبالقرآن الكريم جاءت هذه الآيات بالمقسم عليه ، وهو إثبات رسالة محمد ﷺ القائمة على منهج الصراط المستقيم ، المنزلة من عند الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل محمدا ﷺ بالمنهج المستقيم ، والدين الحق المنزل من الله تعالى العزيز الرحيم .

(٦٤٣)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو جواب القسم ، ومع دلالة القسم على أهميته ، وضرورة الاهتمام به فقد جاء مؤكدا بأن ، ومظهرا لضمير النبي ﷺ ، وباللام الداخلة على جملة الخبر ، وذلك لجعل المقسم عليه حقيقة واقعية أمام المدعويين ليؤمنوا بأن محمدا ﷺ مرسل من الله تعالى ، وأنه واحد من الرسل ، صدق برسول الله قبله ، وواجب أن يصدق به الناس ، فهو رسول مؤيد بالمعجزة كسائر الرسل ، فمن آمن بغيره ، وكذب به فقد جانب الصواب ، وخالف المعقول .

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى جئت يا محمد بدين قويم ، ومنهج مستقيم وبذلك يتأكد حالك الطيب ، وحسن ما جئت به ليكون التصديق بك مت لازما للإيمان بما جئت به .

والصراط المستقيم هو المنهج الموصل إلى الفوز في الدنيا ، وفي الآخرة الخالى من العوج ، والإسلام هو طريق الهداية في الدنيا وفى الآخرة ... وبذلك يشتمل القرآن الكريم المنزل على دين الله ، ويعرف بعظمة محمد ﷺ .

﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى فبعد أن استوفى القسم جوابه جاء هذا الوصف لتشريف المقسم به ، وبيان أنه منزل من عند الله القوى الغالب ، العفو الرحيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أقسم بالحروف المقطعة ، وبالقرآن الكريم على أن محمدا ﷺ رسول الله ، أيده الله بالمعجزات كسائر الرسل ، وعلى رأس هذه

المعجزات القرآن الكريم الذى أوحى الله به وأنزله عليه ، وتحدى به العرب ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

توضيح مزايا الإسلام

الإسلام دين الله تعالى ارتضاه للعالمين من الجن والإنس ، وختم به الرسالات ، وجعله ملائما لفطرة الإنسان ، ومتوافقا مع كل مشروع يقنع العقل ، ويشبع الحاجات ، ويرضى العواطف والروح ... ويكفى في الإسلام أنه دين الله الذى ختم به الأديان ، وجعله ديناً كاملاً ، تاماً ، صالحاً لكل زمان ومكان ... يقول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ^(١) .

وقد أشارت الآيات إلى العوامل التى حققت للإسلام الكمال والتمام ... وأهمها :
أولاً : الإسلام دين الله تعالى نزل به الوحي ، وسجله فى الكتاب المنزل الثابت على الزمن كله ، ودين الله كامل بكماله ، شامل بعلمه ، خالد محفوظ بأمر الله تعالى .

ثانياً : اختار الله لتبليغ الإسلام رسولا تميز بالصدق والأمانة ، واشتهر بالذكاء والقوة ، فبلغ الدين على وجهه الصحيح كما جاء من عند الله تعالى يقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٩ .

ثالثاً : منهجية الإسلام فى حركته ، وحقيقته ، ومصدره ، والعمل به وتقوم هذه المنهجية على الاستقامة التامة ، والبصر البين ، وتحديد الوسائل السهلة ، وتحقيق الغايات الكبرى ... فهو عليه الصلاة والسلام كان مستقيماً فى خلقه . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(١) ... وكان مستقيماً فى دعوته . يقول الله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۖ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾^(٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَدِلْهُمْ بِلَايَتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٤) .

وثبت أن رسول الله ﷺ كان يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السامة عليهم ، وكان ﷺ يدعو إلى الرفق فى كل شئ ، وما خير ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرها ما لم يكن إثماً ، وكان يسوى فى الدعوة بين الجميع . والإسلام الذى دعا إليه رسول الله هو الاستقامة الدقيقة لأنه لم يأمر إلا بمعروف ، ولم ينه إلا عن منكر ، وكان يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ويصفى الحياة من الرجس والخبائث ما ظهر منها وما بطن ... ولا يغلق باب الخير عن من يريد ، فينادى بالتوبة ، ويحث على الرجوع إلى الله تعالى .

(١) سورة الفلم ، الآية ٤ .

(٢) سورة الغاشية ، الآية ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة الأعلى ، الآية ٩ .

(٤) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

والإسلام مستقيم في صناعة الإنسان يرعاه وهو في بطن أمه ، ويصاحبه في نشأته ، وشبابه ، وهرمه ، وهو مع أسرته ، ومع سائر الناس .
 إن الله اختص دينه بالخيرية الدائمة ، ودعا العالم إليه ، وحدد به المصير في الآخرة ، فمن رضى وآمن فله الرضى والجنة ، ومن سخط وكفر فعليه السخط ، وتحمل العذاب الأليم .

دعوة المشركين من أهل مكة

يقول الله تعالى :

﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦٤﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٦٦﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٦٧﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٨﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿٦٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٠﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة علو شأن القرآن الكريم ، وعلو مقام النبي ﷺ جاءت هذه الآيات لبيان ضلال أهل مكة ، واعراضهم عن الإسلام ، ووضحت سبب ما هم فيه من ضلال .

(٦٤٧)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسوله ﷺ بدعوة أهل مكة ، وهم الذين لم يأتهم رسول قبل محمد ﷺ ، وتوضح ضلالهم ، وجحودهم ، وتؤكد أن العقاب وجب على أكثرهم لعدم إيمانهم ، وقد أخزاهم الله ، وضرب عليهم القيود ، فهم لا ينتفعون بأى نذير يأتهم ، إنما ينتفع بالإنذار من اتباع الذكر ، وآمن بالله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

أرسلناك يا محمد ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾
أى أرسلناك يا محمد لتنذر العرب ، وتعرفهم بدين الله فلقد مضت السنين ، ولم يأتهم رسول يعرفهم دين الله ، ويخوفهم من عذاب جهنم .
والقوم المذكورون هم العرب العدنانيون ، فقد مضت قرون لم يأتهم خلالها رسول ينذرهم ، ويعرفهم دين الله تعالى ، ومن هؤلاء مشركو مكة الذين لم يأتهم رسول يبلغهم دين الله ، وينذرهم عاقبة ما هم فيه من الشرك بالله ، وعبادة الأصنام .

ودعوة الإسلام عالمية للناس أجمعين ، وانما كان الأمر هنا بإنذار العرب وأهل مكة تبعا للمسار الطبيعى في حركة الدعوة حيث كان الأمر بدعوة القريبيين منه ، فلقد بدأ الله بأن أمر الرسول بالاستعداد للدعوة إذا قال الله له : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٦٤٨﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦٤٩﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٦٥٠﴾ (١) . ثم توسع الأمر بدعوة أهله الأقربين فقال الله تعالى له : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) ثم توسع الأمر أكثر فقال الله تعالى : ﴿ لِنُذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٣) . ثم كان التوسع أكثر فقال الله تعالى : ﴿ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (٤) فهذه مراحل متتابعة ، مناسبة لحركة الدعوة ، ولا تعارض بين مرحلة ، ومرحلة أخرى .

لقد عرف الله رسوله عموم رسالته فقال الله له : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٥) ، وقال ﷺ : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ومنها وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة " (٦) . وهكذا أخذت الدعوة مسارا علميا عمليا ، فأنشأت جماعة من العرب بدأت بأهل مكة العدنانيين ، وانضم إليهم الأنصار ، وهم من القحطانيين بعد أن هاجر مسلمو مكة إلى المدينة ، وبعد ذلك أسلم العرب ، ودخلت القبائل فى دين الله تعالى ، ثم كانت الانطلاقة الكبرى ، وحمل العرب الإسلام إلى العالم كله ، وتحققت عالمية الإسلام فى حياة النبى ﷺ فاستقبل الوفود ، وأرسل الرسائل إلى كافة الملوك والرؤساء ، يأمرهم ومن وراءهم ، ويرشدهم إلى الإسلام ، ويدعوهم

(١) سورة المدثر ، الآيات ١ . ٧ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٧ .

(٤) سورة القصص ، الآية ٤٦ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

(٦) صحيح البخارى . كتاب التيمم ج ١ ص ٧٤ .

إلى اعتناق دين الله تعالى ، وقد أمره الله تعالى بدعوة الناس جميعا فقال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ^(١) .

إن العرب لم يأتهم رسول منذ إبراهيم عليه السلام لأن إسماعيل عليه السلام لم يبعث لجميع العرب ، وإنما بعث لقومه . يقول الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ ^(٢) وقد ادخر الله العرب لتبليغ الإسلام إلى العالم كله .

﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى إن عدم إنذار آبائهم جعلهم غافلين عن معرفة دين الله تعالى ، وأبعدهم عن معرفة الرسل والشرائع السابقة ، ولذلك تغلغت عبادة الأصنام فى قلوبهم ، وقلدوا فيها آباءهم وأسلافهم .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى لقد ثبت قضاء الله فيهم ، ووجبت على أكثرهم عقوبة الله ، لعدم إيمانهم ، وعدم تصديقهم برسول الله ، وفى ذلك إشارة إلى ما سجله الله عن العرب فى اللوح المحفوظ فقد علم سبحانه وتعالى منذ الأزل إن العرب عند دعوة الإسلام سينقسمون إلى قسمين :

القسم الأول : وهو أكثرهم وهم الذين يستحقون العذاب لأنهم لن يؤمنوا وسيستمررون فى عدم الإيمان مع تبليغهم الإسلام ، ودعوتهم إلى عبادة الله تعالى ... ولم يهدم الله لدينه لخبث طويتهم ، وعدم استعداد ضمائرهم للإيمان .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٥٤ ، ٥٥ .

القسم الثانى : وهم عدد قليل ، يؤمن بالله تعالى ، ويصدق بدين الله ، ويعبد الله وحده ، وهؤلاء يستحقون عون الله ونصره ، لإيمانهم وتقواهم .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيّ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾ أى جعلنا حالهم كحال من فى عنقه قيد من حديد يمنعه من الحركة ، والالتفات ، ويمتد هذا القيد من صدره إلى عظمة الذقن فتحدد مسار وجهه ولا يتمكن من تغيير وجهه يمينا أو يسارا .

﴿ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴾ أى إن هؤلاء القوم بسبب القيد الحديدى الذى يطوق رقبتهم ، ويلتصق بأذقانهم يرفعون رءوسهم مشدودة إلى أعلا ، ويعجزون عن تحريكها ، أو الالتفات إلى آيات الله تعالى ... فلا يرون شيئا .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أى حرمانهم من الهداية ، ووضعنا أمامهم وخلفهم موانع تبعدهم عن الاهتداء ، فلا يرون شيئا أمامهم ، أو خلفهم .

يقول الرازى : مانع الإيمان ، إما أن يكون فى النفس ، وإما أن يكون خارجا عن النفس ، وقد جعل الله المانعين أمام المشركين ، وقد تجلى المانع النفسى الباطنى الأول فى الغل الذى جعله الله فى أعناقهم ، كما تجلى المانع الثانى الخارج عن النفس فى السد الذى وضعه الله أمامهم ، وخلفهم ... فهم بسبب هذه الموانع لا يبصرون الآفاق ، ولا يدركون الحقائق ، ولا تتبين لهم الآيات ، ولا يشعرون بالبراهين والحجج^(١) .

إن الأغلال تمنعهم من النظر يمينا ويسارا فهم مقمحون ، والسدود تمنعهم من رؤية ما يوجد أمامهم أو خلفهم ، فلا يهتدون لشيء ، ولا يعرفون آية .

(١) تفسير الرازى ج ٢٦ ص ٢٥٥ بتصرف .

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أى فغطينا أبصارهم فلا يرون ، ولا

يدركون ، وأقفلنا قلوبهم فلا يشعرون ، ولا يعقلون .

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى وسواء

على هؤلاء الذين حق عليهم القول ، إنذارهم أو عدم إنذارهم ، فهم غير مؤمنين فى الحالين فقد طبع الله على قلوبهم ، وعلم خبث نفوسهم ، وسوء استعدادهم ، فأبعدهم عن الإيمان ، وغشى قلوبهم وأبصارهم .

﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ۖ فَبَشِّرْهُ

بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى إنما ينفع إنذارك من آمن بالقرآن الكريم ، وصدق بالله ، وأطاع رسوله ، واستقام على صراط الله المستقيم ، فادع هؤلاء ، وبشرهم بغفران الله ، وبالثوب الجزيل الذى أعده الله لهم .

واتباع الذكر ، وحب استماع القرآن الكريم عامل رئيسى فى الإيمان ، والإقبال على القرآن الكريم إقبال على الدين كله ، وكان المؤمنون ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(١)

أما المشركون فكانوا يكرهون الاستماع لكلام الله تعالى ، وكانوا يوصون بعضهم بما ذكره الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾^(٢) .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

إن القرآن الكريم كتاب الهداية والتقوى ، ومن أقبل عليه يهديه الله للحق ويستقيم على الصراط المستقيم . يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾^(١) .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى يحيى الموتى يوم القيامة ، ويكتب كل أعمالهم المعنوية والعملية التى عملوها فى الدنيا ، ويسجل آثارهم التى فعلوها ، وتركوها للناس ليحاسبهم على ذلك ، ويجازيهم بما يستحقون إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . يقول النبى ﷺ : "من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شئ ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شئ"^(٢) .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى وبيننا كل شئ مهما بلغ عدده ، ومداه ، وحفظناه فى أصل عظيم يؤتم به ، وهو اللوح المحفوظ . ففيه كل ما هو كائن إلى يوم القيامة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسوله بتبليغ الإسلام للناس على منهج بشرى ، وهو التدرج فى التبليغ زمانا ومكانا حسب الظروف والإمكانات ، ولذلك كانت دعوة الأقربين ، ثم العرب ، ثم العالم كله .

(١) سورة محمد ، الآية ١٧ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الخسوف . باب الحث على الصدقة ولو بشق ثمرة ج ٢ ص ٧٠٤ .

(٦٥٣)

وتبين الآيات أن أكثر العرب يتمسكون بالكفر ، وعبادة الأصنام ، ولا يؤمنون ... وقد علم الله ما فى قلوبهم من خبث ، وفساد فأصمهم ، وأعمى أبصارهم ، وجعل الله فى أعناقهم قيودا من الحديد ، تلتف حول رقابهم ، وترفع وجوههم إلى أعلا ، وتعجزهم عن الالتفات يمينا ويسارا ، وجعل أيضا سدا أمامهم ، وسدا خلفهم فلا يرون شيئا ، وبذلك ساء عملهم ، وضلوا ضلالا بعيدا ، لا يرون هدى ، ولا يسلكون طريق الرشاد ، فهم لا يؤمنون ، ولا يسمعون .

أما المؤمنون الذين يحبون استماع القرآن الكريم ، ويخشون الله تعالى ، فلهم مغفرة من الله ، وأجر كريم .
وسينال كل فريق ما يستحق من جزاء فى الآخرة ، وقد سجل الحفظة كل أعمال الإنسان وآثارهم المعنوية والعملية ، وهى مسجلة فى اللوح المحفوظ فى دقة تامة ، والحساب عليها دقيق عادل .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عالمية الإسلام

عالمية الإسلام تعنى أنه دين نزل للعالم كله ، وقد ثبتت هذه الحقيقة من اللحظة الأولى لإعلان الدعوة ، فقد بين الرسول ﷺ للناس أن دعوته للناس كافة ، ولذلك أقر بالعقيدة الواحدة التى جاء بها الرسل جميعا ، ووضع الأحكام والقواعد التى تنظم شئون الناس جميعا على اختلاف أماكنهم وعاداتهم ، وطبائعهم .

ولا صحة لما يزعمه خصوم الإسلام من أن الإسلام خاص بالعرب ،
ويستدلون بقوله تعالى : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾^(١) وأمثال ذلك ...
وزعمهم مردود بوجوه :

الوجه الأول : ليس فى الآية ما يمنع إنذار غير العرب ، فمن المسلم أن
يؤمر الرسول بدعوة قومه ، ومرة أخرى بدعوة غيرهم ، ولا يدل ذلك على عدم
دعوة غيرهم .

الوجه الثانى : جاءت آيات تدل على أن دعوة الإسلام عالمية ، وذلك
مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) ، وقوله تعالى :
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٣) . والأحاديث كثيرة
ومادمننا نستدل بآيات القرآن الكريم ، فمن الواجب الأخذ بمدلول هذه الآيات مع
الأخذ بدلالات غيرها وليس بين ذلك تناقض أو اختلاف .

الوجه الثالث : الآيات فى مجملها تشير إلى الحركة بالدعوة على أساس
بشرى إذ لابد من إيجاد الداعية المؤمن ، ودعوة المقربين منه ، والانتساع
بالدعوة شيئاً فشيئاً حتى تشمل العالم كله ، وتحقق العالمية المقررة .
إن الإسلام دين السلام ، وهو دين يحقق العدل ، وينشر السلام ، ويعبد
الناس لله رب العالمين .

(١) سورة يس ، الآية ٦ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .

(٦٥٥)

الركيزة الثانية **إنما الأعمال بالنيات**

جرت عادة الناس فى الحياة الدنيا أن يحكموا على الأمور بما يرونه من ظواهر ومظاهر ، لأنهم لا يدركون غير ذلك ، ولأن المعانى مودعة فى القلوب لا يعرفها إلا الله رب العالمين ... ولذلك كان حكم الناس على الظاهر هو أساس الحكم ودعامته .

أما حكم الله تعالى فهو شامل لحركة الظاهر وارتباطه بما فى النوايا والمقاصد لأن علم الله بما فى الصدور كعلمه بالظاهر المشاهد ... يقول النبى ﷺ : "إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى"^(١) ... ولذلك يقضى الله بحكمه ، ويقيم الحجة على الناس بلا رد ولا اعتراض .

إن الله يطلع على القلوب ، ويقدر لأصحابها ما يستحقون بها ، فتظهر أعمالهم موافقه لباطنهم الذى يعلمه الله تعالى ... ولذلك تجد الكافر راضيا بكفره ، وترى العاصى منطلقا فى معاصيه ... وفى هذه الحالات ينشط الشيطان فى إغراءاته ، ويزين للعصاة معاصيهم ، وللكافرين شركهم وبعدهم عن الله تعالى . إن كثيرا من العصاة لا يعرف الناس ما بقلوبهم ، وفى أحيان يؤثرون فى غيرهم لأن العامة يتأثرون بالظاهر ، وقد يكون مغريا .

ولا تفسير لفساد ظاهر من مدعى الإسلام إلا بالحكم بنفاقه لأن ما ظهر منه ليس هو الحقيقة ... ولا يمكن تصور مسلم صحيح الإسلام يدعو إلى الفجور ، ويرفض تحكيم الشريعة ، وينصر الفساد والمفسدين تحت مسميات الحرية ، وحقوق الإنسان وفساد المنظمات العالمية .

(١) صحيح البخارى . المقدمة . باب بدء الوحي ج ١ ص ٦ .

إن الإسلام يكرم الإنسان ، ويطهر باطنه وظاهره ، ويحافظ على كافة حقوقه ، ويرضى عقله وجوارحه بصورة عادلة دقيقة ، ولذلك كانت المزايدة عليه باطلة ... ولو فهم المزايدون الإسلام ، وحكموا بالعدل لاستقاموا على منهج الله ، وسلكوا طريق الصالحين المستقيم .

إن الإسلام أعدل القضايا في حياة الناس ، وهو في أمس الحاجة لدعاة يفهمونه ويعملون له ... ويوصلونه للناس بحقيقته ، ووضوحه .

الركيزة الثالثة

إقامة الموازين العادلة يوم القيامة

ستنتهى الدنيا لا محالة ، وتأتى الآخرة بمشاهدها ، حيث الحساب الدقيق والميزان العادل الذى لا ظلم فيه ولا جور ... يقول الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿٩﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ^(٢) .

إن الله يحاسب الناس على أقوالهم ، وأعمالهم ، وآثارهم ويحضر ذلك أمام أصحابه في عرض واضح ، واحصاء دقيق ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ ^(٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ ^(٤) .

إن يوم القيامة حق لا ريب فيه ، والإيمان به واجب ، والعمل للفوز بالجنة عمل مشروع .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧ .

(٢) سورة القارة ، الآيات ٦ . ١١ .

(٣) سورة الزلزلة ، الآيات ٦ . ٨ .

قصة أصحاب القرية التي أرسل الله لها ثلاثة من الرسل

تناولت سورة "يس" قصة أصحاب القرية التي أرسل الله لهم ثلاثة من الرسل ، وضرب الله بقصتهم مثلاً أمام مشركى مكة حتى لا يكونوا مثلهم وقد جاءت القصة فى تسع عشرة آية بدأت بالآية رقم (١٣) ، وانتهت بالآية رقم (٣٢) ...

وايراد قصة أصحاب القرية فى سورة "يس" جاءت مرتبطة بالآيات قبلها لأن الآيات السابقة بينت ضلال أهل مكة ، وتمسكهم بالكفر ، وعبادة الأصنام فناسب ذلك أن تأتى هذه القصة مثلاً عجيباً مدهشاً ليردع أهل مكة عن كفرهم حتى لا يكونوا مثلهم ... وسوف أقسم هذه القصة إلى مقاطع تتكامل لتقدم القصة ، مصحوبة بأقوال العلماء ، وتفسير الآيات من خلال دلالاتها اللغوية .

المقطع الأول

التعريف بالقرية

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ الأمر فى الآية لرسول الله ﷺ يأمره الله فيه بأن يضرب لأهل مكة حالة تشبه حالتهم ليأخذوا منها دروساً وعبراً ، وتشدهم إلى الحق لغرابتها .

والمثل يراد به تشبيه حالة مركبة من عدة عناصر بحالة أخرى بطريق التشبيه التمثيلى مثل قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۚ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ

يُغْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١﴾ كما يراد به إيراد صورة غريبة تؤثر في الناس ، لا يقصد بها التشبيه مثل قوله تعالى : ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (٢) .

وقد سكت القرآن الكريم عن تحديد هذه القرية ، وعن التعريف بأصحابها ، ولم يحدد الرسل الذين بعثهم الله في وقت واحد لهذه القرية ... لأن الفائدة منوطة بالأحداث لا بالأشخاص ، والتأثير يتم بالحوار الموضوعي لا بالمتحاورين .

إلا أن المفسرين القدامى حاولوا التعريف بالقرية ، وبالرسل فوقعوا في خطأ لا أتصور أنهم قصدوه وأرى أنه دخیل في كلامهم ... فقد ذكروا أن القرية هي "أنطاكية" الواقعة جنوب بلاد اليونان ، وأن الرسل هم رسل المسيح المذكورين في سفر أعمال الرسل ، ورسائل الرسل ، وخطأ هذه القول يأتي من عدة أوجه :

أولاً : إنه يفسر الأحداث ، ويحدد الأشخاص من خلال مصادر مشكوك في صحتها ، وثبوتها .

ثانياً : يوضح هذا التفسير أن المسيح ﷺ أرسل إلى الأمم رسلاً يدعونهم إلى المسيحية في حياته ، وهذا غير مسلم لأن القول بعالمية المسيحية لا يجوز ، ولأن هذا القول لم يظهر في المسيحية إلا بعد المسيح بزمان طويل .

(١) سورة التحريم ، الآية ١٠ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٤٥ .

ثالثا : المصادر المسيحية التي جعلها المفسرون مرجعا لهم تتحدث عن أحد عشر رسولا ، والقصة تتحدث عن ثلاثة فقط ، وهذا الأمر لا يجعلها مصدرا للقصة .

رابعا : اختلاف المفسرين القدامى فى تعيين الرسل الثلاثة يسقط الأقوال كلها لتضاربها .

وازاء هذه الآراء وجدت بعض العلماء المعاصرين يذهبون إلى غير ذلك ويرون أن هذا التأويل للقرية وللرسل ، لا يقوم عليه شاهد من القرآن الكريم ولا تدل عليه إشارة من إشارات القرية أو البعيدة ... وإنما هو من واردات أهل الكتاب ، وأخبارهم .

وهذا الخبر وارد من المسيحية ، وينسب إلى وهب ابن منبه ، الذي تلقاه من المسيحية ، مما يعرف عند المسيحيين بأعمال الرسل ، ورسائل الرسل ، الملحقة بالأنجيل ... لتكون معها ما يعرف بـ "العهد الجديد" .

وهذا التأويل لا يعول عليه ، ما دام غير مستند إلى دليل من القرآن الكريم ذاته ... ومادامت الشكوك فى المصادر التى تكلمت عنه موجودة .

وبعد عدم الأخذ برأى قدامى المفسرين ، يحسن بنا أن نعود إلى القرآن الكريم ، لأن آياته تتكامل فى التبيان . يقول الله تعالى : ﴿ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(١) فكيف لا يكون تبياننا لما فيه ؟

يبين المثل أن القرية واحدة من القرى المبثوثة فى هذه الدنيا ، وأن الرسل هم بعض رسل الله إلى عباده ...

فهذه قرية ، قد جاءها رسل ، مبعوثون من عند الله ، وقد دعوا أصحابها إلى الإيمان ، فلم يلقوا منهم إلا الصد اللئيم ، والقول القبيح ...

(١) سورة النحل ، الآية ٨٩ .

أرسل الله سبحانه إليهم رسولين معا ... فكذبوهما : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ
 آتَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾^(١) أي أمدهما الله برسول ثالث ، يقويهما ،
 ويشد أزرها ... فلم يزداهم ذلك إلا عنادا ، واصرارا على الكفر والضلال .
 والصورة التي يصورها المثل واضحة مشرقة ، لا ينقصها أن يفتقد اسم
 القرية فيها ، ولا أن تغيب أسماء الرسل ... إنها مستغنية عن كل هذا ...
 وإذا كان لا بد من التطلع إلى ما وراء هذه الصورة ، والنظر إلى موقع
 القرية من هذا العالم ، وإلى أشخاص الرسل من بين رسل الله . إذا كان لابد من
 ذلك ، فليكن النظر مقصورا على كتاب الله تعالى ، لأنه المصدر الثابت الباقي
 على صورته التي نزل بها ، وليكن التطلع محجوزا في هذه الحدود ... لا
 يتجاوزها ...

وننظر في القرآن الكريم فنرى :

أولا : القرآن الكريم ، لم يتحدث عن رسولين حملا رسالة واحدة ، إلى
 جهة واحدة ، غير موسى وهارون عليهما السلام ...

وثانيا : أن هذين الرسولين الكريمين ، قد حملا رسالتهما إلى فرعون ..

وثالثا : أنه قد قام من قوم فرعون رجل مؤمن ، خرج على سلطان فرعون
 ، وعلى ما كان عليه قومه من متابعة فرعون في كفره وضلاله ، ودعا الناس
 إلى ما دعا إليه موسى عليه السلام ، وأخذ يؤاره ، ويقويه .

ورابعا : أن القرآن الكريم ، يعقد الصلة في أكثر من موضع منه ، بين
 فرعون ، وبين هؤلاء المشركين من قريش .

(١) سورة يس ، الآية ١٤ .

فإذا نظرنا إلى المثل على ضوء هذه الإشارات المضيئة من القرآن الكريم ، نجد :

أولاً : أن قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ ^(١) يقبل التأويل ، على أن الرسولين ، هما موسى ، وهرون ، كما يقول تعالى : ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ^(٢) .

وثانياً : أن قوله تعالى : ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ^(٣) يقابله فى قصة موسى وهارون مع فرعون رجل ظهر يدافع عن موسى ، وحديث القرآن العظيم عن هذا الرجل أنه من آل فرعون ... أي من خاصته ، وذوى قرابته ... وقد دعا قومه بما دعا إليه موسى وهارون عليهما السلام ودافع عنهما ، وبين أنهما رسل الفوز ، والنجاة .

ويمكن أن يكون هذا الرجل هو الرسول الثالث الذى أرسله الله للناس تأييداً ، وتقوية لموسى وهارون عليهما السلام ، وقد بين القرآن الكريم حديثه المطول إشارة إلى جواز القول برسالته ^(٤) ... وقد أشارت قصة موسى ﷺ إلى مجئ رجل من أقصا المدينة ينصح موسى بالخروج من مصر ... وفى قصة القرية ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ ^(٥) .

وبهذا الرأى تتحدد القرية التى تحدث القرآن الكريم عنها ، وهى "منف" عاصمة مصر القديمة ، وأن الرسل هم موسى وهارون عليهما السلام ، ومؤمن

(١) سورة يس ، الآية ١٤ .

(٢) سورة طه ، الآية ٤٣ .

(٣) سورة يس ، الآية ١٤ .

(٤) التفسير القرآنى للقرآن ج ٢٢ ص ٩١٧ .

(٥) سورة القصص ، الآية ٢٠ .

آل فرعون الذى تكلم بما دعا له موسى ﷺ ، ولا مانع من إرسال الله له .
ومن العلماء من بعد عن هذا الخلاف ، وأثر الاكتفاء بما جاء فى القرآن
الكريم ، وإن أشار إلى رواية المعاصرين . يقول الأستاذ سيد قطب : ولم يذكر
القرآن من هم أصحاب القرية ، ولا ما هي القرية . وقد اختلفت فيها الروايات .
ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات .
وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد
شيئاً في دلالة القصة وإيحائها^(١) .

ومن ثم أغفل هذا الفريق التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها .
فهي قرية أرسل الله إليها رسولين . كما أرسل موسى وأخاه هارون عليهما
السلام إلى فرعون وملئه . فكذبهما أهل تلك القرية ، فعززهما الله برسول ثالث
يؤكد أنه وأنها رسل من عند الله . وتقدم ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد
فقالوا : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ ...

المقطع الثانى

مجئ الرسل ودعوة الرسل للناس

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أى أن الله أرسل
لأهل هذه القرية المذكورة رسولين دعوهم إلى الله ، وأظهروا لهم المعجزات
فكذبوهما ، ولم يؤمنوا بدعوتهم ، ولم يصدقوا رسالتهم ، فأيدهم الله برسول ثالث
وقواهم به ، واشترك الثلاثة فى دعوة أهل القرية إلى الإيمان فلم يؤمنوا ،
واستمروا على كفرهم .

(١) فى ظلال القرآن ج ٢٣ ص ١٤ .

المقطع الثالث

الحوار بين الرسل وبين أهل القرية

دعا الرسل أهل القرية إلى الإيمان بالله تعالى ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ أى قال الرسل الثلاثة لأهل القرية أن الله اختارنا ، وأرسلنا إليكم فنحن رسل الله ، ومعنا المعجزات التى تصدق بنا ، ومعنا دين الله الذى يهدى للتى هى أقوم .

أجاب أصحاب القرية على دعوة الرسل لهم ، و ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنَّا أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ أى إن أهل القرية كذبوا الرسل ، ولم يصدقوا برسالتهم مستدلين بثلاثة أمور :

الأمر الأول : هو أنكم أنتم أيها الرسل بشر مثلنا ، ولا تتميزون عنا بشئ ، وسبب قولهم هذا أنهم يرون أن الرسالة لا تكون للبشر ، ويتصورونها فى الملائكة ، أو فى الأغنياء المشهورين من الناس .

الأمر الثانى : إن الله لم ينزل من عنده كتابا ، ولم يرسل رسولا ، لأنه لو أراد ذلك لاختار للرسالة غيركم .

الأمر الثالث : أنتم تكذبون على الله فى دعوى الرسالة ، ولذلك لن نؤمن بكم ، وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول ، لأنهم كانوا يتوقعون دائما أن يكون هناك سر غامض فى شخصية الرسول ، وحياته ... أليس رسول الله إلى الناس فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير ؟

وكيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها ؟! وكيف تكون شخصية بشرية عادية من الشخصيات التى تمتلئ بها الأسواق والبيوت ؟!

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير . فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة ، ولكنه يتمثل في الحقيقة الواقعية . حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر معه الاستعداد اللدني الذي يتلقى به وحي السماء ، وهو أيسر من أن يكون الرسول ملكا كما كانوا يقترحون !

إن الرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية . وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي ، ولذلك كان اختيار الرسول من هذا الواقع أحكم وأصح .

النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به . وهم بشر . فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجا من الحياة يمكنهم أن يقلدوه .

رد الرسل عليهم و ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وَمَا

عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ أى قال الرسل لأصحاب القرية : نحن رسل الله ، وهو الذى أرسلنا إليكم ، ولن يضرنا كفركم وعنتكم ، وهو سبحانه العليم بكل شأن من شئون خلقه ، وهو خير بنا جميعا ، وليس علينا إلا أن نوصل لكم دعوة الله كاملة تامة على وجه صحيح واضح .

رد القوم على الرسل و ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا

لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى قال المشركون أصحاب القرية للرسل : إنا تشاءمنا بمجيئكم إلينا ، وتألمت نفوسنا من دعوتكم ، ووقع الشجار بيننا بسببكم ، فتركوا هذه الدعوة ، وأقسموا لهم أنهم إن لم ينتهوا عن بث هذه الدعوة لنرجمنكم بالحجارة رجما يميتكم ولنمثلن بكم شر تمثيل ، ونعذبكم عذابا مؤلما شديدا .

أجاب الرسل ، وردوا على القوم ، و ﴿ قَالُوا ﴾ لهم : ﴿ طَيْرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أى سبب شؤمكم ، واختلافكم ، وتشاجركم من أفعالكم لا من قبلنا ، فأنتم أشركتم بالله ، وعبدتم الأصنام ، واجترحتم المعاصي ، وهذا يؤدى إلى الشحناء والتباغض بين أصحابه .

﴿ إِنْ ذُكِّرْتُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ ؟ ... أى من جراء أن ذكرناكم بالحق ، ودعوناكم إلى الهدى ، وأمرناكم بالإخلاص فى عبادة الله تهددون وتتوعدون ، وتخوفوننا بالرجم ، والحاق الأذى بنا .
 إن هذا التهديد إسراف فى الكفر والضلال ، قائم على الجهل والسفه ، لأنهم يهددون بما لم يقدرّون عليه ، وينسون قدرة الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

وقد وصفت الآية القوم بالسرف لبيان أن الكفر والجحود قد تمكن منهم جميعا حتى أمكن وصفهم به .

المقطع الرابع

مجيء رجل من أقصى المدينة

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ المدينة هى القرية التى تدور القصة حول أصحابها ، وفى تسميتها بـ ﴿ الْمَدِينَةِ ﴾ إشارة إلى اتساعها ، وإلى توزع الناس فى مناطقها المختلفة ... وتوضح أن عليّة القوم وأصحاب المال والسلطان كانوا يقيمون فى وسطها ، أما المناطق المتطرفة فهى الضواحي التى جاء منها هذا الرجل ، وتشير أيضا إلى أن إيمان أهل

(١) سورة يوسف ، الآية ٢١ .

الأطراف والضواحي أسرع من إيمان الملا ، ويبدو أن هذا الرج هو الرسول الثالث لقوله عن نفسه بعد ذلك ما حكاه الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾^(١) .

وقد جاء الرجل من أطراف المدينة ، وتحمل المشاق وأسرع في السير وهو يسعى إلى الرسل ليؤازرهم ، ويقويهم ... وكان هذا الرجل مؤمنا صادقا لأنه أخذ يخاطب الناس ، ويرشدهم إلى أهمية الإيمان بدعوة الرسل ، ويستدل بالآيات والبراهين .

فهو - أولا - دعاهم بإجمال إلى الإيمان بما جاء به الرسل ، ف ﴿ قَالَ يَنْقُومِ آتِيعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وخاطبهم بالأسلوب الناصح ، فأبرز لهم أنهم قومه ، وأنه واحد منهم ، وأنه يتمنى إيمانهم ونجاتهم الذي رآه في اتباعهم لدعوة الرسل ، وأكد لهم أنه ناصح صادق .

وهو . ثانيا . طلب منهم أتباع الرسل . فقد اختار الله رسله ، وأنزل عليهم دينه ، وأرسلهم إليكم لهدايتكم ، وتحقيق مصلحتكم ، وإخراجكم من ظلمات الشرك والجحود إلى نور الإيمان بالخالق العظيم .

وهو . ثالثا . عرفهم بأن الرسل صادقون معكم ، فهم رسل الله ، بعثوا لدعوتكم وإرشادكم ، ولن يأخذوا منكم أجرا ، لأن هذا التجرد يفيد صدقهم ، وإخلاصهم لله تعالى فقال لهم : ﴿ آتِيعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ لأن عدم طلبهم الأجر دليل على صدقهم ، فقد رأى الناس مدعى النبوة والإيمان يتعيشون بدعوتهم ، ويأخذون أجرا عليها تحت مسميات عدة ، ولذلك وضع الرجل هذه الحقيقة ليسارعوا إلى الإيمان بالرسول الذين أرسلهم الله إليهم .

(١) سورة يس ، الآية ٢٧ .

وهو . رابعا . يبين لقومه أن الرسل يرشدون إلى الإصلاح ، ويدعون إلى الهدى ، فلا يأمرهم إلا بالخير والمعروف ، ولا ينكرون إلا الشر والمنكر ...
فذلك ديدنهم الدائم ، وعملهم المستمر ، وذلك قوله تعالى حكاية عن الرجل :
﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ .

وهو . خامسا . يبين لهم أنهم سبقهم إلى الإيمان بالله ، فهو الخالق ، واليه المرجع والمآب ، فقال لهم : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
﴿ ... ؟ فجعل من نفسه واحدا منهم وقد آمن بالله تعالى ، وتساءل عن أى سبب للكفر ، وأنكر فى سؤاله كفر المشركين ، فقد تأكد الجميع من الأدلة الداعية إلى الإيمان بالله تعالى ، وساقها المؤمن فى شكل سؤال لهم فقال : ما هى الأسباب التى تجعلنى لا أعبد الله وحده ، وأخلص فى عبوديتى له ، فهو . سبحانه . الذى أنشأنى وأنشأكم ، وأكرمنى وأكرمكم ، واليه ترجعون واليه أرجع للحساب والجزاء .

ونلاحظ أن الرجل حين تكلم عن الخلق اكتفى بنفسه حين قال : ﴿ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ لأن الكل مثله مقرر بأن الله هو الذى خلق ، وحين تكلم عن الرجوع إلى الله ذكرهم فقال : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ لأنهم ينكرون الرجوع إلى الله فذكرهم به ، وقدم الجار والمجرور على متعلقة لقصر رجوعهم إليه سبحانه لا إلى غيره وبذلك قدم الرجل أدلة الخلق والإنشاء لدعوة الناس إلى الإيمان ...
وخوفهم من العقاب عند الرجوع إلى الله تعالى للحساب ، ولو صدق الناس بهذين العاملين لآمنوا وأخلصوا ، وصدقوا .
إن المنعم المتفصل يجب أن يذكر ، ويشكر ، ويعبد .

المقطع الخامس

إنكار الرجل للشرك ، ودعوته للإيمان

استمر الرجل فى دعوة قومه برفق ولين ، ولم يواجههم بالكفر ، ولم يذمهم بسوء ، وانما أنكر على نفسه الكفر ، وبين كبر ذلك ، والقوم يسمعون ... قال لهم : ﴿ أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ ؟ ... أى أصبح منى ، وأنا العاقل أن أعبد إلها غير الله تعالى ، واتخذ مخلوقا إلها ، وأنا اعلم أن هذه الآلهة المزعومة المتخذة من الحجر ، أو الخشب لا تسمع ، ولا ترى ، ولا تقدر على شئ .

والاستفهام إنكارى ينكر المؤمن على نفسه أن يعبد غير الله تعالى فغير الله مخلوق له سبحانه ، ولا يصح أبدا أن يكون إلها .

وأكد عدم إيمانه بالأصنام بإثبات عجزها وهوانها فقال لقومه ما حكاه الله تعالى : ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ أى إن أراد الله أن يعذبنى إن كفرت به فإن الأصنام والأوثان لا ترفع ضرا عنى ، ولا تستطيع أن تشفع لى عند الله ، ولا تتمكن من إنقاذى وكشف الضر عنى ، وقد أكد المؤمن فى حديثه إيمانه بالله فقد سماه بالرحمن صاحب الفضل والإنعام ، وهو يتمتع برحمته وقدرته ، وأيضا فقد بين المؤمن أن إرادة الله نافذة ، وقدرته قاضية بما أراد الله ، فلو أراد معاقبتى على كفرى لوقع هذا العقاب ... وفى هذا إشارة إلى أن الأصنام لا قدرة لها ، ولا شفاعة ولا نفعا لنفسها ، ولا لغيرها . فكيف اتخذها إلها وأعبدها ؟ ... وفى ذلك تعريض بالمشركين الذى يعبدون الأصنام لأنها ليست بآلهة ولا تقدر على شئ .

﴿ إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى إني إن عبدت غير الله تعالى ،

وصرت مثلكم سأضع نفسى فى جهل وشرك .

﴿ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى عاد المؤمن ، وخاطب الرسل وذكر لهم أنه على دين الله تعالى ، وأنه آمن به ، والتزم بتعاليمه ، وطلب منهم أن يسمعوا قوله ، ويشهدوا له عند الله تعالى .

المقطع السادس

المؤمن فى جنات النعيم

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ أى إن الرجل الذى سعى إلى الرسل ، ونصرهم ودعا قومه إلى طاعة الرسل قتله قومه ، فأدخله الله الجنة فأمره الله أن يدخلها فدخلها ، وتمتع بنعيمها وخيرها جزاء له على أعماله فى الحياة الدنيا .

فلما دخل الجنة ﴿ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ أى تمنى المؤمن أن يعلم قومه الأسباب التى أدت إلى غفران ذنوبه ، واکرامه بنعيم الجنة ، ووضعها فى عباد الله المستحقين لعطاء الله وكرمه ، حتى يقوموا بمثلها ليفوزوا بجنات النعيم .

إن سبب النعيم الذى رآه المؤمن بعد موته هو الإيمان بالله تعالى ، والتمسك بدينه ، والاستقامة على شريعته ، وملازمة العبودية لله تعالى ، والتخلق بالأخلاق الحسنة .

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾^(١) أى يبين الله أنه لا يحتاج للانتقام منهم إلى إرسال جند من

(١) يبدأ الجزء الثالث والعشرون بهذه الآية المتصلة بما قبلها ، لورودها في إطار قصة أصحاب القرية ، فاكتفيت بهذه الإشارة في أول الجزء حتى لا أفصل مؤخرة القصة عن مقدمتها .

(٦٧٠)

الملائكة ، لأن الأمر أهون من ذلك ، وقضاء الله واقع بـ "كن" ... وبذلك ينتقم الله منهم حين يريد ذلك بلا جنود تنزل ، أو قوى مادية تتحرك .

المقطع السابع

مصير القوم الكافرين

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ ﴾ أى تم إهلاكهم

بصيحة واحدة ماتوا بعدها مباشرة بلا حركة ولا حياة .

﴿ يَحْسَرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أى يا حسرة لما يرى ، ويا شدة الندم على

ما حدث لهم من عذاب أليم ، نزل بهم بسبب معارضتهم الرسل ، وكفرهم بآيات الله .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى ما جاءهم

رسول من الله تعالى ، ودعاهم إلى الحق إلا استهزأوا به ، وكذبوه ، وجحدوا ما طلبه منهم .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

ألم يعتبر هؤلاء المشركون بمن أهلكهم الله فى الأمم السابقة ، ولم يتجنبوا معاصيهم ، وأخطاءهم حتى لا يكونوا مثلهم ، ويستحقوا مصيرهم ، ويحاسبوا على أعمالهم .

وقد أهلك الله الأمم الكافرة السابقة ، وفى يوم الحساب سوف يندمون ، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا ، ولا مجيب لهم فقد قضى الله بأنهم لن يعودوا إلى الدنيا بعد الموت .

﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أى إن جميع الأمم ماضيها ، وحاضرها ، وآتيها ستحضر بين يدي الله يوم القيامة للحساب والجزاء ، وتوفى كل نفس ما أسلفت ، وتجد كل نفس أمامها عملها ، ولا يظلم ربك أحدا .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات مثلاً عجيباً مذهشاً ، يضربه الله للناس ليعتبروا ، ويتعظوا وقد دار المثل حول أصحاب قرية بعث الله لها رسولين ، فكذبهم الناس ، ولم يؤمنوا بدعوتهم ، فأرسل الله معهما رسولا ثالثاً ، يقويهما ، ويشد أزرها ، ويدعو القوم معهما ...

توجه الرسل الثلاثة إلى القرية ، وقالوا لأصحابها : إن الله أرسلنا إليكم فآمنوا بدينه ، واستقيموا على أمره ، فأبى القوم الإيمان ، واتهموا الرسل بالكذب ، وبأنهم بشر ، وبأن الله لم ينزل على بشر وحياً ... فرد الرسل إنا نعلم إنا رسل الله ، وعلينا البلاغ الواضح البين .

استمر أهل القرية على كفرهم ، وقالوا : إنا تشاءمنا بوجودكم ، وأصابنا الضر من دعوتكم فانتهاوا عنها ، وأن لا قتلناكم رجماً ، وعذبناكم عذاباً شديداً . فرد الرسل عليهم بأنهم سبب التشاجر ، وإن كفرهم سبب الخلاف والأذى . حينئذ جاء رجل من أطراف المدينة مسرعاً ، وأخذ ينادى قومه ليتبعوا المرسلين ، ويصدقوا بدين الله الذين يدعون إليه ، فهم لا يطلبون أجراً ولا يدعون إلا إلى خير ... وأعلن أمامهم إيمانه بالله الذى خلقه ، ورزقه ، واليه الرجوع والحساب والعقاب .

وأعلن أمامهم استحالة أن يتخذوا الهة مع الله يعبدونها ، وهى لا تنفع ، ولا تضر ، ولا تفيد ، وبين أن من يعبد غير الله فقد ضل وغوى .

(٦٧٢)

قتل أصحاب القرية الرجل المؤمن ، وأمر الله بإدخاله الجنة ، فلما رأى نعيمها ، وخيراتها تمنى أن يعلم قومه الأسباب التي جعلت جزاء جنات النعيم ليعملوا لها ، ويجزوا بها فى الآخرة .
وتبين الآيات أن الله أهلك القرية بمن فيها بلا حاجة إنزال جند كثيف ، فإنه . سبحانه . إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ... وقد أهلكهم الله بصيحة واحدة أنت عليهم جميعا ، ووقعوا فى حسرة وندامة بسبب استهزائهم بالرسول ، وسيجمع الله الأمم كلها يوم القيامة ، ويحضرها للحساب والجزاء ... والعاقل من استفاد بهذا المثل فى الدنيا .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى القصة

تتضمن قصة أصحاب القرية المذكورة فى الآيات السابقة عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الفطرة تدعو إلى الإيمان

خلق الله الإنسان على فطرة سوية تحدد له مساره فى عالم الواقع ، بعيدا عن الأمراض الطارئة ، والعلل التى تقف إليه من خارج ذاته .
إن الإنسان يبدأ طفلا محتاجا لأبويه ، مرتبطا بهما ، وعارفا بأنهما سبب وجوده ، وبقائه ... وهذا شعور فطرى يعترف بصاحب الفضل ويقدره ويضعه فى موضعه الصحيح ... وهذه هى الفطرة فى نصاعتها ، ويأتى الرجل من أقصى المدينة يسعى نحو الرسولين مناديا بهذه الفطرة ، وداعيا إلى الأسباب التى تؤكد الفطرة الصحيحة ، ويوضح ما يلى :

(١) العبادة لا تكون إلا لمعبود يتميز بالقدرة ، والفضل ، والعطاء ، ولذلك سأل الرجل عن أى سبب يجعله لا يعبد الله وحده ، فهو الذى أوجد الناس

(٦٧٣)

من العدم ، ويسر لهم الحياة ، وأمدهم بالنعم ... وأكد عدم وجود سبب واحد معقول يدعو إلى عدم عبادة الله .

(٢) الإنسان كما يتمنى الخير لحاضره يتمناه لمستقبله ، والمستقبل الحقيقى عند الله فى الآخرة ، ولذلك يدعو العقل إلى الإيمان ، وعبادة الله وحده فهو سيد الأولى والآخرة ، والخلق راجع إليه بالبعث والحساب والعقاب والعاقل من يستعد لذلك ، ومادام الخلق كله راجع إلى الله ، فمن الأولى بالإنسان أن يقدم لنفسه عند الخالق العظيم .
وما دام الإنسان محصورا بين الدنيا والآخرة فليسلم بمالك الدنيا والآخرة ليفوز فى الآخرة كما تتعم فى الدنيا .

(٣) بيان انه لا يصح أن يعبد غير الله فهو الإله الواحد الذى خلق ، وأنعم ، وملك ، لأن الشرك لا دعائم له ، ولا دليل عليه ، ولا يصح من عاقل أن يعتقد ما لا معنى له ، أو يعبد أصناما صماء ، لا تقدر على شئ ...
فهى لا ترفع ضرا ، ولا تجلب نفعا ، فلو أراد الله تعذيب الضالين المكذبين فلن تستطيع الأصنام رفع ضرر ، ولن تتمكن من شفاعه ، وتعجز عجزا تاما عن إنقاذ من عبدها من عقاب .
(٤) إن الإنسان العاقل يجب أن يقتنع بما يؤمن به ، وأن يتجنب الشطط والهوى حتى لا يقع فى الضلال المبين .

(٥) إن الإيمان الحق يجب أن يقوم على أسباب تدعو إليه ، وتصدقه ، ولذلك أكد الرجل إيمانه برب الناس لما له من فضل ، وانعام ، وقدرة .
إن الفطرة تدعو إلى الإيمان ... ولذلك وجب الاستفادة منها بالمحافظة على براءة الصغير ، واحاطته بالحماية حتى لا تلعب به الشهوات ، وحتى لا يسقط فى براثن الشياطين ، ويجب وضوح أمور معينة أمام الدعاة .

(٦٧٤)

يجب أن يتجرد الدعاة فى دعوتهم إلى الله تعالى ، ويقصروا غايتهم على تبليغ الدعوة إلى المدعويين بينة واضحة ، ولا يربطونها بأجر ينالونه من الناس لأن أجورهم على الله تعالى .

ويجب أن تتجلى فيهم روح الهداية ، وسماحة الخلق ، وحسن المعاملة حتى يقبل الناس عليهم ، ويسمعوا منهم .

الركيزة الثانية

حاجة الدعاة إلى المؤازرة

يتحرك الدعاة إلى الناس بالعلم والمعرفة ، وسلاحهم هو عقلهم ولسانهم يدعون الناس بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، ويجادلونهم بالحسنى ، ويناقشون فى القضايا التى يحتاجونها ... ولو تعامل المدعون بالحسنى لبقيت الدعوة على سماحتها ، آمن المدعوون أو لم يؤمنوا ... إلا أن خصوم الدعوة يقابلون الدعاة بالرفض ، والعدوان ، والتهديد ، والتشديد ... ولذلك كان من الضرورى مؤازرة الدعوة ، واعانتهم فى القيام بدعوة الناس .

لقد تجلت هذه المؤازرة مع الرسل الذين بعثوا بالقرية ، فقد جاء رسولان أولا ، فلما كذبهما أصحاب القرية ، قواهم الله ، وأعانهم برسول ثالث فتمكنوا من تبليغ الناس دين الله وتعالى .

وفى العصر الحديث تتخذ المؤازرة صورا عديدة منها :

(أ) إعلاء شأن الدعاة ماديا ومعنويا ليظهروا أمام الناس بمنظر حسن ، ووضع اجتماعى لائق ... وقد جبل الناس على احترام الغنى ذى المظهر الحسن ، ولا يصح أن يبدو الداعية فقيرا محتاجا أمام مدعويه .
ولا يصح أن يوضع فى مؤخرة الصف الاجتماعى ، والواقع يحتم أن يكون فى مقدمته .

(٦٧٥)

(ب) يحتاج الدعاة إلى سلطان يقويهم ، ويؤكد دورهم ، فهم فى حاجة إلى حصانه القضاء ، ورجال النيابة ، حتى لا يهان كلامهم ، ولا يعتدى عليهم .

(ج) يحتاج الدعاة إلى الأساسيات التى تقوم عليها الدعوة من إيمان بالله ، وصدق فى العبادة ، وفهم للمدعوين ، ومعرفة الأساسيات العلمية للتواصل مع الناس .

(د) يحتاج صوت الدعوة أن يظهر فى كافة وسائل الاتصال الحديثة ، مقروءة ، أو مسموعة ، أو مرئية لتصل إلى الناس فى كل مكان ، ولتخاطب المدعوين جميعا رجالا ونساء ، كبارا وصغارا .
أن أى تقصيرا فى إيصال الدعوة إلى الناس .

(هـ) يساعد الدعاة قيامهم بالخدمات الاجتماعية للناس مثل تعليمهم ، والإشراف على رعايتهم صحيا ، وماديا ومشاركتهم حياتهم وعائنتهم .
لقد تعددت أنشطة الناس ، وتنوعت الأعمال ، وافترق البشر إلى فرق شتى فى الاعتقاد ، والتوجه ، والرغبات والأمل ، ولذلك يحتاج من الدعاة إلى المعرفة التى تمكنهم من دعوة الناس مراعين هذا الاختلاف .
وطريق المعرفة هو المكتبة ، والتدريب ، والعطاء العلمى ، والإشراف المنظم .

إن الدعاة هم صناع الرجال ، ومؤازرتهم تقوية للمجتمع ، وحياة للناس وتلك ركيزة فى قصة أصحاب القرية .

الركيزة الثالثة

فساد منطق الكافرين

أهل الباطل لا يجدون متكأ يستندون إليه ، ولذلك يبحثون عن دفع تساندهم ، يتعللون بها ، إلا أنها هاوية ساقطة .

لقد دعا الرسل أصحاب القرية فلم يؤمنوا ، ولجأوا إلى نقاش بعيد عن موضوع الدعوة ، وقالوا :

(أ) إنهم أصيبوا بالضرر والأذى ، وانتشر الخلاف بينهم ، ولذلك تطيروا من مجئ الرسل ، وتشاءمو ، ولم يفهموا شيئاً .

(ب) لجأوا إلى تهديد الرسل بالقتل والرجم ، والعدوان .

(ج) أنكروا أنهم رسل الله ، بزعم أن الله لن يختار من البشر رسلاً ، وبذلك كفروا بالمعجزات ، وبالرسل ، وبالدعوة ، وقلدوا فى ذلك من سبقهم فى الأمم السابقة . فقد أقاموا كفرهم على إنكار بشرية الرسول .

(د) لم يلتفتوا إلى آيات الله الداعية إلى الإيمان ، وهى موجودة من حولهم إلا أنهم لم ينظروا إليها ... ولم يستفيدوا بها .

إن الكفر لا عقل له ، ولا حجة للكافرين ، وتلك مسألة واضحة فى منطق أصحاب القرية ، وفى غيرهم من الجاحدين .

الركيزة الرابعة

الترغيب والترهيب

فى إطار القصة القرآنية

الترغيب والترهيب فن كبير فى الدعوة إلى الله تعالى ، لأنه يتعامل مع الرغبات العقلية ، والعواطف الوجدانية ، ويحدد طريق الفوز والفلاح ، وطريق البوار والخسران .

وقد تضمن القصص القرآنى هذه العينة الرائعة للترغيب والترهيب ، فهو دائماً يناقش طوائف عديدة من الشخصيات التى يدور معها الحوار ، وتمثل العقدة الرئيسية فى القصة ... ويمضى الحوار لإثبات الحق ، وإبطال الباطل ، ويقدم الأدلة والبراهين إلى أن ينتهى بانتصار الخير ، وإبطال السوء إن لم يكن فى الدنيا ، فهو محقق فى الآخرة .

وقد تضمنت قصة أصحاب القرية هذا الأسلوب الدعوى الهام فرغبت فى الإيمان ، وبينت أنه ينتهى فى الآخرة بدخولون الجنة التى تمناها الرجل المؤمن لقومه حين عايشها بعد موته ، وتخوف من العذاب الشديد الذى يلحق بالكافرين فى الآخرة حيث الحسرة ، والندامة ، والعذاب الأليم .

وفائدة تضمن القصة للترغيب والترهيب أنه يظهر خلالها عرضا غير مقصود لذاته ، وهذا يشد العواطف ، ويؤثر فى الروح ... كما أنه يأتى مرتبطا بسببه فى الدنيا حتى يتجنبه من يريد النجاة ... وأيضا يأتى فى إطار قصة فنية كاملة العناصر واضحة الغايات ، وبها ترتبط العواطف الوجدانية ، وعالم اللاشعور ، وتظهر بصورة طبيعية تلقائية فى عالم الشعور ، وحركات الحياة . ويمكن للدعاة الاستفادة بالترغيب والترهيب فى إيرادهم إطار قصة من قصص القرآن الكريم مع التعليق عليها ، وربطها بالحدث المراد النصيح فيه ... ويمكن اختيار عنصر واحد وإبراز ما فيه من صواب أو خطأ ليكون منارة لمن يتأمل فيه .

ويحسن عدم الإطالة فى الترغيب والترهيب منعا للملل ، وحتى لا يتهم الدعاة بأنهم يدورون حول الجنة والنار فقط ، بعيدا عن مناقشة العقل ، وتقديم علاج لجوانب الحياة المختلفة .

آيات الله فى الآفاق المحيطة بالإنسان

يقول الله تعالى :

﴿وَأَيُّهُمْ أَهْمُ الْأَرْضِ الْأَمَّيَّةُ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ
 ﴿١٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿١٧﴾
 لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ سُبْحَنَ الَّذِى
 خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
 وَأَيُّهُمْ أَهْمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرَى
 لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢١﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ
 كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٢﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ
 النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَيُّهُمْ أَهْمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ
 الْمَشْحُونِ ﴿٢٤﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا
 صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة أصحاب القرية ، واصرارهم على الكفر ،
 ومحاسبتهم مع محاسبة جميع الخلائق يوم القيامة جاءت هذه الآيات لبيان عدد
 من الآيات الكونية فى الأفق القريب المحيط بالناس لتكون واضحة أمامهم أملا
 فى الاعتبار بها ، والاستفادة منها .

(٦٧٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

الآيات تبين آيات الله فى خلق الأرض ، والنبات ، والشجر ، والثمر ،
والمطر ، والعيون ، والأزواج ، كما تبين آياته سبحانه وتعالى فى خلق الليل
والنهار ، والشمس ، والقمر ، كما تبين آيات الله فى إيجاد السفن ، وحملها
للاثقالة ، والسفر بها إلى الأماكن البعيدة ، وظهور رحمة الله فى إنجاء الخلق
من الموت والغرق .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتحدث الآيات عن عدد من آيات الله تعالى فى الكون المحيط بالإنسان

... وهى :

(١) آية الأرض التى يحييها الله بالماء ، ويخرج منها الحب ، والفاكهة ، والثمر

.

(٢) آية إيجاد المخلوقات من تزواج الذكر والأنثى فى الإنسان ، ونتاج الأرض

، ومما يعلمون ، وما لا يعلمون .

(٣) آية انسلاخ الليل والنهار من بعضهما .

(٤) آية الشمس والقمر ودورانها فى فلك متتابع منظم .

(٥) آية الفلك التى تحمل أثقالهم ، وتنقلهم إلى أسفار بعيدة .

وقد وضحت الآيات القرآنية هذه العلامات والبراهين للدلالة على وحدانية

الإله ، وضرورة الإيمان به ، وعلى إمكانية البعث والحشر والحساب وتوضيح

هذه الآيات من خلال دلالة الآيات فيما يلى :

الآية الأولى

آية الأرض والنبات

﴿وَأَيُّهُمْ أَلْأَرْضُ أَلْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أى جعلنا للناس علامة وبرهانا شاهدا على قدرة الله تعالى فى الأرض التى يعيشون فوقها ، لأنها تبدأ جافة خالية من الماء ، والزرع ، والنبات ، فينزل الله عليها المطر ، ويحييها بخروج النبات على أنواعه منها .
وجاء بيان هذه الآية لمشركى مكة ليدعوا عندهم وكفرهم ، ولذلك فهى معطوفة على قوله تعالى : ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾^(١) ، ولذلك عاد ضمير ﴿هُمْ﴾ إلى مشركى مكة ، ومن بعدهم سائر الناس لتمتعهم بهذه الآية .
إن قوة آية الأرض ، وحيائها بعد أن كانت ميتة باد من ارتباطها بحاجات الإنسان المتمثلة فيما يلى :

(١) إخراج الحب للأكل : فحياة الأرض تخرج للإنسان الطعام الذى يعيش به من حب ، وغذاء ، وقوت . يقول الله تعالى : ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ .

(٢) إخراج الفاكهة وصناعة الجمال : فالأرض تخرج بعد إحيائها بالماء ثمر الفاكهة من أشجارها كالنخل ، والعنب ، وغيرهما التى تبدو فى صور جميلة حسنة ففيها النخل العالى ، والشجر القصير ، وفيها الشجر دائم الخضرة ، ومنها ما ليس كذلك ، وفيها المياه السارية فى الأنهار ، والنابعة من العيون ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ

(١) سورة يس ، الآية ١٣ .

مِّنْ خَّيْلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٦٨١﴾ أى جعلنا فى الأرض
بساتين يانعة ، جميلة بنباتها ، وزروعها ، وعيون المياه النابعة منها ،
السارية خلالها .

وحكمة الله فى كل شئ واضحة ، وقد تكلم عن ذلك فلاح عادى ، وهو
يرى البطيخة الكبيرة تخرج من نبات لا ساق له ، وقارن ذلك بحبة تمر فوق
النخلة الضخمة العالية ، وشكر الله أن جعل البطيخة تكبر على الأرض ،
والثمرة تصغر فى الأفق العالى ، وقد حدث أمامه أن سقطت ثمرة على رأسه
فحمد الله أنها لم تكن بطيخة ، أو ثمرة فى حجمها .

إن الإنسان يحتاج ليعيش أن يأكل ، ويتفكه ، ويشرب ، ويعمل ، ولذلك
كانت الأرض ، وكان الحب ، وكان الثمر ، وكان الماء ... وكل ذلك خلق الله
فى الأرض ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى إن الله خلق
كل هذا فى الأرض ليعيش الإنسان ، ويقتات بالحب ، ويتفكه بالثمر ، ويعمل
بيده وعقله ، ويستفيد بحياته فى عبادة الله تعالى .

﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ، ومعناه أيجهل الناس هذه
النعمة ، ولا يشكر الله على خلقها وإيجادها ... والشكر يقوم على عبادة الله
وطاعته ، ولذلك تتكرر الآية عليهم جحودهم ، وعدم شكرهم لله تعالى .

الآية الثانية

قيام المخلوقات على الثنانية

يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ
الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى تنزه الله ، وتقديسه ، وتعالى
عن سائر المخلوقات ، فقد تكرم بإيجادها أزواجا من الذكر والأنثى كما هو

ظاهر في نبات الأرض ، حيث نرى في كل نبات ذكرا وأنثى ، ويقوم الهواء بعملية التلقيح فيخرج الحب والثمر شهيا جنيا ، ويقع الزواج بين الرجل والمرأة فتوجد الذرية ، ويوجد الذكر والأنثى في الطير ، والسماك ، والحشرات ، والهوام ، في كل ما يعلمه الإنسان وما لا يعلمه ، وبذلك تتناسل الذراري ، وتتكاثر الأحياء ، وتستمر الدنيا إلى أن يشاء الله تعالى .

إن خلق الكائنات الحية بهذا التزاوج يدل على حكمة الخلق ، ودقة الإيجاد ولذلك عرف الله الناس به ، وقرنه بالتسبيح الواجب لله تعالى ، وأشارت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلى أسرار مودعة في خلق أنواع الحيوان وأصنافه ، وهي التي ميزت أنواعه ، وميزت أصنافه وكونته من ذكورة وأنوثة ، وأودعت الروح في سائر المخلوقات ليتحقق التكاثر والنماء ، فمعنى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى مما لا يعلمونه تفصيلا وإن كانوا قد يشعرون به إجمالا ، فإن المتأمل يعلم أن في المخلوقات أسراراً خفية لم تصل أفهام الناس إلى إدراك كنهها .

وقد يتفاضل الناس في إدراك بعض تلك الخصائص إجمالا وتفصيلا ، ثم يستون في عدم العلم ببعضها الآخر ، وقد تمتاز بعض الطوائف ، أو الأجيال بمعرفة شئ من دقائق الخلق بسبب اكتشاف ، أو تجربة ، أو تقصى آثارا لم يعرفها غيرهم ، ثم يستون فيما بقي مستورا عنهم من دقائق التكوين ولهذا بينت الآية قيام المخلوقات كلها على الثنائية الزوجية بصورة مطلقة سواء ما علما الأفراد والجماعات منها بصورة كلية أو جزئية ، أو لم يعلموه .

(٦٨٣)

وفى طيات الآية ندرك أن الناس لا يعلمون كل شئ ، والله هو العليم
الخبير .

الآية الثالثة

آية الليل والنهار

يقول الله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلِمُونَ ﴾ الليل والنهار آيتان متعاقبتان على الإنسان ، لأنه في الليل ينام ، ويستريح ، ويهدأ ، في وقت يهدأ فيه الخلق كله ، ولذلك كان الليل سكنا ، وهو فى النهار ينشط ، ويسعى للعمل ، ويبذل جهده فيما يريد ، ولذلك جعل الله النهار معاشا ، والليل والنهار زمن سائر لا يعلم الإنسان أوله من آخره ، ولذلك انقسم العلماء في أى من الليل والنهار جاء أولا فمنهم من قال بهذا ... ومن قال بذاك ، وتعاقب الليل والنهار دليل واضح على قدرة الله تعالى ، وقد بينت الآية انسلاخ كل منهما من الآخر لبيان أنهما كون واحد لا يشعر الإنسان بذهاب أحدهما ، أو بمجئ الآخر ، وكأن كل منهما يأتى من الآخر ، منفصلا عنه ، لتلاصقهما تلاصق الجسد بالجلد .

الآية الرابعة

الشمس والقمر

يقول الله تعالى :

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٦٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٦٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أى إن الشمس التى ترونها فى الأفق ساكنة ليست كذلك ساكنة ، وانما هى تجرى فى فلك دائم ، فدورانها حول نفسها يوجد الفصول الأربعة ، وقد بينت الآية أن الشمس تجرى لتستقر فى المكان الذى قدره الله لها ، وهى فى سيرها ودورانها لا تتوقف لأنها إن غابت فى مكان تطلع فى مكان آخر .

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى أن جريان الشمس بتقدير الله تعالى رحمة بعباده ، ولطفا بهم فهو القوى الخبير .

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أى قدر الله للقمر منازل ينتقل فى كل ليلة إلى منزل جديد ، عدها العلماء ، وذكروا أنها ثمانية وعشرون منزلا ، يظهر القمر كل ليلة فى منزل جديد منها ، ويختفى فى يومين ، فيتم بذلك الشهر القمري أساس السنة الهجرية .

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أى إن القمر يتحرك فى منزله حتى يصير مثل العود الرقيق ، المتفوس ، الضامر ، ويختفى بعدها .

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أى إن الشمس تتحرك فى فلكها ، والقمر يتحرك فى فلكه ، وتبعا لسييرهما يكون الليل والنهار لا يسبق أحدهما قرينة ، ولا يتأخر عن مواعده ، ولا يأتى قبل مواعده ، ويلتزم كل منهم بفلكه المقدر الذى خلقه الله فيه ، وقدره له .

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أى وكل الكواكب والنجوم تتحرك فى جو مفتوح كالطير فى الهواء ، والسماك فى الماء فكلاهما يسبح ، لا يتعلق بشئ

ولا يمسكه مخلوق آخر ، وهى فى حركتها تسير بما قدر الله لها ، وتسلك المسالك التى هداها الله إليها ، بلا عقل فى ذاتها ... فسبحانه هاديا ومجريا .
وسمى العرب تلك الطرائق أفلاكا ، اشتقوا لها اسما ، وتوهموا الفلك جسما كرويا ، وتوهموه الكواكب موضوعة عليه ملتصقة به ، ولكن القرآن الكريم جاراها فى الاسم اللغوي لأن ذلك مبلغ اللغة ، وأصلح لهم صحة ما وتوهموا ، وبين أن الشمس والقمر يسبحان فى عالمهما فقال تعالى : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ ، فبطل أن تكون أجرام الكواكب ملتصقة بأفلاكها ، ولزم كونها تسبح فى دوائر وهمية لأن السبح هنا سبىح هائم ، كما فى الهواء والماء .

الآية الخامسة

آية الفلك ، والبحر ، والركوب

يقول الله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٥١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٥٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ أى ومن آيات الله التى أنعم بها على الإنسان ، أن الهم نوحا عليه السلام وأوحى إليه ، وأمره بصنع السفينة ، وأن يحمل فيها المؤمنين به ، ومن كل زوجين اثنين لنجاة كافة أصناف وجميع أنواع الخلق من الغرق والفناء .

وقد جعل الله نجاة الأزواج من الغرق بركوبهم السفينة آية من عدة وجوة :

الوجه الأول : حافظ الله على بقاء كافة الأصناف والأنواع ، بنجاتهم

حين ركبوا السفينة ، وبذلك تكاثرت المخلوقات بأمر الله تعالى بعد ذلك .

الوجه الثانى : تعلم الخلق وسيلة للسفر ونقل الأحمال ، بصناعة السفن

وتطويرها ، وهذا فضل من الله تعالى ، ونوح عليه السلام هو أول من ركب السفينة .

والمقصود بذرياتهم أصولهم الأولى الذى حفظوا أنواعهم فكأن الله حفظ الأصول ، وما تولد منها بالحمل في السفينة من باب مجاز الكلية والجزئية .
والفلك المشحون هو سفينة نوح عليه السلام فقد شحن فيها نوح عليه السلام المؤمنين به وسائر الأزواج حتى امتلأت عن آخرها ، ولذلك لم يوصف فلك آخر بهذا الوصف الذى وصفت به سفينة نوح عليه السلام في القرآن الكريم .

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ أى خلقنا للناس أمثالا أخرى للسفينة مثل الجمل ، والطائرات ، وقطارات السكك الحديدية ، وسفن الفضاء وأعدنا للإنسان وسائل الركوب لينعم ، ويتمتع ، ويشكر .
﴿ وَإِنْ كُنَّا نُغْرِقُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ أى إن شئنا إغراق الناس وهم في السفن لفعلنا ، بلا صراخ يفيدهم ، أو منقذ ينقذهم .
﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتْنَعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى إننا نرحم الناس ، ونمتنعهم في الدنيا ، ونؤجلهم إلى يوم يحاسبون فيه .



وهكذا نجد الآيات تعيش مع الناس في الأرض فتبين نعمة الماء ، والزرع ، والنبات ، والحب ، والثمر .
وتعيش مع الناس في السماء فتتحدث عن الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار .
وتعيش مع الناس في البحر والتتقل فتذكر السفن وما يشبهها من وسائل السفر والتتقل .

(٦٨٧)

إن الآيات لم تبعد عن حياة الإنسان ونشاطه اليومي ، وتورد ما هو واضح الدلالة ، حيث لا دخل للإنسان في حركة المخلوقات ، وكل جهوده أن يكتشف بعض ظواهرها ليستفيد بها .

وحيثما يدرك الإنسان عظمة هذه المخلوقات يجب عليه أن يصل إلى ما يلي :

(١) قدرة الله شاملة ، والكون كله خاضع له .

(٢) تأكيد وقوع البعث والحساب لأن الله أوجد هذه العجائب في الدنيا وهو بقدرته قادر على أن يحيى الموتى ، ويبعث من في القبور .

(٣) الإنسان محتاج إلى المعرفة والعلم ، وبخاصة العلم بكون الله القريب ليعيش في كنف الله العظيم مستقيماً على صراط الله المستقيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات عدداً من البراهين الدالة على قدرة الله تعالى ووجوب عبادته وحده ، وتسليم كافة الأمور له سبحانه وتعالى ، وهي براهين تتحدث عن الأرض والماء والزرع والشجر والليل والنهار والشمس والقمر والسفن وغيرها .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

دلالة الآيات

على وحدانية الله تعالى

يظلم الإنسان نفسه حين يهمل النظر في آيات الله من حوله ، وحين لا يستفيد من هذه الآيات ، ويؤمن بالله تعالى .

(٦٨٨)

إن آيات الله عديدة ، والإنسان يعيش معها ، وبها ، ... وينزل القرآن الكريم مبينا لها ليتخذها الإنسان وسيلة للإيمان بالله تعالى فهذا الكون المنظم يدل دلالة واضحة على وجود الصانع العظيم .

وايمان الإنسان بوجود الله ناشئ من رؤيته للحياة من حوله .
وقد أورد الإمام الرازي في تفسيره صورا من هذه الرؤى وقدمها أدلة ناطقة على وجود الله تعالى وهذه صور منها :

صورة أولى :

هجم بعض الكفار على أبي حنيفة رحمته الله يريدون قتله ، فقال لهم : أجيئوني عن مسألة ، ثم افعلوا معي ما شئتم .
فقالوا له : هات .

فقال : ما تقولون في رجل يقول لكم : إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة بالأثقال ، احتوشها في لجة البحر أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟
قالوا : هذا شيء لا يقبله العقل .

فقال أبو حنيفة رحمته الله : يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر ، مستوية من غير متعهد ، ولا ملاح ... فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكفافها من غير صانع وحافظ ؟!
فبكوا جميعا ، وتابوا وقالوا له : صدقت .

صورة ثانية :

سأل بعض الملاحدة الإمام الشافعي رحمته الله عن الدليل على وجود الله تعالى ؟
فقال لهم : ورقة الفرصاد (التوت) طعمها ، ولونها ، وريحها ، وطبعها واحد عندكم ؟!!

فقالوا : نعم .

فقال : فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم ، ويأكلها النحل فيخرج منها العسل ، وتأكلها الشاة فيخرج منها البعر ، وتأكلها الطباء فينعقد في نوافجها المسك ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟! إنه الله رب العالمين ، فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا^(١) .

والقرآن الكريم يقدم عددا من الآيات الكونية ، ويبرز واقعها شاهدا على وجود الله تعالى ، ودافعا للإنسان كي يراها ويؤمن بها ، واليك بعض هذه الآيات :

— يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(٢) .

— ويقول سبحانه : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾^(٣) .

— ويقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٤) .

(١) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٣١٤ بتصرف .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤ .

(٣) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٣٠ .

(٦٩٠)

- ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٦٩﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٧٠﴾
تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ^(١) .

إن في كل جزئية أشارت إليها الآيات دليل واضح على وجود الله تعالى
واثبات قدرته وسائر صفاته سبحانه وتعالى .
وهناك آيات كثيرة تشير إلى الأدلة الكونية العديدة الدالة على وجود الله
وتثبت قدرته ... منها :

- خلق قشرة الأرض على نحو يصون الإنسان ، ويحفظ الحياة ، فلو كانت
قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتصت ثاني
أكسيد الكربون ، والأوكسجين ، ولما أمكن وجود الحياة ، ولو كانت أرق
من ذلك لانبعثت منها الحمم والنيران .
- مقدار الهواء وحركته حول الأرض فلو كان الهواء أقل ارتفاعا مما هو
عليه لاحترقت الأرض ، فإن بعض الشهب التي تحترق بالملايين كل يوم
في الهواء الخارجي قابلة للاحتراق في الأرض .
- ارتفاع الشمس عن الأرض بمقدار معين ، وارسال كمية مقدرة من
الإشعاع سبب لبقاء الحياة ، فلو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي
لكنا تجمدنا ، ولو أنها زادت بمقدار النصف لكنا رمادا منذ زمن بعيد .
- دور المطر في تحقيق الحياة بقدرة الله في كل شئ فلو انعدم المطر
أو قل لما كانت حياة ، ولكانت الأرض صحراء .
- ولولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة .
- ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة .
- ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت حياة .

(١) سورة الطارق ، الآيات ٧٠ ، ٧١ .

- ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ، ولا ماء ولا شجر ، ولا حيوان ، ولا نبات ، ولا هواء ، ولا طعام .

- ولولا الجبال لتناثرت الأرض، ولما كان مثل هذه القشرة صالحة للحياة^(١).

إن المتأمل في كل موجود يدرك صناعة القدر الإلهي العجيب ، الذي لا يقدر عليه إلا الله ، مما يدفع إلى ضرورة الإيمان بالله، والتسليم بكل ما جاء من عنده سبحانه وتعالى .

إن الإيمان بالله فطرة مركوزة في الطبع يقر به العقل المجرد ، ويؤكدده النظر السليم ، ويؤكدده فكر كل مفكر لبيب ، ويعجز عن مقاومته ورده كل مفتر كذوب .

والإيمان بوجود الله يستلزم التوحيد المطلق ذلك أن المشركين فصلوا توحيد الألوهية عن توحيد الربوبية فتراهم يسلمون بتوحيد الربوبية ويقولون بوجود الله

(١) يورد علماء الكلام الأدلة العديدة على وجود الله تعالى ويمكن إجمالها فيما يلي :

(أ) دليل الحدوث وهو دليل قائم على فكرة أن العالم حادث ، وكل حادث له محدث ، والمحدث للعالم هو الله تعالى .

(ب) دليل الإمكان وهو دليل يقوم على فكرة أن العالم ممكن ، وكل ممكن يعتمد في إيجادهِ على واجب ، وواجب الوجود هو الله تعالى .

(ج) دليل الدقة وهو دليل يعتمد على حقيقة أن كل ما في الكون دقيق في صنعه ، وهذا يدل على أن له صانعاً ، ويستحيل أن تجده الصدفة ، وهذا الصانع هو الله سبحانه وتعالى .

(د) دليل الغاية ويقوم هذا الدليل على أن كل المخلوقات وجدت لهدف وغاية ، وذلك لا يكون إلا من خالق عالم قادر مريد هو الله تعالى .

(هـ) دليل العناية يقوم هذا الدليل على أن العناية التامة أحاطت بالإنسان حيث خلقت أجزاء جسمه المختلفة ، كل لوظيفة ، وسخرت له كل ما في الكون، وهذه عناية من الله تعالى تدفع إلى الإيمان به .

والدليلان الأولان هما أدلة المتكلمين والفلاسفة ، والأدلة الثلاثة مستنبطة من النظر في آيات الكون وآيات القرآن الكريم وقد أشار إليها ابن رشد في كتابه " منهاج الأدلة " .

خالقا مالكا رازقا ، كما يقول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (١) .

وكما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ مِنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (٢) .
ومع هذا الإقرار نجد المشركين يتخذون الأصنام ويعبدونها من دون الله فيعددون بذلك فى الألوهية ثم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (٣) .

وهذا هو الشرك الذي يجب أن تتبرأ منه عقيدة المسلم ، وهو نفس الشرك الذي هدمته رسالات السماء كلها حين دعت إلى قصر العبادة لله تعالى يقول سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٤) .

وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية بالضرورة ، لأن الإقرار بقدرة الله ، ومالكيته ، وعلمه ، ونعمه على خلقه يستوجب أن يعبد وحده شكرا على نعمه ، واستزادة من عطاياه ، وطلبا لتزكية النفس ، لأن العبادة تكون لذلك ، وذلك لا يقدر عليه غير الله ، أما الاتجاه بها إلى من لا يملك ولا يقدر فهو عبث يأباه العقل السليم ، وتتكراه الأعمال الهادفة ، ولذلك يخاطب القرآن الكريم الناس بهذه

(١) سورة لقمان ، الآية ٢٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ٣ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥ .

الحقيقة فيقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ^ع إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ^ع وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ^(١) .

والإيمان بوجود الله يستلزم . كذلك . أن يكون الله وحده حاكما فأمره الأمر ، ونهيه النهي ، لأن ترك أمر الله إلى أمر سواه ، أو فعل ما نهى عنه بأمر سواه نوع من العبادة لسواه ، وبذلك يكون الشرك .

يروى الترمذى بسنده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعتة يقرأ في سورة براءة : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ثم قال ﷺ : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه ^(٣) .

وقد وصل الإسلام في تنزيه التوحيد من كل شائبة إلى حد جعله يأمر الناس بعدم اتخاذ المقابر مساجد ، وبترك الحلف بغير الله ، والنهي عن الذبح بغير اسم الله ، والأمر بعدم إطراء الإنسان ، أو تعظيمه ، أو التوجه إليه ، ليكون التعظيم كله لله ، والاتجاه كله له ، فهو سبحانه المستحق لكل ذلك . والتوحيد الحق يستلزم . أيضا . كمالا مطلقا للواحد الأحد سبحانه وتعالى ، وعلى المعنقد أن يؤمن بذلك وينزه الذات العلية عن كل نقص ، ويثبت لها كل

(١) سورة الحج ، الآية ٧٣ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣١ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب أبواب تفسير القرآن . باب من سورة التوبة ج ٥ ص ٢٧٨ .

كمال ، ولا يسمى الله إلا بالأسماء الحسنى الواردة في النصوص الثابتة من قرآن وسنة .

وعلى المعتقد كذلك أن يثبت لله كافة الصفات اللاتئة بذاته سبحانه وتعالى^(١) .

وعلى المسلم أن يرمز إلى هذا الإيمان اليقيني بـ "شهادة أن لا إله إلا الله" والشهادة تعني العلم والإعلام والإخبار بالاعتقاد الثابت في القلب ، وهذه الشهادة مستلزمة لكل ما ذكرنا من لوازم توحيد الله تعالى .

الدلائل في الآيات القرآنية المنزلة

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٢﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة آيات الله في الكون المحيط بالإنسان جاءت هذه الآيات لبيان موقف المشركين من الآيات المنزلة في القرآن الكريم ، ومعارضتهم لها .

(١) صفات الله أنواع : نفسيه وسلبيه ومعاني ، ومعنوية ، وللمتكلمين مناقشات حولها لا مجال للخوض فيها هنا .

(٦٩٥)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات معارضة المشركين لدعوة الإيمان بآيات القرآن الكريم التي تأمرهم بالإنفاق ، وتبين ضلالهم في الحالتين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

واذكر يا محمد مقالة هؤلاء المشركين حين قيل لهم : انظروا إلى الأمم قبلكم وإلى الحالة التي أنتم عليها ، واحذروا ما حصل للسابقين من العقاب ، وأنتم ترونه وتشاهدونه في سفركم ، ورحلاتكم فأمنوا بالله عسى أن يرحمكم إن آمنتم ، ويبعدكم عن مصير السابقين .

و ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ يراد به الحاضر الذي تعيشون فيه ، وتسمعون فيه

الوحي ، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يراد به الماضي ، والموصولان مضافان لمحذوف تقديره "أحوال" وبذلك يكون المعنى : اتقوا مثل أحوال ما بين أيديكم ، وأحوال ما خلفكم .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

أى إن هؤلاء السابقين المشركين كانوا كلما أتاهم رسولهم بآيات الله المنزلة عليه من ربهم يعرضون عنها ، ويجادلون فيها ، ويصدون الناس ، والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم .

وقومك يا محمد يسировن على خطى هؤلاء السابقين ، فهم يعرضون عن آيات القرآن الكريم حين تتلى عليهم ، ويوصى بعضهم بعضا بقولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾^(١) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُمْ ﴾ أى إذا أمرهم الرسول أو المؤمنون بأن ينفقوا على المحتاجين جزءا مما رزقهم الله تعالى ، قالوا لمن يطلب ذلك منهم : لو شاء الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه ، ولأغناهم عن عطاء الناس ؟!

﴿ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى إن الكافرين حينما يقال لهم : أنفقوا على الفقراء والمحتاجين سيقولون لكم أنتم في ظلم بين ، وجور واضح وبعد عن الرشاد لأن حاجتهم تعنى أن الله يعاقبهم بها ، ولو شاء لأغناهم .

والضالون هم المشركون فقد تصوروا عطاء الله في الدنيا جزاء على العمل يهبه الله للمؤمنين ، ويحرم منه العصاة والمذنبين ، وهذا هو الضلال .

وتلك هى حجة الأغنياء البخلاء فهم يرون أن من حرمه الله لا يستحق العطاء ... وجعلوا أن الله جعل الغنى والفقر ابتلاء يختبر بهما عباده ، فالغنى يحتاج للشكر ، والطاعة ، وأداء حق الله تعالى ، والفقر بلاء يحتاج إلى الصبر ، والدعاء ، واللجوء إلى الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿ وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾^(٢) ولا ينبغى لمخلوق أن يعترض على خالقه ... ولا يصح أن يعتقد

(١) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٥ .

(٦٩٧)

المكلف أن الدنيا هي دار الجزاء ، وأن ما يقع فيها هو مصير الإنسان النهائي ،
وقديما قالوا : إن الصابر والشاكر في الجنة لأن صبر الفقير على البلاء ،
وتحملة له لأجل الله يدخله الجنة ، وشكر الغنى على عطاء الله ، ومحافظته
على حقوقه يدخله الجنة .

إن الدنيا دار العمل ، وما يحدث فيها مقدمات للآخرة ، وعلى الإنسان أن
يطيع الله في الدنيا لينجو من العذاب في الآخرة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين كانوا إذا قيل لهم : اتقوا الله ، واخشوا عذابه
وأطيعوا الله ، واتبعوا قرآنه يعرضون عنها ولا يسمعون ، ولا يطيعون ، وإذا قال
لهم ناصح لهم : أنفقوا من مال الله الذي رزقكم به يقولون : أنفق على من
حرمة الله ؟ ونطعم من حرمة الله من الطعام ؟ ويتهمون من يأمرهم بالإتفاق
بالخطأ ، والبعد عن الرشاد والصواب .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

غرور الكافر بعقله

خلق الله الإنسان بطاقات كثيرة ، وكلفه بالاستقامة على دين الله وشريعته
، وأمره بالنظر والتفكير في حدود بشريته التي يعيش بها ، ويعلمها ويمكنه أن
يصل إليها .

إلا أن الكافر يتخطى قدراته الذاتية ، ويدخل في مجهول لا يفهمه ، ولا
يستطيع الخوض فيه ، وسبب ذلك هو الاغترار بعقله ، فيزعم إدراكه لما غاب

عنه ، فيعارض القدر ، ويجادل في دين الله تعالى ، ويعلل لأحكام الله تعالى من حيث لا سند له ولا دليل .

واذا جادلهم معارض اتهموه بالضلال ، وفساد العقل .

والقول الفصل هو الاستفادة بالعقل في حدود قدراته ، واليقين التام بأن العقل جزء من الإنسان المخلوق ... وواجب على المخلوق أن يطيع خالقه ، وينقاد لأمره ... وأن يبتعد عن الغرور والشطط ، ويعلم أن استعمال العقل في غير ما خلق له خسران وبوار .

الرد على منكرى اليوم الآخر

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٢﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٤﴾ قَالُوا يَنْوَلِّتُنَا مِنْ بَعْدِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ۖ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٦﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ۚ

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة موقف المشركين من آيات الله في الكون ، وفي القرآن الكريم جاءت هذه الآيات لرد إنكار المشركين ليوم القيامة ، واستهزائهم حين دعوتهم إلى الإيمان به .

(٦٩٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن منكراً البعث كانوا يستهزئون باليوم الآخر ، ويطلبون العلم بموعده وترد عليهم استهزاءهم وتعرفهم بأن اليوم الآخر سيقع بصيحة واحدة تأتيهم ، وحينها سيعرفون أن وعد الله حق ، وحسابه دقيق .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى أن المشركين

ينكرون يوم القيامة ، ويستهزئون به ، ويسألون عن موعد وقوعه ، ويطلبون من رسول الله ، ومن المؤمنين معه أن يعرفهم بموعده قيام الساعة إن كانوا صادقين فى دعواهم .

وهم فى طلبهم هذا جاحدون ، ومنكرون لأن الله تعالى وعدهم بالعذاب الذى يستحقونه يوم القيامة ، وقد بين لهم علاماته ، وما يحدث فيه ، وأخبرهم بأنه سبحانه وتعالى غيب عنهم موعد يوم القيامة ليأتيهم فجأة ، وعرفهم بالآيات والبراهين التى تؤكد وقوعه ... إلا أن عنتهم فى الكفر جعلهم يتركون هذه الحقائق ، ويربطون إيمانهم بمعرفة موعد يوم القيامة الذى استأثر الله بعلمه .

﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى

ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون مجيئها لأنها تبدأ بصيحة واحدة تأخذهم جميعاً ، وهم فى نشاط دنياهم ، ونزاع فى أمور المعاش ، ولم يتوقعوا نهاية الدنيا فى لحظة واحدة . فما هى إلا نفخة واحدة تزول بها الحياة والأحياء ، وبعدها تحدث نفخة ثانية يقومون بعدها للحشر والحساب . يقول الله تعالى :

- ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(١) .

- ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾^(٢) .

يقول ابن عمر رضى الله عنهما : "لنفخن فى الصور والناس فى طرقهم وأسواقهم ، ومجالسهم ، حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساوमानه ، فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ فى الصور ، فيصعق به"^(٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "لتقوم الساعة ، وثوبهما بينهما لا يطويانه ، ولا يتبايعانه ، ولتقوم الساعة ، وقد حلب لقحته لا يطعمه ، ولتقوم الساعة ، وقد رفع لقمته إلى فيه ولا يطعمها ، ولتقوم الساعة ، والرجل يلبط حوضه لا يسقي منه"^(٤) .

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى تأتى الساعة فجأة فلا يستطيع الناس أن يوصى بعضهم بعضا بشئ لحدوث موتهم فجأة .

﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى ولا يتمكنون من الرجوع إلى أهلهم لأن وقوع الساعة لا يمهلهم .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هذه هى النفخة الثانية ، وهى نفخة القيامة التى يحيا الناس بعدها .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٩٥ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٦٨ .

(٣) تفسير الخازن ج ٦ ص ١١ .

(٤) مسند الإمام أحمد . مسند أبى هريرة ج ١٤ ص ٤١٩ .

(٧٠١)

﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ أى إنه بعد الصيحة

الثانية يحيى الله الموتى ، ويخرجهم من القبور أحياء ، ويسيرون إلى أرض المحشر للحساب والجزاء مسرعين .

إنهم يخرجون من قبورهم سيرا إلى أرض المحشر ليحاسبهم الله تعالى ويفاجأ المشركون بالبعث ، والنشر ، والحشر ، ويتعجبون ، ويسألون فى دهشة ، و ﴿ قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ أى يتحسرون ، ويندمون ويقولون : يا هلاكنا ، ويا حسرتنا لقد كفرنا باليوم الآخر ، وكذبناه وها هو اليوم حقيقة ، ويسألون عن من أحياهم من موتهم ؟ وعن من أحضرهم إلى أرض المحشر ؟

فيخبرهم الله بأن ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾

أى هذا الذى ترونه اليوم هو ما وعدكم الله به ، وقد حققه لكم ، وصدق الرسول فى دعوتكم إلى الإيمان بيوم القيامة ، وما فيه .

﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

أى ما هى إلا صيحة يحيون بعدها ، ويخرجون من قبورهم ، ويحضرون للحشر والحساب والجزاء وهى الصيحة الثانية .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

أى فى يوم القيامة يكون الحساب الدقيق ، وينال كل إنسان ما قدمت يده ، ولا يظلم إنسان فى أمر ما ، ولا يجزى إلا بما عمل .

(٧٠٢)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين ينكرون اليوم الآخر ، ويستهنئون به ، ويسألون عن موعد وقوعه ، ويطلبون من المؤمنين بيان مواعده إن كانوا صادقين فى القول به ، وتبين الآيات أن يوم القيامة يبدأ بموتهم جميعا بصيحة تأخذهم ، وتميتهم فجأة ، وهم يأملون فى الدنيا ، ونتيجة للمفاجأة لا يتمكنون من نصيحة غيرهم ، ولا الرجوع لقومهم .

وبعد ذلك تأتى النفخة الثانية فيبعثون من قبورهم ، ويسارعون إلى أرض المحشر للحساب ، ويحضرون لنيل الجزاء والعقاب بدقة وعدل .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

يوم القيامة حق لا ريب فيه

أنكر المشركون اليوم الآخر ، وتساءلوا عن مواعده ، وشككوا فى صدق القائلين به ، لأنهم لا يعلمون مواعده ، مع أن الله تعالى جعل موعد قيام الساعة من الغيب الذى استأثر بعلمه سبحانه وتعالى ليستعد الإنسان له بصفة دائمة .
وهم بإنكارهم لليوم الآخر يريدون إنكار كل ما جاء به الوحي ، إلا أن الله أخزاهم ، وأقام عليهم الحجة ، وجعل الآيات الإنسانية والكونية الشاهدة على قدرته سبحانه وتعالى ، وعلى صدقه فى كل ما أخبر به الوحي ، وعرفهم بأن يوم القيامة يأتى فجأة ، فبصيحة واحدة يموت الخلق كله ، وهم فى أعمالهم وخصوماتهم ، ونشاطهم ، وبصيحة أخرى تقوم الخلائق من قبورها ، وتتحرك إلى أرض المحشر للحساب والعقاب ، هذه هى الحقيقة عن يوم القيامة .

ولقد جعل الله للناس من حياتهم ، ومماتهم أمثلة تدعوهم إلى الإيمان بيوم القيامة ، فلقد جعل لكل مخلوق أجلا يموت عنده ، وجعل هذا الأجل سرا لا

(٧٠٣)

يعرفه أحد ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾^(١) .

وخلق الناس ووضعهم أمام الحق والواجب ، والمسئولية والجزاء ... ولذلك كانت حتمية الجزاء للعالمين ، وقدر الله الآخرة ليكون فيها الجزاء الأوفى .

جزاء المؤمنين والكافرين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِْ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرٌّ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ۝ ﴾ .

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .

(٧٠٤)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الجميع سيبعث ، وسيحاسب جاءت هذه الآيات لبيان حال المؤمنين الفائزين بالجنة ، وحال المشركين الخاسرين المعاقبين بعذاب أليم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المؤمنين يتمتعون بجنات النعيم ، هم وأزواجهم ، ولهم فيها ما يشاءون ، كما توضح مصير المجرمين وعذابهم في نار السعير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾ أى إن من يدخل الجنة يصير صاحباً لها ، وهم في يوم القيامة مشغولون بالمزاح الجميل الذى يسره ويضحكهم ... إنهم حين يدخلون الجنة يرون نعيمها ، ويتلذذون بخيرها ، ويتمتعون بالسرور ، والفرح ، والهدوء .

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِئُونَ ﴾ أى يعيش أهل الجنة مع أزواجهم تحت ظل ظليل ، لا يرون فيهما شمساً ولا زمهريراً ، وجلسون على سرر ممتدة ، وثيرة الفرش ، متكئين ، ومضطجعين على ظهورهم يمدون أرجلهم ، وتبقى رءوسهم ، وأكتافهم مرفوعة ... وفى هذا يكون حديثهم الممتع ، وراحتهم الكبيرة ، لا يتعبهم هم ، ولا يضيع حياتهم عمل ... وهم مع هذا النعيم فى المقام والحديث تأتئهم لذائذ الجنة من مأكّل ومشرب ، ومشاعر طيبة تعم أبدانهم ، وأرواحهم ، وأحوالهم .

(٧٠٥)

﴿ هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ أى يقدر الله لأصحاب الجنة من الفواكه ما لذ وطاب ، ومن الحياة ما يسر ويكرم ، ويقضى لهم بكل ما يتمنون ويرغبون .

﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ أى يسلم الله عليهم بواسطة الملائكة أو بأصوات يسمعونها ، ويعلمون أن السلام جاءهم من ربهم الكريم .
وسلام الله عليهم يعنى الأمان التام لهم ، وهذا أعلى درجات السعادة يعيشها المؤمنون فى يوم القيامة ، وبذلك تتم سعادتهم .

إن أصحاب الجنة ، يعيشون فى غرف مبنية مع أزواجهم ، ويجلسون على أرائك وثيرة الفراش ، ويأكلون ، ويشربون ، ويمزحون ، ويفكهون ، ولهم ما يشاءون ، ويسلم الله عليهم ، ويحقق لهم الأمان فى الجنة المملوءة بالسعادة الزوجية والمادية ، والرضى والهدوء .

﴿ وَامْتَرُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴾ أى إن الملائكة تقول للمشركين ، يوم القيامة : انفردوا بعقابكم ، وابتعدوا عن المؤمنين ، وعيشوا فرادى ، ويبعد كل منكم عن غيره ... وبذلك يتحقق لهم عذاب النار ، وعذاب الوحدة التى يستحقونها بعملهم وجرمهم .

وبيكثهم الله ، ويقول لهم : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ أَدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ينكر الله فيه على الكافرين كفرهم ، ويقيم الحجة عليهم ، ويعرفهم أنه نصحهم بالحق ، ووهب لهم عقلا ، وأرسل لهم رسلا ، وأنزل عليهم كتابا ، وطلب منهم بواسطة العقل ، والرسل ، والدعاة أن يهجروا وساوس الشيطان ، ويتركوا غروره ، ولا يطيعونه ، ويعبدونه ، لأنه مخلوق أنظره الله فى الدنيا لابتلاء الناس ، فهو عدو

(٧٠٦)

لهم واضح العداوة ، وقد بينت آيات القرآن ، وأحاديث النبي ﷺ مدى هذه العداوة ، ومدى اتباع الشيطان للوسائل الماكرة ، والخدع اللئيمة التي يسلكها الشيطان لإضلال الناس .

ووجه وضوحها أن المرء إذا راقب الأعمال التي توسوس بها نفسه ، واتهمها ، وعرضها على وصايا الأنبياء والحكماء وجدها عواقب نجسة ، تأتيه بالوسوسة وتدفعه إلى المعصية ، وتحبب له الجريمة ، ويعلم أن الذي يوسوس بها عدو عنيد ، لأنه لو كان ودودا لما أوقعه في الكوارث والوساوس التي تضره في الدنيا وفي الآخرة .

﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى ألم أعهد إليكم يا عبادى أيضا أن تخصونى وحدى بالعبادة ، ولا تتخذوا إلها غيرى ، وعرفتكم أن الإعراض عن وساوس الشيطان هو الطريق المستقيم الذى ينقذكم فى الدنيا ، وينجيكم فى الآخرة ؟

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أى وقد ظهرت لكم عداوة الشيطان ، واتضحت بين الناس ، وشهدت لها الأجيال ، فإنه لم يزل فى مكره الذى أضل به خلقا عديدين ، وجموعا كثيرة .

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ؟ ... أى أأصبتم بالجنون ، فلم تفهموا كيد الشيطان ، وسرتم وراءه حتى أهلككم كما أهلك من سبقكم ؟

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أى ها أنتم اليوم أيها الضالون المجرمون فى نار جهنم ، تحترقون فيها ، وتعذبون بنارها ، وقد حذرکم الرسل منها ، وبيّنوا لكم حقيقتها ، فلم تصدقوهم .

﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى احترقوا اليوم فى نار

جهنم بسبب كفركم واتباعكم الشيطان ، واتخاذهم إلهاً من دون الله .

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى فى يوم القيامة ينكر الكافرون ما اجترحوا فى الدنيا من آثام ، ويحلفون أنهم لم يفعلوا جرماً ، فيختم الله على ألسنتهم فلا تتكلم ، ويدع الأيدي تتكلم ، والرجل تشهد ، والجوارح تتحدث عن ما كانت تقوم به فى الدنيا .

ونسبة الكلام إلى الأيدي وحدها دون سائر الجوارح لما للأيدى من دور رئيسى فى الأعمال ، أما الأرجل وسائر الجوارح فهى مسخرة ، ولذلك اكتفى الله بشهادتها .

إن الحقائق لا تغيب ، وما يعملها الإنسان فى الدنيا يظهر يوم القيامة بكماله ، وتمامه حيث كثرة الشهود ، وتسجيل الملائكة ، والكتب الشاملة .

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال ﷺ : من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يا رب ألم تجرنى من الظلم ؟ يقول العبد : بلى . فيقول : فإنى لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني . فيقول الله : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقي ، فتتطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام . فيقول العبد : بعداً لكن وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل" (١) .

(١) صحيح مسلم . كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٨٠ .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾

أي ولو أراد الله تعالى لعاقب المجرمين بطمس أعينهم ليكونوا عميانا لا يرون شيئا ، ولا يهتدون لشيء ، حتى لو أرادوا سلوك الطريق الذي اعتادوا على السير فيه بعد الطمس لما استطاعوا ، لأن فقد العين يضيع البصر ، ومن ضاع بصره لا يرى الطريق ، إلا أن الله لم يرد ذلك لهم ليعلموا ما تكنه قلوبهم .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا

يَرْجِعُونَ ﴾ أي ولو نشاء لحولناهم عن حالتهم البشرية التي هم فيها إلى حالة أسوأ منها ، وأقبح ، فجعلناهم قردة وخنازير ، وهم في مساكنهم التي يجترحون فيها السيئات لفعلنا ، وحينئذ لا يقدرّون على ذهاب ، ولا مجئ ، ولا غدو ، ولا رواح ، إلا أن الله لم يفعل ليحاسبهم به في الآخرة .

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ أي إن من يطل الله عمره يرده الله

إلى الضعف ، ويعيده إلى الحال الذي كان فيه عند ولادته .

﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؟ ... أي أصيب هؤلاء بالجنون فصاروا لا يفهمون

شيئا ، ولا يدركون أمرا ، وأصبحوا عاجزين عن أن يصلحوا ما فاتهم ، وقد عمرناهم زمنا كان يمكنهم الرجوع فيه إلى الله ، ولكنهم لم يفعلوا فاستحقوا ما أعد الله لهم من عذاب أليم .

(٧٠٩)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أحوال الناس يوم القيامة حيث يتمتع المؤمنون بلذات الجنة ويسرون هم وأزواجهم فى ظل ظليل ، جالسين على الأرائك الوثيرة ينعمون وينفكهون .

أما المشركون فيبعدهم الله عن الخير ، ويفرق بينهم ، ويبكتهم ، ويعرفهم أنهم اتبعوا الشيطان ، وعصوا الله تعالى ، وهو ما حذرهم الله منه ، إلا أنهم قوم لا يعقلون ، ولا يفهمون .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

بيان أحوال المؤمنين والكافرين فى الآخرة ودورها فى الترغيب والترهيب

توضح الآيات النعيم الذى يناله المتقون ، والعذاب الذى يقع فيه العصاة المجرمون .

فالمؤمنون هم أصحاب الجنة الذين يتمتعون بنعيمها ، وتمتلى حياتهم بالفرح والسرور ، حديثهم مزاح حسن ، لا يشغلهم هم ، وحاجاتهم تأتيهم بلا عناء ، وكل ما يريدون يحققه الله لهم ... يجمعهم الله مع أزواجهم وأهليهم وذرائعهم فى مسكن جميل ، تجرى الأنهار من تحته تظلم ظلال وارفة ، تحت شجر الجنة الجميل ، يجلسون تحتها ، ويضطجعون على المقاعد الوثيرة وتتوالى الأرزاق عليهم كثيرة ، متجددة ، ويتجلى الله عليهم بعظمته وجلاله ، ويسلم عليهم فتتضاعف سعادتهم ، وتدوم .

أما الضالون الكافرون فهم بعيدون عن هذا الخير ، يفرقهم الله ولا يجمعهم ، ويعذبهم بالنار ، وبالعزلة فلقد جاءهم رسول ، ونصحهم ، وحثهم على عدم طاعة الشيطان فهو عدوهم ... إلا أنهم أطاعوه وعبدوه .
لقد أضل الشيطان كثيرا من الناس ، وهم اليوم فى نار جهنم يعذبون على كفرهم بالله تعالى .

فى يوم القيامة يعجز الكافر عن أن يدافع عن نفسه ويسكت فتتطق جوارحه ، وتشهد الأرض ، والملائكة عليه وتجزيه .
وقد أراد الله للكافر هذا المصير المؤلم لما فى نفسه من ميل إلى الكفر ، وحب للخوض فى الفحشاء والمنكر .

إن هذا العرض المفصل لمصير الناس يوم القيامة يضع الإنسان فى مشهد مصور ، ويأخذه إلى العالم الأخرى ليختار لنفسه ، ويعمل لما يريد ويتمنى ، فإن أراد الجنة فعليه بعملها ، والسير على طريقها ليصل إليها بأمر الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ۝ ﴾^(١) .

واما أصحاب النار فهم المعرضون عن طاعة الله ، المستغرقون فى الشهوات ، الجاحدون لفضل الله ، المنكرون لأسس الإيمان فمصيرهم النار ، ليدوم عذابهم فيها .

إن هذا التصوير الحى ترغيب وترهيب ، فهو حديث إلى العقلاء فى الدنيا ، ليعودوا إلى رشدهم ، ويرجعوا إلى الله تائبين ليكونوا من أصحاب الجنة

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٩ .

(٧١١)

المتقين . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾^(١) .

إن الله رحيم بعباده ، فتح لهم باب التوبة ، وستر عيوبهم ، وغفر ذنوبهم ، وفرح بعودتهم . يقول النبي ﷺ : " الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ، ومعه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله . قال الرجل : أرجع إلى مكاني ، فرجع فنام نومة ، ثم رفع رأسه ، فإذا راحلته عنده"^(٢) .

الرسول ليس شاعرا

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ^١ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة وقوع يوم القيامة وأحوال الناس فيه جاءت هاتان الآيتان لإثبات نبوة محمد ﷺ وبيان أنه ليس شاعرا .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن رسول الله ليس شاعرا ، ولا ينبغي له أن يكون شاعرا فهو ﷺ رسول أمين، يدعو الناس، ويبلغهم القرآن الكريم لينذرهم ويقم الحجة على الكافرين .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠١ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الدعوات . باب التوبة ج ٨ ص ٦٨ .

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ أى لم يتعلم محمد الشعر ، وما أوحينا به إليه حتى يتكلم به ، وينظمه ، وبيان ذلك أن الشعر ضرب من الكلام العربى ، ذو وزن خاص ، وقافية معينة ، وقد اهتم به العرب ، وصاغوا به أيامهم ، وأحداثهم ، وخصصت القبائل من بنيتها شعراء ، ورواة ، يفاخرون بأنسابهم ، وأيامهم ، وينافحون عن شرفهم ، وأصالتهم ... وكان فى شعرهم أهواء وعواطف ، ومبالغات وأكاذيب ، ولما شاع فى العرب هذا المعنى فى الشعر نزه الله رسوله منه ، وأنزل عليه القرآن الكريم يبين العقيدة ، وينظم الأحكام ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، وبذلك برئ القرآن الكريم من سفاهة الشعراء ، وهجائهم ، وشبيبههم ، وفحشهم ، ونزل معجزا للعرب ، بعيدا عن شعرهم ونثرهم .

وقد بين الله أنه لم يعلم محمدا قرض الشعر ، وأنه أنزل القرآن الكريم بعيدا عن الشعر .

وقد تمحل العلماء فذكروا إن فى القرآن الكريم آيات توزن كمصرع بيت ، إلا أن المصراع ، لا يعد شعرا إلا بالشرط الثانى ، وإذا جاء بيت عارض فى كلام الله فإنه ليس شعرا إذا لا غرض له فيه ، ولم يقصد الله بإنزاله أن يكون شعرا ، وللشعراء فى قصائدهم غاية ومقصد .

وما بني عليه أسلوب القرآن من تساوي الفواصل لا يجعلها موازية للقوافي كما يعلمه أهل الصناعة منهم ، وكل من زاول مبادئ القافية من المولدين ، ولا أحسبهم زعموه شعرا لأن الشعر مجموعة من البيوت تمثل قصيدة مكونة من بيوت ذات قوافى واحدة .

(٧١٣)

وقد أشاع المشركون أن محمدا شاعر ، وأن كلمة شعر ، ولذلك قال أبو ذر رضي الله عنه لأخيه أنيس بن جنادة : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، يأتيه الخبر من السماء ، واستمع من قوله ، ثم انتني .

فانطلق الأخ حتى قدم مكة ، وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبي ذر . فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاما ما هو بالشعر .

قال أبو ذر : فما يقول الناس ؟

قال : يقولون شاعر ، كاهن ، ساحر .

قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقرء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادق وانهم لكاذبون" (١) .

وقد التقى جمع من القرشيين عند حضور الموسم ليتشاوروا في أمر النبي ﷺ فقال لهم المغيرة بن شعبة : إن وفود العرب ترد عليكم فأجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم بعضا .

فقالوا : نقول كاهن ؟

فقال : والله ما هو بكاهن ، ما هو بزمزمته ، ولا بسجعه .

قالوا : نقول مجنون ؟

فقال : والله ما هو بمجنون ، ولا بخنقه ، ولا وسوسته ، فذكر ترددهم في وصفه إلى أن قالوا : نقول شاعر ؟

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي . قصة إسلام "أبي ذر" ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٧١٤)

قال : ما هو بشاعر ، قد عرفت الشعر كله رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومبسوطه ، ومقبوضه ، وما هو بشاعر" (١) ...

وان كان أغلب الشعر كذبا فمن الشعر ما هو هادف وصادق ، قال عنه النبي ﷺ : إن من الشعر لحكمة (٢) .

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى ولا يصح منه الشعر ، ولا يجوز له القول به .

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أى وما القرآن الذى نقرأه على الناس

إلا مواظ ، ونصائح ترشد بها الناس ، وتبلغهم ما نزل عليهم من الله تعالى .

﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ أى لتتذر بالقرآن الأحياء أصحاب القلوب

الصافية ، أما من ماتوا أو ماتت قلوبهم فلن يستفيدوا بإنذارات القرآن الكريم .

﴿ وَحَقِّقَ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى ويجب العذاب على الكافرين

المنكرين لله ولرسوله ، وللقرآن الكريم .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيات أن رسول الله ﷺ لم يكن شاعرا ، ولم ينطق بشعر ، ولا يجوز له أن ينطق به حتى لا يتهم القرآن بأنهم شعر جذب العرب ببلاغته وجاذبيته ، وانما نزل القرآن على رسول الله ﷺ لينذر به الناس الأحياء أصحاب القلوب النابهة ، ويبلغهم دين الله تعالى ، ويتلو عليهم القرآن الكريم ، ويحذرهم من عذاب الله الذى أعده للكافرين .

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي . قصة إسلام "أبى ذر" ص ٤٩١ .

(٢) السنن الصغرى للبيهقى . كتاب الشهادات . باب من تجوز شهادته ج ٤ ص ١٨٢ .

(٧١٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

الرسول هو وحي الله للناس

الناس محتاجون إلى دين الله تعالى ، يهديهم إلى الخير ، ويأخذهم إلى الهدى والرشاد ، ويوضح لهم ما غاب عنهم ، وما عجزت عنه مداركهم ، وكان من رحمة الله بالناس أن اختار رسله من الناس ، وصنعهم بقدرته ، وأهلهم لحمل الأمانة لمن خلفهم .

وقد تفضل الله على الأمة الإسلامية فاختار محمدا ﷺ ، وميزة بسعة الأفق ، ورجاحة العقل ، وشدة الإخلاص ، وكلفه بدعوة الناس ، وعصمه من اتهامات خصومه المشركين .

نشأ ﷺ وهو أمى حتى لا يقال إنه يكتب القرآن عن غيره من الناس ... ورزقه الصدق والأمانة وعرف بذلك بين الناس ، ولم يتمكنوا من اتهامه بكذب أو خيانة .

وأبعده عن الشعر فلم يقل به ، حتى لا يزعم الضالون إن القرآن شعر يشد الناس إليه بزينته ، وقوافيه .

وهكذا ...

قدر الله لمحمد ﷺ ان يكون رسولا ، يتلقى الوحي ، ويبلغه للناس ، ويبشر به وينذر .

(٧١٦)

أدرك العرب أن رسول الله ليس شاعرا ، وليس كاهنا ، وليس له غرض شخصي في ملك أو مال ، واحتاروا في أمره فعرفهم الله تعالى بمحمد ﷺ وقال لهم : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴾^(١) .

وعاش الرسول في الدنيا بالرسالة فلما أتم الله الدين ، وأكمل الإسلام رحل الرسول إلى ربه ، وترك القرآن والإسلام أمانة ومسئولية أمام المسلمين .

إنكار المشركين لخلق الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۖ وَهُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ ۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۚ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يُنصَرُونَ ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ۚ فَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن محمدا ليس شاعرا ، والقرآن ليس بشعر جاءت هذه الآيات لبيان إنكار المشركين لخلق الله ، وترد عليهم ، وتثبت ضلالهم في عبادة غير الله تعالى .

(١) سورة النجم ، الآية ٣ ، ٤ .

(٧١٧)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين جحدوا ما خلقه الله لهم من أنعام يأكلون لحمتها ، وينتفعون بها ، ويركبون ظهورها ، ... ويكفرون بنعم الله ، ويتخذون الأصنام آلهة يعبدونها مع أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تفيد ... وتطلب الآيات من الرسول أن يصبر ويتحمل ، وسوف يعاقبهم الله على كفرهم وسوء خلقهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار والتعجب ، ومعناه أعموا ولم يروا ما خلقه الله لهم بقدرته وفضله من أنعام يملكونها ، ويسخرونها لمنفعتهم ، وهم لا يدرون كيف خلقت ؟ ... ولا يعرفون من هيأها لما خلقت له ؟ ... ولا يؤمنون بمن أوجدها لتخدمهم ؟

إن الإبل سفينة الصحراء تسير فوق الرمال ، وسط مكان لا زرع فيه ولا ماء ، ومطعمها الشوك واليابس ، وقد هيأها الله لدورها فأنهاى قدمها بخف مفلطح لا يغوص فى الرمال ، وأعطاهما صنما تدخر فيه الطعام والشراب ، وأطال عنقها ، وشق شفتها لتتمكن من التقاط الشوك الجاف من أعلى الشجر ... جهلوا ذلك وغيره ، ولم يروا فى بديع صنع الله قدرة تحثهم بالإيمان على الإيمان بالله الواحد الأحد .

لقد ملكهم الله الأنعام ، وجعلها لهم نفعاً وفائدة .

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أى سخرناها لهم ، وجعلناها أليفة مطيعة مع قوتها ، وضخامتها ، وجعلناها مركبا تنقلهم وأثقالهم التى أماكن بعيدة لم يكونوا بالغياها إلا بشق الأنفس ، ومن لحومها يأكلون ويقتاتون .

﴿وَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ أى ولهم فى الأنعام منافع عديدة غير الأكل ، والركوب ، كالاستفادة بالجلود ، والأصواف ، والوبر ، والشعر والحراثة ... وجعلنا منها لبنا يشربونه ، ونتاجا يملكونه .

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ؟ ... أجدتم فلا تشكرون الله على ما خلقه لكم فى الأنعام ... إن البشر يستفيدون بالأنعام صباح مساء ، ومع ذلك ينكرون فضل الله عليهم ، ولا يؤمنون .

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى اتخذ المشركون آلهة من دون الله ، وعبدوها أملا فى أن تنصرهم ، وتدفع عنهم العذاب ، وتقربهم إلى الله تعالى .

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أى لا تستطيع الأصنام نصر من يعبدها لأنها لا تسمع ، ولا تقدر على شئ .

﴿وَهُمْ هُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أى والمشركون فى الدنيا جعلوا أنفسهم جنودا لحماية الآلهة ، لأنهم يعلمون صمتها ، وعدم قدرتها على فعل أى شئ وحالة الأصنام فى الدنيا هى حالتها فى الآخرة لا تنفع نفسها ، ولا تفيد غيرها وتتبرأ من معبوديها حين نطقها .

(٧١٩)

﴿ فَلَا تَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أى لا تتألم يا محمد لضلال المشركين فقد بلغتهم ، وألزمتهم الحجة ، فلا تتألم لكفرهم ، ودع الأمر لله فقد علم قولهم وسيحاسبهم عليه .

﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى نحن أعلم بكل ما يقولون وبما يفعلون سرا وجهرا ، وسنحاسبهم عليه ، ونعاقبهم به .

- ٤ -

معنى الآيات

ينكر الله فعل المشركين ، ويتعجب من كفرهم ، وقد خلق الله لهم أنعاما يشربون لبنها ، ويأكلون لحمها ، وينتفعون بأوبارها وأشعارها ، ويركبونها ، وينتقلون بها ، وهى فضل من الله عليهم ، ومع ذلك يكفرون بالله ويعبدون أصناما لا تضر ولا تفيد أملا فى نصرهم ، والتشفع لهم مع أن الأصنام عاجزة لا تنصرهم ، ولا تفيدهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خطورة جحود الإنسان للحقائق

الشمس الطالعة فى الأفق لا ينكرها إلا ضال جاحد ، وهو بإنكاره لا يضر إلا نفسه .

إن الجاحد منكر للحقيقة ، يتصرف ببصيرة عمياء ، ويجرى وراء سراب خادع ، ولن يصل لشيء ، ودائما تبقى الحقيقة ، وينزاح ما يحيط بها من زيف ، وأكاذيب .

(٧٢٠)

إن حدثك مريض عن مرارة الحلوى فتأكد إن السبب هو مرضه ، وإن زعم أعمى أن الشمس لا وجود لها عند الزوال فإن السبب عماه .
والجاحد معصوب العين ، مريض القلب إن حدثته عن آيات الكون وخالقها زعم وجودها بالصدفة مع أن الصدفة لا تتكرر ، ولا تدوم ، أو يتصور أنها أوجدت نفسها ، مع أن الحادث لا يكون فاعلا ومنفعلا في وقت واحد .

ولا عجب إذا رأيت الجاحد يرضى بنعم الله ، ويتمتع بها ، ولا يؤدي لها حقها ، وحينما يتأكد الدعاة من إنسان جاحد فليبتعدوا عنه حيث لا فائدة في دعوته ... والابتعاد عنه ، وإهماله أولى .

من يتصور إنسانا تحيطه النعم يأكل لحمها ، ويشرب لبنها ، ويتخذ من جلودها وأشعارها ، وأوبارها سكنا ، وملبسا ، ومركبا في سفره ، ورحلاته ، ولا يفكر في دورها ، وينكر من خلقها ، وذلها ، وهياها لخدمته ... وينكر فضل الله ولا يؤمن به .

- هل يعلم الإنسان خالقا غير الله لهذه الأنعام ؟
 - وهل يمكن للإنسان أن يستغنى عن هذه الأنعام ؟
 - وهل يعرف الإنسان سر خضوع الأنعام له مع قوتها ، وضخامتها ؟
 - وهل يمكنه أن يخلق سواها يغنيه عنها ؟
 - وهل فكر في التوافق بين خلق الأنعام وحاجات الإنسان ليرى الدقة ، والغاية ، والضرورة في خلق الأنعام ، ويشكر الله ؟
- إن الله هو الذى خلقها ، وذلها ، وسخرها للناس لعلهم يشكرون .

(٧٢١)

الركيزة الثانية

الجهل ضار بصاحبه

العقل قوة مدركة ، يمكن صاحبه من معرفة ما يدور حوله ، والاستفادة بما فيه من دروس وعبر .

إن العقل يكشف لصاحبه الطريق ، ويعرفه بما يفيد ، وبما لا يفيد ...
وحيث يغيب العقل يكون الجهل ، ويتوه الإنسان في الضلال .

ومن الضلال العقلي عبادة الأصنام المصنوعة من الحجر والخشب ، فهو يصنعها بيده ، ويتخذها إلها يعبدها ، ويقدم لها القرابين ، والمناسك ، وينسى أنها مصنوعة بيده ، ويجهل عدم قدرتها ، وعجزها التام .

ويغلق الله قلب الكافرين ، فلا يعقلون أمرا ، ولا يفكرون في ألوهية الحجر ، ويتصورون أنهم بشركهم على صواب .

إن الجاهل عدو لنفسه حين يرضى باتخاذ الأصنام آلهة يعبدها ، ويصنع حولها الأساطير .

إنه لا يرى منها نفعا في الدنيا ، ويقوم بحراستها وبحميها ... ومع هذا يأمل أن تنصره عند الله في الآخرة ، وهي عاجزة في الآخرة كما هي عاجزة في الدنيا ...

الركيزة الثالثة

حاجة الدعاة إلى الصبر

يحمل الدعاة رسالة هامة هي دين الله تعالى ، ويعملون على تبليغها للناس بكاملها وتمامها ، ويجتهدون في نشر الإصلاح بين الناس إلا أنهم يجدون خصوما لهم من الجنة والناس ... ويرون مقاومة شرسة من المجرمين أعداء الحق والدين .

ولذلك احتاج الدعاة إلى التحلى بالصبر ، وتحمل المشاق ، ومواجهة السيئة بالحسنة ، واختيار الظروف المناسبة لعرض الدعوة على الناس بالأسلوب الحسن ، والمعاملة الطيبة .

إن الآيات تأمر الرسول بالصبر ، وتحمل سفاهة الضالين ، والتوكل على الله ، فهو كافيه وناصره ، وعلى الدعاة أن يتأسوا في أخلاقهم ، وعملهم برسول الله ﷺ ... يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾^(١) .

إن النصر في النهاية للحق ، وأجر الدعاة عند الله ، والله خير ناصر ومعين .

الرد على منكرى البعث

يقول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ ۖ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ﴾

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

(٧٢٣)

- ١ -

سبب نزول الآيات

روى أن أبى بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم ، وأخذ يفته بيده ويذروه فى الهواء ، ويقول : يا محمد أبيعث الله هذا بعدما رم وبلى ، فقال له ﷺ : نعم وبيعثك ويدخلك النار^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين عبدوا الأصنام أملا فى أن تنصرهم وردت عليهم اعتقادهم بأنها لا تستطيع نصرا لأنها لا تدرى ، ولا تنفع ، وهم الذين يدافعون عنها فى الدنيا جاءت هذه الآيات ترد إنكارهم للبعث ، وتثبتته بالأدلة الكثيرة المتنوعة .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات وقوع البعث وتثبته بفعل الله فى خلق الكائنات ، وترد على منكرى البعث بالحجج والبراهين .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ؟ ...

الاستفهام للإنكار ، ومعناه أن الإنسان عمى وجهل ولم ير ، ولم يعلم انه كان نطفة قذرة أنشأه الله منها ، وجعله بشرا سويا ، وإذا به يجهل هذا ، ويصير

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ١٦ ، ١٧ .

خصما معاندا ، ينكر البعث ، وبدل أن يشكر يكفر ، وبدل أن يذكر ينكر ، وبدل أن يعلم ويؤمن يجحد ويجهل البعث ويوم القيامة .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أى وذكر الإنسان أمرا عجيبا واستخدمه لينكر به البعث فقد أحضر عظما قد رمى وبلى ففتته ، وذراه فى الريح وزعم استحالة أن يعود للحياة مرة ثانية .

و ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار ، وهو من مقولة الإنسان الجاحد ... أى قال الكافر لرسول الله ﷺ كما فى سبب النزول : من يجمع هذه الذرات الطائفة ، ويجعل منها حياة مرة أخرى ، ويعيد إليها الروح لتحيا من جديد ... وهو بهذا الاستفهام ينكر إعادة هذا المخلوق مرة أخرى ، وينكر البعث واليوم الآخر .

فأمر الله رسوله محمدا ﷺ أن يرد على هذا الكافر بعدد من الأدلة الواقعية التى ترد إنكاره ، وثبتت البعث ، وتؤكد أن الله على كل شئ قدير ، وهذه الأدلة هى :

(١) ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى يحييها الله تعالى فلقد أنشأها أول مرة من العدم ، وخلقها من نقطة قدرة ، وصنع منها إنسانا سويا ، وهذا يثبت إمكانية وقوع البعث لأنه إعادة الذى كان موجودا أهون ، وجمع الأجزاء أبسر من الإبداع ، فمن أمن بالإبداع الأول وجب عليه أن يؤمن بالإعادة والبعث .

(٢) ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أى أن الله عليم بكل شئ ، ومنها جزئيات كل مخلوق بعد تناثرها ، وهو سبحانه قادر على جمعها وفق علمه وقدرته .

(٣) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾

أى أنه سبحانه وتعالى قادر على إيجاد كل شئ ، فقد جعل الشجر الأخضر المكون من الماء نارا مع تعارض الماء والنار ، وأنتم توقدون النار من الشجر الأخضر للطبخ والتدفئة ... ومن أوجد الشئ من ضده قادر على البعث لأنه امتداد للموجود على صورة واحدة بلا اختلاف فهو إعادة للميت لأصله الحى .

(٤) ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ﴾ ؟ ... أى أجهلوا وتصوروا أن الله الذى خلق السماء والأرض وما بينهما من غرائب ، وعجائب ، وأنواع ، وأصناف ، لا يستطيع أن يخلق مثل الموتى مع أنها بالنسبة للسماء والأرض ليست بشئ ...
إن خالق المخلوقات الضخمة قادر على أن يخلق الأقل منها .

(٥) ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أى إن الله خالق كل شئ ، وهو على علم

بما خلق ، وقد جاء السؤال مصدرا بالنفى ، ولذلك كانت إجابته المثبتة مصدرة بـ ﴿بَلَىٰ﴾ .

(٦) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى إنما شأن الله

إذا أراد إيجاد شئ قال له : كن فيكون فقدرته بالغة ، وهو مالك الملك .

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى تنزه

الله وتقدس سبحانه وتعالى عن إفك المشركين فهو مالك الملك ، وبيده كل شئ واليه المرجع والمآب .

(٧٢٦)

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الإنسان مجادل عنيد ، يخاصم الله فى قدره ، ويعترض على البعث ، ويرى استحالة بعدما رمت الأجساد وتفتت ، وتحولت إلى هشيم ذرته الرياح .

ويرد الله إفاك هذا الإنسان الضال ، ويبين غفلته عن الحقائق الكونية المخلوقة ، ويبين له أن من خلق الإنسان أولاً قادر على أن يعيد خلقه مرة أخرى .

والقادر على خلق الشئ من ضده مثل خلق النار من الخضرة ، قادر على إعادة المخلوق بذاته .

وان من خلق الكون الواسع العريض الكبير قادر على خلق ما هو أصغر منه .

إن الله يخلق بـ "كن" وهو الخلاق العليم ، ويبيده أمر الدنيا وأمر الآخرة .
إن البعث حق ، والاستعداد له واجب ، والعاقل من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت .

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

فليُنظر الإنسان مم خلق

يتعجب العقل من ضلال الإنسان وغروره الذى يصل به إلى مخاصمة الله ، والاعتراض على إرادته وقدره ، وهو بذلك ظالم لنفسه .

والواجب أن يفكر الإنسان في نفسه أولاً ليعلم قدره أمام مقام ربه ، ويحيا في إطار المخلوق الضعيف .

على الإنسان أن يذكر كيفية خلقه ونشأته ، فلقد كان نقطة قدرة ، مكن الله لها في رحم الأم ، ثم أخرجه من بطنها ، وقدر له ما شاء ، فمن الناس من يتوفى ، ومنهم من يمتد عمره ، لا يدري الإنسان من ذلك شيئاً ، ثم يكرمه الله ، ويرزقه ، ويفضله على كثير من خلقه ، ويسخر له الكون كله .

يعيش الإنسان هذه الحقائق ، يراها ، ويتمتع بها ، وهو لا يعرف أسرارها ، وحيويتها ، ومدة وجودها ... وبعد ذلك يغتر بنفسه ، ويجادل الله ويعارضه ، ويكفر بما يأمر به .

إن الحادث العاجز الضعيف لا يصح له أن يكون ندا للخالق القوي القادر ومن مسلمات العقل إن الضعيف يحتاج لقوة تسنده ، والفقير يحتاج لمن يمدده بمال ، والعاجز يتمنى لمن يشد أزره ، ويساعده ... ولذلك كان العجب من غرور الإنسان بنفسه .

ومن قبل اغتر فرعون بسلطانه ، واغتر قارون بماله ، فخسف الله بهما الأرض ، وفقدوا كل ما كانا فيه ، فغرق فرعون وجنوده في اليم ، وخسف الله الأرض بقارون فاصبحوا جميعاً من الخاسرين .

لينظر الإنسان إلى إيجاده ونشأته ، وليتأمل طعامه وشرابه ، وليبصر حالات مرضه وشفائه ليضع ذاته في موضعها ، ولا يتكبر على خالقه .

الركيزة الثانية

البعث حق لا ريب فيه

تبين الآيات أن البعث حق واقع ، وأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، والعاقل من ينظر ويتألم ، ويستسلم لله تعالى .

(٧٢٨)

إن كل شئ فى الوجود يشهد بقدرة الله تعالى ، وأى عقل منصف يصل
بنظره ، وتدبره إلى الله ، ويؤمن بكل ما جاء به .
إن البعث حق وعلى الإنسان أن يستعد له .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "يس" بتوفيق الله تعالى .

سورة "الصافات"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٧٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٣١)

- أولا -

التعريف بسورة "الصافات"

أجمع العلماء والمفسرون على أن سورة "الصافات" سورة مكية ، كما أجمعوا على أن لها اسما واحدا هو "الصافات" وهو أول كلمة في السورة بعد حرف القسم ، والمراد بالصافات الملائكة المصطفة بعضها مع بعض . وقد نزلت السورة بعد سورة "الأنعام" .

وعدد آياتها مائة واثنان وثمانون آية عند جمهور المفسرين ، وعند البصريين مائة واحد وثمانون آية .
وسورة "الصافات" تتصل بسورة "يس" بأوجه متعددة منها :

(١) جاء في سورة "يس" قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ

الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾^(١) فأشارت إلى القرون الغابرة بصورة مجملة ، وجاءت سورة "الصافات" ، ففصلت في أخبار هذه الأمم من خلال قصص الأنبياء ، ومن خلال تفصيل أحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة .

(٢) وجود المشاكلة بين آخر سورة "يس" وأول سورة "الصافات" ، ذاك أن الله

تعالى بين في سورة "يس" قدرته على المعاد ، وحياء الموتى ، وعلل ذلك بأنه منشئهم ، وأنه إذا تعلق إرادته بشئ كان . يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ

يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ

لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي

(١) سورة يس ، الآية ٣١ .

(٧٣٢)

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ تَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾^(١) ، وذكر
فى سورة "الصافات" وحدانية الله ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ
لَوَاحِدٌ ﴾^(٢) فكان ذلك كالدليل على ما جاء فى سورة "يس" ، إذ لا يتم ما
تعلقت به الإرادة إيجادا واعداما إلا إذا كان المرید واحدا كما يشير إلى
ذلك قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^(٣) .

وموضوعات السورة هى موضوعات السور المكية لأنها تعيش مع العقيدة
، وتتناول أركانها ، وتورد الأساليب المثبتة لها ، وترد على من يكفر بها .
وتستعرض السورة موضوعاتها بأسلوب سريع الإيقاع ، قصير الآيات
متشابهة الفواصل ، واضح المعنى .
وتتضمن السورة عددا من قصص الرسل مع أقوامهم لتوضيح معونة الله
لرسله ، ونصر عباده الصالحين .
وسورة "الصافات" قصيرة الآيات ، متشابهة الفواصل ، وهذا يناسب أهل
مكة ، فهم منصرفون عن الدعوة ، كارهون لها ، ولذلك جاء الخطاب لهم فى
آيات قصيرة ليسمعوها قبل أن ينصرفوا عنها .

(١) سورة يس ، الآية ٧٩ . ٨٣ .

(٢) سورة الصافات ، الآية ٤ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢ .

(٧٣٣)

- ثانيا -

- التفسير -

الله إله واحد

يقول الله تعالى :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۖ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۖ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۖ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۖ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تقسم الآيات بالملائكة بالمصفوفة ، التالية لذكر الله ، القائمة على زجر العصاة ، وتبشير المطيعين على أن الله واحد لا شريك ، وهو رب كل مخلوق موجود في كل مكان وزمان .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۖ ﴾ الواو واو القسم ، حيث أقسم الله بالصافات بيانا لعظمتها في ذاتها ، لأن الله هو الذي اختارها من خلقه ، وأقسم بها ، وخصها بالطاعة الدائمة ، وعين لها مهامها في إنزال الوحي ، وقبض الأرواح ، وتنفيذ ما يأمر الله به .

ومن دلالة القسم في القرآن الكريم أن المقسم به يعد دليلا على المقسم عليه بأسلوبه ، ومضمونه .

أما دلالاته من ناحية الأسلوب فهو تأكيد المقسم عليه ، ورد من يعارضه وقد ورد أن أحد الأعراب لما سمع هذه الآيات قال : من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى القسم بأنه إله واحد .

وأما دلالاته من ناحية المضمون ، فإن إثبات وجود الملائكة دليل على وحدانية الله تعالى ، فقد أخبر الله تعالى أن من خلقه الملائكة ، ووضح مهامها وأراها الناس فى صور وأعمال كثيرة ... ولم تدع الأصنام ولا عبدها أن للأصنام ملائكة ، ولم تدع الملائكة أنها تخدم آلهة غير الله تعالى ... وأيضا فإن وجود الملائكة يبين تعدد المخلوقات ، وأن الملائكة أشرف المخلوقات العلوية .

والقسم بطوائف الملائكة وأعمالها يشوق النفس إلى ما تريد معرفته ، فاصطفاف الملائكة وثباتها انتظارا لأمر ربها تشير إلى عظمة الله ، وقيامها بالزجر يبين طردها الشياطين ، وتسيير الكواكب ، واجراء الرياح والسحاب لانزال المطر ، واحداث العواصف ، وتلاوتها لذكر الله يوضح دورها فى نشر كلمات الله ، وايصال الوحي لرسول الله ...

وحين يعيش الإنسان فى غرض القسم من الآيات ، يتشوق لمعرفة المقسم عليه ، ويعلم أنه تأكيد أن الله إله واحد لا شريك له .
وقد ذكرت الآيات ثلاث صفات للملائكة :

الأولى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ أى العدد المصطف بعضه مع بعض

فى صفوف منتظمة ، وأشكال بهيجة انتظارا لأمر سيدها ، وقائدها .
ويمكن أن يكون اصطفاف الملائكة على هذه الصور الحسية حقيقة بمعنى أنهم يصطفون فى العالم العلوى صفوفًا منتظمة ، وفق مراتبهم ، ومهامهم التى يأمرهم الله بها .

ويجوز أن يراد بالاصطفاف الاستعداد التام لطاعة الله فيما يأمرهم به ، مثل النزول إلى رسله ، وعباده ، وسائر مخلوقاته لعمل ما يؤمرون به .

وقد خلق الله الملائكة للطاعة المطلقة ، لا تغيرهم شهوة ، ولا يغويهم شيطان ، يسمعون أمر الله ، وينزلون به إلى الناس ، فهم يتحركون بين جلال الله ، وقدرته ، وتقديره وبين مخلوقاته سبحانه تعالى .

الثانية : ﴿ فَأَلْزَجَرَتْ زَجْرًا ﴾ أى التى تحت المخلوقات ، وتأمرهم بفعل ، أو تنهاهم عن أمر بحيث لا تترك للمأمور وقتا يتباطأ فى طاعتهم بعد هذا الزجر .

الثالثة : ﴿ فَأَلْلَيْتِ ذِكْرًا ﴾ أى القارئات لما تعلموه من كلام الله تعالى ، فهم يتلقون كلام الله تعالى من جانب القدس ، فيبلغ بعضهم بعضا به أو يبلغونه للرسول ، أو يلهمون به من يشاء الله من عباده .
إنهم يتلون ما تلقوه من الله تعالى ، ويقرأونه فى أنفسهم ، وفيما بينهم ، ويقولون ما يأمرهم الله به .

والعطف بالفاء فى الآيات (فالزاجرات . فالتاليات) يشير إلى عدة أمور :
(١) يبين إن هذه الصفات لطائفة واحدة من الملائكة ، لأن الفاء حرف عطف ، ومن شأنها تواصل المعطوفات ، وارتباطها ، وتعاقبها ، وهذا يكون فى مجموعة واحدة .

(٢) توضيح الترتيب الرتبى لما تدل عليه هذه الصفات فأعلاها الاستسلام التام ، والاستعداد الدائم للطاعة ، وتقبل أمر الله تعالى ... ويلى الاستعداد والتسليم القيام بالأمر والنهى بين الناس ، وبعد ذلك تكون تلاوة الذكر ، والنزول بالوحي ، والاستغراق فى تمجيد الله ، وحمل كلماته ، وتبليغ الرسل وحي الله تعالى .

إن الأعمال تتفاضل بذاتها ، وبمتعلقاتها ، وبيسر القيام بها ، ولذلك كانت صفة الملائكة مرتبة ترتيبا تصاعديا ، فهم مستعدون للطاعة ، يحملون الأمر والنهى ، ويستمررون فى الذكر وقراءة القرآن الكريم .
والإنسان هو المخلوق المكلف ، وأمامه الملائكة ، يأخذ من صفاتهم العبودية والطاعة ، والاتصال الدائم بالله تعالى ...
إن الاستعداد الدائم لطاعة الله درجة نفسية ، يظهرها تنفيذ الأمر ، وتجنب النهى ، ويسمو بها الذكر الدائم ، والقراءة الواعية لكلمات الوحي الأمين .

﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ هذا هو جواب القسم المؤكد بإن ، وباللام الداخلة على الخبر لبيان الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود المملوك لله الواحد الأحد وهى ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ... والآية تثبت توحيد الله من عدة زوايا :

الأولى : تثبت الآيات توحيد الله بجملة القسم لأنها تقسم بموجودات يدل وجودها على توحيد الله تعالى فوجود الملائكة ، ونزولها بالوحي على رسل الله جميعا يؤكد هذه الوجدانية .

الثانية : وجود الملائكة بهذه الأوصاف المذكورة فى المقسم به تأكيد لوجود عالم غيبى ، يعرف بأثره لا بذاته ، ويؤكد أن الوجود ليس محسوسا مشاهدا كله ، وإنما الغيب فيه حقيقة ثابتة ، وهذا يثبت وحدانية الله وقدرته .

الثالثة : وحدانية الله ووجوده ظاهر فى خلقه العجيب ، المتعدد ، المبهر فهو الإله الخالق ، الرازق ، المتصرف ، له الأمر فى الأولى وفى الآخرة .

إن القسم قدم أدلة الخلق والإيجاد فى المقسم به فتحدث عن الملائكة ، وطاعتها لله تعالى ، وذكرها الدائم لله ، وحملها الأمانة إلى الناس ، وحيا أو إلهاما ، أو كرامة ، أو إيمانا ... والمشركون كانوا يقولون بوجود الله ، ويسلمون

(٧٣٧)

بأنه الخالق ، الرازق ، المتصرف المالك لكل شئ ... إلا أنهم جعلوا مع الله
آلهة أخرى ، فجاء جواب القسم مبينا انه لا إله إلا الله ، وأكد أنه إله واحد ...
وخاطب المشركين بهذه الحقيقة لنفى شركهم ، وبيان ضلالهم فى عبادة غير الله
تعالى ... لأن من مسلمات العقل أن من يملك أمرا يحكمه وأن من قدر وفعل
يقدر ، ويشكر ...

أما الاعتراف بأن الله هو الخالق ، القادر ، الصانع لكل شئ ، وعبادة
غيره تقربا إليه فهو خبل فى التفكير ، وضلال فى الحكم والعمل .

سأل النبى ﷺ الحصين بن عامر رضي الله عنه ، وهو يدعو إلى الله تعالى .

قال ﷺ : يا حصين كم تعبد من إله ؟

قال الحصين : أعبد سبعا فى الأرض ، وواحدا فى السماء .

قال ﷺ له : فإذا أصابك ضرر فمن تدعو ؟

قال الحصين : إذا أصابنى ضرر ادعو من فى السماء .

قال ﷺ : فيستجيب لك وحده ، وتشركه معهم ، وتعبدهم ... أأرضيته فى الشكر

؟ ... أم تخاف أن يغلب عليك ؟

قال الحصين : ولا واحدا من هاتين ، وقد علمت أنى لم أكلم مثله .

قال رسول الله ﷺ : يا حصين أسلم تسلم ، وآمن بالله وحده ...

وأسلم الحصين ، وحسن إسلامه^(١) .

- ٣ -

معنى الآيات

يقسم الله فى الآيات بطوائف الملائكة وهى تصطف استعدادا لتقبل أمر

الله ، والقيام به فتزجر أمرة وناهية ، وتقرأ الوحي ، وتذكره ، وتنزل به إلى حيث

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٥٥ .

(٧٣٨)

مراد الله تعالى فى الرسل ، والناس ، والخلائق ، وجاء هذا التوضيح فى القسم لإثبات المقسم عليه وهو تأكيد أن الله إله واحد .

- ٤ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم

البيان هو إظهار المعنى الواحد بطرق متعددة لتجلية معناه ، وتوضيح خفاياه ، ولذلك كان علم البلاغة بأنواعه ، وسبله ، وسيلة للبيان والتوضيح .
وقد نزل القرآن الكريم مشتملا على منتهى بلاغة العرب حتى أعجزهم عن الإتيان بأقصر سورة منه .

وبالبلاغة القرآنية ذات أوجه . فقد تأتى الكلمة الواحدة نابية منفرة ، وقد تأتى رقيقة ، رشيقة كحبة العقد تظهر وحدها فلا تفيد شيئا ، وتوضح فى العقد فتبدو جميلة رائعة ، تزين بجمالها وحسنها ... ومثال ذلك كلمة الصافات ، فهى تعنى عند العرب الصفوف المرصوصة مطلقا ، ولكنها فى السورة تقدم الملائكة مستعدة للطاعة ، منتظره للأمر ، تعلن الوفاء والعبودية ... وتشهد بوجودها على أن الله إله واحد ... إن الآية تعرف بالملائكة وتشير بنفس الاسم إلى عملها ، وإخلاصها ودلالاتها على أن الله إله واحد .

إن الآيات مع كلماتها القليلة تتضمن معان عديدة بحروف بسيطة ، فحرف الواو الذى بدأت به الآيات يوضح منهاجا من مناهج الدعوة إلى الله تعالى ، وهو أسلوب القسم أحد أساليب القرآن الكريم المساقاة لإثبات أمور عظيمة ، والمقسم به يعد فى ذاته برهانا على وحدانية الله ... وجواب القسم يأتى مؤكدا بحروف مرة أخرى .

إن العقل البشرى يعيش مع الآيات ، ويتحرك مع الملائكة ، ويجب الكون معها ليتأكد فى النهاية من وحدانية الله وقدرته ... وتلك غاية الغايات من الدعوة إلى الله تعالى .

الركيزة الثانية **وجود الملائكة رحمة بالناس**

الملائكة خلق من خلق الله ، ذو طبيعة خاصة بهم ، فقد أنشأهم الله من النور ، وخصهم بالطاعة ، ومكنهم من النفاذ والشفافية فى الكون كله ، وكلفهم بأعمال يعيشون لها ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(١) وهم دائما فى مهامهم المكلفين بها .

والملائكة عالم غيبى يملأ السماء عبادة ، والأرض طاعة ... وهم قادرون على التشكل حين اتصالهم بالناس .
ومن أعمال الملائكة إنزال الوحي ، وقبض الأرواح ، وحفظ الإنسان بأمر الله ، وهم برهان كبير على وجود الله ، وعلى أنه . سبحانه . إله واحد .
والإيمان بالملائكة ركن أساس فى الإيمان ، والتشبه بهم فى الطاعة والانقياد أمر دينى واجب .

وقد خلق الله الملائكة رحمة بالناس ، فهم يطيعون الله فيهم ، ويعيشون مع الناس ليلا ونهارا يحفظونهم بأمر الله تعالى . يقول النبى ﷺ : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون"^(٢) .

(١) سورة التحريم ، الآية ٦ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب مواقيت الصلاة . باب فضل صلاة العصر ج ١ ص ١١٥ .

(٧٤٠)

وقد نزلت الملائكة عوناً للمسلمين فى بدر ، والأحزاب ، وحنين لىبقى
الإسلام وينتصر ، وهم بيننا يكتبون ، ويراقبون ، ويحافظون ، والله من ورائهم
محيط .

دلالة الآيات الكونية على توحيد الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ۖ إِنََّّا زَيْنَا
السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۖ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۖ لَا
يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُحُورًا ۖ وَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ ۖ إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۖ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات بأسلوب القسم أن الله واحد لا شريك جاءت هذه الآيات
لإثبات أن هذه الوجدانية تتأكد بقدرته على الخلق والإبداع ، لأن التأكيد المجرد
لا يفيد المكذابين فكان التدليل بالواقع المشاهد فى هذه الآيات .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله سبحانه وتعالى هو خالق السماء والأرض ، والشمس
والقمر ، وهو الذى زين السماء الدنيا بالكواكب ، وحفظها من الشياطين التى
تحاول أن تسمع شيئاً من الوحي ، فحبسهم فى الأرض ، ومنعهم من التنصت
وطردهم من السماء ، وأعد لهم شهياً تحرقهم إن حاولوا الاستماع .

(٧٤١)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ أى والهكم

الواحد هو رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب المشارق ... وربوبية الله لكونه تعنى خلقه لهذه الكائنات ، واخضاعها لمراده وقدرته ، وإيجاد كل ما يحفظها ، ويصونها ، ويمكنها من القيام بما خلقت له .

والمراد بالسموات والأرض وما بينهما كافة العوالم المخلوقة المشهوددة للناس ، أو المدركة بالعقل ، أو المدفونة فى باطن الأرض ، أو السابحة فى الفضاء الواسع العريض ... فكل ذلك وغيره مخلوق لله تعالى يصرفه كيف يشاء .

والمراد بالمشارق مطالع الشمس ومغاربها ، وخصت الآية المطالع بالذكر لأنها أحوال مشهودة كل يوم ، وأثرها كبير ومتجدد ، فمن هذه المطالع يكون الليل والنهار ، وتتكون الفصول الأربعة .

﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾ ومن دلائل قدرة الله تعالى

أن خلق الكواكب ، وزين بها السماء ، فصارت حسنا وجمالا للناظرين ... والكواكب هى الكريات التى تلمع فى الليل عدا الشمس والقمر وتسمى بـ "النجوم" .

﴿ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ أى وحفظ الله السماء من مردة الجن

الذين اتخذهم الكهان وسيلة لادعاء الغيب عن طريق سرقة بعض الوحي وإيصاله إليهم ، فيزعمون معرفة الوحي ، ويضلون الناس ، فصرفهم الله عنه وحفظ السماء من هؤلاء الشياطين ، وقطع دابر الكهان ، وأثبت الثقة فى الوحي المنزل .

ووصفت الآية السماء بـ ﴿الدُّنْيَا﴾ لقربها من الأرض ، وبيان أنها السماء الأولى ، ووصفها بالدنيا إما لأنها أدنى إلى الأرض من بقية السماوات واما لأنها تعنى الكتلة الهوائية المحيطة بالأرض وليس فيها شئ من الكواكب ولا من الشهب ، وأن الكواكب والشهب في أفلاكها بعيدا عنها فى السماوات . والآية صالحة للمعنيين لأنها تحدثت عن السماء مزينة بالكواكب والنجوم إلا أن المعنى الأول هو الأقرب للمفهوم المقصود .

والسماء الدنيا تحيط بالأرض ، وهي ذات أبعاد عظيمة . ومعنى تزيينها بالكواكب والشهب أن الله جعل الكواكب والشهب سابحة فيها أو تحتها وعلى أبعاد مختلفة منها .

ونظام الكواكب المعبر عنه بالنظام الشمسي على هذا من أحوال السماء الدنيا ، ولا مانع من هذا لأن هذه اصطلاحات ، والقرآن صالح لها ، ولم يأت لتدقيقها ، ولكنه لا ينافيها .

والمراد بالشهب التى تحفظ السماء وتمنع الشياطين من اختراق السماء جملة الشهب التى ترحم الشياطين عند محاولتها استراق السمع فتقر الشياطين خشية أن تصيبها ، لأنها إذا أصابت أشكالها اخترقتها ، وفككتها ، واحرقتها ، وأزالتها ، وأنهت وجودها .
والمارد من الشياطين هو الخارج عن الطاعة ، شديد الضرر لذاته ، ولغيره .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ إِلَّا أَعْلَى ﴾ أى لا تمكنهم الشهب من سماع أى شئ من الملائكة وهم فى عالمهم العلوى .

﴿ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أى إن الشهب تقذف الشياطين من كافة الجهات إذا اقتربوا من الملائكة الأعلى ليسمعوا شيئاً من الوحي .

(٧٤٣)

﴿ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أى إن الشياطين تقذف بالشهب ، وتستمر مطرودة ممنوعة من الاقتراب من الملائكة فى الحياة الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب دائم مستمر لا ينفك عنهم .

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أى إن الشيطان الذى يسرق أمرا من الوحي فى سرعة بينة تنزل الشهب إليه ، وتتقبه ، وتخرق جسده ، فلا يقدر بعد ذلك على خطف شئ أبدا .

- ٤ -

معنى الآيات

الآيات تبين أدلة وحدانية الله تعالى من خلال عرضها للآيات الكونية المحيطة بالإنسان ، وتؤكد الآيات محاولات الجن اختراق الملأ الأعلى ليسمعوا شيئا من الوحي ، وتبين أن الشهب تحرقهم ، وتبعدهم عنها .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

إن ربى رحيم ودود

الله رحيم بعباده فقد خلقهم ، ورزقهم ، وسخر لهم الكائنات لتخدمهم ، فقد خلق السماء وما فيها ، والأرض وما عليها ، وأوجد الدقة ، والجمال ، والروعة فى كل خلقه ليؤمن الإنسان ، ويعيش عبدا لله فى كونه الكبير .
إن الله لم يترك الإنسان لعقله ليسيح فيما لا يقدر عليه ، وانما وجهه إلى النظر فى عظمه السماء ، وضخامة الأرض ، وكثرة المطالع ، وتنوع الأنوار

(٧٤٤)

ليعرف الله ... وحته على النظر فى زينة السماء ، وجمال الكواكب ليعرف الله ... وحرمة الكهنة والمزيفين من تضليل الناس .
إن الله رحيم بعباده ، وهو يحبهم ، ويحب إيمانهم ، ويحب إثابتهم بجنات النعيم .

الركيزة الثانية

حماية دين الله من المزيفين

أنزل الله دينه وحيا على رسوله ﷺ ، وجعله فى كتاب محكم ثابت لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، سمعه جبريل عليه السلام من الله ، وألقاه على مسامع رسول الله ، فقرأه وحفظه ، ونقله إلى أصحابه ، فتواتر نقله قراءة وكتابة إلى يوم القيامة .

وابطالا لمزاعم الكهنة المزيفين منع الله الجن من استراق شئ من الوحي وأرصد لهم من النجوم والشهب ما يحرفهم إذا اقتربوا من الملا الأعلى يقول الله تعالى على لسان الجن ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ فَلَمَّا يَسْتَمِعِ الْآنَ سَجْدًا لَهُمْ شَهَابًا رَّصَدًا ﴾ (١) ... لقد كان الكهنة يستخدمون الجن المتمرد لسرقة شئ من الوحي ليكون أساس أكاذيبهم فحرمهم الله من ذلك ، وصان دينه الحنيف .

وسيبقى دين الله محفوظا كما نزل ، والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة الجن ، الآية ٩ .

إثبات البعث وبيان أحوال الكافرين يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۚ ﴾
 ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۚ ﴾ ﴿ وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۚ ﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ۚ ﴾
 ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ۚ ﴾ ﴿ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۚ ﴾ ﴿ أَعِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۚ ﴾
 ﴿ وَعِظْمًا ۚ ﴾ ﴿ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۚ ﴾ ﴿ أَوْءَابَاؤُنَا الْآوِلُونَ ۚ ﴾ ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۚ ﴾
 ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۚ ﴾ ﴿ وَقَالُوا يَنْوِيلُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۚ ﴾
 ﴿ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۚ ﴾ ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ ﴾
 ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۚ ﴾ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۚ ﴾
 ﴿ وَقِفُوهُمْ ۚ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ۚ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ۚ ﴾ ﴿ بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۚ ﴾
 ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ ﴾ ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ ۚ ﴾
 ﴿ الْيَمِينِ ۚ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ۚ ﴾
 ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ۚ ﴾ ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۚ ﴾ ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ ۚ ﴾ ﴿ فَأَعْوَيْنَكُمْ ۚ ﴾
 ﴿ إِنَّا كُنَّا غَائِبِينَ ۚ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۚ ﴾ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ ۚ ﴾
 ﴿ بِالْمُجْرِمِينَ ۚ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۚ ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ ۚ ﴾
 ﴿ أَهِنَّا لَتَارِكُوا إِلَهَتَنَا لَشَاعِرٍ يُجْنُونَ ۚ ﴾ ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ۚ ﴾
 ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْآلِيمِ ۚ ﴾ ﴿ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ ﴾ .

(٧٤٦)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله واحد لا شريك ، وأثبتت ذلك بذكر خلق الله للسموات والأرض ، وما بينهما ، وإيجاد المشارق والمغارب جاءت هذه الآيات تثبت البعث ، لأن من خلق العوالم الكبرى قادر على أن يخلق الأقل منها ويؤكد لهم أنهم سيقرون بالبعث عند وقوعه ، ويستسلمون للحساب والجزاء ، وسوف يلوم بعضهم بعضا حينما يسوقهم الله إلى عذاب جهنم بسبب إجرامهم في الدنيا ، وكفرهم بالله ، وظلمهم لأنفسهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات وقوع البعث بأدلة متعددة ، وتوضح أن سبب كفرهم هو استهزاؤهم ، وسخريتهم ، وعدم إيمانهم بالبعث ، واستبعادهم إعادة الحياة لأجساد تفتتت ، وبليت .

وتبين الآيات أن الله يعاقبهم ، وزوجاتهم ، وأعوانهم ، وآلهتهم ، ويسوقهم إلى جهنم ، وهم مستسلمون بلا نصير ينصرهم ، أو شفيع يشفع لهم أو تعاون فيما بينهم يصد العذاب اللاحق بهم .

في هذا اليوم يتلاوم المشركون ، ويقرون بضلالهم ، ويستسلمون لمصيرهم ، ويتهم كل منهم غيره بأنه سبب كفره ، فيقضى الله بينهم ، ويعذبهم جميعا بعذاب أليم ، فقد رفضوا الإيمان ، واتهموا الرسول بالجنون ، والشعر ، وكانوا يتكبرون أمام دعوة الحق ، ويتمسكون بأصنامهم ، وآلهتهم .

(٧٤٧)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار

والتوبيخ ، وفيه يأمر الله محمدا ﷺ بسؤال منكرى البعث عن سبب عدم إيمانهم به ... وهل يرون أنفسهم أشد خلقا من مخلوقات الله الأخرى مثل السماء والأرض ، والملائكة ، والجبال ؟

والسؤال يتعجب منهم ، وينكر جهلهم ، ويسوقهم إلى الإيمان بالبعث ، لأن الله هو الخالق ، وهم يقرون بذلك ، وقد خلق الله السماء والأرض والكون كله ، وهى مخلوقات أشد منهم ، وأكبر ، وأضخم ... وهذا يؤكد إمكانية البعث ومجئ الدار الآخرة ، لأن من قدر على خلق الكون قادر على بعثه واعادته مرة أخرى .

وجاء الإنكار بأسلوب الاستفهام ليجتثوا عن الإجابة ، وعندها سيعلمون خطأ إنكارهم للبعث ، لأن خالق الوجود من العدم لا يعجزه إحياء من مات مما خلق .

وعبرت الآية عن السؤال بالاستفتاء لأن الاستفتاء يحتاج إلى إعمال نظر وتفكير .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ أى إن البشر خلق ضعيف بالنسبة

لمخلوقات عديدة . فقد خلق الله أباهم آدم ﷺ من تراب مخلوط بماء فتلاصقت جزئياته ، وصار طينا ، صنعت منه الملائكة صورة بأمر الله ، ونفخ الله فيه من روحه فصار إنسانا ، هو آدم ﷺ ، ومن آدم تناسلت الذرية وتكاثر الناس .

وضمير ﴿ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ يعود على المشركين ، والمعنى خلقنا أباؤهم من تراب ، فمالهم ينكرون إعادة الأموات من الأدميين إلى الحياة مرة أخرى بالبعث يوم القيامة ؟!

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ "بل" للإضراب عن استفتائهم ، والانتقال إلى توبيخهم ببيان التعجب منهم ، وانكار سخريتهم ، واثبات تعجب النبي ﷺ من كفرهم ، وانكارهم لدين الله تعالى .

والمعنى لا تستمر فى استفتائهم ، فإنهم معاندون ، ساخرون ، لا ينفعهم سؤال ، ولا يرضيهم دليل ، والأولى أن تتعجب منهم ، فاصبر ، ولا تتألم لموقفهم ، وكفرهم .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ أى ومن ضلالهم أنهم إذا وعظوا ، ونصحوا لا يتأثرون بالمواعظ ، ولا تنفعهم النصائح ، فقد قست قلوبهم ، واسودت عقولهم ، وامتألت بالكبر والجهالة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أى ومن جحودهم أنهم إذا رأوا آية من آيات الله يبادرون إلى السخرية منها ، ويطلب بعضهم من بعض أن يسخروا بها ، وعدم النظر فيها ، ولسان حالهم يقول : هلموا وانظروا ما يفعله محمد ويقوله ، فهو ساحر يخلب ألبابنا ، ويسلب عقولنا ، ويصدنا عن دين آبائنا ، وآلهة قومنا .

﴿ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى يقول كل منهم للآخر : إن محمدا يأتينا بين الفينة والفينة بسحر واضح ، يشغل عقولنا ، ويظهر خطأنا ، ويريد أن يبعثنا عما كان يعبد آباؤنا فلا تلتفتوا له ، ولا تتخذوا بسحره الذى يأتيكم به .

(٧٤٩)

وقولهم هذا قائم على الكذب ، فقد ادعوا أن سحر محمد واضح ، مع أن دعوة محمد ﷺ خلت من السحر تماما ، لأن السحر خيالات ، وأوهام ، وما جاء به محمد دين ثابت في حياة المؤمنين .

ثم بينت الآيات إنكارهم للبعث ، وعدم تصديقهم له محتجين بأمرين :
أولاهما : استحالة بعث الأجساد بعدما تصير ترابا تذروه الرياح ، وعظاما نخرة قابلة للتفتت والبلى ، وتعجبوا من ذلك ، وأكدوا إنكارهم له ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أى أنحيا ، ونبعث بعد كل هذا .

ثانيهما : ﴿ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ أى أيعت آباؤنا السابقون أيضا ، وهذا أشد إنكارا لديهم ، وأكثر دهشة وغرابة في عقولهم ، لأن أجساد الآباء الأوائل قد تحللت ، وتداخلت ، وصارت زرعا ونباتا .
رد الله عليهم ، وأنكر تعجبهم ، وأمر رسول الله ﷺ أن يرد عليهم ، ويبين ضلالهم ، وقال له : ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى قل لهم يا محمد لا معنى لإنكار البعث ، فهو حقيقة واقعة ، وسوف تبعثون وآباؤكم ، وأنتم صاغرون أذلاء .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى إن بعث الخلائق جميعا ، واحياءها يتم بنفخة واحدة في الصور ، تعود فيها الأرواح إلى أجسادها ، ويقوم الناس بها من قبورهم المنتشرة في الأرض كلها ، ويتجمعون في أرض المحشر بأجسادهم وأرواحهم التي كانوا عليها .

﴿ وَقَالُوا يَتَوَلَّىٰ هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أى قال الكافرون بعضهم لبعض حين يرون العذاب فى الآخرة ، يا هلاكنا فى هذا اليوم ، فقد وقع ما أنكرناه فى الدنيا .

وهذه المقالة دارت بين الكافرين لما يرونه من حسرة ، وما يقعون فيه من ندم ، فهى مقالة على ألسنتهم جميعا .

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى يقولون هذا هو اليوم الذى أُنذرنا به الرسول ، وكنا نكذب به .

فى هذا اليوم يفصل الله بين الناس ، حيث يمتاز المحسن بما قدم من عمل صالح بدخول الجنة ... ويعرف المسئى بما قدم من فسوق وعصيان بدخول جهنم ، ويبكت الله المشركين ، ويعرفهم بوقوع يوم القيامة الذى كانوا به يكذبون .

﴿ أَحْشَرُوهَا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ من دُونِ اللَّهِ أى تقول الملائكة لزيانية النار احشروا المجرمين من قبورهم ، واحضروهم لأرض المحشر لمحاسبتهم ، وادفعوهم إلى الحساب هم وأزواجهم الذين اتبعوهم ، وأمثالهم فى الكفر والشرك ، وأحضروا معهم الأصنام والأوثان التى عبدوها ليروا هوانها ، ويشاهدوا عدم قدرتها على شئ ، ويتأكدوا أنها لن تنصرهم ، ولن تشفع لهم ، ولا أثر لها .

﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى أرشدوهم إلى طريق جهنم ، ودلوهم عليه فليس لهم طريق سواه .

﴿ وَقَفُّوهُمْ^ط إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ أى واحبسوهم فى الموقف حتى يتم حسابهم ، وسؤالهم عن كل ما قاموا به فى الدنيا .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ ﴾ أى يسألهم الله تعالى عند الحساب ، وظهور العذاب عن عجز آلهتهم ، وعدم قدرتها على نصرهم ، أو تولى أمورهم ، ويسألهم كذلك عن عجز كل منهم أن ينتصر لصاحبه ، وكانوا فى الدنيا يؤكدون وحدتهم ، وتنصرهم .

﴿ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أى أن المشركين يستسلمون لحكم الله ، وينقادون لأمره ، فلقد انقطعت حيلهم ، وثبت عجز آلهتهم ، وظهر ضلالهم وفسادهم .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى وأخذ بعضهم يسأل الآخر ، وبدأ التابعون يتهمون المستكبرين بأنهم سبب الضلال والكفر .

والتساؤل الذى يحدث بين أصحاب النار تقريع ، وتوبيخ ، واتهام يبدأ به التابعون الضعفاء ، و ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ أى إنكم أيها الرؤساء كنتم تمنعوننا من فعل الخير ، وتصدوننا عن دين الله ، وترغبوننا فى أن نكون على دينكم ، ودعوتونا إلى عبادة الأصنام بقوة ظاهرة ، ومنهج مستمر ، فأتبعناكم وكنتم بذلك سبب كفرنا وضلالنا ، وأنتم اليوم سبب عذابنا وآلامنا .

رد الرؤساء عليهم ، و ﴿ قَالُوا بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إنا ما أضللناكم بل أنتم أضللتم أنفسكم ، فلقد امتلأت قلوبكم بحب الكفر ، والميل للمعصية ، وقد أسرعتم إلى الكفر ، وعصيتم الله ... ولم يكن لنا سبيل عليكم فلو تمسكتم بغير ما دعونا إليه ، فلکم ما تمسكتم به ، ولم تكونوا مؤمنين قبل أن نتحدث معكم .

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ أى إننا

لم نجبركم على الكفر ، ولم نسلب اختياركم ، ولم يكن لنا سلطان عليكم ، ولكن الظلم والطغيان كامن في أعماقكم ، فقلوبكم كانت محبة للكفر ، مائلة له فلما دعوناكم لما نؤمن به لبيتم الدعوة ، ورضيتم بها ، وكنتم سعداء بالاشتراك معنا فكفرتم باختياركم ورضاكم ، وكنتم بعقلكم وطبيعتكم من الطغاة الظالمين .

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّآ لَذَٰبِقُونَ ﴾ أى يقر الظالمون جميعا

(رؤساؤهم ، ومروعسوهم) بأنهم طبعوا على الطغيان ، وأحبوا الكفر ، وأعرضوا عن الإيمان ، واليوم يعترفون بأنهم استحقوا عذاب الله تعالى ، وهو جزاء لا محيص عنه ، فهو نتيجة حتمية للضلال والكفر الذى اختاروه ، ولا يصح التنازع في هذه العقوبة ، أو التخاصم حولها ، واتهام الآخر بعد ذلك ، وعلينا أن نقبل العذاب الأليم ، ونتذوقه فهو نتيجة عملنا .

﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰوِينَ ﴾ أى يقول الرؤساء : دعوناكم ورغبناكم

فيما رغبنا فيه وهذا عرض كلامى فقط ، ولم نرد لكم إلا أن تكونوا مثلنا بحب ومودة ، ولم نجبركم ، إلا أن الاختيار كان خياركم ، والقرار كان قراركم .

﴿ فَلَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أى إن المشركين جميعا

يشتركون في العذاب الذى قدره الله لهم ، فقد اشتركوا جميعا في الكفر والمعاصى . والكفر جريمة واحدة ، والعقوبة عليه متساوية ... ، إلا أن دعاة الكفر يحملون أوزارهم ، ووزر من كفر مثلهم إلى يوم القيامة فقد ضلوا وأضلوا فاستحقوا وزر من ضل مثلهم إلى يوم القيامة .

﴿ إِنَّا كَذَّابُكَ نَفَعُلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى إنا نعذب المجرمين بالعذاب

الآليم الذى سبق ذكره وهو حقهم الواجب لهم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى إنهم كانوا

إذا دعوا إلى توحيد الله تعالى ينفرون ، ويعرضون ، ويصغرون خدودهم استعلاء وكبرا .

﴿ وَيَقُولُونَ أَبَنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ ؟ ... أى ويقولون

إنكارا منهم لدين الله ، واستهزاء برسول الله : أنترك عبادة آلهتنا التى توارثناها عن آبائنا ، ونستمع لقول شاعر يخلط ، ويهذى ؟ ... ومثله لا يستمع لقوله ، ولا يصغى إلى دعوته ، يريدون بقولهم رسول الله ﷺ لعنهم الله تعالى .

﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى يرد الله القول السفيه من

المشركين ، ويضرب عنه ، ويقول لهم : دعوا قول هؤلاء المشركين فهم كاذبون ، لأن محمدا ﷺ جاء بالحق الذى لا شك فيه ، ودعا إلى التوحيد الخالص ، وهو قضية الصدق في هذا الوجود ، وحث على الاستقامة ، وصدق الرسل الذين سبقوه ، ولم يخالفهم ، أو ينقضهم .

وشأن الرسل جميعا أنهم على خط واحد ، يمهّد من سبق منهم لمن يلحقه ، ويصدق اللاحق بمن سبقه ... وكانوا على ذلك إلى أن جاء محمد ﷺ بدين الله تعالى فاشتمل على الأديان كلها ، وختمها ، وأتمها ، وأكملها .

ويقضى الله بحكمه فيهم ، ويبين مصيرهم ، وسببه ، فيقول لهم : ﴿ إِنَّكُمْ

لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْآلِيمِ ﴾ أى أنكم أيها الكفار معاقبون بالعذاب الشديد المؤلم

(٧٥٤)

في جهنم ، ويؤكد الله لهم وقوعه ، ويسخر منهم بجعل النار والعذاب مذاقا لهم بصورة دائمة .

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إن هذا الجزاء الأليم الذى تعيشون فيه في الآخرة هو جزاء ما عملتم في الدنيا بلا زيادة عليه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبدأ الآيات بالأمر بسؤال منكرو البعث عن سبب كفرهم ، فقد خلقهم الله تعالى ، وخلق الكون كله بضامته ، وقوته ، وتجده ، ومن اليسير ان يخلق الأضعف والأقل منه ، ومن المعلوم أن الإنسان أضعف من مخلوقات عديدة فقد أنشأه الله من طين لازب .

وتبين الآيات للمشركين أن الضلال سيطر عليهم ، وأفسد عقولهم وأبصارهم ، فلا يرضون بذكر ، ولا يسمعون لنصح ، ويسخرون بالرسول ، ويستهزئون بآيات الله ، ويتصورون استحالة البعث بزعم أن الروح قد انفصلت عن البدن ، وصار الجسد ترابا يطير مع الريح .

إن يوم القيامة حق ، وما هى إلا صيحة تميتهم جميعا ، وصيحة أخرى تحييهم ، وتحشرهم للحساب والجزاء .

وفى يوم القيامة لا ينفعهم لوم ، ولا تقبل منهم توبة ، ويحاسب الله كل إنسان بعمله ، ويقيم الحجة عليهم ، ويقول لهم : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(١) .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٥٥ .

(٧٥٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

إثبات صدق محمد ﷺ ورد الإساءة عنه

حجة العاجز ادعاء القوة ، والهروب من الحوار إلى العناد ، والكذب ، والعدوان ... وهذا ما كان من كفار مكة مع رسول الله ﷺ ، حين دعاهم إلى الإيمان بالبعث ، وعرفهم بأن خلق الله للكون برهان على إمكانية البعث ... إلا أنهم لما عجزوا عن الرد لجأوا إلى السخرية من رسول الله ، واتهامه بالسحر والجنون ، وبأنه شاعر يزين القول ، ويزخرفه ليضل الناس بما يقول .

وقد رد الله كيدهم بإثبات أنهم هم الكاذبون ، وأن عذاب الله سيحل بهم على كفرهم ، وعدوانهم على رسول الله ﷺ . إن كفرهم يؤدي بهم إلى العذاب وتكذيبهم لرسول الله يثبت سفاهتهم ، وضلالهم لأن رسول الله واحد من رسل الله تعالى جاء بالحق ، وصدق بإخوانه المرسلين .

وكان الأولى بهؤلاء المشركين أن يبحثوا أمر محمد ﷺ ، ويدرسوا مدى صدقه ، وحقيقة دعوته ، ويتأملوا فى الآيات التى نزلت عليه ، أو فى الآيات التى وجههم إليها فى أنفسهم ، وفى الكون المخلوق .

لو استعمل المشركون عقولهم لعلموا أن محمدا هو رسول الله ، وأنه فى الآيات التى حريص عليهم ، وعلى إخراجهم من الظلمات إلى النور .

(٧٥٦)

الركيزة الثانية

إثبات البعث

تنبت الآيات البعث بطرق عدة :

فهى . أولا . تطلب من المجادل الموضوعية ، وحصر الحوار فى الموضوع الذى يدور حوله الحوار ، وضرورة فهم الموضوع ، والتأمل فيه ، ونفده ، والبعد عن الاستهزاء والسخرية لأن الاستهزاء لا يفيد ، ويحول الحوار إلى خصومة ، وجدل عقيم .

وهى . ثانيا . تدعو منكرى البعث إلى مقارنة خلقهم بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما لتأكيد أن من خلق الكون الكبير قادر على إعادة الحياة ، وبعث الناس ، وإعادة الأجساد بعد تفتتها ، وفنائها ...
إن عجائب الخلق عديدة ، وكلها تؤكد أن البعث حق لا ريب فيه .

الركيزة الثالثة

تخاصم أهل الباطل

يلتقى أهل الباطل فى الدنيا حول باطلهم ، ويتعاونون عليه ، ويتصورون أنفسهم على الحق ، وهم غافلون .

وفى يوم القيامة يكتشفون الحقيقة ، ويظهر لهم فساد ما كانوا فيه ، ويتهم كل منهم غيره بأنه سبب ضلاله ، وأنه سبب عذابه وآلامه .
ويستمر الحوار ليصل إلى أن كل إنسان مسئول عن نفسه فمعه عقله وفكره ، وله حريته ... ولا إجبار فى العقيدة ... ولذلك يعذب الله جميع الكافرين ، ويسكنهم جهنم وبئس المصير .

(٧٥٧)

الركيزة الرابعة الجاحد لا عقل له

منكر الشمس الطالعة وقت الزوال لا بصر له ، ومن الصعب أن تقنعه بوجودها . فقد أنكر الموجود المحسوس ، وعميت بصيرته ، وتبدل حسه ، ولم يعد يعترف بشئ ، والكافر هو هذا الجاحد الذى يتصور عبادة الحجر أنفع له من عبادة الخالق القادر .

إن العاقل يسلم بالبداهة العادية لينطلق منها إلى الموجودات العقلية الضرورية ليعرف الأمور المجردة تجريدا مطلقا .

إن العقل السليم يعرف أن النصف جزء من الكل ، وأن الولد أصغر من أبيه ، وأن العاقل أفضل من المجنون ، وأن القادر أعظم من العاجز ، وأن من لا يخلق لا يتساوى مع الخالق ، وأن الصانع عليم بما صنع . وينطلق العاقل من هذه القضايا إلى الإيمان بالله ، واليقين بأن لهذا الوجود موجدا هو الله تعالى .

إن الكافر إنسان جاحد لا يستفيد بعقله ، ولذلك ينكر ما يرى ، وينسى ما يسمع ، ولا يفرق بين النصح والتضليل ، ولا يرى فى هذا الكون الفسح إلا العبث ، والصدفة ، والتلقائية .

إن الكافر فاقد للعقل ، ولذلك لا يؤبه له ، ولا يلتفت لقوله ، ولا يغتر بما يحيط به نفسه من مظهر كاذب ، وادعاء مزيف ... إنه جاهل وان ادعى المعرفة ... ضعيف وان زعم القوة ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾^(١) .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٣ .

الركيزة الخامسة

فضيحة الآخرة قاسية وشديدة

يستمر الكافر على ضلاله ، ويتصور نفسه نجا وفاز ، وما علم أن الفضيحة الكبرى تنتظره يوم القيامة التى يكذب بها فى الدنيا .

إنه يفاجأ بيوم القيامة ، وإذا به يحيا بين قرنائه ، ينظر إليهم ، وينتظر معهم الحساب والعقاب ، فيقولون : ﴿ يَوَيْلَنا هَذا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ^(١) هذا اليوم الذى يؤكد أنا كنا فى وهم كاذب ، وضلال مبين .

وتتوالى الفضائح على الأشهاد ، ويحشر الله آلهتهم ، وأصنامهم معهم فيتبرأون منهم ، ويؤكدون أنهم لم يكونوا آلهة أبدا ، ولم يطلبوا ذلك .

ويلحق الخزي بالكافرين ، وتنتشر فضائحهم ، ويستسلمون للعذاب الأليم .

إن هذه الفضيحة عقوبة مقررة لكل أفاك أثيم ، يعرضها الله فى القرآن الكريم إنذار للعصاة ، وبيانا للعقلاء ، وتذكيرا للناس ليختاروا لأنفسهم ، ويستعدوا لما يأملون .

إن الموقف صعب ، والعاقل من يستعد له بالعمل الصالح ، ويطهر نفسه بالتوبة والاستغفار ، والرجوع إلى الله ، لأن فضوح الدنيا مهما كبر فهو أهون من فضوح الآخرة . نسأل الله التوفيق والهدى .

(١) سورة الصافات ، الآية ٢٠ .

أحوال المؤمنين يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ١ أُولَئِكَ هُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿ ٢ ﴾ فَوَاكِهُ ۖ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ ٤ ﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿ ٥ ﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿ ٦ ﴾ بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿ ٧ ﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿ ٨ ﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ عَيْنٌ ﴿ ٩ ﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿ ١٠ ﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿ ١١ ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿ ١٢ ﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿ ١٣ ﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿ ١٤ ﴾ قَالَ هَلْ أُتِمُّ مُطْلَعُونَ ﴿ ١٥ ﴾ فَأُطْلِعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿ ١٦ ﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُزْدِينَ ﴿ ١٧ ﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿ ١٨ ﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿ ١٩ ﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا آلَأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿ ٢٠ ﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ ٢١ ﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿ ٢٢ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مصير الكافرين في الآخرة ، وتخاصمهم عند العذاب جاءت هذه الآيات لبيان مصير المؤمنين في الآخرة ، فهم بسبب إخلاصهم يكرمهم الله في مقامهم ، ورزقهم ، وزوجاتهم ، وخدمهم ، ... وحديثهم ، وتبين الآيات استحقاقهم لما هم فيه من نعيم فقد طردوا الشيطان ، ولم يغتروا بوساوسه .

(٧٦٠)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أعد للمؤمنين جنات النعيم ، وأثابهم فيها برزق معلوم ومقام كريم ، وشراب طيب ، وزوجات حسان ، ولقاء المحبين ، وأحاديث الصالحين ... ويريههم الله أصحاب النار ليروا ما هم فيه من نعيم ، ويشكروا الله على ما أفاض عليهم من خير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لما ذكر الله في قوله تعالى : ﴿فَأَيُّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أن المشركين ، والمنكرين للبعث مشتركون في العذاب جاء هذا الاستثناء لبيان أن عباد الله ليسوا مع هؤلاء المعذبين ، فهو لهم خاصة ، وهو استدراك يفيد تعقيب الكلام بما يناقضه ، فإن جزاء المؤمنين الصادقين يناقض بصورة تامة عقوبة المشركين ، ولذلك قال النحاة : إنه استثناء منقطع .

وعباد الله هم المؤمنون الصادقون الذين دخلوا في الإسلام ، وآمنوا به وأضافتهم الآية إلى مسمى الذات العلية تشريفا لهم ، وتكريما لمقامهم ، ومما ينسب إلى الإمام الشافعي قوله ﷺ :

ومما زادني شرفا وتيها .: وكدت بأخمصى أطأ الثريا

دخولى تحت قولك (يا عبادى) .: وأن أرسلت أحمد لى نبيا

ووصفتهم الآية بـ ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام أو بكسرها لتفيد أن الله اختارهم لولايته ، ونجاهم من وساوس الشيطان ... وتفيد أنهم أخلصوا عملهم لله ، ورضوا أن يكونوا مع الصادقين .

وقد رفع الله مقامهم ، وجازاهم خير الجزاء كما هو واضح في الآيات التالية :

(١) **علو المنزلة** : يشير الله إلى المؤمنين بـ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ لبيان علو مقامهم ، وبعد منزلتهم عن الدنو .

(٢) **طيب الطعام** : يتمتعهم الله بالطعام الحسن . يقول الله تعالى : ﴿ هُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ ﴾ أى أن الله أعد لهم طعاما شهيا ، يأتى في موعده ، ولا ينتظره المؤمنون ، ويكون هنيئا مريئا كافيا لهم ، ويكون مما لذ وطاب من طعام يأكلونه ، وفاكهة تتكون من الثمار والبقول اللذيذة التى تفكههم ، وتسرحهم .

(٣) **انتعاش النفس** : وهو الإحساس بالسعادة ، والشعور بالرضى والسرور ، والافتناع بما هم فيه ، فيشرحون . يقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ﴾ أى أنهم في وسط النعيم المادى يرون نعيم الكرامة التى تحيط بهم من كل جانب ، وبذلك تسعد النفس ، بتخلصها من أكارها ، وخلوها من اللوم ، والنكد ، والخوف من المجهول ، فقد أكرمهم الله ، وأسكنهم في نعيم الجنات ، وأحاطهم بالخيرات المعنوية والحسية ، والروحية ، فلا يرون إلا حسنا ، ولا يسمعون إلا خيرا ، ولا يلحقهم إلا المدح ، والبهجة ، والسلام .

(٤) **حلاوة المقام** : يقول الله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أى أن المؤمنين يجلسون على كراسى واسعة ، يمكن الاضطجاع عليها ، حتى لا يملوا من الجلوس فوقها ، وحتى يكون جلوسهم على الأرائك متعة لهم جعلها الله متقابلة ، فكل سرير يوجد أمامه سرير آخر ... وبذلك يلتقى المؤمنون ، ويأنس

بعضهم لبعض ... ومن المعلوم أن رؤية الحبيب ، والقريب ، والصديق تؤنس النفس ، وتريح الضمير .

(٥) لذة الشراب : يقول الله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴾

أى إن خدم الجنة يطوفون على المؤمنين لسقياهم بكأس ملئ بخمر ، طعمها لذيد للشاربين ، والكأس هى الإناء الزجاجى الشفاف ، لا عروة له ... وهذا الكأس يكون ممتلئاً بشراب دائم كأنه من عين جارية ، أو نهر متدفق .

﴿ بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى أن هذه الخمرة التى يشربونها لونها مشرق

بهى ، فهى بيضاء مع ميل إلى الصفرة .

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ أى ليس فى هذه الخمر أثر سئ

على الأجساد ، ولا تذهب العقول ، وليس لها من خمر الدنيا إلا مسماها فقط .

(٦) الزوجات الحسان : يقول الله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ ﴾

عَيْنٌ ﴾ أى وعند هؤلاء المؤمنين زوجات حسان ، يقصرن أعينهن عليهم ، ولا ينظرن لغيرهم لا لضعف فى أعينهن ، فهم يملكون أعينا نجلاء واسعة ، وانما يحدث ذلك منهن لشدة عشقهن ، وتعلقهن بأزواجهن .

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أى كأن الزوجات يشبهن بيض النعام المدفون

تحت التراب فى مكان نظيف ... ذلك أن النعامة تحفر الرمال لبيضاها ، وتفرشه بريشاها ، وبعدما تضع بيضاها تغطيه بالريش والرمل ، فيبقى البيض على بياضه الناصع المشوب بصفرة ، ويحافظ على ملمسه الناعم ، ونظافته التى نزل بها من النعامة .

ومعنى هذا أن زوجات المؤمنين من الحور العين لا ينظرن إلا إلى أزواجهن ، مع حور العين ، وسعتها ، والاتصاف بالنظافة ، والحسن ، والجمال

(٧٦٣)

لتعيش مع الأزواج في كنف كريم ، وجمال دائم ، ونظافة ظاهرة كما هي بيضة النعام .

(٧) جمال الحوار والحديث : يقول الله تعالى : ﴿ فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى

بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى إن أهل الجنة ، وهم يقيمون في النعيم ، يجمعهم الله في حديث طيب ، ويتكلمون في موضوعات شتى ، ويسأل بعضهم بعضا عن أمور متعددة في الدنيا أو في الجنة .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ أى قال واحد من أصحاب الجنة لجلساته قصة صاحب له ، كان يجالسه في الدنيا ، وكان يحدثه في أمور الدنيا والدين ... وكان هذا القرين يدعو إلى الكفر ، و ﴿ يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى إذا متنا وكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَءَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ ؟ ... أى كان يقول لى : أتصدق بالبعث بعد أن تموت ، وتصير ترابا وعظاما ؟ ... وهل تتصور عودة الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء ؟ ... ولذلك يروى المؤمن حكايته في الجنة يباهى إخوانه بها ، ويشكر الله عليها .

﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴾ ؟ ... أى قال المؤمن المتحدث لجلسائه

في الجنة ليزدادوا سرورا : هل تتطلعون إلى أهل النار لتروا المعذبين فيها ؟ والسؤال هنا للفت نظرهم إلى رؤية مصير الكافر ، ولذلك عرض المؤمن عليهم أن يتطلعوا إلى رؤية القرين الكافر وهو يعذب ... وكيفية الاطلاع ، وزمانه من الأمور التى لم تبينها القصة ، وعلمها عند الله تعالى .

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ أى اطلع المؤمن إلى قرينه فرآه في وسط جهنم مع المعذبين الضالين .

﴿ قَالَ تَأَلَّهَ إِنْ كِدَتْ لُزْدِينَ ﴾ هذا جواب عن سؤال محذوف تقديره ، فماذا حدث بعد أن رأى قرينه وسط جهنم ؟ ... وكان الجواب هو أنه أقسم ، وقال للقرين : لقد كاد أن يؤذيه ، ويلقيه في النار معه .

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أى ولولا رحمة ربي بي ونعمته على لكنت الآن معك من المحضرين في جهنم .

ويتواصل حديث المؤمنين في الجنة ، فيقول المؤمن تذكيرا لإخوانه بحالة يعيشونها ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾  إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ  ؟ ... الاستفهام للإقرار أى أننا الآن في حياة دائمة لا نموت فيها ، فقد ذقنا الموتة الأولى التي كتبت علينا ، وما نحن في الجنة ، ولن نعذب بعد ذلك .

﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى يقول المؤمن : إن ما نحن فيه هو نعيم مقيم ، وفوز كبير ، وجزاء حسن جميل .

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أى لمثل هذا الجزاء الشامل الكامل يجب أن يخلص المؤمنون ، ويعملوا له فهو الخير كله .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الجزاء الحسن الذى يناله المؤمنون المخلصون في الآخرة حيث علو المنزلة ، وطيب الطعام ، ولذة الشراب ، والزوجات الحسان ، واللقيا

(٧٦٥)

بين الأحباب ، والأقارب ، والأصحاب ، والشعور السعيد بفضل الله ، وأقرارهم بأن الله أنقذهم مما وقع فيه قرناؤهم ، فلولا رحمة الله بهم لكانوا من أصحاب الجحيم .

إن أصحاب الجنة يعيشون في رضوان الله سعاء ، حامدين شاكرين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تشير الآيات إلى ركيزة هامة ... هي :

عظمة نعيم أهل الجنة

تتأدى الآيات الناس للفوز الكبير عند الله تعالى ، وتعرفهم أن الطريق إليه ميسور لكل إنسان وهو يعيش الحياة الدنيا .

إن الآيات تفصل في الفوز الكبير ، وتحببه إلى قلوب وعقول الفاهمين ليسارعوا إلى العمل الذي يحققه ، وبخاصة إذا رأوه عملا ميسورا .

إن الجزاء الأخرى يشمل المطعم الجميل ، والفواكه اللذيذة ، والكرامة الغالية ، والإقامة المريحة ، والحدود العينية ، الحسان ، الجميلات ... ولكل هذا يعيش المؤمنون نعيم الجنة بكل صورها ، وأحوالها ، وحالاتها .

وهذا النعيم أمل يتمناه العقلاء في الآخرة لاستمراريته ، وتجده ، وحين يتضح طريق هذا النعيم يسارع إليه المخلصون أملا في الفوز به .

إن الطريق إليه واضح وهو طاعة الله تعالى ، والاستقامة على ما جاء به رسول الله ﷺ ، والتمسك التام بدين الله تعالى .

إن هذا الطريق يؤدي إلى النعيم في الآخرة ، وهو مع ذلك يصلح الدنيا بالفهم الواعي ، والعمل الصالح ، والتمسك بالقيم الإنسانية النبيلة ، وأن يعيش المسلم عبدا لله تعالى ليفوز برضاه في الدنيا ، ورضوانه في الآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم .

جزاء الكافرين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ أذَلِكَ خَيْرٌ تُزَلَّأُ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ (٣٦) إِنَّا جَعَلْنَهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾
 إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٣٨﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٣٩﴾
 فَإِنَّهُمْ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لُكُونِ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ
 ﴿٤١﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٤٢﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٤٣﴾ فَهُمْ عَلَى
 ءَاثِرِهِمْ مُدْرَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
 مُنْذِرِينَ ﴿٤٦﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٤٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٨﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة الجزاء الحسن للمؤمنين في الآخرة جاءت هذه
 الآيات لبيان العقوبات الأليمة التي بوضع فيها الكافرون بدين الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الكافرين يلاقون العذاب الأليم في الآخرة ، وهو عذاب
 يشمل مأكلكم ، ومشربهم ، ومقامهم ، وتبين الآيات أن الكافرين قلدوا آباءهم
 وكفروا مثلهم ... وسنة الله في خلقه أن أرسل لساير الأمم رسلا فلما كفروا
 بهم أهلكهم الله بعذاب من عنده ، ولن ينجو من عذاب الله إلا المخلصون في
 سائر الأمم .

(٧٦٧)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَدَّٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمَّ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ، بدأت

الآية به لتوبيخ المشركين وتبكييتهم ، وذلك من خلال الإنكار عليهم ، وبيان أن مكان المؤمنين في الجنة أحسن وأعظم من مكان شجر الزقوم ، الذى نبتت في جهنم لتكون طعام أهل النار .

وفى هذا السؤال بيان لعلو مقام أهل الجنة ، وطيب منزلتهم ومأواهم ، وتوضيح لسوء مقام الكفار وطعامهم وشرابهم .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى جعلنا الإخبار بوجود شجرة الزقوم

في جهنم اختبارا وابتلاء للكافرين ، لأنهم لما سمعوا بوجودها أنكروا ذلك ، وقالوا : كيف توجد شجرة خضراء ، وتستمر وسط نار من خاصيتها تحرق الشجر ؟ ... مع أن هذا أمام قدرة الله لا عجب فيه ، فإن من قدر على حياة إنسان وسط النار لا يموت فيها ولا يحيا كما هو حال المشركين في جهنم قادر على إيجاد شجر أخضر وسط النار .

وأخذت الآيات تصف شجرة الزقوم وتحدد مكان وجودها ، وشكلها ، وآكلها . فقال تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أى إنها شجرة تنبت في قعر جهنم ، وينميها السعير المتقد بلا انقطاع .

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ أى أن ثمرها الذى تطلعه وتخرجه

قبيح المنظر ، كرية الشكل ، يشبه رؤوس الشياطين .

والعرب تتخيل رأس الشيطان صورة بشعة لا تعدلها صورة أخرى ، فيقولون لمن يسمونه بالقبح المتناهي : كأن وجهه وجه شيطان ، وكأن رأسه رأس شيطان .

وعلى العكس من هذا تراهم يشبهون الصورة الحسنة بالملك ، وعلى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن صواحبات يوسف ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾^(١) .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ إى فإن المشركون والعصاة يأكلون من ثمر شجرة الزقوم ، ويملاؤن بطونهم منها ، مضطرين لذلك من شدة جوعهم .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أى أنهم بعد أن يشبعوا ويأكلوا يشربون ماء المهل الذى يشوى وجوههم ، ويقطع أمعاءهم .

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ﴾ أى أنهم بعدما يأكلون ، ويشربون يرجعون إلى الجحيم ، ويقيمون في نار جهنم ... وهكذا يعيش الكافرون سوءا في طعامهم ، وشرابهم ، ومقرهم ، ومأواهم .

وبعد ذلك يبين الله سبب ضلالهم الذى استحقوا به هذا العذاب . فيقول تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَكْفَرُوا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٦﴾ فَهُمْ عَلَىٰ عَٰثِرِهِمْ مُرْغُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ أى أن المشركين وجدوا آباءهم في الدنيا يعبدون الأصنام فاتبعوهم ، وعبدوا الأصنام مثلهم ، وأسرعوا إلى الكفر ، وتمسكوا بتقليد أسلافهم .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى ولقد ضل قبل مشركى مكة كثير من الأمم فعبدوا أصناما وأوثانا ، واتخذوها آلهة من دون الله تعالى .

(١) سورة يوسف ، الآية ٣١ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أى أرسلنا إلى الأمم السابقة رسلا لدعوتهم إلى الإيمان ، وحثهم على ترك الكفر والضلال ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، ولذلك اختلفت العاقبة للفريقين . فقد عاقب الله الكافرين بما أنذرهم به لما أعرضوا ، وكفروا ﴿ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى تأمل في عاقبة الكافرين في الأمم السابقة ... وأما من آمن ، وعمل صالحا ، واخلص لله في العبادة فلهم جنات النعيم ولذلك كان استثنائهم من عاقبة المكذبين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى أن عباد الله المؤمنين ليسوا كالكافرين المنذرين حيث خصهم الله بجنات النعيم ، وأبعدهم عن نار الجحيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يسخر من المشركين وهو يعرفهم بمصيرهم السيئ في الآخرة ، فطعامهم من شجرة الزقوم الكريهة المنظر ، المرة الطعم لا يأكلون سواها ، ويشربون من المهل المغلى الذى يحرق الوجوه ، ويفتت الأكباد ... وتبين الآيات أن المشركين استحقوا هذا الجحيم ، لأنهم قلدوا آباءهم وأسلافهم ، وتمسكوا بعبادة الأصنام ، ولم يؤمنوا بالله الذى دعاهم الرسل إليه ... فكانت عاقبتهم جهنم التى نجى الله منها المؤمنين .

(٧٧٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

سنة الله في الناس لا تتغير

يظلم الإنسان نفسه حين يغفل عن طاعة الله تعالى ، مع أن الله أنذره بسوء العاقبة ، وأرسل له رسله ، وأنزل عليه كتبه ، وحكم بينه بالعدل والقسطاس ... وظهر قدر الله في الناس خلال التاريخ فنجى الله رسله وأوليائه ، وأهلك الكافرين والمشركين .

وقدم القصص القرآنى هذه الحقيقة لتكون عبرة لأمة القرآن الكريم ، يتعظون بها ، ويتعدون عن الكفر والضلال .

إن القصص القرآنى يبين أن أكثر الأمم في الماضى كانوا يقلدون آبائهم وأسلافهم ، فاستمروا على الكفر ، ولم يؤمنوا برسول الله الذى جاءهم فأجرى الله عليهم سنته في الظالمين .

الركيزة الثانية

سوء عاقبة الظالمين

تصور الآيات العاقبة السيئة للمشركين الذين كفروا بالله ، وأنكروا البعث ، وعبدوا الأوثان والأصنام ... وتوضح العذاب والآلام التى سيجدون أنفسهم يوم القيامة ... إنهم يأكلون من شجر الزقوم ، ويشربون شرب الهيم ويعيشون بين النار والجحيم ، لا يموتون فيها ، ولا يمتعون .

لقد جاءتهم النذر ، ودعاهم الرسل ، واستمروا على الكفر والضلال فكانت جهنم مأواهم ، ومستقرهم ، وبئس المصير .

مع قصص سورة "الصافات"

بعد أن بينت سورة "الصافات" وحدانية الله تعالى ، وأوردت الآيات والشواهد العديدة المثبتة لهذه الوحدانية ، وفصلت في مصير المؤمنين والكافرين ، أخذت في عرض مطول للقصص استغرق ثلاثا وسبعين آية بدءا من الآية رقم (٧٥) إلى الآية رقم (١٤٨) لتبرز بصورة عملية تفصيلية ما حدث للرسول وأتباعهم ، ويلاحظ في هذه القصص ما يلي :

أولا : تناولت السورة ست قصص من قصص الرسل مع أقوامهم ، لأن في كل قصة خاصية تشبه فيها حالة الرسول ﷺ مع قومه ، وترشد في هذه الخصائص الصورة الطريقة المثلى لدعوة الناس ، والاستعانة بالله تعالى ، وبذلك يقدم هذا القصص في مجموعه منهجا لرسول الله وللدعاة سنتحدث عنه في الركائز .

ثانيا : اختار الله رسل هذا القصص لما لهم من أثر في حركة الدعوة حتى يستمروا قدوة للدعاة إلى يوم القيامة ... فنوح عليه السلام هو القدوة الكبرى في الصبر ، والتحمل ، والتجرد ، وبذل الجهد في الدعوة إلى الله ، ومواجهة أهله بالحق ، وتبرئته من زوجته وولده ، لكفرهما ، وإثبات الإخلاص المطلق للدعوة .

وابراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء ، ومنه تفرع الرسل ، وتوزعوا في أمتي العرب وبنى إسرائيل ، ومناهجه في الدعوة عديدة فقد دعا أباه ، والنمرود ، وعبد الكواكب ، والأصنام ، وكان له مع كل فريق خطة في الدعوة يجب أن تحتذى .

وموسى عليه السلام جمع بين الدين والسلطان ، وواجه الجحود والإنكار ، ولم تثن له قناة في الدعوة إلى الله تعالى ، وترك تاريخه مع بنى إسرائيل صورة تفصيلية لطبائعهم ، وأخلاقهم ، ودهائهم ، ومنهجهم القائم على الغرور

والتعالى ، والجحود ، ويجب أن تبقى هذه الدروس حية أمام الدعوة ، وهم يتعاملون مع بنى إسرائيل .

هؤلاء الرسل الثلاثة نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام قدموا أصول الدين ، وطرق الدعوة إليه ، وأما الرسل الثلاثة الآخرون فقد تفرعوا عنهم ، ودعوا بدعوتهم ... لأن لوطا عليه السلام دعا بدعوة إبراهيم عليه السلام ، والياس ويونس عليهم السلام فقد دعوا بدعوة موسى عليه السلام .

إن القصص الست تقدم منهج الهداية أمام الدعوة ، لقول الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلِهِمْ اقْتَدِهْ ۚ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) .

ثالثا : ركزت الآيات على المعجزات التي أيد الله بها رسله ، وصور الفوز والنجاة التي قدرها الله لكل رسول ، ولم تتحدث الآيات عن الجدل بين الرسل والناس ، وركزت على عصمة الرسل ، وفوزهم ، وكأن الآيات نزلت لتعريف رسول الله والمؤمنين بدعوته بالجوائز الإلهية التي أعدها لعباده المؤمنين رابعا : اختصرت الآيات المراحل الأولى للرسل قبل الدعوة وبعدها ، وقصدت إلى غايتها مباشرة ، ولم تتحدث إلا عن نشأة إسماعيل عليه السلام ، ولذلك أفادت ضرورة تخصيص الحديث في أمر ما بموضوع واحد لتوضيحه حين الحاجة إليه منعا للتشتت والملل .

خامسا : وردت آيات معينة مع كل رسول تشير إلى الجزاء الحسن وسبب استحقاقه هذا الجزاء ، وقد تكرر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٠ .

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) مع رسل الله نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون ، والياس عليهم السلام ، ولم ترد كلمة ﴿ إِنَّا ﴾ مع إبراهيم عليه السلام ، ومع لوط ويونس عليهما السلام جاء حديث النجاة بصيغ أخرى ، وجاء سلام الله عليهم فرادى ، فقال تعالى : ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعِلْمِينَ ﴾ ، و ﴿ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، و ﴿ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ و ﴿ سَلَّمَ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ ﴾ وهذا يفتح باب الأمل أمام كل مؤمن صادق ، لأن الله قدر الفوز ، والنصر لكل محسن صادق ، وجعل جزاءه للمرسلين صورة لجزاء كل محسن ، وبين أن هذا الجزاء هو جزاء كل مؤمن صادق .

سادسا : بينت قصة إبراهيم عليه السلام انتصاره على عبدة الأصنام بعد حوار معهم ، وتفصل فى قصة ولده الذبيح بعد حوار معه لبيان موقف الأب من ابنه ، وضرورة الالتزام بطاعة الله ، وتبين مدى طاعة الولد البار لأبيه .

سابعا : تتميز سورة "الصافات" بقصر الآيات ، وتناسب الفواصل ، فلقد انتهت فواصل آياتها من الآية رقم (١١) حتى آخر السورة فى الآية رقم (١٨٢) بحرف النون ، ولم تتغير الفاصلة إلا فى أربع عشرة آية انتهت بحرف الميم، وذلك من إعجاز القرآن الكريم الذى لا يعلم أسرارهِ إلا الله تعالى . وسوف أتناول القصص كما دلت عليه الآيات على ترتيب السورة ، على أن أختتم القصص بالركائز المستفادة منها ، وذلك فيما يلى :

(١) سورة الصافات ، الآية ٨٠ ، ٨١ .

- أولا -**قصة "نوح" عليه السلام**

تبدأ قصة نوح عليه السلام من لجوئه إلى الله ، واستغاثته به ، لينقذه من استهزاء الكافرين وسخريتهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ أى ولقد استغاث نوح عليه السلام واستنصر بنا على كفار قومه الذين بالغوا في إيذائه ، والسخرية منه ، فلبينا نداءه ، وأهلكنا الكافرين الضالين .

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان النبي ﷺ إذا صلى في بيتي ومر بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ يقول : صدقت ربنا ، أنت خير من دعى ، وأقرب من بغى وأفضل من أتى ، فنعم المدعى ، ونعم المعطى ، ونعم المسئول ، ونعم الولي ، أنت ربنا ، ونعم النصير^(١) .

وجاء الجواب مصدرا بالفاء واللام ﴿ فَلَنِعَمَ ﴾ لتأكيد الاستجابة وسرعة وقوعها ، والمخصوص بالمدح المحذوف هو "نحن" لبيان عظمة المستجيب وقدرته ، وهو الله تعالى .

وقد نادى نوح عليه السلام ربه لينجيه من ضر وقع عليه من قومه ، ومن ضر يهددونه به فاستجاب الله له .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أى نجينا نوحا عليه السلام وأهله الذين اتبعوه ، والذين آمنوا معه من الطوفان الذى ملأ الأرض ، وأغرق الكافرين ، وهو كرب كبير أغرق المشركين جميعا ... أما غيرهم فقد نجاهم الله تعالى منه بركوب السفينة كما هو واضح في سور أخرى .

(١) أمالى ابن بشران ج ١ ص ٩٧ .

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ أى أهلكنا من كفر بدعوة نوح عليه السلام ولم

يبقى في الأرض إلا من آمن بدعوة نوح عليه السلام وركب السفينة معه .

وظاهر الآية يبين أن المؤمنين بنوح عليه السلام هم الذين بقوا في الأرض ،
وهلك ما عداهم بالغرق أو بالموت ، ولذلك سمى نوح أبا البشرية الثانية ، ولا
وجود لدليل ثابت يرد هذا الظاهر فلزم القول به .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى تركنا له ثناء ومدحا في الأمم التي

أتت بعده متأخرة عنه .

﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ أى أثنى الله على نوح عليه السلام وحياءه ،

وأكرمه بالرضى والقبول ، وجعل هذا السلام مستمرا في الأمم والقرون من
بعده له عليه السلام .

وفى تميز السلام على نوح عليه السلام بأنه ﴿ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ للتبويه بذكره في الأمم
كلها لأنهم جميعا ينتمون إليه ، ويذكرونه بالصدق ، وبأنه أول من واجه الكفر
والضلال ، فلقد كانت البشرية قبله على الإيمان ... وقد استمر نوح عليه السلام ينكر
عبادة الأصنام والأوثان ، ويدعو على عابديها حتى أهلكهم الله بدعائه ، ولذلك
جعل الله له السلام في العالمين بين الناس ، وبين الملائكة والجن دون سائر
الرسل فقد جعل الله السلام عليهم فقط ﴿ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ و ﴿ سَلَّمَ عَلَى
إِلْيَاسِينَ ﴾ لأنهم لم يكونوا مثله في الأبوة ، والدعوة إلى الله تعالى .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى إنا نجازى كل مؤمن بالخير ،

ونستجيب لدعوته ، بمثل ما جازينا نوحا عليه السلام فقد كان محسنا في طاعته
واخلاصه ، وعبادته لله تعالى ، وصدقه في الدعوة إلى الله تعالى ، لأن
الإحسان أعلى درجات القرب ، والطاعة ، والإخلاص ، فلقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن

(٧٧٦)

الإحسان فقال ﷺ "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (١)
﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى إن نوحا عليه السلام استحق النصر والفوز ،
والنجاة لأنه عاش عبدا لله تعالى ، مؤمنا بربه ، صادقا في استسلامه ،
ومطيعا في كل ما أمر به .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى أن الله نجى المؤمنين ، وأغرق ما عداهم
وهم الكافرون لتبدأ البشرية مسيرتها الجديدة ، مبتدئة بالمؤمنين ، لتكوين القبائل
والشعوب كما قدر الله تعالى .

وقد بينت الآيات مع قصرها نعماء عديدة أعطاها الله لنوح عليه السلام وهى :

- (١) نجاه الله من الغرق حين أمره بركوب السفينة .
 - (٢) نجى الله المؤمنين معه .
 - (٣) نجى الله أهله الأقربين الذين ركبوا معه .
 - (٤) أغرق القوم الظالمين .
 - (٥) أبقى ذكره في العالمين .
 - (٦) أحاطه بالرضى ، والثناء عليه عند الأمم كلها .
 - (٧) جعله الله من المحسنين ، ووصفه بالإحسان .
 - (٨) عده من عباد الله تعالى .
 - (٩) متعه بروضان الله في جنات النعيم .
 - (١٠) جعل الرسل من بعد أشياعا وأتباعا له .
- وهذا من جوامع الكلم في القرآن الكريم فقد جاءت هذه النعم في إشارات
خاطفة من خلال كلمات الآيات .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ج ٦ ص ١١٥

(٧٧٧)

- ثانيا -

قصة "إبراهيم" عليه السلام

تبدأ قصة إبراهيم عليه السلام بمواجهته عبدة الأصنام من قومه في العراق قبل أن يهاجر إلى بلاد الشام ، وتركز الآيات على طرفين في قصته عليه السلام :

الأول : عن مواجهته لعبدة الأصنام .

والثاني : مواجهته ابنه بالذبح وفداء الله له .

أما عن الطرف الأول فيقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أى وممن سار على نهج نوح عليه السلام في الخلق ، والسلوك ، والدعوة إبراهيم عليه السلام ، وفى هذا إشارة إلى استحقاق إبراهيم عليه السلام للثناء الذى كان لنوح لأنه من أتباعه ، وعلى منهجه ، وخطاه ، وقد نبذ إبراهيم عليه السلام الأصنام والأوثان كما نبذها نوح عليه السلام وفيه كذلك أن إبراهيم عليه السلام كان محبا لنوح عليه السلام .

﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى إن إبراهيم عليه السلام أقبل على الله تعالى وعلى دعوة الناس بقلب طاهر نقى ، خال من الهوى ، والعجب ، والغرور والحقد ، والكراهية ... جامع لكمال النفس ، وحب النفع والمصلحة ... يفيض فيه الخير على أقواله وأعماله . يقول النبى ﷺ : "ألا وإن في الجسد مضغة إن صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب"(١)

(١) صحيح البخارى . كتاب الإيمان . باب فضل من استبرأ لدينه ج ١ ص ٢٠ .

... وقد بدأ إبراهيم عليه السلام بدعوة أبيه في بلده "أور" قبل أن يتركها ، مهاجرا إلى الله تعالى .

وفى وصف قلب إبراهيم بالسلامة ثناء عليه ، وقد أكد القرآن سلامة إبراهيم عليه السلام في عقيدته فقال ما حكاه الله عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾^(١) وظهرت سلامة قلب إبراهيم عليه السلام في دعوته ، وتنوعها ، وتحمله الأذى في سبيلها ...

ويبدو أن إبراهيم قد تميز بسمو أخلاقه عن غيره ، وذلك كرم من الله يرفعه بها ، ولا ينقص غيره ، لأن مكارم الأخلاق مثل الإيمان قابلة للزيادة والنقصان ، ولذلك فضل الله الرسل والأنبياء على بعض . يقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(٣) ومعنى هذا أن إبراهيم عليه السلام تمتع بحظ كامل في سلامة القلب ، ودعا إلى الحنيفية فكان عليه السلام أفضل الرسل وأكملهم بعد محمد ﷺ ، وادخر الله منتهى الكمال البشرى لمحمد ﷺ ولذلك قال ﷺ :

— "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"^(٤) .

— "بعثت بالحنيفية السمحة"^(٥) .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٣ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٥٥ .

(٤) السنن الكبرى للبيهقي . كتاب الشهادات . باب مكارم الأخلاق ج ١٠ ص ٣٢٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد ط . الرسالة ج ٣٦ ص ٣٢٤ .

فإن قيل : ما معنى وصف إبراهيم عليه السلام بسلامة القلب ، وأنه من شيعة نوح عليه السلام ؟

أقول : معنى وصف إبراهيم عليه السلام بهذين الوصفين ثبوت سلامة القلب لنوح عليه السلام أيضا لأن إبراهيم سار على خطاه ، وكان من شيعته ، ولا مانع من وقوع تفاضل بينهما في هذا المقام .

﴿ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ** ﴾ ؟ ... أى ظهرت سلامة قلب

إبراهيم عليه السلام حين دعا أباه ، وقومه ، ووقت أن بدأ بأهله ، منكرا عليهم عبادتهم الأصنام من دون الله تعالى ، وسألهم عن الآلهة التى يعبدونها من دون الله تعالى .

ومن سلامة قلب إبراهيم عليه السلام أنه أراد إنقاذ أبيه وقومه من الشرك والضلال ، وأنه لم يبدأهم بتسفيه عقولهم ، وانما سألهم عن كنه حقيقة هذه الأصنام التى يعبدونها ، لأنهم هم الذين يصنعونها ، ويتاجرون فيها ، ويعبدونها بعد ذلك .

ومن سلامة قلب إبراهيم عليه السلام أنه يريد هدم الأصنام ... إلا أنه ركز على ظهور فساد تأليهها للقضاء عليها ، والاقتصار على عبادة الله وحده .

﴿ **أَيْفَ كَأَنَّ الْإِلَهَةَ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ** ﴾ ؟ ... ينكر إبراهيم على قومه عبادة

غير الله ، ويقول لهم : أتكذبون كذبا كبيرا ، وتتخذون أصناما آلهة تعبدونها من دون الله تعالى ، مع أنكم صانعوها ؟

وهذا التأليه لغير الله تعالى تريدونه بعقولكم ، وتؤمنون به مع أنه لا دليل عليه من عقل أو من شرع .

﴿ **فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ؟ ... وهذا إنكار آخر من إبراهيم عليه السلام

على قومه ، فقد أنكر عليهم أولا عدم معرفتهم بحقيقة الإله حين سألهم :

﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ ... وأنكر عليهم ثانيا إرادتهم الكاذبة في عبادة غير الله :
 ﴿ أَيْفَكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ ؟ ... وأنكر عليهم مزاعمهم الكاذبة عن الله
 الواحد الأحد ، فجعل تصوراتهم عن الله ظنا ووهما ، وخطأ ... ومعنى الآية :
 ما هو تصوركم للسئ لله تعالى ؟
 الذى خلق وربى ؟ ...
 وهدى كلا لما خلق له ؟ ...
 وملك كل خلقه ؟ ...
 ولم لا تعبدونه ؟ ... وهو المستحق وحده للعبادة ؟
 والاستفهامات الثلاثة إنكارية لا تحتاج لإجابة ، لأنها جاءت لإنكار
 ما عليه المخاطبون .

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ أى فكر إبراهيم عليه السلام في نفسه ، وتأمل في
 حال الناس من حوله ، والعرب تعبر عن إطالة التفكير في أمر ما بالنظر في
 النجوم ، وتقييد النظر بأنه مرة واحدة لبيان أن الله ألهمه ، وأرشده إلى الحق
 وهداه إليه في نشاطه ، فكره مصاحبتهم ، وبين لهم حالته التى هو عليها حتى
 لا يذهب معهم في عيدهم .
 والسقم يشبه المرض البدنى إلا أنه يصيب النفس ، والعزيمة ، والهمة .
 وقول إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ من معاريف القول لأن ظاهره
 يفيد المرض ، ومعناه المقصود إنى مثل السقيم لا أستطيع الخروج^(١) .

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : "لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتين منهن في ذات
 الله عز وجل قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُم كَيْدُهُمْ هَذَا ﴾ [سورة
 الأنبياء ، الآية ٦٣] ، وبيننا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فسأله عن
 سارة فقال : "هي أختي" الحديث ، فورد عليه إشكال من نسبة الكذب إليه . ==

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أى تركوه وراءهم ، وذهبوا إلى عيدهم يلهون ويلعبون .

﴿ فَرَاعَ إِلَى ءَالِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ؟ ... أى ذهب إبراهيم عليه السلام إلى آلهتهم متخفيا ، فوجد طعاما وضعه المشركون عندها كعاداتهم ، فقال لها منكرا تأليها ، مستهزئا بها : لم لا تأكلون الطعام الذى يقدم لكم ؟ ولم ينتظر لسؤاله جوابا ، فهو لا يريد ، وانما يريد لازم السؤال ، وهو بيان كذب الذين ألهاوا الأصنام ، وسدنتها بعد أن زعموا أن الأصنام تأكل الطعام الذى يقدم لها وأنها تكلمهم ، وتتحدث إليهم .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ ؟ ... أى ما الذى أصابكم أيها الأصنام حتى لا تردوا علي ، ولا تتكلموا معي ؟

﴿ فَرَاعَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ فأقبل على الأصنام ، وأخذ يضربها بقوة وشدة ، فكسرها حتى صارت قطعاً متناثرة ، وترك صنما كبيرا على حاله مستخدما يده اليمنى في الضرب ... وقوله : ﴿ بِالْيَمِينِ ﴾ يفيد القوة والشدة ، كما يفيد اليد اليمنى لأنها أقوى من اليسرى .

فلما علم المشركون ما حدث مع الأصنام أخذوا يبحثون عن الفاعل ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴾ أى جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام مسرعين يسألونه عن الذى كسر الأصنام ، وهم في غضب وغيط .

== ودفع الإشكال : أن تسمية هذا الكلام كذبا منظور فيه إلى ما يفهمه أو يعطيه ظاهر الكلام وما هو بالكذب الصراح بل هو من المعارض ، ومعناه إني مثل السقيم في التخلف عن الخروج ، أو في التألم من كفرهم وقوله : "هي أختي" أراد أخوة الإيمان ، وأنه أراد التهكم في قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ لظهور قرينة أن مراده التغليب .

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنَحُّتُونَ ﴾ ؟ ... أى قال إبراهيم عليه السلام هذا القول

جوابا عن سؤال محذوف تقديره : ماذا فعل إبراهيم عليه السلام حين رأى غيظهم ، وعصبيتهم ؟ والإجابة أنه قال لهم : كيف تعبدون أصناما تحتونها بأيديكم ، وتصنعونها بأنفسكم ، وتجعلونها بعد ذلك معبودا لكم ؟ ... فبدل أن ينتظر إجابتهم سألهم ، وبين خطأهم فقال لهم :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى أتعبدون الأصنام ، وتتركون عبادة

الله ، وهو الذى خلقكم ، وخلق عملكم .

وقد جعل إبراهيم عليه السلام الحجة سؤالا لهم ليفكروا ، ويتركوا عبادة الأصنام ، لأن العقل لا يسلم بعبادة حجر لا يضر ولا ينفع ، ويترك عبادة الله الخالق القدير ... إلا أن القوم لم يردوا على حجة إبراهيم عليه السلام وقرروا التخلص منه .

و ﴿ قَالُوا أَتَبْنُوا لَهُ بُيُوتًا ﴾ أى قال بعضهم لبعض : ابنوا له بناء مكونا من أسوار عالية ، واملأوا داخلها بالحطب والزيت ، وأشعلوها ، ففعلوا حتى صارت نيرانا لها لهب شديد .

﴿ فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ أى أنهم وضعوا الحطب في البناء ، وأشعلوها

وألقوا إبراهيم فيها ليحترق في أتونها وسعيرها .

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أى أراد المشركون قتل

إبراهيم بالإحراق ، وأعدوا لمراذهم عدتهم ، وألقوه في النار ، فجعل الله النار بردا وسلاما عليه ، وأزهق كيدهم ، وضع خططهم ، وغلبهم على أمرهم ، وأصابهم بالهزيمة والخزى والخسران .

لما نجا إبراهيم عليه السلام من النار أصر على الخروج من بلده بالعراق .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ أى وقال إبراهيم عليه السلام إني مهاجر إلى حيث يريد ربي ، وسيهديني إلى المكان الذى يريده ، ويمكنني فيه أن اعبده ، وأبلغ رسالته .

أما الطرف الثانى الذى تناولته قصة إبراهيم عليه السلام فهو موقفه من ابنه وموقف ابنه منه ، وقد بدأ هذا الطرف بدعاء إبراهيم عليه السلام .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ هذا بقية قول إبراهيم عليه السلام لأنه بعد أن أخبر قومه بهجرته استشعر قلة أهله ، وعقم امرأته فسأل ربه أن يهبه ولدا وذرية صالحة ... وثار هذا الخاطر في نفسه عند رحيله وهجرته ... لأن المرء بصورة عامة يشعر عند الرحيل بقلة الأهل حين مفارقتهم .

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ أى استجاب الله لإبراهيم دعاءه ، وبشره بغلام حلیم يولد له ، وقد اختبره الله بهذا الولد الذى وهبه الله له ، بعد عمر طويل ، وشوق إلى وجوده ليظهر مدى حبه لله تعالى ، ومقدار حرصه على طاعته .

ورزق الله إبراهيم عليه السلام هذا الغلام الحلیم ، وشب عن الطوق ، وصار يافعا عاقلا ... وهنا كان اختبار الله تعالى لإبراهيم عليه السلام .

﴿ فَأَمَّا بَلَعُ مَعَهُ السَّعْيِ ﴾ أى لما كبر الغلام ، وصار قادرا على الكد ، والعمل وهو في سن المراهقة أمر الله إبراهيم بذبحه ، واستجاب إبراهيم عليه السلام لأمر الله ، فذهب لابنه ، و ﴿ قَالَ ﴾ له : ﴿ يَبْنِيْٓ إِنِّيْٓ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيْٓ أَذْبَحُكَ ﴾ أى يا بنى إن الله أرانى في نومي رؤيا تأمرنى بذبحك ، وأرى ذلك من الوحي إلي ، فرؤيا الأنبياء وحى .

﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ؟ ... أى فما الذى تراه في هذا الأمر الإلهى ؟

وما موقفك معه ؟

﴿ قَالَ ﴾ الابن لأبيه إبراهيم عليه السلام ﴿ يَتَأْتِ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أى قال

الولد لإبراهيم عليه السلام : يا أبت إفعل ما أمرك الله به ، فأمر الله واجب الطاعة .

﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى ستجدنى مستسلماً لأمر

الله بلا ضجر ، ولا مشقة ، صابراً على قضائه وقدره .

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ فلما استسلما لأمر الله تعالى ، وفوضا

الأمر له ، وأكب إبراهيم ابنه على وجهه تمهيداً لذبحه ، حتى لا تأخذه الشفقة عليه كما نصحه ابنه .

﴿ وَتَدَيَّنُهُ أَنْ يُتَابِرَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ﴾ أى ونادى الله

إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم قد فعلت صورة ما أمرتك به فى النوم .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى إنا عفونا عن ذبحك ولدك بعدما

ظهر إخلاصكما ، وحسن طاعتكما لله تعالى ، وسنجازيكما بما نجازى به المحسنين الصادقين .

﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتُؤُا الْمُئِينُ ﴾ أى إن هذا كان امتحاناً ، وابتلاء

لك ولولدك ، وقد صبرتما عليه ، واستسلمتما لقدر الله ، فأحسن الله إليكما .

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أى وفدينا الذبيح بكبش كبير ، أرسلناه مع

جبريل ليذبحه إبراهيم بدل أن يذبح ولده .

(٧٨٥)

نظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن ، ويقول له : هذا فداء ابنك فاذبحه دونه ، فكبر إبراهيم ، وكبر جبريل ، وكبر الكبش ، فأخذ إبراهيم وأتى به المنحر من منى فذبحه .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى وأبقينا لإبراهيم عليه السلام ذكرا بين الناس من بعده ، وانتسبت الأمم كلها إليه .

﴿ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى وقلنا سلام عليك ، ورضى من الله تعالى .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى مثل هذا الجزاء الجميل الذى جازى الله إبراهيم وولده عليهما السلام نجازى سائر المحسنين .

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أن إبراهيم عليه السلام عبد صالح من عبادنا الذى اخترناه للنبوّة وأرسلناه بالحنيفية السمحة .

﴿ وَدَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى وبشرناه بابن آخر

بعد الذبيح هو إسحاق عليه السلام الذى جعلناه نبيا صالحا لبنى إسرائيل .

﴿ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ أى وأفضنا على إبراهيم وعلى إسحاق

بركات الدنيا والآخرة ، فأكثرنا نسلهما ، وجعلنا منهم أنبياء ورسلا ، وأنزلنا عليهم كتبا .

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ أى وقدرنا فى ذرية

إبراهيم وإسحاق عليهما السلام التنوع والاختلاف فى طاعة الله ، فمنهم محسن فى عمله ، مطيع لربه ... ومنهم كافر لربه ظالم لنفسه ، ولكل جزاؤه فى الآخرة.

(٧٨٦)

وقد بينت الآيات نعمًا عديدة أعطاها الله لإبراهيم عليه السلام ... منها :

- (١) جعله الله من شيعة نوح عليه السلام .
 - (٢) رزقه الله قلبا طاهرا قويا مستقيما .
 - (٣) ميزه الله بالصدق التام فى الدعوة إلى الله تعالى .
 - (٤) نجاه الله من النار .
 - (٥) استجاب الله لدعوته ورزقه الولد .
 - (٦) ظهر استسلامه لله تعالى .
 - (٧) رفع الله ذكره فى الأمم كلها من بعده .
 - (٨) سلام من الله عليه ومن الملائكة والناس أجمعين .
 - (٩) جعله الله من عباده المؤمنين .
 - (١٠) بشره الله بولد آخر هو إسحاق عليه السلام .
 - (١١) حصر الله النبوة والكتاب فى ولده .
- وذلك فى إشارات قصيرة فى آيات القصة خلال عرضها للوقائع والأحداث .



وهنا نحتاج لمعرفة من هو الذبيح ؟ فقد رزق الله إبراهيم بولدين
هما إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ، وذكر اليهود والنصارى أن الذبيح
هو إسحاق حتى يشرفوا بنسبتهم إليه ، وتبعهم بعض المسلمين فى هذا .
إلا أن الحق فى هذه المسألة يحتاج إلى توضيح ، وبيان ، ومناقشة .

من هو الذبيح ؟

نوضح ابتداءً أن الإسلام يحافظ على حقوق كافة الرسل ، ويدعو إلى الإيمان بهم ، ويكفر من ينكر واحدا منهم ، ولذلك يؤمن المسلمون بإسحاق وإسماعيل عليهما السلام إيمانهم بمحمد ﷺ وبسائر الرسل والأنبياء .
وكون الذبيح إسماعيل أو إسحاق لا يغير من تقديرهما الواجب ، ولا يقلل من شأنهما أبدا .

إلا أن مسألة تعيين الذبيح قضية علمية بحتة ، نقصد بها معرفة الحق بدليله ، ورد الباطل بمزاعمه .

والتأمل في هذه الآية يقوي الظن بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وهذا ما نرجحه معتمدين على الأدلة التالية :

الدليل الأول : أن المأمور بذبحه هو الغلام الحليم في قوله : ﴿ فَبَشِّرْنَهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وأنه هو الذي سأل إبراهيم ربه أن يهبه له فساقت الآية قصة الابتلاء بذبح هذا الغلام الحليم الموهوب لإبراهيم عليه السلام ، ثم أعقبت قصته بقوله تعالى : ﴿ وَكَشَرْنَاهُ إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، وهذا قريب من دلالة النص على أن إسحاق غير الغلام الحليم الذى مضى الكلام على قصته لأن الظاهر أن قوله : ﴿ وَكَشَرْنَاهُ ﴾ بشارة ثانية ، وأن ذكر اسم إسحاق يدل على أنه غير الغلام الحليم الذي أجريت عليه الضمائر المتقدمة .

الدليل الثاني : أن الله لما ابتلى إبراهيم بذبح ولده حين لم يكن لإبراهيم ابن غير إسماعيل ، لأن ذلك أكمل في الابتلاء .

الدليل الثالث : أن الله تعالى ذكر : ﴿ فَبَشِّرْنَهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ عقب ما ذكر من قول إبراهيم : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، فدل على أن هذا

الغلام الحليم الذي أمر الله إبراهيم عليه السلام بذبحه هو المبشر به استجابة لدعوته وقد ظهر أن المقصود من الدعوة هو الذى بشر به إبراهيم ، وانتهى به عقمه ، وهو إسماعيل عليه السلام .

الدليل الرابع : أن إبراهيم بنى بيتا لله بمكة ، قبل أن يبني بيتا آخر ببيت المقدس بنحو أربعين سنة كما في حديث أبي ذر^(١) عن النبي ﷺ ومن شأن بيوت العبادة في ذلك الزمان أن تقرب فيها القرابين ، فقران أعز شئ على إبراهيم هو المناسب لكونه قربانا لأشرف هيكل . وقد بقيت في العرب سنة الهدايا في الحج كل عام ، وما تلك إلا تذكرة لأول عام أمر فيه إبراهيم بذبح ولده ، وأنه الولد الذي نشأ بمكة .

الدليل الخامس : أن أعرابيا قال للنبي ﷺ : يا ابن الذبيحين ، فعلم مراده وتبسم ولم ينكر ، وليس في آباء النبي ﷺ ذبيح غير عبد الله ، واسماعيل .

الدليل السادس : ما وقع في "سفر التكوين" في الإصحاح الثاني والعشرين أن الله امتحن إبراهيم فقال له : "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا ، وأصعده هنالك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك" إلى آخر القصة . ولم يكن إسحاق ابنا وحيدا لإبراهيم ، فإن إسماعيل ولد قبله بثلاث عشرة سنة . ولم يزل إبراهيم واسماعيل متواصلين وقد ذكر في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين عند ذكر موت إبراهيم عليه السلام

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن أى مسجد وضع في الأرض أولاً ؟

قال ﷺ : المسجد الحرام بمكة .

قيل : ثم أى ؟

قال ﷺ : المسجد الأقصى .

قيل : كم بينهما .

قال ﷺ : أربعون سنة . (صحيح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء . باب حدثنا إسحاق بن

إبراهيم ج ٤ ص ١٤٥) .

"ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه"^(١) ، فأقحام اسم إسحاق بعد قوله : ابنك وحيدك من زيادة كاتب التوراة .

الدليل السابع : أنه وردت روايات في حكمة تشريع الرمي في الجمرات من عهد الحنيفية أن الشيطان تعرض لإبراهيم عليه السلام عند الجمرات ثلاث مرات ليصده عن ذبح ولده ، فرجمه في كل مرة بحصيات حتى ذهب من عنده إلى الجمرة الأخرى .

الدليل الثامن : أن القرآن صريح في أن الله لما بشر إبراهيم بإسحاق قرن تلك البشارة بأنه يولد لإسحاق يعقوب ، قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾^(٢) وكان ذلك بمحضر إبراهيم عليه السلام فلو ابتلاه الله بذبح إسحاق بعد ذلك لكان الابتلاء صوريا ، لأنه واثق بأن إسحاق يعيش حتى يولد له يعقوب لأن الله لا يخلف الميعاد . ولما بشره بإسماعيل عليه السلام لم يعده بأنه سيولد له وما ذلك إلا توطئة لابتلائه بذبحه فقد كان إبراهيم يدعو لحياة ابنه إسماعيل .

(١) أنظر سفر التكوين . الإصحاح الثاني والعشرون والإصحاح الخامس والعشرون .

(٢) سورة هود ، الآية ٧١ .

- ثالثا -

قصة موسى وهارون "عليهما السلام"

تبدأ قصة موسى وهارون عليهما السلام بنجاتهما وقومهما من ظلم فرعون وجبروته ، وخروجهم من مصر ... يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ أى ولقد أنعمنا على موسى وهارون عليهما السلام وآتيناهما النبوة ، ونصرناهم على فرعون وجنوده ، وأيدناهما بالمعجزات .

﴿ وَخَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أى نجيناهما ومن آمن معهما من فرعون وقومه ، فقد استعبدوهم ، وأخذوا يقتلون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وقد نجاهم الله منهم ، وأخرجهم من أرض مصر ، وأنقذهم من الغرق حين عبور البحر إلى سيناء .

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ أى ونصرنا موسى وهارون عليهما السلام وقومهم على أعدائهم فغلبوهم ، وملكوا أموالهم وديارهم .
﴿ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ أى وأنزلنا إليهما الكتاب البين الواضح وهو التوراة .

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى ووفقناهما لسلوك الصراط المستقيم ، وهو اتباع دين الله تعالى .
﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴾ أى وأبقينا ذكرهم الحسن في الأمم من بعدهم .

﴿ سَلَّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ أى وجعلنا الملائكة والإنس والجن تلقى عليهما السلام إلى يوم القيامة .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ أى جازيناها الجزاء الحسن لأنهما كانا من عبادنا

المحسنين ، المؤمنين ، الصادقين .

والآيات تبين أن الله أنعم على موسى وهارون عليهما السلام بنعم عديدة

... منها :

(١) اختارهما الله للرسالة ، وبعثهما إلى فرعون وقومه ، وإلى بنى إسرائيل .

(٢) نجاهما الله من ظلم فرعون فلم يتمكن من قتلتهما صغيرين .

(٣) نجاهما الله من الغرق حين عبدا ببنى إسرائيل البحر إلى برية سيناء .

(٤) وأنزل الله عليهما التوراة هدى ونورا لهما ولبنى إسرائيل .

(٥) أرشدهما الله إلى الدين الحق والصراط المستقيم .

(٦) أبقى الله ذكرهما في الأمم بعدهما .

(٧) وأحاطهما الله وملائكته والناس بالسلام والأمن في الدنيا والآخرة .

(٨) جعلهما الله من المحسنين .

(٩) جعلهما الله من عباده المؤمنين .

(١٠) كتب الله لهما النصر على أعدائهم فكانوا هم الغالبين .

وقد جاءت هذه النعم في إطار القصة وفق الإعجاز البياني في كلمات

القرآن الكريم .

- رابعا -**قصة "إلياس" عليه السلام**

تبدأ قصة إلياس عليه السلام من إرساله لقومه ... يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ

لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إلياس عليه السلام إسرائيلي من نسل هارون عليه السلام ، أنعم الله عليه بالرسالة ، واختاره لدعوة بني إسرائيل بدين موسى عليه السلام وأيده بالمعجزات ، وأمره بدعوتهم ، وتحذيرهم من عبادة الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله .
﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ؟ ... أى أرسل الله إلياس إلى قومه

خاصة ، وهم سبط من بني إسرائيل ، وأمره الله أن يحذرهم من عذابه إن استمروا على عبادة الأصنام ... ولذلك سألهم منكرا لعبادتهم ، وقال لهم : ألا تخافون عذاب الله ؟ ولا ترجون عطاءه ؟ وتستمرون على ما أنتم فيه من عبادة الأصنام
﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴾ ؟ ... أى أتعبدون

صنما ، وتتركون عبادة الله الذى خلق فسوى ، وجعل ، وعدل ، وتصرف في سائر خلقه ومملك ؟ ... وكانوا يسمون صنهم الكبير ﴿ بَعْلًا ﴾ .

وقد أبرز إلياس عليه السلام دليل الخلق بما فيه من دقة ، وجمال ، وشمول ، وتكريم ليثبت لقومه أن الله واحد لا شريك له ، وهو المستحق للعبادة وحده . فقد أحسن الخلق ، وأتقنه ، وجعله للناس عملا ، ومعاشا .

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى إنكم تكفرون بالله الذى خلقكم وخلق آباءكم ، ورزقكم وإياهم .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أى سارع قوم إلياس إلى تكذيبه بلا نظر ، وتفكير ، كما تدل عليه الفاء ، واستمروا على التكذيب إلى أن ماتوا .

وفى يوم القيامة يأخذون جزاءهم ﴿ فَأَيُّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى إن الله يحييهم من قبورهم ، ويحضرهم للحساب ، ويعاقبهم بما عملوا في الدنيا .
﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى إن الذين امنوا من قوم إلياس ، وخلصوا في إيمانهم يخلصهم الله من العذاب ، وينجيهم من جهنم ، ويكرمهم بجنات النعيم .

﴿ وَتَرْكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى وتركنا ذكر إلياس عليه السلام في الذين جاءوا بعده من الأمم اللاحقة ، وأبقينا ذكره في القرآن الكريم .
﴿ سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى يسلم الله عليه والملائكة والناس أجمعون .
﴿ إِنَّا كَذَّلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى جازيناه بمثل ما نجازى المحسنين أجمعين .

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أن الله تعالى أكرم إلياس وجعله من عباده المؤمنين .

وقد دلت الآيات على أن الله أنعم على إلياس عليه السلام بما يلي :

- (١) اختار الله إلياسا للرسالة .
- (٢) كلفه بدعوة قومه إلى عبادة الله تعالى .
- (٣) نجاه من العذاب الذى يلحق بالكافرين .
- (٤) خلد ذكره في الأمم بعده .
- (٥) وجعل الملائكة والناس يسلمون عليه .
- (٦) جعله من المحسنين ، وجازاه على إحسانه .
- (٧) جعله من عباد الله المخلصين .

- خامسا -

قصة "لوط" ﷺ

تبدأ قصة لوط ﷺ بإرساله إلى أهل "سدوم" شرقى النهر . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى إن الله اختار لوطا ﷺ واصطفاه للرسالة ، وأرسله إلى أهل "سدوم" الذين أقام معهم بعد أن جاءهم مهاجرا ، من بلاد الكلدانيين ، فدعاهم إلى عبادة الله ، وتجنب الفواحش فأبوا ، وأصرروا على الكفر ، وارتكاب المعاصى التى ابتدعوها ، فنزل عليهم عذاب الله ، وأصابهم السجل المحدد الذى نزل عليهم فماتوا جميعا .

﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أى نجينا لوطا وكل من آمن به ، حين أمرناهم بالخروج من القرية ، وأن لا يلتفت أحد منهم وراءه فاستجابوا لله ونجوا .

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ أى نجى الله لوطا وقومه جميعا إلا زوجته فقد استحققت الهلاك ، والعذاب بسبب عدم إيمانها ، وكفرها بدعوة لوط ﷺ .

﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ أى أهلكنا ودمرنا كل من استمر على الكفر ، ولم يؤمن بدعوة لوط ﷺ .

﴿ وَإِنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ ١٧٧ ﴿ وَبِالْأَيْلِ ﴾ أى إنكم يا أهل مكة تمرّون على قرى قوم لوط وترون آثارهم صباحا ومساء كلما مررتم عليهم فى أى وقت ، فاتعظوا ، واعتبروا بهم .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ ... أى أصبتم بالجنون ولم تفهموا من قرية قوم لوط أمرا يدعوكم إلى الإيمان ، وترك عبادة الأصنام ، وتجنب الفحشاء والمنكر ؟

وقد دلت الآيات على بعض النعم التى قدرها الله للوط عليه السلام ... وهى :

- (١) اختياره للرسالة .
 - (٢) نجاته من الهلاك الذى حل بقومه .
 - (٣) نجاة المؤمنين به .
 - (٤) جعل الله قصته عبرة وعظة للناس من بعده .
 - (٥) إبقاء آثاره فى عالم الواقع على مدار الزمن يمر عليها الناس .
 - (٦) جعل قصته آية للعقلاء والمؤمنين .
- وهذه النعم ظاهرة من خلال دلالة الآيات .

- سادسا -

قصة "يونس" عليه السلام

بدأت الآيات قصة يونس عليه السلام بإرساله لقومه ، واندازهم ، وتركهم وذهابه إلى السفينة وركوبها بغير إذن صاحبها . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى جعلنا يونس عليه السلام رسولا إلى قومه ، وهم أهل نينوى بالعراق وقد دعا يونس عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ، وخوفهم من عذاب الله الذى سينزل بهم إن لم يؤمنوا ، فأبوا الإيمان ، وأصرروا على الكفر ، فتركهم يونس عليه السلام وذهب إلى البحر ، فرأى سفينة مشحونة فركبها بغير إذن مالكها ... فلم تتحرك السفينة ، وكان الملاحون يزعمون أن السفينة إذا ركبها آبق من

سيده لا تتحرك فبحثوا في الركاب ، ووجدوا يونس هو الآبق من قومه ، فاقترعوا على من يلقيه في الماء فوق السهم على يونس عليه السلام فألقوه في اليم .

يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ أى فر من قومه إلى السفينة الممتلئة ، وركبها بلا إذن من صاحبها .

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أى أن راكبي السفينة أقاموا قرعة ليتخلصوا من أحد ركابها الزائد عن حمولتها ، فوقع القرعة على يونس عليه السلام فألقوا به في البحر ، فكان من المغلوبين .

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أى ألتقمه الحوت ، وابتلعه بعدما فعل ما يلام عليه لتركه القوم وركوبه السفينة بغير إذن صاحبها ، ولم يصبر على أذاهم ويستمر في دعوتهم كما صبر أولو العزم من الرسل .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾  لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ  فنجاه الله وهو في بطن الحوت ، وبقي حيا يأكل ، ويشرب ، ويتنفس ، ولم يهضمه الحوت كسائر الطعام بسبب عمله الصالح ، وعبوديته القائنة لله تعالى ... فلولا عمله الصالح ، وإيمانه بالله لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة إلا أن الله نجاه من هذا المصير ، وأخرجه من بطن الحوت .

﴿ فَتَبَدَّدْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أى جعلنا الحوت يلفظه ، ويلقيه في مكان صحراوي ، خال من النبات ، والزرع ، والبيوت ، وقد اعتلت صحته ، وتألمت نفسه بسبب كفر قومه ، وعدم طاعتهم لله تعالى .

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ وقدر الله الستر والظل له فأنبت حوله شجرة عريضة الورق ، كثيفة الظلال ليستر عورته ، ويستظل بها من هجير الرمال ، وحرارة المناخ ، ويتغذى بثمرها .

واليقطين هو الدباء كثيرة الورق ، ذات الأغصان الرفيعة ، وثمرها سهل التناول ، كثير الفائدة يمكن للجالس على الأرض أخذه وتناوله .

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أى أرسلنا يونس عليه السلام مرة أخرى إلى أهل نينوى وقد بلغ عددهم أكثر من مائة ألف ، فاستقام أمرهم ، وأجابوه إلى الله ، ودخلوا في الدين معه ... ذلك أنهم ندموا بعد أن تركهم في المرة الأولى ، ورأوا العذاب ينزل عليهم ... فلما عاد إليهم آمنوا به .

وقد ورد تحديد العدد في قول أبى بن كعب رضي الله عنه قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : عشرون ألفاً^(١) ...

وليس (أو) شكاً في العدد وإنما هو على تقدير من يراهم .

﴿فَقَامُوا فَمَتَّعْنَاهُمُ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى متعناهم في هذه الحياة الدنيا إلى أن جاء أجلهم فانتقلوا إلى الله آمين ، صالحين . وقد أنعم الله على يونس عليه السلام بنعم عديدة ... منها :

(١) اختاره الله للرسالة .

(٢) أبقاه حياً في بطن الحوت .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب تفسير القرآن . باب ومن سورة الصافات ج ٥ ص ٣٦٥ .

(٧٩٨)

- (٣) أخرجه من بطن الحوت سليما بأمره سبحانه وتعالى .
(٤) أحاطه بنبات خاص يستر عورته ، ويظله من الشمس ، ويعذيه بالطعام الذى يقوته .
(٥) أرسله مرة أخرى إلى من بقى من قومه .
(٦) آمن الناس برسالته .
ولله في خلقه آيات ، وفى رحمته بعباده فضل وتكريم .

ركائز الدعوة

في قصص الرسل الواردة في سورة "الصفات"

تتضمن الآيات التى تناولت قصص الرسل في سورة "الصفات" عددا من الركائز ... أوجزها في ركيزة أساسية هى :

توضيح الصفات الرئيسية للدعاة

أوردت سورة "الصفات" سيرة ست من الرسل عليهم السلام ومعها رسولان آخران حيث كان مع موسى عليه السلام أخوه هارون عليه السلام ، ومع إبراهيم عليه السلام ولده عليه السلام ، وقد ركزت أحداث القصة على عنصر نجاة الرسل وانتصارهم على أقوامهم الذين كفروا بدعوتهم .
وقد بدأت القصص المذكورة من الوقائع التى بدأت بعد إرسالهم لقومهم ولم تستثن من ذلك إلا إسماعيل عليه السلام فقد جاء ذكره شابا يافعا مطيعا لأبيه .
ومن مجمل القصص يمكننا معرفة الصفات الرئيسية التى يجب أن يتصف بها الدعاة ... وأهمها :

أولا : العبودية الخالصة لله تعالى ، لأن الدعاة يحملون الدعوة في قلوبهم ، ويتحركون بها إلى المدعويين ، ولا بد أن يكونوا صورة عملية ، يفعلون ما يقولون ، ويطبقون ما يدعون إليه .

(٧٩٩)

ولابد للدعاة ان يكون عملهم خالصا صافيا ، يطيعون الله وحده ، وهم يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، ويسلمون أمرهم لله ، وينقادون له عن رضى واقتناع ، وتسليم ، ومن أركان الإيمان الرضا بالقضاء القدر خيره وشره ، وحلو ومره .

لقد بينت الآيات أن الرسل جميعا عليهم السلام كانوا من عباد الله المؤمنين ، وهم قدوة الدعاة .

ثانيا : الإحسان في القول والعمل ، ومعناه الاتقان التام ، والشعور بالمعية الربانية ، والرقابة الإلهية .

ثالثا : الارتباط الدائم بالله ، لأن منه يؤخذ الدين ، وله يكون السعى والعمل فكلما احتاج الدعاة لجأوا إلى الله تعالى .

رابعا : ضرورة الصبر والتحمل والاستمرار في الدعوة .

خامسا : العمل للدعوة بكافة الوسائل الممكنة مع وضوح الغاية والهدف .

هذه هي أهم الصفات التي يستفيد بها الدعاة من القصص المذكور .

سادسا : اليقين التام بنصر الله تعالى ، فله جنود السموات والأرض

يأمرهم سبحانه بما يشاء ، فلقد الله نوحا عليه السلام من الغرق بالماء ، ونجى إبراهيم

عليه السلام من الاحتراق بالنار ، وفدى إسماعيل بكبش من الغنم ... وهكذا كانت نجاة

سائر الرسل .

رد مزاعم الكفار عن الملائكة

يقول الله تعالى :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَّبِّكَ بُنَاتٌ وَلَهُمْ بَنُونَ ﴾ ١٠١ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ١٠٢ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ ١٠٣ ﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ١٠٤ ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ١٠٥ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ١٠٦ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ١٠٧ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ ١٠٨ ﴿ فَاتُّوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٠٩ ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا ﴾ ١١٠ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ١١١ ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ١١٢ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ ﴾ ١١٣ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ ١١٤ ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ ١١٥ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصص رسل الله عليهم السلام ، ووضحت عصمة الله لهم ، ونعمه عليهم جاءت هذه الآيات لبيان بعض مزاعم الكفار الذين واجهوا بها الرسل ، وعارضوا دعوة رسول الله ﷺ .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات مزاعم المشركين حول الملائكة ، وقولهم عنهم إنهم إناث ، وإنهم بنات الله ، وتوضح الآيات إن هذه الأقاويل من أكاذيب المشركين ، واقتراءاتهم التي يزعمونها بلا دليل أو حجة .

(٨٠١)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ هذا أمر لمحمد ﷺ ليسأل المشركين من أهل مكة عن أمور يقولون بها ... وكان الأمر بالاستفتاء دون السؤال لأن الاستفتاء يقوم على النظر والتدبر للوصول إلى حكم جلى قبل القول به ، وكان مشركو مكة يزعمون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ، ولذلك أمر الله رسوله أن يستفتهم ويسألهم : ﴿ أَلَرَبِّكَ أَلْبَنَاتٌ وَلَهُمُ الْبُنُونَ ﴾ ؟ ... وهذا استفهام إنكارى ينكر فيه الرسول على المشركين قسمة الناس بينهم وبين الله تعالى فجعلوا الله البنات ، وهم يكرهونهم ، وجعلوا لأنفسهم الذكور ، وهم يرغبونهم .
وقد ثبت كفر المشركين من قولهم هذا بأربعة أوجه :

الوجه الأول : إنهم أثبتوا التجسيم لله تعالى ، لأن الولادة من أحوال الأجسام التى تحتاج إلى حمل ، وولادة ، وتنشئة ، وتربية ، والله منزه عن ذلك .

الوجه الثانى : إنهم شبهوا الخالق بالمخلوق وجعلوا له قسما من خلقه ، وجعلوا لأنفسهم قسما آخر ، وهذا ضلال فالله منزه عن ذلك . يقول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(١) .

الوجه الثالث : أنهم فضلوا أنفسهم على الله حين اختاروا الذكور ، وتركوا الإناث . يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾^(٢) وهذا وهم

(١) سورة الشورى ، الآية ١١ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٦٢ .

(٨٠٢)

كاذب لأنهم لا يملكون شيئاً ، ولا يعلمون أمراً . فمن أين لهم القسمة ؟ ومن أين لهم الاختيار ؟

الوجه الرابع : إنهم جعلوا الملائكة المقربين إناثاً بلا برهان ولا دليل ، وتلك منزله متدنية يضعون الملائكة فيها ، وهم يكرهونها .

ولذلك سخر الله من قولهم ، وسألهم لتوبيخهم ، واثبات جهلهم ، وكفرهم وأمر الرسول بأن يستفتيهم في زعمهم .

- فمن أين لهم المعرفة بالملائكة ، وكل العلم بهم جاء بالوحي ؟
- وكيف يجعلون الذكور لهم ، والبنات لله ، والله خالق الكل ، وهو المتصرف في جميع خلقه ؟
- وهل وصل الخبل والجهل بالمشركون أن يدعوا ملكية ما لا يعلمونه ، ولا يقدرن عليه ؟

- ولا أدرى نوع التبعية التي يقصدونها بأن البنين لهم ...
ووجه الله رسوله ﷺ ليسألهم ، وصدر السؤال بالجار والمجرور ﴿الرَّبِّكَ﴾ ؟ لتظهر الحقيقة ابتداء ، لأن الرب هو الخالق ، الرازق ، المالك وليتضح أن المقصود من السؤال هو الإنكار والسخرية .

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أى اضرب عن السؤال الأول ، وانتقل إلى سؤال آخر ، وهو ، أشهدوا أنوثة الملائكة حتى يقولوا بها ؟ ... وذلك حال لا يمكنهم القول به إلا بالمشاهدة ، فهم بشر لا يعلمون غيباً .
﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿٢١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٢﴾﴾
أى إن مشركى مكة كذابون ، مفترون ، فهم يصورون شيئاً لم يروه ، ويقولون

(٨٠٣)

قولا لا أصل له ، ولا دليل عليه من عقل أو دين ... إنهم يقولون ولد الله ، وهذا كذب وافتراء منهم على الله تعالى .

وشهادة كذبهم أنهم لم يروا ولادة الله أبدا ، ولم يروا مولودا ... وذكر المشركين وبناتهم مولودون لهم . فما أساس قسمتهم ؟ ... وهل يعلمون شيئا عن حقيقة الملائكة ، ووجودهم ، وحياتهم ، ومماتهم ... إن قولهم عن ولد الله كفر وضلال .

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ؟ ... أى هل الله اختار البنات على البنين ؟ وما سبب ذلك ؟ ... والكل عباد الله تعالى يتفاضلون بالعبادة والتقوى .

﴿ مَا لَكُمْ ﴾ ؟ ... أى أى شئ حصل لكم ؟ وما الجهل الذى وقعتم فيه ؟

﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ؟ ... أى كيف تحكمون بهذا الحكم على الله والملائكة ؟ وتسيئون إلى الله الذى خلقكم ، وتصدرون حكما يدل على الجهل والكفر ، والكبر .

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؟ ... أى أعميت بصائركم ؟ وضلت عقولكم ؟ فلا تصلون لصواب ، ولا تعرفون حقا ، ولا تهتدون لحقيقة ، ولا تتذكرون ما قال الرسول لكم .

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ ١٥٦ ﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿ ١٥٧ ﴾ ؟ ... أى ألكم حجة ودليل على ما تقولون ... نزل بها وحى ، أو أثبتتها عقل ... فاحضروا حجتكم التى تؤيد زعمكم إن كنتم صادقين فإن لم تأتوا ببينة وبرهان فأنتم كاذبون .

وقد دارت الآيات مع المشركين ، وطلبت إثبات أنوثة الملائكة ، وأنهم بنات الله ، والإتيان بالدليل إن كان معهم دليل ... وقد ثبت عجزهم .

(٨٠٤)

لأن الدليل الحسى يقوم على المشاهدة وهم لم يشاهدوا ...
والدليل الشرعى يقوم على الوحي وهو ينكرونه ، وقد أنكر الله عليهم في
وحيه قولهم عن الملائكة ...

والدليل العقلى منتف لأن عالم الملائكة غيب فمن أين لهم علم بهم ،
ويقولون : إنهم إناث ، أو إنهم ذكور ، أو إنهم يشبهون الأدميين في الخلقة
والتكوين ؟!

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ﴾ أى وزعم المشركون بقولهم عن
الملائكة وجود نسب ومصاهرة بين الله وبين الجن بصورة عامة ، والملائكة
بصورة خاصة .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى ولقد علمت الجنة التى
زعم الكفار وجود نسب لها مع الله أنها ستحضر إلى الحساب ، وستعاقب بما
قامت به في الدنيا .
وقد سارت الآيات مع المشركين مسارا عقليا ، واتخذت منطقا حسنا
ملائما لعقل الإنسان ...

فبدأت بسؤالهم عن الموضوع لتحديد مجال الحوار والسؤال فقال تعالى :
﴿ أَلَرَبِّكَ أَلْبَنَاتٌ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ ؟

ثم طالبتهم بالدليل المثبت للدعوى فقال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ
إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ .

ثم عارضتهم ببيان غفلتهم في قولهم عن الملائكة فقال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ؟

(٨٠٥)

وأخيرا ذكرت الآيات بعض النتائج المترتبة على كذبهم وافتراءاتهم فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ﴾ .

وبذلك أثبتت الآيات خطأهم ، وضلالهم بمنطق العقل ، ودلالات الوحي .
﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ أى تنزه الله ، وتقديسه ، وتعالى عن أن يكون له ولد ، فهم لكفرهم يصفونه بما ليس فيه ، ويصورونه سبحانه وتعالى تصويرا ماديا لا يجوز .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى إن عباد الله المؤمنين الذين أخلصوا عملهم لله ، وخلصهم الله من الكذب والضلال لا يصفون الله إلا بما هو أهل له ولن يحضروا إلى النار فمقامهم جنات النعيم .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١١١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَعْتِينَ ﴿١١٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ

صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ أى إنكم أيها الضالون الأفاكون ، ومعكم الآلهة التى تعبدونها لن تفتنوا أحدا من المؤمنين ، ولن تصرفوه عن الحق ، ولن ينحاز لكم عاقل ، ولن يسمع قولكم إلا من هو ضال مثلكم ، وهو الذى سيعذب معكم فى نار الجحيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسوله ﷺ بأن يسأل المشركين عن زعمهم أن الملائكة بنات الله ، وأنهم إناث ، وهل شاهدوا ذلك ؟ ... أم لديهم دليل على قولهم يثبت صدقهم ؟

(٨٠٦)

إنهم غالوا في الافتراء والكذب ، وزعموا أن الله ولد الملائكة ، وأن بينه وبين الجنة نسبا ، وهم بقولهم هذا استحقوا العذاب الأليم ، وعليهم أن يعلموا أنهم لن يفتتوا إلا الضالين مثلهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الحوار أساس الإقناع

خلق الله الإنسان مركبا من ظاهر وباطن ، ومن جسد وعقل وعاطفة ، وأرسل الرسل ليأخذه بعناصره إلى الله تعالى ، ويخرجه من ظلمات الأصنام والأوثان إلى نور الحق واليقين .

وقد تعامل رسول الله ﷺ مع بشرية الإنسان فخطب عقله ، وأخذ يسأله ليقنع ويرضى ، وأمر الله رسوله أن يستفتى الناس ليفكروا وينظروا قبل أن يجيبوا لتكون الإجابة مرتبطة بالوعى والعقل .

وكان الموضوع هو قولهم عن الملائكة ، فأخذ الرسول يسألهم في صيغة إنكارية ، ويطلب منهم إحضار الدليل .

والركيزة المستفادة ضرورة مراعاة عقل المدعويين ، ومخاطبتهم بالحسنى ، وتتبع المسار المنطقي الموصل للحق .

وهذا منهج ضرورى لنجاح الدعاة والدعوة .

(٨٠٧)

الركيزة الثانية

الحسم الجاد مزيل للأوهام

نزل القرآن الكريم لرسول الله ﷺ يأمر بالبلاغ المبين ، الواضح في دلالاته ، المقنع ببراهينه وحججه ... إلا أن الجمود أغلق قلوب المشركين ، وأعمى الحقد والجحود أبصارهم وبصائرهم ... ولذلك وجب الرد الحاسم لإثبات الحق ، إن التردد أمام المستكبرين لا يجوز ، والتهاون مع الظالمين مضيعة للصواب ... ولذلك وجدنا الآيات ترد بحسم على المستكبرين المدعين للصواب ، وهم غارقون في الباطل ... وكان سؤالهم :

- هل رأوا أنوثة الملائكة ، وهذا أمر يحتاج إلى المشاهدة البصرية ؟
- هل رأوا أزواجا وأولاد لله ؟ وأين هم ؟
- من أين لهم التمييز بين البنين والبنات ، والجميع عباد الله ؟
- هل تملكون سلطة قاهرة تحقق لكم ما تريدون ؟ ... وأين هي ؟ ... وماذا حققت لكم ؟ ...

إن هذه الأسئلة يعجز المشركون عن الإجابة عليها ، إذ لا سبيل لهم إلى ذلك ، وبذلك تم الحسم ، وظهرت هذه الركيزة التي تحتاج إلى علم الدعاة وقوة الرجال ، والإخلاص لدين الله تعالى .

الركيزة الثالثة

تنزه الله تعالى وتقديسه

جل الله في علاه ، وتقدسست أسماؤه ، وتعالى صفاته ، فهو الخالق لكل مخلوق ، الموجد لكل موجود ، المحيط بخلقه علما وقضاء واقتضاء ، لا تعزب عنه مثقال ذرة ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا

(٨٠٨)

إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ ۚ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٧٦﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ أَلَمَلِكُ الْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيِّمُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٧﴾ هُوَ اللَّهُ ٱلْخَلِيقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۚ لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴿١﴾ .

طهارة الملائكة

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلسَّابِقُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿٧٩﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٠﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ ٱلْمُخْلِصِينَ ﴿٨١﴾ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلال المشركين وقولهم عن الملائكة جاءت هذه الآيات لبيان طاعة الملائكة لله ، وحديثهم عن أنفسهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الملائكة على إيمان مطلق بالله ، وانهم دائما يسبحون ويعبدون ، وتوضح كذب المشركين وعدم إيفائهم الوعد .

(١) سورة الحشر ، الآيات ٢٢ . ٢٤ .

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أى يقر الملائكة بعبوديتهم لله تعالى ويؤكدون أن الله خلقهم ، ووضعهم في مقام يلتزمون به ، ويتحركون خلاله ... فهم خاضعون لعظمة الله ، خاشعون لهيبته ، متواضعون لجلاله ... يقول النبی ﷺ عن مقام الملائكة : "إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون أظن السماء ، وحق لها أن تظن ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفراش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله ، لو ددت أني كنت شجرة تعضد" (١) .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ أى تقول الملائكة إنا نقف صفوفًا ، مطيعين لله ، لكل منا منزلة لا يتخطاها .

عن جابر بن سمرة ؓ قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد فقال : "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟
فقلنا : يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها ؟
قال : يتمون الصفوف الأولى ، ويتراصون في الصف" (٢) .
وكان عمر يقول إذا قام للصلاة : أقيموا صفوفكم واستموا ، إنما يريد الله بكم هدى الملائكة عند ربها ويقرأ : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبر .

(١) سنن الترمذی . كتاب أبواب الزهد . باب قول النبی ﷺ لو تعلمون ما أعلم ج ٤ ص ٥٥٦ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الصلاة . باب الأمر بالسكون في الصلاة ج ١ ص ٣٢٢ .

(٨١٠)

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ أى وتقول الملائكة : إنا نسبح الله دائما ،
ونعظمه ، ونقدسه فهو ربنا ونحن عبيده .

﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿ ٣٨ ﴾ لَكُنَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى إن مشركى مكة كانوا يقولون قبل بعثة محمد
ﷺ لو جاءنا رسول من الله سنؤمن به ، ونخلص في طاعته ، ونستقيم على
صراط الله تعالى .

فلما جاءهم محمد ﷺ نكصوا عن وعودهم ، واستمروا على كفرهم ،
وأخذوا يصدون الناس عن سبيل الله تعالى .

﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أى أن أنهم كفروا بمحمد عقب
دعوتهم مباشرة ، وأصروا على الكفر ، وسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، وما
سيحل بهم من عذاب أليم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الملائكة مصطفة في صفوف منتظمة ، في مقاماتهم
الثابتة المعلومة لهم ... يطيعون الله ، ويسبحونه ، ويتبرأون من قول الكافرين
عنهم . فعهد المشركين الكذب والإفك ، وكثيرا ما وعدوا قبل الرسالة ، وأكدوا
أنهم سيؤمنون برسول يرسله الله إليهم ، فلما جاء محمد ﷺ كفروا بدعوته
وسيعاقبهم الله على كفرهم .

(٨١١)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

النظام طريق النجاح

تبين الآيات جانبا من حياة الملائكة ، فهم خلق لهم ، وضعهم سبحانه لطاعته ، وجعل لهم مقامات عديدة ، ومهام متنوعة ، فمنهم ملائكة الوحي وملائكة الحفظ والتدوين ، وكل منهم يعرف مقامه ، ويلتزم به .
والملائكة عالم منظم ، يسارع إلى العمل الذي يكلف به ، وهم يسبحون الله دائما ، ويقصدونه ، ويعظمونه .

وان كان للناس أن يستفيدوا من صورة الملائكة وصفاتهم فعليهم أن ينظموا أوقاتهم ، ويحددوا أعمالهم ، ويشغلوا حياتهم بذكر الله تعالى .
إن الواجبات أكثر من الأوقات ، وهذا يحتم ضرورة التنظيم حفظا للأوقات ، وصيانة للأعمال ، وبذلك لا يجد المسلم نفسه في فراغ لا يفيد .
إن الله أوجد الإنسان في الأرض ليملاها نهضة وحضارة ، وكلفه بالسعي والعمل ... وبين له أن العمر لحظاب تمضي ، وزمن ينقضي ، وما مضى منه قات ، والحاضر هو عمل الإنسان ونشاطه ، ولن يستفيد به صاحبه إلا بالنظام والتخطيط .

لقد كلف الله المسلم بعبادات محددة ، وزعها على أوقات اليوم والعام ليقوم المكلف بها ، يأخذ منها ضرورة توزيع الواجبات على الأوقات ، واختيار الزمن المناسب للعمل المناسب .

(٨١٢)

إن الأمم الحديثة تخطط لحاضرها ومستقبلها ، وتضع لذلك قوالب محددة في أطر معلومة ، وهذا يؤكد سبق الإسلام في دعوته إلى التخطيط والتنظيم للحاضر والمستقبل في الدنيا ، وفي الآخرة .

ومن لفظ الآيات أرى الملائكة في جيش منظم ، تقف صفوفًا متتابعة ، مستعدة لتنفيذ الأمر الذى تكلف به ، وهى في صفوفها يعلن أهبتها واستعدادها في ذكر ، وتسبيح وتعظيم لله رب العالمين .

ومن مفهوم الآيات أرى المسلم في صلاته يصطف لله ، ويسبحه ، ويعلن عبوديته لله ، واستعداداه للطاعة والعمل .

إن الإسلام دين النظام والعمل لتحقيق الفوز في الدنيا ، وفي الآخرة .
ومع هذه الركيزة أ همس في أذن الدعاة ليستفيدوا من عملهم منهاجًا لحياتهم ، ويستقيموا عليه ليكونوا قدوة لغيرهم ، ويعلموا الناس الدين وهو يصنع الحياة ، ويقيمها على العدل والحق .

الركيزة الثانية

خلف الوعد مفسدة للخلق والسلوك

من علامة الإيمان الوفاء بالوعد ، فالمؤمن إذا وعد وفى ، لأن الوفاء يؤكد صدق صاحبه ، ويبين أنه يقدر المسئولية وأنه صاحب رسالة ، وأنه يعمل لمصلحة الآخرين كما يعمل لمصلحة نفسه ، ولذلك كان الوفاء أحد علامات الإيمان ، وكانت الخيانة علامة النفاق .

وعد الله للمرسلين وعبادة المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٧٩﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَبِعَدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٨٤﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٦﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٧﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مواقف المشركين وقولهم عن الملائكة ، وردت أكاذيبهم جاءت هذه الآيات تسلي رسول الله ﷺ ، وتوضح له أن الله سينصر رسله والمؤمنين معه ، وتأمره بترك المشركين ، وعدم التأثر بكفرهم وضلالهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات وعد الله لرسله بالنصر والغلب ، وتأمر رسول الله بعدم التألم لموقف المشركين ، وتخبره بأن عذاب الله نازل بهم ، وإن جهنم هي مأواهم ... فاصبر ، وتحمل ، وانتظر ما يحل بهم ، ونزه الله ، وأعبد واحد ، فهو رب العالمين .

(٨١٤)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى لقد سبق أن وعدنا

الرسل ، وأتباعهم بحسن العاقبة في الدنيا ، وفى الآخرة .

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ أى وعدناهم بالنصر على أعدائهم .

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَلِبُونَ ﴾ أى وأن جنود الله سيغلبون خصومهم ،

وينصرون دين الله تعالى .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أى اترك يا محمد المشركين ، واصبر على

أذاهم ، وسيحقق الله وعده كما حققه للرسل السابقين .

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أى انتظر وترقب قدر الله تعالى فيهم ،

لأن العبرة بالخواتيم فسوف ترى نصر الله تعالى ، وانتشار دينه ، وعلو عباده المؤمنين ... وسيرى المشركون أيضا خسرانهم ، وذهاب ملكهم ، وظهور سفاهتهم .

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ؟ ... أى لماذا يستعجلون مجئ عذابنا ،

ولحاقه بهم ... وهو سؤال إنكارى ينكر الله فيه على الكافرين استهزاءهم برسوله ، وتكذيبهم لدعوته ، وعدم تصديقهم بمجئ العذاب ، ولذلك استعجلوه استهزاء به .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى إذا نزل العذاب

بديارهم فسوف يهلكهم ، ويدمر نهضتهم ، وحضارتهم ، وسيعلمون سوء هذا اليوم وسوء المصير الذى حل بهم .

عن أنس رضي الله عنه قال : "صبح رسول الله ﷺ خبير فلما خرجوا بفئوسهم ومساحيهم ، ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس فقال النبي ﷺ : الله أكبر ، خربت خيبر ، إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين" (١) .

قال صاحب الكشاف : مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه ، بجيش أنذر بهجومه قوما ونصحهم ، فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ولا دبروا أمرهم تدبيرا ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم (٢) .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

أى دعهم وما هم فيه من كفر ، وانتظر السوء الذى سيحل بهم ، واعلم أنهم يبصرون الخير الذى كتبه الله لكم .

والآيتان تأكيد لما سبقهما ، وقيل الآية الأولى تعنى أحوال المشركين في الدنيا ، والآية الثانية تعنى أحوالهم في الآخرة ، ومعنى ﴿ حِينٍ ﴾ الأولى وقت فتح مكة ، و "حين" الثانية وقت قيام الساعة .

﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى

الرُّسُلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ أى عظم الله ربك ، ونزّهه عن أوصاف الشرك والمشركين ، وسلم على المرسلين ، واهتدى بهديهم ، واحمد الله دائما ، فهو رب العالمين ، وهو مالك الملك ، وهو المتصرف في الدنيا والآخرة .

(١) صحيح البخارى . كتاب الصلاة . باب ما يذكر في الفخذ ج ١ ص ٨٣ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٨ .

والآيات ختام حسن للسورة فقد تضمنت الإشارة إلى الموضوعات الثلاثة التي تناولتها السورة وهي :

الموضوع الأولي : معرفة الله عز وجل ، والالتزام بحقه سبحانه وتعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به ، فهو المتصف بصفات الكمال والجلال وذلك الموضوع ظاهر في الآية الأولى ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

الموضوع الثاني : الإنسان محتاج إلى من يعرفه بالله ، ويرشده إلى مسارات الخير والصواب في الدنيا والاخرة ، وبذلك يكون بالرسول التي تبلغ الوحي عن الله تعالى . يقول الله عنهم : ﴿ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

الموضوع الثالث : تؤدي المعرفة بالله إلى وجوب حمده الدائم لأنه محمود في ذاته ، محمود بصفاته ، محمود بخلقه وآثاره . يقول الله تعالى : ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

عن أبي سعيد الحذري رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ غير مرة يقول في آخر صلاته : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ ٨١ ﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿ ٨٢ ﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٨٣ ﴾ ^(١) .

وعن علي رضي الله عنه : من أحب أن يكتال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ^(٢) .

(١) مصنف ابن أبي شيبة . كتاب الصلاة . باب ماذا يقول الرجل إذا انصرف ج ١ ص ٢٣٩ .

(٢) تفسير الخازن ج ٦ ص ٤٠ .

(٨١٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله وعد رسله جميعا بالفوز والنصر على أعدائهم ، فابتعد يا محمد عن أهل مكة ، واتركهم وانتظر ما سيحل بهم في الدنيا ، ويوم القيامة ، واعلم أنهم يتربصون بك الدوائر ، وأنهم يستهزئون بك ، ويستعجلون العذاب ، الذى سينزل بهم ، ويسئ أحوالهم ، واستمر يا محمد والمؤمنين معك على تسبيح الله ، واتباع طريق المرسلين ، واحمد الله رب العالمين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الله ولى الذين آمنوا

من حقائق الحياة انقسام الناس أمام دين الله إلى فريقين رئيسيين . فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين ، وأنهم سيستمرون مضادين في الدنيا وفى الآخرة . فهم في الدنيا في جدال ، وخصام ، وتدافع يعمل كل فريق لينصر مذهبه ورأيه ، ودينه ، ويعمل على بيان أخطاء الآخر ... ولكل فريق منطق ومصدره وغايته .

فريق المؤمنين يعتمد على الوحي ، ويؤمن بالله ، ويسير على منهج الإسلام ، ويتمسك بصراط الله المستقيم . إن هذا الفريق هو جنود الله في الأرض ، قوادهم الرسل وغايتهم انتصار الإسلام ، وسبيلهم الصدق ، والجهاد والإخلاص .

أما فريق الضلال فمصدرهم عقولهم ، وغايتهم سلطان الدنيا ، والاستعلاء على الناس ، يكفرون بالغيب ، ولا يصدقون إلا بما يحسون ويشعرون ،

ويعتمدون على بريق الألفاظ ، وخداع المسميات يرفعون شعار الحرية ، وهم عبيد شهواتهم، ينادون بالعلمانية وهم يعادون غيرهم ، يأخذون من العلم ظاهره. يعيش الفريقان في تناقض وصراع ، ولذلك حسن للمؤمنين أن يتيقنوا بوعده الله الحق ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ^(١) ... وحسن للمؤمنين أن يصدقوا مع الله ليصدق الله معهم . ودور الدعاة قيادي مع المؤمنين ، وشأن القائد أن يعلم ويعلم ، ويوجه ويحذر .

إن الفريقين راجعان إلى الله تعالى ، وعنده تظهر الحقائق ، ويفوز المؤمنون بالجنة ﴿ جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ ^(٢) ويوضع الظالمون في النار ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ^(٣) .

الركيزة الثانية

دعائم النصر في الدنيا

حبا الله المؤمنين بالخير فحدد لهم الطريق المستقيم الذي يحقق لهم الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة ... وقد ختمت السورة آياتها بهذه الدعائم ... وهي :

أولاً : ضرورة معرفة الله تعالى ، والقيام بحقه وطاعته في كل ما أمر به أو نهى .

(١) سورة الصافات ، الآية ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) سورة النبأ ، الآية ٣٦ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٧ .

(٨١٩)

ثانيا : الإيمان برسول الله وطاعته ، فهو وحى الله للناس ، واتباعه طاعة
لله تعالى ، وهو طريق معرفة الله تعالى .
ثالثا : مداومة الذكر والتسبيح لأن الذكر يعبد الله ، ويستحضر عونه
وتوفيقه .

وبمجموع هذه الدعائم بتحقيق نصر الله تعالى .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الصفات" بتوفيق الله تعالى .

سورة "ص"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٨٢١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -**التعريف بسورة "ص"**

سورة "ص" سورة مكية بالإجماع ، وعدد آياتها ست وثمانون آية عن أهل الحجاز والشام والبصرة ، وخمس وثمانون آية عند أبي أيوب المتوكل وثمان وثمانون آية عند أهل الكوفة^(١) .

نزلت سورة "ص" قبل الهجرة بثلاثة سنوات بعد سورة ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ ﴾ ولها اسم واحد هو "ص" ، أحد حروف الهجاء التي اشتركت مع سورتي (ن) و(ق) بالبداية بحرف واحد .

وقد سماها السخاوي بسورة "داود" كما جاء في الإتيان^(٢) .

ووجه اتصالها بسورة "الصافات" أن الآيات التي ختمت بها سورة "الصافات" متفقة مع الآيات الأولى في سورة "ص" . ففي سورة "الصافات" يقول الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾^(٣) وجاء بدء سورة "ص" ردا على تمنيات المشركين في الآية السابقة فقال تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾^(٤) ... فهذا هو القرآن ذو الذكر قد جاءهم ... وهو ما تمنوه ، وهم كاذبون في تمنياتهم هذه ، لقد كذبوا به لما جاءهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَحِبُّواْ أَنْ جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴾^(٥) !!

(١) التحرير والتنوير ج ٢٣ ص ٢٠٢ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ج ٣ ص ٣٧٥ .

(٣) سورة الصافات ، الآيات ١٦٨ .

(٤) سورة ص ، الآية ١ .

(٥) سورة ص ، الآية ٤ .

وأيضا فإن سورة "الصافات" قد ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ
 كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ
 الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾^(١) وجاءت سورة "ص" بقوله تعالى : ﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ
 مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾^(٢) فأخبرت السورتان بالغيب ، وبما سيحل بهؤلاء
 المشركين ، وبما سينزل بهم من هزيمة ، هم ومن معهم من جنود الباطل ...
 كما تعد سورة "ص" مكملة لسورة "الصافات" حيث جاءت سورة "ص"
 بقتصص للرسل لم يأت في سورة "الصافات" مثل قصة داود وسليمان وأيوب
 وآدم عليهم السلام .

وتدور موضوعات السورة على نفس موضوعات السور المكية فتثبت
 وحدانية الله تعالى ، وتثبت له سبحانه صفات الجلال والكمال ، وترد على
 المخالفين . يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ
 الْقَهَّارُ ﴿١١٠﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿١١١﴾ ﴾^(٣) .

وتتحدث عن الرسل والرسالات ... يقول الله تعالى :

- ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾^(٤) .
- ﴿ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾^(٥) .
- ﴿ إِنَّ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾^(٦) .

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٧١ . ١٧٣ .

(٢) سورة ص ، الآية ١١ .

(٣) سورة ص ، الآية ٦٥ ، ٦٦ .

(٤) سورة ص ، الآية ٤٥ .

(٥) سورة ص ٤٨ .

(٦) سورة ص ، الآية ٧٠ .

(124)

وتتحدث عن الملائكة ... يقول الله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّیْ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِیْنٍ ﴾^(۱) .

وتتحدث عن الكتب السماوية ... يقول الله تعالى :

﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ۖ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۙ﴾ (٢).

﴿ كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٣) .

وتتحدث عن اليوم الآخر ... يقول الله تعالى :

- ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾^(٤).

﴿ جَنَّتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾^(٥) .

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦﴾ .

وتورد السورة موضوعاتها فى أسلوب قصصى يجمع جزالة اللفظ ، وحلو العبارة ، ووضوح المعنى ، ويعجب القارئ وهو يعيش بين عالم الجن والملائكة والناس ، ويطلع على الجدل والحوار ، ليصل فى النهاية إلى معرفة الله ، والإيمان به ، والاستقامة على منهج الإسلام الحنيف .

(١) سورة ص ، الآية ٧١ .

(٢) سورة ص ، الآية ٨ .

(٣) سورة ص ، الآية ٢٩ .

(٤) سورة ص ، الآية ١٥ .

(٥) سورة ص ، الآية ٥٠ .

(٦) سورة ص ، الآية ٨٤ ، ٨٥ .

- ثانيا -**- التفسير -****إنبات وحدانية الله ورسالة النبي ﷺ**

يقول الله تعالى :

﴿ صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۚ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۚ كَرَّ
 أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحْنِ مَنَاصِرَ ۚ وَعِجُّوا أَن جَاءَهُمْ
 مُنذِرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۚ أَجْعَلُ آلَٰهَةً إِلَٰهًا وَاحِدًا ۚ
 إِن هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۚ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۚ
 إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۚ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِن هَذَا إِلَّا خِتَلَقَ ۚ
 ۝ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۚ بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا
 عَذَابَ ۚ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۚ أَمْرٌ لَهُمْ مِّلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۚ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ
 مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۚ ۝ ﴾

- ١ -

سبب نزول الآيات

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه
 رهن من قريش فيهم أبو جهل فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهم ويفعل ويفعل
 ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته ، فبعث أبو طالب إليه فجاء النبي ﷺ
 فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل واحد ، قال فخشي أبو
 جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق عليه ، فوثب فجلس في ذلك

المجلس ، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه ، فجلس عند الباب فقال له أبو طالب : أى ابن أخى ما لقومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ؟ قال وأكثروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله فقال يا عم : إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، ففرحوا لكلمته ولقوله فقال القوم ما هى وأبيك ، لنعطينكها وعشرا ، قال ﷺ : (لا إله إلا الله) فقاموا فرعين ينفضون أثوابهم ويقولون : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ فنزل من هذا الموضع إلى قوله : ﴿ بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ ﴾^(١) .

- ٢ -

موضوع الآيات

يقسم الله بالقرآن الكريم على ضلال الكافرين ، وغرورهم ، واستكبارهم وعداوتهم للمؤمنين ، فلقد أظهروا دهشتهم من دعوة التوحيد ، وبعثة النبي ﷺ واتهموا الرسول بالسحر ، والكذب ، والتآمر ، وقد ردت الآية عليهم ، وأثبتت الحقيقة خلال آيات السورة كلها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ ص ﴾ حرف هجاء بدأ الله به السورة فعرفت به ، ولم يعده المفسرون آية مستقلة كما لم يعدوا (ن) و (ق) آية ، لأن الحرف الواحد لا معنى له فى نفسه ، ولا معنى له إلا إذا جاء معه غيره ليكمله .

(١) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ١٥٠ .

ونقول فى هذا الحرف (ص) ما قلناه فى سائر الحروف المقطعة من أنها جاءت لإثبات إعجاز القرآن الكريم ، ولتنبيه المستمع لما يقال بعد هذه الحروف ، ولإظهار عظمة الله ، وجلاله وكماله أسرار خلقه ، وعجائب قدرته .

﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ الواو واو القسم ، والمقسم به هو القرآن الكريم

، وقد أقسم الله بالقرآن الكريم تنويها بشأنه ، وتذكيرا للناس بما هم غافلون عنه ، ويكون التذكير بقراءته ، وفهمه ، ومعرفة أحكامه للقيام بها ، وعدم نسيانها ، كما يتم بقراءته فى ورد ثابت ليلا أو نهارا ...

وعلى كلا المعنيين فهو مدح وثناء على القرآن الكريم ، فهو مثلو مذكور يصل القارئ بالله الذى أنزله ، وهو مذكر لدين الله تعالى ، موقظ من الغفلة والنسيان .

ووصف القرآن الكريم بـ ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾ يقيد علو شأنه لأن ذا بمعنى صاحب ، وتضاف غالبا للأشياء الرفيعة الجليلة ، وكفى للقرآن عظمة أنه يربط الإنسان بالله حين يقرؤه ويذكره ، ويوقظ الإنسان من الغفلة حين يذكر الإنسان بدين الله ، ويوضح له الصراط المستقيم .

وجواب القسم محذوف دل عليه حرف (ص) لأن المقصود بهذا الحرف التحدى ، وإثبات عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن الكريم مع أنه مكون من حروف الهجاء ، ومعنى المقسم به أن القرآن ذو الذكر ، ولذلك عجزتم عن الإتيان بمثله ، وقد أقسم الله به على ما دلت عليه الآية التالية المصدرة بـ "بل" وهو إنه لذكر نزل من عند الله تعالى . والمعنى أقسم بالقرآن ذى الذكر على أنه ذكر ، ولكن الذين كفروا ينكرون ذلك ، ويجحدونه ويقولون هو سحر ، وحذف جواب القسم للإعراض عنه ، والانتصراف منه إلى ما هو أهم منه ، وهو بيان موقف الكفار منه .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ "بل" إضراب وانتقال من جملة القسم إلى ما يدل على الجواب ، وهو أن كفار مكة فى كبر ، واستعلاء ، وحمية جاهلية ، فهم مغرورون جاحدون ، ويعيشون شقاوة ، وعداوة وخصومة مع محمد ﷺ وأصحابه .

وهذا يبين سبب عدم استفادتهم بالقرآن الكريم . ذكرا وتذكيرا . وهو الاعتزاز بالجاهلية ، والعداوة لدين الله ، ولرسوله ، وللمؤمنين .

﴿ كَرَّ أَهْلُكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَآ وَلَاتِ حِينٍ مِّنَاصٍ ﴾ "كم" للتكثير ، أى أهلكنا عددا كثيرا من الأمم التى جاءت قبلهم بسبب عدم إيمانهم وكفرهم بالله ، وتكذيبهم لوعده رسولهم ، فأهلكهم الله تعالى ... فإنهم لما رأوا العذاب نادوا واستغاثوا بالله فلم ينفعهم النداء ... وفى ذلك إشارة لأهل مكة لتحذيرهم من عدم الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ حتى لا يلحقهم ما لحق بالأمم قبلهم ، وعندها ينادون ولا يستجاب لهم ، وقد حدث لأهل مكة ما أنذروا به ، فلقد أصروا على الكفر ، وحاربوا الدعوة فلما رأوا الهلاك يوم "بدر" استغاثوا بالله ، وطلبوا من المسلمين الأمان ، فلم يسمع لهم .

﴿ وَلَاتِ حِينٍ مِّنَاصٍ ﴾ أى لا مهرب فى هذا الوقت من الهلاك ، ولا نجاة من عذاب الله تعالى .

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أى تعجب المشركون من رسالة محمد ﷺ فأنكروها لغشاوة فى قلوبهم ، وعى فى عقولهم ، واندهشوا ، وعجبوا ، وأخذوا يرددونها زاعمن أن معهم دليلهم .

فأنكروا الرسالة . أولا . لأن محمدا واحد منهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ والعجب انفعال فى النفس ينشأ من ظهور

أمر غير متوقع ، أو غير صحيح ، وقد تعجب كفار مكة من مجئ منذر منهم ، وهو محمد ﷺ .

وسبب العجب أنهم لا يسلمون بأن يكون الرسول بشرا ، ومن عامتهم ... وهذا يدل على جحودهم ، وسوء تقديرهم لأن شأن الرسول أن يكون عارفا بالناس ، متكلم بلغتهم ، يدرك حاجتهم ، وطبيعتهم ... واختياره من عامتهم أولى ، لأنه لو كان غنيا لأتهم بالاستعلاء ، والكبر ، واستعباد العبيد كما هو حال أهل مكة ، ولو كان ذا سلطان وملك لأتهم بالعمل لملكه ولخاصمته قبائل العرب كعادتهم .

والأولى أن يكون الرسول بشرا عاديا ، مشهودا له بالخلق الكريم ، والمعاملة الحسنة ، لم تلحقه شبهة أو تهمة ... يختاره الله ، ويصطفيه من الناس ، ويرتقى بروحه ونفسه ليتصل بالملا الأعلى من جهة ، وبالناس من جهة أخرى وكان هذا هو محمد ﷺ .

وهم . ثانيا . يتهمون رسول الله ﷺ بما ليس فيه ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ وهذا استهزاء منهم برسول الله ، وقد ظهر استهزاؤهم برسول الله حين أشاروا إليه باسم الإشارة ﴿ هَذَا ﴾ ولم يذكروا اسمه ﷺ ، واتهموه بأنه كاذب في دعوى الرسالة ، وفيما يأمرهم به ، وبأنه ساحر يخيل للناس ، ويلعب بأبصارهم وعواطفهم ... وهم في ذلك ضالون ، فقد اشتهر محمد بينهم بالصدق والأمانة ، فكيف يصدق معهم ، ويكذب على الله ... ومحمد ﷺ بعيد عن السحر ، والعمل به ، لأن الإسلام الذي يدعو له يعتمد على براهين الواقع ، وآيات الوجود .

(٨٣٠)

وهم . ثالثا . أنكروا التوحيد ، وقالوا : ﴿ أَجْعَلُ آلِهَةً إِلَهًا وَحِدًا ﴾ وجعلوا دعوة التوحيد دليل الكذب ، ولم يتصوروا أن الله إله واحد ... فأنكر الله عليهم ذلك .

وقالوا . رابعا . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ أى أن دعوة التوحيد أمر عجيب لا يصح التسليم بها ، وبالغوا في تعجبهم ، ودهشتهم من خلال كلامهم ، وقد وضحت الآيات الأصل الأول للكافرين ، وهو إنكار التوحيد ، وبيّنت بعد ذلك الخطة التى وضعوها وأمرؤا بها للمحافظة على الأصنام والأوثان . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْطَلِقَ الْأَمْلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ أى تفرق الأغنياء ، وأولو الأمر منهم ، ومشوا إلى الناس ، وتواصوا بمواصلة السعى ، والتمسك بالأصنام ، والصبر على عبادتها ، وملازمتها ، والثبات على دين الآباء .

﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ أى أن ما يفعله محمد ويدعونا إليه مؤامرة مدبرة ضد الأصنام والأوثان التى نعبدها كما كان يعبدونها أبائنا .

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَمَلَةِ الْآخِرَةِ ﴾ أى إننا لم نسمع دعوة مثل دعوة محمد تدعو إلى التوحيد ، ولم نجد هذا الحال في آخر ملة جاءت قبل ذلك ، يقصدون ملة عيسى عليه السلام ... يريد المشركون بذلك الإشارة إلى ما عند النصارى من بنوة عيسى لله ، ومن قولهم بالأب ، والابن ، والروح القدس ، ويمكن أن يكون المراد بها ما عليه العرب حين البعثة لأنهم كانوا يعدون أنفسهم على ملة صحيحة .

﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا آخِثَلِقٌ ﴾ أى إن دعوة محمد ﷺ إلى توحيد الله تعالى لا أصل لها ، وقد اختلقها وألفها من تلقاء نفسه .

﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ؟ ... الاستفهام لإنكار رسالة محمد ﷺ

ورد لرسالته ، لأنهم يرون استحالة نزول القرآن الكريم على محمد ﷺ ، وتخطى زعماءهم وأغنياءهم ، وذا الجاه والشرف فيهم .

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أى أن علة كفرهم شكهم في نزول

القرآن الكريم المتضمن للدلائل والبراهين على صدق محمد ﷺ ، لأنهم يرون عدم الإنزال أصلا ، وبالتالي لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ ، ولذلك كان الإضراب والانتقال إلى تكذيب محمد ﷺ بعد شكهم في القرآن الكريم .

﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ أى أنهم لما لم يذوقوا العذاب على تكذيبهم

تجروا على التكذيب والسفاهة ، ولو ذاقوا العذاب لكتموا أفواههم ، ولسكتوا عن معارضتهم .

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ ؟ ... أى هل يملكون

خزائن رحمه الله العزيز القهار ، الكثير العطاء ، فيتصرفون فيها كما يريدون ويأخذون منها لأنفسهم ما يشاءون ، ويوزعون منها على أصحابهم وذويهم ، وهم لذلك يرون محمدا لا يصلح للرسالة ، ولا يجوز نزول وحى إليه .

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فَلْيَرْتَقُوا فِي

الْأَسْبَابِ﴾ ؟ ... أى هل يملكون السموات والأرض ، وما بينهما حتى يقولوا

في الرسالة ، والوحى ما يقولون ؟ ... فإن كان لهم هذا الملك فليصعدوا إلى أسباب السموات العلا ليخبرونا عن حقائق الأشياء في الملأ الأعلى ، ويعرفونا بكنه الإله ، وصفاته ، وملائكته ، وقدرته ، وعلمه .

وكل هذه الاستفهامات إنكارية تدل على سوء مواقف الكفار ، وفساد أرائهم ... ولا تحتاج لجواب لأن القصد منها الإنكار ، والاستهزاء ، والسخرية .

﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أى جند كثيف ، كثير

العدد ، يواجه المجاهدين وسوف يهزمهم المسلمون بأمر الله في مواقع عدة ، يعلمها سبحانه وتعالى بعد تحزيبهم وتجمعهم للقتال ، وقد حدث ذلك في مواطن عدة في التاريخ ، فقد نصر الله المسلمين في بدر ، والأحزاب ، وفي بلاد فارس ، والروم .

وفي هذه إشارة إلى نصر الله للمؤمنين حين صدقهم على جيوش كثيرة تجمعت واستعدت وتحزبت لهزيمة المسلمين .

- ٤ -

معنى الآيات

يقسم الله بالقرآن الكريم على أن القرآن الكريم هو الذكر المنزل على محمد ﷺ ، وتبين أن المشركين ينكرون نزول القرآن من عند الله على محمد ﷺ في كبرياء ، وخصومة للمؤمنين ، ولم يتعظوا بما وقع للأمم السابقة بعد جحودها وكفرها فقد أهلكها الله بالعذاب الذى حل بها .

وقد عجب أهل مكة من مجئ محمد ﷺ رسولا إليهم ، واتهموه بالكذب والسحر ... وتعجبوا من دعوته إلى توحيد الله تعالى مخالفا بدعوته ما كانت عليه الملة السابقة ، وتنادوا لحماية الشرك والأصنام ، والصبر على عبادتها من المؤامرات التى يدبرها محمد والمؤمنون معه ضدها ... وحددوا دهشتهم وانكارهم لبشرية الرسول ، ونزول الوحي عليه ، وسبب ذلك أنهم ينكرون الوحي أصلا ، وقد أصابهم الغرور لعدم نزول العذاب بهم ، وسوف تنتهزم جموعهم بأمر الله تعالى .

(٨٣٣)

ويسخر الله منهم ويبين أنهم لا يملكون خزائن الله ، ولا شيئاً في السماء والأرض ، ويوعدهم بالهزيمة ، والبوار .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى إظهار دور القرآن الكريم في حياة الناس

أنزل الله القرآن الكريم على رسول الله محكما مفصلا ، ليكون دستور الإسلام ، ومنهجاً لإصلاح الحياة ، وقد حفظه الله تعالى ، وأبقاه في الناس ثابتاً كما نزل به جبريل عليه السلام ... وقد جعل الله حفظ القرآن الكريم ، والمحافظة عليه عبادة يتقرب بها المسلمون إلى الله تعالى ، ولذلك استمر تواتره بين المسلمين جيلاً بعد جيل ، وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة ... وقد الله بين الناس أهمية القرآن الكريم فأقسم به على خيريته ، وسمو منزلته .

وأمر الناس أن يذكروه في حياتهم ، يحفظونه ، ويتلونه ، ويتدبرون معانيه التي تأخذهم إلى الماضي ، وتحكى لهم الحاضر ، وتناديهم بالحسن والخير في المستقبل القريب والبعيد في الدنيا وفي الآخرة ... كما أمرهم أن يتذكروه في أعمالهم وأحكامهم ، ويتخذوه مصدر الهدى ، وأساس الصراط المستقيم .

إن القرآن الكريم هو موضوع الدعوة ، ووسيلتها إلى الناس ، وهو المنهج الذي يحقق للدعوة النجاح ... وهو مرجع الدعاة ... يأخذون منه القصة والمثل ، والترغيب والترهيب ... إنه مدد الدعاة بالعلم والمعرفة ، وهو الهادى إلى سواء السبيل ... إنه الدين والدعوة ، وهو الطريق والغاية ، وهو الدنيا والآخرة .

والدعاة مكلفون بالالتزام به ، والدعوة له ، والمحافظة عليه ، والله يهدي إلى سواء السبيل .

الركيزة الثانية

عوامل نجاح الدعوة

تتحرك الدعوة وسط الناس ، ولذلك وجب عليها أن تتعامل معهم ، وتفهم طبيعتهم ، وتخطب عقولهم ، وتخرجهم من الباطل الذين يعيشون فيه إلى الحق الذي يريده الله ، ولذلك يحتاج التبليغ الحسن إلى ما يلي :

أولاً : فهم واقع المدعويين ، لأن الدعاة يتعاملون مع هذا الواقع شأنهم شأن الطبيب يحتاج إلى معرفة المرض ليحدد الدواء والعلاج ، وإذا عجز عن فهم الواقع عجز بالضرورة عن التشخيص والعلاج .

ثانياً : الاستفادة بمنطقهم في الحوار ، لأنهم يلجأون إلى ما يروونه أنجع في التأثير ، فيكشفون بهذا ما هم به يتأثرون .

إنهم يحددون منهجهم في سرعة الحركة للوصول للغاية ، والتمسك والصبر على ما له يعبدون ، والمبادرة باتهام الآخر ليصير في موقع الدفاع عن نفسه ، وينفون المماثلة بين عقيدتهم وبين المدعويين .

يمكن للدعاة أن يسلكوا المنهج التالي :

(١) ضرورة الحركة الدائمة بالإسلام للوصول به إلى الناس كما فعل رسول الله في دعوته في مكة والمدينة المنورة .

(٢) ضرورة الصبر على مشاق الدعوة لأن خصوم الحق لن يؤمنوا بسهولة وسيواصلون الصد والكفر ، ولذا وجب الصبر عليهم .

(٣) العمل على تحريك دواعي النظر في المدعو حتى لا يلعب الشيطان به ، ويتم ذلك بإلقاء الأسئلة وإشراكه في الحوار ، ودعوته للنظر والتدبر .

(٨٣٥)

(٤) توضيح أوجه المماثلة بين دعوات الله ، ومعارضة المكذبين .

(٥) إثبات الخصائص والمزايا التي أكرم الله بها محمدا ﷺ .

وبهذا تكون الحكمة ضالة الدعاة أنى يجدونها يلتقطونها .

الركيزة الثالثة

عدوانية خصوم الدعوة

لقد دعا رسول الله ﷺ قومه في مكة إلى الإيمان ... إلا أنهم لم يؤمنوا وأخذوا يهاجمون الدعوة ، ويكذبون رسول الله ﷺ ، ويصدون الناس عن سبيل الله تعالى ، وتحولوا إلى خصوم للدعوة وأعداء لها ، وظهر منهم ما يلي :

أولا : تكبروا ، وتعالوا ، ورفعوا أنفسهم في خصومة متعنتة ، وعداوة ظاهرة ، ورأوا أن هذا تعالى هو السبيل لرئاسة الناس .

ثانيا : لم يستفيدوا بالتجارب العملية التي سبقتهم وهم يعرفونها ، ويرونها .

ثالثا : أخذوا يجادلون في الحق ، ويزعمون أن من الغرائب أن يكون الإله

واحدا .

رابعا : اتهموا رسول الله ﷺ بالسحر ، والكذب ، والشعوذة لصرف الناس عن دين الآباء ، وصوروه متآمرا على أصنامهم اختلق فكرة التوحيد ليقضى عليها .

خامسا : أخفوا عيوبهم الحقيقية وهي أنهم لا يؤمنون بالوحي ، ولا يصدقون بالقرآن الكريم ، ولم يسبق أن ذاقوا العذاب الأليم .

هذه الخصومة البادية من أعداء الدعوة تحتاج من الدعاة إلى الفهم ، والاستعداد ليتمكنوا من رد هذه الشبه واحدة واحدة ، ويثبتوا للناس صدق الدين ، وضرورته للعالمين .

إن المعرفة أساس الدعوة ، وهي مسئولية الدعاة ، وحاجة الدعوة .

(٨٣٦)

الركيزة الرابعة عجز معارضى الدعوة

إن نشاط معارضى الدعوة وهم لا يصح التأثر به ، ويجب الثقة الدائمة في الله ، وانتصار دينه ، ومحاولة الوقوف على حقيقة هؤلاء الخصوم .
إنهم لم يؤمنوا بالوحى ، ويتصورون استحالة ، ولا يتصورون نزول القرآن من الله على محمد ﷺ مع أنه أعجزهم بأقصر سورة منه .
إنهم لا يملكون خزائن السموات والأرض حتى يزعموا ما يزعمون ، ولو صدقوا مع أنفسهم لعاشوا في حدود بشريتهم .
إنهم لا يستطيعون نصرا ، ولا يملكون قدرة ... ولسوف ينهزمون ويعلمون أن النصر من عند الله العزيز الحكيم .

عاقبة المكذبين في الأمم السابقة

يقول الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿٧﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿٨﴾ إِنَّ كُلًّا إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿٩﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَتُّوْلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٠﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١١﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة فساد ما ذهب إليه أهل مكة من إنكار الوجدانية وعدم الإيمان بمحمد ﷺ جاءت هذه الآيات لبيان عاقبة المكذبين في الأمم السابقة ، وتوضيح أن مشركى مكة سيعاقبون مثلهم .

(٨٣٧)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أقوام الرسل السابقين كذبوا رسلهم فأهلكهم الله تعالى ، وعلى نمطهم سيعذب الله أهل مكة ، ويعاقبهم يوم القيامة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿٢٦﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴾ أى أن الأمم المذكورة كذبوا رسلهم ، وتحزبت كل أمة ضد رسولها ، واتهته بالسحر ، وبالجنون ، وبالكذب على الله تعالى .
﴿ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴾ هى أمة دعاها شعيب عليه السلام مع قومه مدين .

﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أى أن الأمم المذكورة هم الأحزاب الذين تجمعوا في كل أمة على الباطل ، والتفوا حوله ، وعارضوا الرسول الذى بعثه الله إليهم ... ولقد تجمع قوم كل رسول على الكفر ، وكونوا حزبا لمعارضته .
ويلاحظ أن الآيات بينت أن قوم نوح ، وعاد قوم هود كذبوا رسلهم ، وأما الذى كذب موسى وهارون فهو فرعون نفسه ، وسبب ذلك ... والله اعلم ... أن الله أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون فكذب فرعون موسى عليه السلام ووقعت بينهما مجادلات طويلة لإبطال ألوهية فرعون حتى لا يغتر بشبهاته بنو إسرائيل والمصريون ولذلك اكتفت الآية بأن الدعوة كانت لفرعون ، وجعلت ذلك دعوة لهم ...

ووصفت الآية فرعون بأنه ﴿ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ أى صاحب البنايات الشامخة وهذا القول هو الذي يتأيد بمطابقة التاريخ فإن فرعون المعني في هذه الآية هو

(منفتح الثاني) الذي خرج بنو إسرائيل من مصر في زمنه ، وهو من ملوك العائلة التاسعة عشرة في ترتيب الأسر التي تداولت ملك مصر ، وقد اشتهرت هذه العائلة بوفرة المباني من معابد ومقابر .

يقول الأستاذ محمد عبده في "تفسيره" للجزء الثلاثين من القرآن في سورة "الفجر" : وما أجمل التعبير عما ترك المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ، فالأهرام ومنظرها في عين الرائي منظر الود الضخم المغروز في الأرض ، وأكثر الأهرام بنيت قبل زمن فرعون موسى منفتح الثاني فكان هو مالك تلك الأهرام ، والمفتخر بعظمتها^(١) .

﴿ إِن كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴾ أى كل هذه الأمم تحزبت ضد الرسل ، وكفرت بدعوتهم فاستحقوا العقاب الذى جعله الله لهم بسبب تكذيبهم الرسل ، وعدم إيمانهم بالله تعالى .

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَتُّوْلَاءٍ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أى ما ينتظر أهل مكة بعد كفرهم وشركهم إلا صيحة واحدة تهب عليهم من قبل المسلمين بحرب تكون الدائرة عليهم فيأخذهم القتل بلا مهل أو تأخير .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ لما أُنذر رسول الله مشركى مكة بعذاب الله ، وخوفهم من العقوبة الأخروية في يوم الحساب استهزأوا برسول الله ، واستعجلوا هذا العذاب ، وطلبوا أن يأتيهم نصيبهم من هذا العذاب في الدنيا فهو نصيبهم المعذر لهم ، وانما قالوا ذلك استهزاء بالوعد ، وتكذيباً لرسول الله ﷺ في كل ما دعاهم إليه ، وأخبرهم به .

(٨٣٩)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الأمم السابقة كذبت رسل الله تعالى ، وكفروا بما جاءهم به وأصروا على الكفر فعاقبهم الله بالهلاك ، وعلى مشركى مكة أن يتعظوا بذلك فإن تكذيبهم لرسول الله سيلقى بهم في العذاب الأليم ، ولن ينفعهم استهزاؤهم ، وكبرياؤهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة الاعتبار بالأمم السابقة

منهجية الاستفادة بالأمم السابقة واضحة في القرآن الكريم ، فقد بين الله تعالى الغاية من إيراد قصصهم فقال تعالى : ﴿ فَأَقْصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(١) ، وقال سبحانه : ﴿ فَأَعْتَبُوا يَتَأُولَى الْأَبْصَرِ ﴾^(٢) ... وعلى هذا الأساس جاء القصص مركزا على أحد عناصره في كل مرة ، ليصل بإبراز هذا العنصر إلى عالم الوجدان ، واللاشعور ، والتأثير فيه ، وأخذ الإنسان وعمله بعد ذلك إلى الله تعالى .
ودائما يبرز القصص القرآني ثلاثة عناصر :

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٦ .

(٢) سورة الحشر ، الآية ٢ .

(٨٤٠)

أولاًها : رسول يدعو لدين الله ، مؤيد بالمعجزة ، مبلغ وحى الله تعالى .
وثانيها : جماعة من الناس تكذب دعوة الرسول إليها ، فيهلكها الله تعالى .

ومع هذين العنصرين يتضح مسار الرسل فى الأمم كلها .
ثالثها : ظهور جماعة قليلة تؤمن بالرسول وتعاونه ، وتتبعه فى دعوته وتصبر وتحمل أذى الكافرين .

وصار من لازم ذلك أن يتحول الإنسان بعقله فى أحداث القصص ليستفيد بها ، ويختار الطريق الذى يرضاه ويؤمن به .
ومن رحمة الله بالناس أن بقيت آثار الضالين موجودة يراها الناس ويطلعون عليها ، وهم يسافرون ويرحلون ، ولم تعرض قصصاً مروية ، تحتويها الكتب والأسفار التى لا يؤمن بها الظالمون .

إن المحسوسات دليل على ما يتصل بها من معنويات ، فالأهرامات العالية ، والديار المخربة ، والقرى المنحوتة برهان على هلاك من أقاموها ، ومعهم كفرهم وافكهم ، إن الأثر يدل على المؤثر ، والبعرة تدل على البعير ، وهذه الآثار تدل على أصحابها .

ولذلك صار من مناهج الدعوة عرض قصص السابقين ، والاستفادة منه على انتصار الحق ، وهلاك الباطل .

إن قدرة الله غالبية ، ووعدده حق ، والعاقل من اتعظ بغيره ودان نفسه ، وعمل لما بعد الموت .

الركيزة الثالثة

الجزاء من جنس العمل

يضيف المشركون إلى كفرهم الاستهزاء بدين الله تعالى ، وبرسول الله وبالقرآن الكريم . يقول الله تعالى : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ ، ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ ، وقالوا : ﴿ عَجَلْ لَنَا قُطْنًا ﴾ ، ودل كل ذلك على استهزائهم وسخريتهم ، ولذلك استهزأ الله بهم ، وعذبهم وأوقع بهم العقوبة في لحظة سريعة ، وقال لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

الناس عن دين الله تعالى ، فأمره الله بالصبر وعرفه أنه ابتلاء واختبار ليصبر كما صبر إخوانه الرسل ، وكان النصر لهم في النهاية ، ومن أئمة الصابرين داود عليه السلام فكان مثله ، واذكره لقومك .

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى تذكر ما كان من

داود عليه السلام واذكره لقومك ليكون أسوة وقدوة ، ولتحقيق عدة فوائد منها :
الفائدة الأولى : يتخذ المسلمون داود عليه السلام قدوة لهم ، فهو عبد الله تعالى قام بالواجب عليه لربه عابدا عاملا مخلصا .

يقول أن النبي ﷺ قال : "أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود كان يرقط شطر الليل ، ثم يقوم ثلثه بعد شطره ، ثم يرقط آخره ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يوما ، ويفطر يوما" (١) .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : "كان النبي ﷺ إذا ذكر داود عليه السلام وحدث عنه قال : كان أعبد البشر" (٢) .

الفائدة الثانية : ضرورة الصبر ، والتحمل ، وتجنب حظوظ النفس ، وقصر العمل لله تعالى ، فإن السفر طويل ، والصبر زاد الدعوة ، وقد صبر داود عليه السلام على ما لقيه من حسد طالوت على انتصاره على جالوت ، وغير ذلك .

الفائدة الثالثة : تبشير محمد ﷺ بالنصر والظفر لأن داود عليه السلام كان فقيرا ، ولم يكن لأبائه ذكر قبله إلا أن الله أكرمه بالملك والسلطان مع النبوة .

(١) المسنن الكبرى للبيهقي . كتاب المصيام . باب ما جاء في فضل صوم داود عليه السلام ج ٤ ص ٤٨٨ .

(٢) سنن الترمذى . أبواب الدعوات . باب ج ٥ ص ٥٢٢ .

الفائدة الرابعة : بيان ما يترتب على العبودية الصادقة لله تعالى من فلاح ونصر ، فقد نصر الله داود عليه السلام وأمدّه بالسلطان والقوة ، لأنه كان واحدا من عباد الله الصالحين ، ذى قوة وشدة ، وشجاعة نادرة ، وكان كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وقافا عند حدوده سبحانه وتعالى ، ولذلك أنعم الله عليه بنعم عديدة ... منها :

(١) تسخير الجبال للتسبيح معه : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أى إن الله سخر الجبال تسبح معه حين إشراق الشمس وآخر النهار بكيفيات تليق بها ، وتخصيص هذين الوقتين للدلالة على مزيد شرف العبادة فيهما .

(٢) حبس الطير في الهواء للتسبيح معه : يقول الله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أى حبس الله الطير في الهواء لتسبح بتسبيحه ، وكان الطير إذا سمع تسبيحه يتوقف عن الطير ، ويسبح معه على وجه يناسبه ... وقد أخذ العلماء من توقف الطير حسن صوت داود عليه السلام وهو يترنم بالمزامير .

﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أى كل من الجبال والطير يرجع إلى الله ، ويطيع داود عليه السلام ويأتيه من مكان بعيد .

(٣) إعطاؤه الملك القوى : يقول الله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أى جعلنا ملكه قويا بكثرة الجند ، وسعة الثراء ، وانتشار الهيبة ، وتحقيق النصر .

(٤) حصوله على العلم : يقول الله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أى وأعطينا داود عليه السلام العلم الكامل ، والاتقان في العمل .

(٥) حسن الحكم في القضايا : يقول الله تعالى : ﴿ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ﴾

أى أعطاه الله حسن الفصل بين الناس في الخصومات ، وإيصال الحقوق لأصحابها .

إن هذه النعم التى جعلها الله لداود عليه السلام تذكير لمحمد عليه السلام ولأمته ليستقيموا على دين الله ، ويصبروا على الحق ، ويعلموا أن النصر والفوز لهم في النهاية كما فاز داود عليه السلام .

واعلم أن الله أعطى محمدا عليه السلام ما أعطي داود عليه السلام ، فكان عليه السلام أوابا . وهو عليه السلام القائل : "إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة"^(١) . وسخر الله له جبل حراء على صعوبة مسالكه ، فكان يتحنث فيه إلى أن نزل عليه الوحي ، وهو في هذا الغار .

وعرضت عليه جبال مكة أن تصير له ذهبا فأبى ، واختار العبودية . وسخر الله له الحمام ، فبنت وكرها على غار ثور ، مدة اختفائه به مع الصديق في مسيرهما في الهجرة .

وشد الله ملك الإسلام له ، وكفاه عدوه من قرابته مثل أبي لهب ، وابنه عتبة ، ومن أعدائه مثل أبي جهل .

وآتاه الله الحكمة ، وآتاه فصل الخطاب لقول عليه السلام : "أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا"^(٢) .

(١) السنن الكبرى للنسائي . كتاب عمل اليوم والليلة . باب ذكر الاختلاف على أبى بردة ج ٩ ص ١٦٨ .

(٢) شعب الإيمان . كتاب حب النبي عليه السلام ج ٢ ص ٥٠٨ .

المقطع الثانى

درس لداود عليه السلام في الحكم والقضاء

يقول الله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٨٤٦﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٨٤٧﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٨٤٨﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى زِغَالِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۖ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٨٤٩﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابِرٍ ﴿٨٥٠﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَظْلُمُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٨٥١﴾ ۝ ﴾

تفصيل المقطع الثانى

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ ؟ ... الاستفهام

ب "هل" هنا يراد به التعجب والتشويق إلى سماع ما يرد بعدها ، والمعنى هل علمت يا محمد خبر هذه القصة التى حدثت لداود عليه السلام ؟ ... ، فقد اختصم

رجلان ، فتسلقوا سور محراب داود ، ودخلوا عليه وقت عبادته ، ولم يكن جالسا للحكم والقضاء .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ أى حين رآهم داود فوق السور

زاحفين عليه خاف منهم ظنا منه إنهم يريدون العدوان عليه .

﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا

بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أى قالوا له : لا تخف نحن

اثنتان جار بعضنا على بعض ، وقد جنناك لتحكم بيننا حكما عادلا كالعهد بك ولا تشطط في الحكم بيننا ، وأخذ أحدهما يفصل في الخصومة فقال :

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ

أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أى أن أخى هذا يملك تسعا وتسعين شاة ،

وأملك شاة واحدة ، فقال لى : ملكنيها ، وغلبنى بحججه فأعطيتها له .

﴿ قَالَ ﴾ داود عليه السلام ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى تِعَاجِهِ ^ط

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أى بادر داود عليه السلام إلى الحكم بعدوانية الأخ

الغنى من غير سؤاله عن الأسباب التى دعتة إلى طلب نعجة أخيه ، وزاد في

الحكم حكما عاما وهو أن كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا في التعامل إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم قليل .

﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ بعد فترة من حكمه بين الخصمين ﴿ أَنَّمَا فَتْنُهُ ﴾ أى

علم داود وتيقن أن الرجلين ملكان نزلا اختبارا له لتبنييه إلى بعض الأمور الضرورية في القضاء ... ومنها :

(١) عدم التعجل في الحكم ، وضرورة النظر في الأمور من كافة جوانبه فلربما رغب الغنى إراحة أخيه بتكفل أمر نعجته ؟ ولربما كان له عذر غير هذا ، ومسألة الحكم تحتاج إلى النظر في كافة الجوانب والاحتمالات .

(٢) يحتاج الحكم إلى سماع كافة أطراف الخصومة ، واحضار الشهود والقرائن حتى يتجلى الحق كاملا .

(٣) لا يصح للقاضى أن يحكم وهو تحت ضغط نفسى ، أو وهو مشغول بأمر آخر ، وقد جاء الخصمان إلى داود عليه السلام ، وهو في المحراب ، وليس في دار القضاء ، وأفزعاه ، وعرض عليه أحدهما أمره صارخا فحكم بالحق ، وهو في حالة ما كان له أن يحكم فيها .

(٤) علم داود عليه السلام أن قوة ملكه وشدته بها خلل يحتاج إلى الضبط لأن الرجلين تسورا المحراب ولم يمنعهما جند أو حرس .

فإن قيل : لم كل هذه المحاذير والضوابط ، وداود عليه السلام نبي يوحى إليه ؟ أقول : نعم . داود رسول من رسل الله تعالى إلا أنه بتولييه الحكم والقضاء مع الرسالة صار قدوة للناس فلزم ذكر هذه الضوابط مراعاة لجانب البشرية والأسوة .

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ لما علم داود عليه السلام أن الرجلين

ملكان جاء لإرشاده إلى أمور يحتاجها طلب مغفرة ربه ، ورجع إلى الله ، وأخذ يعبد الله في خشوع وخضوع .

يذهب كثير من المفسرين فى تفسير هذه القصة مذاهب شتى لا يمكن تصور وقوع داود فيها^(١) ، ولذلك أثرت الصمت عنها ، لأن داود عليه السلام منزّه عن أى ظلم ، أو عدوان ... واكتفيت بدلالة الآيات التى جاءت بعد هذه القصة .

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكْ^ط وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَابٍ ﴾ أى فاستجبنا له ، وغفرنا له ، وقريناه منا ، وأحسننا مرجعه فى جنات النعيم .
 إن الآيات بعد ذلك تأمر داود عليه السلام بالحكم العادل المستوفى كافة آدابه وشروطه ، لأن الخلافة التى وضع الله فيها داود تقوم على الحكم والقضاء ، ولذلك كانت القصة .

المقطع الثالث

خلافة الله فى الأرض

﴿ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ﴾ وهذا نداء من الله لداود عليه السلام عقب ابتلائه بالملكين يخبره الله فيه أنه اختاره للرسالة ، واصطفاه للخلافة والسلطان ، وعليه أن يستعد لذلك .
 ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أى احكم بين الناس بالحق الذى أنزلته عليك ، واتبع أداب وشروط القضاء بين الخصوم .
 ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولا تتبع فى الحكم الهوى ، أو تقصد غاية دنيوية ، لأن ذلك يبعدك عن الحق .

(١) من ذلك أن داود عليه السلام فتن بزوجة قائد جيشه بعدما رآها عارية ، فأرسل زوجها إلى القتال ليموت ، فلما مات تزوجها ولما جاءه الرجلان علم خطأه فى هذا الزواج فاستغفر ربه ... ومنها أن داود عليه السلام ظنهما رجلين يريدان قتله فلما انكشف أمرهما ألّفا مقاتلتهما حتى نجوا ، وهذه أفعال لا يمكن صدورهما من نبي ، ولذلك لم نعتد عليها .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا
يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ أى إن الذين يضلون عن الحق ، ويبتعدون عن الصواب لهم
عذاب شديد يلقونه في الآخرة ، فتذكر ذلك ، ولا تنسى يوم القيامة .
إن الخلافة في الأرض ، والحكم بين الناس بالحق ، تحتاج إلى اتباع
حكم الله وعدم اتباع الهوى ، والرجوع إلى الحق .
ومن رعاية الله لعبده داود ، أن نبهه عند أول لفطة . ورده عند أول
اندفاع . وحذره من النهاية البعيدة . وهو لم يخط إليها خطوة ! وذلك فضل الله
على المختارين من عباده . فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة ، فيقبلها الله
، ويأخذ بيدهم ، ويعلمهم ، ويوفقهم إلى الإنابة ، ويغفر لهم ، ويغدق عليهم ،
بعد الابتلاء ...

المقطع الرابع

تعقيب على قصة "داود" ﷺ

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ تعرف الآيات أن
الله خلق كونه بالحق فأوجد الأرض منبسطة واسعة ، ورفع السماء وزينها ، ولم
يوجد شيئاً من خلقه عبثاً ، فكل شئ موزون ، وكل أمر له مستقر وغاية .
﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى إن الذين كفروا يظنون الصدفة والعبث
في خلق الكون ، لأنهم لم ينظروا ولم يتدبروا ، ولم يعقلوا .
﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ أى هلاك لهؤلاء الكافرين على ظنهم
السيئ ، لأنهم عطلوا عقولهم ، ولم يتفكروا فوقعوا في ظن السوء .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ "أم" للإضراب . والمعنى أنجعل الذين آمنوا بربهم ، واعتقدوا أنه الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، وأصلحوا أعمالهم ... كمن كفر بالله ، وعبد غيره ولم يعمل صالحا ... إن ذلك لن يكون ، ولن يتساوى المتقون والفجار .

لن يتساوى العدل والظلم ، وقد أنزل الله للناس كتابا يعرفهم بالحق ، ويرشدهم للصواب ، هو القرآن الكريم فقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى أنزل الله القرآن الكريم إليك يا محمد ليفهموا آياته ، ويعملوا بها .

وقد عقب الله تعالى على تكليف داود عليه السلام بالسلطان والنبوة بهذه الآيات لبيان أن الله أقام الدنيا على الحق ، وقدر كل ما فيها بقصد وغاية من أول الخلق إلى آخر الدنيا ، وقد تضمن القرآن الكريم توضيح ذلك .

قصة "سليمان" ﷺ في سورة "ص"

يقول الله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ١ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ
الْصَّفِينَتُ الْجِيَادُ ٢ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ
٣ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ٤ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى
كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ٥ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ
بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ٦ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ
٧ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ٨ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٩ هَذَا عَطَاؤُنَا
فَأَمْنٌ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَارٍ ١١ ۝

صلة قصة "سليمان" ﷺ بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أطرافاً من قصة داود ﷺ ، وجاءت بعدها
بقصة ولده سليمان ﷺ ، وسأذكرها في عدد من المقاطع :

المقطع الأول

التعريف بسليمان ﷺ

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ﴾ أى وهب الله لداود ﷺ ولدا سماه
"سليمان" ، وجعله وارثاً له في الملك والنبوة ، وقد جاءت قصة سليمان ﷺ
تكملة لقصة داود ﷺ ، ولم تصدر بأمر النبي ﷺ أن يذكرها كما جاء في
صدر قصتي داود وأيوب عليهما السلام حيث جاء في صدر قصة داود
ﷺ ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ وجاء في صدر قصة أيوب ﷺ ﴿ وَأَذْكُرْ

عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴿ لأن قصة سليمان في السورة جاءت تكميلاً لقصة داود ، وقصد بها ما قصد بقصة داود ، فصارا كأنهما قصة واحدة ساقها الله مترابطة كما هو الشأن في القرآن الكريم كله حيث جاء ذكر سليمان ﷺ مقترنا بذكر داود ﷺ والولد هبة إلهية للوالدين ، وكلما كان الولد نجيباً كانت الهبة عظيمة ، وقد أكرم الله داود ﷺ في ولده سليمان ﷺ ، فجعله نبياً وملكاً ، ومدحه بصفات القرب من الله تعالى فقال : ﴿ نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى أنه عبد من عباد الله المخلصين ذوى المقام الكبير عند الله تعالى فنعم العبد سليمان ، فقد اتصف بطاعة الله ، والالتزام بأمره ، ونهيه ، وحب الرجوع إليه ، فهو كثير الاستغفار والالتزام بأمر الله تعالى .

المقطع الثانى

موقف "سليمان" ﷺ من الخيل

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ كان سليمان ﷺ شغوفاً بالخيل ، محباً لاقتنائها ، وكان يهتم به ، ويتخذها عدة كبرى لقتال عدوه وأخذ يستعرضه لينظر إليه ، ويتعرف أحواله ، ليطمئن إلى سلامته ، ومدى صلاحيته للقيام بالمهام التى يقوم بها .

والآية تشير إلى استعراض سليمان ﷺ للخيل في وقت العشى ، وهو الوقت من العصر إلى المغرب ، واكتفت الآية بذكر الصفة عن الموصوف ، فوصفت الخيل بالصافنات الجياد ، وهى الخيل التى تقف على ثلاث قوائم ، وطرف القائمة الرابعة ، وهذه الصفة من علامة جودة الفرس ، وأصالته ، والجياد هى الخيل النفيسة ذات الجودة ... وتلك صفات خيل سليمان ﷺ .

﴿ فَقَالَ ﴾ سليمان ﷺ ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ أى

إنى أحببت الخيل حبا كبيراً ، مستفاداً من أمر ربى ، لا عن هوى فى نفسى ،

أو حبا لشهوة طارئه ، ولذلك ظل يرعاها ويكلف جنودها بالسير بها ، وهو ينظر إليها ، فبعدت عنه ، واختفت من كثرة الغبار الذي أثاره مشيها ، وحجبها عنه ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ أى اطمأن سليمان إلى خيله ، وعرف استعدادها للقتال وأخذ ينظر إليها حتى اختفت عن عينه فقال : ﴿ رُدُّوْهَا عَلَيَّ ﴾ أى أعيدوها إلى ، واحضروها عندي فلما أحضروها إليه ، أخذ ينطفها ، ويجهزها ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ أى أخذ يمسح سوقها ، وأعناقها حبا لها ، واهتماما بها .

والخلاصة أن سليمان عليه السلام أحب الخيل ، واستعملها في القتال ، وكان يستعرضها ، ويرعاها بنفسه طويلا حبا لها كما أمره الله تعالى .

والخيل من الحيوانات المهمة التى استخدمها المجاهدون في سبيل الله تعالى . يقول النبي صلى الله عليه وسلم : "الخيـل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" (١) .

ويقول عليه السلام : "الخيـل لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فأما الذي له أجر : فرجل ربطها في سبيل الله ، فأطال بها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ، ولو أنه انقطع طيلها ، فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها ، وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر ، فشربت منه ولم يرد أن يسقي كان ذلك حسنات له ، فهي لذلك أجر ، ورجل ربطها تغنيا وتعففا ثم لم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها ، فهي لذلك ستر ، ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام ، فهي على ذلك وزر" (٢) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجهاد . باب الخيل معقود في نواصيها الخير ج ٤ ص ٢٨ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المساقاة . باب شرب الناس والدواب من الأنهار ج ٣ ص ١١٣ .

المقطع الثالث

استجابة الله دعاء "سليمان" ﷺ

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أى ابتلينا سليمان بمرض عضال ، صار بسببه غير قادر على الحركة ، فجلس على كرسيه بلا حركة حتى شفاه الله ، وعاد لحالته السليمة فشكر الله تعالى ، ورجع لعبادته ، وعبوديته لله تعالى .

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ أى استغفر سليمان ربه وطلب منه قبول المغفرة ، وأن يهب له سلطانا في الأرض لا يكون لأحد من بعده إلى يوم القيامة .

واستغفار سليمان ﷺ ليس عن ذنب وكبيرة، كما ذكره بعض المفسرين لأمر :
أولاً : الاستغفار عبادة لا يلزم منها أن تكون بعد معصية بل تكون مقدمة لطلب خير ، يقول الله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ﴿ يُرْسِلِ أَلْسِمَاءَ عَلَيْكُمْ مَّدَرَارًا ﴾ ^(١) .

ثانياً : استغفار سليمان ﷺ لا صلة له بمعصية ، وإن لا لأتى به مجردا عن طلب شئ ما ... والآية واضحة في أن سليمان ﷺ طلب مع الاستغفار ملكا ينفرد به ، وهذا يؤكد أن استغفاره كان عبادة مجردة .

قال صاحب الكشاف : كان سليمان ﷺ ناشئا في بيت الملك والنبوة وارثا لهما ، فأراد أن يطلب من ربه عز وجل معجزة ، فطلب بحسب إلفه ملكا زائدا على الممالك ، زيادة خارقة للعادة ، بالغة حد الإعجاز ، ليكون ذلك دليلا على نبوته ، قاهرا للمبعوث إليهم ، ولن تكون معجزة حتى تخرق العادة ، فذلك

(١) سورة نوح ، الآية ١٠ ، ١١ .

معنى قوله : ﴿ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ ^(١) .

﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ أى إنك يا الله أنت وحدك القادر على فعل ما

يريد ، وأنت كثير العطاء والنعمة .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أى استجبنا له

وذلكنا له الريح تجرى ، وتتحرك بأمره ، لينة طيبة ، تحقق الخير للناس ، وتكون عاصفة لبعضهم كما يأمرها سليمان عليه السلام .

﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أى وذلكنا لأمره البنائين من

الشياطين ، والغواصين في البحار ، يسخرهم فيما يريد من الأعمال ، فإذا أراد بناء العماير ، والقصور ، أو الحصون ، والقناطر أنجزوها له في الزمن القصير ، وإذا أحب استخراج اللؤلؤ ، والمرجان من البحار لجعلهما حلية لمن في قصوره لبوا طلبه سراعاً .

﴿ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أى وآخرين من الشياطين مرده

مشاكسين لا يلبون دعوة الداعي ، ويخالفون ما يأمرهم به وهؤلاء يضعهم سليمان في السلاسل والأغلال ليتقى شرهم .

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى هذا عطاؤنا

لسليمان عليه السلام فقد استجبنا لدعوته ، وجعلنا ما سخرناه له تحت أمره ، يوجهه كما يريد .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٩٥ .

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴾ أى وان لسليمان عليه السلام عند الله في الآخرة قربا منا ، وجزاء حسنا طيبا .

قصة "أيوب" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿١١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿١٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٣﴾ وَخَذَ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ۖ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٤﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة قصة "أيوب" عليه السلام بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصتي داود وسليمان عليهما السلام ، وفيهما السلطان والحكم والنبوة ... جاءت قصة أيوب عليه السلام وفيها البلاء والشدة والصبر ... وسأورد قصة أيوب عليه السلام موجزة كما هي السورة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قصة أيوب عليه السلام وصبره ، وما جازاه الله به .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ أى اذكر يا محمد عبدنا أيوب الذى أرسلناه للناس حين اتجه إلى

الله تعالى ، وقد أصيب بمرض خطير استمر معه مدة طويلة ، وأدى إلى تفرق الأهل والأحباب عنه فسأل ربه أن يشفيه من هذا المرض الذى نزل به فهو يؤلمه ، ويتعبه ... وقد استجاب الله له بعد مدة طويلة .

وقال الله له حين قدر شفاؤه : ﴿ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ ﴾ أى اضرب الأرض برجلك فضربها ، فخرج منها الماء ، فقال الله له : ﴿ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أى هذا الماء النابع من الأرض اشرب منه ، واغتسل منه يحقق الله لك الشفاء به .

وقد استدل بعض المفسرين من جعل الله الماء وسيلة للشفاء أن المرض الذى ابتلى الله أيوب كان مرضا ببشرته لا ينفر الناس منه .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾
أى جمعنا لأيوب أهله بعد التفرق ، وأكثرنا نسله وذريته حتى صاروا ضعف ما كانوا عليه وقلنا له : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ﴾
قيل أنه حلف ليضرب زوجته ، أو أحد أولاده ، أو غلماناه بسبب بعد عنه إن شفاه الله مائة ضربة ، فلما من الله عليه بالشفاء أراد أن يبر بقسمه فأعطاه الله حزمة صغيرة من الريحان مكونة من مائة فرع يضرب بها ضربه واحدة ... أو أعطاه فرعا واحدا ، وأمره أن يضرب به ضربا رفيقا ليينا حتى لا يحنث في يمينه
﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعَمْ أَلْعَبُدُ ۖ إِنَّهُمْ أَوَّابٌ ﴾ أى إن أيوب عليه السلام

أكد صبره ، وتحمل مرضه ، راضيا بقضاء الله فيه ، فنعم العبد أيوب لصبره ووضح تمسكه بأوامر ربه ، وعدم تأثره بوساوس الشيطان الرجيم .

قصص إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب وإسماعيل ، واليسع ، وذى الكفل "عليهم السلام"

يقول الله تعالى :

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤١﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٢﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٣﴾ .

- ١ -

صلة ذكر قصص الأنبياء بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصص داود وسليمان وأيوب عليهم السلام جاءت هذه الآيات تذكر عددا من الرسل للتذكير بهم .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾

أى اذكر يا محمد عبادنا الكرام الذين أكرمناهم بالرسالة وأعطيناهم القوة والشدة ، ورزقناهم البصيرة في الدين ، والفقہ في معرفته ، والعمل به وله .

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أى إنا أخلصناهم لطاعتنا

وخلصناهم من سوء النفس ، ونزعات الشياطين ، وجعلنا طاعتهم لله تعالى ، وذكرناهم بالدار الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم .

(٨٦٠)

﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ أى إن الله اصطفاهم

واختارهم ، وميزهم على كثير من عباده .

﴿ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾ واذكر

إسماعيل واليسع وذا الكفل ، فهم رسل الله تعالى ، وهم من الأخيار الذين اصطفاهم الله تعالى .

وقد خصت الآيات إسماعيل بالذكر في آيات بعد ذكر إبراهيم ، واسحاق ويعقوب لأن إسماعيل هو أب العرب ، واسحاق هو أب الإسرائيليين ، وكل من الأخيار .

تعقيب على قصص الرسل السابقين

يقول الله تعالى :

﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٦﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُمِيتَةً هُمْ
 الْأَبْوَابُ ﴿٤٧﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَلَكَهٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٤٨﴾ وَعِنْدَهُمْ
 قَصِيرَاتُ الْإِبْرَةِ أُنْزِلَتْ ﴿٤٩﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ هَذَا
 لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥١﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّيِّعِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٢﴾ جَهَنَّمَ
 يَصْلَوْنَهَا فَيُسَخَّرُونَ لَهَا هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٣﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ
 أَزْوَاجٌ ﴿٥٤﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٥﴾
 قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَيُسَخَّرُونَ لَنَا قَالُوا رَبَّنَا
 مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا
 كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٥٧﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
 ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٥٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٠﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦١﴾ قُلْ
 هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٢﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٣﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى
 إِذْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٦٤﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٥﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بقصص الرسل

لما بينت الآيات السابقة أن الله أكرم رسله ومن عليهم بمعجزاته وأفضاله
 جاءت هذه الآيات ليعرف الناس بما يستحقه أقوام الرسل الذي اتبعوا الرسول ،
 واستقاموا على الدين ، وما يستحقه الذين كفروا ، وضلوا عن دين الله تعالى .

وهو تعقيب له دلالاته ليعرف الناس إن قصص القرآن الكريم هادف ، وله غاية مقصودة ، وأنه يؤكد للناس حقيقة البعث والحساب والجزاء .

- ٢ -

دلالة الآيات في هذا التعقيب

تبين الآيات في هذا التعقيب صورة حالات الناس في الآخرة ... وهي :

الصورة الأولى

حالة المؤمنين بدين الله تعالى

﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَقَابٍ ﴾ "هذا" اسم إشارة لقصص

الرسل الذى جاء ذكرهم في سورة "ص" ليكون ذكرى للناس ...

و ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ جملة تامة تلخص ما سبق من ذكر ، لينتقل بعدها

الكلام إلى ذكر موضوع آخر متصل بالموضوع السابق ... وهو هنا حديث عن المتقين الذين أطاعوا الرسل ، وعبدوا الله وحده ، وأخلصوا في الطاعة والاستسلام ، وقد أعد الله لهم الجزاء الحسن وهو :

(١) ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ أى أن الله يدخلهم أعلى

درجات الجنة وهى جنات عدن ، ويجعل أبوابها مفتحة بعدما مكن لهم من الاستقرار فيها ، ونظمها ، وفتح أبوابها ليروا محاسن ما حولها ، في ستر ، وصون ، وحسن ، ورضى .

(٢) ﴿ مُتَكِينِينَ فِيهَا ﴾ أى يجلس المتقون في الجنة على مقاعد وثيرة ،

مضطجعين على جنوبهم .

(٣) ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَيْكِهِمْ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ أى ينالون فيها فاكهة كثيرة

وشرابا لذيذا ، وحياتهم في الجنة تفكه ، وتلذذ .

(٤) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ أَثَرَابٌ﴾ أى يرزقهم الله بزوجات من

الشابات الأبرار ، وهن الحور العين اللاتي يقصرن النظر إليهم وحدهم .

﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى هذه النعم وعد الله بها

المؤمنين الصادقين الذين اتبعوا الرسل ، وكانوا من الصادقين ، لأن الله سيحاسبهم حسابا يسيرا ، ويسكنهم الجنة بخيرها ، ونعيمها ، ولذاتها .

﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ أى إن هذا عطاء الله لا ينفد ،

ولا ينقطع .

الصورة الثانية

حالة الكافرين برسل الله

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِيْنَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ "هذا" اسم إشارة لما سبق من

حديث جئ به للانتقال إلى موضوع جديد هو بيان حال الكافرين الضالين الذين طغوا وبغوا ، وكفروا بالرسل ، وكانوا من حزب الشيطان ... هؤلاء الكافرون لهم مأوى سيئ في الآخرة حيث مقامهم في نار السعير .

﴿ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْهَادُ ﴾ أى أعد الله لهم جهنم يدخلونهم ،

ويعذبون فيها ، وتكون فراشا لهم ، وبئس هذا الفراش .

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أى فليتجرعوا هذا العذاب ، فهو ماء

حار يشوى الوجوه ، ويحرق البطن ، أو غساق شديد البرودة يجمد البدن ويؤذى الأعضاء .

﴿ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ أى ولهم أطعمة وأشربة أخرى تشبه

الحميم والغساق كالزقوم .

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ يدخل أهل النار إلى مأواهم في جهنم فوجا بعد فوج ، ويبدأ العذاب بدخول القادة ، وعند دخول الاتباع يقول الخزنة للقادة : هذا جمع كثيف داخل معكم ، فيقول السادة : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ فلن يزيدونا إلا حريقا ولهيبا وسعيرا ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أى إنهم سيعذبون بالنار مثلنا ... فيرد الاتباع عليهم وقالوا : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ أى لا سعة لكم في قلوبنا ، فأنتم خصومنا ، ولا نريد أن نراكم .

﴿ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّمُّوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْفَرَارُ ﴾ أى أنتم سبب مجيئنا إلى النار فقد أتيتم بالكفر ، وقدمتموه لنا ، وأغريتمونا به ، فصدقناكم ، وكفرنا مثلكم ... واليوم نستقر في النار مثلكم فبئس هذا القرار .

﴿ قَالُوا ﴾ أى قال الاتباع المقتحمون للنار ﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ أى يدعون ربهم ، ويطلبون منه أن يضاعف عذاب الكبار الذين كانوا سبب الكفر والضلال .

وبعد أن أظهرت الآيات تخاصم الكفار عند النار مع أنهم كانوا أخلاء في الدنيا ... جاء بحديثهم عن المؤمنين الذين كانوا يخاصمونهم . فيقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴾ أى يسأل الكافرون بعضهم بعضا وهم في النار عن عدم رؤيتهم رجالا كانوا يخاصمونهم في الدنيا ، وبعدهم من الأشرار ، ويسألون عن مصيرهم ، ومكانهم في الآخرة ، وهؤلاء الرجال هم المؤمنون الذين كانوا يدعون الكافرين إلى دين الله تعالى ، وكان الكافرون يسخرون منهم .

يقول الكافرون : ﴿ أَتُخَذُّنَّهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾
 أى هل نجى الله هؤلاء الرجال من النار بسبب سخريتنا منهم ؟ ... أم أنهم
 دخلوا النار ولم تقع أبصارنا عليهم ؟
 ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أى هذا التنازع ، وهذا الجدل هو
 جدل حقيقى يعيشه الكافرون في جهنم .

الصورة الثالثة

دور الرسول ﷺ مع الناس

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾ أى قل يا محمد للمشركين ولسائر الناس إنك
 رسول الله إليهم تدعوهم للحق ، وتحذركم من الشرك والكفر ، وتخوفهم من يوم
 القيامة حيث الحساب والجزاء على أعمال الدنيا .
 ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وعرفهم أن الله إله واحد ، لا
 يعزب عنه مثقال ذرة ، وستنال كل نفس ما قدمت ، ولا يظلم ربك أحدا .
 ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ أى هو الله
 المالك المتولى شئون خلقه في السماء ، وفى الأرض وهو الغالب ، وهو الرحمن
 الرحيم .

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ أى إن رسالتى
 إليكم خبر كبير ، له أهميته في حياة الناس ومستقبلهم ، وأنتم تعرضون عنه ،
 ولا تتبعونى مع أنى ناصح لكم ، أمين في دعوتى لكم ما أرسلت إليكم .

﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ أى ولولا الوحي والنبوة ما علمت شيئا من دين الله تعالى ، وما علمت شيئا عن ما حدث مع الملائكة عند خلق آدم عليه السلام ، وما علمت شيئا مما سيحدث في الآخرة .

﴿ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى إن الله أرسلنى إليكم لأبلغكم ما يوحى إلي به ، وليس علي إلا إنذاركم ، وتوضيح المصير الذى ينتظركم .

- ٣ -

ركائز الدعوة
في قصص الرسل السابقين
 يتضمن القصص المذكور عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

شمول دين الله لشئون الدنيا والآخرة

توضح الآيات أن دين الله تعالى على السنة الرسل جميعا يشمل أحكام الدين وسياسة الدنيا ، ولم ينزل دين الله تعالى أبدا ليبقى حبيسا فى بعض المناسك ، والعبادات ، ولا مستورا فى بطون الكتب والأسفار .

لقد تولى سليمان وداود عليهما السلام خلافة الأرض ، والدعوة لدين الله تعالى ، وجاء الإسلام شاملا لصيانة الدين ، وسياسة الناس ، وأصبح من المقرر أن دين الله تعالى صالح لكل زمان ومكان ، شامل لكل حاجات الإنسان ، وقضاياها .

الركيزة الثانية

المؤمنون فى رعاية الله

حزب الله هم المؤمنون ، الذين آمنوا بالله ، وصدقوا برسوله ، واتبعوا هديه وشريعته ، وأخلصوا فى الانقياد والطاعة ... ولذلك تحيطهم عناية الله وبوفهم

الله لكل خير ... إنهم يعيشون عبيدا لله ، يرجون رحمته ، ويخشون عذابه ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى ، والآيات توضح استجابة الله لرسله ، وكيف مكنهم الله من الأرض ، وأيدهم بالمعجزات ... وبذلك بقى فى الناس أن دين الله شامل ، وأن النصر لعباده المؤمنين .

قصة خلق "آدم" ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٧٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ يَتَّبِعِلَيْسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِيٓ أَتَسْتَكْبِرُتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٨١﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٨٢﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨٣﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٥﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٦﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٩﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٠﴾ ۞ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما ذكرت الآيات السابقة طرقا من قصص رسل الله السابقين جاءت هذه الآيات تذكر بأصل الخلق ، وتبين الصراع بين الإنسان وإبليس من خلال قصة آدم ﷺ .

(٨٦٨)

- ٢ -

موضوع الآيات

الآيات تبين قصة آدم ﷺ ، وعدم سجود إبليس له ، وتبين أعمال إبليس وذريته في الدنيا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴾ أى اذكر يا محمد لأمتك كيفية خلق آدم ﷺ فقد أمر الله الملائكة أن تصوره من الطين على صورته التى قدرها له .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أى قال الله للملائكة إذا تمت تسوية الصورة ، ونفخت فيه من روحي ، فاسجدوا له تعظيما وتكريما .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ أى سجد الملائكة جميعا بلا تخلف أحد منهم .

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى إن إبليس رفض السجود لآدم مستكبرا لأنه كان كافرا .

فسأله الله تعالى و ﴿ قَالَ يَتْلِيائِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِيٍّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ أى قال الله لإبليس وسأله عن عدم سجوده لما خلقه الله ، وقد أمره بالسجود له ...

وهل سبب عدم سجوده لآدم غروره وكبرياؤه ؟

أم شعوره بالعلو والشرف الذى يمنعه من السجود لمن يراه أقل منه ؟! ويعصى الله تعالى ؟

أجاب إبليس ربه ، و ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ

مِن طِينٍ ﴾ أى قال إبليس أنا أفضل من آدم لأنه خلق من طين ، و خلقت من النار ، والنار أفضل من الطين ... وهذا وهم وغرور لأنه مادام قد اعترف بأنه مخلوق ، فلم لا يطيع الخالق ؟ ... مع أن الطين أفضل من النار .

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لإبليس ﴿ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابًا مُّهِينًا ﴿ وَإِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ولم يرد الله عليه لحقارته ، وعرفه بأنه مرجوم ، مطرود ، ملعون إلى يوم القيامة .

﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى أبقنى مع الناس إلى يوم القيامة لإغوائهم ، و اظهار السئ منهم .

﴿ قَالَ ﴾ الله لإبليس ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ فأنظره الله إلى يوم الدين ، واستجاب له هذا الطلب .

﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى أقسم إبليس لله على استمراره في الغواية ، وأدرك أنه سينشر غوايته بين الناس إلا بين المخلصين من المؤمنين .

فأنظره الله تعالى ، وعرف الناس بالجزاء في الآخرة ليحذروا عدوهم اللئيم الذى ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى الحق أقوله لك ولمن يتبعك لتعلموا أن جهنم ستمتلئ بكم ، وأنتم تعذبون فيها .

(٨٧٠)

- ٤ -

ركائز الدعوة في قصة "آدم" ﷺ

تتضمن قصة "آدم" ركيزة هامة ... هي :

ضرورة الحذر من أعداء الله

لا يستقيم الناس جميعا على الحق ، ودائما تجد في البشر ضالون ومنحرفون يكرهون الحق ، ويعملون للشيطان ... وهذه قضية ملازمة للبشر منذ وجود آدم ﷺ ، فلقد أعلن إبليس غايته من وجوده في الدنيا ، وبين أنه يجتهد في إضلال الناس ، واغوائهم ... وانه في عمله يتستر في رغبات النفس الأمارة بالسوء ، ويتدخل في الميول ، والغرائز الفطرية التي ترغب في الفحشاء والمنكر ... وكلما وجد مدخلا للفساد أسرع إليه ...

إن إبليس يرى أنه من عنصر أرقى من عناصر الإنسان ، وأعلى منه ، وحكم يعقله أنه هو الذي يستحق للسجود والتقدير ، وأخذ يطبق الحكم على نفسه ، فلكفر بالله ، وضل عن سواء السبيل .

وقد تتوع الفساد ، وكثر المفسدون ، وأدى ذلك إلى كثرة أعداء الخير بين الناس ، ولم يبق الإفساد قاصرا على إبليس وذريته ، وانما كثر جنده من الجنة والناس ، وتمكن أنصاره من إشاعة الفساد ، وتثبيته في صور شتى ، وألوان عديدة تحاصر الإنسان في نومه ، ويقظته ، وفي عمله ، وراحته .

ومن هنا ...

وجب الحذر من كل دواعي الفساد التي يراها الإنسان أمام عينه ، وفي سمعه ، وحينما يتحرك ، ويعمل .

إن الصواب له طريق واحد مستقيم ، وهو اتباع دين الله تعالى كما هو في القرآن الكريم ، وسنة رسول الله ﷺ ، وما عدا هذا الطريق فهو فساد وضلال لا يصح للمسلم أن يتخذه منهجا وطريقا .

(٨٧١)

ومن رحمة الله بالناس أن عرفهم بطريق النجاة ، ودعاهم إليه ، وحذرهم من طرق الفساد والمفسدين .

مهمة الرسول ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ٨٧١ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٨٧٢ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ٨٧٣ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت سورة "ص" قضايا الإيمان الرئيسية ، واستعرضت أقوال الكافرين ، وردت عليهم ، وبينت القصص المثبت لأساسيات الإيمان ، ونشأة الإنسان ، وظهور إبليس ، ودوره في الإضلال جاء ختام السورة بيانا لمهمة الرسول ﷺ مع الناس ، فهو ﷺ منذر ، ومبلغ ، ولن يأخذ أجرا ، وسيعلم الناس صدقه اليوم أو غدا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن رسول الله منذر للناس بلا أجر يأخذه منهم ، وسيعلم الناس صدقه في الدنيا أو في الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أى قل لهم يا محمد أنك رسول الله ، تدعوهم إلى دينه بلا أجر تأخذه منهم ، وعرفهم أنك لن تتحمل ولن تحملهم مشقة خارجة عن الطوق ، أو تدعى غير الحقيقة .

(٨٧٢)

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أى إن القرآن الكريم عظة ونصيحة للثقلين كافة ، وأنا صورة عملية له .
وهكذا تختتم سورة "ص" آياتها بمثل ما بدأت به ، وهو التنويه بشأن القرآن الكريم .

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ وأقسم رسول الله للناس بأنهم سيعلمون صدق ما أخبر به القرآن الكريم بعد زمن ما ... وأشد الأخبار يقينا هو الموت .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن رسول الله لا يتكلف في دعوة الناس ، وأنه لا يأخذ منهم أجرا ، وأن القرآن تذكير ، ونصح ، وإرشاد ، وسيتحقق ما أخبر القرآن الكريم به بعد مدة يعلمها الله تعالى في الدنيا أو في الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة التجرد في الدعوة

بين الرسول ﷺ بسيرته عوامل نجاح الدعوة ، وأساس هذه العوامل الإخلاص ، والصدق ، والتجرد التام في الدعوة إلى الله تعالى ، وعدم السعى لجاه وسلطان ، وعدم أخذ أجر على الدعوة من الناس .

(٨٧٣)

إن التلقائية هي أساس العمل للدعوة ، لأن الدعوة يحملون الإسلام ويتحركون به ، وليس لهم غاية إلا إيصال الإسلام للناس بينا واضحا .
إن الدعوة إذا لم يتجردوا للدعوة ، ويخلصوا في علمهم يفقدون التأثير في الناس ، ولا يدوم لهم ذكر ومقام .

الركيزة الثانية

القرآن الكريم كلام الله الخالد في الناس

أنزل الله القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ، وحفظه للعالمين ... وقد
بقى القرآن الكريم بين الناس ذكرى وعظة ، ودستورا ونظاما ، ومنهجاً للحركة والغاية .

والمحافظة على القرآن الكريم محافظة على الإسلام نفسه ، ولذلك حبيب الله المسلمين في القرآن الكريم ، فاهتموا بحفظه ، وفهمه ، والعمل به ... وأمن الناس بأنه منهجهم إلى الله ، وبأنه مصدر السعادة في الدنيا والآخرة .
يقول النبي ﷺ : "يقال لقارئ القرآن الكريم : اقرأ ، وارتق ، ورتل فإن مقامك عند آخر آية كنت تقرأها"^(١) .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "ص"
وبه ينتهى تفسير المجلد الحادى عشر

(١) سنن أبى داود . كتاب الصلاة . باب استحباب الترتيل في القراءة ج ٢ ص ٧٣ .

الخاتمة

(۸۷۵)

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آل وصحبه أجمعين وبعد .

فقد أعاننى الله تعالى على إتمام المجلد الحادى عشر من مؤلفى .

"ركائز القدوة في تفسير الدعوة"

بالمنهج الذى وضعته في المجلد الأول مع الاستشهاد بالأحاديث الصحيحة في موطنها لتكون زادا للدعاة يستفيدون بها في نصائحهم ، ومواعظهم وكلماتهم .

وأسأله سبحانه وتعالى أن يعيننى فيما بقى من هذا التفسير وأن يبسر الصعب ، ويوضح الغائب ويوقظ العقول ، ويبين الطريق لينفتح باب رحمة الله ، وفيوضانه على ، وعلى عباده من الناس .

وأتوجه إلى إخوانى من العلماء والدعاة برجاء أن لا يحرمونى من نصائحهم ، وآرائهم لإثراء هذا اللون من التفسير القرآنى الذى أقصد به أن يكون رصيد للعلماء يمكنهم من فهم معانى القرآن الكريم ، ومعرفة كيفية استنباط ركائز الدعوة خلال حركتهم ونشاطهم مع الناس .

وادعوه سبحانه أن يسدد الخطى ، ويلهم الصواب ، ويهذى إلى سواء السبيل ، ويكرمنى بصحة تعيننى ، وصحبة تشد أزرى ... وتقوى عزيمتى ، وتخلص لله فى نصحى .

وأسأله سبحانه أن يكرم أبنائى ، ويرزقهم العفاف والتقى ، والمال والغنى ، والذرية الصالحة الكريمة .

وهو حسبى ... ونعم الوكيل ...

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

فهرس موضوع الآیات

(^v^)

فهرس موضوع الآيات

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٩	المقدمة	.
سورة "الروم"		
١٥	التعريف بسورة "الروم"	.
٢١	انتصار الروم على الفرس	[٧ . ١]
٣٠	ضرورة النظر والتأمل فى خلق الله	[١٠ . ٨]
٤٠	الرجوع إلى الله تعالى	[١١]
٤٤	أحوال الناس يوم القيامة	[١٦ . ١٢]
٤٨	وجوب دوام شكر الله تعالى	[١٩ . ١٧]
٥٤	مع آيات الله فى الكون	.
٥٤	الآية الأولى : خلق الإنسان من التراب	[٢٠]
٥٦	الآية الثانية : تحقيق التلاؤم والتماسك فى الأسرة	[٢١]
٥٩	الآية الثالثة : خلق السموات والأرض	[٢٢]
٦١	الآية الرابعة : نوم الإنسان وبقظته	[٢٣]
٦٥	الآية الخامسة : ظهور البرق ونزول المطر	[٢٤]
٦٦	الآية السادسة : استقرار النظام فى السماء والأرض	[٢٥]
٦٩	مؤيدات تؤكد آيات الله المذكورة	[٢٨ . ٢٦]
٧٤	سبب ضلال المشركين	[٢٩]
٨٢	دعوة المؤمنين إلى الاستقامة	[٣٢ . ٣٠]
٩٣	أحوال المشركين مع الله تعالى	[٣٧ . ٣٣]
١٠٠	إيصال الحقوق لأصحابها	[٣٩ . ٣٨]
١٠٥	تنزيه الله تعالى	[٤٠]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
١٠٩	انتشار الفساد فى الأرض	[٤٢ . ٤١]
١١٥	أمر النبى ﷺ والمؤمنين بالثبات على الحق	[٤٥ . ٤٣]
١١٩	آيات الله الداعية إلى لإيمان	[٥٠ . ٤٦]
١٢٨	جمود أهل الضلال على كفرهم	[٥٣ . ٥١]
١٣١	الإنسان بين الضعف والقوة	[٥٤]
١٣٤	أحوال الناس يوم القيامة	[٥٧ . ٥٥]
١٣٨	دعوة النبى ﷺ والمؤمنين للصبر	[٦٠ . ٥٨]
سورة "لقمان"		
١٤٥	التعريف بسورة "لقمان"	.
١٤٨	هداية القرآن للمؤمنين	[٥ . ١]
١٥٢	الضالون يشغلهم الله عن هداية القرآن الكريم ...	[٧ . ٦]
١٥٩	استقرار المؤمنين فى جنات النعيم	[٩ . ٨]
١٦٢	إثبات ضلال المشركين	[١١ . ١٠]
١٦٧	قصة لقمان وابنه "عليهما السلام"	[١٩ . ١٢]
١٦٨	. التعريف بلقمان عليه السلام	.
١٧٠	. مواظ لقمان لابنه	.
١٨٥	الكافرون بين آيات الله ، ودعوة الشياطين	[٢٤ . ٢٠]
١٩٤	حيرة الجاحدين بين الإيمان والكفر	[٢٦ . ٢٥]
١٩٧	كلام الله لا يعد ولا يحصى	[٢٧]
٢٠١	براهين قدرة الله ظاهرة	[٣٢ . ٢٨]
٢٠٧	دعوة الناس إلى التقوى	[٣٣]
٢١١	القضايا التى استأثر الله بعلمها	[٣٤]

سورة "السجدة"		
الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٢١٧	التعريف بسورة "السجدة"	.
٢٢٠	القرآن الكريم كلام الله تعالى	[٣ . ١]
٢٢٦	دلالات توحيد الله وعبادته وحده	[٩ . ٤]
٢٣١	البعث حق لا ريب فيه	[١٤ . ١٠]
٢٣٩	صفات المؤمنين	[١٧ . ١٥]
٢٤٦	اختلاف الجزاء الأخرى بين المؤمنين والمشركين	[٢٢ . ١٨]
٢٥١	إشارة إلى قصة موسى عليه السلام	[٢٥ . ٢٣]
٢٥٤	براهين التوحيد والبعث	[٣٠ . ٢٦]
سورة "الأحزاب"		
٢٦٣	التعريف بسورة "الأحزاب"	.
٢٦٦	توجيه النبي ﷺ والمؤمنين إلى الأعمال الفاضلة	[٣ . ١]
٢٧١	الحق ما شرعه الله دون سواه	[٥ . ٤]
٢٧٩	منزلة النبي ﷺ في أمته	[٨ . ٦]
٢٨٥	آيات غزوة "الأحزاب"	.
٢٨٩	المقطع الأول : مجمل الغزوة	[٩]
٢٩١	المقطع الثاني : تجمع الأحزاب وخوف المؤمنين	[١١ . ١٠]
٢٩٣	المقطع الثالث : أقوال المنافقين وأعمالهم أثناء الحصار	[١٥ . ١٢]
٢٩٧	المقطع الرابع : مواجهة المنافقين بسوءهم	[١٧ . ١٦]
٢٩٩	المقطع الخامس : توضيح صفات المنافقين	[٢٠ . ١٨]
٣٠٣	المقطع السادس : أحوال المؤمنين مع رسول الله ﷺ	[٢٣ . ٢١]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٣٠٧	المقطع السابع : بيان جزاء المؤمنين والمنافقين	[٢٤]
٣٠٨	المقطع الثامن : أحوال المشركين والكافرين فى نهاية غزوة "الأحزاب"	[٢٥]
٣١١	المقطع التاسع : موقف بنى قريظة	[٢٦ . ٢٧]
٣٢٧	توجيه وإرشاد لأمهات المؤمنين	[٢٨ . ٣٤]
٣٣٠	التوجيه الأول : حرية الاختيار فى القضايا العامة	[٢٨ . ٢٩]
٣٣٣	التوجيه الثانى : مضاعفة الجزاء لأمهات المؤمنين	[٣٠ . ٣١]
٣٣٤	التوجيه الثالث : عدم الخضوع بالقول	[٣٢]
٣٣٥	التوجيه الرابع والخامس : المكث فى البيت وعدم التبرج	[٣٣]
٣٣٨	التوجيه السادس والسابع : مداومة العبادة وطاعة الله وسوله	[٣٣]
٣٣٩	التوجيه الثامن : مداومة قراءة القرآن	[٣٤]
٣٥٣	صفات عباد الله المكرمين من الرجال والنساء	[٣٥]
٣٥٩	قصة زينب بنت جحش رضى الله عنها	[٣٦ . ٤٠]
٣٧٢	دعوة المؤمنين إلى ذكر الله تعالى	[٤١ . ٤٤]
٣٧٦	دعوة النبى ﷺ للخلق الكريم	[٤٥ . ٤٨]
٣٨١	عدة المطلقة قبل الدخول	[٤٩]
٣٨٥	بيان ما أحل الله لرسوله بالزواج بهن	[٥٠ . ٥٢]
٤٠٤	أحكام وآداب فى آيات الحجاب	[٥٣ . ٥٦]
٤١٥	العذاب الأليم للمعتدين	[٥٧ . ٥٨]
٤١٩	ضرورة التستر من المعتدين	[٥٩ . ٦٢]
٤٢٥	هوان الكافرين يوم القيامة	[٦٣ . ٦٨]
٤٣١	دعوة المؤمنين إلى التقوى	[٦٩ . ٧١]
٤٣٥	ثقل حمل الأمانة	[٧٢ . ٧٣]

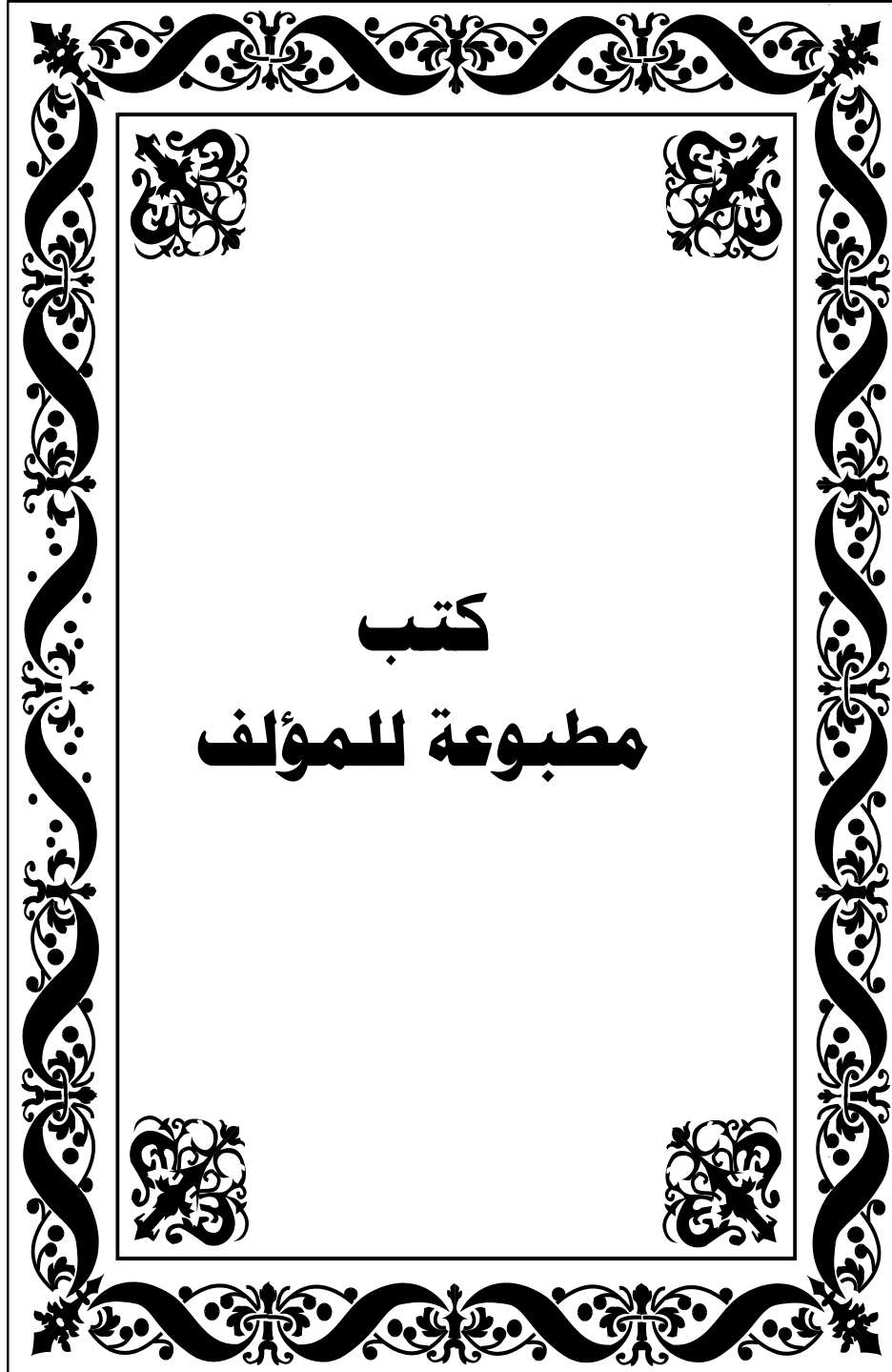
سورة "سبأ"

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٤٤٣	التعريف بسورة "سبأ"	.
٤٤٧	الحمد التام لله تعالى	[٢ . ١]
٤٥٧	الرد على منكري البعث	[٩ . ٣]
٤٧٠	قصة داود وسليمان "عليهما السلام"	[١٤ . ١٠]
٤٧٨	قصة مساكن سبأ ، وسد مأرب	[٢١ . ١٥]
٤٨٩	إبطال الشرك والشركاء	[٢٧ . ٢٢]
٤٩٥	إقامة الحجة على الكافرين وإثبات اليوم الآخر	[٣٣ . ٢٨]
٥٠٥	كفار مكة على خطى الكافرين السابقين	[٣٩ . ٣٤]
٥١٥	تقريع عبدة الملائكة يوم القيامة	[٤٢ . ٤٠]
٥١٩	رد إنكار المشركين لرسالة محمد ﷺ	[٤٥ . ٤٣]
٥٢٤	الأمر باستمرار الدعوة	[٥٠ . ٤٦]
٥٣٣	تهديد المشركين بعذاب يوم القيامة	[٥٤ . ٥١]
سورة "فاطر"		
٥٤١	التعريف بسورة "فاطر"	.
٥٤٥	وجوب حمد الله تعالى	[٢ . ١]
٥٥٥	نداء للإيمان وتسليية لرسول الله ﷺ	[٨ . ٣]
٥٦٨	بيان وحدانية الله وقدرته في المبدأ والمعاد	[١٤ . ٩]
٥٨٠	دعوة الناس إلى الإيمان وتخويفهم من الكفر	[٢٦ . ١٥]
٥٩٤	آيات الله محيطه بالناس	[٣٠ . ٢٧]
٦٠١	عظمة ورثة القرآن الكريم	[٣٥ . ٣١]
٦١٠	جزاء الكافرين	[٣٨ . ٣٦]
٦١٦	خيبة الكافرين وسوء فهمهم	[٤١ . ٣٩]
٦٢٢	كذب الكافرين وضلالهم	[٤٥ . ٤٢]

سورة "يس"		
الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٦٣١	التعريف بسورة "يس"	.
٦٣٨	عظمة القرآن الكريم	[٢ . ١]
٦٤٤	تكریم محمد ﷺ	[٥ . ٣]
٦٤٨	دعوة المشركين من أهل مكة	[١٢ . ٦]
٦٥٩	قصة أصحاب القرية	.
٦٥٩	المقطع الأول : التعريف بالقرية	[١٣]
٦٦٤	المقطع الثانى : مجئ الرسل ودعوتهم للناس	[١٤]
٦٦٥	المقطع الثالث : الحوار بين الرسل وأهل القرية	[١٩ . ١٤]
٦٦٧	المقطع الرابع : مجئ رجل من أقصى المدينة ...	[٢٢ . ٢٠]
٦٧٠	المقطع الخامس : إنكار الرجل للشرك ودعوته للإيمان	[٢٥ . ٢٣]
٦٧١	المقطع السادس : المؤمن فى جنات النعيم	[٢٨ . ٢٦]
٦٧٢	المقطع السابع : مصير القوم الكافرين	[٣٢ . ٢٩]
٦٨٠	آيات الله فى الآفاق المحيطة بالإنسان	.
٦٨٢	الآية الأولى : آية الأرض والنبات	[٣٥ . ٣٣]
٦٨٣	الآية الثانية : قيام المخلوقات على الثنائية	[٣٦]
٦٨٥	الآية الثالثة : آية الليل والنهار	[٣٧]
٦٨٥	الآية الرابعة : آية الشمس والقمر	[٤٠ . ٣٨]
٦٨٧	الآية الخامسة : آيات الفلك والبحر والركوب	[٤٤ . ٤١]
٦٩٦	الدلائل القرآنية فى الآيات القرآنية المنزلة	[٤٧ . ٤٥]
٧٠٠	الرد على منكرى اليوم الآخر	[٥٤ . ٤٨]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٧٠٥	جزاء المؤمنين والكافرين فى الآخرة	[٦٨ . ٥٥]
٧١٣	الرسول ليس شاعرا	[٧٠ . ٦٩]
٧١٨	إنكار المشركين لخلق الله تعالى	[٧٦ . ٧١]
٧٢٤	الرد على منكرى البعث	[٨٣ . ٧٧]
سورة "الصافات"		
٧٣٣	التعريف بسورة "الصافات"	.
٧٣٥	الله إله واحد	[٤ . ١]
٧٤٢	دلالة الآيات الكونية على توحيد الله تعالى	[١٠ . ٥]
٧٤٧	إثبات البعث وبيان أحوال الكافرين يوم القيامة	[٣٩ . ١١]
٧٦١	أحوال المؤمنين يوم القيامة	[٦١ . ٤٠]
٧٦٨	جزاء الكافرين فى الآخرة	[٧٤ . ٦٢]
٧٧٣	مع قصص سورة "الصافات"	.
٧٧٦	أولاً : قصة نوح عليه السلام	[٨٢ . ٧٥]
٧٧٩	ثانياً : قصة إبراهيم عليه السلام	[١١٣ . ٨٣]
٧٩١	ثالثاً : قصة موسى وهارون عليهما السلام	[١٢٢ . ١١٤]
٧٩٣	رابعاً : قصة إيلياس عليه السلام	[١٣٢ . ١٢٣]
٧٩٥	خامساً : قصة لوط عليه السلام	[١٣٨ . ١٣٣]
٧٩٧	سادساً : قصة يونس عليه السلام	[١٤٨ . ١٣٩]
٨٠١	رد مزاعم الكفار عن الملائكة	[١٦٣ . ١٤٩]
٨٠٩	طهارة الملائكة	[١٧٠ . ١٦٤]
٨١٤	وعد الله للمرسلين وعبادة المؤمنين	[١٨٢ . ١٧١]

سورة "ص"		
الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٨٢٣	التعريف بسورة "ص"	.
٨٢٦	إثبات وحدانية الله ورسالة النبي ﷺ	[١١ . ١]
٨٣٨	عاقبة المكذبين في الأمم السابقة	[١٦ . ١٢]
٨٤٣	قصة داود عليه السلام	.
٨٤٣	المقطع الأول : التعريف بداود عليه السلام	[٢٠ . ١٧]
٨٤٧	المقطع الثاني : درس- لداود عليه السلام في الحكم والقضاء	[٢٦ . ٢١]
٨٥٠	المقطع الثالث : خلافة الله في الأرض	[٢٦]
٨٥١	المقطع الرابع : تعقيب على قصة داود عليه السلام	[٢٩ . ٢٧]
٨٥٣	قصة سليمان عليه السلام	.
٨٥٣	المقطع الأول : التعريف بسليمان عليه السلام	[٣٠]
٨٥٤	المقطع الثاني : موقف سليمان عليه السلام من الخيل ..	[٣٣ . ٣١]
٨٥٦	المقطع الثالث : استجابة الله لدعاء سليمان عليه السلام	[٤٠ . ٣٤]
٨٥٨	قصة أيوب عليه السلام	[٤٤ . ٤١]
٨٦٠	قصة إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب . ، وإسماعيل واليسع ، وذى الكفل "عليهم السلام"	[٤٨ . ٤٥]
٨٦٢	تعقيب على قصص الرسل السابقين	[٧٠ . ٤٩]
٨٦٨	قصة خلق آدم عليه السلام	[٨٥ . ٧١]
٨٧٢	مهمة الرسول ﷺ	[٨٨ . ٨٦]
٨٧٧	الخاتمة	.
٨٨١	فهرس الموضوعات	.



الكتب المطبوعة للمؤلف :

- (١) دعوة الرسل إلى الله تعالى .
- (٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي .
- (٣) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني .
- (٤) القول الدقيق في سيرة وعصر الصديق ﷺ .
- (٥) نظم الدرر في سيرة وعصر عمر ﷺ .
- (٦) حسن البيان في سيرة وعصر عثمان ﷺ .
- (٧) القول الجلى في سيرة وعصر علي ﷺ .
- (٨) موسوعة في الأديان والنحل (دراسة موسوعية للأديان والمذاهب) .
- (٩) الدعوة الإسلامية . أصولها . ووسائلها من القرآن الكريم .
- (١٠) الدعوة الإسلامية في العصر الحديث .
- (١١) قواعد علم الخطابة وفقه الجمعة والعيدين .
- (١٢) الخطابة العملية .
- (١٣) النظام السياسى في الإسلام .
- (١٤) النظام الاقتصادى في الإسلام .
- (١٥) النظام الاجتماعى في الشريعة الإسلامية .
- (١٦) أصول الدعوة الإسلامية .
- (١٧) عوامل النجاح من خلال تجربة حية ، ونماذج رائدة .
- (١٨) الرسالة الغراء في تربية الأبناء .
- (١٩) خيال الروح في زمن الصبا (ديوان شعري ، كتب قبل ستين عاما) .
- (٢٠) ركائز القدوة في تفسير الدعوة . المجلد الأول .
- (٢١) ركائز القدوة في تفسير الدعوة . المجلد الثانى .
- (٢٢) ركائز القدوة في تفسير الدعوة . المجلد الثالث .

(٨٩٠)

- (٢٣) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الرابع .
- (٢٤) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الخامس .
- (٢٥) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد السادس .
- (٢٦) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد السابع .
- (٢٧) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثامن .
- (٢٨) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد التاسع .
- (٢٩) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد العاشر .
- (٣٠) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الحادى عشر .

والله ولى التوفيق ،،،